

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الرحمن في تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندي
(١٢٩١-١٣٧١هـ)

الجزء الثالث

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم

﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ

وَأَمَرَ قَوْمَكُمُ بِأَخْذِهَا بِحُسْنِهَا سَأَرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾

ثم بين الله تعالى فضائل التوراة ببيان ما فيها من العلوم إجمالاً بقوله : ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ التي كانت من زبرجد الجنة - على رواية (١) - ، أو زمرد أخضر - على أخرى (٢) - ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وعلم يحتاج إليه ، وكتبنا فيها ﴿مَوْعِظَةً﴾ كثيرة ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ وشرحاً وافياً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من المعارف والأحكام ، وقلنا : يا موسى ، إذا علمت ما في الألواح ﴿فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ﴾ في القلب ، أو بجذ وعزيمة ﴿وَأَمَرَ﴾ وحث ﴿قَوْمَكَ﴾ ومن تبعك ﴿يَأْخُذُوا﴾ ويعملوا ﴿بِحُسْنِهَا﴾ من عزائم أحكامها. وقيل : إن المراد من الأحسن : هو الحسن ؛ وهو كلها (٣) .

ثم وعظهم بقوله : ﴿سَأَرِيكُمْ دَارَ﴾ فرعون وقومه ، وسائر الأمم المهلكة الذين كانوا هم ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ والخارجين عن طاعة أحكامي ، كيف خربت وعفيت آثارها بعصيان لتعبدوا بها. قيل : يعني سادخلكم أرض مصر وأرض الجبابة والعمالقة بالشام. وعليه يكون فيه وعد وترغيب.

عن ابن عباس ، في تفسير ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال : هي جهنم ، أي فليكن ذكر جهنم حاضراً في خواطركم (٤) .

عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَمَا أَنْزَلَ الْأَلْوَابَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَهَا وَفِيهَا تَبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَوْدِعَ الْأَلْوَابَ - وهي زبرجدة من الجنة - جبلاً يقال له زينة ، فَأَتَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَبَلَ فَانْشَقَّ لَهُ الْجَبَلُ ، فَجَعَلَ فِيهِ الْأَلْوَابَ مَلْفُوفَةً ، فَلَمَّا جَعَلَهَا [فِيهِ] انْطَبَقَ الْجَبَلُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَزَلْ فِي الْجَبَلِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ ، فَأَقْبَلَ رَكَبٌ مِنَ الْيَمَنِ يَرِيدُونَ الرَّسُولَ ﷺ ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى الْجَبَلِ انْفَرَجَ الْجَبَلُ وَخَرَجَتِ الْأَلْوَابُ مَلْفُوفَةً كَمَا وَضَعَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَأَخَذَهَا الْقَوْمُ فَلَمَّا وَقَعَتْ فِي أَيْدِيهِمْ الْقِي فِي قُلُوبِهِمْ أَنْ لَا يَنْظُرُوا إِلَيْهَا وَهَابُوهَا حَتَّى يَأْتُوا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ [اللَّهُ] جِبْرِئِيلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِ الْقَوْمِ وَبِالَّذِي أَصَابُوهُ.

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٦٠ / ١٦١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٦ .

(٢) بصائر الدرجات ١٦١ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٢٤٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٤ : ٢٣٨ .

فلما قدموا على النبي ﷺ وا عليه ابتدأهم فسألهم عما وجدوه ، فقالوا : وما علمك بما وجدنا ؟ قال : أخبرني به ربّي ، وهو الألواح ، قالوا : نشهد أنك لرسول الله . فأخرجوها فدفعوها إليه ، فنظر إليها وقرأها وكانت بالعبرانية ، ثم دعا أمير المؤمنين عليه السلام فقال : دونك هذه ففيها علم الأولين والآخرين ، وهي ألواح موسى عليه السلام ، وقد أمرني ربّي أن أدفعها إليك ، فقال : لست احسن قراءتها ، قال : إن جبرئيل أمرني أن أمرك أن تضعها تحت رأسك ليلتك هذه ، فإتاك تصبح وقد علّمت قراءتها قال : فجعلها تحت رأسه ، فأصبح وقد علّمه [الله] كل شيء فيها ، فأمر رسول الله ﷺ بنسخها ، فنسخها في جلد ؛ وهو الجفر ، وفيه علم الأولين والآخرين ، وهو عندنا ، والألواح عندنا ، وعصا موسى عندنا ، ونحن ورثنا النبيين أجمعين » .

قال : « قال أبو جعفر : تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى عليه السلام تحت شجرة في واد يعرف بكذا » (١) .

وفي رواية : « أن الباقر عليه السلام عرّف تلك الصخرة ليماني دخل عليه » (٢) .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾

ثم هدّد الله سبحانه الكفار المنكرين للتوراة بقوله : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ﴾ التفكر في ﴿آيَاتِي﴾ الدالة على توحيدى وكمال قدرتي - من إهلاك الامم الماضية بكفرهم وعصيانهم ، وعن النظر في معجزات موسى عليه السلام وكتابه - الكفار ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويترفعون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ على الأنبياء والمؤمنين بهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ واستحقاق ، ويرون أنفسهم أفضل وأشرف من الرسل ، مع أنه لا فضل لهم ولا شرف ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ﴾ وحجة على توحيد الله ، أو معجزة دالة على رسالة رسله ، أو من آيات التوراة ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ولا يصدقوها ولا ينقادوا لها ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ ويطلعوا على طريق الحق ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ ولا يختاروه لأنفسهم ﴿سَبِيلًا﴾ ومسلكا لانطباع قلوبهم ، واستيلاء الشيطان عليهم ، وتمترنهم على الانحراف ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ وطريق الضلال والمذهب ﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ لسلوك أنفسهم ﴿سَبِيلًا﴾ لا يعدلون عنه لموافقته لأهوائهم الزائغة ، وإفضائه إلى مشتهياتهم الباطلة .

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٦٠ / ١٦١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٧ .

(٢) بصائر الدرجات : ١٦٢ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٨ .

عن القمّي رحمه الله : إذا رأوا الإيمان والصدق والوفاء والعمل الصالح لا يتخذونه سبيلا ، وإن يروا الشرك والزنا والمعاصي يأخذوا بها ويعملوا بها (١) .

﴿ذَلِكَ﴾ الحزى والتكبر والانحراف عن الحق حصل لهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا﴾ وكفروا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الدين الحق وسبيل الرشاد ﴿وَكَانُوا عَنْهَا﴾ معرضين كأثم كانوا عنها ﴿غَافِلِينَ﴾
﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

ثم بالغ سبحانه في تهديد عموم المكذّبين بآياته من الأولين والآخرين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ والحشر إلى دار الجزاء ﴿حَبِطَتْ﴾ وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحسنات التي عملوها مدة أعمارهم في الدنيا ؛ من صلة الأرحام ، والإحسان إلى الفقراء والأيتام ، وغيرها من الخيرات ، فلا يصلون بها إلى الصواب ، ولا يتخلصون بها من العذاب ، لاشرط قبولها بالإيمان بالمبدأ والمعاد ورسالة الرسل.

ثم نبّه سبحانه على أن عقوبته وحزبه إنما يكون استحقاقهما بسبب سيئات الأعمال ، لا للتشقي وغيره من الأغراض ، بقوله : ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ هؤلاء المكذّبون جزاء ﴿إِلَّا﴾ على ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ وهل يعاقبون إلا على ما كانوا يرتكبون من الكفر والمعاصي ومعارضة الرسل ومعاندة الحق ، لا والله لا يجزون إلا على أعمالهم السيئة وعقائدهم الفاسدة.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَغْدِهِ مِنْ خَلِيَّتِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ

لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨)

ثم أنه تعالى بعد ما بيّن غاية جهل بني إسرائيل بسؤالهم من موسى عليه السلام - بعد عبورهم في بلاد العمالة ، وإطلاعهم على عبادتهم الأصنام - أن يجعل لهم صنما يعبدونه ، ذكر أتهم لغاية جهلهم آل أمرهم إلى أن عبدوا العجل واتخذوه إلها ، بقوله : ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى﴾ وأغلب قبيلة بني إسرائيل ؛ وهم كانوا سبعمائة ألف أو ستمائة ألف ﴿مِنْ بَغْدِهِ﴾ وبعد ذهابه إلى الميقات ، لغاية جهلهم ﴿مِنْ خَلِيَّتِهِمْ عِجْلًا﴾ قيل : سمي ولد البقر به لاستعجال بني إسرائيل عبادته. وكان ذلك العجل ﴿جَسَدًا﴾ ذا لحم ودم ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ وصوت كصوت البقر.

(١) تفسير القمي ١ : ٢٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٨ .

قيل : إنّ موسى ﷺ وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوما ، فلمّا تأخّر رجوعه قال لهم السّامريّ - وكان رجلا من قرية يقال لها سامرة ، وكان مطاعا في بني إسرائيل ذا قدر - : إنّكم أخذتم الحليّ من آل فرعون فعاقبكم الله بتلك الخيانة ، ومنع موسى عنكم. وذلك أنّ بني إسرائيل كان لهم عيد يترتّبون فيه ويستعبرون الحليّ من القبط ، فاستعاروا حليّ القبط لذلك ، فلمّا أغرق الله القبط بقيت تلك الحليّ في أيدي بني إسرائيل ، فقال لهم السّامريّ : اجمعوا الحليّ حتّى احرقها لعلّ الله يرّد علينا موسى ^(١)

وقيل : سألوهم إلها يعبدونه ، وقد كان لهم ميلا إلى عبادة البقر منذ مرّوا على العمالقة الذين كانوا يعبدون تماثيل البقر ، فجعل السّامريّ الحليّ بعد جمعها في التّار ، وصاغ لهم من ذلك عجلا لأنّه كان صائغا ، وألقى في فمه ترابا أخذه من أثر فرس جبرئيل ؛ وكان ذلك الفرس فرس الحياة ما وضع حافره على شيء إلّا اخضرّ ، وكان قد أخذ ذلك التّراب عند فلق البحر ، أو عند توجّهه إلى الطّور ، فانقلب ذلك الجسد لحمًا ودمًا ، وظهر منه خوار وحركة ومشى ، فقال السّامريّ : هذا إلهكم وإله موسى ، فعبدوه إلّا اثني عشر ألفا من ستمائة ألف ^(٢) .

وقيل : إنّّه جعل ذلك العجل مجوّفا ، وجعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص ، وكان [قد وضع التّمثال على مهبّ الرّيح ، تدخل من تلك الأنابيب ، فظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل ، فأوهم بني إسرائيل أنّه هو يخور ^(٣) .
أقول : هذا مخالف للقرآن والأحاديث.

ثمّ وبّخ الله بني إسرائيل على عبادتهم ذلك العجل وقولهم بالوهيّة بقوله : ﴿لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بكلام البشر ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ إلى الخير ﴿سَبِيلًا﴾ ولا يرشدهم إلى الحقّ طريقا ، مع أنّ الله يكلم موسى ﷺ ويشرّع الشّريعة الموصلة إلى كلّ خير ، وهم مع الوصف لغاية جهلهم ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها وحسبوه خالقا معبودا ﴿وَكَانُوا﴾ في عبادتهم تلك ﴿ظَالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقّه وحطّ شأنه ، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

(١ و ٢ و ٣) . تفسير روح البيان ٣ : ٢٤٢ .

﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا
فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٤٩) و (١٥١)﴾

ثمّ أتهمّ ندموا من عملهم الشّنيع بسعي هارون ومواعظه البليغة ﴿وَلَمَّا سَقَطَ﴾ رؤوسهم ﴿فِي
أَيْدِيهِمْ﴾ وندموا. قيل : إنّ السّقوط في اليد كناية عن شدّة الندامة ؛ لأنّ النادم يضع غالبا رأسه على يده
(١) ﴿وَرَأَوْا﴾ وتبينوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الطريق الحقّ بعبادتهم العجل حتّى كأتهمّ لشدّة وضوحه عاينوه
بأبصارهم ﴿قَالُوا﴾ تحسّرا وندامة : والله ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا﴾ ويتفضّل علينا ﴿رَبُّنَا﴾ بإنعامه ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾
ويتجاوز عن خطيئتنا بكرمه ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ألبتّة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والهالكين.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى﴾ من الميقات ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾ حال كونه ﴿غَضَبَانَ﴾ عليهم لعبادتهم العجل
﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن ، لأنّ الله فتنهم ، ثمّ وتجنّهم و﴿قَالَ﴾ : يا قوم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ وساء ما عملتم
﴿مِن بَعْدِي﴾ وفي زمان غيبي وذهابي إلى ميقات ربّي ، حيث عبدتم العجل وأشركتم بالله ، أو بعد ما
رأيتم منّي التّوحيد ونفي الشّريك عن الله.

ثمّ لاهمهم على ترك انتظارهم رجوعه بقوله : ﴿أَعْجَلْتُمْ﴾ وتركتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ بتوحيده وحفظ
عهدي وانتظار رجوعي ﴿وَأَلْقَى﴾ من يده ﴿الْأَلْوَحَ﴾ وطرحها على الأرض من شدّة غضبه لله ، وفرط
انضجاره من قومه حميّة للدين.

روي أنّه لما ألقاها انكسرت فذهب بعضها (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّ منها ما تكسّر ، ومنها ما بقي ، ومنها ما ارتفع » (٣) .
وعن الباقر عليه السلام : أنّه عزّف يمانيّ صخرة باليمن ، ثمّ قال : « تلك الصخرة التي التقمت ما
ذهب من التّوراة حين ألقى موسى عليه السلام الألواح ، فلمّا بعث الله رسوله ﷺ أدّته إليه وهي عندنا » (٤) .
وروي أنّها كانت سبعة أسباع ، فلمّا ألقى الألواح تكسّرت فرفع منها ستّة أسباع وبقي سبع
[واحد] ، وكان فيما رفع تفصيل كلّ شيء ، وفيما بقي الهدى والرحمة (٥) .

وعن النّبي ﷺ : « رحم الله أخي موسى ، ليس المخبر كالمعائن ، لقد أخبره الله بفتنة قومه ،
ولقد عزّف أن ما أخبر به حقّ ، وأنّه على ذلك لمتمسك بما في يديه ، فرجع إلى قومه وآهم ، فغضب

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٨ .

(٢) تفسير الصّافي ٢ : ٢٣٩ .

(٣) بصائر الدرجات : ١٦١ / ٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ٢٣٩ .

(٤) بصائر الدرجات : ١٥٧ / ٧ ، تفسير الصّافي ٢ : ٢٣٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ١١ .

وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ» (١) .

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون وبشعره ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ عن الصادق عليه السلام : « وذلك لأنه لم يفارقهم لما فعلوا ذلك ، ولم يلحق موسى عليه السلام ، وكان إذا فارقهم ينزل بهم العذاب (٢) . وقيل : إنه جرّه إلى نفسه ليساره ويستكشف كيفية تلك الواقعة .

إذن اعتذر هارون و﴿قَالَ﴾ استعطافاً له : يا ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ﴾ لشدة حرصهم على عبادة العجل ﴿اسْتَضَعُّونِي﴾ واستحقروني ولم يعتنوا إلى قولي ﴿وَكَاذِبُوا يَفْتُلُونَنِي﴾ إن منعتهم عنها ، ولم يكن لي من العدة ما أقهرهم على تركها وأدفعهم عن نفسي ، ومع ذلك لم أقصر في إنذارهم ووعظهم ﴿فَلَا تُشِمِتْ بَنِي الْأَعْدَاءِ﴾ بإظهار الغضب عليّ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ في استحقاق العقوبة شريكاً ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بعبادة العجل .

عن الصادق عليه السلام : « لم يقل يابن أبي ؛ لأنّ بني الأب إذا كانت أمهاتهم شتى لم تستبعد العداوة بينهم إلّا من عصمه الله منهم ، وإنّما تستبعد العداوة بين بني أم واحدة » (٣) . وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أنّه كان أخاه لأبيه وأمه » (٤) .

وقيل : إنّ كان أكبر من موسى عليه السلام بثلاث سنين ، وكان حمولاً (٥) لينا (٦) .

فقبل موسى عليه السلام عذره وتلطّف به و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صدر منّي من الغضب على هارون ﴿وَلَأَخِي﴾ هارون ما صدر منه من الإقامة في القوم ، وترك التشديد على عبدة العجل ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الواسعة والجنة ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَأْلَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾

ثمّ أعلن الله سبحانه بغضبه على عبدة العجل وسوء عاقبة عملهم الشنيع بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ومعبوداً لأنفسهم من دون الله ﴿سَيَأْلَهُمْ﴾ ويصيبهم ﴿غَضَبٌ﴾ شديد ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ومالك أمورهم . قيل : هو ما امروا به من قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ﴾ وخزي ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قيل : هو خروجهم من ديارهم ، وقيل : هي الجزية ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء الفطيع ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ علينا القائلين بأنّا شاركنا العجل في الألوهية .

(١) مجمع البيان ٤ : ٧٤١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٣٩ .

(٢) و (٣) . علل الشرائع : ٦٨ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٠ .

(٤) الكافي ٨ : ٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٠ .

(٥) الحمول : الحليم الصبور .

(٦) تفسير الصافي ٢ : ٢٤٠ .

قيل : إنّ المراد من الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ : هم الَّذِينَ أَصْرَوْا على عبادته ولم يتوبوا عنها ؛ كالسامريّ وأضرابه من الَّذِينَ اشربوه في قلوبهم ، ومن الغضب : عذاب الآخرة ، ومن الذلّة : الاغتراب والمسكنة الدائمة.

روي أنّ موسى عليه السلام همّ بقتل السامريّ ، فأوحى الله إليه : لا تقتله فإنّه سخيّ ، ولكن أخرجه من عندك ، فقال له موسى عليه السلام : فاذهب من بيننا مطرودا فإنّ لك في الحياة - أي في عمرك - أن تقول لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك : [لا مساس ، أي] لا يمسنّني أحد ^(١) .
وفي (الكافي) : عن الباقر عليه السلام أنّه تلا هذه الآية فقال : « فلا نرى صاحب بدعة إلّا ذليلا ، ولا مفتريا على الله وعلى رسوله وأهل بيته إلّا ذليلا » ^(٢) .

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٣) و (١٥٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إظهار الغضب على غير التائبين من عبدة العجل ، أعلن برحمته على العصاة التائبين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ كبيرة كانت أو صغيرة ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ منها ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ ما دامت حياتهم باقية ﴿وَآمَنُوا﴾ برّبهم إيمانا خالصا من شوب الشرك والتفان ، وعملوا بمقتضى الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وراء الأعمال السيئة ، أو التوبة ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ والله ﴿لَغَفُورٌ﴾ للذنوب وإن كثرت وجلّت ﴿رَحِيمٌ﴾ بعبادة التائبين ، مفيض عليهم بالخيرات الدنيوية والأخروية.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان غضب موسى عليه السلام على عبدة العجل وعمله حاله ، بيّن سكون غضبه ، واعتذار هارون ، وتوبة قومه من عصيانهم وعمله حينه بقوله : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ وسكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ لاعتذار أخيه ، وتوبة قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألقاها حين الغضب من يده ، واستنسخ منها التوراة ﴿وَفِي نُسُخَتِهَا﴾ والكتاب الذي كتبوا منها ﴿هُدًى﴾ وإرشاد إلى كلّ حقّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ وخير عظيم ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ومن عصيانه يتّقون ، ومن عذابه يخافون.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٤٧ .

(٢) الكافي ٢ : ١٤ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤١ .

﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾

ثمَّ أنَّ الله تعالى أمر موسى ﷺ أن يأتي بسبعين من خيار بني إسرائيل للاعتذار عن عصيان قومهم ، وفي الوقت الذي عينه الله ﷻ ﴿و﴾ أن ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ وانتخب منهم ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ والموعود الذي وعدناهم فيه ، ليعتذروا من عبادة قومهم العجل.

قيل : إنَّ موسى ﷺ اختار من كلِّ سبط - وكانوا اثني عشر - ستَّة رجال ، فزاد اثنان على السبعين ، فقال موسى ﷺ : ليتخلف منكم رجلان فيأتي امرت بسبعين ، فتنازعوا فقال : إنَّ لمن قعد أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع وذهب موسى ﷺ مع الباقيين ..

عن الرضا ﷺ : « أنَّ السبعين لما صاروا [معه] إلى الجبل قالوا له : إنَّك قد رأيت الله ، فأرناهُ كما رأيته ، فقال : إني لم أره ، فقالوا : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾^(١) فاحترقوا عن آخرهم » الخبر^(٢) .

وقيل : أخذتهم الرجفة فصعقوا وماتوا.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ بما أجترأوا على الله من طلب الرؤية ، واحترقوا وماتوا ، وبقي موسى ﷺ وحيدا فقال : يا ربِّ ، اخترت سبعين رجلا من بني إسرائيل وجئت بهم ، فإن أرجع إليهم وحدي كيف يصدّقوني بما أخبرهم به ؟ ﴿قَالَ﴾ تذكّرا للعفو السابق لاستجلاب العفو اللاحق : ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ حين مخالفتهم التّهي عن عبادة العجل ﴿وَأَيَّايَ﴾ حين سألتك الرؤية.

وقيل : إنّه تمّ لهلاكهم وهلاك نفسه قبل أن يرى ما اري ، لخوفه من تهمّة بني إسرائيل بقتلهم. ثمَّ استعطف من الله بإنكار إهلاكهم عليه مع غاية لطفه وسعة رحمته بقوله : ﴿أَأَهْلَكُنَا﴾ يا ربِّ ﴿بِمَا فَعَلَّ السُّفْهَاءُ مِنَّا﴾ من سؤالهم رؤيتك ﴿إِنْ هِيَ﴾ وما هذه الفتنة والبليّة ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وابتلاء من قبلك ؛ حيث إنَّك أسمعهم كلامك فافتتنوا بذلك ، فطمعوا في رؤيتك ، وأنت ممتحن عبادك بالفتن و﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ بحسب خبث ذاته - ضلالته ﴿وَتَهْدِي﴾ وتثبت على الحقّ ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ - لطيب ذاته - هدايته وثباته ، فلا تزلّ قدمه بفتنتك ، بل يزيد إيمانه ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ والمدبّر لامورنا بحكمتك ولطفك لا مدبّر لنا غيرك ، إذن ﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما فرّطنا في جنبك من الخطايا والزّلل ﴿وَارْحَمْنَا﴾ بإفاضة الخيرات علينا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ تغفر الذّنوب وتبدّل السيّئات بالحسنات.

(١) البقرة : ٢ / ٥٥ .

(٢) التوحيد : ٤٢٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤١ .

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾

فلما رأى موسى ﷺ أنّ الله تعالى أحيا السبعين بدعائه ، بالغ في الدعاء بقوله : ﴿وَأَكْتُبْ﴾ يا ربّ وأوجب عليك ﴿لَنَا﴾ بكرمك ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ ما دمنّا فيها امورا ﴿حَسَنَةً﴾ من السّعة في الرّزق ، والرغد في العيش ، والتوفيق للطّاعة ﴿وَفِي﴾ عالم ﴿الْآخِرَةِ﴾ أيضا الامور الحسنة من النّجاة من العذاب ، والفوز بالجنّة والنعم الدائمة يا مولاي ﴿إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾ وعرفناك بكمال الصّفات ، وسعة الرّحمة والمغفرة ، وسؤال الحوائج منك ، وإنا نرجو منك العفو عن زلّاتنا ونعتذر إليك من خطيئتنا.

فأوحى الله إلى موسى ﷺ بقوله : ﴿قَالَ عَذَابِي﴾ في الدّنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما ﴿أُصِيبُ بِهِ﴾ وانزله على ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه على حسب استحقاقه ، ﴿وَلَكِنْ﴾ لكن ﴿رَحْمَتِي﴾ ونعمتي وإحساني في الدّنيا ﴿وَسِعَتْ﴾ وشملت ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الجمادات والنباتات والحيوانات ، والمؤمنين والكفار بعد موتهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها واديمها في الآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشّرك والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ من أموالهم إلى الفقراء والمصارف المقرّرة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ، ورسالة رسولنا ﴿يُؤْمِنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان اختصاص رحمته في الدارين بالمتّقين المزيّن المؤمنين بالآيات ، بيّن اختصاص المؤمنين بخاتم الأنبياء بتلك الصّفات بقوله : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ مختصّون بالرّحمة الدائمة ، فلا تشمل اللاحقين من بني إسرائيل إلّا إذا التزموا باتباعه.

وعن (الكافي) : عن أحدهما عليه السلام : « الرسول : الذي يظهر له الملك فيكلمه ، والنبي : هو

الذي يرى

في منامه ، وربما اجتمعت النبوة والرسالة في واحد » (١) .

وقيل : في توصيفه ب « الرسول » إشعار بأنه صاحب كتاب ، وب « النبي » إيماء إلى أنه صاحب المعجزة.

وقيل : إنما سمّاه رسولا بالإضافة إلى الله ، نبيا بالإضافة إلى الخلق (٢) .

وعن الزجاج : معنى الامي الذي هو على صفة امه العرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنا أمة امية ؛ لا نكتب ولا نحسب » فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون (٣) .

ومن المعلوم أن كونه اميا بهذا المعنى من أعظم معجزاته ، فإنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما بأنه ربما طالع كتب الأولين والآخرين. فحصل هذه العلوم بتلك المطالعة ، فلما أتى بالقرآن العظيم المشتمل على علوم الأولين والآخرين من غير تعلّم ومطالعة ، كان ذلك من جملة معجزاته الباهرة.

وقيل : إن المراد من الامي : المنسوب إلى ام القرى.

عن (المجمع) : عن الباقر عليه السلام أنه سئل لم سمّي النبي بالامي ؟ قال : « نسب إلى مكة ، وذلك من قول الله : ﴿وَلَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ » (٤) وأم القرى مكة ، فقيل امي لذلك » (٥) .

وعن الجواد عليه السلام أنه سئل عن ذلك ، فقال : « ما يقول الناس ؟ » قيل : يزعمون أنه إنما سمّي بالامي لأنه لم يحسن أن يكتب الخط ، فقال : « كذبوا لعنهم الله ، أتى ذلك والله يقول : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ » (٦) فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن ، والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين - أو قال : ثلاثة وسبعين - لسانا ، وإنما سمّي الامي لأنه كان من أهل مكة ، ومكة من امهات القرى ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿لَنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ » (٧) .

ثم استدلل سبحانه على صحة نبوته بقوله : ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ عن الباقر عليه السلام : « يعني اليهود والنصارى ، صفة محمد صلى الله عليه وسلم واسمه [مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل] » (٨) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « قال يهودي لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني قرأت نعتك في التوراة (محمد بن عبد الله مولده بمكة ، ومهاجره بطيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سحر (٩) ولا متزين بالفحش ولا قول

(١) الكافي ١ : ١٣٥ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٥١ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٢٣ .

(٤) الأنعام ٦ : ٩٢ .

(٥) مجمع البيان ٤ : ٧٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٢ .

(٦) الجمعة ٦٢ : ٢ .

(٧) علل الشرائع ١٢٤ : ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٢ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ١٦٤ / ١٦٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٢ .

(٩) في أمالي الصدوق : ولا صخاب .

الحنا) وأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأتلك رسول الله ، هذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله » ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « لما انزلت التوراة على موسى عليه السلام بشّر بمحمد ﷺ » قال : « فلم تنزل الأنبياء تبشّر به حتى بعث الله المسيح عيسى بن مريم فبشّر بمحمد ، وذلك قوله : ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يعني اليهود ، [والنصارى] ﴿مَكْتُوباً﴾ يعني صفة محمد ﴿عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ وهو قول الله عز وجل يخبر عن عيسى : ﴿وَمُبَشَّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ^(٢) .

روي « أن موسى ناجاه ربه تعالى فقال له في مناجاته : اوصيك يا موسى وصية الشفيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم ، ومن بعده ؛ بصاحب الحمل الأحمر ، الطيب الطاهر المطهر ، فمثلته في كتابك أنه مهيم على الكتب كلها ، وأنه راعك ساجد راغب راهب ، إخوانه المساكين ، وأنصاره قوم آخرون » ^(٣) .

أقول : لو فرضنا أنه لم توجد رواية في وجود اسمه في الكتابين لعلمنا بوجوده فيهما ؛ لأنه لو لم يكن مع صراحة القرآن بوجوده ووجود نعوته فيهما لأنكر عليه أهل الكتاب ، وصار كذبه أظهر من الشمس في رابعة ^(٤) النهار.

ثم عدّ سبحانه من صفاته الكريمة المكتوبة في الكتابين أنه ﷺ ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويحثهم على العمل بالمحسنات العقلية ﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ويزجرهم عن القبائح ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ واللذائذ التي لا خساسة فيها ولا ضرر ؛ من المأكولات والمشروبات ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْغَبَايِثَ﴾ وما تنفّر منه الطباع ، وما يتضرر منها ﴿وَيَضَعُ﴾ ويرفع ﴿عَنْهُمْ﴾ بإتيان الحنفية السهلة السمحة ﴿إِصْرَهُمْ﴾ والتكاليف الوجوبية الشاقة عليهم ؛ كوجوب قرض موضع التجاسة من الثوب والبدن ﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ والمحرمات الشاقة ؛ كحرمة العمل يوم السبت ، وأخذ الدية في القتل ، وحرمة التصرف في الغنائم ، وحرمة الشحوم ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ وبما جاء به ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ وعظموه بإطاعة أوامره ونواهيته والتسليم لأحكامه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ وأعانوه على أعدائه وفي ترويج دينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ وهو القرآن ﴿الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ﴾ وعن الصادق عليه السلام : « النور في هذا الموضع علي والأئمة عليهم السلام » ^(٥) ، وقيل : إنه الهدى والبيان والرسالة ^(٦)

و

[قيل : الحق الذي ظهوره في القلوب كظهور

(١) أمالي الصدوق : ٥٥٢ / ٧٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٣ .

(٢) الكافي ٨ : ١١٧ / ٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٣ ، والآية من سورة الصف : ٦١ / ٦ .

(٣) الكافي ٨ : ٤٣ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٣ .

(٤) في النسخة : رابعة.

(٥) الكافي ١ : ١٥٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٢٥ .

﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون المتَّبِعُونَ ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بأعلى المقاصد من التَّجاة من التَّار والدَّخول في الجنَّة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨)

ثمَّ أنَّه تعالى - بعد إثبات رسالة رسوله بالإخبار بوجود اسمه وصفاته في الكتب السماوية ،
وبكون شريعته أكمل وأسهل من الشرائع السابقة ، وبيان أفضليَّة تابعيه على سائر الأمم ، والوعد
بالفلاح على الإيمان به والعمل بكتابه - أمر نبيِّه ﷺ بإعلام النَّاس هموم رسالته بقوله : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ﴾ من العرب والعجم ، والأبيض والأحمر والأسود ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسلني ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾
عن الحسن المجتبي عليه السلام : « أنَّه جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمَّد ، أنت
الذي تزعم أنَّك رسول الله ، وأنَّك الذي يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران ، فسكت النبي
ساعة ثم قال : نعم ، أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، ورسول ربِّ العالمين .
قالوا : إلى من ، إلى العرب ، أم إلى العجم ، أم إلينا ؟ فأنزل الله هذه الآية « (٢) .

ثمَّ أمره الله تعالى بإظهار كمال معرفته به بالصِّفات التي فيها دليل صحَّة دعواه بقوله : ﴿الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، ويعطي الملك من يشاء وينزعه ممَّن يشاء ﴿لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ﴾ لا شريك له في الألوهية والربوبية حتَّى يزاحمه في إنفاذ إرادته ، ولا ندَّ له حتَّى يقهره في سلطانه ،
القادر الحي الذي ﴿يُحْيِي﴾ الأموات ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء .

فإذا كان كذلك كان عليه إحياء القلوب بمعارفه ، وتربية الأرواح بالأمر بالعبادات وتحذيب
الأخلاق ، كي يستعدّوا لقبول فيوضاته ، ولا يمكن ذلك إلَّا بإرسال رسول يهديهم إلى الحقِّ وما به الحياة
الروحانيَّة والكمالات المعنويَّة ، وأنا ذلك الرسول ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيَّته ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ ومرَّ
تفسيره (٣) ﴿الَّذِي﴾ هو لكامل عقله وعلمه ﴿يُؤْمِنُ﴾ بشرائره (٤) ﴿بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ التي أنزلت إليه وهي
القرآن العظيم . وقيل : معجزاته الكثيرة ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله ، وانقادوا

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢٥ .

(٢) أمالي الصدوق : ٢٥٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٣ .

(٣) تقدم في الآية (١٥٧) من تفسير هذه السورة .

(٤) الشَّراشر : الجسم بمجملته .

لأوامره ونواهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى خير ، وتسعدون في الدنيا والآخرة.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾

ثم بين سبحانه حسن اتباع طائفة من بني إسرائيل لدين موسى ﷺ ترغيباً لامة خاتم النبيين ﷺ في اتباعه بقوله : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ وجماعة مهتدون يتبعون موسى ﷺ ، وهم مع اهتدائهم في أنفسهم ﴿يَهْدُونَ﴾ غيرهم من سائر الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ وبكتابه الناطق به إلى الحق ، والذين المرضي عند الله ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام الجارية بينهم.

قيل : إن الأشهر بين المفسرين أن هذه الامة قوم من بني إسرائيل وراء الصّين بأقصى المشرق ، وذلك أنّ بني إسرائيل لما بالغوا في العتوّ والطغيان بعد وفاة موسى ﷺ وخليفته يوشع حتى اجتروا على قتل الأنبياء ، ووقع الهرج والمرج ، تبرأ سبط منهم ممّا صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله تعالى أن يفرّق بينهم وبين أولئك الطّاغين ، ففتح الله لهم - وهم في بيت المقدس - نفقا في الأرض ، وجعل أمامهم المصاييح فساروا ومعهم نهر من ماء يجري ، وأجرى الله عليهم أرزاقهم ، فساروا فيه على هذا الوجه سنة ونصف سنة حتّى خرجوا من وراء الصين [إلى أرض] بأقصى المشرق طاهرة طيبة فنزلوها ، وهم مختلطون بالسّباع والوحوش والهوام لا يضرّ بعضهم بعضا ، وهو متمسكون بالتّوراة مشتاقون إلى الإسلام ، لا يعصون الله طرفة عين أبدا ، تصافحهم الملائكة ، وهم في منقطع من الأرض لا يصل إليهم أحد ممّا ولا أحد منهم إلينا ؛ إمّا لأنّ بينهم وبين الصّين واديا جاريا من رمل يمنع النّاس من إتيانهم ، كما عن ابن عبّاس. أو نهر من شهد ، كما عن السّدي. فاتّهم كني أب واحد ليس لاحد [منهم] مال دون صاحبه ، يمتطرون بالليل ويضحون ^(١) بالتهار ، ويزرعون ويحصدون جميعا فيضعون الحاصل في أماكن من القرية ، فيأخذ كلّ منهم قدر حاجته ويدع الباقي ^(٢) .

روي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل ليلة المعراج : « إني أحبّ أن أرى القوم الذين أثنى الله عليهم بقوله : ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فقال : إن بينك وبينهم مسيرة ستّ سنين ذهابا ، وستّ سنين إيابا ، ولكن سل ربّك حتّى يأذن لك ، فدعا النبي ﷺ وأمن جبرئيل ، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل أنّه أجيب إلى ما سأل ، فركب البراق فخطا خطوات فإذا هو بين أظهر القوم ، فسلم عليهم وردّوا عليه سلامه ، وسألوه : من أنت ؟ فقال : « أنا النّبي الأمّي » ، قالوا : أنت الذي بشّر بك موسى

(١) ضحى يضحو : برز للشمس ، ضحى يضحى : أصابه حرّ الشمس.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٥٩ .

وأوصانا بأن قال لنا : من أدرك منكم أحمد فليقرى عليه مّي السّلام فرّد رسول الله عليه سلامة ، وقالوا : فمن معك ؟ قال : « أو ترون » ، قالوا : نعم ، قال : « هو جبرئيل » . قال : « فرأيت قبورهم على أبواب دورهم فقلت : فلم ذلك ؟ » قالوا : أحذر أن نذكر الموت صباحا ومساء ، فقال : « أرى بنيانكم مستويا ؟ » قالوا : ذلك لئلا يشرف بعضنا على بعض ، ولئلا يسدّ أحد على أحد الرّيح والهواء . قال : « فما لي لا أرى لكم قاضيا ولا سلطانا ؟ » قالوا : إذا أنصف بعضنا بعضا ، وأعطينا الحقّ فلم نحتج إلى قاض ينصف بيننا . قال : « فما لي أرى أسواقكم خالية ؟ » قالوا : نزرع جميعا ونحصد جميعا ، فيأخذ كلّ أحد منّا ما يكفيه ويدع الباقي لأخيه ، فلا نحتاج إلى مراجعة الأسواق . قال : « فما لي أرى هؤلاء القوم يضحكون ؟ » قالوا : مات لهم ميت فيضحكون سرورا بما قبضه الله على التّوحيد . قال : « فما هؤلاء القوم يبكون ؟ » قالوا : ولد لهم مولود ، [فهم] لا يدرون على أيّ دين يقبض فيغتّمون على ذلك .

قال : « فإذا ولد لكم ذكر ، فماذا تصنعون ؟ » قالوا : نصوم لله شكرا شهرا . قال : فالانثى ؟ قالوا : نصوم لله شكرا شهرين . قال : « ولم ؟ » قالوا : لأنّ موسى عليه السلام أخبرنا أنّ الصبر على الانثى أعظم أجرا من الصبر على الذكر . قال : « أفترنون ؟ » قالوا : وهل يفعل ذلك أحد ، لو فعل ذلك أحد حصبته السّماء ، وخسفت به الأرض من تحته . قال : « أفترابون ؟ » قالوا : إنّما يراي من لا يؤمن برزق الله . قال : « أفتمرضون ؟ » قالوا : لا نمرض ولا نذنب ، إنّما تذب اقّتك فيمرضون ليكون كفارة لذنوبهم . قال : « هل في أرضكم سباع وهوام ؟ » قالوا : نعم ، تمر بنا وتمر بها ، ولا تؤذينا ولا تؤذيها . ففرض رسول الله ﷺ شريعته والصلوات الخمس عليهم ، وعلمهم الفاتحة وسورا من القرآن . وعن الحدّادي : أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، ولم يكن يومئذ نزلت فريضة غير الصلاة والزّكاة ، فأمرهم بالصلاة والزّكاة ، وأن يتركوا تحريم السّبب ويجمعوا ، وأمرهم أن يقيموا مكائهم . فهم اليوم هناك حنفاء مسلمون مستقبلون قبلتنا ^(١) .

أقول : هذا يؤيّد القول بأنّ قبلة النبي ﷺ كانت قبل الهجرة هي الكعبة . وعن الباقر عليه السلام : « أنّ هذه الآية في قوم من وراء الصّين ، بينهم وبين الصّين واد جار من الرّمّل ، لم يغيروا ولم يبدّلوا ، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه ، يمتطرون بالليل ويضحون بالنهار ويزرعون ، لا يصل إليهم أحد منّا ولا منهم إلينا أحد ، وهم على الحقّ » ^(٢) . قال في (المجمع) : وقيل : إنّ جبرئيل انطلق بالنبي ﷺ ليلة المعراج إليهم ، فقرأ عليهم من القرآن عشر سور نزلت بمكة فأمنوا به وصدّقوه ، وأمرهم أن يقيموا مكائهم ويتركوا السّبب ، وأمرهم

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٦٠ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٧٥٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٤ .

بالصلاة والزكاة ، ولم تكن نزلت فريضة غيرهما ، ففعلوا ^(١) .

قال : وروى أصحابنا أنهم يخرجون مع قائم آل محمد ﷺ . وروي أن ذا القرنين رآهم ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « قوم موسى هم أهل الإسلام » ^(٣) .

وقيل : إنهم قوم مشوا على دين الحق الذي جاء به موسى عليه السلام ، ودعوا الناس إليه ، وصانوه عن التحريف والتبديل في زمن تفرق بني إسرائيل وإحداثهم البدع ، ويجوز أن يكونوا أقاموا على ذلك إلى أن جاء المسيح فدخلوا في دينه ، ويجوز أن يكونوا هلكوا قبل ذلك ^(٤) .

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا اَمَّا وَاَوْحِنَا اِلَى مُوسَى اِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ
اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اِثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ
مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان حسن حال متبعي موسى عليه السلام من بني إسرائيل ، بين سوء حال بقيتهم وكفرانهم النعم التي أنعمها عليهم بقوله : ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ اِثْنَيْ عَشَرَ اَسْبَاطًا﴾ فصاروا ^(٥) وصيروناهم شعبا ، فصاروا ^(٦) قبائل ، كل قبيلة منهم من نسل ولد من أولاد يعقوب ، يسمون باسم أبيهم الأعلى ، وجعلناهم ^(٧) وجماعات متميزة.

قيل : إنه تعالى سمى كل سبط أمة لكثرة عددهم . وقيل : لأن كل سبط يؤم غير الذي يؤم الأسباط الأخر ، بحيث لا يكاد توافقهم في أمر لتباغظهم وتعصبهم ، فأنعم الله عليهم بهذا التفريق والتقطيع لتنظيم أمورهم وبتيسر عيشتهم ^(٨) .

ثم ذكر سبحانه نعمته الأخرى عليهم بقوله : ﴿وَاَوْحِنَا اِلَى مُوسَى﴾ في التيه ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^{(٩٨٣)</}

الابتداء قليلا ثم واسعا.

ثم حصّ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** كلَّ عين بسبط ، و**﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾** وسبط **﴿مَشَرِبُهُمْ﴾** والعين التي حصّت بهم ، حتّى لا يخالطهم فيها غيرهم ، ولا يقع النزاع بينهم لغاية العصبيّة التي كانت لهم **﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾** وجعلنا فوقه السحاب يسير في التّيه بسيرهم ويقف بوقوفهم ، كيلا يؤذيه حرّ الشّمس **﴿وَأَنْزَلْنَا﴾** من السّماء **﴿عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾** - وقد سبق تفسيرهما في البقرة (١) - ثمّ قلنا لهم بلسان موسى : **﴿كُلُوا﴾** يا بني إسرائيل **﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** ومستلذات ما أنعمنا عليكم. ثمّ ظلموا بأن كفروا هذه النّعم الجليلة ، وعصوا أحكامنا **﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾** بكفرائهم وعصيانهم **﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** حيث انقطع عنهم الرّزق الطيّب الذي كان يأتيهم بلا اكتساب وكلفة ، واستحقّوا العذاب في الدّنيا والآخرة.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَنْزِلُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٦١) و (١٦٢)

ثمّ بيّن الله سبحانه نعمته الاخرى عليهم وكفرائهم إيّاها بعصيانهم وتمرّدهم عن أمر ربّهم بقوله : **﴿وَإِذْ قِيلَ﴾** من قبل الله **﴿لَهُمْ﴾** حين نجوا من التّيه وقربوا من البيت المقدّس أو بلدة أريحا ، وكانت فيها بقيّة من عاد يقال لهم العمالقّة : يا بني إسرائيل **﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾** الكثيرة النّعم والثمار **﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾** وتمتّعوا بها **﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾** وفي أيّ ناحية أردتم بلا تعب وعناء **﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾** - وقد مرّ تفسيره في البقرة (٢) - فإن فعلتم ذلك **﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾** التي سلفت منكم. ثمّ كأنّه قيل : فماذا لهم بعد المغفرة ؟ أو قيل : هذا للعصاة ، فماذا للمطيعين ؟ فأجاب سبحانه بقوله : **﴿سَنَنْزِلُ الْمُحْسِنِينَ﴾** والمطيعين إحسانا وثوابا **﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾** أنفسهم **﴿مِنْهُمْ﴾** ما امروا به من قول (حطّة) والاستغفار من الذّنوب ، وقالوا **﴿قَوْلًا﴾** آخر **﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾** من قول (حطّة) استهزاء بالله ورسوله **﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾** بعد تبديلهم واستهزائهم **﴿رِجْزًا﴾** وعذابا شديدا **﴿مِنْ﴾**

(١) تقدّم في تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) تقدّم في تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

السَّمَاءِ ﴿ روي أنه مات بالطَّاعون منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً ^(١) ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن يسأل يهود عصره عن اصطیاد أجدادهم السمك وطغيانهم ، لتبكيتهم وتسليته قلب نبيه ﷺ من إصرار الحاضرين منهم على الكفر والطغيان بقوله : ﴿وَسَأَلَهُمْ﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ قضية ﴿الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ وقرية منه ؛ اسمها إيلة ، أو مدين ، أو طبرية ، وفيها اليهود ﴿إِذْ يَغْدُونَ﴾ ويتجاوزون حدود الله ﴿فِي﴾ يوم ﴿السَّبْتِ﴾ الذي كان الصيد محرماً عليهم فيه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ والسمكات التي كانت في ذلك البحر ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي كان عليهم أن يعظموه ولا يعصون الله فيه بالصيد ، حال كون الحيتان ﴿شُرْعًا﴾ فيه ، ظاهرة على الماء ، قرية من الساحل ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يراعون حرمة السبت فيه كيوم الأحد ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ الحيتان ، كما كانت تأتيتهم يوم السبت حذرا من صيدهم ﴿كَذَلِكَ﴾ البلاء والاختبار العظيم ﴿نَبْلُوهُمْ﴾ ونختبر طاعتهم وعصيانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ويعصون من الأحكام ؛ ليظهر خبث ذاتهم وشدة طغيانهم ، أو المراد : فنعاقبهم بما كانوا يفسقون على الاستمرار.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا

مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ

عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا

عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٥﴾ و ﴿١٦٦﴾

ثم بالغ سبحانه في توضيح غاية كفرهم وعتوهم بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ وطائفة مؤمنون ﴿مِنْهُمْ﴾ صلحاء القرية الذين كانوا يبالغون في نصيح العصاة والفساق ويعظونهم : ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيها الصلحاء ﴿قَوْمًا﴾ لا يرتدعون عن فسقهم ولا يرجى صلاحهم ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ ألبتة بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون الاستئصال لتماديهم في الطغيان ؟ فأجابهم الصلحاء و ﴿قَالُوا﴾ إنما نعظهم ليكون وعظنا ﴿مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ ولا نأخذ بالتفريط في

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٦٣ .

التَّهْي عن المنكر ، ﴿وَلَا جُلَّ أَنْ الْعَصَا﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ﴾ العصيان بوعظنا لاحتمال اتعاضهم عندنا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ وتركوا أولئك الطّاعة ﴿مَا ذَكَّرُوا﴾ ووعظوا ﴿بِهِ﴾ ولم يلتفتوا إلى وعظ الواعظين ونهي الناهين ﴿أَنْجَيْنَا﴾ وخلّصنا من العذاب الصّالحاء ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿يَنْهَوْنَ﴾ العصاة والمسيئين ﴿عَنِ السُّوءِ﴾ والعصيان ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم وطغوا على ربّهم ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وشديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ليرتدعوا عن العصيان ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ وتأبّوا استكبارا ﴿عَنْ﴾ ترك ﴿مَا نُهَوُّ عَنْهُ﴾ من العصيان ، أردنا إرادة تكوينيّة مسخهم كأثا ﴿فَلَمَّا لَمْ يَكُونُوا﴾ أيّها العتاة ﴿قِرْدَةً﴾ وكونوا ، أو حال كونهم ﴿خَاسِينَ﴾ ذليلين عند الله وعند النّاس ، أو مطرودين من رحمة الله ، أو من بين النّاس. فكانوا كذلك من غير ريث.

في قصة أصحاب السبت

روي أنّ اليهود امروا باليوم الذي امرنا به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السّبت ، وهو المعني بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١) وابتلوا به ، وحرّم عليهم الصّيد وامروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السّبت كأثما المخاض^(٢) والكباش البيض السّمان تنتطح ، لا يرى وجه الماء لكثرتها ، ولا تأتيهم في سائر الأيام ، وكانوا على ذلك برهة من الدّهر ، ثمّ جاءهم إبليس فقال لهم : إنّما نخيم عن أخذها يوم السّبت ، فاتخذوا حياضا سهلة الورود صعبة الصّدور ففعلوا ، فجعلوا يسوقون الحيتان إليها يوم السّبت فلا تقدر على الخروج ، ويأخذونها يوم الأحد.

وأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا إلى خشبة في الساحل ثمّ شواه يوم الأحد ، فوجد جاره ريح السّمك ، فتطلّع على تنوره ، فقال له : إنّني أرى الله سيعذّبك ، فلما [لم] يره عذاب أخذ في السّبت القابل حوتين.

فلما رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم استمروا على ذلك ، فصادوا وأكلوا وملّحوا وباعوا ، وكانوا نحو من سبعين ألفا ، فكان أهل القرية أثلاثا : ثلث استمروا على التّهي ، وثلث ملّوا التّدكير وسأموه وقالوا للواعظين : ﴿لِمَ نَعْطُونَ﴾ إلى آخره ، وثلث باشروا الخطيئة ، فلما لم ينتهوا قال المسلمون : نحن لا نساكنكم ، فباعوا الدّور والمساكن وخرجوا من القرية ، فضربوا الخيام خارجا منها ، أو اقتسموا القرية بجدار ؛ للمسلمين باب ، وللمعتدين باب ، ولعنهم داود.

فأصبح الناهون ذات يوم فخرجوا من أبوابهم وانتشروا لمصالحهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد

(١) النحل : ١٦ / ١٢٤.

(٢) المخاض : الحوامل من النوق ، وابن المخاض : ولد الناقة أو البقرة إذا لقحت امه. والانثى بنت مخاض.

فقالوا : لعلّ الخمر غلبتهم أو لهم شأن من خسف أو مسخ أو رمي بالحجارة ، فعلوا الجدر فنظروا فإذا هم قردة ، أو صار الشّبان قردة والشيوخ خنازير ، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابهم من الإنسان وهم لا يعرفونها ، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشتم ثيابه فيبكي ، ويقول له نسيبه : ألم ننهكهم ؟ فيقول القردة برأسة : بلى ، ودموعه تسيل على خدّه ، ثمّ ماتوا عن مكث ثلاثة أيام ^(١) .

وعن علي بن الحسين عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ قال : « كان هؤلاء قوما يسكنون على شاطئ بحر ، نهاهم الله وأنبيأوه عن اصطيد السمك في يوم السبت ، فتوسّلوا ^(٢) إلى حيلة ليحلّوا بما لأنفسهم ما حرّم الله ، فاتّخذوا أحاديث وعملوا طرقا تؤدّي إلى حيض يتهيّأ للحيتان الدّخول فيها من تلك الطّرق ولا يتهيّأ لها الخروج إذا همّت بالرجوع ، فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على أمان لها ، فدخلت الأحاديث وحصلت في الحيض والغدران ، فلمّا كانت عشية اليوم همّت بالرجوع منها إلى اللّحج لتأمن من صائدها فلم تقدر ، وبقيت ليلها في مكان يتهيّأ أخذها بلا اصطيد لاستتر سألها فيه وعجزها عن الامتناع لمنع المكان لها .

وكانوا يأخذون يوم الأحد ويقولون : ما اصطدنا في السبت ، إمّا اصطدنا في الأحد ، وكذب أعداء الله ، بل كانوا اخذوها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت ، حتّى كثر من ذلك ما لهم وثرأؤهم وتنعموا بالنساء وغير هنّ لا تساع أيديهم به ، وكانوا في المدينة نيّفا وثمانين ألفا ، فعل هذا [منهم] سبعون ألفا وأنكر عليهم الباقون ، كما قصّ الله ﴿ وَسُئِلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ الآية .

وذلك أن طائفة منهم وعظومهم وزجروهم ، ومن عذاب الله خوّفوهم ، ومن انتقامه وشدائد بأسه حدّروهم ، فأجابوهم من وعظهم : ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ بذنوبهم هلاك الاصطلام ، ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فأجاب القائلين [لهم] هذا القول : متّا ﴿ مُعَذِّبَةً إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ إذ كلّنا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، فنحن ننهي عن المنكر ليعلم ربّنا مخالفتنا لهم وكرهتنا لفعلهم ، قالوا : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ونعظهم أيضا لعلّه تنجّع ^(٣) فيهم المواعظ فيتّقوا هذه الموبقة ، ويحذروا عقوبتها .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا ﴾ حادوا وأعرضوا وتكبّروا عن قبول الرّجر ﴿ عَنْ مَا نُهَوُا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ مبعدين من الخير مبغضين ، فلمّا نظر العشرة آلاف والنّيّف أنّ السّبعين ألفا لا يقبلون مواعظهم ولا يخافون بتخويفهم إيتاهم وتحذيرهم لهم ، اعتزلوهم إلى قرية اخرى قريبة من قريتهم ، وقالوا : نكره أن ينزل بهم عذاب الله ونحن في خالهم ، فأمسوا ليلة فمسخهم الله كلّهم قردة ،

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٢٦٥ .

(٢) في تفسير العسكري : فتوسّلوا .

(٣) أي تفرّج .

وبقي باب المدينة مغلقا ، لا يخرج منه أحد ولا يدخله أحد ، وتسامع بذلك أهل القرى فقصدوهم وتسنّموا حيطان البلد فاطّلوا عليهم ، فإذا هم كلّهم رجالهم ونساؤهم قردة يمجج بعضهم في بعض ، يعرف هؤلاء الناظرون معارفهم وقرباتهم وخلطاءهم ، يقول المطلّع لبعضهم : أنت فلان ، أنت فلانة ، فندمع عينه ويومئ برأسه أو بفمه بلا أو نعم ، فما زالوا كذلك ثلاثة أيّام ، ثمّ بعث الله تعالى مطرا وريحا فجرفهم إلى البحر وما بقي مسخ بعد ثلاثة أيّام ، وإنّما الذين ترون من هذه المصوّرات بصورها فإنّما هي أشباهها ، لا هي بأعيانها ولا من نسلها ^(١) .

والقمي رحمه الله [عن أبي جعفر عليه السلام] قال : « وجدنا في كتاب علي عليه السلام أنّ قوما من أهل إيلة من قوم يهود ^(٢) ، [وإن] الحيتان كانت سبقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك ، فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديتهم وقدّام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم ، فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها ، فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاتهم عنها الأحبار ولا يمنعهم العلماء من صيدها ، ثمّ إنّ الشيطان أوحى إلى طائفة منهم : إنّما نخيتم عن أكلها يوم السبت ولم تنهوا عن صيدها ، فاصطادوها يوم السبت واكلوها فيما سوى ذلك من الأيام .

فقال طائفة منهم : الآن نصطادها فعتت ، وانحازت طائفة [أخرى] منهم ذات اليمين فقالوا : نهّاكم عن عقوبة الله أن تتعرضوا بخلاف أمره ، واعتزلت طائفة منهم ذات الشمال فسكتت فلم تعظمهم فقالت للطائفة التي وعظتهم : ﴿ لَمْ تَعْظُون قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فقالت الطائفة التي وعظتهم : ﴿ مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قال : فقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يعني : لما تركوا ما وعظوا به ومضوا على الخطيئة ، فقالت الطائفة التي وعظتهم : لا والله لا نجامعكم ولا نبايتكم الليلة في مدينتكم هذه التي عصيتكم الله فيها مخافة أن ينزل الله بكم البلاء فيعمّنّا معكم .

قال : فخرجوا [عنهم] من المدينة [مخافة أن يصيبهم البلاء ، فنزلوا قريبا من المدينة] ، فباتوا تحت السماء ، فلمّا أصبح أولياء الله المطيعون لأمر الله تعالى غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية ، فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت ، فدقّوه فلم يجابوا ، ولم يسمعوا منها حسّ أحد ، فوضعوا سلّما على سور المدينة ثمّ أصدعوا رجلا منهم ، فأشرف على المدينة ، فنظر فإذا هو بالقوم قردة يتعاوون ، فقال الرجل لأصحابه : [يا قوم] أرى والله عجبا ، قالو : وما ترى ؟ قال : أرى القوم [قد] صاروا قردة يتعاوون ولها

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام : ٢٦٨ / ١٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٦ .

(٢) في تفسير القمي وتفسير الصافي : ثمود .

أذنان ، فكسروا الباب ودخلوا المدينة. قال : فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فقال القوم للقردة : ألم ننهكم.

قال : فقال عليّ : والله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون ، بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا ، وقد قال الله : ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١) ، فقال الله : ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بَعْضًا بَعْضًا يَفْتَنُون﴾^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « كانوا ثلاثة أصناف : صنف ائتمروا وأمروا فنجوا ، وصنف ائتمروا ولم يأمرهم فمسخوا ذرا^(٣) ، وصنف لم يأتمروا ولم يأمرهم فهلكوا »^(٤) .
عن ابن عباس : أنه إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : إن هؤلاء الذين سكتوا عن النهي عن المنكر فهلكوا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ثم نسكت ولا نقول شيئا^(٥) .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧)

ثم أنه تعالى بعد ذكر قبائح أعمال اليهود وإنزال العذاب عليهم ، نبه أن من عقوبتهم ابتلاء نسلهم بالذل والصغار بقوله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ وقضى ﴿رَبُّكَ﴾ أنه تعالى ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وليسألن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ البتة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وآخر الدهر ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ﴾ ويعذبهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ وشديده من الإذلال ، والإجلاء عن الأوطان ، وضرب الجزية ، وغيرها من الشدائد كبخت نصر فإنه غلب على بني إسرائيل ، وقتل مقاتليهم ، وسبي نساءهم ، وخرّب ديارهم ، وضرب عليهم الجزية ، وكالجوس ضربوا عليهم الجزية وأخذوها منهم ، حتى بعث الله خاتم النبيين ﷺ ففعل بهم ما فعل ، فلا ترفع لهم راية أبدا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يعجل في عقوبة العصاة في الدنيا ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب و﴿رَحِيمٌ﴾ بمن أطاع. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَلَوْلَا نَاهُ

بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٦٨)

ثم أنه تعالى بعد ذم عامة بني إسرائيل نبه على وجود الصالحاء فيهم ، وأنه يعامل مع بقيّتهم

معاملة

(١) المؤمنون : ٢٣ / ٤١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٤٤ ، تفسير العياشي ٢ : ١٦٦ / ١٦٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٧ .

(٣) الذرّ : صغار التمل.

(٤) الكافي ٨ : ١٥٨ / ١٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٤٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ٣٩ .

المختبر ، ويتليهم بما يوجب تنبّهم بقوله : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ وشتتناهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونهم ﴿أُمَمًا﴾ وفرقا متباعدة في العقائد والآراء ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ وهم الذين قدسوا الله عن الشريك والولد ، وآمنوا بجميع الأنبياء وبخاتمهم عن صميم القلب ، عن ابن عباس : هم الذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به ^(١) ، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ اناس ﴿ذُونَ ذَلِكَ﴾ المقام ؛ وهم الذين ثبتوا على اليهودية ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ﴾ وعاملناهم معاملة المختبر حالهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ الموجبة للشكر ؛ من العافية ، وسعة الرزق ، والخصب ، والأمن ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الموجبة للتدم على الكفر والعصيان ؛ من الأمراض ، والجذب ، والشدائد ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب تلك الحوادث المرعبة للطاعة المرعبة عن المخالفة والمعصية ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر واللجاج إلى الإسلام والانقياد لله ورسوله ، ويتوبون إلى الله عما هم عليه من الطغيان والعصيان.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَغْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩)

ثم بين الله سبحانه أنّ الصّالحاء لما انقضوا صار جميع بني إسرائيل على نهج واحد من الكفر والعصيان ، ولم يقد الابتلاء في تربية أكثرهم ورجوعهم إلى الهدى والصلاح بقوله : ﴿فَخَلَفَ﴾ الصالحون ﴿مِنْ بَغْدِهِمْ﴾ وغب موتهم ﴿خَلْفٌ﴾ وذرية طالحة رديئة ؛ وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ و﴿رَثُوا الْكِتَابَ﴾ الذي جاء به موسى ﷺ من أسلافهم وقرأوه ووقفوا على ما فيه من الأحكام والعلوم والتزهد من الدنيا ، وهم مع ذلك يتركون العمل به ويرغبون في جمع الأموال ، بل ﴿يَأْخُذُونَ﴾ من الناس ﴿عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ وحطام هذه الدنيا الدنية ، للحكم بغير الحق ، وتحريف كلام الله ، وتغيير علائم النبي ﷺ المذكورة في التوراة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ غرورا وافتراء على الله : ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذنبنا ذلك ولا يعدبنا به ، بل ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾ من أعراض الدنيا ومتاع من أمتعتها بجهة الرشوة والجعل على التحريف والتغيير نظير ما أتوا به و﴿مِثْلُ﴾ في الحرمة ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ أيضا حرصا على الدنيا وزخارفها ، وإصرارا على العصيان. ثم أنكر الله عليهم عملهم ذلك ، ووتجهم على مخالفة حكم التوراة بقوله : ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٤٢ .

مِيثَاقُ الْكِتَابِ والعهد المؤكد في التّوراة ؛ وهو **﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾** قولاً **﴿إِلَّا﴾** القول **﴿الْحَقِّ﴾** والصّدق ، ولا يعملوا عملاً إلّا ما وافق أحكام التّوراة ، فلم يقولوا للتّاس : إنّ العلام التي ذكرها الله في كتابه تحالف صفات محمد ﷺ ، وإنّه سيفغر الله لنا ذنوبنا ، ويصوّرون على العصيان والباطل ، **﴿وَوَ﴾** الحال أنّهم **﴿دَرَسُوا﴾** الكتاب وقرأوا **﴿مَا فِيهِ﴾** من الأحكام ، وعلامهم النّبّي ، والعهد المؤكد على أن يعملوا به ولا يخالفوه ولا يحرفوه.

ثمّ أنّه تعالى بعد العتاب والتوبيخ وجّه الخطاب إلى هؤلاء المحرّفين الراغبين إلى الدّنيا ، ووعظهم بقوله : **﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ﴾** والجنّة العالية ، والتّعمر الباقية فيها **﴿خَيْرٌ﴾** وأنفع من أعراض الدّنيا وجمع ما فيها ، ومن الواضح أنّها **﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** ويحتزّون من الكفر والمعاصي **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** ولا تدركون تلك الخيريّة والاختصاص.

﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ (١٧٠)﴾

ثمّ لما مدح الله اليهود الذين عملوا بالتّوراة ولم يحرفوه ، وآمنوا بالنّبّي الأمّي ، وعدهم بالثّواب بقوله : **﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ﴾** ويعملون **﴿بِالْكِتَابِ﴾** ويلتزمون بجميع ما فيه من الأحكام وعلامهم النّبّي ، ويؤمنون به ، وعملوا بأحكام شريعته **﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾** التي هي عمدتها ، نعطيهم أجورهم **﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾** ولا نبطل **﴿أَجْرَ الْمُضِلِّينَ﴾** وثوابهم.

قيل : هم عبد الله بن سلام وأضرابه ، فإنّهم تمسّكوا بالتّوراة التي جاء بها موسى عليه السلام فلم يحرفوها ، ولم يكتموها ، ولم يتخذوها مأكلة ^(١) .

وقيل : إنّ المراد : أمّه محمد ﷺ ، والكتاب : القرآن ^(٢) .

**﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾**

ثمّ بيّن الله كيفيّة أخذ الميثاق بالعمل بالتّوراة بقوله : **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾** وقلعنا **﴿الْجَبَلَ﴾** - وهو الطّور - من موضعه ، ورفعناه **﴿فَوْقَهُمْ﴾** وأوقفناه على رؤوسهم **﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** وسقيفة - كما عن ابن عبّاس ^(٣) - **﴿وَظَنُّوا﴾** وقوى في نفوسهم **﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾** وساقط عليهم إن لم يلتزموا بالتّوراة والعمل بما فيها ،

(١) تفسير أبي السعود ٣ : ٢٨٨ ، تفسير روح البيان ٣ : ٢٧٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٧٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٤٥ .

وقلنا لهم : ﴿خُذُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب والأحكام التي فيه ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وحدّ وعزيمة على تحمّل المشاق ﴿وَاذْكُرُوا﴾ واحفظوا ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والعهود ، بالعمل والوفاء بها ، ولا تتركوها كالمسيّس ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ رذائل الخصال ، وسيئات الأعمال ، وعذاب الله المتعال .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٢) و (١٧٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر أخذ الميثاق من بني إسرائيل على العمل بالتّوراة ، ذكر أخذه الميثاق من بني آدم في عالم الذرّ على الإقرار بتوحيده ورسالة رسله بقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وأخرج ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ أعني ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وأصلاهم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ونسلهم طبقة ، بعد طبقة كما يتوالدون في الدّنيا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ وأخذ الإقرار منهم ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بتوحيده وربوبيّته ، بأن قال لهم تقريرا : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومالك أمركم ، والمتصرّف فيكم إيجادا وإعداما وتديرا ، لا شريك لي ولا ندّ ؟ ﴿قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ وأعترفنا ربوبيّتك ووحدايتك .

في أخذ الاقرار بالتوحيد في عالم الذرّ

عن النبي ﷺ قال : « لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كلّ نسمة من ذرّيته إلى يوم القيامة » (١) .

وعن مقاتل : أنّ الله مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فخرجت منه ذرّة بيضاء كهيئة الذرّ تتحرّك ، ثمّ مسح صفحة ظهره اليسرى فخرجت منه ذرّة سوداء كهيئة الذرّ ، فقال : يا آدم ، هؤلاء ذرّيتك . ثمّ قال : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فقال للبيض : هؤلاء في الجنّة برحمتي ، وهم أصحاب اليمين ، وقال للسود : هؤلاء في التّار ولا ابالي ، وهم أصحاب الشّمال وأصحاب المشئمة . ثمّ أعادهم جميعا في صلب آدم ، فأهل القبور محبوسون حتّى يخرج أهل الميثاق كلّهم من أصلاب الرّجال وأرحام النّساء ، وقال تعالى في من نقض العهد الأوّل : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ (٢) .

وعن ابن عبّاس : أنّه أبصر آدم في ذرّيته قوما لهم نور فقال : يا ربّ ، من هم ؟ فقال : الأنبياء (٣) الخبر .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال وأبوه يسمع : « حدّثني أبي أنّ الله عزّ وجلّ

قبض

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٤٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٤٦ ، والآية من سورة الأعراف : ٧ / ١٠٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٤٧ .

قبضة من تراب التربة التي خلق منها آدم ، فصبّ فيها الماء العذب الفرات ، ثم تركها أربعين صباحا ، [ثم صبّ عليها الماء المالح الاجاج فتركها أربعين صباحا] ، فلمّا اختمرت الطينة أخذها فعرّكها عركا شديدا ، فخرجوا كالذرّ من يمينه وشماله ، وأمرهم جميعا أن يقعوا في النّار ، فدخل أصحاب اليمين فصار عليهم بردا وسلاما ، وأبى أصحاب الشّمال أن يدخلوها ^(١) »

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « أخرج من ظهر آدم ذرّيته إلى يوم القيامة ؛ فخرجوا كالذرّ ، فعرفهم نفسه ، [وأراهم صنعه] ^(٢) ولو لا ذلك لم يعرف أحد ربّه » ^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل : كيف أجابوا وهم ذرّ ؟ فقال : « جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه » ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « لما أراد الله أن يخلق الخلق نشرهم بين يديه ، فقال لهم : من ربّكم ؟ فأول من نطق رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام فقالوا : أنت ربّنا ، فحملهم العلم والدّين . ثم قال للملائكة : [هؤلاء حملة ديني وعلمي وامنائي في خلقي وهم المسؤولون . ثم قال لبني آدم : أقرّوا الله بالربوبية ول هؤلاء النفر بالولاية والطاعة ، فقالوا : نعم ربنا أقرّنا ، فقال الله للملائكة : [اشهدوا ، فقال الملائكة : شهدنا [على أن لا يقولوا غدا : إنا كنّا عن هذا غافلين ، أو يقولوا : إنما أشرك آبائنا] » ^(٥) .

وعن القمي عليه السلام عنه عليه السلام في هذه الآية ، أنّه سئل : معاينة كان هذا ؟ قال : « نعم ، فثبتت المعرفة ، ونسوا الموقف وسيدكرونها ، ولو لا ذلك لم يدر أحد من خالقه ورازقه ، فمنهم من أقرّ بلسانه في الذرّ ، ولم يؤمن بقلبه فقال الله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ » ^(٦) .

أقول : نظائر هذه الأخبار كثيرة بحيث لو ادّعى أحد تواترها المعنوي أو الإجمالي لا يعدّ مجازفا ، فلا مناص من الالتزام بالقول بوجود عالم الذرّ ، وعليه عامّة المفسّرين وأهل الأثر كما ادّعاه الفخر الرّازي ، ولا مجال لإنكاره وتأويل الأخبار بما نقله الفخر عن أصحاب النّظر وأرباب المعقولات من أنّه تعالى أخرج الذرية من أصلاب آبائهم ، وذلك الإخراج أنّهم كانوا نطفة ، فأخرجها الله تعالى في أرحام أمّهاتهم ، وجعلها علقة ثمّ مضغة ، ثمّ جعلهم بشرا سوّيا وخلقا كاملا ، ثمّ أشهدهم على أنفسهم بما ربّك فيهم من دلائل وحدانيّته وعجائب خلقه وغرائب صنعه ، فبالإشهاد صاروا كأهمّ قالوا : بلى ،

(١) تفسير العياشي ٢ : ١٧٣ / ١٦٥٢ ، الكافي ٢ : ٥ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٢ .

(٢) في تفسير العياشي : وأراهم نفسه ، وفي الكافي : فعرفهم وأراهم نفسه .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٧٣ / ١٦٥٤ ، الكافي ٢ : ١٠ / ٤ ، التوحيد : ٩ / ٣٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٢ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٧٠ / ١٦٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٢ .

(٥) الكافي ١ : ١٠٣ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٢ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٢ ، والآية من سورة يونس : ١٠ / ٧٤ .

وإن لم يكن هناك قولاً باللسان ، ولذلك نظائر منها قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) ، ومنها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢) فهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهورة في الكلام ، فوجب حمل الكلام عليه^(٣) .

وقال بعض آخر من العامة في توجيه الآية : إنه من باب التمثيل والتخييل ، نزل تمكينهم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل الآفاقية والأنفسية ، وخلق الاستعداد فيهم منزلة الإلهاد ، وتمكينهم من معرفتها والإقرار بها منزلة الاعتراف ، فلم يكن هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب ، وباب التمثيل باب واسع في القرآن والحديث وكلام البلغاء ، قال الله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٤) .

وقال الفيض رحمته الله في (الصافي) : إن المراد بالإشهاد إقامة الدلائل والحجج على التوحيد والربوبية ، ومن قولهم « بلى شهدنا على أنفسنا » أنه ركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها ، حتى صار بمنزلة الإشهاد على طريقة التمثيل ، نظير قوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٥) .

أقول : وإن كان يشعر بذلك قول الصادق عليه السلام : « أنه جعل فيهم إذا سألهم أجابوه »^(٦) إلا أن قوله عليه السلام في رواية القمي : « فمنهم من أقرّ بلسانه في الذرّ ، ولم يؤمن بقلبه »^(٧) كالصريح في خلافه ، ويمكن القول بخلق ذرّيته في صلبه بصور كالذرّ في الصغر ، ولا مادة لها ، وكان السؤال بلسان الملك ، والجواب بلسان مناسب لخلقهم ، أو بلسان الحال ؛ لكون عقولهم في ذلك العالم سليمة عن شوب الشهوات والأهواء . وكانت الحكمة في ذلك كون تذكّاره في عالم الدنيا موجبا لتهييج رغبتهم إلى الإيمان .

ثم علّل سبحانه هذا العهد بكرهته تعالى من ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ عند مؤاخذتكم على إنكار الربوبية والتوحيد احتجاجا علينا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ هَذَا﴾ الأمر ﴿غَافِلِينَ﴾ وبه جاهلين ، ولا يجوز مؤاخذه الجاهل والغافل ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ يوم القيامة اعتذارا من شرككم : ربنا ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ الأقدمون ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وأخترعوا هذا الدين وسوّوه في الدنيا قبل ولادتنا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ جاهلة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ لم يكن لنا طريق إلى معرفتك بالربوبية والوحدانية ، ولم نقدر على الاستدلال

(١) فصلت : ٤١ / ١١ .

(٢) النحل : ١٦ / ٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٥٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٥) تفسير الصافي ١ : ٢٥١ .

(٦) تقدم آنفا .

(٧) تقدم آنفا .

عليهما ، ولذا اقتدينا بهم وقلدناهم ﴿أ﴾ تأخذنا ﴿فَتُهْلِكُنَا﴾ بالعذاب ﴿بِمَا فَعَلَّ﴾ قدماؤنا ﴿الْمُضِلُّونَ﴾ المضلون ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التفصيل والشرح البليغ البديع التافع ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونشرح ﴿الآيَاتِ﴾ الدالة على صدق القرآن وصحة نبوة محمد ﷺ ، ليقفوا على ما فيها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر إلى الإسلام ، وعن الباطل إلى الحق.

﴿وَأَنلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الغَاوِينَ (١٧٥)﴾

ثمَّ أتته تعالى بعد تنبيه اليهود على نعمه العظيمة الجسمانية والروحانية وأخذ العهد منهم على العمل بالتوراة ، بيّن أنّ أزهدهم وأعلمهم عصى وأعرض عن الهدى فضلا عن غيره بقوله : ﴿وَأَنلَّ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ وعلمناه ﴿آيَاتِنَا﴾ المنزلة والكتب السماوية والاسم الأعظم ، بحيث شملته تلك كالشملة (١) ، بل كالجلد على بدنه ﴿فَانْسَلَخَ﴾ وانخلع ﴿مِنْهَا﴾ بالكلفة لغلبة النفس عليه ﴿فَاتَّبِعَهُ﴾ وأدركه ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بعد أن كان ساعيا في حوقه وإدراكه ﴿فَكَانَ﴾ ذلك العالم - بانسلاخه من العلم وغلبة النفس والشيطان عليه - ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والزاسخين في الغواية والضلال.

قصة بلعم بن باعورا

وعن ابن عباس وابن مسعود قالا : كان هو عابدا من عبّاد بني إسرائيل ، وكان في المدينة التي قصدها موسى عليه السلام ، وكان أهل تلك المدينة كفّارا ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فسأله ملكهم أن يدعوا على موسى عليه السلام بالاسم الأعظم ليدفعه عن تلك المدينة فقال لهم : دينه وديني واحد ، وهذا شيء لا يكون ، وكيف أدعو عليه وهو نبيّ الله ومعه الملائكة والمؤمنون ؟ وأنا أعلم من الله ما أعلم ، وإني إن فعلت ذلك أذهبت دنيائي وآخرتي. فلم يزالوا به يفتنونه بالمال والهدايا حتّى فتنوه ، فافتتن (٢) .

قيل : كانت لهذا الرجل الذي اسمه بلعم امرأة يحبّها ويطيعها ، فجمع قومه هدايا عظيمة فأتوا بها إليها وقبلتها ، فقالوا لها : قد نزل بنا ما ترين ، فكلّمي بلعم في هذا ، فقالت لبلعم : إنّ لهؤلاء القوم حقّا وجوارا عليك ، وليس مثلك يخذل جيرانه عند الشدائد ، وقد كانوا محسنين إليك ، وأنت جدير أن تكافئهم وتهتمّ بأمرهم ، فقال لها : لو لا أنّي أعلم أنّ هذا الأمر من عند الله لأجبتهم. فلم تنزل به حتّى صرفته عن رأيه ، فركب أتاناً له متوجّها إلى الجبل ليدعوا على موسى عليه السلام ، فما سار على الأتان إلّا

(١) الشملة : ثوب يتوشّح به ، أو كساء من صوف أو شعر يتغطّى به.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٧٦ .

قليلا فريضة ، فنزل عنها فضربها حتى كاد يهلكها فقامت فركبها ، فريضة [فضرها] ، فأنطقها الله تعالى فقالت : يا بلعم ، ويحك أين تذهب ، ألا ترى إلى هؤلاء الملائكة أمامي يردوني عن وجهي ، فكيف تريد أن تذهب لتدعو على نبي الله وعلى المؤمنين ؟ ! فحلّى سبيلها ، وانطلق حتى وصل إلى الجبل وجعل يدعو ، فكان لا يدعو بسوء إلا صرف الله به لسانه على قومه ، ولا يدعو بخير إلا صرف به لسانه إلى موسى . فقال له قومه : يا بلعم ، إنما أنت تدعو علينا وتدعو له ، فقال : هذا والله الذي أملكه ، وأنطق الله به لساني .

ثم امتدّ لسانه حتى بلغ صدره فقال لهم : والله قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، فلم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمر لكم واحتال ، حلّوا النساء وزيتوهن وأعطوهن الطيب ، وأرسلوهن إلى العسكر ، وأمروهن لا تمنع امرأة نفسها عن رجل أرادها ، فإنهم إن زنى منهم رجل واحد كفيتموهم ؛ ففعلوا . فلما دخلت النساء العسكر مرّت امرأة منهم برجل من عظماء بني إسرائيل ، فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبه بحسنها ، ثم أقبل بها إلى موسى عليه السلام فقال له : إنّي لأظنك أن تقول : هذه حرام ، قال : نعم ، هي حرام عليك ، لا تقرها ، قال : فوالله لا نطيعك في هذا . ثم دخل بها قبته فوقع عليها ، فأرسل الله على بني إسرائيل الطّاعون في الوقت .

وكان فنحاص بن عازورا ^(١) صاحب أمر موسى عليه السلام رجلا له بسطة في الخلق وقوة في البطش ، وكان غائبا حين صنع ذلك الرجل بالمرأة ما صنع ، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل ، فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت من حديد كلّها ، ثم دخل القبة فوجدهما متضاجعين ، فدقّهما بحربته حتى انتظمهما بها جميعا ، فخرج بهما يحملهما بالحرية وأعقابهما ^(٢) إلى السماء ، والحرية قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه ، وأسند الحرية إلى لحيته ، وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، فرفع الطاعون من حينئذ عنهم ، فحسب من هلك من بني إسرائيل في ذلك الطّاعون ، فوجدهم سبعين ألفا في ساعة من نهار ، وهو ما بين أن زنى الرجل بها إلى أن قتل .

ثم أنّ موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون حاربوا أهل تلك البلدة وغلبوهم ، وقتلوا منهم وأسروا ، وأتوا ببلعم أسيرا فقتل ، وجاءوا بما قبل من العطايا الكثيرة وغنموها ^(٣) .

عن القمّي رحمه الله : نزلت في بلعم بن باعورا ، وكان من بني إسرائيل ، أوتي علم بعض الكتب ^(٤) . وفي (المجمع) : عن الباقر عليه السلام : « الأصل فيه بلعم ، ثم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هواه على

هدى الله

(١) في تفسير روح البيان : فخاض بن العيزار .

(٢) في تفسير روح البيان : بالحرية رافعا بهما .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٢٧٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٣ .

من أهل القبلة»^(١) .

والعياشي ، عنه عليه السلام : « مثل المغيرة بن سعيد ^(٢) مثل بلعم الذي اوتي الاسم الأعظم الذي [قال الله :] « **آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا** » ^(٣) . »

عن القمي رحمته الله : عن الرضا عليه السلام : « أنه اعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم ، وكان يدعو به فيستجاب له ، فمال إلى فرعون ، فلما مرّ فرعون في طلب موسى عليه السلام وأصحابه قال فرعون لبلعم : ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا ، فلما ركب حمارته ليمرّ في طلب موسى عليه السلام فامتنعت عليه حمارته ، فأقبل يضربها فأنطقها الله عز وجل فقالت : ويلك على ما ذا تضربني ، أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبيّ الله وقوم مؤمنين ؟ ! فلم يزل يضربها حتى قتلها ، وانسلخ الاسم الأعظم من لسانه ، وهو قوله تعالى : « **فَانْسَلَخْ مِنْهَا** » ^(٤) . »

وعن ابن عباس ، بعد أن ذكر نزول الآية في بلعم قال : كان مجاب الدعوة وعنده اسم الله الأعظم ، وأنه دعا على موسى عليه السلام فاستجيب له ، ووقع موسى عليه السلام وبنو إسرائيل في التّيه بدعائه ، فقال موسى عليه السلام : يا رب ، بأيّ ذنب وقعنا في التّيه ؟ فقال : بدعاء بلعم ، كما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه ، ثمّ دعا موسى عليه أن ينزع منه اسم الله الأعظم والإيمان ، فسلخه الله ممّا كان عليه ، ونزع منه المعرفة ، فخرجت من صدره كحمامة بيضاء ^(٥) .

أقول : مخالفة هذه الرواية لكتاب الله واضحة ، حيث إنّه ناطق بأن سبب وقوع بني إسرائيل في التّيه عصيانهم أمر موسى عليه السلام ، وعدم دخولهم بلد العمالق.

وقيل : إنّ الآية نزلت في امّية بن أبي الصّلت ، وكان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً صلّى الله عليه وآله حسده ، ثمّ مات كافرا ولم يؤمن بالنبيّ ، وهو الذي قال فيه النبي صلّى الله عليه وآله : « آمن شعره ، وكفر قلبه » ^(٦) .

وقيل : نزلت في أبي عامر الزّاهب الذي سمّا النبيّ صلّى الله عليه وآله الفاسق ، كان يترهب في الجاهليّة ، فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين بأنّخاذ مسجد ضرار ، [وأتى قيصر] واستنجدته على

(١) مجمع البيان ٤ : ٧٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٣ .

(٢) المغيرة بن سعيد : حبيث ملعون ، كان يكذب على الإمام الباقر عليه السلام ، فلعنه الإمام الصادق عليه السلام ، وأذقه الله حرّ الحديد ، قتله خالد بن يزيد القسري ، والقصة مذكورة في مستدركات علم الرجال ٧ : ٤٧٠ / ١٥١٢٢ ، سير أعلام النبلاء ٥ : ٤٢٦ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٧٦ / ١٦٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٣ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ٥٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٥٤ .

النبي ﷺ فمات هناك طريدا وحيدا. وقيل : نزلت في منافقي أهل الكتاب ، كانوا يعرفون النبي ﷺ .
وقيل : هو عام فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه (١) .

أقول : الحق أن الآية نزلت في بلعم ، وجرت على كل عالم متبع للهوى ، معرض عن الهدى .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ
إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا
وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٦) و (١٧٧)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان انسلاخ بلعم من الآيات وانسلاكه في الراسخين في الضلال ، بين أن تلك
الآيات كانت مقتضية لرفع مقامه ، إلا أن حبه الدنيا واتباعه الهوى أهواه في أسفل الدركات بقوله :
﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ رفعة مقامه إلى محلّ القرب ، وإيصاله إلى جميع السعادات الدنيوية والاخرية ببركة تلك
الآيات ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ إليه ، وأوصلناه إلى أعلى درجة السعادة والكرامة ﴿وَلَكِنَّهُ﴾ لخبث ذاته وبسوء
اختياره ﴿أَخْلَدَ﴾ ومال ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ والدنيا الدنية واطمأن بها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ووافق شهوته في إشار
الحطام والزخارف الفانية ، واسترضاء قومه ، فانحطّ غاية الانحطاط ، وهوى في أسفل الدركات .

﴿فَمَثَلُهُ﴾ وحاله العجب في حرصه على الدنيا ، وملهه إلى حطامها ، وعدم اتعاضه بالموعظة ،
وعدم اعتدائه ، إن ترك ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ في أسوأ أحواله وأخس صفاته ، وهو أنه ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ﴾ أيها
المخاطب بالزجر والطرد ﴿يَلْهَثْ﴾ ويخرج لسانه ويتنفس بشدة ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ ولا تتعرض له ﴿يَلْهَثْ﴾
أيضا ، فكما أنه دائم اللهث ، كذلك هذا العالم المتبع لهواه لا يتغير حاله إن وعظ أو ترك ﴿ذَلِكَ﴾ المثل
السيء ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ﴾ علموا بصفات محمد ﷺ المذكورة في التوراة وببشارة موسى عليه السلام بظهوره
وبعثنه ، فحرفوها وغيروا اسمه و﴿كَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ المنزلة في الكتب السماوية ﴿فَاقْصُصِ﴾ يا محمد وأتل
عليهم تلك ﴿الْقَصَصَ﴾ والأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ويتعظون ويحذرون سوء عاقبة أعمالهم السيئة
﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾ المنزلة في الكتب السماوية من التوراة والإنجيل والقرآن ، وساء الوصف
الذي اتصفوا به من إنكارها ومن جحود الآيات ، وتكذيب الرّسول مع قيام الحجة عليهم ، وما ظلمونا
بسوء أعمالهم ﴿وَوَلَّوْا﴾ لكن ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٥٤ .

كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿لَأَنّْ وَبَالَهَا لَا يَتَخَطَّاهُمْ﴾

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الهداية والضلال بتوفيق الله وخذلانه لا بالعلم بقوله : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ ويرشده إلى الحقّ وطريق الصواب بتوفيقه ، كائنا من كان ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ لا غيره ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ الله عن الهدى ويبعده عن الحقّ ويحرفه عن سبيله بخذلانه وإيكاله إلى النفس والهوى المردي والشيطان المغوي ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الضالّون ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ والمتضرّرون في الدّنيا والآخرة غاية الضرر.

قيل : في إفراد الضمير في الأول باعتبار اللفظ ، والجمع في الإشارة في الثاني باعتبار المعنى ، إشعار باتّحاد المهتدين لا اتّحاد طريقتهم ، وتشبّت الضالّين لتشبّت مذاهبهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ الهداية بتوفيقه ، والضلالة بخذلانه ، نبّه على أنّ إعطاء التوفيق ومنعه إنّما يكون لاختلاف ذوات النّاس وطيناتهم في الطّيب والخبث ، وتفاوت استعداداتهم في بدو الخلقة لقبول الفيض بقوله : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ وخلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ وللتعذيب فيها ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ لكون طينتهم من السجّين والماء الملح الاجاج ، فلا يختارون إلّا العمل الذي يناسب ذاتهم وطينتهم ، ولذا يكون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ يعقلون بها تدبيرات أمور دنياهم ، ولكن ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ آيات الله ومواعظه ، ولا يعقلون ﴿بِهَا﴾ براهين التوحيد والمعاد ، ولا يدركون قبح الكفر والمعاصي وسوء عاقبتهم ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ يبصرون بها مرئيات هذا العالم ، ولكن ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ صنائع الله ، وحسن نظام عالم الوجود الدالّين على وجود الصّانع الفرد القادر الحكيم ، ومعجزات الأنبياء الدالّات على صدقهم ، وسبيل الهداية الموصلة إلى السّعادة الأبدية ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ﴾ يسمعون بها المسموعات الدنيويّة ، ولكن ﴿لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ كلمات الله ، ودعوة الرّسل وإنذارهم ونصحهم.

عن القمّي رحمه الله : عن الباقر عليه السلام ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يقول : « طبع الله عليها فلا تعقل ، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ عليها غطاء عن الهدى ﴿لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ جعل في اذانهم وقرا فلم

يسمعوا الهدى ^(١) » .

﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ والبهائم لمشاركتهم لها في القوى الخمس الطبيعية والحواس الخمس الظاهرة ، وافتقادهم ما يمتاز به الإنسان من العقل والتفكير في العواقب ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وأخس من البهائم ؛ لأنها لا قدرة لها على تحصيل المعارف والفضائل ، وهم قادرون عليه ومكلفون به ، وعاصون له ومعرضون عنه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن الله ركب في الملائكة عقلا بلا شهوة ، وركب في البهائم شهوة بلا عقل ، وركب في بني آدم كليهما ، فمن غلب عقله شهوته فهو خير الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم » ^(٢) .

وقيل : لأن الأنعام مطيعة لله ، والكافر غير مطيع له ^(٣) .

وقيل : لأن الأنعام تعرف ربها وتذكره ، والكافر لا يعرف ربه ولا يذكره ^(٤) .

وقيل : لأن الأنعام تعرف منافعها ومضارها ، فتسعى في تحصيل منافعها ، وتحتز عن مضارها ، والكفار أكثرهم يعلمون أنهم معاندون للحق ، والعناد يجزهم إلى النار ، ومع ذلك يصرون عليه ويلقون أنفسهم في النار والعذاب ^(٥) .

وقيل : إن الأنعام تفر إلى ربها ومن يقوم بمصالحها أبدا ، والكافر يهرب عن ربه وإله الذي أنعم عليه بنعم لا حد لها ^(٦) .

وقيل : لأنها تضل إذا لم يكن معها مرشد ، فأما إذا كان معها مرشد قلما تضل ، وأما الكفار فقد جاءهم رسول مرشد وانزل عليهم الكتاب ، وهم مع ذلك يزدادون في الضلال ^(٧) .

و﴿أُولَئِكَ﴾ المخلوقون لجهنم ﴿هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ عن سوء عاقبتهم وسوء عاقبة أعمالهم ، وعمّا أعد الله لأعدائه من العذاب الأليم الدائم ، ولأوليائه من النعم الدائمة الجسمانية والروحانية في الدنيا والآخرة ، وهم حرموا منها ، ولو كانوا ملتفتين إلى ذلك لما طاب لهم العيش ، بل لم تستقر أرواحهم في أجسادهم.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

(١) تفسير القمي ١ : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٤ .

(٢) علل الشرائع : ٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٦٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ٦٥ .

ثم لما بين الله تعالى أنّ الهداية بتوفيقه والضلال بخذلانه ، وأن سبب الضلال والخذلان الغفلة عنه وعن سوء عاقبة عملهم ، أمر نبيه ﷺ بأن يأمر العباد بأن يذكروه في جميع الأحوال والأوقات ، وأن يتضرعوا إليه ويسألوه الهداية إلى الحق وإلى كل خير بقوله : ﴿وَلِلَّهِ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ والصّفات العليا.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الاسم ، فقال : « صفة لموصوف » ^(١) ، وعن القمي : قال : الرحمن الرحيم ^(٢) .

﴿فَادْعُوهُ﴾ وسمّوه أو اسألوه ﴿بِهَا﴾ ولا تسمّوه أو لا تسألوه بغيرها ، ولا تذكروا بها غيره .
عن الرضا عليه السلام : « إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله ، وهو قول الله : ﴿وَلِلَّهِ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال : « قال أبو عبد الله عليه السلام : نحن والله الأسماء الحسنى التي لا تقبل من أحد [طاعة] إلا بمعرفتنا - قال : - « فادعوه بها » ^(٣) .

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي اَسْمَائِهِ﴾ واتركوا من يميلون فيها ويعدلون بها عما هي عليه ، بأن يسمّوا بها غيره كما سمّى المشركون أصنامهم آلهة .

وقيل : إنّ المراد : ذروا الذين يصفون الله بما لا يليق به ، ويسمّونه بما لا يجوز تسميته به .
في (الكافي) : عن الرضا عليه السلام : « أنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه ، وأنّي يوصف [الذي] تعجز الحواس أن تدركه ، والأوهام أن تناله ، والخطرات أن تحدّه ، والأبصار عن الإحاطة به ، جلّ عما يصفه الواصفون ، وتعالى عما ينعتة النّاعتون » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿وَلِلَّهِ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي لا يسمّى بها غيره ، وهي التي وصفها في الكتاب فقال : ﴿فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي اَسْمَائِهِ﴾ جهلا بغير علم ، [فالذي يلحد في أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ، ويكفر به وهو يظنّ أنه يحسن ، فلذلك قال : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ^(٥)] وهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم ، فيضعونها في غير موضعها » ^(٦) .

ثمّ هدّد المشركين الملحدّين بقوله : ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ العذاب على ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإلحاد في أسمائه وصفاته.

(١) الكافي ١ : ٨٨ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٤ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٧٦ / ١٦٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٤ .

(٤) الكافي ١ : ١٠٧ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

(٥) يوسف : ١٢ / ١٠٦ .

(٦) التوحيد : ٣٢٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٨١)

ثمَّ أتت تعالى بعد الإخبار بخلق كثير من الجن والإنس للنار ، أخبر بخلق جماعة منهم للجنة ، بقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾ وجماعة خلقوا للجنة ، وهم مع كونهم مهتدين بأنفسهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ويرشدونهم إلى كل خير وسعادة ﴿بِالْحَقِّ﴾ والبرهان المتين ، أو إلى الحق ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في أحكامهم بين العباد.

وفي إعادة هذا الإخبار بعد ذكره في قوم موسى ﷺ دلالة على وجود هذا الصنف في أمة خاتم الأنبياء ﷺ أيضا.

قال الجبائي المعتزلي : إن الآية تدل على أنه لا يخلو زمان ألبيته عمن يقوم بالحق ، ويعمل به ، ويهدي إليه ، وأنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل ؛ لأنه لا يخلو أن يكون المراد زمان وجود محمد ﷺ ، أو أحد الأزمنة على الإجمال ، أو جميع الأزمنة. أما الأول فباطل ؛ لقطع الخلق بأن محمدا ﷺ وأصحابه كانوا على الحق ، فلا فائدة في الإخبار به ، وأما الثاني فباطل أيضا ؛ لقطع الناس بوجودهم في زمان من الأزمنة ، فتعين الثالث وهو الإخبار بوجودهم في جميع الأزمنة.

قال الفخر الرازي : أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد ﷺ . وروى قتادة وابن جريج عن النبي ﷺ : «أما هذه الأمة» . وروى عنه ﷺ قال : «هذه فيهم ، وقد أعطى الله قوم موسى مثلها» .

وعن الربيع بن أنس : أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقال : «إن من امتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم» (١) .

وعن الباقر ﷺ ، في هذه الآية : «هم الأئمة» (٢) .

وفي (المجمع) : عن أحدهما ﷺ قال : «نحن هم» (٣) .

وعن القمي : هذه الآية لآل محمد ﷺ وأتباعهم (٤) .

والعياشي : عن أمير المؤمنين ﷺ : «والذي نفسي بيده لتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين

فرقة كلها في النار إلا فرقة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه التي تنجو من هذه الأمة» (٥)

وعن (المجمع) : عن النبي ﷺ : «هذه لكم ، وقد اعطى قوم موسى مثلها» (٦) .

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٧٢ ، مجمع البيان ٤ : ٧٧٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٧٦ / ١٦٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٧٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٧٧ / ١٦٦٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٥ .

(٦) تقدّم نحوه في تفسير الرازي ١٥ : ٧٢ ، ولم يرد في (مجمع البيان) بهذا اللفظ ، لكن ورد في (تفسير الصافي)

أقول : الظاهر أنَّ المراد من قوله : « هذه لكم » أنَّ من نعم الله عليكم أنَّه جعل فيكم جماعة بهذه الصفات ، كما أعطي قوم موسى مثل هذه النعمة من أنَّه جعل منهم هداة مهديين ، وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فإنَّ الظاهر أنَّ المراد من قوله : ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أنَّ لهم ملكة العدل والهداية بحيث لا يمكن تخلفهم عنهما ، ومن المعلوم أنَّ جميع الأمة لا يكونون كذلك ، بل ولا جميع المهاجرين والأنصار ، لوضوح كثرة العصاة والجائرين فيهم ، فلا بدَّ من القول بأنَّ المراد بعضهم ، وقد اجتمعت الأمة على أنَّ عليًا والمعصومين من ذريته عليه السلام كانوا على تلك الصفات ، وهم الباقيون إلى نزول عيسى ، ولو لا هؤلاء لساخت الأرض بأهلها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد الإخبار بوجود أئمة يهدون إلى الحقِّ بآياته ، هدّد المكذِّبين بالآيات بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من أمة محمد صلى الله عليه وآله المرفوع عنهم عذاب الاستئصال ببركة نبيهم صلى الله عليه وآله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ ونقرهم إلى الهلاك متدرِّجاً بإكثار النعم عليهم ، وإغراقهم في اللذات والشهوات ، وإنسانهم التوبة حتَّى يقعوا في العذاب ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به ولا يدركون ما يراد بهم.

عن الصادق عليه السلام أنَّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة ، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب » ^(١).

وعنه عليه السلام : « إذا أراد الله بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار ، وإذا أراد بعبد شراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهو قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي » ^(٢).

﴿وَأْمُلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾

ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ من جملة أنحاء استدراجهم إطاعة أعمارهم بقوله : ﴿وَأْمُلِي لَهُمْ﴾ واملهم في الدُّنيا بإطالة أعمارهم ليتمادوا في العصيان والغفلة ، ويزدادوا كفراً وعتواً ﴿إِنْ كَيْدِي﴾ وأخذني

– منسوبا إلى (المجمع) ، والذي في (مجمع البيان) : « هي لآمتي ، بالحق يأخذون ، وبالحق يعطون ، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمِمَّنْ قَوْمُ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٩ / ٧] . مجمع البيان ٤ : ٧٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٦ . (١) الكافي ٢ : ٣٢٧ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٦ .

العصاة خفية وغفلة منهم ﴿مَتِينٌ﴾ قويّ بحيث لا يقدرّون على دفعه.

﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٨٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ الكفّار بغاية الغفلة وعدم الشّعور ، وبخّهم على ترك التفكّر في كمال عقل النبي ﷺ الذي هو كالشمس في رابعة ^(١) التّهار ؛ بقوله : ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ قيل : إنّ التّقدير : أكذبوا ولم يتفكّروا في البراهين العقلية التي يقيمها محمد ﷺ على صحّة دعواه ، والعلوم التي تظهر منه ببيان يعجز عن مثله مهرة الفصاحة والبلاغة ، ومعجزاته القاهرة ، وحسن خلقه ، وطيب عشرته ، ونقاوة سيرته ، ومتانة آرائه ، وغاية أمانته ، حتّى يعلموا أنّه ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ ونبيّهم الذي نشأ فيهم ، شيء وشائبة ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ واختلال عقل ، لا متناع أن يكون المتّصف بتلك الصّفات ناقص العقل فضلا عن فاقده ، بل هو قدوة عقلاء العالم.

قيل : إنّ كفّار قريش لما رأوا النبي ﷺ معرضا عن الدّنيا ، مقبلا إلى الآخرة ، مبالغا في الدّعوة إلى التّوحيد ، متغيّرا لونه عند نزول الوحي عليه ، نسبوه إلى الجنون ، فردّهم الله بقوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لكم ولأهل العالم ، ومن شأنه أن يكون بتلك الصّفات ﴿مُبِينٌ﴾ ومبالغ في الإنذار ، مظهر له غاية الإظهار.

روي أنّه ﷺ كان كثيرا ما يحذّر قريشا عقوبة الله ووقائعه النّازلة في الامم الماضية ، فقام ليلا على الصّفا وجعل يدعوهم إلى عبادة الله تعالى قبيلة قبيلة : يا بني فلان ، إلى الصّباح ، يحذّره بأس الله ، فقال قائلهم : إنّ صاحبكم هذا - يعني محمّدا - مجنون ، بات يهوّت ^(٢) إلى الصّباح ^(٣) .

﴿وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ

عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٨٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخهم على عدم التفكّر في حال النبي ﷺ حتّى يعلموا صدقه ، وبخّهم على ترك النّظر والتأمّل في شواهد التّوحيد بقوله : ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا﴾ قيل : إنّ التّقدير : أكذبوا محمّدا ﷺ في دعوته إلى التّوحيد ، ولم ينظروا بنظر الاعتبار ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يتأمّلوا في مملكة الله الوسيعة ، وآثار قدرته وحكمته ووحدانيته الظّاهرة فيها ، ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى تَحْوِيلِهِ﴾ وموجود حقير أو جليل ، صغير أو عظيم ، حتّى يطّلعوا على غاية عظمتهم وقدرته وتوحيده.

(١) في النسخة : رابعة.

(٢) هوّت به : صاح.

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٢٨٩ .

ثمَّ أتته حذرهم الله من العقوبة على ترك النظر بقوله : ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ قيل : إنَّ المعنى : ألم ينظروا في أنه يحتمل أن يكون موتهم قريبا ؛ فيموتون على الضلال وبيتلون بالعذاب ، فإنَّ العقل عند ذلك حاكم بوجوب المسارعة في النظر وتحقيق الحق ، كي يأمنوا من العذاب قبل موتهم . فإذا لم يكتفوا في تحقيق الحق بالقرآن ، ولم يؤمنوا به مع اشتماله على البراهين المتقنة على التوحيد والرَّسالة والمعاد ، مع إعجاز البيان ﴿فَيَأْتِي حَدِيثٌ﴾ وكلام أو كتاب ﴿بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ مع أنه لا يمكن أن يكون حديث أبين للحقِّ وأحسن منه ، فإذا لم يؤمنوا به فلا يرجى منهم الإيمان أبدا .

﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٨٦)

ثمَّ لما بيّن سبحانه أنَّ الذين لا يؤمنون بالقرآن لا يؤمنون بغيره من الكتب السماوية ، بيّن غاية ضلالتهم بقوله : ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ عن سبيل الحق ، ويجرفه عنها إلى الباطل بسلب توفيقه عنه ، وإيكاله إلى نفسه ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ من الأنبياء والرسل ، لعدم تأثير المواعظ والكتب السماوية في هدايته ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ ويتركهم ﴿فِي﴾ حال ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾ ومشاققتهم مع الله والرسل وهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتجبرون في جميع شؤونهم ، لا يصلون إلى خير أبدا .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان عدم علمهم بوقت الموت لإيجاب المسارعة في تحصيل الدين الحق ؛ لئلا يدركهم الموت وهم على الباطل ، بيّن جهل جميع الخلق أيضا بوقت قيام الساعة ، واختصاص العلم به بذاته المقدسة بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ والقيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وأي وقت يكون إتيانها واستقرارها ؟ .

عن ابن عباس : أنَّ قوما من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيا ، فإننا نعلم متى هي ؟ وكان ذلك امتحانا منهم مع علمهم بأنه تعالى استأثر بعلمها ، فنزلت ^(١) .
وقيل : إنَّ قريشا قالوا : يا محمد ، إنَّ بيننا وبينك قرابة ، فاذكر لنا متى الساعة ؟ فنزلت ^(٢) .

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٨٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٨٠ .

وعن القمّي : أنّ قريشا بعثت العاص بن وائل السهمي ، والتضر بن الحارث بن كلدة ، وعقبة بن أبي معيط إلى بخران ، ليتعلموا من علماء اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ ، وكان فيها : سلوا محمدا متى تقوم الساعة ، فإن ادّعى علم ذلك فهو كاذب ، فإنّ قيام الساعة لم يطلع الله عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلًا ، فلمّا سألوه نزلت (١) .

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به ، لم يطلع عليه أحدا من خلقه وإن كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلًا ﴿لَا يُجَلِّيُّهَا﴾ ولا يظهرها ﴿لَوْفِيهَا﴾ وفي زمانها أحد ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى شأنه ، وإنما يعلمها غيره تعالى حين وقوعها ، فإذا وقعت ﴿ثَقُلَتْ﴾ وعظمت ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على أهلها من الملائكة والجن والإنس ، لشدة أهوالها ، وعظم ما فيها من الشدائد.

وقيل : لأنّ فيها فناءهم وهلاكهم . وقيل : ثقل على قلوبهم لأنهم يعلمون أنهم يصيرون فيها إلى البعث والحساب والسؤال (٢) .

وقيل : ثقلت وقعته على السماوات ؛ لأنّ عندها تشققت السماوات ، وتكوّرت الشمس والقمر ، وانتشرت النجوم ، وثقلت على الأرض ؛ لأنّ فيها تبدّل الأرض غير الأرض ، وتبطل الجبال والبحار (٣) .

وقيل : يعني خفيت في السماوات والأرض ؛ أي لا يعلم أحد من الملائكة الأقربين والأنبياء المرسلين متى يكون وقوعها (٤) .

ثمّ أنّه أكّد سبحانه خفاءها على غيره بقوله : ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ وفجأة وعلى حين غفلة.

عن النبي ﷺ أنّه قال : « إنّ الساعة تفجأ الناس ، فالرجل يصلح موضعه ، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقوم بسلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه » (٥) .

وعنه ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، لتقومن الساعة وإنّ الرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك » (٦) .

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة سؤالهم بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ عن الساعة ﴿كَأَنَّكَ خَفِيٌّ﴾ ومبالغ في السؤال ﴿عَنْهَا﴾ شديد الطلب لمعرفة حثّي علمتها ، أو كأنك بارّ لطيف بهم بحيث لا تمنعهم من علمها.

ثمّ بالغ تعالى في جهل غيره بها بقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يعلم بها أحدا من خلقه

(١) تفسير القمي ١ : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٨ .

(٢ و ٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٥ : ٨١ .

(٥ و ٦) . تفسير الرازي ١٥ : ٨١ .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اختصاص علمها ، أو سبب اختصاص علمها به .

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ

لَا سَتَكُنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

ثم لما كان الناس يطلبون منه الإخبار بالمغيبات وإعطاءهم الأموال الكثيرة والدولة العظيمة ، أمره الله بإظهار قصور قدرته الذاتية ، وعدم علمه بالمغيبات إلا بإعلام الله ، بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿لَا أَمْلِكُ﴾ ولا أقدر ﴿لِنَفْسِي﴾ على أن أجلب ﴿نَفْعًا﴾ من المنافع الدنيوية والآخرية ﴿وَلَا﴾ على أن أدفع ﴿ضَرًّا﴾ وشرًا من المضار والشُّرور ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه منهما ، ولا علم لي بشيء منهما إلا بإعلامه تعالى .

قيل : إنَّ المراد : ولكن ما شاء الله منهما كائن .

فمن كان بهذه الدرجة من العجز والجهل الذاتيين ، كيف يعلم وقت قيام الساعة ؟ وكيف يقدر

على إخباركم به من قبل نفسه ؟

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَتَكُنَّ مِنَ الْخَيْرِ﴾ ولا زددت في قوتي ومالي وصحتي القمّي : كنت

أختار لنفسي الصحة والسلامة ^(١) ﴿وَمَا مَسَّنِيَ﴾ وما أصابني ﴿السُّوءُ﴾ من الفقر - كما عن الصادق

عليه السلام ^(٢) - أو المكارة من العدو والفقر والمرض وغيرها ، بل ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾ عبد أرسلني الله إليكم ؛

والرَّسول ﴿نَذِيرٌ﴾ ومحذر من الكفر ومخالفة أحكام الله ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بثواب الله ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله

وبرسالتي ، فإنَّهم المنتفعون بمواعظي .

ومن شأن التَّذير والبشير العلم بأحكام الله وما يرضيه ويسخطه ، وما يترتب على طاعته ومخالفته

، لا العلم بالمغيبات التي لا نفع فيها .

روي أنَّ أهل مكَّة قالوا : يا محمد ، ألا يخبرك ربك بالرحص والغلاء حتى نشري فربح ،

وبالأرض التي تجذب لترحل إلى الأرض الخصبة ، فنزلت ^(٣) .

وقيل : لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ، جاءت ريح في الطريق فتفرق ^(٤) الدواب

منها ، فأخبر النبي ﷺ بموت رفاعه في المدينة ، وكان فيه غيظ للمنافقين ، ثم قال : انظروا أين ناقتي ؟

(١) تفسير القمي ١ : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٨ .

(٢) معاني الأخبار : ١٧٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٨٣ .

(٤) في تفسير الرازي : ففرت .

فقال عبد الله بن أبي مع قومه : ألا تعجبون من هذا الرجل ، يخبر بموت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقلته ؟ ! فقال ﷺ : « إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا كَيْتُ وَكَيْتُ ، وَنَاقِي فِي هَذَا الشَّعْبِ قَدْ تَعَلَّقَ زَمَامُهَا بِشَجَرَةٍ » ، فوجدوها على ما قال (١) .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾

ثم أنه ﷺ بعد ادعاء الرسالة دعا الناس إلى التوحيد بالبرهان القاطع بقوله : ﴿هُوَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ جميعا بقدرته ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم ﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ من ضلع ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ﴾ آدم ويطمئن ﴿إِلَيْهَا﴾ اطمئنانا مصححا للازدواج ، ويستأنس بها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ وجامعها ﴿حَمَلَتْ﴾ وحبلت (٢) في البدء ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ بحيث لم تكثرث به ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ وتحركت بالقيام والقعود ، والذهاب والإياب ، بسهولة وراحة كما كانت قبله ، [كما] قيل (٣) .

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ حواء لكبر الجنين في بطنها ، استوحشت حواء واستوحش آدم من مآل الحمل الذي لم يعهدها ، فلذا ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ وتضرعا إليه وقالوا : يا رب ، وعزتك ﴿لَئِنْ آتَيْنَا﴾ وأعطينا ولدا ﴿صَالِحًا﴾ سويا في الخلقة ، أو في أمر الدين ، أو فيهما ﴿لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك هذه النعمة الجليلة الجديدة.

قيل : لما رأى آدم حين أخذ الميثاق على ذريته أنّ منهم سويّ الأَعْضاء ومنهم غير سويّ ، وأنّ منهم التقويّ ومنهم غير التقويّ ، سأل أن يكون هذا الولد سويّ الأَعْضاء تقيا نقيا من المعصية ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

عن ابن عباس قال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهي نفس آدم ، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي حواء خلقها [الله] من ضلع آدم من غير أذى ، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ... فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي ثقل الولد في بطنها ، أتاها إبليس في صورة رجل وقال : ما هذا يا حواء ؟ إني أخاف أن يكون كلبا أو بهيمة ، وما يدريك من أين يخرج ، أمن دبرك فيقتلك ، أو تنشق بطنك ؟ فخافت حواء

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٨٣ .

(٢) في النسخة : وأحبلت .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٤ .

وذكرت لآدم ذلك ، فلم يزل في همٍّ من ذلك. ثم أتاهما وقال : إن سألت الله أن يجعله صالحا سوياً مثلك ويسهل خروجه من بطنك تسميه عبد الحارث ؛ وكان اسم إبليس في الملائكة الحارث ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ أي لما آتاهما الله ولدا سوياً صالحا جعل له شركاء ، أي جعل آدم وحواء له شريكا ، والمراد به الحارث (١) .

أقول : فيه ما لا يخفى من الإشكال.

وقيل : إن ضمير (جعل) راجع إلى صنفين من أولاد آدم وحواء ؛ الذكور والإناث ، وكذا ضمير التثنية في قوله : ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ (٢) .

وعن الرضا عليه السلام أنه قال له المأمون : يا بن رسول الله ، أليس من قولك إن الأنبياء معصومون ؟ قال : « بلى » ، قال : فما معنى قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ؟ فقال الرضا عليه السلام : « إن حواء ولدت لآدم خمسمائة بطن ، في كل بطن ذكر وأنثى ، وإن آدم وحواء عاهدا الله تعالى ودعواه وقالوا : ﴿ لَكُنْ أَتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ من التسلسل خلقا سويا بريئا من الزمانة والعاهة ، كان ما آتاهما صنفين [صنف ذكرانا ، و] صنف إناثا ، فجعل الصنفان لله شركاء فيما آتاهما ، ولم يشكراه كشكر أبويهما له عز وجل ، قال الله عز وجل : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . فقال المأمون : أشهد أنك ابن رسول الله (٣) .

وقيل : إن الآية رد على المشركين القائلين بأن آدم كان يعبد الأصنام ويرجع في الخير والشر إليهما (٤) . وقوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ في معنى الاستفهام الإنكاري ، والمراد : ما جعل له شركاء (٥) ، وقوله : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين القائلين بالشرك ، وينسبونه إلى آدم عليه السلام (٦) .

وقيل : إن آدم وحواء جعلوا على أنفسهما إن آتاهما الله صالحا أن يجعلاه وقفاً على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق ، ثم بدا لهما في ذلك فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها ، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته (٧) ، فلهذا قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن الباقر عليه السلام : « هما آدم وحواء ، وإنما كان شركهما شرك طاعة وليس شرك عبادة » (٨) .

وقيل : إن الله تعالى ذكر هذه القصة على طريق ضرب المثل ، وتقريره كأنه تعالى يقول : هو

الذي

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٨٥ .

(٢) راجع : تفسير الرازي ١٥ : ٨٨ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ٨٧ .

(٥) في تفسير الرازي : التقدير : فلما آتاهما صالحا أجعل له شركاء .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٨٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٥ : ٨٨ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ١٧٧ / ١٦٦٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٥٩ .

خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويها في الإنسانيّة ، فلمّا تغيّس الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربّهما : لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا ل نكوننّ من الشّاكرين لآلائك ونعمائك ، فلمّا آتاها الله ولدا صالحا سويا ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاها ، فتارة ينسبون هذا الولد إلى الطّبائع كقول الطّبائعيّين ، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين ، وتارة إلى الأصنام كما هو قول عبدة الأصنام ، ثمّ قال تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزه الله عن ذلك الشّرك ^(١) .

وقيل : إن المراد من النفس الواحدة وزوجها غير آدم وحوّاء ، بل المراد منها قصي ، والخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ، وجعل من جنسها زوجها قرشية ليسكن إليها ، فلمّا آتاها ما طلبا من الولد الصّالح السويّ جعلاه شركاء فيما آتاها ، حيث سمّيا أولادهما الأربعة بعبد مناف وعبد العزّى وعبد قصي وعبد اللّات ، وجعل الضمير في (يشركون) لهما ولأعقابهما الذين اقتنوا بهما في الشّرك ^(٢) .

وفيه : أنّ آباء النبي ﷺ كلّهم كانوا موحدّين.

﴿أُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)﴾

ثمّ وبّخ الله المشركين على عبادة الجُماد العاجز من كلّ شيء بقوله : ﴿أُشْرِكُونَ﴾ هؤلاء الجهال بالله في الألوهيّة والعبادة ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً﴾ من الأشياء ولو كان في غاية القلّة والحفارة ، مع أنّ المستحقّ للعبادة لا بدّ أن يكون خالق عابده.

ثمّ أكّد عدم استحقاق الأصنام للعبادة بقوله : ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ بقدرة الغير ، والمخلوقيّة في غاية المبانيّة مع الألوهيّة واستحقاق العبادة.

قيل : إن إتيان الضمير الراجع إلى العقلاء للأصنام إمّا هو باعتقاد المشركين ، فإنهم كانوا يصوّرونها بصورة العقلاء ويزعمون أنّها تدرك وتشعر.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا

يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٢) و (١٩٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد سلب القدرة على الخلق عنها ، نفى عنها القدرة على إيصال النّفع لعبدها

بقوله :

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٨٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٨٧ .

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إذا طرأ على عبدتها أمر مهم ﴿لَهُمْ﴾ جزاء لعبادتها ﴿نَصْرًا﴾ وإعانة يجلب نفع أو دفع ضرر ، بل ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذا أصابهم سوء ﴿يَنْصُرُونَ﴾ بدفع ما يعتريها من السوء ، كما إذا أراد أحد كسرها أو لطخها بالألوان.

قيل : إنّ المشركين كانوا يلطّخون أفواه أصنامهم بالخلوق ^(١) والعسل ، [وكان] يجتمع عليها الذّباب ، فلا تقدر على دفع الذّباب عن أنفسها ^(٢) .

ثمّ بالغ سبحانه في سلب أهليّة الأصنام للعبادة بسلب الحياة والشّعور منها ، وأهليّتها لكونها تابعة لعبدتها فيما هو صلاحها ، بقوله : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿إِلَى﴾ شيء من ﴿الْهُدَى﴾ والصواب ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ ولا يوافقوكم في مرادكم لعدم حياتهم وشعورهم وعلمهم بدعوتكم.

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ ولا تفاوت في حقكم ﴿أَدْعَاؤُهُمْ﴾ إلى إنجاح حوائجكم ، أو إلى ما فيه صلاحكم وخيركم ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ وساكتون عن دعوتها.

قيل : إنّ المشركين كانوا إذا وقعوا في أمر مهمّ ومعضل تضرّعوا إلى الأصنام ، فإذا لم يحدث منها في تلك الواقعة شيء بقوا ساكتين ، فقليل لهم : لا فرق بين دعائكم وبين أن تستمروا في صمتكم ^(٣) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٤)

ثمّ بالغ سبحانه في بيان عدم صلاحية الأصنام للعبادة بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه ، على فرض حياتهم وشعورهم كما تعتقدون ﴿عِبَادٌ﴾ لله ﴿أَمْثَلُكُمْ﴾ مملوكون مستخرون تحت قدرة خالقهم ، والحال أنّها جمادات لا شعور لها ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ إلى كشف مضاركم وقضاء حوائجكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا﴾ دعاءكم ، ويقضوا ﴿لَكُمْ﴾ حوائجكم ، ويكشفوا عنكم مضاركم ، ويدفعوا عنكم الشّدائد والبلايا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون من كونهم أحياء شاعرين قادرين ، فإن ثبت كونها فاقدرات للحياة والشّعور ، عاجزات عن إبطال النّفع ، فلا يجوز بحكم العقل عبادتها والالتفات إليها.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ * إِنَّ وَلِيَی

(١) الخلق : ضرب من الطّيب أعظم أجزائه الزّعفران.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٩١ .

اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٥) و (١٩٦)

ثمّ تبه سبحانه على أن الأصنام أدون من الإنسان ، بل من سائر الحيوانات ، ولا يجوز عبادة الأشراف للأدون ، بقوله تقريراً لهم : ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ أَجَلٌ يَمُشُونَ بِهَا﴾ كما أنّها لكم ، بل لسائر الحيوانات ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ﴾ ويعملون أو يأخذون ﴿بِهَا﴾ ما يريدون عمله أو أخذه ، كما أنّ لكم أيدياً كذلك ﴿أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ﴾ المبصرات ﴿بِهَا﴾ كما أنّ للحيوانات أعينا كذلك ﴿أَمْ لَكُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ الأصوات ﴿بِهَا﴾ كما أنّ للحيوانات آذاناً كذلك ، فإذا لم يكن للأصنام هذه الجوارح الحيّة الفاعلة التي تكون لكم بل لسائر الحيوانات ، فأنتم بل سائر الحيوانات أفضل وأشرف منها ، ولا يجوز عبادة الأفضل والأشرف للمفضول والأوضع.

ثمّ لما كان المشركون يخوفون النبي ﷺ بأهنتهم ، أمره بأن يعلن بعدم قابليتها لأن يخاف منها بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، للمشركين : ﴿ادْعُوا﴾ الأصنام التي تعتقدون أنّها ﴿شُرَكَاءُكُمْ﴾ في أموالكم ، وأنّها أنداد لله في الألوهية ليعينوكم على الإضرار بي ﴿ثُمَّ﴾ أنتم وشركاؤكم ﴿كِيدُونَ﴾ واسعوا فيما تقدرون عليه من الإساءة إليّ ﴿فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ ولا تمهلوني ساعة فإني لا أبالي بكم.

﴿إِنْ وَلِيَّيْ﴾ وناصري عليكم ، وحافظي من كلّ سوء هو ﴿اللَّهُ﴾ الواحد القادر القاهر حيث إنّهُ ﴿الَّذِي﴾ أكرمني بأن ﴿نَزَلَ﴾ عليّ ﴿الْكِتَابَ﴾ العزيز ، وأوحى إليّ القرآن المجيد ﴿وَهُوَ﴾ بلطفه ﴿يَتَوَلَّى﴾ وينصر ﴿الصَّالِحِينَ﴾ من عباده على أعدائهم فضلاً عن أنبيائه ، فكيف يخذلني بينكم ؟

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ

لَا يُبْصِرُونَ (١٩٧) و (١٩٨)

ثمّ بالغ في إظهار عدم المبالاة بأصنامهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدوهم ممّا سوى الله و﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أيّها المشركون بالغون من العجز إلى الغاية ، حيث إنّهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ﴾ على أحد ، ولا يقدرون على إعانتكم في أمر ، بل و﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ إن تأتيتهم نائبة ﴿يَنْصُرُونَ﴾ بدفعها.

ثمّ أنّه تعالى بعد نفي الخواصّ والقوى عن الأصنام ، نفاهما عن جميع المشركين لتأمين النبي ﷺ والمؤمنين عن إساءتهم إليهم بقوله : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أيّها الرّسول والمؤمنون ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ وما فيه خيرهم من الإقرار بدين الحقّ لا يهتدوا ، كأثمّ ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ دعاءكم فضلاً عن أن يكيدوا بكم ويتعاونوا على الإضرار عليكم ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ يا محمد أثمّ ﴿يَنْظُرُونَ﴾ بأعينهم ﴿إِلَيْكَ وَهُمْ﴾ عمي

قلوبهم ، ولعدم ^(١) انتفاعهم برؤية أبصارهم كأهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾

وقيل : إنّ ضمائر الجمع كلّها راجعة إلى الأصنام ، والمراد المبالغة في عجزها وعدم استفادة المشركين بالاستعانة منها في الإساءة إلى النبي ﷺ ، والمعنى : إن تدعوا أيّها المشركون أصنامكم إلى أن يهدوكم إلى إمدادكم في تحصيل مقاصدكم لا يسمعون دعاءكم ، وترى أيّها الزّائي وتخيّل أنّ الأصنام ينظرون إليك - لما أنّ المشركين صنعوا لها أعينا مركّبة من الجواهر المضيئة المتألّفة ، وصوّروها بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه - والحال أنّهم لا يبصرون ، فلا سمع لهم ولا بصر.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾

ثمّ لما أمّن الله نبيّه ﷺ من كيد المشركين مع كونهم مهتدين له ومسيئين إليه ، أمره الله بالعفو عنهم والمداراة معهم بقوله : ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ عمّن أساء إليك ، ولا تجاوزه بالسّوء ، ولا تغلظ عليه ، وعاشر بحسن الخلق ، والتزم به.

روي عن النبي ﷺ [أنّه] سأل جبرئيل : « ما الأخذ بالعفو ؟ » فقال : لا أدري حتّى أسأل ، ثمّ رجع فقال : يا محمّد ، إنّ ربّك أمرك أن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمّن ظلمك ، وتحسن إلى من أساء إليك ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد : اقبل من أفعال النّاس ما سهل عليهم ، ومن أموالهم ما تيسّر لهم ، ولا تحمل عليهم الكلفة ، ولا تطلب منهم ما يشقّ عليهم ^(٣) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لرجل من ثقيف : « إنّك أن تضرب مسلماً أو يهودياً أو نصرانياً في درهم خراج ، أو تبيع دابة عمل في درهم ، فإنّا امرنا أن نأخذ منه العفو » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ الله أدب رسوله بذلك ، أي خذ منهم ما ظهر وتيسّر » . قال : « والعفو : الوسط » ^(٥) .

﴿وَأْمُرْ﴾ يا محمّد امتك ﴿بِالْعُرْفِ﴾ وبالجميل من الأفعال ، والحميد من الأخلاق. ويدخل فيه غضّ البصر عن المحارم ، وكفّ الجوارح عن المآثم ، والقيام بالواجبات والمستحبات ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ﴾ سيئات ﴿الْجَاهِلِينَ﴾ والسّفهاء ، ولا تمارهم ولا تكافئهم بمثل سفهمهم.

عن الرضا عليه السلام : « أنّ الله أمر نبيّه ﷺ بمداراة النّاس فقال : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عَنِ

(١) في النسخة : وعدم.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٩٦ ، تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٨ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٢٦٠ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ٢ : ١٣ / ٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦١ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٧٨ / ١٦٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦١ .

الجاهليين»^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها »^(٢) .

وعن سعيد بن هشام قال : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، فقالت : [كان] خلق رسول الله القرآن ، وإنما أدبه بالقرآن بمثل قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٣) ، وقوله : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾^(٤) .

﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٠٠)

ثم أنه روي أنه لما نزلت الآية^(٥) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف يا رب والغضب » ؟ فنزل ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ ﴾^(٦) ويبعثك إلى الشر ﴿ مِنْ ﴾ قبل ﴿ الشَّيْطَانِ ﴾ وبوسوسته ﴿ نَزْعٌ ﴾ وباعث ، ويهيجك سفية بإظهار سفهه ﴿ فَاسْتَعِذْ ﴾ والتجئ ﴿ بِاللَّهِ ﴾ من شر الشيطان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ يسمع استعاذتك والتجاءك به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم حالك وما فيه صلاحك. وهذا من باب إيتاك أعني واسمعي يا جارة ، حيث إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمقصود أمته.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يخاصم أخاه قد أحمر وجهه وانتفخت أوداجه من الغضب ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان ، لذهب عنه ما يجد »^(٧) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (٢٠١) و (٢٠٢)

ثم بين الله حال عباده المتقين ترغيبا لغيرهم إلى الاستعاذة ، بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله وخافوا عقابه ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ وأصابهم ﴿ طَائِفٌ ﴾ ونازلة خفيفة ﴿ مِنْ ﴾ وسوسة ﴿ الشَّيْطَانِ ﴾ واقتربوا من الوقوع في الشر والعصيان ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ وأشعروا قلوبهم عظمة الله وشدة عقابه ، أو الاستعاذة به والتوكل عليه ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ بسبب هذا التذكر ﴿ مُبْصِرُونَ ﴾ مكائد الشيطان ، وطريق السلامة من شره

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٥٦ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦١ .

(٢) جوامع الجامع : ١٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦١ .

(٣) لقمان : ٣١ / ١٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٨ ، والآية من سورة المائدة : ٥ / ١٣ .

(٥) أي الآية المتقدمة .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٨ .

(٧) تفسير روح البيان ٣ : ٢٩٩ .

فيسلكونه.

القَمِّي : إذا ذكّرهم الشَّيْطَانُ المعاصي وحملهم عليها يذكرون اسم الله ، فإذا هم مبصرون ^(١) .
وعن الصادق عليه السلام : « هو العبد يهّم بالذّنب ، ثمّ يتذكّر فيمسك » ^(٢) .
ويمكن أن [يكون] المراد من الطّائِف جمعاً من الشّياطين يطوفون حوله ويوسوسون في قلبه ،
ففيه مدحهم بقوة العقل بحيث لا يقدر على مسّهم ، والشّيطان واحد .
وأما أتباع الشّياطين ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ من الإنس ؛ وهم الذين لا يتّقون ، يعينون الشّياطين ،
و﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ وإضلال النَّاس ، وإيقاعهم في المعاصي بالتّزيين والترغيب إليها ، أو المراد أنّ
الشّياطين يمدّون إخوانهم وأتباعهم من الإنس في الغيِّ والضّلال ﴿ثُمَّ﴾ الشّياطين وإخوانهم ﴿لَا يُفَصِّرُونَ﴾
ولا يسأمون من عملهم ، بل يجذّون في الغيِّ غايته .

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا أَجَبْتَهَا لَوْلَا إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا
بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠٣)

ثمّ لما بيّن سبحانه سعي الشّياطين وأتباعهم من الإنس في الغيِّ والإضلال ذكر نوعاً من إضلالهم
بقوله : ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ﴾ من القرآن أو ممّا اقترحوها عليك وسألوها تعنّتاً عنك ، ولم تجبهم إلى ما
سألوا ﴿قَالُوا لَوْ لَا أَجَبْتَهَا﴾ وهلاً فعلتها بنفسك أو باقتراحك على ربّك إن كنت صادقاً في دعوى
نبوتك ؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد : ﴿إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ ولا أقترح عليه أمراً من الأمور ، ولا أسأله
شيئاً إلّا بإذنه ، ولا أقدم على عمل إلّا بإجازته ، فإن كان غرضكم من سؤال المعجزة ثبوت نبوّتي فإنّه
يكفيكم ﴿هَذَا﴾ القرآن الذي هو أعظم المعاجز ، حيث يكون فيه ﴿بَصَائِرُ﴾ وأدلة واضحة على صدقي
، نازلة إليكم ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَ﴾ يكون لكم ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إلى كلّ حقّ وخير ﴿وَرَحْمَةً﴾ وتفضّل عليكم
منه ، ولكن يكون نفعه المهمّ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به ؛ لأنّهم المتدبّرون فيه ، المستفيدون منه العلوم والمعارف
والسّعادة الأبدية ، وما فيه صلاح دنياهم وعقباهم .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان إعجاز القرآن ومنافعه ، أمر بالاستماع والإنصات له حين تلاوته بقوله :

﴿وَإِذَا

(١) تفسير القمي ١ : ٢٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٧٨ / ١٦٧١ ، الكافي ٢ : ٣١٥ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٢ .

قُرِئَ الْقُرْآنُ بمسمع منكم **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾** بأذانكم وقلوبكم **﴿وَأَنْصِتُوا﴾** له حين قراءته ، ولا تتكلموا بشيء تعظيما له وتكميلا للسمع **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** تفوزون بأعظم فوائده ومنافعه و**﴿تُرْحَمُونَ﴾** بالترجمة الخاصة الإلهية.

عن ابن عباس قال : كان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتكلمون في الصلاة ، ويأمرون بجوائجهم ، ويأتي الرجل الجماعة وهم يصلون فيسألهم : كم صليتم ، وكم بقي ؟ فيقولون : كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإنصات عند الصلاة ، فأريد من قراءة القرآن الصلاة لكونها معظم أجزائها ^(١) .
وعنه أيضا قال : قرأ رسول الله ﷺ في الصلاة المكتوبة ، وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه ، فنزلت الآية ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « إن كنت خلف إمام فلا تقرأ شيئا في الأوليين ، وأنصت لقراءته ، ولا تقرأ شيئا في الأخيرتين ، فإن الله يقول ^(٣) : **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾** يعني في الفريضة ، خلف الإمام **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** والأخيرتان تتبع للأولين » ^(٤) .
وعن الصادق عليه السلام : « إذا كنت خلف إمام تتولاه وتثق به فإنه يجزيك قراءته ، وإن أحببت أن تقرأ فاقرا فيما يخافت به ، فإذا جهر فأنصت ، قال الله تعالى : **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** » ^(٥) .

وعن أحدهما عليه السلام قال : « إذا كنت خلف إمام تأتم به فأنصت وسبح في نفسك » ^(٦) .
أقول : فيه دلالة على اجتماع الإنصات مع الذكر الخفي ، فعلم أن في الجماعة يجب الإنصات لقراءة الإمام ، وأما في غير الجماعة فلا إشكال في استحبابه ، و[أما] الصلاة خلف الإمام غير المرضي فحكمه حكم غير الجماعة.

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن الرجل يؤم القوم وأنت لا ترضى به في صلاة يجهر فيها بالقراءة ، فقال : « إذا سمعت كتاب الله يتلى فأنصت له » . قيل : فإنه يشهد علي بالشرك ، قال : « إن عصي الله فأطع الله » . فرددت عليه فأبى أن يرخّص لي . قيل : أصلي إذن في بيتي ثم أخرج إليه ، فقال : « أنت وذاك » .

وقال : « إن عليا عليه السلام كان في صلاة الصبح فقرأ ابن الكواء وهو خلفه **﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى**

الَّذِينَ

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٠٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٠٢ .

(٣) زاد في من لا يحضره الفقيه وتفسير الصافي : للمؤمنين .

(٤) من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٥٦ / ١١٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٢ .

(٥) التهذيب ٣ : ٣٣ / ١٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٣ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ١٧٩ / ١٦٧٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٣ .

مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرُكَتَ لَبِخْطَنَ عَمَلِكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١﴾ فَأَنْصَتَ عَلَيَّ ﷺ تعظيما للقرآن ، حتى فرغ من [الآية ثم عاد في] قراءته ، ثم أعاد ابن الكوّاء الآية ، فَأَنْصَتَ عَلَيَّ ﷺ أيضا ، ثم قرأ فأعاد ابن الكوّاء ، فَأَنْصَتَ عَلَيَّ ﷺ ، ثم قال : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢).

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)﴾

ثم أنّه تعالى بعد الأمر بالإنصات عند تلاوة القرآن ، أمر نبيّه ﷺ والمؤمنين بإخفات ذكر الله لكونه أقرب إلى الإخلاص ، بقوله : ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمد ﴿رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ وفي الخفية بحيث لا يسمع ذكرك غيرك ، حال كونك تتضرّع إليه وتخاف منه ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾
 قيل : معنى الذّكر في النفس : كون الإنسان عارفا بمعاني الأذكار التي يقولها باللسان ، مستحضرا لصفات الله الكمالية وعزّه وعلوّه وجلاله وعظمته.
 وفي توصيف ذاته المقدّسة بصفة الربوبية في المقام إشعار بكمال رحمته وقربه من الذّاكر ، وفضله وإحسانه إليه.

وقيل : إنّ الخطاب في الآية إلى الإنسان ، لا خصوص النبي ﷺ .

ثم رخص سبحانه في ترك المبالغة في الإخفات ، وأن يذكر بصوت فوق الأخفات بقوله : ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وفوق الإخفات ، فيكون متوسطا بينهما.

وعن ابن عباس : إنّ المعنى أن يذكر ربّه على وجه يسمع نفسه (٣) . ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ والصّباح والمساء ؛ لكونهما أفضل الأوقات ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ في وقت من الأوقات ﴿مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ربّك وذكره واللاهين عنه.

عن النبي ﷺ : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا﴾ يعني : مستكينا ﴿وَخِيفَةً﴾ يعني : خوفا من عذابه ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يعني : دون الجهر من القراءة ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني : بالغداة والعشي « (٤) » .

وعن أمير المؤمنين ﷺ : « من ذكر الله في السرّ فقد ذكر الله كثيرا ، إنّ المنافقين كانوا يذكرون

الله

(١) الزمر : ٣٩ / ٦٥ .

(٢) التهذيب ٣ : ٣٥ / ١٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٣ ، والآية من سورة الروم : ٣٠ / ٦٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٠٨ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٧٩ / ١٦٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٤ .

علانية ولا يذكرونه سرًا ، فقال الله : ﴿يُرَؤُنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) .
وعن أحدهما عليه السلام : « لا يكتب الملك إلّا ما يسمع ، وقال الله : ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ فلا يعلم ثواب ذلك الذّكر في نفس الرّجل إلّا الله لعظمته »^(٢) .
وعنه عليه السلام ، في هذه الآية قال : « تقول عند المساء لا إله إلّا هو^(٣) وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، [ويميت ويحيي] وهو على كلّ شيء قدير » .
قيل : بيده الخير ؟ قال : « إنّ بيده الخير ، ولكن قل كما أقول لك عشر مرّات . وأعوذ بالله السّميع العليم [من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربّ ان يحضرون إن الله هو السّميع العليم] . حين تطلع الشّمس وحين تغرب عشر مرّات »^(٤) .
ثمّ لما رغب الله سبحانه الرّسول ﷺ وعامة النّاس في الذّكر باللسان صباحا ومساء وفي تذكّره تعالى ، وإنّما قوى داعيتهم إليه ببيان حال المقرّين عنده ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة مع نهاية شرفهم ، وكمال طهارتهم وعصمتهم ، ونزاهتهم عن بواعث الشّهوة والغضب وعوارض الحقد والحسد . وعن القمّي يعني : الأنبياء والرّسل والأئمّة^(٥) ، مع عصمتهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا يتأنّفون ﴿عَنِ﴾ الخضوع لله و﴿عِبَادَتِهِ﴾ بل هم مستغرقون فيها آناء اللّيل وأطراف النّهار ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه من النقائص الإمكانية ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُونَ﴾
فإذا كانت الأنبياء والملائكة والمقرّون حالهم كذا ، فالإنسان المبتلى بظلمات الطّبيعة ، المنهمك في اللذات النّفسانية والشّهوات الحيوانية ، أولى بالمواظبة على العبادة والذّكر والطّاعة ، وأن لا يخلو من ذكره وتسبيحه وتقديسه .

(١) الكافي ٢ : ٣٦٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٤ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ١٤٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٧٩ / ١٦٧٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٤ .

(٣) في تفسير العياشي وتفسير الصافي : إلّا الله .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٨٠ / ١٦٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٤ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٤ .

في تفسير سورة الأنفال

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾

ثم لما ختم سورة الأعراف التي عمدة مطالبها إبطال الشرك ، وتهديد أهله بالعذاب ، وبيان غاية عجز الأصنام ، وأمر النبي ﷺ بالأعلان بوثوقه بالله تعالى في دفع كيدهم ، والعفو عمن ظلمه ، والإعراض عن الجاهلين ، ومداراة الناس ، والاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، ومدح المتقين بتذكر الله عند ذلك ، اردفت بسورة الأنفال التي أهم مطالبها إثبات صحة نبوة النبي ﷺ ، وإيجاب طاعته ، وملازمة التقوى ، وبيان كيفية نزغ الشيطان ، وإيجاب رفع التنازع بالصلح ، وغير ذلك من الأمور المرتبطة بما في السور السابقة ، فابتدأ بذكر الأسماء المباركات على حسب دأبه تعالى في كتابه بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثم افتتحها ببيان حكم الغنيمة التي وقع بين المسلمين التنازع فيها في وقعة بدر بقوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَنِ﴾ حكم ﴿الْأَنْفَالِ﴾ ويستفتونك فيها ﴿قُلِ﴾ في جوابهم : ﴿الْأَنْفَالُ﴾ كلها ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ليس لغيرهما فيها حق.

روي أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي تقسيمها ، فسألوا رسول الله ﷺ : كيف تقسم ، وإلى أين تصرف ، ومن الذين يتولون قسمتها ؛ أهم المهاجرون أم الأنصار ؟ (١) فنزلت (٢) . وعن عبادة بن الصامت قال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا وجعله لرسوله ، فقسّمه بين المسلمين على السواء (٣) . وروي أن الشبان يوم بدر قتلوا وأسروا ، والأشياخ وقفوا مع رسول الله ﷺ في المصاف ، فقال الشبان : الغنائم لنا ؛ لأننا قتلنا وهزمنا ، وقال الأشياخ : كنا رداء لكم ، ولو انهزمتم لانخرتم إلينا ، فلا تذهبوا

(١) زاد في تفسير روح البيان : أم هم جميعا .

(٢ و ٣) . تفسير روح البيان ٣ : ٣١١ .

بالغنائم دوننا. فوقعت المخاصمة ، فنزلت (١) .

وروي أنّ النبي ﷺ قسّم ما غنموه يوم بدر على من حضر ، وعلى أقوام لم يحضروا أيضا ؛ وهم ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، أمّا المهاجرون فأحدهم عثمان ؛ فإنّه ﷺ تركه على ابنته لأنها كانت مريضة ، وطلحة ، وسعيد بن زيد ؛ فإنّه ﷺ كان بعثهما للتجسس عن خبر العير ، وخرجا في طريق الشام. وأمّا الخمسة [من] الأنصار فأحدهم أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، خلفه النبي ﷺ على المدينة ، وعاصم خلفه على العالية ، والحارث بن حاطب ردّه من الرّوحاء إلى عمرو بن عوف لشيء بلغه عنه ، والحارث بن الصّمّة أصابته علّة بالرّوحاء ، وخوّات بن جبير ، فهؤلاء لم يحضروا وضرب لهم النبي ﷺ في تلك الغنائم بسهم ، فوقع من غيرهم فيه منازعة (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « نزلت يوم بدر لما انهزم النّاس ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ على ثلاث فرق ؛ فصنف كانوا عند خيمة النبي ﷺ ، وصنف أغاروا على النّهب ، وفرقة طلبت العدوّ وأسروا وغنموا ، فلما جمعوا الغنائم والأسارى تكلّمت الأنصار في الأسارى ، فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجِ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣) ، فلما أباح الله لهم الأسارى والغنائم تكلم سعد بن معاذ - أو سعد بن عثمان ، على نسخة - وكان ممّن أقام عند خيمة النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما منعنا أن نطلب العدوّ زهادة في الجهاد ، ولا جبا من العدوّ ، ولكنّا خفنا أن يعرّى موضعك فتميل عليك خيل المشركين ، وقد أقام عند الخيمة وجوه المهاجرين والأنصار ، ولم يشكّ أحد منهم ، والناس كثير يا رسول الله والغنائم قليلة ، ومتى يعطى هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء .

وخاف أنّ يقسّم رسول الله ﷺ الغنائم وأسلاب القتلى بين من قاتل ولا يعطي من تخلف عند خيمة رسول الله ﷺ شيئا ، فاحتلفوا فيما بينهم حتى سألو رسول الله ﷺ فقالوا : لمن الغنائم ؟ فأنزل الله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ فرجع الناس وليس لهم في الغنيمة شيء ، ثمّ أنزل الله بعد ذلك ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٤) الآية ، فقسّمه رسول الله ﷺ بينهم ، فقال سعد بن [أبي وقاص : يا رسول الله ، أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف ؟ فقال النبي ﷺ : ثكلتك أمّك ، وهل تنصرون إلّا بضعائكم ؟ ! » .

قال : « فلم يختم رسول الله ﷺ ببدر ، وقسّم بين أصحابه ، ثمّ استقبل بأخذ الخمس بعد بدر » (٥) .

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١١٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١١٥ .

(٣) الأنفال : ٨ / ٦٧ .

(٤) في النسخة : على .

(٥) الأنفال : ٨ / ٤١ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٧ .

وأما الأنفال ، فعن ابن عباس وجماعة أنها غنيمة بدر ^(١) . وقيل : هي أنفال السرايا ^(٢) . وقيل : هي ما شذ من المشركين من عبد أو جارية من غير قتال ^(٣) .

وعن الباقر والصادق عليهما السلام : « الفيء والأنفال ما كان من أرض لم يكن فيها هراقة دم ، أو قوم صولحوا وأعطوا بأيديهم ، وما كان من أرض خربة أو بطون أودية ، فهو كله من الفيء والأنفال ، فهذا كله لله ولرسوله ، فما كان فهو لرسوله يضعه حيث يشاء ، وهو للإمام بعد الرسول » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « الأنفال ما لم يوحف عليه بخيل ولا ركاب ، أو قوم صولحوا ، أو قوم أعطوا بأيديهم ، وكل أرض خربة وبطون الأودية فهو لرسول الله ، وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « من مات وليس له وارث ، فماله من الأنفال » ^(٦) .

وعن الباقر عليه السلام : « لنا الأنفال » ، قيل : وما الأنفال ؟ قال : « منها المعادن والآجام ، وكل أرض لا رب لها ، وكل أرض باد أهلها فهو لنا » ^(٧) .
وقال : « ما كان للملوك فهو من الأنفال » ^(٨) .

أقول : لا شك أن المراد بالسؤال في الآية الغنائم ؛ كما عن ابن عباس وعن الصادق عليهما السلام ، لوضوح أنه لم يكن في غنائم بدر شيء من الأمور المذكورة في الروايات ، وإنما هو المقصود من الأنفال الذي أطلق في غير الآية ، أو معناه الأعم من الأمور المذكورة والغنائم ، وإن وقع السؤال في بدر من الغنائم.

ولما كان التنازع محرماً أمر المؤمنين بالتقوى بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وخافوا عقابه أيها البدريون ، ولا تقدموا على معصية وتركوا المنازعة ، وارضوا بما حكم به الرسول ﷺ ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ من الأحوال بالمواساة فيما رزقكم الله والأقوال ، ولا تنازعوا.
ثم أكد الأمر بالتقوى بقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في أوامره ونواهيه ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بهما عن صميم القلب ، فإن الإيمان لا يتم إلا بالطاعة.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

(١) مجمع البيان ٤ : ٧٩٥ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٧٩٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١١٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٨٢ / ١٦٨٧ ، التهذيب ٤ : ١٣٤ / ٣٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٦ .

(٥) الكافي ١ : ٤٥٣ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٦ .

(٦) تفسير الصافي ٢ : ٢٦٦ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ١٨٣ / ١٦٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٧ .

(٨) تفسير الصافي ٢ : ٢٦٧ .

يُنْفِقُونَ (٢) و (٣)

ثمّ بينَ علّة ملازمة الإيمان للطّاعة ببيان الصّفات النفسانيّة التي لا ينفكّ المؤمن الكامل منها بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصادقون في الإيمان ، الكاملون فيه هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ عندهم ، أو ذكروه ﴿وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وخافت أفئدتهم من عظمتهم ومهابته ، ومن احتمال التّقصير في طاعته ؛ فيستحقّوا عتابه أو عقابه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾ وقرئت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وبمسمع منهم ﴿آيَاتُهُ﴾ القرآنيّة البالغة أعلى درجة الفصاحة ، المشحونة بالعلوم والمعارف والمواعظ والحكم ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات بالتفكّر والتدبّر فيها ﴿إِيمَانًا﴾ على إيمانهم لزيادة معرفتهم بعظمتهم وقدرته وحكمته وصدق رسوله ﴿و﴾ من المعلوم بأنّ من آثار ازدياد المعرفة وقوّة اليقين بصفاته الكماليّة أنّهم ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ومالك امورهم ، اللّطيف بهم ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ وعليه يعتمدون في امورهم ، وإليه يفوضون جميع شؤونهم من حفظهم ورزقهم وتدبير معاشهم ، فلا يخافون ولا يرجون غيره.

وروي أنّه « لا يكمل إيمان المرء حتّى يرى النّاس كالأباعير » (١) .

فإذا حصل للمؤمنين هذه الصّفات لا يكون نظره إلّا إلى تحصيل رضا الله ، فيقوم بطاعته ويبدل نفسه وماله في سبيله ، ولذا وصفهم بعد تلك الصّفات الحميدة النفسانيّة بقوله : ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهمّ العبادات البدنيّة مراعيًا لشرائطها المعتبرة في صحتها وكمالها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأعطيناهم من القوى والعلم والجاه والمال ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في سبيله ، ويبدلون في مرضاته. وإنّما حصّ سبحانه التوكّل من بين الصّفات النفسانيّة الباطنية ، والصّلاة والإنفاق من بين الأعمال الخارجيّة الظاهريّة بالذكر تنبيهها على شرفها وتبعيّة سائر الصّفات الكماليّة والأعمال العباديّة لها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ

يَنْظُرُونَ (٤) و (٦)

(١) ورد في (البحار) عن (مكارم الأخلاق) و(عدة الداعي) بلفظ : « لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى النّاس في جنب الله تبارك وتعالى أمثال الأباعير » . بحار الأنوار ٧٢ : ٣٠٤ و ٧٧ : ٨٥ .

ثمّ أنّه تعالى بعد حصر المؤمنين الكملين بالواحدين لتلك الصفات والأعمال ، أكّده بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الجليلة المذكورة ﴿هُمْ﴾ : بالخصوص ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً لا يشوبه شرك جلي ولا خفي ؛ لإحاطة نور الإيمان بقلوبهم وجوارحهم ، وظهور آثاره من بواطنهم وظواهرهم.

ثمّ بيّن سبحانه اختصاصهم بغاية الكرامة عنده بقوله : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ رفيعة من الكرامة والشرف ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الدنيا والآخرة ، ﴿وَهُمْ﴾ لهم ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وستر ، أي ستر لذنوبهم وزلاتهم ﴿وَرِزْقٌ﴾ واسع هنيء ﴿كَرِيمٌ﴾ لا انقطاع له ، ولا تعب ، ولا كدورة فيه في البرزخ والآخرة.

عن القمي رحمه الله : نزلت في أمير المؤمنين ، وأبي ذر ، وسلمان ، ومقداد (١) .

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام : « بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة ، وبالإيمان في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، وبالتقصان دخل المفرطون النار » (٢) .

ثمّ أنّه روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله لما رأى كثرة المشركين يوم بدر وقلة المسلمين قال : من قتل قتيلاً فله سلبه ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا ، ليرغبهم في القتال ، فلمّا انهزم المشركون قال سعد بن عباد : يا رسول الله ، إنّ جماعة من أصحابك وقومك فدوك بأنفسهم ولم يتأخروا عن القتال جنباً ولا بخلاً ببذل مهجهم ، ولكنهم أشفقوا عليك من أن تغتال ، فمتى أعطيت هؤلاء ما سمّيته لهم بقي خلق من المسلمين بغير شيء ، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ (٣) ففوّض الله أمر الغنيمة إلى رسوله يصنع فيها ما يشاء ، فأمسك المسلمون عن الطلب وفي أنفسهم بعضهم شيء من الكراهة (٤) .

وكذلك حين خرج الرسول صلى الله عليه وآله إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة ، فشبهه سبحانه كراحتهم اختصاص الأنفال بالرسول بكرائهم خروج الرسول صلى الله عليه وآله إلى قتال بدر بقوله : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الذي كنت فيه بالمدينة ، أو من المدينة التي هي دار هجرتك إلى قتال بدر إخراجاً مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والصّلاح ﴿وَوُجِدَ﴾ الحال ﴿إِنَّ قَرِيبًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك ﴿لَكَارِهُونَ﴾ خروجك ، فكما أنّ كراحتهم لخروجك كانت لما هو خير لهم ، كذلك كراحتهم اختصاصك بالغنيمة تكون كراهة ما فيه خيرهم.

وقيل : إنّ المعنى : أنّ الموصوفين بتلك الصفات هم المؤمنون حقاً ، كما أنّ حكم الله بخروجك من بيتك إلى القتال حقّ. قيل : إنّ جبرئيل أتاه وأمره بالخروج.

(١) تفسير القمي ١ : ٢٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٨ .

(٢) الكافي ٢ : ٣١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٦٨ .

(٣) الأنفال : ٨ / ١ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٢٥ .

في بيان واقعة بدر

روى بعض العامة أنّ عير قريش - أي قافلته - أقبلت من الشام وفيها تجارة كثيرة عظيمة ، ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل ، وكان في السنة الثانية من الهجرة ، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بإقبالها ، فأخبر المسلمين ، فأعجبهم تلقّيتها لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا سمع أبو سفيان فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفذهم ، ويخبرهم أنّ محمداً قد اعترض لعيركم فأدركوها ، فلما بلغ أهل مكة هذا الخبر نادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة : النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم وأمواكم - أي أدركوها - إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً.

وقد رأت عاتكة اخت العباس بن عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا فقالت لأخيها : إنّي رأيت عجباً ، كأنّ ملكاً نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلّق بها - أي رمى بها - إلى فوق ، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلّا أصابه حجر من تلك الصخرة ، فحدّث بها العباس صديقاً له يقال له عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وذكرها عتبة لبنت له ، ففشا الحديث. فقال أبو جهل للعباس : يا أبا الفضل ، أما يرضى رجالكم أن تنبأوا حتّى تنبأت نساؤكم ، فخرج أبو جهل بأهل مكة وهم التّفير ، فقيل له : إنّ العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا والله ، لا يكون ذلك أبداً حتّى ننحر الجزور ، ونشرب الخمر ، ونقيم القينات ^(١) والمعازف ببدر ، فتتسامع جميع العرب بمخرجنا ، وإنّ محمداً لم يصب العير ، وإنّا قد أغضضناه.

فمضى بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة - فنزل جبرئيل فقال : يا محمد ، إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين ؛ إمّا العير ، وإمّا قريشا ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه فقال : « ما تقولون ، إنّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ؟ فالعير أحبّ إليكم أم التّفير ؟ » فقالوا : بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدو. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ ، ثمّ ردّد عليهم فقال : « إنّ العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا أبو جهل قد أقبل » - يريد النبي ﷺ بذلك أنّ تلقّي التّفير وجهاد المشركين أثر عنده وأنفع للمؤمنين من الظّفير بالعير ، لما في تلقّي التّفير من كسر شوكة المشركين ، وإظهار الدّين الحقّ على الأديان كلّها ، فقالوا : يا رسول الله ، عليك بالعير ودع العدو.

فقام عند ما غضب رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر ، فأحسننا الكلام ^(٢) في اتّباع مراد الرسول

ﷺ ، ثمّ

(١) القينات : جمع قينة ، الأمة مغنية كانت أو غير مغنية.

(٢) الذي في (صحيح مسلم) : فتكلّم أبو بكر فأعرض عنه ، ثمّ تكلم عمر فأعرض عنه ، ونص كلام أبي بكر وعمر الذي أعرض عن الرسول ﷺ سيأتي برواية القمي ، ونقله أيضاً الواقدي في (المغازي) والمقريزي في (الامتاع والمؤانسة) . راجع : معالم المدرستين ١ :

قام سيّد الخزرج سعد بن عبادَة فقال : انظر في أمرك وامض ، فو الله لو سرت إلى عدن أبين ^(١) ما تخلف عنك رجل من الأنصار. ثم قال المقداد بن عمرو : يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فإنّا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ^(٢) ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إِنّا معكما مقاتلون ما دامت عين منّا تطرف.

فتبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : « أشيروا عليّ أيّها الناس » وهو يريد الأنصار ، أيّ بينوا لي ما في ضميركم في نصرتي ومعاونتي ؛ وذلك لأنّ الأنصار عاهدوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة أن ينصروه مادام في المدينة ، وإذا خرج منها لا يكون عليهم معاونته ونصرته ، فأراد ﷺ أن يعاهدهم على النصرة في هذه المعركة.

فقام سعد بن معاذ فقال : كأنتك تريدنا يا رسول الله ، قال : « أجل » ، قال : قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السّمع والطّاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فو الذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضنا معك ، ما تخلف منا رجل ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، إِنّا لصبر عند الحرب ، صدّق عند اللقاء ، ولعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله. ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد ثم قال : « سيروا على بركة الله وابتشروا ، فإنّ الله وعدني إحدى الطّائفتين ، والله لكأني انظر إلى مصارع القوم » ^(٣) .

بيان قصة بدر الكبرى

عن القمّي رحمه الله : أنّ عير قريش خرجت إلى الشّام فيها خزائنهم ، فأمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج ليأخذوها ، فأخبرهم أنّ الله تعالى قد وعده إحدى الطّائفتين ؛ إما العير أو قريش إن ظفر بهم ، فخرج في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فلما قارب بدرا ، كان أبو سفيان (لعنه الله) في العير ، فلما بلغه أنّ رسول الله ﷺ قد خرج يتعرّض العير خاف خوفا شديدا ، ومضى إلى الشّام ، فلما وافى البهرة ^(٤) أكثرى ضمضم بن عمرو الخزاعي بعشرة دنانير ، وأعطاه قلوّصا ^(٥) ، وقال له : امض إلى قريش : وأخبرهم أنّ محمدا والصبّاة ^(٦) من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعيركم ، فأدركوا العير. وأوصاه أن يخرم ناقته ويقطع اذنّها حتّى يسيل الدّم ويشقّ ثوبه من قبل ودبر ، فاذا دخل مكّة ولّى وجهه إلى ذنب البعير وصاح بأعلى صوته : يا آل غالب يا آل غالب ،

(١) عدن أبين : مدينة على ساحل بحر العرب.

(٢) المائدة : ٥ / ٢٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣١٥ .

(٤) بهرة : موضع بنواحي المدينة ، وفي النسخة : النقرة.

(٥) القلوّص : الشابة من النوق.

(٦) الصّبّاة : جمع صباي ، وهو الخارج من دين إلى آخر ، وكانت قريش تسمي أصحاب النبي ﷺ الصّبّاة لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام.

(٧) أي يشقّ ما بين منخريها.

اللّطيمة ^(١) اللّطيمة ، العير العير ، أدركوا أدركوا ، وما أراكم تدركون ، فإنّ محمّدا والصّباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعيركم. فخرج ضمضم يبادر إلى مكّة.

ورأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم في منامها بثلاثة أيّام ، كأنّ راكبا قد وافى مكّة ينادي : يا آل غدر ، يا آل غدر ، اغدوا إلى مصارعكم صبح ثالث. ثمّ وافى بحمله إلى أبي قبيس ، فأخذ حجرا ودهدهه من الجبل فما ترك دارا من دور قريش إلّا أصابه منه فلذة ، وكان وادي مكّة قد سال من أسفله دما ، فانتبهت ذعرة فأخبرت العباس بذلك ، فأخبر العباس عتبة بن ربيعة ، فقال عتبة بن ربيعة : تلك مصيبة تحدث في قريش.

ففشّت الرّؤيا في قريش ، فبلغ ذلك أبا جهل فقال : ما رأيت عاتكة هذه الرّؤيا ، وهذه نبية ثانية في [بني] عبد المطلب ، واللّات والعزى لنتظرنّ ثلاثة أيّام ، فإن كان ما رأيت حقّا فهو كما رأيت ، وإن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتابا أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا ونساء من بني هاشم. فلمّا مضى يوم قال أبو جهل : هذا يوم قد مضى ، فلمّا كان اليوم الثّاني قال أبو جهل : هذان يومان قد مضيا ، فلمّا كان اليوم الثّالث وافى ضمضم ينادي في الوادي : يا آل غالب ، يا آل غالب ، اللّطيمة اللّطيمة ، العير العير ، أدركوا [أدركوا] وما أراكم تدركون ، فإنّ محمّدا والصّباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعيركم التي فيها خزائنكم.

فتصايح الناس بمكّة وتهيأوا للخروج ، فقام سهل بن عمرو وصفوان بن اميّة وأبو البخترى بن هشام ومنبه ونبية ابنا الحجاج ونوفل بن خويلد فقالوا : يا معشر قريش [والله] ما أصابكم مصيبة أعظم من هذه ، أن يطمع محمّد والصّباة من أهل يثرب أن يتعرّضوا لعيركم التي فيها خزائنكم ، فوالله ما قرشي ولا قرشيّة إلّا ولهما في هذه العير نش ^(٢) فصاعدا ، وإنّه لذلّ وصغار أن يطمع محمّد في أموالكم ويفرق بينكم وبين متحركم.

فأخرجوا وأخرج صفوان بن اميّة خمسمائة دينار وجهّز بها ، وأخرج سهيل بن عمرو [خمس مائة] ، وما بقي [أحد] من عظماء قريش إلّا أخرجوا مالا ، وحملوا وقووا ، وخرجوا على الصّعب والدّلّول لا يملكون أنفسهم كما قال الله : ﴿ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ ^(٣) ، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالب ، وأخرجوا معهم القيان يشربون الخمر ويضربون بالدّفوف ^(٤) .

(١) اللطيمة : العير التي تحمل الطيب ويزّ التجارة وقوله : يا آل غالب اللطيمة ، أي أدركوها.

(٢) النشّ : نصف أوقية ، ويعادل عشرين درهما.

(٣) الأنفال : ٨ / ٤٧ .

(٤) في النسخة : بالدّفّ.

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، فلما كان بقرب بدر على ليلة منها بعث بشير بن أبي الرغباء ومحمد بن عمرو يتجسسان خبر العير ، فأتيا ماء بدر فأناخا راحلتيهما واستعذبا من الماء ، وسمعا جارتين قد تشبّثت إحداهما بالأخرى ، وتطالبها بدرهم كان لها عليها ، فقالت : عير قريش نزلت أمس في موضع كذا ، وهي تنزل غدا هاهنا ، وأعمل لهم وأفضيك.

فرجعا فأخبراه بما سمعا ، فأقبل أبو سفيان بالعير ، فلما شارف بدرا تقدّم العير وأقبل وحده حتّى انتهى إلى ماء بدر ، وكان بها رجل من جهينة يقال له الكسب الجهني فقال له : يا كسب ، هل لك علم بمحمد وأصحابه ؟ قال : لا ، قال : واللّات والعزى لئن كتمتنا أمر محمد ، لا تزال قريش لك معادية آخر الدهر ، فإنّه ليس أحد من قريش إلّا وله في هذه العير نشّ فصاعدا ، فلا تكتمني ، فقال : والله مالي علم بمحمد ، وما بال محمد وأصحابه بالتجّار ، إلّا أنّي رأيت في هذا اليوم راكبين أقبلا فاستعذبا من الماء ، وأناخا راحلتيهما ورجعا ، ولا أدري من هما. فجاء أبو سفيان إلى موضع مناخ إبلهما ، ففتّ أبعاد الإبل ، فوجد فيها التوى فقال : هذه علائف يشرب ، هؤلاء والله عيون محمد ، فرجع مسرعا وأمر بالعير فأخذ بها نحو ساحل البحر ، وتركوا الطريق ومروا مسرعين.

ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره أنّ العير قد أفلتت ، وأنّ قريشا قد أقبلت لتمنع عن غيرها ، وأمر بالقتال ووعد النصر ، وكان نازلا ماء الصفراء^(١) ، فأحبّ أن يبلو الأنصار ، لأنّهم إنّما وعدوه أن ينصروه إذا كان في الدار ، فأخبرهم أنّ العير قد أفلتت ، وأنّ قريشا قد أقبلت لتمنع عن غيرها ، وأنّ الله قد أمرني بمحاربتهم ، فجزع أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك ، وخافوا خوفا شديدا.

فقال رسول الله ﷺ : « أشيروا عليّ » فقام أبو بكر فقال : يا رسول الله ، إنّها قريش وخيلاؤها ، ما آمنت منذ كفرت ، ولا ذلّت منذ عزّت ، ولم تخرج على هيئة الحرب.

فقال رسول الله ﷺ « اجلس » فجلس ، فقال : « أشيروا عليّ » ، فقام عمر فقال مثل مقالة أبي بكر ، فقال : « اجلس » ، ثمّ قام المقداد فقال : يا رسول الله ، إنّها قريش وخيلاؤها ، وقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ من عند الله ، ولو أمرتنا أن نخوض جمر الغضى وشوك الهراس^(٢) لخضنا معك ، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٣) ولكننا نقول : اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّنا معكما مقاتلون. فجزاه النبي ﷺ خيرا فجلس.

(١) الصفراء : واد من ناحية المدينة ، كثير النخل والزرع ، بينه وبين بدر مرحلة.

(٢) الغضى : جمع غضاة ، وهي شجرة الأثل صلبة الخشب ، وجمره يبقى زمانا طويلا ، والهراس : شجر كبير من الفصيلة القرنية ، وله شوك كأنّه الحسك.

(٣) المائدة : ٥ / ٢٤ .

ثم قال : « أشيروا عليّ » ، فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كأنتك أردتنا ، قال : « نعم » ، قال : فلعلك خرجت على أمر قد امرت بغيره ، قال : « نعم » ، قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله ، فمرنا بما شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واترك منها ما شئت ، والذي أخذت منه أحب إلي مما تركت ، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضنا معك .

ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، والله ما خضت هذا الطريق قط ، ومالي به علم ، وقد خلّفنا بالمدينة قوما ليس نحن بأشدّ جهادا لك منهم ، ولو علموا أنّه الحرب لما تخلّفوا ، ولكن نعدّ لك الرّواحل ونلقى عدوّنا ، فإنّا صبرّ عند اللقاء أنجاد في الحرب ، وإنّا لنرجو أن يقرّر الله عينك بنا ، فإنّ يك ما تحبّ فهو ذاك ، وإن يك غير ذلك فقدت على رواحلك فلحقت بقومنا .

فقال رسول الله ﷺ : « أو يحدث الله غير ذلك ، كأبي بمصرع فلان هاهنا ، [ومصرع فلان هاهنا] ومصرع أبي جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومنبّه ونبيه ابني الحجاج ، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، ولن يخلف الله الميعاد » فنزل جبرئيل [على رسول الله ﷺ] بهذه الآية ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾^(١) الآية .

قيل : إنّ المعنى (أخرجك ربك) كأن^(٢) تترك التوجّه إلى العير وتؤثر عليه مقاتلة النّفير في حال كراهة فريق من أصحابك ما أثرته من محاربة النّفير^(٣) .

وهم ﴿ يُجَادِلُونَكَ ﴾ ويخاصمونك ﴿ فِي الْحَقِّ ﴾ الذي هو تلقّي النّفير لإيثارهم عليه تلقّي العير ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ وظهر لهم بإعلامك أنّهم ينصرون أينما توجهوا ، قيل : كانوا يقولون : ما كان خروجنا إلّا للعر ، وهلا قلت إنّ الخروج لمقاتلة النّفير لنستعدّ ونتأهب ؟ فخرجوا كارهين ﴿ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ ﴾ بالعنف ﴿ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ والقتل ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى أمارات الموت وأسبابه ويشاهدونها عيانا ، وما كانت هذه المرتبة من الخوف إلّا لقلّة عددهم وعدم تأهبهم . وقد مرّ أنّه كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأمّا تأهبهم فقد روي أنّه لم يكن فيهم إلّا فارسان ؛ الزّبير والمقداد ، ولهم سبعون بعيرا ، وستّ أدرع ، وثمانية أسياف^(٤) .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ ﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٢٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٧١ .

(٢) في تفسير روح البيان : أخرجك ربك من بيتك لأن .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣١٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٣١٦ .

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحَقِّقَ
الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ
لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ (٧) و (٩) ﴿﴾

ثم شرع سبحانه في بيان وقعة بدر وكرهه فومه إياها ، وكيفية نصرته نبيه ﷺ بقوله : ﴿وَإِذْ
يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِخْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ العير أو التفير ﴿أَنَّهُ﴾ تكون ﴿لَكُمْ﴾ ومختصة بكم ﴿و﴾ أنتم ﴿تَوَدُّونَ﴾
وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ﴾ والقوة من الطائفتين ، وهي العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ حيث لم يكن فيها إلا
أربعون رجلا ، وذات الشوكة منهما ، وهي التفير ، فإنه كان عددهم ألفا ، أو قريبا منه ﴿و﴾ لكن
﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ إرادة تكوينية من توجيهكم إلى ذات الشوكة ﴿أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ ويثبتة ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ وآياته الدالة
عليه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم ويهلكهم بسيوف المسلمين.

ثم أكد سبحانه التعليل بقوله : ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾ ويظهر دين الإسلام والتوحيد ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾
ويعمحو من أرض الحجاز الباطل ومذهب الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ والطاعة العاصون.
قيل : إن المراد من الأول بيان سبب اختلاف الإرادتين ، ومن الثاني بيان حكمة توجيه الرسول
ﷺ إلى التفير .

وفي رواية القمّي : فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل حتى نزل عشاء ماء بدر ، وهي العدو (١)
الشاميّة ، وأقبلت قريش فنزلت بالعدوة اليمانيّة ، وبعثت عبيدها تستعذب من الماء ، فأخذهم أصحاب
رسول الله ﷺ وحبسوهم ، فقالوا [لهم] : من أنتم ؟ قالوا : نحن عبيد قريش ، قالوا : فأين العير ؟
قالوا : لا علم لنا بالعير ، فأقبلوا يضربونهم ، وكان رسول الله ﷺ يصلي ، فانفتل من صلاته فقال : «
إن صدقوكم ضريتموهم ، وإن كذبوكم تركتموهم ، عليّ بهم » ، فأتوا بهم ، فقال لهم : « من أنتم »
قالوا : يا محمد ، نحن عبيد قريش ، قال ﷺ : « كم القوم ؟ » قالوا : لا علم لنا بعددهم ، قال : «
كم ينحرون في كل يوم جزورا ؟ » قالوا : تسعة إلى عشرة ، فقال رسول الله ﷺ : « القوم تسعمائة إلى
ألف » قال : « فمن فيهم من بني هاشم ؟ » قالوا : العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ،
وعقيل بن أبي طالب ، فأمر رسول الله ﷺ بهم فحبسوا.

وبلغ قريشا ذلك ، فخافوا خوفا شديدا ، ولقي عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام فقال [له]

: أما

(١) العدو : المكان المرتفع أو شاطئ الوادي وجانبه.

ترى هذا البغيّ ، والله ما أبصر موضع قدمي ، خرجنا لنمنع عيرنا وقد افلئت ، فجئنا بغيا وعدوانا ، والله ما أفلح قوم قط بغوا ، ولوددت أنّ ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهب كلّ ولم نسر هذا المسير . فقال له أبو البخترى : إنّك سيّد من سادات قريش ، فسر في التّاس وتحمل العير التي أصابها محمّد وأصحابه بنخلة ، ودم ابن الحضرمي فإنّه حليفك .

فقال عتبة : أنت تشير عليّ بذلك ولا لأحد ^(١) متّا خلاف إلّا ابن حنظلة - يعني أبا جهل - فسر إليه وأعلمه أنّي تحمّلت العير التي أصابها محمّد ودم ابن الحضرمي .

فقال أبو البخترى : فقصدت خباءه ، فإذا هو قد أخرج درعا له فقلت له : إنّ أبا الوليد بعثني إليك برسالة ، فغضب ثمّ قال : أما وجد عتبة رسولا غيرك ؟ فقلت : أما والله لو أرسلني غيره ما جئت ، ولكن أبا الوليد سيّد العشيرة ، فغضب غضبة أخرى فقال : تقول سيّد العشيرة ، فقلت : أنا أقول وقريش كلّها تقول إنّّه [قد] تحمّل العير ودم ابن الحضرمي .

فقال : إنّ عتبة أطول الناس لسانا ، وأبلغهم في الكلام ، ويتعصّب لمحمد ، فإنّه من بني عبد مناف ، وابنه معه ، ويريد أن لا يخلّده بين الناس ، لا واللّات والعزّى حتّى نقحم عليهم يئرب ، ونأخذهم اسارى ، فندخلهم مكّة ، وتتسامع العرب بذلك ، فلا يكون بيننا وبين متجرنا أحد نكرهه . وبلغ أصحاب رسول الله كثرة قريش ، ففزعوا فرعا شديدا ، وشكوا وبكوا واستغاثوا ، الخبر ^(٢) . وفي رواية عاميّة : أنّهم لما علموا أنّه لا بدّ من القتال ، جعلوا يدعون الله قائلين : أي ربّ انصرنا على عدوّك ، يا غياث المستغيثين أغثنا ^(٣) .

وروي أنّ رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو ويقول : اللهم أنجر [لي] ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض . فما زال كذلك حتّى سقط رداؤه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبيّ الله كفّاك منا شدتك ربّك ، فإنّه سينجز ما وعدك ^(٤) .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ

(١) في المصدر : بذلك وما على أحد .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٦٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٧٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣١٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٣١٨ .

بِهِ الْأَقْدَامُ (١٠) وَ (١١)

فذكرهم سبحانه ذلك الوقت بقوله : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وتسالونه النصر والغلبة على عدوكم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأنجح مسألتكم بأن أوحى إلى رسوله ﷺ ﴿أَنِّي مُبَدِّدُكُمْ﴾ ومؤيدكم ﴿يَأْتِيهِ﴾ مقاتل ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ حال كونهم ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ومتتابعين بعضهم إثر بعض ، أو متابعين للمسلمين .

ثم تبه سبحانه على غناه في نصر المسلمين عن الملائكة ، وإنما كان إنزالهم ليراهم المسلمون فتطمئن بهم قلوبهم ، ويفرحوا برؤية أنصارهم ، بقوله : ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أيها المسلمون وما أنزلهم ﴿إِلَّا﴾ ليكون نزولهم ﴿بُشْرَى﴾ لكم وموجبا لسرور قلوبكم بمشاهدة سبب نصركم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ بإمدادهم وتستقر ﴿بِهِ﴾ من التزلزل الحاصل من الوجع من كثرتهم وشوكتهم ، وقلة عددكم وعدتكم ﴿فَلَوْ يُكْمِ﴾ فإن نظركم إلى الأسباب ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾ والغلبة لأحد ﴿إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وبقدرته وإرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على خلقه ، وقوي على إنفاذ إرادته بلا حاجة إلى شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله ، مراعا للمصالح فيها .

قيل : إن الملائكة لم يقاتلوا مستدلاً بهذه الآية ، وقيل : إنهم قاتلوا وقتلوا مستدلاً بالروايات .

روي عن ابن مسعود أنه قال له أبو جهل : من أين الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً ؟ قال : هو من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أنتم ^(١) .

وروي أنّ رجلاً من المسلمين بينما هو يشترّد في أثر رجل من المشركين إذ سمع صوت ضربه بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك وقد خرّ مستلقياً وقد شقّ وجهه ، فحدث الأنصاري رسول الله ﷺ فقال : صدقت ، ذاك من مدد السماء ^(٢) .

ثم أنّه روى بعض أصحابنا أنّ رسول الله ﷺ نزل في موضع لا تثبت فيه القدم لكثرة الزمل ، فلمّا أمسى رسول الله ﷺ وجّه الليل القي على أصحابه النعاس حتّى ناموا ، واحتلم في تلك الليلة بعضهم ، فأنزل الله عليهم السماء ، فذكرهم الله سبحانه تلك المنة بقوله : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ...﴾ ^(٣) .

وعن بعض العامة : أنّ رسول الله ﷺ سار بأصحابه حتّى نزلوا في كتيب أعفر - أي في تلّ من الزمل الأحمر - تسوخ فيه الأقدام - أي تدخل فيه وتغيب - وعلى غير ماء ، بالجانب الأقرب من المدينة من الوادي ، ونزل المشركون بجانبه الأبعد من المدينة الأقرب إلى مكة والوادي بينهما ، ثمّ

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٣٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٣٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٦١ .

باتوا ليلتهم وناموا ، ثم استيقظوا وقد أجنب أكثرهم ، وغلب المشركون على ماء بدر وليس معهم ماء ، فمَثَّلَ لهم الشيطان فوسوس إليهم وقال : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق ، وأنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنازة ، وقد عطشتم ، ولو كنتم على الحق ما سبقكم المشركون إلى الماء ، وما غلبوكم عليه ، وما ينتظرون إلا أن يضعفكم العطش ، فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ؛ فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، فأنزل الله عليهم المطر ليلا حتى سال الوادي وامتأ من الماء ، فاغتسل المسلمون وتوضأوا وشربوا وسقوا دوابهم ، وبنوا على عدوته - أي جانبه - حياضا ، واشتدَّ الرَّمْلُ وتلبَّدت بذلك أرضهم - وأوحلت أرض عدوهم - حتى ثبتت عليها الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان ، فطابت نفوسهم ، وقويت قلوبهم. وتهيأوا للقتال من الغد^(١) .

فذكَّره الله ذلك بقوله : ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمْ﴾ ويحيط بكم ﴿النُّعَاسُ﴾ والنوم الخفيف العارض في البدء ؛ لأنه وجدت قلوبكم ﴿أَمَنَةً﴾ من ضرر العدو لا كلالا ولا إعياء ، وتلك الأمانة كانت ﴿مِنْهُ﴾ تعالى وبلطفه ، لا بالأمارات والأسباب العادية ﴿وَيُنْزِلُ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حال كونكم نائمين ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعا مباركا ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من حدث الجنازة وغيره ﴿وَيُذْهِبَ﴾ ويزيل ﴿عَنْكُمْ﴾ ذلك المطر ﴿رَجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ ووسوسته المخوفة لكم ، والشكوك العارضة لقلوبكم - وقيل : اريد بالرجز الجنازة - ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ ويقويها بالثقة بلطفه وتأنيده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ منكم على الأرض حتى تتمكنوا وتقعدوا على المشي والكر بسهولة ، وقيل : يعني يثبت أقدامكم في الحرب.

عن القمي رحمه الله : ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وذلك أنَّ بعض أصحاب النبي ﷺ احتلم - إلى أن قال - وكان المطر على قريش مثل العزالي^(٢) ، وكان على أصحاب رسول الله ﷺ رذاذا بقدر ما تلبد به الأرض ، وخافت قريش خوفا شديدا فأقبلوا يتحارسون ويخافون البيات ، فبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود فقال : « ادخلا في القوم وآتونا بأخبارهم » . فكانا يجولان بعسكرهم فلا يرون إلا خائفا ذعرا ، إذا صهل الفرس وثب على جحفلته^(٣) ، فسمعوا منبئة بن الحجاج يقول :

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) العزالي : جمع عزلاء ، وهي مصب الماء من القرية ، كناية عن شدته.

(٣) الجحفلة : شفة الفرس ، بمعنى أنه يريد إسكانه عن الصهيل.

لا يترك الجوع لنا مبيتاً لا بد أن نموت أو نميتاً قالوا ^(١) : والله كانوا شباعا ، ولكنهم من الخوف قالوا هذا ، وألقى الله في قلوبهم الرعب ، كما قال الله تعالى : ﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ﴾ ^(٢) .

فلما أصبح رسول الله ﷺ عباً أصحابه ، وكان في عسكر رسول الله ﷺ فرسان ، فرس للزبير بن العوام ، وفرس لمقداد ، وكان في عسكره سبعون جملاً يتعاقبون عليها ، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومثد بن أبي مرثد الغنوي على جمل يتعاقبون عليه والجمل لمثد ، وكان في عسكر قريش أربعمائة فرس ، فعباً رسول الله ﷺ أصحابه بين يديه فقال : « غصّوا أبصاركم ، ولا تبدروهم بالقتال ، ولا يتكلمن أحد » .

فلما نظرت قريش إلى قلة أصحاب رسول الله قال أبو جهل : ما هم إلا أكلة رأس ^(٣) ، لو بعثنا إليهم عبيدا لأخذوهم أحذا باليد ، فقال عتبة بن ربيعة : أترى لهم كمينا ومددا ؟ فبعثوا عمرو ^(٤) بن وهب الجحامي ، وكان فارسا شجاعا ، فجال بفرسه حتى طاف [على] عسكر رسول الله ، ثم صعد في الوادي وصوّت ، ثم رجع إلى قريش فقال : ما لهم كمين ولا مدد ، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع ، أما تروهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الافاعي ، ما لهم ملجأ إلا سيوفهم ، وما أراهم يولّون حتى يقتلوا ، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم ، فارتأوا رأيكم . فقال له أبو جهل : كذبت وجبت وانتفخ سحرك ^(٥) حين نظرت إلى سيوف أهل يثرب .

وفزع أصحاب رسول الله حين نظروا إلى كثرة قريش وقوّتهم ، فأنزل الله على رسوله ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ^(٦) ، وقد علم الله أنهم لا يجنحون ولا يجيئون إلى السلم ، وإنما أراد بذلك تطيب قلوب أصحاب النبي ، فبعث رسول الله ﷺ إلى قريش فقال : « يا معشر قريش ، ما أحد [من العرب] أبغض إليّ من أن أبدأكم ، فخلّوني والعرب ، فإن أك صادقا فأنتم أعلا بي عينا ، وإن أك كاذبا كفتكم ذؤبان العرب أمري ؛ فارجعوا » .

فقال عتبة : والله ما أفلح قطّ الذين ردّوا هذا . ثم ركب جملا له أحمر ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يجول في العسكر وينهى عن القتال ، فقال : « إن يكن عند أحد خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا » .

(١) في تفسير القمي : قال ﷺ .

(٢) الأنفال : ١٢ / ٨ .

(٣) أي قليل يشبعهم رأس واحد .

(٤) في القمي : عمر .

(٥) السحر : كل ما تعلّق بالخلق من قلب ورثة ، بمعنى : خفت وجبت .

(٦) الأنفال : ٦١ / ٨ .

فأقبل عتبة يقول : يا معشر قريش ، اجتمعوا واسمعوا ، ثم خطبهم فقال : بمن مع رجب ، ورحب مع يمن ، يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدھر ، وارجعوا إلى مكّة و [اشربوا] الخمر وعانقوا الحور ، فإنّ محمداً له إلّ وذمة وهو ابن عمّكم ، فارجعوا ولا تردّوا قولي ^(١) ، وإنّما تطالبون محمداً بالعر التي أخذها بنخلة ، ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعليّ عقله ^(٢) .

فلما سمع أبو جهل ذلك غاظه وقال : إنّ عتبة أطول الناس لساناً وأبلغهم كلاماً ، ثم قال : يا عتبة ، نظرت إلى سيوف بني عبد المطلب وجنبت وانتفخ سحرك ، وتأمر الناس بالرجوع وقد رأينا ثارنا بأعيننا ، فنزل عتبة عن جملة وحمل على أبي جهل ، وكان على فرس ، فأخذ بشعره فقال للناس : يقتله ^(٣) ، فقال : أمثلي يجبن ؟ ! وستعلم قريش اليوم أيّنا ألام وأجبن ، وأيّنا المفسد لقومه ، لا يمشي إلّا أنا وأنت إلى الموت عياناً ، ثم قال :

هذا جناي وخياره فيه وكلّ جان يده إلى فيه.

ثم أخذ بشعره يجرّه ، فاجتمع إليه الناس فقالوا : يا أبا الوليد ، الله [الله] لا تفتّ في أعضاد الناس ، تنهى عن شيء وتكون أوّله ، فخلّصوا أبا جهل من يده.

فنظر عتبة إلى أخيه شيبه ونظر إلى ابنه الوليد فقال : قم يا بني ، فقام ثم لبس درعه ، وطلبوا له بيضة تسع رأسه فلم يجدوها لعظم هامته ، فاعتمّ بعمامتين ، ثم أخذ سيفه وتقدّم هو وأخوه شيبه وابنه الوليد ونادى : يا محمّد أخرج إلينا أكفأنا من قريش ، فبرز إليه ثلاثة نفر من الأنصار : عوذ ^(٤) ومعوذ وعوف [من] بني عفرأ فقال عتبة : من أنتم ؟ انتسبوا لنعرفكم. فقالوا : نحن بنو عفرأ أنصار الله وأنصار رسول الله ، فقال : ارجعوا فإنّنا لسنا إيّاكم نريد ، إنّما نريد الأكفأ من قريش ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ « أن ارجعوا » فرجعوا ، وكره أن يكون أوّل الكثرة بالأنصار ، فرجعوا ووقفوا موقفهم.

ثم نظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ؛ وكان له سبعون سنة ، فقال له : « قم يا عبيدة » ، فقام بين يديه بالسيف ، ثم نظر إلى حمزة بن عبد المطلب فقال : « قم يا عم » ، ثم نظر إلى أمير المؤمنين عليّ فقال له : « قم يا عليّ » ؛ وكان أصغر القوم سنّاً فقال : « اطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم ، فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها تريد أن تطفئ نور الله ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره » .

ثم قال : « يا عبيدة عليك بعتبة » ، وقال حمزة : « عليك بشيبه » ، وقال لعليّ عليه السلام : « عليك بالوليد بن عتبة » ، فمروا حتّى انتهوا إلى القوم ، فقال عتبة : من أنتم انتسبوا لنعرفكم. فقال عبيدة : أنا عبيدة بن

(١) في المصدر : رأيي .

(٢) أي دينه .

(٣) زاد في المصدر : فعزب فرسه .

(٤) في مغازي الواقدي ١ : ٦٨ معاذ ، بدل : عوذ .

الحارث بن عبد المطلب ، فقال : كفؤ كريم . [فقال :] فمن هذان ؟ فقال : حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ، فقال : كفؤان كريمان ، لعن الله من أوقفنا وإياكم هذا الموقف ، فقال شيبة لحمزة : من أنت ؟ فقال : أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسود رسوله ، فقال له شيبة : لقد لقيت أسد الحلفاء ، فانظر كيف تكون صولتك يا أسد الله ؟

فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ففلق هامته ، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعا ، وحمل حمزة على شيبة فتضاربا بالسيفين حتى انثلما وكل واحد منهما يتقي بدرقته ، وحمل أمير المؤمنين عليه السلام على الوليد بن عتبة فضربه على جبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه . فقال علي عليه السلام : « فأخذ يمينه المقطوعة يبساره فضرب بها هامتي ، فظننت أن السماء وقعت على الأرض » .

ثم اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون : يا علي أما ترى الكلب قد بصر ^(١) عمك ، فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال : « يا عم طأطئ رأسك » وكان حمزة أطول من شيبة ، فأدخل حمزة رأسه في صدره ، فضربه أمير المؤمنين عليه السلام على رأسه فطير نصفه ، ثم جاء إلى عتبة وبه رمق فأجهز عليه ، وحمل عبيدة بين حمزة وعلي حتى أتوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعبر ، فقال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمّي ، أ لست شهيدا ؟ قال : « بلى ، أنت أول شهيد من أهل بيتي » ، فقال : أما لو أن عمك كان حيّا لعلم أنّي أولى بما قال منه ، قال صلى الله عليه وآله : وأي أعمامي تعني ؟ قال : أبو طالب ، حيث يقول : كذبتكم وبيت الله نبزى ^(٢) محمدا و لمّا نطاعن دونه ونناضل ونسلمه حتى نصرّع حوله و نذهل عن أبنائنا والحلائل ^(٣)

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أما ترى ابنه كالليث العادي بين يدي الله ورسوله ، وابنه الآخر في جهاد الله بأرض الحبشة ؟ » فقال : يا رسول الله [الله] ، أسخطت عليّ في هذه الحالة ؟ فقال : « ما سخطت عليك ، ولكن ذكرت عمّي فانقبضت لذلك » .

وقال أبو جهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كما عجل وبطر أبناء ربيعة ، عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزرا ، وعليكم بقريش فخذوهم أخذا حتى ندخلهم مكّة ، فنعرفهم ضاللتهم التي كانوا عليها . وكان فئة ^(٤) من قريش أسلموا بمكّة فحبسهم آباؤهم ، فخرجوا مع قريش إلى بدر وهم على الشكّ والارتياب والتّفاق ؛ منهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكهة ، والحارث بن ربيعة ،

(١) بصر : أي أجهدته حتى تتابع نفسه .

(٢) أي نسلب ، وأراد لا نبزى .

(٣) ديوان أبي طالب عليه السلام : ٢٥ .

(٤) في تفسير القمي : فتيّة .

وعلي بن امية بن خلف ، والعاص بن المنبة ، فلما نظروا إلى قلة أصحاب محمد ﷺ قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم فيقتلون الساعاة.

إلى أن قال : فجاء إبليس إلى قريش في صورة سراقه بن مالك فقال لهم : أنا جار لكم ، ادفعوا إليّ رايتكم ؛ فدفعوها إليه ، وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول الله ، ويخيل إليهم ويفزعهم ، وأقبلت قريش يقدمها إبليس معه الزاية ، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه : « غصّوا أبصاركم وعضّوا على التّواجذ ، ولا تسلّوا سيفاً حتّى آذن لكم » ثمّ رفع يده إلى السماء فقال : « يا ربّ إن تهلك هذه العصاة لم تعبد ، وإن شئت أن لا تعبد » لا تعبد ، ثمّ أصابه الغشيّ فسرى عنه وهو يسلم (١) العرق عن وجهه ويقول : « هذا جبرئيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين » . قال : فنظرنا فإذا بسحابة [سوداء] فيها برق لائح قد وقعت على عسكر رسول الله ﷺ وقائل يقول : أقدم حيزوم ، [أقدم حيزوم] وسمعنا قعقة السّلاح من الجو . الخبر (٢) .

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

ذَلِكُمْ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٢) و (١٤)﴾

ثمّ ذكر الله المسلمين وقت الرّبط على قلوبهم وتثبيت أقدامهم بقوله : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ قيل : إنّ التقدير : اذكر وقتاً يوحى ربك (٣) ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ المأمورين بنصرة المؤمنين ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالتّصرّ والعون ، وقيل : إنّ التقدير : أن قولوا للمؤمنين بالإلهام أو بتوسّط الرّسول : إنّ الله معكم ﴿فَثَبَّتُوا﴾ أيّها الملائكة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في معركة القتال والنّزال بتقوية قلوبهم وإيمانهم ، وبشارتهم بالتّصرّ ، وتكثير سوادهم ، وقولوا لهم : إِنِّي ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ منهم ، والخوف من سطوتهم ﴿فَاضْرِبُوا﴾ أيّها الملائكة ، أو المؤمنون ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ وأعاليتها التي هي المذابح ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وأصابع . وقيل : إنّ المراد ضرب جميع الأعضاء من أعاليتها وأسافلها .

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من إلقاء الرّعب في قلوب الكفّار ، وضرب أعضائهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا﴾ وعاندوا ﴿اللَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ وعارضوهما ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ﴾ ويعاند ويعارض ﴿اللَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ ويسعى في إطفاء

(١) أي يمسه ويذله.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٧٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣٢١ .

نورهما ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يعاقبه عقاباً شديداً ، لكونه تعالى ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من أشرك به وعاده ، وعادى أوليائه ، وما نزل بهم في [هذا] اليوم قليل [إذا قيس] بما أعد لهم وحكم في حقهم .
﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب العاجل من القتل والخزي ، أيها الكفار ﴿فَذُوقُوا﴾ واطعموا طعمه في الدنيا
﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ في الآخرة ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ الذي يكون ما نزل بكم بالنسبة إليه يسيراً في الغاية .

القَمِيّ ﷺ : وخرج أبو جهل بين الصَّفَيْنِ فقال : اللهم إنَّ محمداً قطعنا الرحم وأتانا بما لا نعرفه فأهنة الغداة - إلى أن قال القَمِيّ : - ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى فرمى به في وجوه قريش وقال : « شامت الوجوه » ، فبعث الله رياحا تضرب وجوه قريش ، فكانت الهزيمة ^(١) ، فقتل منهم سبعون وافر سبعون .

والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل ، فضرب [عمرو] أبا جهل على فخذيه ، وضرب أبو جهل عمراً على يده ، فأبأها من العضد فتعلقت بجلده ، فاتكأ عمرو على يده برجله ، ثم نزا ^(٢) في السماء حتى انقطعت الجلدة ورمى بيده .

وقال عبد الله بن مسعود : انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه ، فقلت : الحمد لله الذي أحزأك ، ورفع رأسه فقال : إنما أخزى عبد بن أمّ عبد ^(٣) ، لمن الدّين ، ولمن الملك [وملك] ؟ قلت : لله ولرسوله ، وإني قاتلك ، ووضعت رجلي على عنقه ، فقال : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم ، أما إنّه ليس شيء أشدّ من قتلك إيتاي في هذا اليوم ، لا يولي قتلي إلا رجل من المطليبين ^(٤) أو رجل من الأحلاف ، فقلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته ، وأخذت رأسه وحثت به إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله البشري ، هذا رأس أبي جهل ، فسجد لله شكراً .

وأسر أبو بشر الأنصاري العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ، وجاء بهما إلى رسول الله ﷺ ، فقال له ﷺ : « هل أعانك عليهما أحد ؟ » قال : نعم ، رجل عليه ثياب بيض ، فقال رسول الله ﷺ : ذاك من الملائكة . ثم قال رسول الله ﷺ للعباس : « افد نفسك وابن أخيك » ، فقال : يا رسول

(١) زاد في المصدر : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام » .

(٢) نزا : وثب .

(٣) في المصدر : إنما أخزى الله عبد بن أمّ عبد الله .

(٤) في المصدر : هذا اليوم ألا تولى قتلي رجل من المطمئنين ، ولعل الصواب : المطيِّبين ، وحلف المطيِّبين : اجتمع بنو هاشم وبنو زهرة وتيم في دار ابن جذعان في الجاهلية ، وجعلوا طيباً في جفنة وغمسوا أيديهم فيه ، وتحالفوا على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم فسموا المطيِّبين ، وتعاهدت بنو عبد الدار مع جمع ومخزوم وعديّ وكعب وسهم هلفاً آخر مؤكداً ، فسموا الأحلاف لذلك . النهاية ٣ : ١٤٩ .

الله ، قد كنت أسلمت ، ولكنّ القوم استكروني ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك عليه ، فأما ظاهر أمرك فقد كنت علينا » . ثم قال : « يا عباس ، إنكم خاصتم الله فخصمكم » ، ثم قال : « افد نفسك وابن أخيك » وقد كان العباس أخذ معه أربعين أوقية من ذهب ، فغنمها رسول الله ﷺ ، فلما قال رسول الله [للعباس] : « افد نفسك وابن أخيك » قال : يا رسول الله ، احسبها من فدائي ، فقال رسول الله : « لا ، ذاك شيء أعطانا الله منك ، فافد نفسك وابن أخيك » ، فقال العباس : ليس لي مال غير الذي ذهب مني ، قال : « بلى ، المال الذي خلّفته عند أم الفضل بمكة ، وقلت لها : إن حدث عليّ حدث فاقسموه بينكم » ، فقال له : تتركني ^(١) وأنا أسأل الناس بكفّي ؟ !

ثم قال رسول الله ﷺ لعقيل : « قد قتل الله أبا جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومنبه ونبه ابني الحجاج ، ونوفل بن خويلد ، وأسر سهيل بن عمرو ، والنضر بن الحارث بن كلفة ، وعقبة بن أبي معيط ، وفلان وفلان » ، فقال عقيل : إذا لا تنازع في تهامة ، فان كنت أثخت القوم وإلا فاركب أكتافهم ، فتبسّم رسول الله ﷺ .

إلى أن قال القمي رحمه الله : فجمعوا الاسارى وفرّقوهم في الجمال ^(٢) ، وساقوهم على أقدامهم ، وجمعوا الغنائم . وقتل من أصحاب رسول الله تسعة رجال ؛ فيهم سعد بن خيثمة ، وكان من النقباء . فرحل رسول الله ﷺ ونزل الأثيل عند غروب الشمس ، وهو من بدر على ستة أميال ، فنظر رسول الله ﷺ إلى عقبة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحارث ، وهما في قران واحد ، فقال النضر لعقبة : أنا وأنت مقتولان ، فقال عقبة : من بين قريش ؟ قال : نعم ، لأنّ محمداً قد نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل .

فقال رسول الله ﷺ : « يا عليّ عليّ بالنضر وعقبة » وكان النضر رجلاً جميلاً ، عليه شعر ، فجاء عليّ عليه السلام فأخذ بشعره ، فجرّه إلى رسول الله ﷺ ، فقال النضر : يا محمد أسألك بالرحم التي بيني وبينك إلّا أحرّيتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتي ، وإن فاديتهم فاديتني ، وإن أطلقتهم أطلقتني ، فقال رسول الله ﷺ : لا رحم بيني وبينك ، قطع الله [الرحم] بالإسلام . قدّمه يا عليّ فاضرب عنقه .

[فقدّمه وضرب عنقه] .

فقال عقبة : [يا محمد] ألم تقل : « لا تصبر قريش » - أي لا يقتلون صبراً - قال : « أو أنت من قريش ؟ ! إنّما أنت عالج من أهل صفّورية ^(٣) ، لأنّ في الميلاد أكبر من أيك الذي تدعى له ، قدّمه يا عليّ

(١) في المصدر : ما تتركني إلّا .

(٢) كذا في النسخة والصافي ، وفي تفسير القمي : وقروهم في الجمال ، ولعله تصحيف : وقروهم في الحبال .

(٣) صفّورية : بلدة بالأردن .

فاضرب عنقه » ، فقدّمه فاضرب عنقه ^(١) .

وعن ابن عباس : سؤى أصحاب رسول الله صفوفهم وقدموا راياتهم ، فوضعوها مواضعها ، فوقف رسول الله ﷺ على بعير له يدعو الله ويستغيث ، فهبط جبرئيل في خمسمائة على ميمنتهم ، وميكائيل في خمسمائة على ميسرتهم ، فكان الملك يأتي الرجل من المسلمين على صورة رجل ويقول له : دنوت من عسكر المشركين فسمعتهم يقولون : والله لئن حملوا علينا لا نثبت لهم أبدا ، فألقى الله في قلوب الكفرة الرعب بعد قيامهم للصف ^(٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) وَ (١٦)﴾

ثمّ لما ذكر الله نعمته على أهل بدر بالثبات والاستقامة في الحرب ، أمر المسلمين كافة بالثبات في مطلق جهاد الكفار بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ﴾ وصادفتم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أيّ وقت وأيّ مكان ، حال كونهم ﴿زَحَفًا﴾ ومقبلين إليكم للقتال ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ ولا تجعلوا ظهوركم نحوهم فضلا عن الفرار ، وإن كانوا أضعافكم.

ثمّ هدّدهم سبحانه على الفرار بقوله : ﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وحين التقائهم ﴿ذُبُرُهُ﴾ وجعل ظهره نحوهم بأيّ داع من الدواعي ﴿إِلَّا﴾ أن يكون الموليّ ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ ومائلا إلى طائفة اخرى ﴿لِقِتَالٍ﴾ أو إلى جهة اخرى ليتخيّل الكافر أنّه انهزم فيتعاقبه ويبعد عن أعوانه ، ثمّ يكرّ عليه وحده ﴿أَوْ﴾ يكون ﴿مُتَحَيِّرًا﴾ ومتوجّها ﴿إِلَى فِتْنَةٍ﴾ وجماعة من المسلمين ليستعين بهم ، فليس الموليّ في هاتين الصورتين فازّا من القتال ، بل هو متهيّئ ومتقوٍّ للحرب ، ومن تولّى لغير هذين الغرضين ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾ شديد كائن ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ القاهر الغالب ، وأثر هذا الغضب أن يكون منزله ﴿وَمَاوَاهُ﴾ في الآخرة النّار الموقدة بذلك الغضب ، تسمّى ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمرجع تلك ، فلا ترجعوا من مقابل الكفار إلى مأوى تأمنون فيه من القتل حتّى لا تبتلوا بالرجوع إلى مأوى من النّار.

عن الكاظم عليه السلام ، ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ قال : « متطرّدا يريد الكرّة عليهم ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ يعني متأخرا إلى أصحابه من غير هزيمة ، فمن انهزم حتّى يجوز صفّ أصحابه فقد باء بغضب من الله » ^(٣).

(١) تفسير القمي ١ : ٢٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٣٢٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٨٨ / ١٧١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٦ .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكَُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) و (١٨)

ثم قوى سبحانه قلوب المؤمنين في الجهاد ببيان أنه هو القاهر للأعداء وقتلهم وهزمهم كما
قتلهم وهزمهم بيدر ، بقوله : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في غزوة بدر بقوتكم وقدرتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته
﴿قَتَلَهُمْ﴾ حيث قوى قلوبكم ، وأزال عنكم الخوف ، وأيدكم بالملائكة ، وألقى في قلوبهم الرعب ﴿وَمَا
رَمَيْتَ﴾ الحصى أو التراب في وجوه قريش يوم بدر ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ الحصى أو التراب يا محمد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾
في الحقيقة ﴿رَمَى﴾ حيث إنه أمرك بالرمي ، وأوصل الحصاة إلى عيون المشركين.

روي أنه لما طلعت قريش من العنقل - وهو الكتيب الذي جاءوا منه إلى الوادي - قال
ﷺ : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، يكذبون رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني »
فأتاه جبرئيل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلّي ﷺ : « أعطني من
صباء الوادي » ، فرمى بها في وجوههم وقال : « شأهت الوجوه » - أي قبحت - فما من المشركين
أحد إلا أصاب عينيه ومنخره تراب ، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، ثم لما انصرفوا من
المعركة غالبين غافين ، أقبلوا على التفاخر يقولون : قتلنا وأسرت وفعلت وتركت ، فنزلت (١) .

فحاصل الآية أن الرمي وإن كان بيدك ، إلا أن إيصال ذرات الحصى في وجوه جميع المشركين ؛
بحيث لم يبق فيهم عين إلا أصابها منه ، لم يكن إلا بقدرة الله تعالى وعلى خلاف العادة.

وإنما فعل ذلك ليمحق الكافرين ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويمتحنهم ﴿مِنْهُ بَلَاءً﴾ وامتحاننا ﴿حَسَنًا﴾
ليعلم أنهم يقومون بشكره أم لا. وقيل : يعني : لينعم عليهم نعمة عظيمة من النصر والغلبة ومشاهدة
الآيات ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وصفاء ضمائرهم ، وانقطاعهم عن
الأسباب.

﴿ذَلِكَُمْ﴾ البلاء الحسن للمؤمنين إحدى العلل ، والثانية : أن يعلم المؤمنون أن الله مؤيدهم ﴿وَأَنَّ
اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ومبطل حيلهم في إطفاء نور الحق ، والإحلال في أمر نبيّه ﷺ .
وقيل : نزل قوله : ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ في يوم خيبر ، فأخذ رسول الله ﷺ قوسا وهو على باب خيبر
فرمى سهمها ، فأقبل السهم حتى قتل ابن أبي الحقيق ، فنزلت (٢) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٢٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٤٠ .

وقيل : نزلت في أحد ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ خلف بعظم رميم وقال : يا محمد ، من يحيي هذا وهو رميم ؟ فقال ﷺ : يحييه الله [ثم يميتك ، ثم يحيك] ، ثم يدخلك النار » فأسر يوم بدر ، فلما افتدي قال لرسول الله ﷺ : إن عندي فرسا أعتلفها كل يوم فرقا ^(١) من ذرة كي أقتلك عليها ، فقال ﷺ : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

فلما كان يوم أحد أقبل أبي يركض على ذلك الفرس حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه ، فقال ﷺ : « استأخروا » ، ورماه بحربة فكسر ضلعا من أضلاعه ، فحمل فمات ببعض الطريق ، فنزلت ^(٢) .

ثم أنه روي أن أهل مكة لما أرادوا الخروج إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفتتين ، وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين ^(٣) .

وروي أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم انصر أفضل الفريقين وأحقهما بالنصر ، اللهم أيتنا أقطع للرحم وأفسد للجماعة فاقتله ^(٤) .

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ

نُعْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩)

فبين الله استجابة دعائهم في حق المؤمنين بقوله : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ وتسنعروا يا أهل مكة لأعلى الجندين ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ من قبل الله ﴿الْفَتْحُ﴾ والنصرة. وذلك على سبيل التهكم. وقيل : إن التهكم في إطلاق الفتح على الهزيمة والخزي.

ثم وعظهم بقوله : ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ وترتدعوا عن الكفر والعناد والعصيان ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من البقاء عليها والابتلاء بالحرب ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى محاربة الرسول ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرته وتأييده ، وخذلانكم وقهركم ﴿وَلَنْ نُعْنِي﴾ ولن تكف ، أو لن تدفع ﴿عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ وجماعتكم التي تجمعونها ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ الفئة عددا وعدة ﴿وَوَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بالنصر والعون ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتوحيده ورسوله وكتابه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا

تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ

(١) الفرق : مكيال بالمدينة يسع ثلاثة أصع.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٤٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٤٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٣٢٨ .

الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ

لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٠) و (٢٣)

ثمَّ أتت تعالى بعد الأمر بالتَّبات في جهاد الكفار والتهديد على التَّوَلَّى عنهم ، أمر بالتَّبات في طاعة الرِّسول ، وعدم التَّوَلَّى عنه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع أوامره ونواهيه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا ﴿عَنْهُ﴾ ولا تخالفوه في شيء من الأمور ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن الذي أنزله الله عليه ، الدالَّ على نبوته باشماله على معاجز كثيرة ، الناطق بوجوب طاعته ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ﴾ إذا تليت عليهم آيات الله ﴿قَالُوا﴾ بألسنتهم : ﴿سَمِعْنَا﴾ تلك الآيات سماع فهم وقبول ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع القبول عن صميم القلب ، ولا ينتفعون بها شيئاً ، بل يستهزئون بها سراً ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ والحيوانات التي تدب وتتحرك في الأرض ، أو البهائم التي تمشي على أربع ، وأحسَّها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه ﴿الصُّمُّ﴾ الذين لا يسمعون الحق و ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين لا ينطقون به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحق ولا يدركونه ولا يميزون بينه وبين الباطل ، فمن لم يسمع الآيات الإلهية سماع القبول ، ولم يفهمها حقَّ الفهم ، فهو شرَّ منهم عند الله ، وإمَّا كان اتَّصفهم بتلك الرذائل لعدم الخير فيهم أصلاً ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سيَّما من جهة قابلية الدَّات وطيب الطينة ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآيات والمواعظ ، وفهمهم معانيها وحقائقها ﴿وَلَوْ﴾ لكن خبثت ذاتهم وطينتهم بحيث ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ عن قبولها ، وما انتفعوا من سماعها ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنها غير معتنين بها لعنادهم.

عن الباقر عليه السلام : نزلت في بني عبد الدار ، لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير ، وحليف لهم يقال له سويط « (١) » .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ يَخُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾

ثمَّ أكَّد سبحانه الأمر بإجابة دعوة الرِّسول وطاعته بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وبادروا إلى قبول دعوتهم ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرِّسول المبلِّغ عن الله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ حياة الأبد من المعارف الإلهية ، والعلوم الحقَّة ، ومحاسن الأخلاق ، والأعمال الصَّالحة ، فإنَّ جميعها سبب حياة القلب التي لا موت بعدها.

(١) مجمع البيان ٤ : ٨١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٨ ، وفي النسخة : سويط ، بدل سويط ، راجع : أسد الغابة ٢ : ٣٧٦ ، قاموس الرجال ٥ : ٣٣٩ / ٣٤٦٥ .

وقيل : هو الدّعوة إلى الإيمان وقيل : إلى القرآن : وقيل : إلى الجهاد الذي هو سبب الشهادة التي بها الحياة الأبديّة.

وعن الصادق عليه السلام : « نزلت في ولاية علي عليه السلام » ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « ولاية علي عليه السلام ، فإنّ أتباعكم إياه وولايته أجمع لأمركم وأبقى للعدل فيكم » . والقمّي : الحياة : الجنّة ^(٢) .

ثمّ هدّد على ترك الأجابة بالخذلان في الدّنيا بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ قريب منكم وأنتم في قبضة قدرته بحيث ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ ونفسه وإرادته ، بأن يصرفه عنها .
القمي : أي يحول بينه وبين ما يريد ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « يحول بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار » وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان ، واعلموا أنّ الأعمال بخواتيمها » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « يحول بينه وبين أن يعلم أنّ الباطل حقّ » ^(٥) .
وعنه عليه السلام : « معناه لا يستيقن القلب أنّ الحقّ باطل أبداً ، ولا يستيقن القلب أنّ الباطل حقّ أبداً » ^(٦) .

وعنه عليه السلام : « هو أن يشتهي الشيء ، بسمعه وبصره ولسانه ويده ، فإن هو غشي شيئا ممّا ^(٧) يشتهيه فإنّه لا يأتيه إلّا وقلبه منكرا لا يقبل الذي يأتيه لأنّه ^(٨) يعرف أنّ الحقّ ليس فيه » ^(٩) .

أقول : كان في عبارة الرواية - بنظري - الاغتشاش ، فغيّرتها إلى ما فهمت من معناها .
وعن الباقر عليه السلام : « هذا الشيء يشتهيه الرّجل بقلبه وسمعه وبصره ، لا تتوق نفسه إلى غير ذلك ، فقد حيل بينه وبين قلبه ، فلا يتوجّه إلى ذلك الشيء » ^(١٠) .

أقول : الظاهر أنّ التهديد فيه بالخذلان وصرف القلب عن إرادة الخير .
ثمّ هدّدهم بعذاب الآخرة بقوله : ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة من القبور فيجازيكم على أعمالكم ، ويعاقبكم على عصيانكم وأوامر الرّسول ونواهيه ، وعدم إجابتكم دعوته ، فسارعوا إلى طاعته ، وبادروا إلى إجابته .

(١) الكافي ٨ : ٢٤٨ / ٣٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(٢ و ٣) . تفسير القمي ١ : ٢٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ١٨٩ / ١٧١٦ ، التوحيد : ٣٥٨ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ١٩٠ / ١٧١٩ ، مجمع البيان ٤ : ٨٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(٧) في تفسير العياشي : أما إنّه لا يغشى شيئا منها ، وإن كان .

(٨) في تفسير العياشي : الذي يأتي .

(٩) تفسير العياشي ٢ : ١٨٩ / ١٧١٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ١٨٩ / ١٧١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٨٩ .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ (٢٥)﴾

ثُمَّ هَدَّاهُمْ بِابْتِلَائِهِمْ بِالْفِتَنِ وَالْبَلَايَا فِي الدُّنْيَا بِقَوْلِهِ : ﴿وَاتَّقُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ ﴿فِتْنَةً﴾ وَبِلَاءٍ عَامَّةٍ ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَعَصُوا الرَّسُولَ ﴿مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بَلْ تَعْمَهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ أَطَاعَ ؛ كَافِتِرَاقِ الْكَلِمَةِ ، وَظُهُورِ الْبِدْعِ .

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - قَالَ : « أَصَابَتِ النَّاسَ فِتْنَةٌ بَعْدَ مَا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ ، حَتَّى تَرَكُوا عَلِيًّا وَبَايَعُوا غَيْرَهُ ، وَهِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي فَتَنُوا بِهَا ، وَقَدْ أَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ بِاتِّبَاعِ عَلِيٍّ وَالْأَوْصِيَاءِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ » (١) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ ظَلَمَ عَلِيًّا مَقْعِدِي هَذَا بَعْدَ وَفَاتِي ، فَكَأَنَّمَا جَحَدَ نَبِيَّيْنِ وَنَبِيَّةَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي » (٢) .

وَعَنِ الْقَمِّيِّ : نَزَلَتْ فِي طَلْحَةَ وَالزَّيْرٍ لَمَّا حَارَبَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ [وَظَلَمُوهُ] (٣) .

وَعَنِ الْحَسَنِ : نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ وَعُمَارَ ، وَطَلْحَةَ وَالزَّيْرَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْجَمَلِ خَاصَّةً (٤) .

رَوَى الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : أَنَّ الزَّيْرَ كَانَ يَسَامِرُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا ، إِذْ أَقْبَلَ عَلِيٌّ فَضَحِكَ إِلَيْهِ الزَّيْرُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَيْفَ حَبَبَكَ لِعَلِيٍّ ؟ » فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَحَبَّهُ كَحَبِّي لَوْلَدِي أَوْ أَشَدَّ ، فَقَالَ : « كَيْفَ أَنْتَ إِذَا سَرَتْ إِلَيْهِ تَقَاتَلَهُ ؟ » (٥)

وَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ بَدْرٍ اقْتَتَلُوا يَوْمَ الْجَمَلِ (٦) .

وَعَنِ الْحَدَّادِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ : نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ ﷺ بِالْفِتْنَةِ الَّتِي تَكُونُ بِسَبَبِهَا ، قَالَ : إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَكَ تَلْقَاهَا أَصْحَابُكَ ، تُصِيبُ الظَّالِمَ وَالْمُظْلُومَ ، وَلَا تَكُونُ لِلظَّالِمَةِ وَحْدَهُمْ خَاصَّةً ، وَلَكِنَّهَا عَامَّةٌ . فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ (٧) .

ثُمَّ بَالِغٍ فِي تَهْدِيدِهِمْ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿اعْلَمُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عَلَى مَنْ خَالَفَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَأَهَاجَ الْفِتْنَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَالْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالثَّلَاثِ .

﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾

(١) تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ٢ : ١٩٠ / ١٧٢٠ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٢ : ٢٨٩ .

(٢) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٤ : ٨٢٢ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٢ : ٢٩٠ .

(٣) تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ١ : ٢٧١ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٢ : ٢٩٠ .

(٤ و ٥) . تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٥ : ١٤٩ .

(٦) مَجْمَعُ الْبَيَانِ ٤ : ٨٢١ ، تَفْسِيرُ الرَّازِيِّ ١٥ : ١٤٩ .

(٧) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٣ : ٣٣٣ .

﴿فَأَوَّكُّمُ وَأَيَّدُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٦)

ثمَّ أتتعالى بعد التهديدات البليغة الأكيدة ، رغبهم في الطاعة بقوله : ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون المهاجرون ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ في بدء إسلامكم ﴿فَلِيلٌ﴾ من حيث العدد والعدة ﴿مُسْتَضْعَفُونَ﴾ ومقهورون تحت أيدي كفار قريش ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ التي كنتم متوطنين فيها ؛ وهي مكة ، في حال ﴿تَخَافُونَ﴾ من ﴿أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ويستلبكم ﴿النَّاسُ﴾ ويذهبوا بكم ويقتلوكم ﴿فَأَوَّكُّمُ﴾ الله بلطفه ورحمته ، وأسكنكم في المدينة ﴿وَأَيَّدُكُمْ﴾ وقواكم ﴿بِنَصْرِهِ﴾ إياكم على الكفار ﴿وَرَزَقْكُمْ مِنَ﴾ الغنائم ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ المحللات لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة الجليلة بالقيام بطاعة الرسول ﷺ ، وإجابة دعوته .
القسمي : نزلت في قريش خاصة (١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧)

ثمَّ أتتعالى بعد الأمر بطاعته وطاعة رسوله وإجابتهما ، نهى عن خيانتهم وغشهما بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ ولا تغشوهما .
روي أن النبي ﷺ حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوهم الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من بلاد الشام ، فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا إيلنا أبا لبابة بن عبد المنذر ، وكان مناصحا لهم لأن عياله [وماله] كانت في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا : ما ترى ، هل ننزل على حكم سعد ؟ فأشار [بيده] إلى حلقة [بالذبح] ؛ أي إن حكم سعد فيكم أن تقتلوا صبورا ، فلا تنزلوا على حكمه (٢) .
وروي عن الباقر ﷺ قريب منه : ثم قال : « فأتاه جبرئيل فأخبره بذلك ، قال أبو لبابة : فو الله ما زالت قدمي من مكانهما حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله . فنزلت الآية [فيه] ، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله ما أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ ؛ فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عليه » (٣) .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٠ .

(٢) مجمع البيان ٤ : ٨٢٣ ، تفسير روح البيان ٣ : ٣٣٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٠ .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٨٢٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩١ .

القَمِّي : عن الباقر عليه السلام : « فخيابة الله ورسوله معصيتهما » (١) .

ثمَّ أنَّه تعالى بعد التَّهْيِي عن خيانة نفسه وخيانة رسوله ، نَهَى عن خيانة النَّاس بقوله : ﴿وَلَا تَخُونُوا﴾ وَلَا تَضَيِّعُوا ﴿أَمَانَاتِكُمْ﴾ وَلَا تَفْرُطُوا فِيهَا فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الخيانة وقبحها .
ومن المعلوم أنَّ من الأمانات أحكام الله وفرائضه التي ائتمن الله عباده عليها ، كما عن الباقر عليه السلام قال : « وَأَمَّا خِيَاةُ الْأَمَانَةِ ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَأْمُونٍ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (٢) .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٨) و (٢٩)

ثمَّ لما كان الباعث إلى الخيانة حبُّ المال والأولاد ، كما كان ذلك في نفس أبي لبابة ، ذمَّهما سبحانه بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا [أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ] أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضى ربِّه على هوى نفسه ، وأطاع حكم الله ، وراعى حدوده وإن كان على ضرره وضرر أقاربه .
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ ، وَلَكِنْ مِنْ اسْتِعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مَضَلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿أَنَّهَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ » (٣) .

ثمَّ بالغ سبحانه في التَّزْغِيبِ إلى طاعته وطاعة رسوله والنَّصْحِ له بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالمواظبة على طاعته وطاعة رسوله ، والنَّصْحِ لهما وترك الخيانة في أماناتهما وأمانات النَّاس ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ﴾ بسبب ذلك في قلوبكم ﴿فُرْقَانًا﴾ ونورا تميّزون به بين الحقِّ والباطل ، أو يعرفكم أموراً تفرّقون بها بين الحقِّ والمبطل . عن القمِّي : يعني العلم الذي به تفرّقون بين الحقِّ والباطل (٤) .
﴿وَيُكَفِّرْ﴾ ويستتر ﴿عَنْكُمْ﴾ في القيامة ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وزلاتكم بأن يبدّلها بالحسنات ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم ومعاصيكم بالعفو والتَّجاوز عنها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ والإحسان الجسيم ، ولذا يعطي الكثير بالقليل ، ويزيدكم من الثَّوَابِ على ما وعدكم به من الجَنَّةِ والنَّعْمِ الدَّائِمَةِ ، والمقامات

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩١ ، وفيهما : ما أفترض الله عزَّ وجلَّ عليه .

(٣) مجمع البيان ٤ : ٨٢٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩١ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٢ .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾

ثم ذكر سبحانه خيانة الناس برسوله ، وحفظه منها ليشكر نعمته ، بقوله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي قريش ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويوقفوك في موضع لا تقدر [على] الخروج منه ، ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بأسيا فهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة إلى غيرها ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويدبرون خفية في شأنك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويدبر في ردّ مكرهم عليهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ لا يردّ مكره شيء ، ولا يعبا بمكر غيره عند مكره.

روت العامة أنه لما رأت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد كانت له شيعه وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا سعة ، فحذروا خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة ؛ وهي الدار التي بناها قصي بن كلاب بمكة ، وكانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيهما ، وسميت دار الندوة لأنهم ينتدون فيها ، أي يجتمعون للمشاورة ، فتشاوروا في أمر النبي ﷺ ، منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ، وأبو سفيان والنضر بن الحارث ، وأبو البختري بن هشام ، وأبي بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وغيرهم من الرؤساء والأكابر.

فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير عليه ثياب أطمار فجلس بينهم ، فقالوا : ما لك يا شيخ ، دخلت في خلوتنا بغير إذننا ؟ فقال : أنا رجل من أهل نجد قدمت مكة ، فأراكم حسنة وجوهكم ، طيبة روائحكم ، فأحببت أن أسمع حديثكم فاقتبس منكم خيرا فدخلت ، وإن كرهتم مجلسي خرجت ، وما جئكم إلا لأني سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضر معكم ، وأن لا تعدموا ^(١) مني رأيا ونصحا. فقالوا : هذا رجل لا بأس عليكم منه.

فتكلموا فيما بينهم ، فبدأ عمرو بن هشام فقال : أما أنا فأرى أن تأخذوا محمدا فتجعلوه في بيت تسدون عليه بابه ، وتشدون عليه وثاقه ، وتجعلون له كوة تدخلون عليه طعامه وشرابه ، فيكون محبوسا إلى أن يموت ، فقال إبليس : بئس الرأي ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم ، فقالوا : صدق والله الشيخ.

(١) في تفسير روح البيان : ولن تعدموا.

ثم تكلم أبو البختری بن هشام فقال : أرى أن تحملوه على بعير فتشدوا وثاقه عليه ، ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب حيث شاء ، فقال إبليس : بئس الرأي ، تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ، ومعه منكم طائفة ، فتخرجونه إلى غيركم ، فيأتيهم فيفسد منهم أيضا جماعة بما يرون من حلاوة كلامه وطلاقة لسانه ، وتجتمع إليه العرب وتستمتع إلى حسن حديثه ، ثم ليأتينكم بهم فيخرجكم من دياركم ويقتل أشرافكم. فقالوا : صدق والله الشيخ.

فتكلم أبو جهل فقال : أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل يأخذون السيوف فيضربونه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يدري قومه من يأخذون به ، ولا يقومون على حرب قريش كلهم ، وإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا ، فقال إبليس : صدق والله [هذا] الشاب ، وهو أجودكم رأيا ، القول قوله ، فتفرقوا على رأيه ، فنزل جبرئيل فأخبر النبي ﷺ بذلك ، وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأمره بالهجرة إلى المدينة ، فبيت عليا عليه السلام على مضجعه ، وخرج هو وأبو بكر إلى الغار ^(١) .

وعن العياشي : عن أحدهما عليه السلام : « أن قريشا اجتمعت فخرج من كل بطن اناس ، ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون برسول الله ﷺ ، فإذا شيخ قائم على الباب ، فإذا ذهبوا ليدخلوا قال : أدخلوني معكم ، قالوا : ومن أنت يا شيخ ؟ قال : أنا شيخ من مضر ، ولي رأي اشير به عليكم ، فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس ، وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه ، فقال : ليس هذا لكم برأي ، إن أخرجتموه أجلب عليكم ^(٢) الناس فقاتلوكم ، قالوا : صدقت ، ما هذا برأي .

ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه ، قال : ليس هذا برأي ، إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان ، أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم ، وما ينتفع أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه وامرأته .

ثم تشاوروا فأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه ؛ يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه بأسيا فهم جميعا عند الكعبة » . ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ^(٣) .

وعن القمي : نزلت بمكة قبل الهجرة ، وكان سبب نزولها أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة قدمت عليه الأوس والخزرج ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « تمنعوني وتكونون لي جارا حتى أتلو عليكم كتاب ربِّي وثوابكم على الله الجنة » ، فقال سعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حزام : يا رسول الله ، اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال لهم : « موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٣٨ .

(٢) أجلب عليكم : جمع الناس عليكم وألهم .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ١٩٠ / ١٧٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٢ .

التشريق » . فحجّوا ورجعوا إلى منى ، وكان فيهم مَن قد حجّ بشر كثير ، فلمّا كان الثاني من أيّام التشريق قال لهم رسول الله ﷺ : « إذا كان الليل فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة ، ولا تنبّهوا نائما ، ولينسلّ واحد فواحد » .

فجاء سبعون رجلا من الأوس والخزرج فدخلوا الدار ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « تمنعوني وتحيروني حتّى أتلو عليكم كتاب ربّي وثوابكم على الله الجنة » ، فقال سعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبد الله بن حزام : [نعم] يا رسول الله ، اشترط لربّك ولنفسك ما شئت ، فقال : « أمّا ما اشترط لربّي ، فإن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون أنفسكم ، وتمنعون أهلي ممّا تمنعون أهليكم وأولادكم » .

فقالوا : فما لنا على ذلك ، فقال : « الجنة في الآخرة ، وتملكون العرب ، ويدين لكم العجم في الدّنيا ، وتكونون ملوكا في الجنة » . فقالوا : قد رضينا.

فقال : أخرجوا إليّ [منكم] اثني عشر نقيبا يكونون شهداء عليكم بذلك ، كما أخذ موسى عليه السلام من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا ، فأشار إليهم جبرئيل فقال : هذا نقيب وهذا نقيب ؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فمن الخزرج : سعد بن زرارة ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن حزام - أبو جابر بن عبد الله - ، ورافع بن مالك ، وسعد بن عباد ، والمنذر بن عمر ، وعبد الله بن رواحة ، وسعد بن الربيع ، وعباد بن الصامت ومن الأوس : أبو الهيثم بن التيهان ، وهو من اليمن ، واسيد بن حضير ^(١) ، وسعد بن خيثمة.

فلمّا اجتمعوا وبايعوا رسول الله ﷺ صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب ، هذا محمّد والصّباة من أهل يثرب على جمرّة العقبة يبايعونه على حربكم ، فاسمع أهل منى ، وهاجت قريش فأقبلوا بالسّلاح ، وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأَنْصار : « تفرّقوا » ، فقالوا : يا رسول الله ، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيا فإنا ، [فعلنا] . فقال رسول الله ﷺ : « لم أوامر بذلك ، ولم يأذن الله لي في محاربتهم » ، قالوا : أفترج معنا ؟ قال : « انتظر أمر الله » ، فجاءت قريش على بكرة أبيها ^(٢) ، قد أخذوا السّلاح ، وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام ومعهما السيّف ، فوقفا على العقبة ، فلمّا نظرت قريش إليهما قالوا : ما هذا الذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما تجمّعنا وما هاهنا أحد ، والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلّا ضربته بالسيف .

فرجعوا إلى مكّة وقالوا : لا نأمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشايخ قريش في دين محمّد ،

(١) في النسخة : اسيد بن حصين ، تصحيف ، راجع : اسد الغابة ١ : ٩٢ ، معجم رجال الحديث ٣ : ٢١٢ .

(٢) أي جاءوا جميعا .

فاجتمعوا في دار الندوة ، وكان لا يدخل في دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة ، فدخل أربعون رجلا من مشايخ قريش ، فجاء إبليس في صورة شيخ كبير ، فقال له البواب : من أنت ؟ قال : أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم مئي رأي صائب ، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل ، فجئت لاشير عليكم. فقال : ادخل ، فدخل إبليس.

فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إنه لم يكن أحد من العرب أعزّ منا ، نحن أهل الله ، تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرمونا ، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع ، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله ، فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته ، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله ، وأن أخبار السماء تأتيه ، فسقّه أحلامنا ، وسبّ آلهتنا ، وأفسد شباننا ، وفرّق جماعتنا ، وزعم أنّ من مات من أسلافنا ففي النار ، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت [فيه] رأيا ، قالوا : ما رأيت ؟ قال : رأيت أن ندسّ إليه رجلا منا ليقترله ، فإن طلبت بنو هاشم بدمه أعطيناهم عشر ديات.

فقال الخبيث : هذا رأي خبيث ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأن قاتل محمد مقتول لا محالة ، فمن هذا الذي يذل نفسه للقتل منكم ، فإنه إذا قتل [محمد] تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة ، وإنّ بني هاشم لا ترضى أن يمشی قاتل محمد على الأرض ، فتقع بينكم الحرب في حرمكم وتتفانون. فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر ، قال : وما هو ؟ قال : نشبته في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابعة وامرئ القيس.

فقال إبليس : هذا أخبث من الآخر ، قال : كيف ذلك ؟ قال : لأنّ بني هاشم لا ترضى بذلك ، فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم واجتمعوا عليكم فأخرجوه. وقال آخر : لا ، ولكنّا نخرجه من بلادنا ، ونتفرّغ نحن لعبادة آلهتنا ، قال إبليس : هذا أخبث من الرأيين المتقدمين ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجها ، وأنطق الناس لسانا وأفصحهم لهجة ، فتحملونه إلى بوادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه ، فلا يفجأكم إلا وقد ملأها عليكم خيلا ورجلا. فبقوا حائرين.

ثمّ قالوا لإبليس : فما الرأي فيه يا شيخ ؟ قال : ما فيه إلا رأي واحد. قالوا : وما هو ؟ قال : يجتمع من كل بطن من بطون قريش واحد ، يكون معهم من بني هاشم رجل ، فيأخذون سكينه أو حديدة أو سيفا ، فيدخلون عليه فيضربونه كلّهم ضربة واحدة ، حتى يتفرّق دمه في قريش كلّها ، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه وقد شاركوا فيه ، وإن سألوكم أن تعطوا الدية فأعطوهم ثلاث ديات. فقالوا : نعم ، عشر

ديات.

ثم قالوا : الرأي رأي الشيخ النجدي. فاجتمعوا ودخل معهم في ذلك أبو هب عم النبي ﷺ ، ونزل جبرئيل على رسول الله ﷺ ، وأخبره أنّ قريشا اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك ، وأنزل عليه في ذلك ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ إلى آخره. واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلا فيقتلوه ، وخرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون.

إلى أن قال : فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءوا ليدخلوا عليه ، فقال أبو هب : لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل ، فإنّ في الدار صبيانا ونساء ، ولا نأمن أن تقع بهم يد خاطئة ، فنحرسه الليلة ، فإذا أصبحنا دخلنا عليه ، فناموا حول حجرة رسول الله ، وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له وفرش له ، فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : « أفدني بنفسك » ، قال : « نعم يا رسول الله » ، قال : « نم على فراشي ، والتحف ببردي » .

فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته ، وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ فأخرجوه على قريش وهم نيام ، وهو يقرأ عليهم ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١) ، وقال له جبرئيل : خذ علي طريق [ثور ، وهو جبل على طريق] منى له سنام كسنام الثور ، فدخل الغار وكان من أمره ما كان.

فلما أصبحت قريش وثبوا إلى الحجرة وقصدوا الفراش ، فوثب علي عليه السلام في وجوههم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : أين محمد ؟ قال : « أجعلتموني عليه رقيقا ؟ أ لستم قلتم نخرجه من بلادنا ؟ فقد خرج عنكم » ، فأقبلوا يضربون أبا هب ويقولون^(٢) : أنت تخدعنا منذ الليلة ، فتفرقوا في الجبال ، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له أبو كرز يقفو الآثار ، فقالوا : يا أبا كرز ، اليوم اليوم. فوقف بهم على باب حجرة رسول الله ﷺ فقال : هذه قدم محمد ، والله لاخت القدم التي في المقام ، وكان أبو بكر استقبل رسول الله ﷺ فردّه معه ، فقال أبو كرز : وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ، ثم قال : وها هنا عبر ابن أبي قحافة ، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار ، ثم قال : [ما] جاوزا هذا المكان ، إمّا أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا تحت الأرض. وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار ، وجاء فارس من الملائكة حتى وقف على باب الغار ، ثم قال : ما في الغار أحد ، فتفرقوا في الشعب ، فصرفهم عن رسول الله ﷺ^(٣) .

﴿وَإِذَا ثُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا

(١) يس : ٣٦ / ٩ .

(٢) في النسخة : يضربونه ويقولون.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٢ .

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ

عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) و (٣٢)

ثمَّ أتته تعالى بعد بيان مكرهم بالرسول ﷺ ، بين مكرهم بآيات الله وفي دينه بقوله : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ القرآنية ﴿فَقَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذه الكلمات الملققة. ولكن ما سمعوها في الحقيقة ، لكونهم أظهر مصاديق شرِّ الدوابِّ الذين قال الله في حقهم : ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(١) ولذا قالوا مكابرة وعنادا : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الكلام.

كيف لم يكن مكابرة وأتته لم يمنعه من مشيئته شيء ، مع أنَّ النبيَّ ﷺ تحداهم به مدَّة ثلاث عشرة سنة حتَّى قال : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) . ثم أعلن بعجزهم عن ذلك بقوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(٣) ومع ذلك لم يأتوا بسورة قصيرة ، بل ولا بآية مع حرصهم على تكذيبه وتذليله والغلبة عليه ، خصوصا فيما يتعلَّق بالفصاحة والبلاغة التي هم مهرة تلك الصَّنَاعَة.

قيل : إنَّ قائل هذا الكلام النَّضْر بن الحارث من بني عبد الدَّار ، فإنَّه كان يختلف تاجرا إلى فارس والروم والحيرة ، فيستمع أخبار رستم واسفنديار وأحاديث العجم ، واشترى أحاديث كليلية ودمنة ، وكان يمرُّ باليهود والنَّصارى فيراهم يقرأون التَّوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ، فجاء مكَّة فوجد رسول الله ﷺ يصليّ ويقرأ القرآن ، فطفق يقعد مع المستهزئين ، ويقرأ عليهم أساطير الأوَّلِينَ ، وكان يزعم أنَّها [مثل] ما يذكره رسول الله ﷺ من قصص الأنبياء والامم الماضية^(٤) . ويقول : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الكلام الذي جاء به محمَّد ، وما هو ﴿إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ والأباطيل المسطورة في دفاتر السابقين.

ثمَّ أتته روي أنَّه قال له النبيَّ ﷺ : « ويليكَ إنَّه كلام الله »^(٥) فذكر الله تحاشيه عن قبوله بقوله : ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ حسدا للنبيِّ ﷺ على نزول الكتاب عليه ، أو إظهارا لليقين بعدم كونه كلام الله : ﴿اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ النَّازل ﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾ وصدقا وصحيحا انتسابه إليك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ عقوبة لتكذيبنا إياه ﴿حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ كما أمطرت على قوم لوط ﴿أَوْ انْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ آخر تهلكنا به.

قيل : نزل في النَّضْر بن الحارث بضع عشرة آية^(٦) .

(١) الأنفال : ٢٣ / ٨ .

(٢) البقرة : ٢٣ / ٢ .

(٣) البقرة : ٢٤ / ٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٣٤٠ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٣٤١ .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٣٤١ .

وعن (الكافي) : قاله الحارث بن عمرو الفهري ^(١) .

وعن القمي عليه السلام : نزلت لما قال رسول الله ﷺ لقريش : « إنّ الله بعثني أن أقتل جميع ملوك الدنيا وأجرّ الملك إليكم ، فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه تملكوا بها العرب ، وتدين لكم بها العجم ، وتكونوا ملوكا في الجنة » . فقال أبو جهل : اللهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك [فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم] حسدا لرسول الله ﷺ ^(٢) .

وعن الجمع : عن الصادق عليه السلام ، عن آبائه : « لما نصب رسول الله ﷺ علينا يوم غدیر خم قال : من كنت مولاه فعليّ مولاه . طار ذلك في البلاد ، فقدم على النبي ﷺ التّعمان بن الحارث الفهري فقال : أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصّوم والصّلاة والزّكاة فقبلناها ، ثمّ لم ترض حتّى نصبت هذا الغلام فقلت : من كنت مولاه فعليّ مولاه ، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله ؟ فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، إنّ هذا من الله ، فولى النّعمان بن الحارث وهو يقول : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، فرماه الله بحجر على رأسه فقتله ^(٣) .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣)

ثمّ بيّن الله سبحانه علّة عدم إنزال العذاب عليهم مع غاية استحقاقهم له ، بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وليس مناسبا للطفه بك ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بما عذب به الامم الماضية ﴿وَأَنْتَ﴾ مع كونك رحمة للعالمين وأمانا لأهل السماوات والأرضين ﴿فِيهِمْ﴾ وحيّ بينهم ، بل لم يعذب امّة من الامم الماضية إلا بعد خروج نبيّهم من بينهم .

ثم ذكر علّة أخرى بقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم ، أو في أصلابهم المؤمنون ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

وقيل : إنّ مرجع الضمير الكفّار ، والمعنى : أنّهم لو استغفروا لم يعذبوا ، والمقصود حثّهم على الاستغفار .

وقيل : إنّ المراد بالاستغفار الإسلام ، والمعنى : وهم يسلمون فيما بعد ، فإنّه كان في علم الله أنّه يسلم كثير منهم ؛ كأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، والحارث بن هشام ، وحكيم بن حزام ،

(١) الكافي ٨ : ٥٧ / ١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٧ .

(٢) تفسير القمي : ١ : ٢٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٨ .

(٣) مجمع البيان ١٠ : ٥٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٢٩٩ .

وأضرابهم.

عن ابن عباس أنه قال : كان فيهم أمانان ؛ نبي الله ، والاستغفار ، أما النبي ﷺ فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة ^(١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة) : « كان في الأرض أمانان من عذاب الله ، فرفع أحدهما ، فدونكم الآخر فتمسكوا به ، أما الأمان الذي رفع فرسول الله ﷺ ، وأما الأمان الباقي فلا استغفار » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « قال رسول الله ﷺ : إن لكم في حياتي خيرا ، وفي مماتي خيرا . فقبل : يا رسول الله ، أما حياتك فقد علمنا ، فما لنا في وفاتك ؟ فقال : أما في حياتي فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ وأما في مماتي فتعرض علي أعمالكم فاستغفر لكم » ^(٣) .

﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٤)

ثم صرح سبحانه بغاية استحقاقهم العذاب ، ووعدهم بالعذاب الاخروي أو الدنيوي يوم بدر ، أو يوم الفتح بقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ من السبب ﴿ إِلَّا لِيُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ ويسلمهم منه بالكلية ﴿ وَ ﴾ الحال أن ﴿ هُمْ يَصُدُّونَ ﴾ أوليائه والمؤمنين به ﴿ عَنْ ﴾ دخول ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ والقرب منه عام الحديبية بادعاء أنهم أولياؤه وأولياء بيته ﴿ وَ ﴾ الحال أنهم ﴿ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ بل ﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ ﴾ وما أحبأؤه أحد ﴿ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ ﴾ الذين يتحززون المنكرات والقبايح ؛ كالشرك والمكاء والتصدية وغيرها من المعاصي ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم ليسوا بأوليائه ، وإنما يعلمه بعضهم ، ومع ذلك يدعي أنه ولي البيت ، ويقول نصداً من نشاء وندخل من نشاء.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٥)

ثم استشهد سبحانه على عدم كونهم أوليائه بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ دعاء المشركين و ﴿ صَلَاتُهُمْ ﴾ لله ﴿ عِنْدَ الْبَيْتِ ﴾ الحرام ﴿ إِلَّا مُكَاءً ﴾ وصغيراً ﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾ وتصفيقا بضرب إحدى الكفين بالآخرى ، فإنهم كانوا يفعلونها عوض التسييح والدعاء.

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٥٨ .

(٢) نهج البلاغة : ٤٨٣ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٠ .

(٣) الكافي ٨ : ٢٥٤ / ٣٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٠ .

عن ابن عباس قال : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ، ويصفقون (١) .

وعن الرضا عليه السلام : « سميت مكة مكة لأن الناس يمشون فيها ، وكانوا يقولون لمن قصدها : قد مكا ، وذلك قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالملكاء : الصفير ، والتصدية : صفق اليدين » (٢) .

وعن مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى في المسجد قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه ورجلان عن يساره ، فيصفرون كما يصفر الملكاء ، ويصفقون بأيديهم ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته وقراءته ، وكانوا يفعلون كذلك بصلاة من آمن به (٣) .

وعن مجاهد : كانوا يعارضون النبي صلى الله عليه وسلم في الطواف ، ويستهنئون به ، ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته (٤) .

ثم هددهم الله تعالى بقوله : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بالسيف يوم بدر ، أو بالنار يوم الحشر ﴿يَا كُفْرُوتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وتشركون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٦) و (٣٧)﴾

ثم أنه تعالى بعد ذمهم على عبادتهم البدنية ، ذمهم وهددهم على طاعتهم المالية بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأشركوا من قريش ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ويصرفون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ ليخلوا في أمر رسالة الرسول و﴿لِيَصُدُّوا﴾ الناس ويمنعوهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الإسلام ، وقبول اتباع الرسول.

ثم نبه سبحانه على غاية خسارتهم بقوله : ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا﴾ بتمامها ﴿ثُمَّ تَكُونُ﴾ تلك الأموال ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وندامة لذهابها من أيديهم من غير حصول المقصود ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في قتال

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٤٣ .

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٩٠ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠١ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣٤٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٦٠ .

المسلمين آخر الأمر.

قيل : نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلا من أشرف قريش ^(١) ، يطعم كل واحد منهم عسكر الكفار عشر جزر ^(٢) .

وعن سعيد بن جبير : نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب النبي ﷺ يوم احد ، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش [من] العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية ، والواقية اثنان وأربعون مثقالا ^(٣) .

ثم هددهم الله بعذاب الآخرة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَأَصْرُوا واستمروا على كفرهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ لا إلى غيرها ﴿يُحْشَرُونَ﴾ ويساقون في القيامة ، ويكون ذلك الحشر ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ ويفرق ﴿الْخَبِيثَ﴾ الذي هو الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الذي هو المؤمن ، فإنهم يحشرون إلى الجنة ﴿وَيَجْعَلُ﴾ ويضع ﴿الْخَبِيثَ﴾ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُٗٓ ويجمعه ﴿جَمِيعًا﴾ قيل : إن المراد من الخبيث : نفقة الكافر على عداوة محمد ﷺ ، ومن الطيب : نفقة المؤمن في نصرته ^(٤) ، فيضم الله ذلك المال الخبيث بعضه إلى بعض ﴿فَيَجْعَلُهُ﴾ ويلقيه ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ ليعذبهم به ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكافرون المنفقون أموالهم فيما يسخط الله ﴿هُمُ﴾ بالخصوص ﴿الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

عن الباقر عليه السلام : « أن الله مزج طينة المؤمن حين أراد خلقه بطينة الكافر ؛ فما يفعل المؤمن من سيئة فإثمًا هو من أجل ذلك المزاج ، وكذلك مزج طينة الكافر حين أراد خلقه بطينة المؤمن ؛ فما يفعل الكافر من حسنة فإثمًا هو من أجل ذلك المزاج » . قال : « فإذا كان يوم القيامة ينزع [الله] من العدو النَّاصِبِ سنخ المؤمن ومزاجه وطنيته وجوهره وعنصره مع جميع أعماله الصالحة ، ويردّه إلى المؤمن ، وينزع الله من المؤمن سنخ الكافر ^(٥) ومزاجه وطنيته وجوهره وعنصره مع جميع أعماله السيئة ، ويردّه إلى النَّاصِبِ ، عدلا منه جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه ، ويقول للنَّاصِبِ : لا ظلم عليك ، هذه الأعمال الخبيثة من طبيعتك ومزاجك فأنت أولى بها ، وهذه الأعمال الصالحة من طينة المؤمن ومزاجه وهو أولى بها ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ^(٦) .

ثم قال : أزيدك في هذا المعنى من القرآن [أليس الله عَزَّوَجَلَّ] يقول : ﴿الْخَبِيثَاتِ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٦٠ .

(٢) الجزر : جمع جزور ، هو ما يصلح لأن يذبح من الابل .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٦٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٦١ .

(٥) في تفسير الصافي : الناصب .

(٦) غافر : ٤٠ / ١٧ .

وَرَزَقُ كَرِيمٌ ﴿١﴾ ، وقال عَجَلٌ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢﴾ .
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ

الْأُولَٰئِينَ (٣٨)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ ذِمِّ الْمُشْرِكِينَ وَتَهْدِيدِهِمْ عَلَىٰ عِبَادَتِهِمُ الْبَدَنِيَّةَ وَالْمَالِيَّةَ ، أَمَرَ نَبِيَّهِ ﷺ بِتَرْغِيهِمْ إِلَىٰ قَبُولِ الْإِسْلَامِ ، وَتَهْدِيدِهِمْ عَلَىٰ تَرْكِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وَيُرْتَدُّ عَنْ الشِّرْكِ وَعَدَاوَةِ الرَّسُولِ وَقَبَائِحِ الْأَعْمَالِ ، وَيَدْخُلُوا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَتَبِيعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيَلْتَزِمُوا بِالصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مِنْهُمْ وَيَعْفَىٰ عَنْ عَقُوبَةِ مَا ارْتَكَبُوا فِي حَالِ كُفْرِهِمْ ؛ مِنْ الْعُقَاذِ الْفَاسِدَةِ ، وَالْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَتَبَاعَتِهَا مِنَ الْحُدُودِ وَالْقَصَاصِ وَالضَّمَانِ وَقِضَاءِ الْفَوَائِتِ ، كَمَا رَوَىٰ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُ مَا قَبْلَهُ ﴿٣﴾ . ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ وَيَرْجِعُوا إِلَىٰ قِتَالِكَ ، وَإِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ ، وَأَصْرُوا عَلَىٰ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ وَتَبَيَّنَتْ ﴿سُنَّتُ﴾ اللَّهُ وَمَعَامَلَتُهُ مَعَ الْأُمَمِ ﴿الْأُولَٰئِينَ﴾ وَالْقُرُونِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ عَارَضُوا الْأَنْبِيَاءَ ، وَتَحَرَّبُوا عَلَيْهِمْ ، وَسَمِعُوا كَيْفَ دَمَرَهُمُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُمْ بِعَذَابِهِ ، وَجَعَلَ الْأَنْبِيَاءَ غَالِبِينَ عَلَيْهِمْ ، فَلْيَنْتَظِرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِثْلَ تِلْكَ الْمَعَامِلَةِ .

عن العياشي : عن الباقر عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : إِنِّي كُنْتُ عَامِلًا لِبَنِي أُمِّيَّةٍ ، فَأَصَبْتُ مَا لَا كَثِيرًا ، فَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ [لِي] : إِنَّ أَهْلَكَ وَمَالَكَ وَكُلَّ شَيْءٍ لَكَ حَرَامٌ . فقال عليه السلام : « لَيْسَ كَمَا قَالُوا لَكَ » ، قَالَ : فَلِي تَوْبَةٌ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، تَوْبَتُكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُؤَلَّكُمْ نِعَمَ الْمُؤَلَّى وَنِعَمَ

النَّصِيرُ (٣٩) وَ (٤٠)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ تَهْدِيدِ الْكُفَّارِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْعَذَابِ ، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِهِمْ بِقَوْلِهِ :

(١) النور : ٢٤ / ٢٦ .

(٢) بحار الأنوار ٦٧ : ١٠٦ / ٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٦٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ١٩٣ / ١٧٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٢ .

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون واقتلوهم ﴿حَتَّى﴾ أن ﴿لَا تَكُونَ﴾ في الأرض ﴿فِتْنَةً﴾ وفساد من الشرك وقبائح الأعمال ، ويضمحل دين الوثنية وسائر الأديان الباطلة بسبب انقراض أهلها أو رجوعهم إلى الحق ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ الذي بين الناس ﴿كُلَّهُ﴾ خالصا ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ وارتدعوا عن الأديان الباطلة ، ودخلوا في دين الإسلام ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عن دينهم ، ورجوعهم إلى الحق أحسن الجزاء ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قبول دين الحق ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ مُؤَلَّكُمْ﴾ وحافظكم في قباهم ، فلا تبالوا بعدواهم وكثرهم وشوكتهم ، وهو ﴿نِعَمَ الْمُؤَلَّى﴾ والحافظ للصلاح ، فإنه لا يضيع من تولاه واعتمد عليه ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ والمعين لا يغلب من نصره وأعانه.

الكافي : عن الباقر عليه السلام : « لم يجيء تأويل هذه الآية بعد ، إن رسول الله ﷺ رخص لهم حاجته وحاجة أصحابه ، فلو قد جاء تأويلها لم يقبل منهم ، ولكنهم يقتلون حتى يوحّدوا الله ، ولا يكون شرك » (١) .

أقول : الظاهر أن المراد : رخص للمؤمنين أخذ الفداء والجزية ، لحاجته وحاجة أصحابه . وعن العياشي : عن الصادق عليه السلام : « لم يجيء تأويل هذه الآية ، ولو قام قائمنا بعد ، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية ، وليبلغن دين محمد ما بلغ الليل ، حتى لا يكون شرك على وجه الأرض ، كما قال الله تعالى : ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ » (٢) . وقيل : إن المراد من كون الدين كله لله في خصوص أرض الحجاز ، كما قال النبي ﷺ « لا يجتمع دينان في جزيرة العرب » (٣) .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ
فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ
وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤١) و (٤٢)

(١) الكافي ٨ : ٢٠١ / ٢٤٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ١٩٣ / ١٧٢٨ ، مجمع البيان ٤ : ٨٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٣ والآية من سورة النور : ٢٤ / ٥٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٦٤ .

في بيان خمس الغنائم

ثم لما أمر الله سبحانه بقتال الكفار أردفه ببيان حكم الغنيمة بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ وكل الذي أصبتم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل أو كثير من أموال الكفار بالقهر والغلبة ، ومن التجارات والصناعات والزراعات ، والكنوز والمعادن ، والغوص في البحار ، على تفصيل مذكور في الفقه ، وعن الصادق عليه السلام : « هي والله الإفادة يوما بيوم » ^(١) ، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ قيل : إن التقدير : فحكمه أن الله ﴿خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ وهو الإمام إجماعا ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ من آل هاشم .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « نحن والله [الذين] عني [الله] بذوي القربى الذين قرّهم الله بنفسه ورسوله فقال : ف ... الله ... ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منا خاصة » . قال : « ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيبا ^(٢) . أكرم الله نبيه ﷺ وأكرمنا أن يطعمنا أو ساخ [ما في] أيدي الناس » ^(٣) .

وعن الرضا عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية فقيل له : فما كان الله فلمن هو ؟ فقال : « لرسول الله ﷺ ، وما كان لرسول الله فهو للإمام » . فقيل له : أ رأيت إن كان صنف من الأصناف أكثر وصنف أقل ، فما يصنع به ؟ قال : « ذلك إلى الإمام ، أ رأيت رسول الله ﷺ كيف يصنع ، أ ليس إنما كان يعطي على ما يرى ؟ كذلك الإمام » ^(٤) .

عن أحدهما عليه السلام : « خمس الله وخمس الرسول للإمام ، وخمس ذي القربى لقربا الرسول وهي للإمام ^(٥) ، واليتامي يتامى آل الرسول ، والمساكين منهم ، وأبناء السبيل منهم ، فلا يخرج منهم إلى غيرهم » ^(٦) .

وعن القمي : فمن الغنيمة يخرج الخمس ، ويقسم على ستة أسهم : سهم لله ، [وسهم لرسول الله] وسهم للإمام . فسهم الله وسهم الرسول يرثه الإمام ؛ فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة ، والثلاثة الأسهم لأيتام آل الرسول ومساكينهم وأبناء سبيلهم . وإنما صارت للإمام وحده من الخمس ثلاثة أسهم ، لأن الله تعالى قد ألزمه بما ألزم النبي ﷺ من تربية الأيتام ، و [مؤن] المسلمين ، وقضاء ديونهم ، وحملهم في الحج والجهاد ، وذلك قول رسول الله ﷺ لما انزل عليه ﴿الَّذِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ^(٧) ، وهو أب لهم ، فلما جعله الله أبا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد لولده ، فقال

(١) الكافي ١ : ٤٥٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٣ .

(٢) في الكافي : لنا سهم في الصدقة .

(٣) الكافي ١ : ٤٥٣ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٤ .

(٤) الكافي ١ : ٤٥٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٤ .

(٥) في التهذيب : الرسول والإمام .

(٦) التهذيب ٤ : ١٢٥ / ٣٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٤ .

(٧) الأحزاب : ٣٣ / ٦ .

عند ذلك : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلى الوالي ^(١) .

أقول : هذه الروايات قد عمل بها الأصحاب ، وما خالفها مؤول أو مطروح . ومما يجب فيه الخمس : المال الحلال المختلط بالحرام ، ولا يتميز صاحب الحرام أصلاً ، والأرض التي اشتراها الذمي من مسلم ، وإنما ثبت هذان الحكمان بالروايات المعتمدة المعمول بها .

ثم لما كان قطع المجاهدين أطماعهم عن خمس الغنيمة صعباً عليهم ، رغبهم في الالتزام به ، وبين أنه من لوازم الإيمان ، وأن التسليم له شكر لنعمه العظام ، بقوله : ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ** ﴾ والمعنى : فسلموا لهذا الحكم وارضوا به إن كنتم ﴿ **آمَنْتُمْ** ﴾ عن صميم القلب وخالص النية ﴿ **يَا اللَّه** ﴾ الواحد المالك لجميع الأشياء ﴿ **وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا** ﴾ محمد ﷺ من النصر والآيات ﴿ **يَوْمَ الْفُرْقَانِ** ﴾ الذي فرق فيه بين الحق والباطل ، بظهور خوارق العادات والمعجزات الباهرات ، الدالة على صدق نبينا وصحة دين الإسلام ، وكان ذلك اليوم ﴿ **يَوْمَ التَّقْيِ** ﴾ فيه ﴿ **الْجَمْعَانِ** ﴾ وتقابل الفريقان ؛ فريق المؤمنين ، وفريق الكفار والمشركين ، بوادي بدر ، فنصر الله المؤمنين مع ضعفهم وقلة عددهم وعدتهم على الكافرين مع كثرتهم وشوكتهم وقوتهم بقدرته ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من الأشياء ، وإيجاد كل ممكن من الممكنات التي منها غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ لا يعجزه عن إنفاذ إرادته شيء ، ولا يمنعه عنه مانع .

فجدّوا في الجهاد ، وتوكلوا عليه ، واطمئنوا بنصره ، وقد أراكم قدرته على نصركم وغلبتكم على أعدائكم يوم بدر ﴿ **إِذْ أَنْتُمْ** ﴾ كنتم نازلين ﴿ **بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا** ﴾ والجانب الأقرب إلى المدينة من ذلك ^(٢) الوادي ﴿ **وَهُمْ** ﴾ كانوا نازلين ﴿ **بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَى** ﴾ والجانب الأبعد من المدينة والأقرب إلى مكة ﴿ **وَالرُّكْبِ** ﴾ والعيبر المقبل من الشام الذي كنتم في طلبه ، نازل في مكان هو ﴿ **أَسْفَلَ مِنْكُمْ** ﴾ وقريب من ساحل البحر ، بينه وبين المشركين ثلاثة أميال ، وكان أهله مستظهرين بهم . ﴿ **وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ** ﴾ أنتم وأعداؤكم على القتال ﴿ **لَا خَتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ** ﴾ وتحلفتم عنه ، وخالفتم الوعد ؛ لقلّتكم وضعفكم ، وكثرة عدوكم وقوتهم ، واستظهارهم بالركب الذي كان قريباً منهم ، وكونهم بالعدوة القصوى القريبة من الماء ﴿ **وَلَكِنْ** ﴾ ما تواعدتم ، بل جمع الله بينكم وبينهم بلا سابقة وعد ﴿ **لَيَقْضِيَ اللَّهُ** ﴾ ويتم ﴿ **أَمْرًا كَانَ** ﴾ حقيقة ^(٣) بأن يكون ﴿ **مَفْعُولًا** ﴾ وواقعاً من نصر أوليائه ، وخزي أعدائه ، وظهور آثار وحدانيته ورسالة رسوله . ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ** ﴾ بالكفر والطغيان ﴿ **عَنْ بَيِّنَةٍ** ﴾ وحجة واضحة عظيمة ، وظهور دليل قوي على بطلان عقائدهم ، وبعد مشاهدة الآيات الباهرة على كون معارضتهم للرسول ﷺ

(١) تفسير القمي ١ : ٢٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٤ .

(٢) في النسخة : تلك .

(٣) في النسخة : حقيقياً .

معارضة للحق ﴿وَيُخَيِّ مَنْ حَي﴾ بروح الإيمان ، وتنور قلبه بنور الإسلام ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وحجة واضحة على الحق ، وصدق الرسول ، وصحة دينه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لمقال الفريقين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بضمايرهم وأحوالهم وتديير امورهم على حسب استحقاقهم.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَنَّارَعْتُمْ فِي

الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)﴾

ثم أنه روي أنه أرى الله نبيه ﷺ كفار قريش في منامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبي حق ، والقوم قليل ، فصار ذلك سببا لقوة قلوبهم ^(١) . فذكرهم الله تلك النعمة بقوله : ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ لتخبر به أصحابك ، فيكون تثبيتا لقلوبهم ، وتشجيعا لهم على قتال عدوهم ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ﴾ في منامك ﴿كَثِيرًا﴾ وأخبرت بكثرة أصحابك ﴿لَفَشَلْتُمْ﴾ وجبنتم في حربهم ﴿وَتَنَّارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي كنتم فيه من قتالهم ، واختلقت آراؤكم في الثبات في حربهم والفرار منهم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ أنعم عليكم بأن ﴿سَلَّمَ﴾ جمعكم من الفشل والاختلاف في الرأي والتنازع والفرار ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلَيْهِمُ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ والمكنونات في القلوب ، من قوة الإيمان وضعفه ، والجرأة والخوف ، والصبر والجزع. القمي رحمه الله : المخاطبة لرسول الله ﷺ ، والمعنى لأصحابه ^(٢) .

عن الباقر عليه السلام : « كان إبليس يوم بدر يقلل المسلمين في أعين الكفار ، ويكثر الكفار في أعين المسلمين ، فشده عليه جبرئيل [بالسيف] فهرب منه وهو يقول : يا جبرئيل ، إني مؤجل » ^(٣) .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ

أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾

ثم ذكرهم الله نعمته الاخرى بقوله : ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ﴾ وحين بارزتموهم ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾ مع كثرتهم ﴿قَلِيلًا﴾ من حيث العدد تصديقا لرؤيا النبي ﷺ ، وتقوية لقلوبكم. عن ابن مسعود : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين ؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم ، فقلنا : كم كنتم ؟ قال : ألفا ^(٤) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٥٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٦ .

(٣) الكافي ٨ : ٢٧٧ / ٤١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٦ .

(٤) جوامع الجامع : ١٧٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٦ .

﴿وَيَقُلُّ لَكُمْ﴾ الله ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ ليجترئوا عليكم قبل اللقاء ، حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور . ثم كثرتهم في أعين الكفار لتفجأهم الكثرة ويفترهم الزعب عن القتال ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ قيل : إن التكرار لاختلاف الفعل المعلل ، وهو الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأول ، وتقليل كل فريق في أعين الفريق الآخر في الثاني ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ويده تصريفها يغلب من يشاء ويخذل من يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٥) و (٤٧)﴾

ثم أنه تعالى بعد ذكر نعمه على المؤمنين ونصرتهم على الكفار ، أمرهم بالثبات والتوكل عليه وطلب النصر منه ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ وجماعة من الكفار في معركة القتال ﴿فَاثْبُتُوا﴾ ووطنوا أنفسكم على الصبر والتزال ، ولا تحذلوا أنفسكم بالفرار ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتكبير والتلهيل في مواقع الشدة ﴿كَثِيرًا﴾ واطلبوا منه الصبر والثبات ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتفوزون بالنصر والغلبة ، والمثوبة الاخروية .

عن ابن عباس : أمر الله أوليائه بذكره في أشد الأحوال ، تنبيهها على أن الإنسان لا يجوز أن يخلي قلبه ولسانه عن ذكر الله ، ولو أن رجلاً أقبل من المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء ، والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله ، كان الذكر أعظم أجراً ^(١) .

ثم لما كان الجهاد غير نافع إلا لمن أطاع الله ورسوله ، أمر الله بطاعتها بقوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جهاد الكفار وغيره .

ثم نهي عن التنازع واختلاف الكلمة بقوله : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ في أمر الجهاد ، ولا تختلف آراؤكم فيه كما اختلفت ^(٢) بيدر ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتفتروا فيه وتضعفوا عنه ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وشوكتكم ، وتزول دولتكم ، ﴿وَاصْبِرُوا﴾ على شدائد الحرب ومشاق منازلة الكفار ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في جهاد أعدائه بالنصرة والحفظ ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وأوطأنهم إلى حرب الله ورسوله ﴿بَطَرًا﴾ وافتخارا بكثرة العدة والعدد والتعم ، وشرف الآباء ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٧١ .

(٢) في النسخة : اختلف .

ليشوا عليهم بالشجاعة والسّماحة والغلبة على الخصم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ وَيَمْنَعُونَهُمْ ﴿عَنْ﴾ السُّلُوكِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَالدَّخُولِ فِي دِينِهِ﴾.

ثمّ هدّدهم الله على تلك القبائح بقوله : ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من البطر والرّياء والصدّ ، وغيرها من القبائح ﴿مُحِيطٌ﴾ ومطلّع ، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء.

روي أنّ قريشا لما بلغوا الجحفة ^(١) ، أتاهم رسول أبي سفيان وقال : ارجعوا فقد سلمت غيركم من أصحاب محمّد ونهّبهم ، فقال أبو جهل : لا والله ، حتّى نقدم بدرا ونشرب بها الخمر ، وتعزف علينا [فيها] القيان ، ونطعم بها من حضرنا من العرب ؛ فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا بدل كأس الخمر ، وناحت عليهم التّوائح مكان تعي القيان ، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا أمثالهم ^(٢) .

وقيل : إنّّه لما بلغت ^(٣) قريش الجحفة ، بعث الحثاف الكناني - وكان صديقا لأبي جهل إليه بهدايا مع ابن له ، فلمّا أتاه قال : إنّ أبي ينعمك صباحا ، ويقول لك : إن شئت أن أمدّك بالرجال أمددتك ، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت .

فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله والرحم خيرا ، إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمّد ؛ فو الله ما لنا بالله من طاقة ، وإن كنّا نقاتل النّاس ؛ فو الله إنّ بنا على النّاس لقوّة ، والله لا نرجع عن قتال محمّد حتّى نرد بدرا فنشرب فيها الخمر ، وتعزف علينا فيها القيان ؛ فإنّ بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم ، حتّى تسمع العرب بهذه الواقعة ^(٤) .

قيل : إنّما ذكر الله العلتين الاوليين - وهما البطر والرّياء - بصيغة المصدر ؛ لأنّ الاسم دالّ على التمكن والثبوت ، وكان الوصفان المذكوران متمكّنين فيهم وملكتين لهم ، وذكر العلة الثّالثة - وهي الصدّ - بصيغة المضارع الدالّة على التجدد والحدوث . لأنّها حصلت في زمان النبي ﷺ ^(٥) .

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ

لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى

مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَرِيزٌ

حَكِيمٌ (٤٨) و (٤٩)﴾

(١) الجحفة : قرية كبيرة على طريق مكة ، على أربع مراحل.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٣٥٤ .

(٣) في النسخة : بلغ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٣ « نحوه » .

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَنَّ مِنْ عِلَلِ خَذْلَانِ قَرِيشٍ إِغْوَاءَ الشَّيْطَانِ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من معاداة النبي ﷺ وتحزيمهم لقتاله.

روي أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ أَرَادُوا الْمَسِيرَ إِلَى بَدْرٍ ، خَافُوا مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ كَنَانَةَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَتَلُوا مِنْهُمْ وَاحِدًا ، فَلَمْ يَأْمَنُوا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْقَوْمُ مِنْ وَرَائِهِمْ ، فَتَصَوَّرَ الشَّيْطَانُ لَهُمْ بِصُورَةِ سَرَاقَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْشَمٍ ؛ وَهُوَ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ كَنَانَةَ ، وَ[كَانَ] مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، فِي جُنْدِ مِنَ الشَّيَاطِينِ ^(١) ، وَمَعَهُ رَايَةٌ ^(٢) ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ وَلَا قَاهِرَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ ﴿مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ وَدَفَعَ عَنْكُمْ بَنِي كَنَانَةَ وَغَيْرَهُمْ.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتُ﴾ والفريقان ؛ فريق المسلمين ، وفريق المشركين ، ورَأَى إبليسُ نَزُولَ الْمَلَائِكَةِ : قِيلَ : كَانَتْ ^(٣) يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ^(٤) ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى وَأَرَادَ الْفِرَارَ ، وَقَالَ لَهُ الْحَارِثُ : أَتَخَذِلُنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ؟ ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ وَمَعْرَضَ عَنْكُمْ ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ مِنْ جُنُودِ الْمَلَائِكَةِ ، فَقَالَ الْحَارِثُ : مَا نَرَى إِلَّا جَعَاشِيشَ ^(٥) أَهْلَ يَثْرِبَ ^(٦) ، فَدَفَعَ الشَّيْطَانُ فِي صَدْرِ الْحَارِثِ وَانْهَزَمَ وَقَالَ : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ مِنْ أَنْ يَهْلِكَني ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

قال قتادة : صدق في قوله : ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾

قيل : لما رأى الملائكة ينزلون من السماء خاف أن الوقت الذي انظر إليه قد حضر ^(٧) .

قيل : إنَّ قوله : ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ليس من كلام إبليس ، وإنما هو كلام الله ^(٨) .

قيل : لما رجعت قريش إلى مكة قالت : هزم الناس سراقاً ، فبلغ ذلك سراقاً فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. فعند ذلك تبين للقوم أنَّ ذلك الشخص لم يكن سراقاً ، بل كان شيطاناً ^(٩) .

وعن الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام ما يقرب منه ، إلى قوله : حتى بلغتني هزيمتكم. وزاد : « فقالوا : إنَّكَ أتيتنا يوم كذا ، فحلف لهم ، فلمَّا أسلموا علموا أنَّ ذلك كان شيطاناً » ^(١٠) .

(١) في النسخة : الشيطان.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٤ .

(٣) في النسخة : كان.

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٤ .

(٥) الجعاشيش : جمع جعشوش ، وهو الرجل القصير الذميمة.

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٣٥٦ .

(٧) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٦ .

(٨) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٦ .

(٩) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٤ .

(١٠) مجمع البيان ٤ : ٨٤٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٨ .

عن العياشي : عن السجّاد عليه السلام : « لما عطش القوم يوم بدر ، انطلق عليّ عليه السلام بالقرية يستسقي وهو على القلب (١) ، إذ جاءت ريح شديدة ثم مضت فلبث ما بدا له ، ثم جاءت ريح أخرى [ثم مضت ، ثم جاءت أخرى] كادت أن تشغله وهو على القلب ، ثم جلس حتى مضت ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبره بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أما الريح الأولى ففيها جبرئيل مع ألف من الملائكة ، والثانية فيها ميكائيل مع ألف من الملائكة ، والثالثة فيها إسرافيل مع ألف من الملائكة ، وقد سلّموا عليك ، وهم مدد لنا ، وهم الذين رأهم إبليس فنكص على عقبيه يمشي القهقري حين يقول : ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ (٢) .

ثم قيل : إنّ قوما من الأوس والخزرج كانوا منافقين ، وأسلم قوم من قريش وكان في قلوبهم شك ، ولذا لم يهاجروا. ثم لما حثت (٣) قريش إلى حرب رسول الله ﷺ قال أولئك : نخرج مع قومنا ، فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه ، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا (٤) .

فحكى الله تعالى قولهم حين رأوا قلة المسلمين بقوله : ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ من الأوس والخزرج ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الشك من قريش ، حين رأوا كثرة المشركين وقلة المسلمين : ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ المسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه : معناه أنه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل ، وما ذلك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم (٥) .

وقيل : معناه أنّ هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ، ويثابون على هذا القتل (٦) .

وقيل : إنهم قالوا : هؤلاء المؤمنون خرجوا مع قلة عددهم لحرب قريش مع كثرتهم وشوكتهم ، ولا شك أنّ قريشا تغلبهم. فردّ الله عليهم بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ويثق به ، ويسلم إليه اموره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ﴾ وغالب على أمره ، لا يخذل من توكل عليه واستجار به ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله ، يفعل ما فيه صلاح خلقه وإن كان خارقا للعادة.

وقد سبق عن القمي : أنّ فتية من قريش أسلموا بمكة. فاحتبسهم أبائهم ، فخرجوا مع قريش إلى بدر وهم على الشك والارتياب والتفاق ؛ منهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه ، والحارث بن ربيعة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن المنبه ، فلما نظروا إلى قلة أصحاب محمد ﷺ قالوا : مساكين هؤلاء غرهم دينهم ، فيقتلون الساعة. فأنزل الله [على رسوله] : ﴿إِذْ يَقُولُ﴾

(١) القلب : البئر.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٠٣ / ١٧٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٨ .

(٣) في النسخة : حث.

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٥ : ١٧٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٧ .

الْمُنَافِقُونَ ﴿١﴾ إِلَى آخِرِهِ.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ

لِّلْعَبِيدِ (٥٠) و (٥١) ﴿﴾

ثم بيّن سبحانه كيفية موت المشركين في بدر وتعذيبهم ، بقوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكّلون على قبض الأرواح ، وهم بعد قبض أرواحهم
﴿يَضْرِبُونَ﴾ بمقامع من حديد تلتهب منها النار - على ما قيل - ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وظهورهم - وعن
العياشي : إنّما أراد وأستأهمهم ^(٢) ، إنّ الله كريم يكتي ^(٣) - ﴿و﴾ يقولون : ﴿ذُوقُوا﴾ واطعموا أيّها
المشركون بعد القتل والخزي في الدّنيا ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وألم النار المحرقة.

عن ابن عباس : قول الملائكة : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ إنّما صحّ لأنّه كان مع الملائكة مقامع
كلّما ضربوا بها التّهبّ النار في الأجزاء والأبعض ^(٤) .

ثم بيّن سبحانه علّة استحقاقهم بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الضّرب ، وذوقهم عذاب النار ،
يكون ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ وما كسبت جوارحكم باختياركم ؛ من الشّرك والمعاصي ، ومعارضة الرّسول
﴿و﴾ بسبب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعطي كلّ ما يستحقّه ، فلا يدخل المطيع النار ، ولا المسيء
الجنّة.

﴿كَذَّابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ

اللَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴿﴾

ثم بيّن سبحانه أنّ عادة قريش ودأبهم في معاندة الحقّ ، ومعارضة الرّسول ﷺ ﴿كَذَّابٍ آلِ
فِرْعَوْنَ وَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وسيرتهم في تكذيب آيات الله ومعجزات الرّسول ، تكون
كسيرتهم.

ثمّ كأنّه قيل : ما كان دأب آل فرعون وأضرابهم ؟ فأجاب بقوله : ﴿كَفَرُوا﴾ وكذبوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾
ومعجزات رسله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ وعدّهم بالغرق والريّح والصّاعقة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ الموبقة ، كما أخذ

(١) تفسير القمي ١ : ٢٦٦ .

(٢) الاست : العجز .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٠٤ / ١٧٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٧٨ .

هؤلاء المشركين بالقتل والحزى ، بشركهم ومعارضتهم الرسول ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يعجزه شيء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على المشركين به ، المعارضين لرسوله . وفيه تسلية النبي ﷺ ، وتهديد سائر الكفار .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ

اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٣)

ثم نبه سبحانه على علة عدم ابتلاء العاصي قبل المعصية بالعذاب ، وعدم أخذه بالشقاوة الذاتية التي تكون له في بطن أمه ، بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ التعذيب بعد النعمة ، والأخذ بعد الاسترسال ، معلل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ﴾ من دأبه ومقتضى حكمته أن يكون ﴿مُغَيِّرًا﴾ ومبدلاً ﴿نِعْمَةً أَنْعَمَهَا﴾ وتفصل بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من العقل والصحة ، والراحة وسعة العيش ، وغيرها ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال والأخلاق والأعمال التي كانوا عليها حين وجدان تلك النعمة ، إلى أسوأها ، كما غيرت قريش حالها ^(١) في صلة الرحم وعدم التعرض للآيات ، إلى قطع الرحم والتكذيب بالآيات ومعجزات الرسول ، ﴿وَنظَائِرُهَا﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون في السابق واللاحق ، فيرتب على كل منهما ما يليق به من إبقاء النعمة عليه وتغييرها .

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ

لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٤) و (٥٦)

ثم أكد سبحانه مشابهة دأب مشركي قريش بدأب كفار الأمم السابقة بقوله : ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ﴾ الكفار ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود ، من حيث إنهم ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنعم عليهم ، وجحدوها ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أهلكنا عتاة قريش ﴿وَأَعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ومن معه من القبط في البحر ﴿وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ على الله ^(٢) بتضييع حقوق نعمه ، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك .

قيل : هذه الآية تفصيل للآية الأولى ^(٣) .

ثم أنه تعالى بعد بيان مساواة الكفار في الظلم ، بين أن شرهم الناقضون للعهد ، بقوله : ﴿إِنَّ شَرَّ

(١) في النسخة : حالهم .

(٢) في النسخة : على أنه .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٨١ .

الدَّوَابِّ ﴿وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُتَحَرِّكَةِ﴾^(١) على وجه الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي حكمه ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبدا ، لحبث ذاتهم ، وشدة عنادهم ولجأهم ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ بعضا ﴿مِنْهُمْ﴾ مرّات ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ﴾ ويخالفون ﴿عَهْدَهُمْ﴾ الذي أخذت منهم ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ من مرّات المعاهدة ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله ، ولا يحترزون سيئة الغدر ، ولا يبالون العار والتّار .

عن ابن عباس : هم يهود قريظة ^(٢) .

قيل : إنّهم عاهدوا رسول الله ﷺ على أن لا يعينوا عليه عدوّا ، فنقضوا [العهد] وأعانوا أهل مكة يوم بدر بالسّلاح ، ثمّ قالوا : نسينا وأخطأنا ، ثمّ عاهدتهم عليه مرّة اخرى فنكثوا وأعانوا المشركين عليه يوم الخندق ، وذلك أنّهم لما رأوا غلبة المسلمين على المشركين يوم بدر قالوا : إنّهُ هو النّبىّ الموعود ، بعثهُ [الله] في آخر الزّمان ، فلا جرم يتمّ أمره ، ولا يقدر أحد على محاربتِهِ ، ثمّ [أنّهم] لما رأوا يوم احد ما وقع من نوع ضعف المسلمين شكّوا ، وقد كان احترق كبدهم بنار الحسد من ظهور دينه وقوّة أمره ، فركب كعب بن أسد سيّد بني قريظة مع أصحابه إلى مكة ، وواثقوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فأدّى ذلك إلى غزوة الخندق ^(٣) .

وعن القمّي : هم أصحابه الذين فروا يوم احد ^(٤) .

﴿فَإِذَا تَفَقَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ * وَإِنَّمَا تَخَافَنَ

مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٧) و (٥٨)

ثمّ أنّه تعالى بعد ذمّ الكفّار النّاقضين للعهد بأنّهم شرّهم ، أمر نبيّه ﷺ بالتّعليظ والتّشديد عليهم ، بقوله : ﴿فَإِذَا تَفَقَّهْتُمْ﴾ وتظفّرّ بهم ﴿فِي﴾ تضاعيف ﴿الْحَرْبِ﴾ والقتال ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ﴾ وفرّق بسبب قتلهم وتنكيلهم ﴿مَنْ﴾ يكون ﴿خَلَفَهُمْ﴾ ومن ورائهم من أعدائك ، وأوقع بالنّاقضين من التّكايّة والقهر ما يضطرب به حال غيرهم من الكفّار ، ويخاف منك أمثالهم ، بحيث يذهب عنهم بالكلّيّة ما يخطر ببالهم من معاداتك ومحاربتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ ويتعظون بما شاهدوا من معاملتك مع النّاقضين ، فيرتدّعوا من نقض العهد ﴿وَإِنَّمَا تَخَافَنَ﴾ وتعلمنّ بالأمارات ﴿مِنْ قَوْمٍ﴾ عاهدوك على أمر ﴿خِيَانَةٍ﴾ ونقض عهد ﴿فَإِنْبِذْ﴾ واطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ وبطريق الاقتصاد ، بأنّ تخبرهم إخبارا واضحا بأنّك ألغيت عهدهم ، وقطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، ولا

(١) في النسخة : المتحرّكين.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١١ .

تقدم على حركهم في حال كونهم على توهم بقاء العهد ، كي لا يتوهم في حَقِّ شائبة الخيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ وفي هذا التذييل ^(١) دلالة على قبح الخيانة ومبغوضيتها لله مطلقا ، سواء كانت في العهد أو غيره ، مع الرسول أو مع غيره. القمي : نزلت في معاوية لما خان أمير المؤمنين عليا ^(٢) .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩)

ثمَّ أنه تعالى بعد الأمر بتشديد النبي ﷺ على الناقضين للعهد ومعاملته معهم معاملة يعتبر بها غيرهم ، وقد فاتته تعالى يوم بدر بعض من بلغ في أذية النبي ﷺ ونقض عهده مبلغا عظيما ، سلاه سبحانه ووعد بالظفر بهم ، لئلا يبقى في قلبه الشَّرِيف حسرة ، بقوله : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ ولا يتوهم ^(٣) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونقضوا عهد النبي ﷺ ، ولم يظفر بهم أثمَّ ﴿سَبَقُوا﴾ وأفلتوا من أن يعاقبوا ، فليعلموا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ الله من أن يظهر بعد ، أو المراد : لا يجدون الله الذي هو طالبهم عاجزا من إدراكهم.

وقيل : إنَّ المراد أثمَّ لا يحسبوا بتخلّصهم من الأسر والقتل أثمَّ يخلصون من عقاب الله وعذابه في الآخرة ، إثمَّ لا يعجزون الله بهذا السبق والتخلّص ، من الانتقام منهم في الآخرة.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِقُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٦٠)

ثمَّ أنه تعالى لما أمر النبي ﷺ بتشديد الناقضين للعهد ، ونقض عهد من يخاف منه النّقض ، أمر المؤمنين بالإعداد لهؤلاء الكفار والتهيو لقتالهم ، بقوله : ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لقتال الكفار وهيئوا ﴿لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وما بلغ وسعكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ وعدة ، كائنا ما كان من سلاح وقسي وترس وغيرها. قيل : إنَّه لما اتفق لأصحاب ^(٤) النبي ﷺ في قضية ^(٥) بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة ، أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله ، وأن يعدّوا [للكفار] ما يمكنهم من آلة وقوة ^(٦) .

عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية على المنبر وقال « أَلَا أَنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي » ثلاثا ^(٧) . وقيل : هي الحصون ^(٨) .

(١) في النسخة : التذييل.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١١.

(٣) في النسخة : ولا يتوهم.

(٤) في تفسير الرازي : أصحاب.

(٥) في تفسير الرازي : قصة.

(٦) تفسير الرازي : ١٥ / ١٨٥ .

(٧) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٥ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٣٢ .

(٨) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٥ .

وعن الصادق عليه السلام : « سيف وترس » ^(١) . وفي الفقيه : عنه عليه السلام : « منه الخضاب بالسواد » ^(٢) .
وعن القمي : السلاح ^(٣) .

وقيل : عام ، في كل ما يتقوى به على حرب العدو ^(٤) من الآلات ، والحصون ، والعلوم المربوطة به .

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ وأفراس مربوطة في سبيل الله . وعن عكرمة : الإناث منه ^(٥) .

وروي : عليكم بإنات الخيل ، فإنّ ظهورها حرز وبطونها كنز ^(٦) .

وفي الحديث : « من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا به وتصديقا بوعده ، فإنّ شعبه وريّه وروثه وبوله في ميزانه [يوم القيامة] » ^(٧) .

ثمّ بين سبحانه علّة إيجاب الإعداد للحرب بقوله : ﴿تُرْهِيبُونَ﴾ بالإعداد وترعبون ﴿بِهِ﴾ كفّار قريش الذين يكونون ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ لكونكم أولياء الله ﴿وَأَعْدَاءُ﴾ أعداء ﴿آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ وممن عداهم من الكفرة ؛ كاليهود والنصارى والمنافقين ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ولا تعرفونهم جميعا لنفاقهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعرفهم .

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بتحصيل القوّة للحرب ، رغب المسلمين ببذل المال [بقوله :] ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ووجوه الخير التي أهمّها الجهاد ﴿يُوفَّ﴾ ويوصل ﴿إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه كاملا في الآخرة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَطْلُمُونَ﴾ بترك الإثابة أو تنقيصها .

عن ابن عباس قال : ﴿يُوفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي لا يضيع في الآخرة أجره ، ويعجل الله عوضه في الدنيا ^(٨) ، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَطْلُمُونَ﴾ أي لا تنقصون من الثواب .

وروي أنّه « من أعان مجاهدا في سبيل الله ، أو غارما ف عسرتة ، أو في مكاتبا في رقبته ، أظله الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه » ^(٩) .

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦١)

ثمّ أنّه تعالى بعد الأمر بالإعداد للحرب ، أمر بإجابة الكفار إذا سألوا الصلح بقوله : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ ومالوا ﴿لِلْسَلْمِ﴾ والمصالحة وطلبوها منك ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ ومل إليها إن رأيت الصلح فيها ﴿وَتَوَكَّلْ﴾

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٠٤ / ١٧٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ٧٠ / ٢٨٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٢ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٢ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٥ : ١٨٥ .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦٥ .

(٨) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٧ .

(٩) تفسير روح البيان ٣ : ٣٦٦ .

عَلَى اللَّهِ ﴿وَفُوضَ الْأَمْرَ فِي مَعَاهِدَتِكَ مَعَهُمْ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ إِذَا نَقَضُوا وَعَدَلُوا عَنِ الْوَفَاءِ بِهَا﴾
﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لمقاتلتهم الخفية الخداعية ، وبضمايرهم السيئة من إبطائهم المكر في الصلح.
قيل : إنها منسوخة بقوله : ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(١) ، وقوله : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٢) .

وعن القمّي : أنّها منسوخة بقوله : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ﴾^(٣) .

أقول : في الجميع نظر.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل : ما السّلم ؟ قال : « الدّخول في أمرنا »^(٤) .

أقول : الرواية مناسبة لقوله : ﴿ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾^(٥) ، ولا ربط لها بهذه الآية.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٢) وَ (٦٣)﴾

ثمّ أكّد سبحانه وجوب التوكّل عليه عند الخوف من نقضهم العهد بقوله : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ في طلب الصّلح ، ويمكروا بك بنقض العهد ، فلا تبال بهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ وكفّك من شرهم ، وينصرك عليهم ، فإنّه تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ﴾ وقوّاك ﴿بِنَصْرِهِ﴾ يوم بدر وغيره من أيّام عمرك ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار بعد بعثتك ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعد أن كان بينها من التّباعد والبغضاء قبل الإيمان بك ، بحيث ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لتؤلّف قلوبهم ﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لا متناعه بالأسباب العاديّة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ قلبا وقالبا ، فصاروا بقدرته وتوفيقه كنفس واحدة ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره ، لا يستعصي شيء ممّا يريد ﴿حَكِيمٌ﴾ وعالم بمصالح الأمور وتدبيرها.

القمّي : كان بين الأوس والخزرج حرب شديدة وعداوة في الجاهلية ، فألّف الله بين قلوبهم ونصر

بهم نبيّه ﷺ^(٦) .

(١) التوبة : ٩ / ٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٧ ، والآية من سورة التوبة : ٩ / ٢٩ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٢ ، والآية من سورة محمد ﷺ : ٤٧ / ٣٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٠٤ / ١٧٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٢ .

(٥) البقرة : ٢ / ٢٠٨ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٣ .

قيل : إنّ النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة ، وحميتهم عظيمة ، حتّى لو لطم رجل من قبيلة لطمه ، قاتل عنه قبيلته حتّى يدركوا ثأره ، ثمّ انقلبوا من تلك الحالة حتّى قاتل الرجل [أخاه و] أباه وابنه واتفقوا على طاعة النبي ﷺ ، وصاروا أنصارا ، وعادوا أعوانا (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد ما وعد نبيّه ﷺ بالنصر عند خديعة الأعداء ، وعده بالنصر في جميع الأوقات ، وعلى جميع الكفار بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ وكافيك في دفع شرّ أعدائك ، ﴿ وَكَافِيكَ ﴾ كافيكَ ﴿ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقيل : إنّ المعنى : أنّ الله كافيك وكافي أتباعك (٢) .

قيل : نزلت بالبدياء في غزوة بدر قبل القتال تقوية للنبي ﷺ وتسليّة لأصحابه (٣) .

وقيل : لما أسلم عمر وبلغ بإسلامه عدد المؤمنين أربعين نزلت الآية (٤) .

وفي (نهج الحق) : روى الجمهور أنّها نزلت في عليّ عليه السلام (٥) . وذكره (٦) صاحب (كشف

الغمة) عن كتاب عزّ الدين بن عبد الرزّاق المحدّث الحنبلي (٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد تقوية قلب نبيّه ﷺ أمره بتحريض المؤمنين على القتال بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحثّهم ﴿ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ مع أعداء الله ، وبالحق في ترغيبهم إليه بوعد الثواب العظيم على فعله ، والعقاب الشّديد على القعود عنه ، وقل لهم : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أيّها المؤمنون ﴿ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ على المنازلة في معركة القتال ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ من الذين كفروا ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ ﴾ صابرة ﴿ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا الضّعف في الكفّار معلّل ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ولا يدركون الحقّ ، ولا يعرفون الله ، ولا يعتقدون باليوم الآخر حتّى يقاتلوا تقرّبا (٨) إلى الله ، وتوكّلا (٩) عليه ، ورجاء للثواب ، بل يقاتلون بهوى النّفس ، وبالأغراض الدنيويّة ، ولذا يستحقّون الخزي والقتل ، ولا يستحقّون النّصر.

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٨٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٩١ .

(٣ و ٤) . تفسير روح البيان ٣ : ٣٦٨ .

(٥) نهج الحق : ١٨٥ .

(٦) في النسخة : وذكر .

(٧) كشف الغمة ١ : ٣١٢ .

(٨) في النسخة : متقربا .

(٩) في النسخة : ومتوكّلا .

وقيل : إذا كانوا يقاتلون لهذه ^(١) الأغراض الفاسدة يشحّون على أنفسهم وحياتهم ، ولا يعرضونها للزوال ؛ ولذا أمر المسلمون بالثبات في مقابل عشر أمثالهم منهم.

﴿الآن خففَ الله عنكم وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ثم لما شقّ التكليف على المسلمين حتى ضجّ المهاجرون - كما عن ابن عباس - وقالوا : يا ربّ ، نحن جوع وأعداؤنا شجاع ، ونحن في غربة وأعداؤنا في أهليهم ، ونحن قد أخرجنا من ديارنا وأموالنا وأولادنا وأعداؤنا ليسوا كذلك. وقال الأنصار : شغلنا بعدونا ، وواسينا إخواننا ، فنزل التّخفيف ^(٢) بقوله : ﴿الآن خففَ الله عنكم﴾ برفع التكليف السابق ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ عن المقاومة في قبال عشر أمثالكم بأن يقاتل الواحد عشرا ، والعشرة مائة ، والمائة ألفا ﴿فَإِنْ يَكُنْ﴾ من بعد ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ على مشاقّ الحرب ، ثابتة الأقدام في معركة التّزال ﴿يَغْلِبُوا﴾ ويقهروا ﴿مِائَتَيْنِ﴾ من الكفار ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ في ميدان القتال ﴿يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ من الكفار ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقدرته وتيسيره وتسهيله ﴿وَاللَّهُ﴾ بنصره وتأيدده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في جهاد أعدائه.

روي أنّ النّبي ﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة ، وبعث حمزة رضي الله عنه في ثلاثين راكبا قبل بدر إلى قوم ، فلقاهم أبو جهل في ثلاثمائة راكب ، وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة ، وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذلي وكان في جماعة ، فابتدر عبد الله وقال : يا رسول الله ، صفه لي ، فقال : « إنّك إذا رأيته ذكرت الشيطان ، ووجدت لذلك قشعريرة ، وقد بلغني أنّه جمع لي ، فخرج إليه واقتله » ، قال : فخرجت نحوه ، فلمّا دنوت منه وجدت القشعريرة ، فقال لي : من الرجل ؟ قلت له : من العرب ، سمعت بك وبجمعك. ومشيت معه حتّى إذا تمكّنت منه قتلته بالسيف ، وأسّرت إلى رسول الله ﷺ وذكرت أنّي قتلته ، فأعطاني عصا وقال : « أمسكها ، فإنّها آية بيني وبينك يوم القيامة » ^(٣) .

ثم إنّ هذا التّكليف شقّ على المسلمين فأزاله الله بهذه الآية.

وقال ابن عباس : أيما رجل فرّ من ثلاثة فلم يفرّ ، فإنّ فرّ من اثنين فقد فرّ ^(٤) . وعن أمير

المؤمنين عليه السلام :

(١) في النسخة : بهذه.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ١٩٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ١٩٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ١٩٤ .

« من فرّ من رجلين في القتال من الرّحف فقد فرّ من الرّحف ، ومن فرّ من ثلاثة رجال [في القتال من الرّحف] فلم يفرّ » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام ، في حديث ذكر فيه هذه الآية فقال : « نسّخ الرّجلان العشرة » ^(٢) .

قيل : كان فيهم قلّة أوّلاً ، فأمرؤا بذلك ، ثمّ لما كثروا خفّف الله عنهم .

أقول : يشمّ ذلك من الآيتين ، حيث ذكر في الآية الاولى غلبة العشرين على مائتين ، ومائة على

ألف ، وفي الثانية غلبة مائة على مائتين ، وألف على ألفين .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْجُو فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا

وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حكم الجهاد ، والأمر بالمسالمة إذا طلبها الكفّار ، بيّن حكم الأسارى

والغنائم بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ ﴾ من الأنبياء ، وما صحّ له ﴿ أَنْ يَكُونَ ﴾ ويثبت ﴿ لَهُ أُسْرَى ﴾ وسبابا ﴿ حَتَّى

يُنْجُو فِي الْأَرْضِ ﴾ ويكثر القتل ويبالغ فيه ، حتّى يذلّ الكفر ويقلّ حزيه ويعزّز الإسلام .

روي أنّ النبي ﷺ أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب

، فاستشار فيهم ، فقال أبو بكر : [هم] قومك وأهلك ، استبقهم لعلّ الله يهديهم إلى الإسلام ،

وخذ منهم فدية تقوّي بها أصحابك . وقال عمر : كذبوك ، وأخرجوك من ديارك ، وقاتلوك ، فاضرب

أعناقهم ، فإنّهم أئمة الكفر ، مكّي من فلان ؛ نسيب لي ، و [مكّن] عليا من عقيل ، وحمزة من

العباس ، فلنضرب أعناقهم فلم يهو ذلك رسول الله ﷺ وقال : « إنّ الله ليلينّ قلوب رجال حتّى تكون

ألينّ من اللّبن ، وإنّ الله ليشدّد قلوب رجال حتّى تكون أشدّ من الحجارة ، وإنّ مثلك يا أبا بكر مثل

إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) ، ومثلك يا عمر مثل نوح قال :

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا ﴾ ^(٤) .

فخيّر أصحابه بأن قال لهم : « إنّ شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم أطلقتموهم ، بأن تأخذوا من كلّ

أسير عشرين اوقية - والاوقية أربعون درهما في الدّراهم ، وستّة دنانير في الدّنانير - على ^(٥) أن يستشهد

منكم بعدّتهم » ، فقالوا : بل نأخذ الفداء ويدخل منّا الجنّة سبعون ، فاستشهدوا يوم أحد بسبب قولهم

هذا وأخذهم الفداء ، فنزلت الآية في فداء اسارى بدر ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ وهو وأبو بكر

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٠٧ / ١٧٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٣ .

(٢) الكافي ٥ : ٦٩ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٣ .

(٣) إبراهيم : ١٤ / ٣٦ .

(٤) نوح : ٧١ / ٢٦ .

(٥) في تفسير روح البيان : إلّا .

يكيان ، فقال : يا رسول الله ، أخبرني ، فإن أحد بكاء أبكي وإلا تباكيت ، فقال : « أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة » ^(١) .

وروي أنه ﷺ قال : « لا تخرجوا أحدا منهم إلا بفداء ، أو بضرب عنق » ، فقال ابن مسعود : إلا سهيل ^(٢) بن بيضاء ، فإني سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ واشتدّ خوفي ، ثم قال من بعد : « إلا سهيل بن بيضاء » ^(٣) .

وعن ابن سيرين : كان فداؤهم مائة أوقية ^(٤) .

ونقل : أنّ الأسرى منهم من فدي ، ومنهم من قتل ، ومنهم من خلّي سبيله من غير فداء ، ومنهم من مات ^(٥) .

ثمّ لا مهم سبحانه على أخذ الفداء بقوله : ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأسرهم وأخذ الفداء منهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ وزخارفها التي تزول ولا تبقى ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها الذي يكون قليله خيرا من الدنيا وما فيها ، فعليكم بطلب الآخرة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وقادر يجمع لكم الدنيا والآخرة ، ويغلبكم على أعدائكم ﴿حَكِيمٌ﴾ بحكمته يدبّر مصالح عباده وأوليائه.

قيل : إنّ الله أمرنا بالإلتحان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشرّكين ، ولما تحوّلت الحال وصارت الغلبة للمسلمين ، خيّر بين المنيّ والفداء ^(٦) .

في الردّ على القول بعمل الأنبياء باجتهاد

قال بعض العامّة : الآية دالّة على أنّ الأنبياء مجتهدون ، لأنّ اللّوم لا يكون على ما صدر عن الوحي ، ولا على فعل ما هو صواب ، بل يكون على ما كان خطأ ^(٧) .

وفيه : أنّه بعد ما ثبت عصمة النبيّ بالأدلة العقلية والنقلية عن الخطأ لا يمكن نسبته إليه ، فلا بدّ من القول بأنّه ﷺ كان عالما بخطأ الصحابة في الإصرار بأخذ الفداء ، ولكنّه ﷺ لما كان رحمة للعالمين كان مأمورا بموافقتهم وعدم تخطفتهم ، كي تنزل آية فيها تخطفتهم والعتاب عليهم ، ويظهر للمسلمين أنّ أبا بكر وأضرابه كانوا طالبيين للدنيا دون الآخرة.

﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ

(١) تفسير الرازي ١٥ : ١٩٧ ، تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٢ .

(٢) في النسخة : إسماعيل ، وكذا ما بعدها .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٥ : ١٩٨ .

(٥ و ٦) . تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٣ .

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ

مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٨) و (٧١)

ثمّ عاتبهم الله على أخذ الفداء بقوله : ﴿لَوْ لَا كِتَابٌ﴾ وحكم وقضاء ﴿مِنَ اللَّهِ سَقَى﴾ بحلّ الغنائم ، أو بأن لا يعذب من أذنب بجهالة ، أو بأن يمهّل طالبي الدنيا حتّى يقوم بهم الاسلام ﴿لَمَسْكُكُمْ﴾ ولأصابتكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء وبسببه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

ثمّ روي أنّ الصحابة لما عوتبوا على أخذ الفداء أمسكوا عن الغنائم ^(١) ، حتّى صرّح الله سبحانه بحلّها لهم بقوله : ﴿فَكُلُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ واستفدتم من أمتعة الكفّار وأموالهم في الحرب ، حال كونه ﴿حَلَالاً﴾ ومباحا لكم من الله و﴿طَيِّباً﴾ وغير مكروه لطباعكم ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن فرط منكم في استباحة الفداء قبل إذنه ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم بإحلاله الغنائم لكم ، مع أنّها كانت محرّمة على الامم الذين من قبلكم.

عن ابن عبّاس : كانت الغنائم حراما على الأنبياء ، فكانوا إذا أصابوا مغنما جعلوه للقرىبان ، فكانت تنزل النار من السماء فتأكله ، والله عنايات بهذه الامة لا تحصى ^(٢) .

ثمّ أنّه روي أنّه اسر العباس بن عبد المطلب يوم بدر ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام من خرج من مكّة لحماية العير ، وكان قد خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الكفّار ، فوقع القتال قبل أن يطعم بها ، وبقيت العشرون أوقية معه ، فأخذت منه في الحرب ، فكلم النبي ﷺ في أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه ، فأبى ﷺ وقال : « إنّما هو شيء خرجت به لتستعين به علينا ، فلا أتركه لك » . فكلفه أن يفدي نفسه بمائة أوقية زائدا على فداء غيره لقطع الرحم ، وكلفه أن يفدي ابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث ، كلّ واحد بأربعين أوقية ، فقال : يا محمّد ، تتركني أتكفّف قريشا ما بقيت !

فقال ﷺ : « فأين [الذهب] الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكّة ، وقلت لها : إنّني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله والفضل وقتم ؟ » فقال العباس : وما يدريك ؟ قال : « أخبرني به ربّي » ، قال : أشهد أنّك صادق ، وأن لا إله إلا الله ، وأنّك رسول الله ، والله لم يطلّع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا في أمرك ، وأمّا إذ أخبرتني بذلك فلا ريب ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢٠٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٥ .

فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ كالعبّاس وغيره : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ من الإيمان والخلوص والنصح للرسول ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ ويعطيكم في الدنيا وفي الآخرة ، أو فيهما من الثواب ما يكون ﴿خَيْرًا﴾ وأفضل ﴿مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء والغنيمة ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذنوبكم التي سلفت منكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب المذنبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين .

عن السجّاد عليه السلام قال : « أتى النبي ﷺ بمال دراهم ^(١) فقال : يا عباس ابسط رداءك وخذ من هذا المال طرفا ، فبسط رداءه وأخذ طائفة منه ، ثم قال رسول الله : هذا من الذي قال الله : ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ... مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ ^(٢) .

وروي أنّ العباس قال : فأبدلني الله خيرا ممّا اخذ مني ، لي الآن عشرون عبدا ، وإن أدناهم ليضرب - أي يتجر - في عشرين ألف درهم ، وأعطاني سقاية زمزم ، ما أحبّ أنّ لي بها جميع أموال أهل مكة ، أنجز الله لي أحد الوعدين ، وأنا أرجو أن ينجز لي الوعد الثاني ^(٣) .

وروي أنّه قدم على رسول الله ﷺ مال البحرين ثمانون ألفا ، فتوضّأ لصلاة الظهر وما صلّى حتّى فرّقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه ، فأخذ ما قدر على حمله ، وكان يقول : « هذا خير ممّا أخذ مني ، وأنا أرجو المغفرة » ^(٤) .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بأن عزموا على الثبات على الكفر ، وعدم الوفاء بما ضمنوا من الفداء ، أو بما عاهدتهم ^(٥) عليه من عدم العود إلى محاربتك ، وإلى معاهدة المشركين ، فليس بدعا منهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ بما أقدموا عليه من محاربتك يوم بدر ﴿فَأَمَكَنَ﴾ الله المؤمنين ﴿مِنْهُمْ﴾ قتلا وأسرا. وفيه بشارة للرسول ﷺ بتمكينه من كلّ من يخونه وينقض عهده. وعن القمي رحمه الله : ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في عليّ ، فقد خانوا الله من قبل فيك ^(٦) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بضمايرهم من إبطان الخلوص والصدق ، والخيانة والغدر ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعاله ، يراعي ما هو صلاح مملكته ، ويجازيهم على حسب استحقاقهم.

وفي رواية عامية : أنّ العباس كان قد أسلم قبل وقعة بدر ، ولكن لم يظهر إسلامه ، لأنّه كان له ديون متفرقة في قريش ، وكان يخشى إن أظهر الإسلام ضياعها ، وإنّما كلّفه النبي ﷺ الفداء ، لأنّه كان عليه ظاهرا لا له ، ولما كان يوم فتح مكة وقهرهم الإسلام أظهر إسلامه ، ولم يظهر النبي ﷺ إسلامه رفقا

(١) في النسخة : بمأتي درهم.

(٢) قرب الإسناد : ٢١ / ٧٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ٢٠٤ .

(٥) في النسخة : عاهدتم.

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٥ .

به ، كيلا يضيع ماله عند قريش ، وكان قد استأذن النبي ﷺ في الهجرة ، فكتب إليه : « يا عم أقم مكانك الذي أنت فيه ، فإن الله يختم بك الهجرة كما ختم بي النبوة » فكان كذلك (١) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ

التَّصَرُّ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان قضية بدر وثبات المؤمنين فيها ، وبيان أحكام الجهاد والغنيمة والأسر ، شرع في مدح المؤمنين وذكر أقسامهم ، بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وكتابه ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أوطانهم وأهلهم للالتزام بخدمة الرسول ﷺ ، والقيام بطاعته ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أعداء الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ بأن صرفوها إلى المحتاجين ولوازم الجهاد ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن باشروا القتال ، وخاضوا في المهالك ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلباً لنصرة دينه ، وجباً لرسوله ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾ وأسكنوا النبي ﷺ والمهاجرين في بلدهم ومأواهم ﴿وَنَصَرُوا﴾ هم على أعدائهم ، وعاونوهم على مقاصدهم ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون بتلك الصفات الفاتحة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾ ووارث ﴿بَعْضٍ﴾

القسمي : لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة آخا بين المهاجرين والمهاجرين ، وبين الأنصار والأنصار ، وبين المهاجرين والأنصار ، وكان إذا مات الرجل يرثه أخوه في الدين ويأخذ المال ، وكان له ما ترك دون ورثته ، فلما كان بعد بدر أنزل الله : ﴿التَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (٢) فنسخت آية الاخوة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (٣) .

وفي (المجمع) عن الباقر عليه السلام : « أئمتهم كانوا يتوارثون بالمواخاة الاولى (٤) ، دون التقارب ، حتى نسخ ذلك [بقوله] : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ (٥) .

وعن ابن عباس : المراد هو الولاية في الميراث ، وقال : جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة ، وكان القريب إذا آمن ولم يهاجر لم يرث ، من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر (٦) .

كما بين الله ذلك بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ كسائر المؤمنين ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٧٦ .

(٢) الأحزاب : ٣٣ / ٦ .

(٣) تفسير القمي : ١ : ٢٨٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٥ .

(٤) مجمع البيان ٤ : ٨٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٦ .

(٥) تفسير الصافي ٢ : ٣١٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٢٠٩ .

﴿مَنْ وَلَايَتِهِمْ﴾ في الميراث ﴿مَنْ شَيْءٍ﴾ وإن كانوا أقرب أقاربكم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾

ثم لما كان مجال توهم وجوب القطع منهم في جميع الجهات كالكفار ، دفعه الله سبحانه بقوله :
﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا بكم ^(١) على من يعاديهم ﴿فِي الدِّينِ﴾ من الكفار ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ لهم ،
وليس لكم أن تخذلوهم ﴿إِلَّا﴾ إذا استنصروكم ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ من الكفار الذين ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾
وعهد على أن لا تقتلوه ، فإنه لا يجوز لكم نصر المؤمنين عليهم في هذه الصورة ؛ لأن حرمة نقض
الميثاق مانعة منه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والعصيان لأحكامه ﴿بَصِيرٌ﴾ ومطلع فيجازيكم على ما
صدر عنكم على حسب استحقاقكم.

وروي أن لما نزل قوله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ قام الزبير وقال : فهل
نعينهم على أمر إن استعانوا بنا ؟ فنزل ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ﴾ الآية ^(٢) .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣)

ثم نهي الله المؤمنين عن موالاته الكفار ومعاننتهم بأي وجه ، وإن كانوا أقرب الأقارب بقوله :
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليسوا أولياءكم لانقطاع العلاقة بينكم وبينهم بالإسلام ، بل ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
بَعْضٍ﴾ لاشتراكهم في السنخية ، واتفاقهم على الباطل ومعاداة الرسول ومعارضته ، فيجب عليكم
التباعد منهم والتعاند معهم و﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ بأن تحالطوهم وتوالوهم ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ﴾ عظيمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾
وهي ضعف المؤمنين وقوة الكفار ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ من جهة رغبة المسلمين إلى الكفار ، ورجوعهم عن
الإسلام إلى الكفر بسبب المخالطة والمواودة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ

هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا

وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي

كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٤) و (٧٥)

ثم مدح الله سبحانه المؤمنين من المهاجرين والأنصار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾
الكفار بأموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم على الكفار ﴿أُولَئِكَ هُمُ

(١) في النسخة : عنكم.

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٢١١ .

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ إيماناً ﴿حَقًّا﴾ وصدقاً وخالصاً لقيامهم بلوازمه ، وعملهم بمقتضاه ﴿لَهُمْ﴾ بسبب الإيمان الخالص ، والعمل الصالح ﴿مَغْفِرَةً﴾ وستر لذنوبهم السابقة ﴿وَرِزْقًا كَرِيمًا﴾ واسع كثير بلا من ولا تعب في الآخرة ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ - عن ابن عباس : بعد الحديبية ، وقيل : بعد بدر ، وقيل : بعد نزول الآية (١) - ولحقوا بالسابقين من المؤمنين في اعتقاد التوحيد ، وتبعية الرسول ﷺ ، وطاعة أوامره ﴿وَهَاجَرُوا﴾ من أوطانهم إلى الرسول ﷺ ﴿وَجَاهَدُوا﴾ أعداءه ﴿مَعَكُمْ﴾ وفي جماعتكم ﴿فَأُولَئِكَ﴾ يعدّون ﴿مِنْكُمْ﴾ ويحسبون من زمركم ، ويكون لهم ما لكم.

ثم نسخ سبحانه حكم التوارث بالمهجرة والتصرة بقوله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ وذوو القربات النسبية من المؤمنين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ﴾ وأحق في الإرث ﴿بِبَعْضٍ﴾ الأقرب إليهم ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وحكمه المنزل في القرآن ، أو المكتوب في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ، ومصلحة من المصالح ﴿عَلِيمٌ﴾ بذاته ، ومطلع بإحاطته.

عن الصادق عليه السلام : « كان عليّ عليه السلام إذا مات مولى له وترك قرابة ، لم يأخذ من ميراثه شيئاً ، ويقول : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ » (٢) .

القمي ، قال : هذه الآية نسخت : [قوله] : ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيحَهُمْ﴾ (٣) .
أقول : نسخت إطلاقه.

عن الصادق عليه السلام : « لا تعود الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام أبداً ، إنما جرت من علي بن الحسين عليهما السلام كما قال الله : ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا تكون بعد علي بن الحسين عليهما السلام إلا في الأعقاب بعد الأعقاب » (٤) .

أقول : لعل المراد أنّ قضاء الله في نصب الأئمة طابق حكمه في الميراث ؛ لأنّ الإمامة داخلية في حكم الإرث.

نقل الفخر الرازي أن محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب تمسك بهذه الآية في كتابه إلى [أبي] جعفر المنصور على أنّ الإمام بعد رسول الله هو علي بن أبي طالب عليه السلام ، فقال : قوله تعالى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يدلّ على ثبوت الأولوية (٥) ،

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٣ .

(٢) الكافي ٧ : ١٣٥ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٧ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ٦ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٧ ، والآية من سورة النساء : ٤ / ٣٣ .

(٤) الكافي ١ : ٢٢٥ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٧ ، وفيهما : إلّا في الأعقاب وأعقاب الأعقاب .

(٥) في المصدر : الولاية .

وليس في الآية شيء معيّن في ثبوت هذه الأولوية ، فوجب حمله على الكلّ إلّا ما خصّه الدليل ، وحينئذ يندرج فيه الإمامة ، ولا يجوز أن يقال أنّ أبا بكر كان من أولي الأرحام ، لما نقل أنّه ﷺ أعطاه سورة براءة ليبلغها إلى القوم ، ثم بعث عليّاً خلفه ، وأمر بأن يكون المبلغ هو عليّ ﷺ وقال : « لا يؤدّيها إلّا رجل منّي » وذلك يدلّ على أنّ أبا بكر ما كان منه .

ثم أجاب الفخر عنه : بأنّه إن صحّت هذه الدلالة ، كان العباس أولى بالإمامة ؛ لأنّه كان أقرب إلى رسول الله [من عليّ] . ثمّ قال : وبهذا الوجه أجاب المنصور عنه ^(١) .

أقول : بالوجه الذي استدللّ محمد بن عبد الله على أنّ أبا بكر ما كان منه ، له الاستدلال على أنّ العباس ما كان منه ، وإلّا لبعث العباس ليكون هو المبلغ لبراءة ، على أنّ آية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ تثبت الإمامة للرّحم إذا كان واجدا لشرائط الإمامة من العلم والعصمة وغيرها ، فإذا فرض أنّ عليّاً ﷺ وأبا بكر كانا واجدين للشّرائط كان عليّ ﷺ أولى بالآية ، كما أنّ شرط الإرث الإسلام ، وعدم كون الوارث قاتلا ، مع أنّ الآية تنفي الإمامة عن أبي بكر وتثبتها في أرحام رسول الله ﷺ ، فيدور أمرها بين عليّ ﷺ والعباس ، فإذا قارنهما الإجماع على أنّ العباس لم يكن إماما ، دلّت الآية على إمامة عليّ ﷺ ، وعلى أيّ تقدير أبطلت الآية إمامة أبي بكر ، وتجعلها في أرحام رسول الله ﷺ ، وإذا بطلت إمامة أبي بكر كان عليّ ﷺ إماما بالإجماع المركّب ، على أنّه ثبت بالنصّ والإجماع عند أصحابنا أنّ ابن العمّ الأبويني أولى في الميراث من العمّ الأبوي ^(٢) .

الحمد لله المتعال على التوفيق لإتمام تفسير سورة الأنفال ، نسأله أن يجعله ذخرا ليوم لا بيع فيه

ولا خلال .

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٣ .

(٢) يريد أن العباس أخو عبد الله (والد رسول الله ﷺ) لأبيه فقط ، بينما أبو طالب (والد عليّ ﷺ) أخو عبد الله لأمّه ولأبيه .

في تفسير سورة براءة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

ثم لما ختمت سورة الأنفال اردفت بسورة البراءة لكونهما في الجهاد ، وما روي عن الصادق عليه السلام وسعيد بن المسيب من أنّهما واحد (١) ، محمول على وحدتهما مطلباً ، لوضوح كونهما سورتين .
وقيل : إنّ في الأنفال ذكر العهود ، وفي البراءة نبذها ، فوضعت بجانب الأنفال (٢) .
وقيل : إنّ تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار (٣) ، وفي البراءة التصريح به .

ومن أسمائها سورة التوبة ؛ لذكر توبة المهاجرين والأنصار ، والثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله ﷺ . وعن حذيفة : إنّكم تسمونها سورة التوبة ، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه (٤) .
ومنها الفاضحة ؛ عن ابن عباس قال : إنّها الفاضحة ، ما زالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى حسبنا (٥) أن لا تدع أحداً (٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لم تنزل ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ على [رأس] سورة براءة ؛ لأنّ ﴿يَسْمِ اللَّهَ﴾ للأمان والرحمة ، ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف » (٧) .
وعن ابن عباس قال : سألت عليّاً رضي الله عنه لم لم يكتب ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ بين الأنفال والبراءة ؟ قال : « لأنّ ﴿يَسْمِ اللَّهَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ أمان ، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود ، وليس فيها أمان » (٨) .

وحاصل الروايتين عدم المناسبة بين الرحمة التي تدلّ عليها البسملة ، والإعلان بالحرب ونبذ العهود اللذين يدلّ عليها الإعلان بالبراءة بقوله : ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وقطعية عظيمة ، ونبذة عهد كائنة ﴿مَنْ﴾ قبل ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ مرسلة أو موصولة ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ معهم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من أهل مكة ،

(١) مجمع البيان ٥ : ٤ .

(٢ و ٣) . تفسير الرازي ١٥ : ٢١٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٥ .

(٥) في تفسير الرازي : خشينا .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٥ .

(٧) مجمع البيان ٥ : ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٨ .

(٨) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٦ .

لظهور الخيانة منهم.

قيل : إنّ المسلمين كانوا عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم بإذن الله وأمر الرسول ، فنكثوا إلا بني ضمرة وبني كنانة ، فأمر الله المسلمين بنذ العهد إلى الناكثين .
وقيل : إنّ عهدهم كان مشروطا بعدم أمر الله بقطعه .
وقيل : إنّه قد انقضت مدّة عهدهم ، وإنّما أعلن الله بعدم إعادة العهد معهم ، وأنّ الرسول مأمور بمحاربتهم .

﴿فَسِيخُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ

مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)﴾

ثمّ أخبرهم الله بامهالهم في القتال أربعة أشهر بقوله : ﴿فَسِيخُوا﴾ وسيروا أيّها المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ آمنين من القتل والغارة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ غير خائفين فيها من قتال واغتيال ، وأمّا بعد انقضاء المدّة فليس إلاّ الإسلام أو السيف ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وغير فائتين منه بالهرب والتحصين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ومذلّهم في الدّنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بعذاب أليم .

قيل : نزلت في أوّل شوال ، وكانت ^(١) الأشهر : شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، وكان الإمهال صيانة للأشهر الحرم ^(٢) .

وقيل : كان أوّلها عاشر ذي الحجة ، وآخرها عاشر ربيع الآخر ؛ لأنّ التبليغ كان في يوم النحر ^(٣) .

روى الفخر الرازي : أن فتح مكة كان سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتّاب بن أسيد ، ونزل هذه السّورة سنة تسع ، وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر سنة تسع بأن يكون على الموسم ، فلمّا نزلت هذه السّورة أمر عليّ أن يذهب إلى أهل الموسم ليقراها عليهم ، فقبل له : لو بعثت [بها] إلى أبي بكر ؟ فقال : « لا يؤدّي عني إلّا رجل مّي » .

فلمّا دنا على سمع أبو بكر الرّغاء ، فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله ، فلمّا لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور ، ثمّ ساروا ، فلمّا كان قبل التّروية خطب أبو بكر وحدّثهم عن مناسكهم ، وقام عليّ يوم النّحر عند جمرة العقبة فقال : « يا أيّها النّاس ، إنّ رسول الله إليكم » فقالوا : بماذا ؟ فقرا ؟

(١) في النسخة : وكان .

(٢) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٢٢٠ ، تفسير روح البيان ٣ : ٣٨٣ .

عليهم ثلاثين أو أربعين آية - وعن مجاهد : ثلاث عشرة آية - ثم قال : « امرت بأربع : أن لا يقرب هذا البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الحجة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده » .

فقالوا عند ذلك : يا عليّ ، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيف (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « نزلت هذه الآية بعد ما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، في سنة تسع من الهجرة ، وكان رسول الله ﷺ لما فتح مكة لم يمنع المشركين من الحج في تلك السنة ، وكان سعة العرب في الحج أنه من دخل مكة وطاف بالبيت في ثيابه لم يحل له إمساكها ، وكانوا يتصدقون بها ، ولا يلبسونها بعد الطواف ، فكان من وافى مكة يستعير ثوبا ويطوف فيه ثم يردّه ، ومن لم يجد عارية أكثرى ثيابا ، ومن لم يجد عارية ولا كراء ولم يكن له إلا ثوب واحد طاف بالبيت عريانا ، فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت عارية أو كراء فلم تجده ، فقالوا لها : إن طفت في ثيابك احتجت إلى أن تتصدقني بها ، فقالت : وكيف أتصدق بها وليس لي غيرها ! فطافت بالبيت عريانة ، وأشرف عليها الناس ، فوضعت إحدى يديها على قبلها والاخرى على دبرها ، وقالت :

اليوم ييدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا احله
فلما فرغت من الطواف خطبها جماعة ، فقالت : إن لي زوجا .

وكانت سيرة رسول الله ﷺ قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلا من قاتله ، ولا يحارب إلا من حاربه وأراد ، وقد كان نزل عليه في ذلك من الله عزّ وجلّ : ﴿فَإِنْ اعْتَزَلْتُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٢) ، فكان رسول الله ﷺ لا يقاتل أحدا قد تنحى عنه واعتزله حتى نزلت عليه سورة براءة ، وأمر بقتل المشركين من اعتزله ومن لم يعتزله إلا الذين قد عاهدهم يوم فتح مكة إلى مدة ؛ منهم صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، فقال الله عزّ وجلّ : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم يقتلون حيثما وجدوا .
فهذه أشهر السباحة : عشرون من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشر من ربيع الآخر .

فلما نزلت الآيات من أول براءة ، دفعها رسول الله ﷺ إلى أبي بكر وأمره بأن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمضى يوم النحر ، فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال : يا

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢١٨ .

(٢) النساء : ٤ / ٩٠ .

محمد ، لا يؤدّي عنك إلّا رجل منك. فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّاً في طلبه ، فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات ، فرجع أبو بكر إلى رسول الله فقال : يا رسول الله [الله] ، أنزل في شيء ؟ قال : إنّ الله أمرني أن لا يؤدّي عني إلّا أنا أو رجل مّي » (١) .

وعنه عليّاً : « أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقراها على الناس ، فنزل جبرئيل عليّاً فقال : لا يبلغ عنك إلّا عليّ ، فدعا رسول الله ﷺ عليّاً فأمره أن يركب ناقته العضباء ، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقراها على الناس بمكة ، فقال أبو بكر : أسخطه ؟ فقال : لا ، إلّا أنّه انزل عليه أنّه لا يبلغ إلّا رجل منك ، فلمّا قدم عليّ مكة ، وكان يوم النحر بعد الظهر ؛ وهو يوم الحج الأكبر ، قام ثم قال : إيّ رسول رسول الله إليكم ، فقرأها عليهم ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* فَسِيخُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ عشرين من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وعشرا من ربيع الآخر ، قال : لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ولا مشرك إلّا من كان له عهد عند رسول الله ، فمدّته إلى هذه الأربعة أشهر » (٢) .

وفي رواية محمد بن مسلم : « قال أبو بكر : يا عليّ ، هل نزل في شيء منذ فارقت رسول الله ؟ قال : لا ، ولكن أبي الله أن يبلغ عن محمد إلّا رجل منه. فوافي الموسم ، فبلغ عن الله وعن رسوله بعرفة والمزدلفة ، ويوم النحر عند الجمار ، وفي أيام التشريق كلّها ينادي ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية ، ويقول : لا يطوفنّ بالبيت عريان » (٣) .

وفي (المجمع) : روى أصحابنا « أنّ النبي ﷺ ولّاه أيضا الموسم ، وأنّه حين أخذ براءة من أبي بكر رجع أبو بكر » (٤) .

ثمّ اعلم أنّ الظاهر ممّا رواه العامة ، فضلا ممّا رواه الخاصة ، أنّ وجه تخصيص أمير المؤمنين عليّاً بتبليغ براءة وقراءتها على الناس ، أنّه مرتبة من الرسالة من الله ، لأنّ نقض عهد المشركين كان من الله لا من الرسول نفسه ، ولا ينافي ذلك قوله عليّاً : إيّ رسول رسول الله .

ومن المعلوم أنّ إنذار الكفار بالخزي ، وتبشيرهم بعذاب أليم ، كان وظيفة الرسول ، أو وظيفة من هو قائم مقامه ومنزلته منه منزلة هارون من موسى ، ولذا لم يقل جبرئيل عليّاً : « أو رجل من أقاربك » كما لم يقل ذلك رسول الله ﷺ ، بل قال جبرئيل عليّاً : « أو رجل منك » وقال الرسول ﷺ : « أو رجل مّي »

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣١٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢١٣ / ١٧٧١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٠ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢١٤ / ١٧٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٠ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢١ .

كما قال : « عليّ مَيّ وأنا منه » .

وكفى هذا في فضيلة عليّ وإثبات خلافته للرّسول ، وعدم قابلية أبي بكر لها ، خصوصا على ما في روايات أصحابنا من أنّه ﷺ أعطى أبا بكر الآيات أولا ، ثمّ بعث عليّا وراءه بأمر الله ، وأمره بأخذها منه . فإنّ الدّلالة التي ذكرنا فيه أوضح ، والإعلان أظهر .

قال الفخر الرّازي بعد نقل الرواية السابقة : اختلّفوا في السّبب الذي لأجله أمر عليّ ﷺ بقراءة هذه السورة عليهم ، وتبليغ هذه الرسالة إليهم ، فقالوا : السّبب فيه أنّ عادة العرب أن لا يتولّى تقرير العهد ونقضه إلّا رجل من الأقارب ، فلو تولّاه أبو بكر لجاز أن يقولوا : هذا خلاف ما نعرف فينا من نقض العهد ، فرمّا لم يقبلوا فازيحت علّتهم بتولية ذلك عليّا (١) .

وقيل : لما خصّ أبا بكر بتولية إمارة الموسم ، خصّ عليّا بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية للجوانب (٢) .

وقيل : قرّر أبا بكر على الموسم ، وبعث خلفه عليا لتبليغ هذه الرّسالة ، حتّى يصلّي عليّ خلف أبي بكر ، ويكون ذلك جاريا مجرى التّنبية على إمارة أبي بكر (٣) .

أقول : في الوجوه الملقّقة ما لا يخفى من الوهن :

أمّا الأول : ففيه أنّ إلغاء العهد لم يكن من الرّسول ﷺ ، بل كان من الله ، وعلى ما ذكره كان اللّازم أن يكون مبلّغه هو الله أو رسوله أو من هو بمنزلة نفس الرّسول وهو علي ﷺ لآية ﴿أَنْفُسَنَا﴾ (٤) ، مع أنّه لو كان عادة العرب أن لا يتولّى نقض العهد إلّا أقارب المعاهد ، لم يقل أصحابه المطّلعون على تلك العادة : لو بعثت إلى أبي بكر ، مضافا إلى احتمال انقضاء مدّة عهد المسلمين ، وكان المقصود من البراءة المنع من العود إلى العهد وتجديده ، فلم يكن نقض عهد حتّى يحتاج إلى أن يكون مبلّغه الأقارب .

وأما الوجه الثاني : ففيه أنّه ﷺ أراد تطييب قلب علي ﷺ أو قلب غيره ؟ فإن قلتم إنّّه أراد تطييب قلب عليّ ﷺ ، فمن المعلوم عنده ﷺ وعند أصحابه أنّ قلب عليّ ﷺ كان طيّبا بما كان يفعله رسول الله ﷺ ، ولم يكن يخطر في قلبه خطور سوء بفعله ﷺ ، ولو أهانه عند الأصحاب غاية التّوهين فإنّه لا يرى نفسه (٥) في مقابل مرضاة النّبي ﷺ . وإن أرادوا تطييب قلب غير عليّ ﷺ ، فمن المعلوم أنّ بعث عليّ ﷺ بسورة براءة كان أثقل على قلوب كثير من الصّحابة من تنصيب أبي بكر

(١) و٢) . تفسير الرّازي ١٥ : ٢١٨ .

(٣) تفسير الرّازي ١٥ : ٢١٩ .

(٤) آل عمران ٣ / ٦١ .

(٥) كذا .

أميرا على الموسم.

وأما الوجه الثالث : فإنّ القول بصلاة عليّ عليه السلام خلف أبي بكر تختص بالغيب ، وعلى فرض التسليم لا تنبيه فيه على إمامة أبي بكر ، وإلا لكان في إمارة أسامة على الجيش الذي فيه أبو بكر وعمر وسائر أعيان الصحابة سوى عليّ عليه السلام ، تنبيه على إمامة أسامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ، مع أنّه صلى الله عليه وآله كان عالما بأنّ أكثر أصحابه وامتته لا يعتنون بالتصوُّص الجليّة الصريحة على الإمامة ، فكيف يعتمدون بالتنبيهات والإشعارات (١) .

فتبيّن أنّ الوجوه الثلاثة لم تخرج إلّا من القلوب المشحونة بالعصبية وبغض عليّ عليه السلام وحبّ أبي بكر ، حشرهم الله معه.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد التبرّي عن المشركين المعاهدين ، أعلن بالبراءة من جميع المشركين بقوله : ﴿وَأَذَانٌ﴾ وإعلان عام كائن ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مرسل ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ من المسلمين والمشركين وغيرهم من الكفار ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ - عن ابن عباس : هو يوم عرفة (٢) ، وقيل : يوم النحر (٣) ، وقيل : جميع أيام منى (٤) - ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومنقطعة عصمته وعلقة ولايته منهم ﴿وَوَعَدَا﴾ كذا ﴿رَسُولُهُ﴾ فلا عصمة بينه وبينهم ولا عهد ، وليس لهم إلّا الإسلام أو السيِّف ، فإذا كان كذلك ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون إلى الله ، ودخلتم في حصن الإسلام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في الدّنيا والآخرة من البقاء على الكفر ، والإصرار على الغدر ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن التّوبة وقبول دين الإسلام ﴿فَاعْلَمُوا﴾ وأيقنوا ﴿أَنَّكُمْ﴾ بسياحتكم في الأرض مدّة قليلة ، وتدبيركم وإعدادكم للحرب ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وغير فائتين منه هربا ، وغير غالبين عليه قدرة وحربا ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمّد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصروا على الشّرك والغدر ، وقل لهم تهكّما : أبشروا ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من القتل والأسر والخزي في الدّنيا ، ومن الدّخول في النّار في الآخرة.

عن العياشي : عن السجّاد : « الأذان أمير المؤمنين عليه السلام » (٥) .

(١) كذا ، والظاهر : الاشارات.

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٥ : ٢٢١ .

(٤) تفسير الرازي ١٥ : ٢٢١ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢١٧ / ١٧٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢١ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية : « كنت أنا الأذان في الناس » ^(١) .

وهذا التأويل مروى عن الصادق عليه السلام أيضا وفيه : فليل له : فما معنى هذه اللفظة **« الْحَجَّ الْأَكْبَرُ »** ؟ فقال : « إنما سمي الحج الأكبر لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ، ولم يحج المشركون بعد تلك السنة » ^(٢) .

وعنه أيضا : **« الْحَجَّ الْأَكْبَرُ »** : الوقوف [بعرفة] ^(٣) ورمي الجمار ، والأصغر : العمرة ^(٤) .

« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » (٤)

ثم أنه تعالى بعد الإعلان بالبراءة عن كل المشركين الذي لازمه إلغاء عهد جميعهم ، استثنى عهد غير التاكثين بقوله : **« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ »** معهم **« مِنَ الْمُشْرِكِينَ »** وقيل : إن الاستثناء منقطع والمعنى : لا تمهلوا التاكثين فوق أربعة أشهر ، ولكن الذين عاهدتموهم **« ثُمَّ »** بعد العهد **« لَمْ يَنْقُصُوكُمْ »** من شرائط العهد الذي يكون بينكم **« شَيْئًا »** ولم ينكثوه **« وَلَمْ يُظَاهِرُوا »** ولم يعاونوا **« عَلَيْكُمْ أَحَدًا »** من أعدائكم **« فَأَتُوا »** أيها المسلمون وأدوا **« إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ »** كاملا **« إِلَى »** تمام **« مَدَّتِهِمْ »** ولا تجعلوا الوافين كالتاكثين والغادرين **« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »** والمتحرزين عن مخالفة أمره وتضييع الحقوق .

عن ابن عباس قال : بقي لحي من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ^(٥) .

روي أنه عدت بنو بكر على خزاعة في حال غيبة رسول الله ﷺ ، وظاهرهم قريش بالسلاح ، حتى وفد عمرو بن سالم الخزاعي على رسول الله ﷺ فأنشده :

لا همم إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيك ألا تلدا
إن قريشا أحلفوك الموعدا و نقضوا ذمامك المؤكدا
هم يبتوننا بالحطيم هجدا و قتلونا رگعا وسجدا
فقال ﷺ : لا نصرت إن لم أنصركم ^(٦) .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢١ .

(٢) معاني الأخبار : ٢٩٦ / ٥ ، علل الشرائع : ٤٤٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢١ .

(٣) في تفسير العياشي : الوقوف بعرفة وجمع .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢١٨ / ١٧٨٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢١ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ٢٢٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٥ : ٢٢٤ .

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ
وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾

ثم أمر الله المسلمين بالتشديد على الناكثين بقوله : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ﴾ وانقضى ﴿الْأَشْهُرُ﴾ التي هي
﴿الْحُرُمُ﴾ حرمة القتال فيها إمهالا ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ بأي نحو أمكنكم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وفي أي
مكان لقيتموهم من الحل والحرم ، وفي أي حال أدركتموهم ﴿وَخُذُواهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ في
المضائق ، واجسؤهم في المحابس. وقيل : يعني امنعوهم من البيت الحرام ﴿وَأَقْعُدُوا﴾ منتظرين ﴿لَهُمْ﴾
القتل والأخذ ﴿كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ وطريق تترقبون عبورهم فيه إلى البيت أو التجارة ، وسدوا سبيلهم ﴿فَإِنَّا
تَابُوا﴾ من الشرك بالدخول في الإسلام ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الواجبة التي هي من
أعظم شعائر الاسلام ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ إلى البيت والذهاب إلى مهماتهم ، ولا تعرضوا لهم بوجه أبدا
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ما سلف من ذنوبهم بعد التوبة والایمان ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إذا صدقوا إيمانهم بالأعمال
الصالحات.

﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتِجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦)﴾

ثم نبه سبحانه على أن التشديد على الكفار إنما هو لتمامية الحجة عليهم ، وأما من كان في
طلب الحق وتحقيق صحة دين الاسلام ، فلا يجوز التعرض له ، بقوله : ﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين
امرت بالتشديد عليهم ﴿اسْتِجَارَكَ﴾ واستأمنك ، وطلب الجوار منك والأمان ، لسماع القرآن وتحقيق
الحق ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وآمنه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ الذي يتم بسماعه الحجة على كل أحد لوضوح إعجازه
﴿ثُمَّ﴾ بعد استماعه القرآن ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ من منزله أو قبيلته إن لم يؤمن ، ويكون ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم
بوجوب تأمينه وإيصاله إلى مأمنه معللا ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الكتاب والدين وحقيقته ، فلا بد من
تأمينهم وإمهالهم حتى يفهموا الحق ، وينقطع عنهم العذر.

عن ابن عباس قال : إن رجلا من المشركين قال لعلي بن أبي طالب عليه السلام : إن أردنا أن نأتي
رسول الله بعد انقضاء الأجل لسماع كلام الله ، أو لحاجة أخرى ، فهل نقتل ؟ فقال علي عليه السلام : « لا
، إن الله تعالى قال : ﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلى آخره » (١).

(١) تفسير الرازي ١٥ : ٢٢٦.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧)

ثم أنكر سبحانه حسن مراعاة العهد في حق الناكثين بقوله : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ واجب الرعاية والوفاء ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ لهؤلاء المشركين مع إضمارهم الغدر والتكث ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ - قيل : يعني : ولكن يجب مراعاة العهد للذين عاهدتموهم - وأكدتموه بإيقاعه ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وفي قرب منه ، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة ، فإنهم لم ينقضوا عهدهم ، ولم يضمروا الغدر فيه ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾ ووفوا بعهدهم ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ واثبتوا على الوفاء ﴿لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ و المحترزين عن نقض العهد.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى

قُلُوبُهُمْ وَأَكْفَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨)

ثم أكد سبحانه إنكار حسن الوفاء بعهد الناكثين بقوله : ﴿كَيْفَ﴾ يحسن رعاية عهد المشركين ﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ويظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ ولا يراعوا ﴿فِيكُمْ﴾ أبدا ﴿إِلَّا﴾ وحلفا أو قرابة ﴿ذِمَّةً﴾ وعهدا.

ومن الواضح أنّ وجوب مراعاة العهد على كلّ من المتعاهدين مشروط بمراعاة الآخر ، وهم لا يراعون بل يخادعون ، ويغدرونكم بأنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ﴾ عن أنفسهم بإظهار الوفاء والصّفاء ، ووعد الايمان والطّاعة ، واعلموا أنّ كلّ ذلك يكون ﴿بِأَفْوَهِهِمْ﴾ وألسنتهم ﴿وَتَأْبَى﴾ وتمتنع ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ ممّا يقولون لكم ويتفوّهون به عندكم ﴿وَأَكْفَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدود العقل ، ومتمردون عن طاعة أحكام الشرع ، ليست لهم عقيدة مانعة ولا مروءة رادعة.

قيل : في تخصيص الأكثر بالحكم بالفسق إشعار بوجود من يتعفف عن فعل ما يجزّ إليه المثالب والمعائب في المشركين.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩)

ثم بالغ سبحانه في ذمهم بقوله : ﴿اشْتَرَوْا﴾ هؤلاء الناكثون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدّالة على التّوحيد ووجوب الوفاء بالعهود ، وأعرضوا عنها ، وأخذوا بدلا منها ﴿ثَمَنًا﴾ وعوضا ﴿قَلِيلًا﴾ ويسيرا من حطام الدّنيا وشهواتها الفانية ﴿فَصَدُّوا﴾ وعدلوا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أو صرفوا النّاس عنها ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ

ما كانوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ من الاستبدال والصد.

روي أنّ أبا سفيان بن حرب جمع الأعراب وأطعمهم ليصدّهم بذلك عن متابعة النبي ﷺ ،
وليحملهم على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فنقضوه بسبب تلك الأكلة (١) .

﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *
وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ
لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٠) و (١٢)﴾

ثمّ ذمهم سبحانه بعدم رعاية أحد من المؤمنين بقوله : ﴿لَا يَرْفُقُونَ﴾ ولا يرعون ﴿فِي﴾ حق
﴿مُؤْمِنٍ﴾ كائنا من كان ﴿إِلَّا﴾ وحلفاً أو قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ وعهداً أو حقاً ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المذمومون ﴿هُمُ
الْمُعْتَدُونَ﴾ والمتجاوزون عن حدود العقل والدّين ، فبلغوا غاية الشرارة والظلم.

ثمّ أنّه تعالى بعد الإبلاغ في ذمّ المشركين بنكث العهد والغدر والصدّ والظلم ، أعلن بسعة رحمته
بقوله : ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ - مع هذه الذمائم - عن الشرك والأعمال السيئة ، وحقّقوا إيمانهم بالالتزام بلوازمه
﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي أهمّ شعائره ﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التي هي أعظم آثاره ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ هؤلاء
التائبون ، فارضضوا لهم ما ترضون لأنفسكم ، كما تكونون كذلك في حقّ إخوانكم في التّسبب ، كذلك
التفصيل ﴿و﴾ الشرح البليغ ﴿تُفَصِّلُ﴾ ونشرح ﴿الْآيَاتِ﴾ والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويفهمون الحكم
والمصالح ، فإنّهم يدركون حسن تلك الأحكام ، ويلتزمون بها. وفيه غاية الحثّ على محافظتها (٢) .

عن ابن عباس قال : حرّمت هذه الآية دماء أهل القبلة (٣) .

﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ وأحلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ المؤكّد بها ، وتجاهروا بالشرّ
والفساد ﴿وَطَعَنُوا﴾ وقدحوا ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الحقّ ، وعابوه عناداً له ﴿فَقَاتِلُوا﴾ هم إذن ، لكونهم ﴿أَتِمَّةَ
الْكُفْرِ﴾ ورؤساء الضلال ، ولا تمهلوههم ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ في الحقيقة ، وإلّا لما نكثوها ، أو المراد : لا
أمان لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ويرتدعون عن الكفر وأعمالهم الشنيعة.

عن القمّي رحمه الله : نزلت هذه الآية في أصحاب الحمل ، وقال أمير المؤمنين عليه السلام يوم الحمل ما

قاتلت

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٩٢ .

(٢) كذا ، والظاهر : المحافظة عليها .

(٣) تفسير الرازي ١٥ : ٢٣٣ .

هذه الفئة التّائكة إلّا بآية من كتاب الله ، يقول الله : ﴿وَإِنْ نَكُفُّوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية (١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « دخل عليّ أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير ، فقلت لهم : كانا أئمة الكفر ، إنّ عليا عليه السلام يوم البصرة لما صفّ الخيول قال لأصحابه : لا تعجلوا على القوم حتّى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم . فقام إليهم فقال : يا أهل البصرة ، هل تجدون عليّ جورا في حكم؟

قالوا : لا ، قال : فحيفا في قسمة ؟ قالوا : لا ، قال : فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم ، فنقمتم عليّ فنكثتم بيعتي ؟ قالوا : لا ، قال : فأقمت فيكم الحدود وعطّلتها عن غيركم ؟ قالوا : لا ، قال : فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث ؟ إنّني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلّا الكفر أو السيف . ثمّ ثنى إلى أصحابه فقال : إنّ الله تعالى يقول في كتابه : ﴿وَإِنْ نَكُفُّوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية ، ثمّ قال : والذي فلق الحبة ، وبرأ النّسمه ، واصطفى محمدا ﷺ بالنبوة ، إنهم لأصحاب هذه الآية ، وما قوتلوا منذ نزلت » (٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « عذرني الله من طلحة والزبير ، إنهما بايعاني طائعين غير مكرهين ، ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ، والله ما قوتل [أهل] هذه الآية منذ نزلت حتّى قاتلتهم ﴿وَإِنْ نَكُفُّوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الآية » (٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « من طعن في دينكم هذا فقد كفر ، قال الله : ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الخبر (٤) .

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَفُّوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَايِعُ الرَّسُولَ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على قتال المشركين التّائكين ، بإنكاره التّقاعد عنه على المؤمنين ، وبيان استحقاتهم القتل بقوله : ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ أيّها المؤمنون ﴿قَوْمًا نَكَفُّوا﴾ ونقضوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ وعهودهم المؤكّده بها مع الرّسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم أعداءهم في الحديبية - على ما قيل - ﴿وَهُمْ يُبَايِعُ الرَّسُولَ﴾ من مكّة حين تشاورهم في دار النّدوة ، وقيل : من المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والاجتماع على قتله (٥) ﴿وَهُمْ بَدُّوْكُمْ﴾ بالقتال والقتل ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في بدر ، إذن فما بمنعكم عن قتالهم ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ من أن يغلبوا عليكم (٦) ، أو ينالوكم بمكره ﴿فَاللَّهُ﴾ القادر الغالب

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٤ .

(٢) قرب الإسناد : ٩٦ / ٣٢٧ ، تفسير العياشي ٢ : ٢١٩ / ١٧٩٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٤ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٢١ / ١٧٩٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٢٠ / ١٧٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٥ : ٢٣٥ .

(٦) كذا والظاهر : يغلبوكم .

المدرک ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى من غيره ﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ وتخافوه في مخالفة أمره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بوحداثيته ، وكمال قدرته ، وشدة عقابه على من خالفه وعصاه. ومن المعلوم أنّ لازم هذا الإيمان أن لا يخشى إلاّ منه.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ (١٤) و (١٥)﴾

ثمّ أكّد سبحانه وجوب قتالهم بقوله : ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أيّها المؤمنون ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ بالقتل والأسر ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ وسيفكم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلّهم ﴿وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ جميعا ﴿وَيَشْفِ﴾ من ألم الحقد وانتظار الفتح ﴿صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ قيل : هم خزاعة ، وعن ابن عباس : [هم] بطن من اليمن وسبأ ، قدموا مَكَّةَ

[فأسلموا] فلقوا من أهلها أذى كثيرا ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه ، فقال : « أبشروا ، فإنّ الفرج قريب » ^(١) ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ ويسكن غضبهم.

عن العياشي : عن أبي الأغرّ التميمي ^(٢) قال : كنت واقفا يوم صفّين ، إذ نظرت إلى العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وهو شاك في السّلاح ، إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم : يا عباس هلمّ إلى البراز ، ثمّ تكافحا بسيفهما مليّا لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته ، إلى أن حطّ العباس درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي ، فخرّ الشامي صريعا وكبرّ الناس تكبيرة ارتجّت لها الأرض ، فسمعت قائلا يقول : ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ الآية. فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام ^(٣) .

ثمّ أخبر الله بإسلام بعضهم بقوله : ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ إسلامه وتوبته من السيئات من هؤلاء المشركين ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه وعواقب أمورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعاله ، يراعي مصالح عباده. وفي الأخبار المذكور دلالة واضحة على صدق النبي ﷺ ، لوقوع ما أخبر به ، فإنّه أسلم بعد الآية عكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وجمع آخر من المشركين.

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٣٩٥ .

(٢) في النسخة : أبي الأعزّ اليميني.

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٢١ / ١٧٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٥ . ورواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١ : ١٧٩ ، وابن أبي الحديد في شرح النهج ٥ : ٢١٩ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦)

ثم أنكر سبحانه على المؤمنين حسابان عدم افتتاحهم بالجهاد وترك رعاية القرابة والصداقة ترغيباً لهم فيه بقوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وهل توهمتم ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ على الحالة التي أنتم فيها من الاحتلاط ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ ولم يميز ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ممن لا يجاهد ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ ولم يختاروا لأنفسهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ وبطانة وصاحب سر من غيره ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾ وعالم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الجهاد وتركه ، واتخاذ الوليجه وعدمه .

عن الباقر عليه السلام : « يعني بالمؤمنين آل محمد ، والوليجه : البطانة » (١) .

وعنه عليه السلام : « لا تتخذوا من دون الله وليجة فلا تكونوا مؤمنين ، فإن كل سبب ونسب وقرابة ووليجه وبدعة وشبهة منقطع إلا ما أثبتته القرآن » (٢) .

وعن أبي محمد العسكري عليه السلام : « الوليجه : الذي يقام دون ولي الأمر ، والمؤمنون في هذا لموضع هم الأئمة الذين يؤمنون على الله فيجيز أمانهم » (٣) .

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ

يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

ثم روي أنّ المشركين كانوا يفتخرون بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج ، فبين الله أن لا فضيلة في هذين العملين مع الشرك ؛ بقوله : ﴿مَا كَانَ﴾ وما صحّ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في حال شركهم ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [سواء] كان المسجد الحرام أو غيره ، ولا نفع لهم فيه ، مع كونهم ﴿شَاهِدِينَ﴾ ومعترفين ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ عملاً حيث ينصبون الأصنام فيها ويعبدونها ، وقولاً حيث يقولون : نعبدها ليقربونا إلى الله ﴿أُولَئِكَ﴾ المطرودون عن ساحة رحمة الله ﴿حَبِطَتْ﴾ وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الخيرية التي يفتخرون بها ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ في الآخرة لأنّ الشرك ظلم عظيم ، ومعصية غير مغفورة .

روي أنّ المسلمين عيروا اسارى بدر ، ووبّخ علي عليه السلام العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطيعة

الرحم ،

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٦ .

(٢) الكافي ١ : ٤٨ / ٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٦ .

(٣) الكافي ١ : ٤٢٥ / ٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٦ .

فقال العباس : تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا. فقالوا : ولكم محاسن ؟ ! قال : نعم ، إنما نعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحجيج ، ونفكّ العاني ، فنزلت ^(١) .

ثم حصر الله العمارة النافعة بالمؤمنين بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ عمارة نافعة ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ وبوحدانيته ﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ودار الجزاء ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ ﴾ في القيام بوظائف دينه أحدا ﴿ إِلَّا اللَّهَ ﴾

قيل : من عمارة المسجد : كنسه وتنظيفه ، وتنويره بالسراج ، وصيانتة ممّا لا يليق به ؛ كحديث الدنيا والكسب واللغو واللغو ، والاشتغال فيه بالعبادة والذكر ، ودرس العلوم الدينية .

في الحديث القدسي : إنّ بيوتي في الأرض المساجد ، وإنّ زوّاري فيها عمّارها ، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثمّ زارني في بيتي ، فحقّ على المزور أن يكرم زائره ^(٢) .

وفي الحديث النبويّ : « يأتي في آخر الزّمان اناس من امتي يأتون المساجد ، يقعدون فيها حلقة ، ذكروهم الدّنيا وحبّ الدّنيا ، لا تجالسوهم فليس [لله] بهم حاجة » ^(٣) .

ثمّ وعد الله المتّصفين بالكلمات العلمية والعملية بالاهتداء إلى الخير - بصيغة التّرجي - قطعاً لطمع المشركين في الانتفاع بعمارتها ؛ بقوله : ﴿ فَنَفْسِي ﴾ ويرجى في حقّ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المؤمنين ﴿ أَنْ يَكُونُوا ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

قيل : لم يذكر الايمان بالرّسول ﷺ في الآية : لاستلزام الصّلاة المعهودة الايمان بشارعها ، ولأنّ من أجزائها الشّهادة بالرّسالة ، ولإجهار أنّ مقصود الرّسول تبليغ معرفة المبدأ والمعاد دون رئاسة نفسه ، حتّى لا يتوهّموها في حقّه .

وقيل : إنّ في إقران الزّكاة بالصّلاة دلالة على عدم قبول أحدهما بدون الآخر ^(٤) .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

﴿ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩)

ثمّ نقل أنّه افتخر طلحة بن شيبه والعبّاس وعليّ ، فقال طلحة : أنا صاحب البيت وبيني مفتاحه ، وقال العبّاس : أنا صاحب السقاية ، وقال عليّ : « أنا صاحب الجهاد » ، فردّ الله على طلحة والعبّاس بقوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ ﴾ أيّها المفتخرون ﴿ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ في الفضيلة والكرامة

(١) جوامع الجامع : ١٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٣٩٨ .

عند الله ﴿كَمْئِنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وبوحدانيته ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قيل : إِنَّ التَّقْدِيرَ : أَجَعَلْتُمْ أَهْلَ سَقَايَةِ الْحَاجِّ كَمَنْ آمَنَ ، أَوْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ كإِيمَانٍ مِنْ آمَنَ .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ نَفْيِهِ التَّسَاوِيِ بَيْنَ الْمُتَصَفِّينَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ بِإِنْكَارِهِ عَلَى مَدْعِيهِ ، صَرَّحَ بِعَدَمِ تَسَاوِيِهِمْ تَأْكِيدًا بِقَوْلِهِ : ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ثُمَّ عَيَّنَ الْمَفْضُولَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إِلَى خَيْرِ وَفَضْلِهِ ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَرْكِ قَبُولِ الْإِسْلَامِ ، وَالْقِيَامِ فِي الْجِهَادِ .

وقيل : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْيَهُودِ : نَحْنُ سَقَاةُ الْحَاجِّ ، وَعَمَّارُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَفَنَحْنُ أَفْضَلُ أَمْ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ؟ فَقَالَتِ الْيَهُودُ : أَنْتُمْ أَفْضَلُ (١) .

وقيل : إِنَّ عَلِيَّ عَالِيًا قَالَ لِلْعَبَّاسِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ : يَا عَمِّي ، أَلَا تَهَاجِرُونَ ، أَلَا تَلْحَقُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : أَلَسْتُ فِي أَفْضَلٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ؛ أَسْقِي حَاجَّ الْبَيْتِ ، وَأَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ . فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ : مَا أَرَانِي إِلَّا تَارِكًا سَقَايَتِنَا ، فَقَالَ ﷺ : « أَقِيمُوا عَلَى سَقَايَتِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهَا خَيْرًا » (٢) .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : لَمَّا أَغْلَظَ عَلِيٌّ الْكَلَامَ لِلْعَبَّاسِ ، [قَالَ الْعَبَّاسُ] : إِنْ كُنْتُمْ سَبَقْتُمُونَا بِالْإِسْلَامِ وَالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ ، فَلَقَدْ كُنَّا نَعْمُرُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَنَسْقِي الْحَاجَّ (٣) ، فَتَزَلْتُ .

وَقَالَ الْعَلَامَةُ فِي (نَجْعِ الْحَقِّ) : رَوَى الْجُمْهُورُ فِي (الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّحَابِ السِّتَةِ) : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَالِيًا لَمَّا افْتَخَرَ طَلْحَةُ بْنُ شَيْبَةَ وَالْعَبَّاسُ ، فَقَالَ طَلْحَةُ : أَنَا أَوْلَى بِالْبَيْتِ لِأَنَّ الْمِفْتَاحَ بِيَدِي ، وَقَالَ الْعَبَّاسُ : أَنَا أَوْلَى ، أَنَا صَاحِبُ السَّقَايَةِ وَالْقَائِمُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ عَلِيٌّ عَالِيًا : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ إِيْمَانًا ، وَأَكْثَرُهُمْ جِهَادًا » . فَانْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (٤) .

وَقَالَ فَضْلُ بْنُ رُوزِبَهَانَ : هَذَا صَحِيحٌ مِنْ رِوَايَةِ الْجُمْهُورِ (٥) .

الْقَمِّيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَنْ الْبَاقِرِ عَالِيًا : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَالِيًا ؛ قَوْلُهُ : ﴿كَمْئِنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ (٦) .

وَعَنْهُ : نَزَلَتْ فِي عَلِيٍّ عَالِيًا وَالْعَبَّاسِ وَشَيْبَةَ ، قَالَ الْعَبَّاسُ : أَنَا أَفْضَلُ لِأَنَّ سَقَايَةَ الْحَاجِّ بِيَدِي ، وَقَالَ شَيْبَةُ : أَنَا أَفْضَلُ لِأَنَّ حِجَابَةَ الْبَيْتِ بِيَدِي ، وَقَالَ عَلِيٌّ عَالِيًا : « أَنَا أَفْضَلُ ؛ فَإِنِّي آمَنْتُ قَبْلَكُمْ ، ثُمَّ هَاجَرْتُ وَجَاهَدْتُ » ، فَضَرَبُوا بِرَسُولِ ﷺ اللَّهُ [حَكَمًا] (٧) فَأَنْزَلَ اللَّهُ [الْآيَةَ] .

وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ : « وَضَرَبْتُ خِرَاطِيمَكُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى آمَنْتُمْ بِاللَّهِ » (٨) .

وَعَنْ أَحَدِهِمَا عَالِيًا : « نَزَلَتْ فِي حِمْرَةٍ وَعَلِيٍّ وَجَعْفَرٍ وَالْعَبَّاسِ وَشَيْبَةَ ، إِهْتَمُّوا بِالسَّقَايَةِ

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١١ .

(٤) نَجْعِ الْحَقِّ : ١٨٢ .

(٥) دلائل الصدق ٢ : ١٥٩ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٨٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٨ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٢٨٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٨ .

(٨) مجمع البيان ٥ : ٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٨ .

والحجابه ، فأنزل الله [الآية] ، وكان عليّ حمزة وجعفر الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وجاهدوا في سبيل الله » (١) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٠) و (٢٢)

ثم عيّن الله الفاضل صريحا بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وهم عليّ وإبراهيم وأضرابه ، فإنهم بسبب تلك الصفات ﴿أَكْثَرُ دَرَجَةً﴾ وأعلى منزلة ، وأكثر كرامة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ ممن ليس له هذه الصفات ، وإن كان ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المتصفون بتلك الصفات الفائقة ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بأعلى المقاصد ، وهو أنه ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ في الدنيا بلسان الرسل ، وفي الآخرة بتوسط الملائكة ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْهُ﴾ تعالى ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ منه تعجز العقول عن إدراكهما ووصفهما ﴿وَجَنَّتٍ﴾ وبساتين عديدة ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ ودائم لانفاد له ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ في تلك الجنّات ، مقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا﴾ ليس لهم خوف الخروج منها ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ على هذه الكمالات النفسانية ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحققر عنده كل أجر .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٣) و (٢٤)

ثم أنه تعالى بعد النهي عن اتّخاذ الكفار وليجة وبطانة ، نهى عن موالاتهم ولو كانوا أقرب الأقارب ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله عن صميم القلب ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ مع كمال قرهم إليكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء لأنفسكم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ ورجحوه ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾ ثم حذّره الله عن موالاتهم ومخالطتهم بقوله : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ ويوآدهم ﴿مِنْكُمْ﴾ بأي مرتبة من

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٢٦ / ١٨٠٢ ، الكافي ٨ : ٢٠٣ / ٢٤٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٨ .

الموالة والموادة ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموالون لهم ﴿هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك والعذاب.
عن ابن عباس قال : يريد مشركا مثلهم ؛ لأنه رضي بشركهم ، والرضا بالكفر كفر ، كما أن
الرضا بالفسق فسق ^(١) .

قيل : إنهم ظالمون بوضع الموالة في غير موضعها ^(٢) .
عن الباقر عليه السلام : « الكفر في الباطن ، في الآية : ولاية الأول والثاني ، والايان : ولاية علي
عليه السلام » ^(٣) .

ثم قيل : إن جماعة من المؤمنين قالوا : يا رسول الله ، كيف يمكننا البراءة منهم بالكلية ، وإنما
توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا ، وذهاب تجارتنا ، وهلاك أموالنا ، وخراب ديارنا ^(٤) ؟ وقيل
: لما امروا بالهجرة كان يمنعهم أقرباؤهم ، فمنهم من كان يتركها لأجلهم ^(٥) .

وعن القمي : لما أذن أمير المؤمنين عليه السلام بمكة : أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك العام
، جزعت قريش وقالوا : ذهبت تجارتنا وضاع عيالنا ، وخرت دورنا ^(٦) ، فردهم الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم
يا محمد : ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾
وأصبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ﴾ وأمتعة مهيأة للمعاملة ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وفوات أوان رواجها لغيتكم من سوقها
﴿وَمَسَاكِينُ﴾ ومنازل ﴿تَرْضَوْنَهَا﴾ وتحبونها لأنفسكم ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وطاعتها بالهجرة إلى
المدينة ، ﴿وَجِهَادٍ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ وطلبا لمرضاته ﴿فَتَرْتَضَوْا﴾ وانتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾
من عقوبة شديدة عاجلة ، أو أجلكم ؛ لأنكم عصيتم الله بترجيح حب غيره على حبه ، وتقديس هوى
أنفسكم وشهواتها على مرضاته ومرضاة رسوله ، وحب الحطام الفانية الدنيوية على النعم الاخرية الدائمة
، وحب المساكن الخربة الزائلة على القصور العالية. فإن ذلك لا يكون إلا لضعف الايمان ، وعدم المعرفة
الصحيحة بالمبدأ والمعاد ، والإقبال على الدنيا ، والإعراض عن الدين ، والخروج عن حدوده ﴿وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي﴾ إلى الخير ، ولا يوصل إليه ﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ والخارجين عن حدود العقل والشرع.

وفيه وعيد شديد لا يتخلص منه إلا الأوحدي من أهل الايمان.

في الحديث : « لا يجد [أحدكم] طعم الايمان حتى يحب في الله ويبغض في الله » ^(٧) .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٢٦ / ١٨٠٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٩ .

(٥) جوامع الجامع : ١٧٦ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٨٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٩ .

(٧) جوامع الجامع : ١٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٢٩ .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٥) و (٢٦)﴾

ثم لما كان حبّ الأقارب لتوقع النصرة منهم على الأعداء ، نبههم على أنّه خير الناصرين والحافظين لهم ، بقوله : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بقدرته على الأعداء ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ من الحروب ، ومقامات عديدة في الجهاد ؛ كيوم بدر ، واحد ، والأحزاب ، وغيرها ﴿وَيَوْمَ﴾ غزوة ﴿حُنَيْنٍ﴾ وهو - على ما قيل - واد بين مكة والطائف ، ويقال لها غزوة أوطاس ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ وسرّتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾ وزيادة نفوسكم ، وقوّة شوكتكم ، حتّى قال أبو بكر لرسول الله ﷺ : لن تغلب اليوم من قلة ^(١) ، فسأته ﷺ مقالته ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرة عددكم ^(٢) ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ، ولم تفدكم قوّة شوكتكم فائدة أصلا ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾ فلا تجدون مأمنا من بأس العدو فيها ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومع سعتها من شدّة الرعب ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ﴾ الأعداء ظهوركم ، حال كونكم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ ومنهزمين منهم .

روى بعض العامة : أنّ النبي ﷺ فتح مكة لثلاثة أيّام بقيت من رمضان - وقيل : لثلاثة عشر يوما ^(٣) مضت منه - فمكث بها إلى أن دخل شوال ، وحين فتحت مكة أطاعه العرب إلّا هوازن وثقيفا ، وكانوا طغاة مردة ، فحافوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ وظنّوا أنّه يدعوهم إلى الاسلام ، فثقل ذلك عليهم ، فحشدوا وبغوا وقالوا : إنّ محمّدا لاقى أقواما لا يحسنون القتال ، فأجمعوا أمرهم على قتال النبي ﷺ ، فأخرجوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم وراءهم ، فخرج رسول الله ﷺ يوم السبت السادس من شوال إلى حنين ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد يصلّي بهم ، ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والأحكام ، وكان عسكر رسول الله ﷺ اثني عشر ألفا ؛ عشرة آلاف من شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار ، وألفان من الطلقاء ، وهم أهل مكة ، وكان هوازن وثقيف أربعة آلاف ، سوى الجحّم الغفير من أمداد سائر العرب ، وحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثمّ جاءوا بالإنبل والغنم والذراري وراء ذلك ؛ كي يقاتل كلّ منهم عن أهله وماله ، ولا يفرّ أحد بزعمهم ، فساروا كذلك حتّى نزلوا بأوطاس .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢١ .

(٢) في النسخة : كثرة عدوّ .

(٣) في النسخة : لثلاث عشرة أيّام .

وقد كان ﷺ بعث إليهم عينا ليتجسس عن حالهم ، وهو عبد الله بن أبي حذرر^(١) من بني سليم ، فوصل إليهم فسمع مالك بن عوف أمير هوازن يقول لأصحابه : أنتم اليوم أربعة آلاف رجل ، فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة واحدة ، واكسروا جفون سيوفكم ، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئا إلا فرج.

فأقبل العين إلى النبي ﷺ فأخبره بما سمع من مقاتلتهم ، فقال سلمة بن سلامة الوقسي الأنصاري - أو أبو بكر ؛ كما قال الفخر الرازي ، وبعض آخر من العامة - : يا رسول الله ، لن نغلب اليوم من قلة ، فسألت رسول الله ﷺ كلمته ، فركب رسول الله ﷺ بغلته لدل ، وليس درع داود التي لبسها حين قتل جالوت ، ووضع الألوية والزبايات مع المهاجرين ، فلما كان بجنين وانحدروا [في الوادي] وذلك عند غلس^(٢) الصبح يوم الثلاثاء ، خرج عليهم القوم وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضائقه ، وكانوا رماة ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهمز المشركون وخلّوا الدّاري ، فأكبّ المسلمون عليهم ، فتنادى المشركون : يا حملة^(٣) السوء ، اذكروا الفضائح ، فتراجعوا وحملوا عليهم ، فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب وشؤمها ، فانكشفوا فلم يقوموا لهم مقدار حلب شاة^(٤) .

قيل : بلغ منهمزمهم مكة ، وسرّ بذلك قوم من المشركين ، وأظهروا الشّماتة حتى قال أخو صفوان بن أمية لأمّه : ألا قد أبطل الله السّحر اليوم. فقال له صفوان ؛ وهو يومئذ مشرك : فضّ الله فاك ، والله لمن يملكني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يملكني رجل من هوازن. فلما انهزموا بقي رسول الله ﷺ وحده وليس معه إلا عمّه العباس آخذا بلجام بغلته ، وابن عمّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذا بركابه ، وهو يركض^(٥) البغلة نحو المشركين ويقول :

« أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب »

وكان يحمل على الكفار فيفرون ، ثمّ يحملون عليه فيقف لهم ، فعل ذلك بضع عشرة مرّة. قال العباس : كنت أكفّ البغلة لئلا تسرع [به] نحو المشركين. وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته حيث لم يخف اسمه في تلك الحال ، ولم يخف الكفار على نفسه ، وما ذلك إلا لكونه مؤيدا من عند الله العزيز الحكيم.

فعند ذلك قال : يا ربّ ائني بما وعدتني ، وقال للعباس - وكان جهوريّ الصّوت - : « صح

بالناس » ،

(١) في النسخة : جذر ، وفي المصدر : حذر ، وكلاهما تصحيف ، راجع : اسد الغابة ٣ : ١٤١ .

(٢) في تفسير روح البيان : غبش ، والغلس كالغيش ، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(٣) في تفسير روح البيان : حماة .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٥ .

(٥) أي يضرب جنبها برجله ليحثّها على السّير ، والضمير عائد إلى رسول الله ﷺ .

فنادى الأنصار فخذوا فخذاً ، ثم نادى : يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فكثروا عنقاً واحدة^(١) وهم يقولون : لبيك لبيك ، فأخذ رسول الله ﷺ بيده كفاً من الحصاة فرماهم بها وقال : « شأهت الوجوه » .

فأخبره الله سبحانه بنزول النصر بقوله : ﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَةً﴾ ورحمته المسكنة للقلوب ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

وقيل : إنّ بغلته انخفضت حتى كادت بطنها تمس الأرض ، ثم قبض قبضة من تراب فرمى به نحو المشركين وقال : « شأهت الوجوه » ، فلم يبق منهم أحد إلا امتلات به عيناه ، ثم قال ﷺ : « انهزموا وربّ الكعبة »^(٢) .

﴿وَأَنْزَلَ﴾ الله لنصره من السماء ﴿جُنُوداً﴾ من الملائكة ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ . عن سعيد بن جبیر قال : أيد الله نبيه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة^(٣) .

وعن سعيد بن المسيّب قال : حدّثني رجل كان في المشركين يوم حنين ، قال : لما كشفنا المسلمين جعلنا نسوقهم ، فلما انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقّانا رجال بيض الوجوه حسان ، فقالوا : شأهت الوجوه ، ارجعوا فرجعنا ، فركبوا أكتافنا^(٤) .

في ذكر قصة غزوة حنين

القمّي رحمه الله : كان سبب غزوة حنين أنّه لما خرج رسول الله ﷺ إلى فتح مكة ، أظهر أنّه يريد هوازن ، وبلغ الخبر هوازن فتهيّأوا وجمعوا الجموع والسلاح ، واجتمع رؤسائهم إلى مالك بن عوف النضري فرأسوه عليهم ، وخرجوا وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذرائهم ، ومروا حتّى نزلوا أوطاس ، فبلغ رسول الله ﷺ اجتماعهم بأوطاس ، فجمع القبائل ورغبهم في الجهاد ووعدهم النصر ، وأن الله قد وعده أن يغنمهم أموالهم ونساءهم وذرائهم ، فرغب الناس وخرجوا على راياتهم ، وعقد اللّواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وكلّ من دخل مكّة براية أمره أن يحملها ، وخرج في اثني عشر ألف رجل ، عشرة آلاف ممّن كان معه^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « كان معه من بني سليم ألف رجل رئيسهم عباس بن مرداس السلمي ، ومن مزينة ألف رجل » .

(١) أي حملوا جماعة واحدة.

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٨٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٠ .

فمضوا حتى كان من القوم مسيرة بعض ليلة ، وقال مالك بن عوف لقومه : ليصير كل رجل منكم أهله وماله خلف ظهره ، واكسروا جفون سيوفكم ، واكننوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر ، فإذا كان في غلس الصبح فاحملوا حملة رجل واحد ، وهذبوا القوم ، فإنَّ محمداً لم يلق أحداً يحسن الحرب . فلما صلى رسول الله ﷺ الغداة انحدر في وادي حنين ، وهو واد له انحدار بعيد ، وكان بنو سليم على مقدّمته ، فخرج عليهم كتائب هوازن من كل ناحية ، فانحزمت بنو سليم وانحزم من وراءهم ، ولم يبق أحد إلا انحزم ، وبقي أمير المؤمنين يقاتلهم في نفر قليل ، ومّر المنهزمون برسول الله ﷺ لا يلوون على شيء ، وكان العباس آخذاً بلجام بغلة رسول الله ﷺ عن يمينه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن يساره ، فأقبل رسول الله ﷺ ينادي : « يا معشر الأنصار ، إلى أين ^(١) ؟ أنا رسول الله » . فلم يلو أحد عليه .

وكانت نسيية بنت كعب المازنية تحثو في وجوه المنهزمين التراب وتقول : إلى أين تفرّون عن الله وعن رسوله ؟ ومّر بها عمر فقالت : ويلك ، ما هذا الذي صنعت ؟ فقال لها : هذا أمر الله . فلما رأى رسول الله ﷺ الهزيمة ركض نحوهم على بغلته وقد شهر سيفه وقال : « يا عباس اصعد هذا الظرب ^(٢) وناد : يا أصحاب البقرة ، يا أصحاب الشجرة ، إلى أين تفرّون ؟ هذا رسول الله » .

ثم رفع رسول الله ﷺ يده فقال : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان » . فنزل عليه جبرئيل فقال : يا رسول الله ، دعوت بما دعا [به] موسى حيث فلق الله له البحر ونجاه من فرعون ، ثم قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان [بن] الحارث : ناولني كفاً من الحصى فناوله ، فرماه في وجوه المشركين ثم قال : « شاهت الوجوه » ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد ، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد » .

فلما سمعت الأنصار نداء العباس ، عطفوا وكسروا جفون سيوفهم وهم يقولون : لبيك ، ومروا برسول الله ﷺ واستحيوا أن يرجعوا إليه ، ولحقوا بالزبية ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : « من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ » فقال : يا رسول الله ، هؤلاء الأنصار ، فقال رسول الله ﷺ « الآن حمي الوطيس » ، ونزل النصر من الله ، وانحزمت هوازن ، وكانوا يسمعون قعقة السّلاح في الجوّ ، وانحزموا في كل وجه ، وغنم الله رسوله أموالهم ونساءهم وذريتهم ، وهو قول الله : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ

(١) زاد في القمي : المفتر .

(٢) الظرب : الجبل المنبسط .

وقال رجل من بني نضر بن معاوية يقال له شجرة بن ربيعة للمؤمنين ؛ وهو أسير في أيديهم : أين الخيل البلق (٢) ، والرجال عليهم الثياب البيض ؟ فإتما كان قتلنا بأيديهم ، وما كنا نراكم فيهم إلا كهيفة الشامة ، قالوا : هم الملائكة (٣) .

وعن الرضا عليه السلام ، سئل : ما السكينة ؟ فقال : « ريح من الجنة ، لها وجه كوجه الإنسان ، أطيب ريحا من المسك ، وهي التي أنزلها الله على رسوله ﷺ بحنين ، فهزم المشركون » (٤) .
وعن الصادق عليه السلام : « قتل علي بن أبي طالب عليه السلام يوم حنين أربعين ﷺ » (٥) .
وروي أنه لما هزم الله المشركين بوادي حنين ولّوا مدبرين ، ونزلوا بأوطاس وبها عيالهم وأموالهم ، فبعث رسول الله ﷺ رجلا من الأشعرين يقال له أبو عامر ، وأمره على جيش إلى أوطاس ، فسار إليهم فاقتتلوا ، وهزم الله المشركين ، وسبى المسلمون عيالهم ، وهرب أميرهم مالك بن عوف (٦) .
﴿وَعَذَابُ اللَّهِ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَلِكَ﴾ العذاب ﴿حِزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر .

ثم روي أنّ النبي ﷺ أتى الطائف ، فحاصر أهله بقيّة ذلك الشهر ، فلما دخل ذو القعدة انصرف عنهم ، فأتى الجعرانة (٧) فأحرم منها بعمرة بعد أن قام بها ثلاث عشرة ليلة ، وقال : « اعتمر منها سبعون نبيا » ، وقسم بها غنائمهم ، وكانت ستة آلاف نفس ، والإبل أربعة وعشرون ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية فضّة ، وتألّف اناسا فجعل يعطي الرجل الخمسين والمائة من الإبل ، ولما قسم ما بقي خصّ كل رجل بأربع من الإبل وأربعين شاة ، فقالت طائفة : يا للعجب ، إنّ أسيافا تقطر من دمائهم ، وغنائمنا تردّ إليهم ! فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم فقال : « يا معشر الأنصار ، ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ » فقالوا : هو الذي بلغك ؛ وكانوا لا يكذبون ، فقال : « ألم تكونوا ضالّا فهداكم الله بي ، وكنتم أذلة فاعزّكم الله بي ، وكنتم وكنتم ؟ أما ترضون أن ينقلب الناس بالشّياه والإبل ، وتنقلبون برسول الله إلى بيوتكم ؟ » فقالوا : بلى رضينا يا رسول الله ، والله ما قلنا ذلك إلا محبة لله ولرسوله . فقال : « إنّ الله ورسوله يصدّقانكم ويعذرانكم » (٨) .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٠ .

(٢) البلق : جمع أبلق ، وهو الذي يخالط لونه السواد مع البياض .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٢ .

(٤) الكافي ٥ : ٢٥٧ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٢ .

(٥) الكافي ٨ : ٣٧٦ / ٥٦٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٢ .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٨ .

(٧) اسم موضع بين مكة والطائف .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٨ .

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧)

ثمّ أنّه أخبر الله بإسلام بعض هوازن بقوله : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ توبته بتوقيفه لقبول الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ ومتجاوز عمّا سلف منهم من الكفر والمعاصي ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإعطائهم الثواب الجزيل.

روي أنّ أناساً منهم جاءوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام ، وقالوا : يا رسول الله ، أنت خير الناس وأبرهم ، وقد سبي أهلونا وأولادنا ، واخذت أموالنا. فقال ﷺ : « إنّ عندي ما ترون ، إنّ خير القول أصدقه ، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم ، وإما أموالكم » . قالوا : ما كنّا نعدل بأحسابنا شيئاً.

فقام النبي ﷺ فقال : « إنّ هؤلاء جاءونا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الدّاري والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً ، فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه [وليفعل ما طاب له] ومن لا فليعطنا ولكن قرضاً علينا ، حتّى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه » . قالوا : رضينا وسلّمنا. فقال ﷺ : « إنا لا ندرى لعلّ فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا » ، فرفعت إليه العرفاء أنّهم قد رضوا.

ثمّ قال لوفد هوازن : « ما فعل مالك بن عوف ؟ » قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، فقال ﷺ : « أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة [من] الإبل » ، فلمّا بلغه هذا الخبر نزل من الحصن مستخفياً خوفاً من أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال ، وركب فرسه وركضه حتّى أتى الدهناء - محلاً معروفاً - وركب راحلته ولحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة فأسلم ، فردّ عليه أهله وماله ، واستعمله على من أسلم من هوازن ، وكان هو ممّن فتح عامّة الشّام ^(١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ (٢٨)

ثمّ منع الله المشركين من دخول المسجد الحرام بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقدر ، عن ابن عباس قال : أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ^(٢) ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ فضلاً عن أن يدخلوا فيه ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ الذي أنتم فيه.

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٠٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٢٤ .

ثم قيل : إن اناسا قالوا لأهل مكة : ستلقون الشدة من انقطاع السبل ، وفقد الحمولات ^(١) ، فوعد الله سدّ خلة ^(٢) المؤمنين بقوله : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ على أنفسكم ﴿عَيْلَةً﴾ وفقرا وحاجة بسبب منع المشركين من الحج ، وانقطاع ما كانوا يجلبونه إليكم من الأرزاق ، وتعطيل المكاسب ﴿فَسَوْفَ يُعْطِيَكُمْ اللَّهُ﴾ عنهم في إرزاقكم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وجوده ﴿إِنْ شَاءَ﴾ غناكم وسعة معاشكم .
وفي تعليق إغنائهم على مشيئته تنبيه على وجوب كونهم راجين بكرمه ، متضرعين إليه ، وأنّ ما يصل إليهم يكون بتفضله ، وأنّ الوعد لا يعمّ جميع الناس وجميع الأمكنة والأزمان ، بل هو لبعض دون بعض .

في إيجاب الجزية على أهل الكتاب

قيل : إنّ الله أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا ووفّق أهل تبالة وجرش ^(٣) للاسلام ، وامتاروا ^(٤) لهم ، ثم فتح عليهم البلاد ، ورزقهم الغنائم الوفيرة ، ووجه إليهم الناس من أقطار الأرض ^(٥) .
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ومصالحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يعطي ويمنع على حسب صلاح الأشخاص ونظام العالم .

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

ثم أنّه تعالى بعد الأمر بقتال المشركين حتى يقتلوا أو يسلموا ويتوبوا ، أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية بقوله : ﴿قَاتِلُوا﴾ يا أهل الإسلام ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حقّ الإيمان به ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كما ينبغي ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ عليهم في كتابه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في سنته ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ ولا يعتقدون أو لا يقبلون ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت من الله وهو الاسلام ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ السماوي من التوراة والإنجيل وغيرهما ، واستمروا على قتالكم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ والمال المضروب عليهم منكم ، حال كون عطائهم إياه ﴿عَنْ يَدٍ﴾ منهم وبمباشرتهم الإعطاء ﴿وَهُمْ﴾

(١) الحمولات : جمع الحمولة ، وهي الإبل وغيرها التي تحمل المؤن ، وتطلق الحمولة على نفس المؤن المحمولة على الإبل .

(٢) الخلة : هي الفقر الحاجة .

(٣) في النسخة : بتالة وحريش ، وتبالة : موضع ببلاد اليمن ، وجرش : من مخاليف اليمن من جهة مكة ، قال المهلب : أسلم أهل تبالة وجرش من غير حرب ، فأقرّها رسول الله ﷺ في أيدي أهلها على ما أسلموا عليه ، وجعل على كلّ عالم ممن بمنا من أهل الكتاب دينارا ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين . معجم البلدان ٢ : ١٠ و ١٤٧ .

(٤) أى جمعوا الميرة لأنفسهم ، وهي الطعام والمؤن .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤١١ .

في أحكام الجزية

عن الباقر عليه السلام : « بعث الله محمداً بخمسة أشياء » ^(١) إلى أن قال : « قال الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ^(٢) نزلت هذه الآية في أهل الذمة ، ثم نسخها قوله سبحانه : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية ، فمن كان منهم في دار الإسلام لم يقبل منهم إلا الجزية أو القتل ، وما لهم فيء ، وذاريهم سبي ، فإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرّم علينا سبيهم ، وحرّمت أموالهم ، وحلّت لنا منّاحتهم ، ومن كان منهم في دار الحرب حلّ لنا سبيهم وأموالهم ، ولم تحلّ منّاحتهم ، ولم يقبل منهم إلا الدّخول في الإسلام أو الجزية أو القتل » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن المجوس : أكان لهم نبيّ ؟ فقال : « نعم ، أما بلغك كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أهل مكّة : أن أسلموا وإلا فأذنوا بحرب ، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله : أن خذ منّا الجزية ودعنا على عبادة الأوثان ، فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله : إني لست آخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، فكتبوا إليه ، يريدون تكذيبه : زعمت أنّك لا تأخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، ثمّ أخذت الجزية من مجوس هجر ؟ ! فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وآله : أنّ المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه ، وكتاب أحرقوه » ^(٤) .

وفي (العلل) : عنه عليه السلام ، أنّه سئل عن النّساء : كيف سقطت الجزية ورفعت عنهن ؟ فقال : « لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهي عن قتل النّساء والولدان في دار الحرب إلا أن تقاتل ، وإن قاتلت [أيضا] « فأمسك عنها ما أمكنك ولم تخف خللا ، فلمّا نهى عن قتلهنّ في دار الحرب كان ذلك في دار الإسلام أولى ، ولو امتنعت أن تؤدّي الجزية لم يمكن قتلها ، فلمّا لم يمكن قتلها رفعت الجزية عنها ، ولو امتنع الرّجال وأبوا أن يؤدّوا الجزية كانوا ناقضين للعهد ، وحلّت دماؤهم وقتلهم ، لأنّ قتل الرّجال مباح في دار الشّرك ، وكذلك المقعد من أهل الشّرك والذّمة ، [والأعمى] والشيخ الفاني ، والمرأة والولدان في أرض الحرب . ومن أجل ذلك رفعت عنهم الجزية » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « جرت السنّة أن لا تؤخذ الجزية من المعتوه ، ولا من المغلوب على عقله » ^(٦) .
والقميّ رحمته الله : عنه عليه السلام ، أنّه سئل : ما حدّ الجزية على أهل الكتاب ، وهل عليهم في ذلك [شيء] موظّف لا ينبغي أن يجوزوا إلى غيره ؟

فقال : « ذلك إلى الإمام ، يأخذ من كلّ إنسان منهم ما شاء على قدر ماله وما يطيق ، إمّا هم

قوم فدوا

(١) في الكافي : أسياف .

(٢) البقرة : ٢ / ٨٣ .

(٣) الكافي ٥ : ١١ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٤ .

(٤) الكافي ٣ : ٥٦٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٤ .

(٥) علل الشرائع : ٣٧٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٤ .

(٦) الكافي ٣ : ٥٦٧ / ٣ ، من لا يحضره الفقيه ٢ : ٢٨ / ١٠١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٥ .

أنفسهم من أن يستعبدوا أو يقتلوا ، فالجزية تؤخذ منهم على قدر ما يطيقون له أن يؤخذ منهم بها حتى يسلموا ، فإن الله تعالى قال : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ وكيف يكون وهو لا يكثرث لما يؤخذ منه ، لا حتى يجد ذلًا لما يؤخذ منه فيألم لذلك فيسلم » (١) .

وعن الباقر عليه السلام ، في أهل الذمة : أيؤخذ من أموالهم ومواشيهم شيء سوى الجزية ؟ قال : « لا » (٢) .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ

بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٠)

ثم بين سبحانه عدم إيمانهم بقوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ واعتقدت أنه ﴿ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾

عن ابن عباس : أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ ؛ وهم سلام بن مشكم ، والنعمان بن أوفى ، ومالك بن الصّيف ، وقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، ولا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟ فنزلت الآية (٣) .

وقيل : إن هذا القول كان شائعا بينهم في ذلك العصر ثم انقطع ، ولا عبرة بإنكار اليهود ، فإن حكاية الله عنهم أصدق .

وفي (الاحتجاج) : أن النبي ﷺ طالبهم فيه بالحجة ، فقالوا : لأنه أحى [لبني إسرائيل] التوراة بعدما ذهبت ، ولم يفعل بها هذا إلا لأنه ابنه .

فقال ﷺ : « كيف صار عزير ابن الله دون موسى ، وهو الذي جاءهم بالتوراة ، ورأوا منه [من] المعجزات ما [قد] علمتم ، فإن كان عزير ابن الله لما ظهر من إكرامه من إحياء التوراة ، فلقد كان موسى بالنبوة أحق وأولى » (٤) .

﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ ثم ردّهم بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ القول الباطل الذي صدر منهم ﴿ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ وألسنتهم بلا مساعدة برهان عليه ، بل البراهين القاطعة على خلافه ، وهم في هذا القول ﴿ يُضَاهُونَ ﴾ ويشابهون ، يعني قولهم هذا يشابه ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ بأنّ الملائكة ، أو اللات والعزى بنات الله .

ثم أظهر الغضب بالدعاء عليهم بقوله : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ وأهلكهم كيف تصدر من لسانهم هذه الأباطيل ، و﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وإلى أين يصرفون من الحق .

(١) تفسير القمي ١ : ٢٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٥ .

(٢) الكافي ٣ : ٥٦٨ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ٣٣ .

(٤) الاحتجاج : ٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٥ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : « أي لعنهم ، فسَمَى اللّعة قتالا » ^(١) .
 عن النبي صلى الله عليه وآله : « اشتدّ غضب الله على اليهود حين قالوا : ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ واشتدّ غضب الله على النصارى حين قالوا : ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ واشتدّ غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي » ^(٢) .

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا

إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

ثمّ قدح الله فيهم بإثبات شرك آخر لهم بقوله : ﴿اتَّخَذُوا﴾ هؤلاء اليهود والنصارى ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وعلماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ وزهادهم ﴿أَرْبَابًا﴾ ومطاعين كأئمتهم معبودون لهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومتجاوزين عنه.
 عن الصادق عليه السلام : « أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم ، ولكن أحلّوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون » ^(٣) .

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ اتخذوا ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أيضا ربّا ومعبودا بعد ما قالوا إنّ ابن الله.

القمي : عن الباقر عليه السلام : « أما المسيح فعصوه ، وعظّموه في أنفسهم ، حتّى زعموا أنّه إله ، وأنّه ابن الله ، وطائفة منهم قالوا : ثالث ثلاثة [وطائفة منهم قالوا : هو الله] ، وأما أحبارهم ورهبانهم فإنّهم أطاعوهم ، وأخذوا بقولهم ، واتّبعوا ما أمروهم به ، ودانوا بما دعوهم إليه ، فاتّخذوهم أربابا بطاعتهم لهم ، وتركهم أمر الله وكتبه ورسله ، فنبذوه وراء ظهورهم » . قال : « وإنّما ذكر هذا في كتابه لكي تتعظ بهم » ^(٤) .

﴿وَالْحَالِ أُنْهَمَ﴾ الحال أنّهم ﴿مَا أُمِرُوا﴾ من قبل الله ، وبحكم عقولهم ، بشيء ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ وليطيعوا

﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ولا يطيعون غيره ، وأما طاعة غيره بأمره فهي ^(٥) في الحقيقة طاعته.

ثمّ أكّد سبحانه وحدانيّته في الألوهيّة والربوبيّة والعبادة بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثمّ نزه ذاته المقدّسة عن الشّرك بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في الألوهيّة والعبادة ، وتعالى شأنه عن ذلك.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)

(١) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٢٩ / ١٨١٠ ، أمالي الطوسي : ١٤٢ / ٢٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٦ .

(٣) الكافي ١ : ٤٣ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٦ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٨٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٦ .

(٥) زاد في النسخة : بأمره .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ سُوءِ عَقِيدَتِهِمْ ، بَيَّنَّ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ الْمَوْجِبَ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْقَتْلَ وَالذَّلَّةَ بِقَوْلِهِ : ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ وَيَحْمَدُوا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ وَيَطْلُوا بُرَاهِينَ تَوْحِيدِهِ وَتَنْزِهِهِ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ ، وَيَخْفُوا أَدْلَةَ صَدَقِ النَّبِيِّ عَنْ عَوَامِهِمْ ، وَيَشَوِّشُوا شَوَاهِدَ صِحَّةِ شَرِيعَتِهِ بِأَقَاوِيلِهِمُ الْبَاطِلَةَ وَشِبْهَاتِهِمُ الْفَاسِدَةَ الَّتِي يَقُولُونَهَا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مَعَ عَدَمِ اعْتِقَادِ صِحَّةِ مَعَانِيهَا فِي قُلُوبِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ أَنْ يَطْفِئُوا نُورَ الشَّمْسِ بِنَفْخَتِهِمْ ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ﴾ وَيَمْتَنِعَ ﴿إِلَّا أَنْ﴾ يَثْبِتَ دِينَهُ ، وَ﴿يُسَمِّ نُورَهُ﴾ بِلُغَةِ الْغَايَةِ فِي الْإِضَاءَةِ وَالْإِنَارَةِ ، وَيَحَقِّقَ الْحَقَّ بِنَصْرَةِ رَسُولِهِ ، وَظَهْوَرِ مُعْجَزَاتِهِ ، وَإِعْلَافِ كَلِمَتِهِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذَلِكَ فَضْلاً عَنْ أَنْ لَا يَكْرَهُهُ .

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ : « أُنْهَمَ [أُنْهَمَ] أَثْبَتُوا فِي الْكِتَابِ مَا لَمْ يَقُلْهُ اللَّهُ لِيَلْبِسُوا عَلَى الْخَلِيقَةِ ، فَأَعْمَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ حَتَّى تَرَكَوا فِيهِ مَا دَلَّ عَلَى مَا أَحْدَثُوا فِيهِ وَحَرَّفُوا مِنْهُ » (١) .

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « جَعَلَ [اللَّهُ] أَهْلَ الْكِتَابِ الْمُقِيمِينَ بِهِ ، وَالْعَالَمِينَ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، مِنْ شَجَرَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تَوْتِي أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، أَيْ يَظْهَرُ مِثْلُ هَذَا الْعِلْمِ لِحَتْمَلِيهِ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ ، وَجَعَلَ أَعْدَاءَهَا أَهْلَ الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ الَّذِينَ حَاولُوا إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ » (٢) .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ إِتْمَامَ نُورِ بَظْهْوَرِ رَسُولِهِ ﷺ بِقَوْلِهِ : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ الَّذِي جَاءَكُمْ ﴿بِالْهُدَى﴾ وَدَلَائِلَ الصَّدَقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ الْكَثِيرَةِ ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الْمَرْضِيِّ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْأَحْكَامِ الْمَوَافِقَةِ لِصَلَاحِ الْعِبَادِ ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ وَلِيُغْلِبَهُ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ بِحَيْثُ لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ غَيْرُهُ .

قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، أَوْ غَلَبَتِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ فِي الْجُمْلَةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَهْلُ دِينٍ إِلَّا وَقَهَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ؛ أَمَّا الْيَهُودُ فَقَدْ قَهَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَأَمَّا النَّصَارَى فَقَدْ غَلَبَهُمْ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمَا وَالِهَا إِلَى نَاحِيَةِ الرُّومِ وَالْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ فَقَدْ غَلَبَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِهِمْ مِمَّا يَلِي التُّرْكَ وَالْهِنْدَ ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَدْيَانِ .

(١) الاحتجاج : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٧ .

(٢) الاحتجاج : ٢٥٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٧ .

وروت العامة عن أبي هريرة أنه قال : هذا وعد من الله بأنه تعالى يجعل الإسلام عاليا على جميع الأديان ، وتما هذا يحصل عند نزول عيسى ^(١) .

وعن السدي قال : ذلك عند خروج المهدي ، لا يبقى أحد إلا دخل في الاسلام ، أو أدى الخراج ^(٢) .

القمي قال : نزلت في القائم من آل محمد. قال : وهو الذي ذكرناه ممّا تأويله بعد تنزيله ^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام ، في هذه الآية : « والله ما نزل تأويلها بعد ، وما ينزل حتى يخرج القائم ، فإذا خرج القائم لا يبقى كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره خروجه ، حتّى لو كان كافر أو مشرك في بطن صخرة لقالت : يا مؤمن ، في بطني كافر فاكسرنى واقتله » ^(٤) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « وغاب صاحب هذه الأمر بإيضاح الغدر له في ذلك ؛ لاشتغال الفتنة على القلوب ، حتّى يكون أقرب الناس إليه أشدّهم عداوة له ، وعند ذلك يؤيّده الله بجنود لم تروها ، ويظهر دين نبيّه على يديه على الدّين كلّهُ » **﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** ^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « أنّ ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد ، فلا يبقى أحد إلا أقرّ بمحمد ﷺ » ^(٦) .

وعن العياشي : عنه عليه السلام ، ما في معناه ، قال : وفي خبر آخر قال : « ليظهره الله في الرجعة » ^(٧) .

وعن النبي ﷺ قال : « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله الإسلام إمّا بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل ، إمّا يعزّهم فيجعلهم الله من أهله فيعزّوا به ، أو يذلّهم فيدينون له » ^(٨) .
وعن الباقر عليه السلام : « القائم ممّا منصور بالرّعب ، مؤيّد بالنّصر ، تطوى له الأرض ، وتظهر له الكنوز ، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب ، ويظهر الله به دينه على الدّين كلّهُ ، فلا يبقى في الأرض خراب إلا عمّر ، وينزل روح الله عيسى بن مريم فيصليّ خلفه » ^(٩) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « أظهر ذلك بعد ؟ » قالوا : نعم ، قال : « كلا ، فو الذي نفسي بيده ، حتّى لا تبقى قرية إلا وتنادي بشهادة أن لا إله إلا الله ، ومحمد رسول الله ، بكرة وعشيّا » ^(١٠) .

وعن الكاظم عليه السلام ، في هذه الآية : « هو الذي أمر رسوله بالولاية لوصيّة ، والولاية هي دين الحقّ ليظهره على جميع الأديان عند قيام القائم ، والله متمّ ولاية القائم ولو كرّه الكافرون بولاية عليّ عليه السلام » .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٤٠ . (٣) تفسير القمي ١ : ٢٨٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٤) كمال الدين : ٦٧٠ / ١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ . (٥) الاحتجاج : ٢٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ . (٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٣١ / ١٨١٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٨) مجمع البيان ٥ : ٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٩) إكمال الدين : ٣٣١ / ١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٩ .

(١٠) تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

قيل : هذا تنزيل ؟ قال : « نعم ، هذا الحرف تنزيل ، وأما غيره فتأويل » ^(١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزُكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٤) و (٣٥)﴾

ثم أتت تعالى بعد ذم أهل الكتاب بأنحاذهم علمائهم أربابا بالمعنى الذي ذكرنا ، ذم علماءهم وزهادهم بأكل الرشا وغيره من المال الحرام بإضلال الناس ؛ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ﴾ وعلماء اليهود ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ وزهاد النصارى والله ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وطريق الحرام كالرشوة للحكم بالجور ، وتغيير الأحكام الإلهية ، وتحريف الكتب السماوية ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويمنعون الناس بتسويلاهم وشبهاتهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقبول دين الحق.

ولما كان استمرارهم على أخذ الحرام مشعرا بغاية حرصهم على جمع الدراهم والدنانير ، هدد سبحانه من له هذه التذيلة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ ويدخرون ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [سواء أ] كانا مسكوكين كالدينار والدراهم ، أو غير مسكوكين كالسبائك ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والوجوه الخيرية ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الذي يشتاقون إليه باشتياقهم إلى سببه الذي هو جمع الدراهم والدنانير ﴿يَوْمَ يُخْمَى﴾ ويوقد ﴿عَلَيْهَا﴾ نار ذات لب وشدّة حرارة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى﴾ وتُحرق ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾

قيل : خصّ الله الكيّ بتلك المواضع ، لأنّ المقصود من الأموال حصول الفرح الذي يحصل أثره في الوجه ، والشبع الذي ينتفخ به الجنبان ، وتحصيل ثياب فاخرة تطرح على الظهر ^(٢) .
وقيل : إنّ البخيل الموسر إذا رأى الفقير قبض جبينه ، وإذا جلس بجنبه تباعد منه ، وولاه ظهره ^(٣) .

وقيل : لأنّ في داخل هذه الأعضاء آلات ضعيفة يعظم تألمها إذا وصل أدنى مولم إليها ^(٤) .
وقيل : لأنّ ألطف أعضاء الإنسان جبينه ، ومتوسطها في اللطافة جنبه ، وأصلبها ظهره ، والمراد بيان إحاطة الكيّ بجميع الأعضاء ^(٥) .
وقيل : لأنّ كمال بدن الإنسان بالجمال والقوة ، ومحلّ الجمال الوجه ، وأعزّ الأعضاء منه الجبهة ،

(١) الكافي ١ : ٣٥٨ / ٩١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٣٨ .

(٢ و ٣) تفسير الرازي ١٦ : ٤٨ .

ومحلّ القوّة الجنب والظّهر ، فإذا وقع الكيّ في تلك الأعضاء ذهب الجمال والقوّة (١) .

أقول : يمكن كون العلّة جميع الامور المذكورة.

وعلى أيّ تقدير ، يقال لهم ازديادا لتحسّسهم : ﴿هَذَا﴾ المال هو ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ وادّخرتم ﴿لأنفسكم﴾ لا تنفقونه وتلتذّون به ﴿فَذُوقُوا﴾ واطعموا طعم ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَكْنِزُونَ﴾ من الدنانير والدراهم المحمّاة بالنار.

روي أنّه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « تَبَا لِلذَّهَبِ وَتَبَا لِلْفِضَّةِ » قالها ثلاثا ، فقالوا له : أيّ مال نتخذ ؟ قال : « لسانا ذاكرا ، وقلبا خاشعا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه » (٢) .

وقال ﷺ : « من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها » .

وتوفيّ رجل وفي مئزره دينار ، فقال ﷺ : « كَيْتَة » . وتوفيّ آخر فوجد في مئزره ديناران فقال ﷺ : « كَيْتَان » (٣) .

وعنه ﷺ : « الدّينار والدّرههم أهلكا من كان قبلكم ، وهما مهلكاكم » (٤) .

والقميّ : عن الباقر عليه السلام ، في هذه الآية : « أنّ الله حرّم كنز الذهب والفضّة ، وأمر بإنفاقه في سبيل الله » .

قال : « كان أبو ذرّ الغفاري يغدو كلّ يوم وهو بالشام فينادي بأعلى صوته : بشّر أهل الكنوز بكّي في الحباه ، وكّي في الجنوب ، وكّي في الظّهور أبدا حتّى يتردّد الحرّ في أجوافهم » (٥) .

وفي (المجمع) : عن النبي ﷺ : « تَبَا لِلذَّهَبِ ، تَبَا لِلْفِضَّةِ » يكرّرها ثلاثا ، فشقّ ذلك على أصحابه ، فسألوه : أيّ المال نتخذ ؟ فقال : « لسانا ذاكرا ، وقلبا خاشعا ، وزوجة مؤمنة ، تعين أحدكم على دينه » (٦) .

وفي (الخصال) عنه ﷺ : « الدّينار والدّرههم أهلكا من كان قبلكم ، وهما مهلكاكم » (٧) .

والقميّ رحمه الله ، في حديث : « نظر عثمان إلى كعب الأحبار فقال له : يا أبا إسحاق ، ما تقول في رجل أدّى زكاة ماله المفروضة ، هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء ؟ فقال : لا ، ولو اتّخذ لبننة من ذهب ولبننة من فضّة ما وجب عليه شيء ، فرفع أبو ذرّ عصاه فضرب بها رأس كعب ، ثمّ قال له : يا بن اليهوديّة الكافرة ، ما أنت والنّظر في أحكام المسلمين ، قول الله أصدق من قولك حيث قال : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...﴾ الآية » (٨) .

عن أمير المؤمنين ، بطريق عامي قال : « كلّ مال زاد على أربعة آلاف فهو كنز ، أدّيت زكاته أو

لم

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٤٨ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٦ : ٤٤ .

(٤) الخصال : ٤٣ / ٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٨٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

(٧) تقدم أنفا . (٨) تفسير القمي ١ : ٥٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

تَوَدَّ « (١) .

العياشي عن الباقر عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : « إِنَّمَا عَنِ بَذْلِكَ مَا جَاوَزَ أَلْفِي دِرْهَمٍ » (٢) .

وفي (الأماي) : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : « كُلِّ مَالٍ تَوَدَّى زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرْضِينَ ، وَكُلِّ مَالٍ لَا تَوَدَّى زَكَاتَهُ فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ » (٣) .
عن الصادق عليه السلام : « مُوسِعٌ عَلَى شَيْعَتِنَا أَنْ يَنْفَقُوا مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا قَامَ قَائِمُنَا حَرَّمَ عَلَى [كُلِّ] ذِي كَنْزٍ كَنْزَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ بِهِ ، فَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ... ﴾ (٤) .

أقول : يمكن حمل الأخبار الدالة على حرمة الكنز على جمع المال في وقت يجب إنفاقه في الجهاد ، وحفظ شوكة الإسلام والتفوس المحترمة ، وغير ذلك من المصارف التي يجب صرف المال فيها ، كعصر النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وما شابهه ، والأخبار الدالة على الجواز على غيره .

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَطْلُمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣٦)

ثم لما أمر الله بقتال المشركين وأهل الكتاب ، ذكر الشهور التي يجوز فيها القتال ، والتي لا يجوز بقوله : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ القمرية التي هي ما بين الهالين ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وفي حكمه وقضائه ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ من غير زيادة ونقصان ، مثبتة تلك العدة ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه : أنه اللوح المحفوظ الذي كتب فيه أحوال مخلوقاته بأسرها على التفصيل (٥) ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وحين أبدع الأجرام اللطيفة والكتيفة ؛ لأن الشمس والقمر الذين بهما مدار الأيام والشهور جرمان في السماوات ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ يحرم القتال فيها ، وتعظم حرمتها ، ثلاثة منها سرد (٦) متعاقبة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو شهر رجب .

قيل : كانت حرمة تلك الأشهر عند العرب بحيث لو لقي الرجل فيها قاتل ابنه ، لم يكن يتعرض له .

﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من كون الأشهر اثني عشر ، والحرم منها أربعة معينة ، هو ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾

والشَّرع

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٤٥ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٣١ / ١٨٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

(٣) أمالي الطوسي : ٥١٩ / ١١٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٣١ / ١٨٢١ ، الكافي ٤ : ٦١ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤١ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ٥١ .

(٦) السرد : المتتابع والمتعاقب .

الباقى المستقيم الذى جاء به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، لا يغير ولا يبدل ﴿فَلَا تَظْلِمُوا﴾ أيها العرب ﴿فِيهِنَّ أَنْفُسُكُمْ﴾ بتضييع حرمتها وتغير شهرها.

ثم بين الله حكم قتال المشركين فيها بقوله : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ حال كونكم ﴿كَافَّةً﴾ ومجتمعين ومتناصرين ، مستحلين لقتالها ^(١) ﴿كَمَا يُفَاتِلُونَكُمْ﴾ حال كونهم ﴿كَافَّةً﴾ ومجتمعين على قتالكم ، مستحلين له فيها.

ثم وعد الله المؤمنين النصر بقوله : ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ بنصره وتأيدده ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ والخائفين من الله في مخالفة أوامره.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ

عَاماً لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

ثم أن رجلا من كنانة ، كان يقف بالموسم ويقول : قد أحللت دماء المحلّين طي وخثعم في شهر الحرم وأنسأته ، وحرمته بدله صفرا ، فإذا كان العام المقبل يقول : قد أحللت صفرا وأنسأته ، وحرمته بدله شهر الحرم. على رواية القمي ^(٢) .

فردّ الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ والتأخير في الشهر الحرام ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وبدعة مضافة إليه.

وقيل : إنّ أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني ، كان يقوم على جبل أحمر في الموسم فينادي : إنّ أهتكم قد أحلت لكم الحرم فأحلّوه ، ثم ينادي في القابل : إنّ أهتكم قد حرمت عليكم الحرم فحرّموه ^(٣) .

وهذا التأخير والنسيء ﴿يُضَلُّ بِهِ﴾ من قبل الله ، أو الشيطان ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

ثم فسّر سبحانه النسيء بقوله : ﴿يُحِلُّونَهُ﴾ ويجوزون القتال فيه ﴿عَاماً﴾ ويمنعون عن القتال بدله في شهر حرام ﴿وَيُحَرِّمُونَهُ﴾ ويمنعون القتال في ذلك الشهر الذي أحلّوه ﴿عَاماً﴾ آخر ﴿لِيُؤْاطُوا﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ من الأشهر. ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾

عن ابن عباس : أهتم ما أحلوا شهرا من الحرام إلّا حرّموا مكانه شهرا آخر من الحلال ، ولم يحرموا

(١) كذا ، والظاهر : لقتالهم فيها.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٩٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٢ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٣٤٢ .

شهرًا من الحلال إلّا أحلّوا مكانه شهرًا آخر من الحرام ، لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرم أربعة مطابقة لما ذكره الله (١) .

ثم نسب سبحانه هذا النسيء المضاف إلى الكفر إلى تزيين الشيطان بقوله : ﴿رَبَّنَا لِهَمَّ﴾ بتسويلات الشيطان ﴿سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقبح أفعالهم ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى خير ، ولا يوصل إلى صلاح ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾

ثم أنه تعالى بعد بيان عقائدهم السيئة وأعمالهم الشنيعة ، حث المؤمنين على قتالهم بإنكار التثاقل والتواني عليهم فيه ؛ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ من العذر والحالة المانعة عن الامتثال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ من قبل الله والرسول ﴿انْفِرُوا﴾ وأخرجوا جميعا إلى الجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلبوا لمرضاته ﴿أَنْتَقَلْتُمْ﴾ وتباطأتم كأنكم أثقل أبدانكم متمائلون ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ مخلدين فيها حبًا للحياة ، وطلبًا للراحة ، وكراهة لمشاق السفر ، وخوفًا من العدو ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واطمأنتم إليها ، وسكنت قلوبكم إلى شهواتها ونعيمها ، بدلا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ونعيمها الدائم (٢) ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولذاذها ونعيمها ﴿فِي﴾ جنب لذاذ ﴿الْآخِرَةِ﴾ ونعيمها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ غير معتدّ به عند العقل والعقلاء.

عن ابن عباس : أنّ هذه الآية نزلت في غزوة تبوك ، وذلك لأنّه لما رجع [النبي ﷺ] من الطائف أقام بالمدينة ، وأمر بجهاد الروم ، وكان ذلك الوقت زمان شدة الحرّ ، وطابت ثمار المدينة وأينعت ، واستعظموا غزو الروم وهابوه. فنزلت (٣) .

وفي (الجوامع) : كان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر ، بعد رجوعهم من الطائف ، استنفروا في وقت قحط وقيظ ، مع بعد الشقّة ، وكثرة العدو ، فشق ذلك عليهم (٤) .

القمّي رحمه الله : وذلك أنّ رسول الله ﷺ لم يسافر سفرا أبعد ولا أشدّ منه ، وكان سبب ذلك أنّ

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٥٨ .

(٢) في النسخة : الدائمة.

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ٥٩ .

(٤) جوامع الجامع : ١٧٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٢ .

الصَّيَافَة ^(١) كانوا يقدمون المدينة من الشَّام معهم الدَّرموك ^(٢) والطَّعام وهم الأنباط ، فأشاعوا بالمدينة أنَّ الرُّوم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله ﷺ في عسكر عظيم ، وأنَّ هرقل قد سار في جنوده وجلب معهم غسَّان وجذام وبهراء وعاملة ، وقد قدم عساكره البلقاء ، ونزل هو حمص ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ إلى تبوك ، وهي من بلاد البلقاء ، وبعث إلى القبائل حوله وإلى مكَّة وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة ، وحثَّهم على الجهاد ، وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنية الوداع ، وأمر أهل جدَّة أن يعينوا من لا قوَّة له ، ومن كان عنده شيء أخرجه ، وحملوا وقوَّوا وحثَّوا على ذلك. ثمَّ خطب خطبة ورَّغب النَّاس في الجهاد. قال : وقدمت القبائل من العرب ممَّن استنفرهم ، وقعد عنه قوم من المنافقين ^(٣) .

فهدَّدهم الله سبحانه على التَّقاعد عنه بقوله : ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا﴾ أيَّها المؤمنون ، ولا تخرجوا إلى الجهاد ﴿يُعَذِّبُكُمْ﴾ الله في الدُّنيا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ويهلككم إهلاكاً فظيعاً بالقتل وغلبة العدوِّ والقحط - كما قيل ^(٤) - ﴿وَيَسْتَبْدِلْ﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيراً منكم ، وأطوع لأمر الله ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ بتثاقلكم عن الجهاد ونصرة دينه ﴿شَيْئًا﴾ يسيراً من الضَّرر ، لكونه تعالى غنياً عن العالمين ، لا يحتاج في إنفاذ إرادته إلى معين ، أو المراد : لا تضروا النبيَّ شيئاً ، لأنَّ الله عصمه من النَّاس ، ووعدته النَّصر. عن ابن عباس قال : المراد من القوم الآخرين التابعون ^(٥) . وقيل : أهل اليمن ^(٦) . وقيل : أبناء فارس ^(٧) .

واحتمل بعض أن يكون المراد : أن يخرج النبي ﷺ من بين أهل المدينة وينصره بالملائكة ^(٨) . ثمَّ أكَّد غناه بقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من التعذيب والتَّبديل وغيرهما ﴿قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء ، فإذا وعد بالعقاب لا يخلف وعده. وهو غاية التَّهديد.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (٤٠)﴾

(١) أي الذين يأتون في الصيف.

(٢) الدَّرموك : الثياب والبسط.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٩٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٢٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ٦١ .

(٦ و ٧) . تفسير الرازي ١٦ : ٦١ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٦٥ .

(٨) تفسير الرازي ١٦ : ٦١ .

ثم بالغ سبحانه في إظهار غناه عن نصرته بقوله : ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾ في غزوة تبوك ، فإن الله ناصره ، وليست نصرته من الله تعالى أمرا بديعا ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ وأعانه على أعدائه ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قريش من مكة ، بأن اجتمعوا على قتله فخرج منها ، حال كونه ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ واحد الرجلين ، ولم يكن معه إلا أبو بكر .

في ذهاب الرسول ﷺ إلى الغار

روت العامة : أن بعد تفرق قريش عن دار الندوة ، واتفاقهم على قتل النبي ﷺ في الليل ، أتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بمكر قريش ، وأمره بمفارقة مضجعه تلك الليلة ، فقال ﷺ لعلي : نم على فراشي واتشح بردائي هذا الحضرمي ، وكان ﷺ يشهد العيدين في ذلك الزداء ، فلما مضت عتبة (١) من الليل - يعني ثلثه - اجتمعت (٢) قريش على باب رسول الله ﷺ وكانوا مائة ، فجعلوا يتطلعون من شق الباب ويرصدون متى ينام فيثبون عليه ويقتلونه ، فخرج ﷺ عليهم وهم ببابه ، وقرأ ﴿يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٣) ، فأخذ الله أبصارهم عنه ﷺ فلم يبصروه حتى خرج من بينهم (٤) .

وفي رواية : أنه ﷺ أخذ قبضة من تراب فذرّها عليهم ، فأتاهم آت فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمدا ، قال : فقد خيبتكم الله ، والله خرج من بينكم محمد ، ثم ما ترك رجلا منكم إلا وضع في رأسه التراب ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه التراب . فدخلوا على علي عليه السلام فقالوا له : يا علي ، أين محمد ؟ قال : « لا أدري أين ذهب » وكان قد انطلق إلى بيت أبي بكر ، فلما دخل عليه قال : « إن الله أذن لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصّحبة يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، قال : نعم ، قال أبو بكر : خذ إحدى راحلتي هاتين ، فإني أعددتكما للخروج ، فقال ﷺ : « نعم ، بالثمن » وهي الناقة القصوى أو الجدعاء ، وأما الناقة العضباء فقد جاء أن ابنته فاطمة تحشر عليها .

ثم استأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدئل ليدلّهما على الطريق للمدينة ؛ وكان على دين قريش ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعدها غار جبل ثور بعد ثلاث ليال أن يأتي بالراحتين صباح الليلة الثالثة ، فمكث ﷺ في بيت أبي بكر إلى الليلة القابلة ، فخرجا إلى طرف الغار ، فمشى ﷺ ليلته على طرف أصابعه حتى حفيت رجلاه . إلى أن قالوا : ولما دخل رسول الله ﷺ الغار ، أمر الله شجرة - وهي التي يقال لها القتاد ، وقيل : أم غيلان - فنبتت في وجه الغار ، فسترته بفروعها (٥) .

(١) في النسخة : مضى قسمة .

(٢) في النسخة : اجتمع .

(٣) يس : ٣٦ / ١ - ٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣١ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣٢ .

وقيل : إنه ﷺ دعا تلك الليلة شجرة كانت أمام الغار ، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار ، وكانت مثل قامة الإنسان ^(١) .

وقيل : إنه ﷺ مرّ على ثمامة - وهي شجرة صغيرة ضعيفة - فأمر أبا بكر أن يأخذها معه ، فلما صار إلى باب الغار أمره أن يجعلها على باب الغار ، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجا متراكبا كنسج أربعين سنة ^(٢) .

فلما فقد المشركون رسول الله ﷺ شقّ عليهم وخافوا ، وطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها ، وبعثوا القافة في كلّ وجه ليقفوا أثره ، فوجد الذي ذهب إلى جبل ثور أثره انتهى إلى الغار ، فقال : هاهنا انقطع الأثر ، ولا أدري ذهب يمينا أو شمالا ، أو صعد على الجبل ، فأقبل فتيان قريش من كلّ بطن بعضيهم وسيوفهم ، فلما انتهوا إلى الغار قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال اميّة بن خلف : ما أرى أنّه أتى الغار ، إنّ عليه لعنكبوتا كان قبل ميلاد محمد ، ولو دخل فيه لما نسج العنكبوت ، وعند ما حاموا حول الغار حزن أبو بكر خوفا على رسول الله ^(٣) .

أقول : لم يكن له بحال الخوف على رسول الله ﷺ إن كان مؤمنا برسالته وصدق أخباره ، مع مشاهدته المعجزات العظيمة منه ؛ كمجيء الشجر على باب الغار ، ونسج العنكبوت عليه ، بل إنّما كان خوفه دليلا على عدم إيمانه بالرسول ، وحمله معجزاته على السحر ، وعليه كان خوفه على نفسه ، بحيث كاد أن يعلو صوته ويطلع المشركون على كون الرسول في الغار ، فنصر الله رسوله.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ والمشركون على بابه ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ الرسول ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ والذي معه فيه وهو أبو بكر : ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ولا تحف ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بحفظه وعونه ﴿مَعَنَا﴾

وإنّما قال : ﴿مَعَنَا﴾ ولم يقل : « معي » لعلمه بعدم سكون قلبه بقوله : « إنّ الله معي » ، ولو كان خوفه على الرسول ﷺ لكفى في زواله قوله : « إنّ الله معي » ، كما أنّه كفى في تسكين قلب عليّ ؑ حين نومه في فراش الرسول أنّه ﷺ بشره بسلامة نفسه.

عن الباقر ؑ : « أنّ رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبي بكر في الغار : اسكن ، فإنّ الله معنا وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن ، فلما رأى رسول الله ﷺ حاله قال له : أتريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدّثون ، وأريك جعفرا وأصحابه في البحر يغوصون ؟ قال : نعم ، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه ، فنظر إلى الأنصار يتحدّثون ، وإلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون » .
الخبر ^(٤) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣٣ ، وفيه : أربع سنين .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٣٤ .

(٤) الكافي ٨ : ٢٦٢ / ٣٧٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٤ .

في استدلال العامة على فضيلة أبي بكر وردّه

ثم أعلم أنّه استدلت العامة بهذه الآية على فضيلة أبي بكر ، وأن إيمانه كان حقيقياً بوجوه ضعيفة نقلها الفخر الرازي (١) :

الأول : أنّه ﷺ إنما ذهب إلى الغار لأجل أنّه كان يخاف الكفار من أن يقدموا على قتله ، فلولا أنّه كان قاطعاً على باطن أبي بكر بأنّه كان من المؤمنين المحقّقين الصادقين الصديقين لما أصبح نفسه في ذلك الموضع ؛ لأنّه لو جوّز أن يكون باطنه بخلاف ظاهره لخافه من أن يدلّ عليه أعداءه ، وأيضاً لخافه من أن يقدم على قتله (٢) .

وفيه : أنّه يمكن أن النبيّ ﷺ كان قاطعاً بأنّه لو لم يصحبه معه مع استدعائه المصاحبة كان يفسد في أمره ، وكان عالماً بأنّه يحفظه من أعماله السيئة ، ومن أن يخبر الكفار بمكانه إذا صحبه ، مع علمه ﷺ بعدم قدرته مع ضعف بدنه وقلبه على الإساءة إليه وإصابته بمكروه.

الثاني : أن الهجرة كانت (٣) بأمر الله ، وكان في خدمة رسول الله ﷺ . جماعة من المؤمنين المخلصين ، وكانوا في النسب إلى شجرة رسول الله ﷺ أقرب من أبي بكر ، فلولا أنّ الله أمره بأن يستصحب أبا بكر في تلك القضية الهائلة لما كان يستصحبه ، ولا يخصّه بهذه الصّحبة ، وتخصيص الله إيّاه بهذا التشريف دلّ على منصب عال له في الدين (٤) .

وفيه : أنّ صريح روايتهم أنّه حين ملاقاته النبيّ واطّلاعه على هجرته ، التمس منه الصّحبة ، فأجابته النبيّ إليها ، ولو كان استصحابه بأمر الله لبشّره النبيّ به في بدو ملاقاته ، مع أنّه يمكن أنّ الله أمر النبيّ باستصحابه خاصّة لحكم ؛ منها أنّه لو لم يستصحبه وأبقاه في مكّة ، لم يكن على إسلامه الظاهري ؛ لأنّه كان منه على حرف ، فاقتضت الحكمة حفظ إسلامه ليقضي [الله] أمراً كان مفعولاً .

الثالث : أنّ كلّ من سوى أبي بكر فارقوا رسول الله ﷺ ، أمّا هو فما سبق رسول الله كغيره ، بل صبر على مؤانسته وملازمته وخدمته ، عند هذا الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد (٥) .

وفيه : أنّ المراد من الخوف الشديد الذي لم يبق معه أحد ، هو الحاصل من اتّفاق قريش على قتله في دار الندوة ، واجتماعهم على باب داره ، لذلك فالظاهر أنّه لم يطّلع عليه أحد من الأصحاب حتّى أبي بكر ؛ لأن النبيّ ﷺ اطّلع عليه في مساء ذلك اليوم بإخبار جبرئيل ، ولم يكن أبو بكر في ملازمته وخدمته ، بل ذهب النبيّ - على ما رووه - إلى بيت أبي بكر في قرب من نصف الليل ، بعد أن أمر عليّاً عليه السلام بالمبيت على فراشه . وعلى صدق الرواية لعلّه كان ذهابه إلى بيته لأجل شرائه ناقته

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٦٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٦٣ .

(٣) في النسخة : كان .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٦ : ٦٣ .

والاختفاء عنده.

الرابع : أنه تعالى سَمَّاهُ ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ فجعله ثاني محمد ، حال كونهما في الغار ^(١) .
وفيه : أنَّ المراد ببيان أنَّ الله نصر النبي ﷺ بطريق خارق للعادة ، حيث أخرجهم من بين أظهر الكفار ولم يكن معه إلا رجل واحد وكان النبي ﷺ ثانيه . وعليه ،
فلا شبهة في أنَّ المراد من ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ الثاني في العدد لا الثاني في الفضيلة والرتبة والمنزلة عند الله .

ولعمري إنَّ هذا في الوضوح بمكان لا يخفى على أحد حتَّى الأحق العبي ، فكيف بالفاضل الزكي ؟
والعجب من الفخر وأضرابه أنهم تخيلوا أنَّ المراد الثاني في المنزلة ، مع أنهم قالوا : إذا حضر اثنان يقال لكل واحد أنه ثاني اثنين ، أي هو أحدهما .

ثمَّ قال الفخر : والعلماء أثبتوا أنَّ أبا بكر كان ثاني محمد ﷺ في أكثر المناصب الدينية ، فإنَّه
ﷺ لما أرسل إلى الخلق وعرض الإسلام على أبي بكر آمن به أبو بكر ، ثمَّ ذهب وعرض الإسلام على
طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة آخرين من أجلة الصحابة ، والكل آمنوا على يديه ، ثمَّ إنَّه جاء
بهم إلى رسول الله بعد أيام قلائل ، فكان هو ثاني اثنين في الدَّعوة إلى الله ^(٢) .

أقول فيه : أولاً : لا نسلم أنه آمن بدعوته [أحد] إلا قليل ممَّن كان إيمانه كإيمانه ؛ كطلحة
الذي قال : إنَّ محمداً يحرم علينا نساءه ويتزوج هو بنسائنا ، لئن أمات الله محمداً لنركضنَّ بين خلاخيل
نسائه ، كما ركض بين خلاخيل نسائنا ^(٣) . وكعثمان الذي ملأت مطاعنه الدفاتر .

وثانياً : كان جعفر بن أبي طالب أولى منه بأن يكون ثاني اثنين محمد صلى الله عليه وآله في
الدَّعوة ، حيث إنَّه هاجر إلى الحبشة وآمن بدعوته النجاشي وجماعة كثيرة .
ثمَّ قال : وأيضاً كلِّما وقف رسول الله ﷺ في غزوة ، كان أبو بكر يقف في خدمته ولا يفارقه ،
فكان ثاني اثنين في مجلسه ^(٤) .

أقول فيه : إنَّ وقوفه عند رسول الله ﷺ في الغزوات كان لجنبه وضعف قلبه ، وعدم كونه من
رجال الحرب وبأذلا مهجته للنبي ﷺ ، ولذا لم يكن ممَّن بايع رسول الله ﷺ على الموت في غزوة احد
، مع كونه عنده ﷺ .

ثمَّ قال : ولما مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة النَّاس في الصلاة ، فكان ثاني اثنين ^(٥) .
أقول : العجب ممَّن لا يستحي من القول الباطل ، كيف لم يقل إنَّه أقامه رسول الله ﷺ مقامه

في

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٦٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٦٤ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ١٩٥ ، بحار الأنوار ١٧ : ٢٧ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٦ : ٦٤ .

الإمامة ، ليثبت له الفضل ؟ فإنّ قيامه مقامه في الإمامة بغير إذن الرسول لا فضل فيه ، مع توهم التّاس أنّه أرسله الرسول ﷺ للإمامة ، بل هو غصب لمقامه وجرأة عليه ﷺ ، كما أنّه جلس مجلسه وغصب محرابه ومنبره وخلافته.

ثمّ قال الفخر : وطعن بعض الحمقى من الرّوافض في هذا الوجه ، وقال : كونه ثاني اثنين للرسول لا يكون أعظم من كون الله تعالى رابعا لكلّ ثلاثة في قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾^(١) ، ثمّ أنّ هذا الحكم عام في حقّ الكافر والمؤمن ، فلمّا لم يكن هذا المعنى من الله تعالى دالّا على فضيلة الإنسان ، فلاّن لا يدلّ من النّبي ﷺ على فضيلة الإنسان كان أولى.

والجواب : أنّ هذا تعسف بارز ، لأنّ المراد هناك : كونه تعالى مع الكلّ بالعلم والتّدبير ، وكونه مطلّعا على ضمير كلّ أحد ، أما هاهنا فالمراد بقوله تعالى : ﴿ثَانِيَانِ﴾ تخصيصه بهذه الصّفة في معرض التعظيم ، وأيضا قد دلّنا بالوجوه الثلاثة المتقدّمة ، على أنّ كونه معه في هذا الموضع ، دليل قاطع على أنّه ﷺ كان قاطعا بأنّ باطنه كظاهره ، فأين أحد الجانبين من الآخر^(٢) .

أقول فيه : إنّّه قد بيّنا أن المراد من كون النّبي ﷺ ﴿ثَانِيَانِ﴾ كونه أحد الرّجلين ، ولا دلالة له على أنّ أبي بكر ثاني النّبي وتاليه في الفضيلة والمنزلة عند الله ، وإنّما كان سوق الكلام في بيان عظمة النّبي وأنّ الله ينصره ولو لم يكن معه أحد ؛ كما نصره يوم الغار ولم يكن معه إلّا رجل كان وجوده كعدمه ، فأين هذا من بيان الفضيلة لأبي بكر ؟ وقد أوضحنا أنّ الوجوه الثلاثة التي ذكرها من التّرهات التي لا تصدر من العقلاء.

ولعمري ، إنّ الاعتماد عليها في إثبات الفضيلة لمن له شائبة الفضل من أقوى الشّواهد على غاية الحمق ، بل الآية دالّة على عدم فضيلة لأبي بكر ، وكونه ساقطا من نظر الرّحمة حيث خصّ سبحانه النّبي بنزول السّكينة والتأييد بالملائكة بقوله : ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ ورحمته الخاصّة التي توجب اطمئنان قلب نبيّه ﷺ عليه ﷺ دون صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ وقومه في بدر وغيره من المواطن ﴿يَجْنُودُ﴾ من الملائكة لإعانتته على أعدائه ، وأنتم ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾

عن الرضا عليه السلام^(٣) : [قيل له] : إثمّ يحتجّون علينا بقول الله : ﴿ثَانِيَانِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [فقال عليه السلام] : « وما لهم في ذلك من حجة ، فو الله لقد قال الله : ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وما

(١) المجادلة : ٥٨ / ٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٦٤ .

(٣) في النسخة : عن الصادق عليه السلام .

ذكره - يعني : أبا بكر - فيها بخير . قيل : هكذا تقرأونها ؟ قال : « هكذا قرأتها » ^(١) .
وعن الباقر عليه السلام ، « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ » قال : « ألا ترى أنّ السكينة [إنما] نزلت
على رسوله » ^(٢) .

أقول : التّوأيان محمولتان على إرادة بيان مرجع ضمير ﴿عَلَيْهِ﴾ لا بيان أنّه كانت في الآية ﴿على
رَسُولِهِ﴾ بدل ﴿عَلَيْهِ﴾ فحرّفت .

ثمّ بيّن سبحانه نتيجة نصرته لرسوله بقوله : ﴿وَجَعَلَ﴾ الله بقدرته الكاملة ﴿كَلِمَةً﴾ الشّرك التي
قالها ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هي ﴿السُّفْلَى﴾ والدّنيا أبداً إلى آخر الدّنيا ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ وهي توحيده ، ورسالة
رسوله ﷺ ، وصحّة دينه ﴿هِيَ﴾ بالخصوص الكلمة ﴿الْعُلْيَا﴾ والأقوى بحيث لا تعلو عليها كلمة باطل
﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره ، وقادر على اضمحلال الباطل وتحلية الحقّ ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وقضائه .
﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

ثمّ أكّد سبحانه الأمر بالجهاد بقوله : ﴿انْفِرُوا﴾ أيّها المؤمنون ، واخرجوا إلى الجهاد جميعاً ، حال
كونكم ﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ وركبانا ومشاة ، أو شبابا وشيوخا ، أو أغنياء وفقراء ، أو أصحّاء ومرضى ، أو
نشّاطا وغير نشّاط ، أو عزّابا ومتأهلين ، أو مقلّين لسلاح أو مكثّرين . وقيل يعني : على كلّ حال ^(٣) -
﴿وَجَاهِدُوا﴾ الكفار ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ وابدلوها ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ونصرة دينه ﴿ذَلِكَ﴾ الجهاد وبذل
الأموال والأنفس ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وأنفع في الدّنيا والآخرة من تركه والاستراحة والاشتغال بلدّات الدّنيا ﴿إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عواقب الامور ونتائج الأعمال ، وتدركون الخير والتّفع .

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ
وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢)

ثمّ أنّه تعالى بعد التّرغيبات الكثيرة إلى الجهاد ، والتّهديد على التخلّف عنه ، وبيّح المتخلّفين عنه

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٣٢ / ١٨٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٣٣ / ١٨٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٦٧ .

والمبتاطئين فيه بقوله : ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعيتم ^(١) إليه من غزوة تبوك ﴿عَرَضًا﴾ وغنما من أموال الدنيا ﴿قَرِيبًا﴾ إليهم ، وسهلا عليهم ﴿وَوُ﴾ كان ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ ومتوسّطا لا تعب فيه ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ فيه ، وأطاعوا أمرك به طمعا في الغنيمة ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ﴾ مسافة تبوك وكثرت ﴿عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ والكلفة ، ولذا يتخلّفون عنك ، ويتقاعدون فيه ﴿وَسِيحِلُّونَ بِاللَّهِ﴾ اعتذارا إليك بعد رجوعك إليهم فاتحا ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ وأمكننا الخروج من حيث التهيئة وصحة البدن ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ إلى السفر والغزو ، وما تخلّفنا عنكم . وهم بتخلّفهم عن الغزو ، وعصيانهم الرسول ﷺ ، وحلفهم الكاذب ، ويمينهم الفاجرة ﴿يُهْلِكُونُ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالعذاب الدنيوي والاخروي ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في دعوى عدم استطاعتهم للخروج .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ﴾

الكاذبين (٤٣)

ثم لما كان النبي ﷺ مأمورا بالرفق والمداواة مع البرّ والفاجر ، فلهذا أذن للمنافقين في التخلّف رفقا ومداواة لهم وتقبّلا لأعتذارهم ، أظهر الله سبحانه غاية الغضب عليهم بتوجيه العتاب إلى نبيّه ﷺ على الإذن ، بعد المبالغة في تعظيم نبيّه ﷺ أولا بقوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ حيث إنّ هذا الدّعاء - على ما قيل - كان شائعا في مقام تعظيم الأعاضم والملوك . ثم وجه العتاب بقوله : ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلّف عنك في هذا الغزو ، ولم تتأّن في الإذن ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ﴾ المعتذرون ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في اعتذارهم من عدم خروجهم إلى السفر بعدم استطاعتهم للخروج من حيث المال والبدن ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ منهم في اعتذارهم ، فإنّك لو توقّفت في إذّهم لعلمت أن جميعهم كانوا كاذبين ، وافتضح كلّهم عندك بالتناق. .

عن الباقر عليه السلام : « يقول لتعرف أهل العذر ^(٢) ، والذين جلسوا بغير عذر » ^(٣) .

وفي (الجوامع) : هذا من لطيف المعاتبة الذي بدأه بالعفو قبل العتاب ، ويجوز العتاب من الله فيما غيره [منه] أولى لا سيّما للأنبياء ، وليس كما قال جار الله من أنّه كناية عن الجناية ، وحاشا سيّد الأنبياء وخير بني حوّاء من أن ينسب إليه الجناية ، انتهى ^(٤) .

ومن التفسير الذي ذكرنا يعلم أنّه لا يحتاج المقام إلى الالتزام بصدور خلاف الأولى منه

صلى الله عليه وآله

(١) في النسخة : ما دعوتكم .

(٢) في تفسير العياشي والصافي : العذر .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٥ .

(٤) جوامع الجامع : ١٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٥ .

واستحقاقه العتاب عليه ، بل الاستفهام كناية عن بيان عدم قابلية ^(١) هؤلاء للرفق بهم ، وإن كان من شأن النبي هذا الرفق .

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾

ثم نبه سبحانه على علامة الخلوص بقوله : ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم وخلوص النية ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وليس من دأبهم الاستحالة في ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ الكفار ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بل يبادرون إلى الجهاد شوقا إليه بلا انتظار لإذنها ، فضلا عن أن يستأذنوك في التخلف عنه . وقيل : إنَّ المعنى : ليس من عادتهم أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ومطلع على أحوالهم وضمايرهم ، ويجازيهم بأحسن الجزاء .

قال الفخر الرازي : كان الأكابر من الصحابة لا يستأذنون رسول الله ﷺ في الجهاد ، وكانوا بحيث لو أمرهم رسول الله ﷺ بالقعود عنه لشق عليهم ذلك ، ألا ترى أنَّ علي بن أبي طالب لما أمره رسول الله ﷺ بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك ، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ : « أنت مَيِّ بمنزلة هارون من موسى » ؟ ^(٢)

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾

ثم بين سبحانه علامة التفاق بقوله : ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وخلجت للشك فيها لا للحزم بعدمها ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ وشكهم المستقر في قلوبهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ ويتحيرون . وإنما استعمل التردد في التحير ؛ لأنَّ عادة المتحير التردد .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « من تردد في الرب سبقه الأولون ، وأدركه الآخرون ، ووطئته سنايك الشياطين » ^(٣) .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ

(١) مراده عدم استحقاق .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٧٦ .

(٣) الخصال : ٢٣٣ / ٧٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٦ .

﴿أَفْعُدُوا مَعَ الْفَاعِدِينَ﴾ (٤٦)

ثم بين الله سبحانه عدم إرادة المنافقين المعتذرين من أول الأمر الخروج إلى تبوك بقوله : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك إلى تبوك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ وتهيأوا لسفرهم في وقته ﴿عُدَّةً﴾ واهبة ، عن ابن عباس : يريد الزاد والماء والراحلة ؛ لأن سفرهم بعيد وفي زمان شديد ، فتركهم العدة دليل على أنهم أرادوا التحلف^(١) ، ولو أراد الله خروجهم بالإرادة التكوينية ، لخرجوا وجاهدوا معكم ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ ونهضهم للخروج لما فيه من المفسد ﴿فَنَبَّطَهُمْ﴾ وحبسهم عن الخروج بإلقاء الجبن في قلوبهم ، والكسل عليهم ﴿وَقِيلَ﴾ لهم من قبل الرسول ﷺ : أيها المنافقون ﴿أَفْعُدُوا﴾ في أماكنكم ﴿مَعَ الْفَاعِدِينَ﴾ في بيوتهم من النساء والصبيان. وفيه غاية ذمهم بإلحاقهم بالعجزة.

والظاهر أن هذا القول هو إذهم الذي عاتب الله عليه بقوله : ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ وقيل : إن القائل هو الله ؛ لأنه كره انبعاثهم ، فنزل منزلة الأمر بالقعود^(٢) . وقيل : إن القائل بعضهم^(٣) ، وقيل : هو الشيطان بوسوسته^(٤) .

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾

﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

ثم شرح الله مفسد خروجهم بقوله : ﴿لَوْ خَرَجُوا﴾ هؤلاء المنافقون ﴿فِيكُمْ﴾ أيها المسلمون إلى الغزو ﴿مَا زَادُوكُمْ﴾ شيئا ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ وشرًا ومكرًا وخديعة ، أو غيًا أو اضطرابا في الرأي ، بالتجيبين وتحويل أمر الكفار ﴿وَلَأَوْضَعُوا﴾ ومشوا ﴿خِلَالَكُمْ﴾ وفيما بينكم بالنميمة^(٥) ، أو أسرعوا ركائبهم بينكم بإلقاء العداوة ، وما يوجب الانهزام فيكم ، وهم ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ ويطلبون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ واختلاف الكلمة ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ﴾ ونمامون وجواسيس ﴿لَهُمْ﴾ لينقلوا إليهم ما سمعوه منكم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ ومحيط ﴿بِالظَّالِمِينَ﴾ ظواهرهم وبواطنهم ، أقوالهم وأعمالهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾

﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

ثم أخبر الله بأن التفتين هو دأبهم السابق بقوله : ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا﴾ وطلبوا ﴿الْفِتْنَةَ﴾ والاختلاف بين

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٧٨ .

(٢) (٤٢) تفسير الرازي ١٦ : ٨٠ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٧١ .

(٥) في النسخة : بالنمام .

أصحابك ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ قيل : هو صدّ النَّاس عن الدّخول في الإسلام ^(١) . وقيل : هو ما فعله عبد الله بن أبيّ يوم احد من انصرافه مع أصحابه عن النبي ﷺ ^(٢) ، وقيل : هو أن اثني عشر من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا به ، فأخبره الله بذلك ^(٣) ، وقيل : هو إلقاءهم شيئاً بين قوائم ناقة النبي بالليل حتّى تنفر وتلقي النبي ﷺ عن ظهرها ^(٤) وقيل : هو قولهم يوم الأحزاب : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ ^(٥) والحقّ أنّ الكلّ داخل في الفتنة.

﴿وَقَلِّبُوا لَكُمُ الْأُمُورَ﴾ ودبّروا في إطفاء نورك الحيل ، وكانوا مصرّين ومستمرّين على ذلك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ من التّصر والتأييد لك ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ ونشر دينه وعلا شرفه ، على رغم منهم ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ لذلك.

وحاصل المراد : أنّه لم يؤثّر مكرهم وسعيهم في إثارة الفتنة شيئاً ، بل كلّما مكروا ردّ الله مكرهم في نحرهم ، وقلب مرادهم ، وأتى بضدّ مقصودهم ، وكذلك يكون فيما بعد. وفيه تسلية النبي ﷺ وأصحابه.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ

بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

ثمّ بالغ سبحانه في ذمّهم بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ لك يا رسول الله : ﴿اِئْذَنْ لِي﴾ في الإقامة في البلد ، والعود عن السّفر ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ولا تبتلني بالوقوع في عصيانك بالقعود بغير إذنك ، أو لا تهلكني بسبب السّفر في شدّة الحرّ مع ضعف الحال وقلة الطّاقة ، أو لا تبتلني بتلف العيال والمال. قيل : إنّ قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أنّي مغرم بالنساء ، فلا تفتني ببنات الأصفر - يعني : نساء الرّوم - لكّني اعينك بمالي فاتركني ^(٦) .

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله : ﴿أَلَا﴾ تنبّها أيّها المسلمون أنّهم ﴿فِي الْفِتْنَةِ﴾ والشرّ من الكفر بالله ورسوله وعصيانهما ﴿سَقَطُوا﴾ وفي الخوف من المسلمين والفضيحة بينهم بظهور التّفاق والحرمان من السّعادات الدّنيويّة والاخرويّة وقعوا في الدّنيا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لإحاطة أسباب دخولها بهم في الدّنيا ، وهؤلاء المنافقون منهم.

القمّي : لقي رسول الله ﷺ الجدّ بن قيس فقال له : يا أبا وهب ، ألا تنفر معنا في هذه الغزوة ، لعلّك ،

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٨٣ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٦ : ٨٣ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٧١ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٤٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤٤٣ ، والآية من سورة الأحزاب : ٣٣ / ١٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٦ : ٨٣ .

أن تحتفد من بنات الأصفر^(١) ؟ فقال : يا رسول الله ، والله إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشدّ عجباً بالنساء مني ، وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر ؛ فلا تفتني ، وأذن لي أن أقيم. وقال لجماعة من قومه : لا تخرجوا في الحرّ ، فقال ابنه : تردّ على رسول الله وتقول ما تقول ، ثم تقول لقومك لا تنفروا في الحرّ ! والله لينزلن الله في هذا قرآنا يقرأه الناس إلى يوم القيامة ، فأنزل الله على رسوله ﷺ في ذلك : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ الآية. ثم قال الجدّ بن قيس : أيطمع محمد أن حرب الرّوم كحرب غيرهم ، لا يرجع من هؤلاء أحد أبدا^(٢) .

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ

وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)﴾

ثم بين الله شدّة عداوتهم للرّسول ، وحسدهم عليه بقوله : ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا محمد في غزواتك وغيرها ﴿حَسَنَةً﴾ وفائدة من ظفر وغنيمة وغيرها ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتحزنهم ، ذلك لفرط عداوتهم وحسدهم عليك ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في غزواتك ﴿مُصِيبَةً﴾ من جراحة ، وشدة ، وقتل أصحابك كيوم احد ﴿يَقُولُوا﴾ فرحا وشكرا : نحن بحسن آرائنا ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ وراعينا حزمنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ باعتزالنا في تلك الواقعة فسلمنا ممّا أصابهم ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ ويعرضوا عن مجلس أصحابهم إلى أهاليهم ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بمصائبك وسلامة أنفسهم بقعودهم عن الحرب.

القمّي : عن الباقر عليه السلام : « أمّا الحسنة فالغنيمة والعافية ، وأمّا المصيبة فالبلاء والشدة »^(٣) .

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ

هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ

بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيِدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥١) و (٥٢)﴾

ثم أمر الله رسوله ﷺ بردهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم : ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ شيء من خير أو شرّ ، أو رخاء أو شدّة أبدا ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح وقدره ﴿لَنَا﴾ فإنه ما من حادثة إلّا وهي منتهية إلى قضائه وقدره.

قيل : إنّ المراد : ما كتب الله لنا في عاقبة الأمر من الظفر والغلبة على الأعداء ، وإن أصابنا في

أول

(١) أي تخدم من بنات الروم بعد أسرهنّ.

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٧.

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٨.

الأمر شدة. فيكون فيه ردّ لفرحهم.

ثمّ قرّر ذلك بقوله : ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿مَوْلَانَا﴾ ومدبّر امورنا ، وحافظ صلاحنا ، واللّطيف بنا ، لا يريد إلّا ما هو خيرنا وصلاحنا.

ثمّ ذكر ما هو لازم معرفته بالولاية بقوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ خاصّة ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليعتمد العارفون في جميع امورهم علماً منهم بغاية فضله ، وسعة رحمته عليهم ، وعدم كون أحد وشيء من الموجودات منشأ خير أو شرّ.

روي أنّه « لا يكمل إيمان المرء حتّى يرى النّاس كأباعير » ^(١) .

ثمّ ردّهم ثانياً بقوله : ﴿فَأَن﴾ لهم يا محمّد : ﴿هَلْ تَرَبُّصُونَ﴾ وتنتظرون ﴿بِنَا﴾ أيّها المنافقون شيئاً ﴿إِلَّا إِحْدَى﴾ العاقبتين ﴿الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إمّا الثّواب العظيم المعدّ للشّهداء في الآخرة ، والأجر الجزيل على تحمّل الشّدائد إن صرنا مغلوبين ، وإمّا الغنيمة والشّوكة ورواج الإسلام مع الأجر إن صرنا غالبين ، ليس لكم أن تودّوا ^(٢) فينا غير العاقبتين المذكورتين ، وكلّ واحدة منهما في غاية الجلالة والرّفعة ﴿وَوَ﴾ إنّنا ﴿نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ ونتنظر في حقّكم إحدى العاقبتين السيّئتين إمّا ﴿أَن يُصِيبَكُمْ اللَّهُ﴾ في الدّنيا ﴿بِعَذَابٍ﴾ عظيم كائن ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ من الصّيحة والرّجفة والصّاعقة وغيرها ، كما أصاب من قبلكم من الامم الظّالمة المهلكة ﴿أَوْ﴾ عذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ من القتل والأسر ، فإذا كان كذلك ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا عاقبتنا وعاقبتكم ﴿إِنَّا﴾ أيضاً ﴿مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ذلك.

عن (النهج) و(الكافي) : عن أمير المؤمنين عليه السلام : « وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر إحدى الحسنين ؛ إمّا داعي الله ، فما عند الله خير له ، وإمّا رزق الله ، فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه » ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام ، ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ قال : « إمّا موت في طاعة الله ، أو إدراك ظهور الإمام ، (ونحن نترصد بهم) مع ما نحن فيه من الشّدّة (أن يصيبهم الله بعذاب من عنده) قال : هو المسخ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل ، قال [الله عزّ وجلّ] : ﴿فَتَرَبَّصُوا...﴾ قال : التّربص انتظار وقوع البلاء بأعدائهم » ^(٤) .

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّنْ يَتَقَبَّلَ مِنْكُمُ إِنَّكُم كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣)

(١) بحار الأنوار ٧٢ : ٣٠٤ / ٥١ . « نحوه » .

(٢) في النسخة : تتوددون.

(٣) نهج البلاغة : ٦٤ / ٢٣ ، الكافي ٥ : ٥٧ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٨ .

(٤) الكافي ٨ : ٢٨٦ / ٤٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٨ .

ثم لما بين الله أنّ المنافقين مستحقّين للعذاب ، وأنّ جهنم محيطة بهم ، بين أنّ نفقاتهم وصدقاتهم غير مقبولة عند الله ، وغير نافعة لهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقون : ﴿انْفِقُوا﴾ على الفقراء والمجاهدين إن شئتم ﴿طَوْعاً أَوْ﴾ إن شئتم ﴿كَرْهاً﴾ واعلموا أنّها على أيّ التقديرين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ عند الله ، ولن تنابوا عليها أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثمّ نبّه على العلة بقوله : ﴿إِنْكُمْ﴾ أيّها المنافقون ﴿كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن حدود الإسلام إلى الكفر.

عن ابن عباس : نزلت في الجّد بن قيس حين قال للنبيّ ﷺ : ائذن لي في القعود ، وهذا مالي اعينك به (١) .

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ

الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾

ثمّ بين سبحانه أنّ الفسق المانع عن قبول الصدقات هو البالغ حدّ الكفر بقوله : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ وحرّمهم من ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ ويتأبون عليها شيئاً ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وبتدين الإسلام ، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ جماعة أو فرادى ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ ومتشاقلون ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ أموالهم على الفقراء والمجاهدين ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ للإتفاق لعدم اعتقادهم النّفع فيهما ، وعدم خوفهم من العقاب على تركهما.

روي أن الجّد بن قيس تاب بعد ذلك من نفاقه ، وحسن حاله ، ومات في خلافة عثمان (٢) .

عن الصادق عليه السلام : « لا يضرّ مع الإيمان عمل ، ولا ينفع مع الكفر عمل ، ألا ترى أنّه تعالى قال : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ الآية ؟ » (٣) .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾

ثمّ بين سبحانه أنّ أموالهم وأولادهم مع أنّهما لا ينفعانهم في الدنيا ، يكونان وبالا عليهم واستدراجاً في الدنيا ، بقوله : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ ولا يحسن في نظرك ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ التي يظنون انتفاعهم بها ، فإنّه ليس الأمر كما يظنون ، بل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ أن يملئ لهم فيهما ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٨٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٤٤٨ .

(٣) الكافي ٢ : ٣٣٥ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٤٩ .

بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿﴾ أَمَا تَعَذَّبْهُمْ بِالْمَالِ فَبِسَبَبِ كَثْرَةِ التَّعَبِ فِي جَمْعِهَا وَحِفْظِهَا ، وَالْخَوْفِ مِنْ تَلْفِهَا ، وَالْحَزَنِ عَلَى ذَهَابِهَا ؛ وَبِالْأَوْلَادِ فَبِسَبَبِ الْإِبْتِلَاءِ بِنَفَقَتِهِمْ ، وَأَمْرَاضِهِمْ ، وَسُوءِ أَخْلَاقِهِمْ ، وَالْحَزَنِ عَلَى فِرَاقِهِمْ وَمَوْتِهِمْ ﴿﴾ لَأنَّ ﴿تَرْهَقَ﴾ وَتَخْرُجَ ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَبْدَانِهِمْ ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لَكُونِ اشْتِغَالِهِمْ بِمَا سَبَبَا لِعَفْلَتِهِمْ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَالْمَعَادِ .

روى بعض العامة : أَنَّهُ سَأَلَ مَعَاوِيَةَ امْرَأَةً كَانَتْ تَعْرِفُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ رَأَيْتِ عَلِيًّا ؟ قَالَتْ : كَانَ رَجُلٌ لَمْ يَبْطُرْهُ الْمَلِكُ ، وَلَمْ تَعْجِبْهُ النِّعْمَةُ ^(١) .

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ

مَلَجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٦) و (٥٧)

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ سَبْحَانَهُ شِدَّةَ نِفَاقِ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِظْهَارَهُمُ الْمَوَافَقَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْخُلَاصِ ^(٢) بِقَوْلِهِ : ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ نِفَاقًا وَكَذِبًا لَكُمْ ﴿إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ وَفِي زِمْرَتِكُمْ ، وَإِيمَانُهُمْ كِإِيمَانِكُمْ ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ وَمَنْ جَمَلْتُمْ لِكُفْرِهِمْ وَخَبِثَ ذَاتُهُمْ ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ وَيَخَافُونَ مِنْكُمْ ، وَلِذَا يَظْهَرُونَ الْإِسْلَامَ تَقِيَّةً ، وَيُؤَكِّدُونَ دَعْوَتَهُمُ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ الْكَافِرَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ غَايَةَ خَوْفِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿لَوْ﴾ كَانُوا ﴿يَجِدُونَ﴾ لَأَنْفُسَهُمْ ﴿مَلَجَأً﴾ وَحَصْنًا حَصِينًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ، وَيَتَحَصَّنُونَ بِهِ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴿أَوْ﴾ يَجِدُونَ ﴿مَغَارَاتٍ﴾ وَكُهُوفًا فِي الْجِبَالِ يَخْتَفُونَ فِيهَا ، وَيَسْتَتِرُونَ مِنْكُمْ ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وَنَقَبًا فِي الْأَرْضِ يَدْخُلُونَ فِيهِ ، أَوْ قَوْمًا يَدْخُلُونَ فِيهِمْ وَهُمْ يَحْفَظُونَهُمْ ، أَوْ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ .

وَعَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَسْرَابًا فِي الْأَرْضِ » ^(٣) ، وَعَنِ الْقَمِّيِّ : مَوْضَعًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ^(٤) .

﴿لَوَلُّوا﴾ وَفَرَّوْا ﴿إِلَيْهِ﴾ مِنْكُمْ فَرَقًا وَخَوْفًا ﴿وَهُمْ﴾ فِي فِرَارِهِمْ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ وَيَسْرِعُونَ إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَفَرُّوا مِنْكُمْ ، وَبَقُوا فِيكُمْ يَعَاشِرُونَكُمْ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ الْمَفْرَ ، وَلِذَا اضْطَرُّوا إِلَى التَّفَاقِ ، وَيَخْلِفُونَ كَذِبًا أَنَّهُمْ لَمِنْكُمْ لِيُؤْمِنُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَسْرِ ، وَأَمْوَالِهِمْ مِنَ النَّهْبِ ، وَلَوْ يَجِدُونَ لَأَنْفُسَهُمْ حِيلَةً غَيْرَ التَّفَاقِ لَمْ يَنَافِقُوا ، بَلْ أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ وَشَقَاقَهُمْ .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا

هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨)

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٥٠ .

(٢) في النسخة : الخُلَاصِينَ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٢٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٠ .

ثم بين سبحانه أنّ [ما] في بعضهم [من] الطمع في الغنائم والصدقات بعثهم إلى التفاف مضافا إلى الخوف ، بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ ﴾ ويعيبك ﴿ فِي ﴾ قسمة ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ ويطعون عليك بأهلك تجور فيها.

قيل : إنهم كانوا يقولون : إنّه ﷺ يؤثر بها أقاربه وأهل مودته ^(١) .

عن أبي سعيد الخدري : بينا رسول الله ﷺ يقسم مالا ، إذ جاءه المقداد بن ذي الخوصرة التميمي ؛ وهو حرقوص بن زهير ، أصل الخوارج ، فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إن لم أعدل ! « فنزلت الآية ^(٢) .

وعن الكلبي : قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول الله ﷺ : تزعم أنّ الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشاة ^(٣) . فقال رسول الله : « لا أبا لك ، أما كان موسى راعيا ، أما كان داود راعيا ؟ ! « فلمّا ذهب قال ﷺ : « احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون » ^(٤) .

وروي أنّه ﷺ قال لرجل من أصحابه : « ما علمك بفلان ؟ » فقال : ما لي به علم ، إلّا أنّك تدنيه في المجلس ، وتجزل له العطاء فقال ﷺ : « إنّه منافق أداري عن نفاقه وأخاف أن يفسد عليّ غيره » . فقال : لو أعطيت فلانا بعض ما تعطيه ؟ فقال ﷺ : « إنّه مؤمن أكله إلى إيمانه ، وأمّا هذا فمنافق أداريه خوف إفساده » ^(٥) .

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الباعث لهم على لمرّ الرسول ﷺ كثرة طمعهم ، بقوله : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا ﴾ قدر ما يريدون ويطعمون ﴿ رِضْوًا ﴾ بالقسمة واستحسنوها ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا ﴾ ذلك المقدار ، بل أقلّ ممّا طمعوا ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ القسمة ويغضبوا منها ^(٦) فورا ، بحيث لم يمكنهم التحمل والتأخير لما اجبلوا عليه من حبّ الدنيا والشه في تحصيلها.

عن القميّ : لما جاءت الصدقات جاء الأغنياء وظنّوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقسمها بينهم ، فلمّا وضعها في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه وقالوا : نحن الذين نقوم في الحرب ، وننفر معه ، ونقوّي أمره ، ثمّ يدفع الصدقات إلى الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئا ^(٧) .

عن الصادق عليه السلام : « أهل هذه الآية أكثر من ثلثي الناس » ^(٨) .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٩٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٩٧ .

(٣) في النسخة : وعاء الشاة .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٦ : ٩٧ .

(٦) في النسخة : يغضبونها .

(٧) تفسير القمي ١ : ٢٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٠ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٢٣٤ / ١٨٣٠ ، مجمع البيان ٥ : ٦٣ ، الكافي ٢ : ٣٠٢ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٠ .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

﴿وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)

ثم وبَّخهم الله سبحانه ولا مهم على سخطهم بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وطابت أنفسهم به وإن قلَّ ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكفى فضله وإحسانه إلينا في جميع الأوقات ، [سواء] كان لنا نصيب في الصدقات أو لم يكن ، وإن قلَّت قسمتنا في هذه الصدقات الحاضرة نرجو أنه ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ في قسمة أخرى ، ويعطينا ^(١) فيها أكثر ممَّا أعطيانا في هذه القسمة ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ومتوجَّهون ، ومنه طالبون أن يغنينا من فضله ، ويوسِّع علينا بجوده وكرمه ، لكان خيرا لهم وأقوم من لمرَّ الرسول والسَّخط عليه.

وفي تقريرين الله تعالى اسمه العظيم باسم رسوله في الموضعين ، دلالة على غاية تعظيم الرسول ﷺ ، وتنبيه على أنَّ ما يفعله إمَّا يكون بأمره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي

الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

في بيان مصارف الزكاة

ثم بيَّن الله سبحانه مصارف الصدقات لئلا يطعن على رسوله ﷺ في صرفها فيها بقوله : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ الواجبة من قبل الله على عباده ، الموسومة بالزكاة تكون ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ وقد مرَّ تفسيرهما ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ والسَّاعِينَ لجمعها وحملها وحفظها ، [سواء] كانوا أغنياء أو فقراء ، من بني هاشم أو من غيرهم ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ من الكفار ﴿وَوُ﴾ للصَّرف ﴿فِي﴾ فكَّ ﴿الرِّقَابِ﴾ وتحرير المماليك ؛ بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء مال الكتابة ﴿وَوُ﴾ في ﴿الْغَارِمِينَ﴾ والمديونين ؛ بأن تؤدَّى ديونهم إذا لم يقدرُوا على أدائها ، ولم يدن ^(٢) في المعصية ﴿وَوُ﴾ يصرف ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ووجوه الخير ؛ من تهيئة السلاح لجهاد ، والمصارف اللازمة لتجهيز الجيش ، وعمارة الطرق والشوارع والقناطر والحمامات العامة والرباطات ^(٣) وأضرابها ، وتعظيم شعائر الله ﴿وَوُ﴾ في ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد مضى تفسيره.

وفي العدول في الأصناف الأربعة الأخيرة من (اللام) إلى (في) دلالة على عدم صيرورة الزكاة

ملكا

(١) في النسخة : ويعطينا.

(٢) كذا ، والظاهر : يستدن.

(٣) يريد به رباط الخيل ومرابطها في الثغور ممَّا يلي العدو.

للأربعة الأخيرة.

ثم أكد الله سبحانه وجوب الزكاة وصرفها في المصارف الثمانية دون غيرها بقوله : ﴿فَرِيضَةً﴾ عظمة كائنة ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿اللَّهِ﴾ تعالى فالتزموا بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأحكامه.

القَمِّي : عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن المصارف الثمانية ، فقال : « الفقراء : هم الذين لا يسألون ، وعليهم مؤونات من عيالهم ، والدليل على أنهم هم الذين لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ^(١) ، والمساكين : هم أهل الزمانة ^(٢) من العميان والعرجان والمجذومين ، وجميع أصناف الزمناة من الرجال والنساء والصبيان ، والعاملين عليها : هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها حتى يؤدوها إلى من يقسمها ، والمؤلفة قلوبهم : قوم وحدوا الله ولم تدخل المعرفة في قلوبهم أن محمدا رسول الله ، [فكان رسول الله ﷺ] يتألفهم ويعلمهم كيما يعرفون ، فجعل الله لهم نصيبا في الصدقات لكي يعرفوا ويرغبوا ، وفي الرقاب : قوم قد لزمهم كفارات في قتل الخطأ ، وفي الظهار ، وقتل الصيد في الحرم ، وفي الأيمان ، وليس عندهم ما يكفرون وهم مؤمنون ، فجعل الله لهم سهما في الصدقات ليكفر عنهم ، و « الغارمين » قوم قد وقعت عليهم ديون أنفقوها في طاعة الله من غير إسراف ، فيجب على الإمام أن يقضي ذلك عنهم ، ويكفيهم من مال الصدقات ، و « في سبيل الله » قوم يخرجون في الجهاد وليس عندهم ما ينفقون ، أو قوم من المسلمين ليس عندهم ما يحتاجون به ، أو في جميع سبل الخير ، فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصدقات حتى يتقوا به على الحج والجهاد و « ابن السبيل » أبناء الطريق الذين يكونون في الأسفار في طاعة الله فيقطع عليهم ويذهب مالهم ، فعلى الإمام أن يردهم إلى أوطانهم من مال الصدقات. والصدقات تنجز في ثمانية أجزاء فيعطى كل إنسان من هذه الثمانية على قدر ما يحتاجون إليه بلا إسراف ولا تقتير ، يقوم في ذلك الإمام يعمل بما فيه الصلاح ^(٣) .

أقول : الظاهر أن تجزئة الزكاة ثمانية أجزاء وظيفة الإمام عند بسط يده.

وعن الباقر عليه السلام : « ما كانت المؤلفة قلوبهم قط أكثر منهم اليوم ، وهم قوم وحدوا الله وقد خرجوا من الشرك ، ولم تدخل معرفة محمد ﷺ قلوبهم وما جاء به ، فتألفهم رسول الله ﷺ وتألفهم المؤمنون بعد رسول الله ﷺ لكيما يعرفوا » ^(٤) .

(١) البقرة : ٢ / ٢٧٣ .

(٢) الزمانة : الأمراض المزمنة .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٥١ ، تفسير الصافي ١ : ٢٩٨ .

(٤) الكافي ٢ : ٣٠٢ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٢ .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدى بعضها ، قال : « يؤدى عنه من مال الصدقة ، إن الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ »^(١) .

وفي (الكافي) : عنه عليه السلام ، قال : « قال رسول الله : أيما مسلم أو مؤمن مات وترك ديناً لم يكن في فساد ولا إسراف ، فعلى الإمام أن يقضيه ، فإن لم يقضه فعليه إثم ذلك ، إن الله يقول : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ الآية ، فهو من الغارمين ، وله سهم عند الإمام ، فإن حبسه فإثمه عليه »^(٢) .

وفيه ؛ عنه عليه السلام : « كان رسول الله ﷺ يقسم صدقة أهل البوادي في أهل البوادي ، وصدقة أهل الحضر في أهل الحضر ، ولا يقسمها بينهم بالسوية وإنما يقسمها على قدر ما يحضرها منهم وما يرى ، وليس في ذلك شيء موقت موظف »^(٣) .

وعنه عليه السلام : « سهم المؤلف قلوبهم وسهم الرقاب عامم والباقي خاص » . يعني : خاص بالعارف لا يعطى غيره^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « لا تحل الصدقة لبني هاشم إلا في وجهين ؛ إن كانوا عطاشى فأصابوا ماء فشربوا ، وصدقة بعضهم على بعض »^(٥) .

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦١) و (٦٢)

ثم ذم الله تعالى المنافقين بإيذاء النبي ﷺ وإساءة القول إليه ؛ بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ﴾ وبعض المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بأقوالهم الشنيعة ؛ ومنها أنهم يعيبون عليه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في شأنه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ وقليل الذكاء ، سريع الاعتزاز بكل ما يسمع .

روي أنّ رجلاً منهم قال لقومه : إن كان ما يقوله محمد حقاً ، فنحن شرّ من الحمير ، فسمعها ابن امرأته فقال : والله إنّه لحقّ وإنك شرّ من حمارك . ثم بلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال بعضهم : إنما محمد اذن إن لقيته وحلفت له ليصدقنك ، فنزلت^(٦) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٣٩ / ١٨٤٤ ، من لا يحضره الفقيه ٣ : ٧٤ / ٢٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٢ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٣٩ / ١٨٤٦ ، الكافي ١ : ٣٣٦ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٢ .

(٣) الكافي ٥ : ٢٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٢ .

(٤) الكافي ٣ : ٤٩٦ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٣ .

(٥) الخصال : ٦٢ / ٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٦ : ١١٦ .

وعن ابن عباس : أنَّ جماعة من المنافقين ذكروا النبي ﷺ بما لا ينبغي من القول ، فقال بعضهم : لا تفعلوا ، فإنَّا نخاف أن يبلغه ما نقول ، فقال الجلاس بن سويد : بل نقول ما شئنا ، ثم نذهب إليه ونخلف أئاماً ما قلنا فيقبل قولنا ، وإنما محمد اذن سامعة. فنزلت (١) .

وعن القمي قال : كان سبب نزولها أنَّ عبد الله بن نفيل كان منافقاً ، وكان يقعد إلى جنب رسول الله ﷺ فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين وينم عليه ، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنَّ رجلاً من المنافقين ينم عليك وينقل حديثك إلى المنافقين ، فقال رسول الله ﷺ : « من هو ؟ » فقال : الرجل الأسود ، الكثير شعر رأسه ، ينظر بعينين كأثهما قدرا ، وينطق بلسانه الشيطان (٢) ، فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره ، فحلف أنَّه لم يفعل ، فقال رسول الله ﷺ : « قد قبلت منك فلا تقعد » فرجع إلى أصحابه فقال : إنَّ محمداً اذن ، أخبره الله أيَّ أئمَّ عليه وأنقل أخباره فقبل ، وأخبرته أيَّ لم أفعل فقبل. فأنزل الله على نبيه [الآية] ، الخبر (٣) .

قيل : أظهر الله للمنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يسترونها لتكون حجة للرسول ، ولينزعروا ، فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ (٤) إلى غير ذلك من الإخبار عن الغيوب ، وفي كل ذلك دلائل على كونه نبياً حقاً (٥) .

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بردهم بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : نعم ، هو اذن ، ولكن ﴿ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فإنَّ من يسمع العذر فيقبله خير ممَّن لا يقبله ؛ لأنَّ قبول العذر من الكرم وحسن الخلق ، فحمل سبحانه كلام الناس الصادر منهم على جهة الذم على المدح.

ثم فسّر الله سبحانه اذن الخير بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ ويصدق وحدانيته وجميع ما أنزل منه إليه ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ويصدقهم فيما يقولون ، لكونه نافعاً لهم حيث يقبل معاذيرهم ، ويتغافل عن جهالاتهم ، ولا يؤاخذهم بما يعلم.

القمي : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يصدق الله فيما يقوله له ، ويصدقك فيما تعتذر إليه في الظاهر دون الباطن ، وقوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : للمقرّين بالإيمان من غير اعتقاد (٦) .

عن الصادق عليه السلام : « يعني يصدق الله ويصدق المؤمنين ؛ لأنَّه كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين » (٧) . ﴿ وَهُوَ ﴾ هو ﴿ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ في الظاهر ، وإن كانوا كافرين في الباطن ، حيث لا يكشف

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١١٦ .

(٢) في المصدر : بلسان شيطان.

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٣ .

(٤) التوبة : ٩ / ٧٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١١٦ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٣ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٤١ / ١٨٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٤ .

أسرارهم ولا يهتك أستارهم رفقا بهم وترحمًا عليهم.

ثم هددهم الله سبحانه بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

ثم قيل : إن المنافقين كانوا يتكلمون بالمطاعن ، ثم يأتون المؤمنين فيعتذرون إليهم ، ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان الفاجرة ليعذرهم ويرضوا عنهم ، فذمهم سبحانه ولامهم بفعلهم بقوله : ﴿يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ هؤلاء المنافقين ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون على أنهم ما قالوا ما نقل إليكم من الطعن في النبي ﷺ ، وما يورث أذيته ﴿لِيَرْضَوْكُمْ﴾ باعتذارهم وحلفهم عن أنفسهم ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أولى و﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ عن أنفسهم بالتوبة مما ارتكبه من الطعن والإيذاء - وفي أفراد ضمير ﴿يُرْضَوْهُ﴾ دلالة على أن المقصود بالذات رضى الله ، ورضى الرسول تبع ولازم له - ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بهما واقعا كما ادعوا.

القسمي : نزلت في المنافقين الذين كانوا يحلفون للمؤمنين أنهم منهم ، لكي يرضى عنهم المؤمنون^(١).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ
الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ * يَحْدَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي
قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْدُرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٣) و (٦٥)﴾

ثم وبخهم الله على إيذائهم الرسول ﷺ ، وإصرارهم على النفاق بقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ بعد
مبالغة الرسول ﷺ في دعوتهم وتعليمهم ووعظهم مدّة مديدة ﴿أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويعارضهما
بالعصيان والطغيان ؛ فيخالف الله^(٢) - كما عن ابن عباس - ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ بالاستحقاق غير القابل للعفو
﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونه ﴿خَالِدًا﴾ ودائما ﴿فِيهَا﴾ ومن الواضح أنّ ﴿ذَلِكَ﴾ الخلود في النار هو
﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ والذلّ ﴿الْعَظِيمُ﴾ والتدامة الشديدة.

ثم أنّه روى القسمي : أنّه كان [قوم] من المنافقين لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك يتحدثون
فيما بينهم ، ويقولون : أيرى محمد أن حرب الروم مثل حرب غيرهم ، لا يرجع منهم أحد أبدا ، فقال
بعضهم : ما أخلقه أن يخبر الله محمدا بما كنّا فيه ، وبما في قلوبنا وينزل [عليه] بهذا قرآنا يقرأه الناس !

(١) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٢٠ .

وقالوا هذا على [حدّ] الاستهزاء ^(١) .

فأخبر الله بذلك وهذّدهم بقوله : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ ^(٢) من اطلاع المؤمنين على نفاقهم بسبب ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ من الله ﴿سُورَةٌ﴾ وقطعة من القرآن ، تخبر المؤمنين ، و﴿تُبَيِّنُهُمْ﴾ تلك السّورة ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الشّرك والنّفاق والاستهزاء بالرسول ﷺ ؛ فتفضّحهم بين المؤمنين ، وتحتك أستارهم ، ويحتمل رجوع جميع الضمائر إلى المنافقين ؛ لأنّ السّورة إذا نزلت في شأنهم فهي نازلة عليهم ، وهي بمضمونها تقول لهم : إنّ في قلوبكم كذا وكذا ، وتذيع أسرارهم.

ثمّ أمر الله النبيّ ﷺ بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد : ﴿اسْتَهْزِؤْا﴾ بي وبديني وكتابي ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ من الكمون إلى البروز ﴿مَا تَخْذَرُونَ﴾ منه من نزول سورة فاضحة لكم.

وفي رواية القمّي : قال النبيّ ﷺ لعمار بن ياسر : « الحق القوم ، فإنّهم قد احترقوا » ، فلحقهم عمار فقال : ما قلتُم ؟ قالوا : ما قلنا شيئا ، إنّما [كنّا] نقول شيئا على حدّ اللّعب والمزاح. فنزلت ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ﴾ ^(٣) ، عمّا قالوا ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب : ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الكلام ، ونتحدّث لقطع الطريق بالحديث ، كما هو دأب الرّكب ، ﴿وَنُلْعَبُ﴾ كما يلعب الصّبيان.

وروي أنّ رجلا من المنافقين قال في غزوة تبوك : ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرعب قلوبا ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللّقاء - يعني : رسول الله ﷺ والمؤمنين - فقال واحد من الصّحابة : كذبت ولأنت منافق ، ثمّ ذهب ليخبر رسول الله ﷺ فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرّجل إلى رسول الله ﷺ وكان قد ركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ، إنّنا كنّا نلعب ونتحدّث بحديث الرّكب نقطع به الطريق ، وكان يقول : إنّما كنّا نخوض ونلعب ، الخبر ^(٤) .

وروي أنّه لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك ، قال المنافقون : أترأه يظهر على الشام يأخذ حصونها وقصورها ؛ هيهات هيهات ، فعند رجوعه دعاهم فقال : أنتم القائلون كذا وكذا ؟ فقالوا : ما كان ذلك بالجدّ في قلوبنا ، إنّما كنّا نخوض ونلعب ^(٥) .

وروي أنّ المتخلّفين عن رسول الله ﷺ سئلوا عمّا كانوا يصنعون ، وعن سبب تخلّفهم ، فقالوا هذا القول ^(٦) ، فأمر الله رسوله بتوبيخهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد : ﴿أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٤ .

(٢) في النسخة : ويحزرون .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٢٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٢٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٦ : ١٢٢ .

قيل : إنّ المراد بالاستهزاء بقدرته بعد قولهم : كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام ؟ ! وقيل : هو الاستهزاء بتكاليفه ^(١).

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ

كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (٦٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد اعتذار المنافقين من استهزائهم ، ردّهم بقوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ ممّا قلتم بتلك المعاذير ، فإنّه لا يرتفع بها لومكم ولا استحقاقكم للعقوبة ، لأنّه ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ علانية ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ الذي كنتم تظهرونه باستهزائكم بالرّسول.

ثمّ هدّدهم بقوله : ﴿ إِنَّ نَعْفَ عَنْ ﴾ ذنب ﴿ طَائِفَةٍ ﴾ وجماعة ﴿ مِنْكُمْ ﴾ بسبب إيمانهم وتوبتهم ﴿ نُعَذِّبُ طَائِفَةً ﴾ أخرى منكم البتّة ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ بإصرارهم على الكفر والتّفاق ، وإيذاء الرّسول ﷺ .

قيل : إنّ الطّائفة الاخرى المعذّبة هم المستهزون ، والطّائفة المعفوّ عنهم هم الذين ضحكوا عند استهزاء هؤلاء.

وعن الباقر عليه السلام في قوله : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ قال : هؤلاء قوم كانوا مؤمنين صادقين ، ارتابوا وشكّوا ، وناقضوا بعد إيمانهم ، وكانوا أربعة نفر ، وقوله : ﴿ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ كان أحد الأربعة مخشي ^(٢) بن حمير ، فاعترف وتاب ، وقال : يا رسول الله ، أهلكني اسمي ، فسّمّاه رسول الله عبد الله بن عبد الرحمن ، فقال : يا ربّ اجعلني شهيدا حيث لا يعلم أين أنا ، فقتل يوم اليمامة ، ولم يعلم أحد أين قتل ، فهو الذي عفي عنه ^(٤) .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٦٧)

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٢٣ .

(٢) في النسخة وتفسير القمي : مختبر ، تصحيف ، راجع : أسد الغاية ٤ : ٣٣٨ ، وتاريخ الطبري ٣ : ١٠٨ ، ومغازي الواقدي ٣ : ١٦٩ ، وفي مغازي الذهبي : ٦٤٢ ، وسيرة ابن هشام ٤ : ١٦٨ : مختن.

(٣) في النسخة : أو .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٥ .

ثم أتته تعالى بعد حلف المنافقين للمؤمنين على أنهم منهم ، ردّهم بقوله : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ ليسوا من المؤمنين ، بل ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لاشتراكهم في الكفر وعصيان الرسول ، حيث إنهم جميعاً ﴿يَأْمُرُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِالْمُنْكَرِ﴾ من الكفر ومخالفة الرسول وتكذيبه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالرسول وطاعته ﴿وَيَقْبِضُونَ﴾ ويمسكون ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله ، وإنما فعلوا ذلك كله لأنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ وهوا (١) عن ذكره ، وتركوا عبادته ﴿فَنَسِيَهُمُ﴾ الله وترك ذكرهم بالرحمة والإحسان والتوفيق للهداية.

ثم بالغ في بيان عدم استحقاقهم للرحمة بقوله : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ عموماً ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ والكاملون في الكفر والطغيان ومعصية الرسول.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ

وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨)﴾

ثم أكد الله سبحانه وعيدهم بقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ﴾ المتجاهرين في الكفر ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ وكافهم عقوبة ، فإنه لا عقوبة فوقها ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمته ، وأحزاهم غاية الحزى والهوان ، وهو العذاب الروحاني. ثم أكد سبحانه خلودهم مع دوام تألمهم بالنار واللّعن بقوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ ودائم ، فلا يتوهم أنه يحصل لهم طبع سمندري (٢) بسبب دوامهم في النار فينقطع تألمهم بها.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرُوا أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا

بِخَلَائِقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ

وَخُصْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ

هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩)﴾

ثم بالغ سبحانه في إرعاب المنافقين بتنظير حالهم بحال الامم السابقة المهلكة ، مع الرجوع من الغياب إلى مخاطبتهم بقوله : ﴿كَالَّذِينَ﴾ - قيل التقدير : أنتم كالذين كفروا - وكانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ في القرون القريبة من قرنكم.

(١) في النسخة : وألهاوا.

(٢) نسبة إلى السمندر أو السمندل ، وهو دابة أو طائر في الهند والصين ، يقال : إنه لا يحترق بالنار ، أو نسيج من حيوان لا يحترق بالنار.

ثم كآته قيل : كيف كان حالهم ؟ فقال سبحانه : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ وأعظم قدرة ﴿ وَأَكْثَرَ ﴾ منكم ﴿ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً ﴾ وأوفر منكم ثروة وذرية ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا ﴾ واستلذوا ﴿ بِخِلَاقِهِمْ ﴾ ونصيبهم المقدّر لهم من حطام الدّنيا ونعيمها .

ثم بيّن سبحانه وجه شبههم بهم بقوله : ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ وانتفعتم ﴿ بِخِلَاقِكُمْ ﴾ ونصيبكم من الأمتعة الدّنيويّة مدّة عمركم ، حال كونكم كافرين طاغين عاصين لله ، لأجل الغرور باللذات ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ ﴾ الامم ﴿ الَّذِينَ ﴾ كانوا ﴿ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ ﴾ حال كونهم كافرين طاغين عاصين لله ، لأجل الانهماك في الشّهوات ﴿ وَخُضُّنْكُمْ ﴾ وانغمستم في الباطل كتكذيب الأنبياء ، والاستهزاء والغدر بهم ﴿ كَالَّذِي ﴾ ومثل الباطل الذي ﴿ خَاضُوا ﴾ فيه - وقيل : إنّ التقدير : كالفوج الذي ^(١) ، وقيل : كالقوم الذين ، وحذف التّون للتخفيف ^(٢) ، وقيل : كالخوض الذي - ﴿ أَوَّلَيْكَ ﴾ الامم المذمومة ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وبطلت حسناتهم ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بسبب الموت وانتقالهم من الغنى إلى الفقر ، ومن العزّ إلى الذلّ ، ومن القوّة إلى الضّعف ﴿ وَ ﴾ في ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ بسبب ضياع ثوابهم وابتلائهم بالعقاب ﴿ وَأَوَّلَيْكَ ﴾ بالخصوص ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ والمتضرّرون ، حيث ضيّعوا عمرهم الذي كان بمنزلة رأس مالهم ، وأتعبوا أنفسهم في تحصيل العزّ والجاه والتّعم ، بالسّعي في تكذيب الأنبياء ومعارضتهم والغدر بهم ، ولم يستفيدوا إلّا الحرمان من الخيرات الدّنيويّة والاخرويّة ، والذلّ الدائم ، والعقوبة الأبديّة ، فهم مع كونهم أقوى منكم كانت حالهم تلك ، فأنتم مع ضعفكم بسبب اشتراككم معهم في الكفر والطّغيان أولى بحبط الأعمال وغاية الخسران .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧٠)

ثم أنّه تعالى بعد تشبيه المنافقين بالامم المهلكة في الرّغبة في الدّنيا والتمتّع بها ، والإعراض عن الآخرة والإصرار على الكفر ، وتكذيب الأنبياء ، وغاية الخسران ، ذكر طوائف مشهورة بتلك الصّفات ^(٣) منهم ، وابتلائهم بعذاب الاستئصال بقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ وهل لم يبلغهم ﴿ نَبَأُ ﴾ الامم ﴿ الَّذِينَ ﴾ كانوا ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وخبرهم الذي له شأن عظيم ؟ ثم كآته أجاب عن الاستفهام وقال : نعم ، بلغهم نبأ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أنّهم اهلكوا بالطّوفان ﴿ وَ ﴾ قوم

(١ و ٢) . تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٢ .

(٣) في النسخة : مشهورة بالصفات .

﴿عَادٍ﴾ أَهَّمْ أَهْلَكُوا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ ﴿وَقَوْمٍ ثَوْدٍ﴾ أَهَّمْ أَهْلَكُوا بِالصَّيْحَةِ وَالرَّحْفَةِ ﴿وَقَوْمٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَهَّمْ أَهْلَكُوا بِالْهَدْمِ ﴿وَأَصْحَابَ﴾ بِلَدِ ﴿مَدْيَنَ﴾ وَأَهْلَهُ وَهُمْ قَوْمٌ شَعِيبَ ، أَهَّمْ أَهْلَكُوا بِالنَّارِ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وَالْقُرَى الْمُنْقَلَبَاتِ عَلَى أَهْلِهَا ، بِحَيْثُ صَارَ عَلَيْهَا سَافِلُهَا .

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن المؤتفكات ، قال : « أولئك قوم لوط » (١) .

ثم كآته قيل : هل تمت الحجة عليهم قبل هلاكهم ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿أَتَنْهَهُمْ﴾ جميعاً ﴿رُسُلَهُمْ﴾ من جانب الله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحجج الظاهرات ، والبراهين القاطعات ، فلم يعتنوا بهم ، بل كذبوهم واستهزأوا بهم وآذوهم ، فاهلكوا بعد إتمام الحجة عليهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ وليس من شأنه والمناسب لحكمته وعدله ﴿لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ويعذبهم قبل إتمام الحجة عليهم ، وبغير استحقاق منهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا﴾ بالمشاققة مع الله ورسله ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للهلاك بقبائح الأعمال ، مع قدرتهم على تعليلتها إلى أعلى درجات الجنة ، وإيصالها بطاعة الأنبياء إلى النعم الأبدية .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين ووعدهم العذاب ، مدح المؤمنين المخلصين بحسن العقائد والأعمال بقوله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ لاتفاقهم على التوحيد ، والايان بالرسول وبما جاء به ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وكلّ مرع لصالح الآخر ، ولذا ﴿يَأْمُرُونَ﴾ المؤمنين ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ويعتوهم إلى الخيرات الدنيوية والاخرية من تكميل الايمان بالله والرسول ، وطاعتهما ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والقبيح والشر من الكفر وسيئات الأعمال ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ ويدامون عليها ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة ويؤدونها إلى الجباة والفقراء ، ولا يقبضون أيديهم عن أدائها كما قبض المنافقون ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراهم به ونهياهم عنه ، وليسوا فاسقين عن طاعتهما كالمنافقين ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ ويفيض عليهم من البركات والفيوضات الدنيوية والاخرية ما لا يتصوره متصور ، ولا يبلغه الوهم والفكر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وقادر على إنجاز وعده ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخلف وعده ، ولا يعطي شيئاً غير أهله .

(١) الكافي ٨ : ١٨١ / ٢٠٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٧ .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ (٧٢) ﴿﴾

ثمّ شرح الله الرّحمة الموعودة بقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ على إيمانهم وطاعتهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً﴾ مرضيّة - روي أنّها قصور من اللؤلؤ والزّبرجد والياقوت ^(١) - كائنة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ التي هي أمهى الجنّات وأعلاها وأسنّاها ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ يسير ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم من تلك الجنّات ونعمها ؛ لأنّه مبدأ جميع الخيرات والسّعادات ، وبه ينال قربه الذي هو أعلى الحظوظ ، وأكمل المثوبات ﴿ذَلِكَ﴾ الرّضوان ﴿هُوَ الْفَوْزُ﴾ والحظّ ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقّ عنده كلّ فوز وحظّ.

عن النّبىّ ﷺ : « عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر في قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيّين ، والصّديقين ، والشّهداء ، يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك » ^(٢) .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله يهوديّ : أين يسكن نبيّكم من الجنّة ؟ فقال : « في أعلاها درجة ، وأشرفها مكانا ، في جنّات عدن » . فقال : صدقت ^(٣) .

روي أنّ الله خلق جنّة عدن بيده بغير واسطة ، وجعلها [له] كالقلعة للملك ، وجعل فيها كثيبا ومقام الوسيلة ، وغرس شجرة طوبى بيده في جنّة عدن ، وأطالها حتى علت فروعها سور جنّة عدن وتركت مظلّلة على سائر الجنّات كلّها ، وليس في أكمامها ثمر إلّا الحليّ والحلل ^(٤) .

وروي أنّه تعالى يقول لأهل الجنّة : هل رضيتم ؟ فيقولون : فما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : أما اعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : احلّ عليكم رضواني ، ولا أسخط عليكم أبدا ^(٥) .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَيْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴿﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد التّعليظ على المنافقين ووعدهم بالعقوبة الشّديدة ، ونصحهم وتهديدهم

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٤ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٧٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٧ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٣٥٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٣٤ .

بالعقوبات الدنيوية التي أنزلها على الامم الماضية ، أمر النبي بمجاهدتهم بالحجة ما داموا مستترين ، وجهادهم بالسيف إذا أظهروا كفرهم بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ المتجاهرين في كفرهم بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ المستترين لكفرهم بالحجة والتصح ﴿وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واعنف ^(١) بهم ولا ترفق معهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وأما في الآخرة فمَنْزَلُهُمْ ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَ﴾ هي ﴿يَسْ الْمَصِيرُ﴾ والمنقلب لهم من الدنيا.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « فجاهد رسول الله ﷺ الكفار ، وجاهد علي عليه السلام المنافقين ، فجاهد ^(٢) علي جهاد رسول الله ﷺ » ^(٣) .

﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤)

ثم أكد سبحانه استحقاق المنافقين التعليل بقوله : ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي أنهم ﴿مَا قَالُوا﴾ كلمة سوء ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ من سب النبي ، وإنكار رسالته ﴿وَكَفَرُوا﴾ بإظهارهم ما في قلوبهم من عداوة النبي ، وبغضهم لدين الإسلام ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الظاهري.

روي أن النبي ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فقال الجلاس بن سويد : والله ، لئن كان ما يقوله محمد في إخواننا الذين خلفناهم في المدينة حقاً ، مع أنهم أشرافنا ، فنحن شر من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل والله ، إن محمداً صادق ، وأنت شر من الحمار ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضر الجلاس ، فحلف بالله أنه ما قال ، فرفع عامر يده وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق ، وتكذيب الكاذب ، فنزلت الآية ، فقال الجلاس : لقد ذكر الله التوبة في هذه الآية ، ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ، فتاب الجلاس وحسنت توبته ^(٤) .

وروي أنها نزلت في عبد الله بن أبي لما قال : ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا﴾

(١) في النسخة : واغضب ، راجع تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٥ .

(٢) في تفسير الصافي : فجاهد.

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٣٥٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٣٦ .

الأدَلُّ ^(١) وأراد به الرسول ، فسمع زيد بن أرقم ذلك وبلغه إلى رسول الله ﷺ ، فهمّ عمر بقتل عبد الله بن أبي ^(٢) [فجاء عبد الله وحلف أنّه لم يقل ، فنزلت هذه الآية ^(٣) .

روى قتادة : أنّ رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، فظهر الغفاري على الجهيني ، فنادى [عبد الله بن أبي وقال : يا بني الأوس ، انصروا أحاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قيل : « ستمن كلبك يأكلك » ، فذكروه لرسول الله ﷺ ، فأنكر عبد الله وجعل يحلف ^(٤) .

ثمّ روي أنّ المنافقين همّوا بقتل النبي ﷺ عند رجوعه من تبوك ؛ وهم خمسة عشر ، تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة بالليل ، وكان عمّار أخذًا بخطام راحلته ، وحذيفة خلفها يسوقها ، فسمع حذيفة وقع خفاف الإبل وقعقة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله ، فهربوا ^(٥) ، فلامهم الله بقوله : ﴿ وَهُمْ أُولَا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا ﴾ من قتل النبي ﷺ ، ومن المعلوم أنّهم حين اجتمعوا على قتل النبي ﷺ طعنوا في نبوّته ، ونسبوه إلى الكذب.

عن (الجمع) : نزلت في أهل العقبة ، فإنّهم أضمرُوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ في العقبة حين مرجعهم من تبوك ، وأرادوا أن يقطعوا أنساع ^(٦) راحلته ثمّ ينخسوا به ، فأطلعه الله على ذلك ، وكان من جملة معجزاته ، لأنّه لا يمكن معرفة ذلك إلاّ بوحي من الله ، فبادر رسول الله [في العقبة] وحده ، وعمّار وحذيفة يقود أحدهما راحلته والآخر يسوقها ، وأمر الناس كلّهم بسلوك [بطن] الوادي ، وكان الذين همّوا بقتله اثني عشر رجلا ، أو خمسة عشر ، عرفهم الرسول : سّمّاهم بأسمائهم. قال : وقال الباقر عليه السلام : « كان ثمانية منهم من قريش ، وأربعة من العرب » ^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « لما قال النبي ﷺ ما قال في غدير خمّ ، وصاروا بالأخبية ، فمرّ المقداد بجماعة منهم يقولون ^(٨) : إذا دنا موته وفنيت أيامه وحضر أجله ، أراد أن يوليّا علينا من بعده ، أما والله ليعلمنّ. قال : فمضى المقداد وأخبر النبي ﷺ ، فقال : الصلاة جامعة. قال : فقالوا : قد رمانا المقداد ، فقوموا نحلف عليه. قال : فجاءوا حتّى جثوا بين يديه فقالوا : بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله ، والذي بعثك بالحقّ ، والذي أكرمك بالنبوّة ، ما قلنا ما بلغك ، والذي اصطفاك على البشر ، قال : فقال النبي ﷺ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾

(١) المنافقون : ٦٣ / ٨ .

(٢) في النسخة : فخافة بدل ما في المعقوفات.

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٣٦ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٦ : ١٣٦ .

(٦) الأنساع جمع نسع : وهو سير عريض طويل تشد به الرحال على الدابة.

(٧) مجمع البيان ٥ : ٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٩ .

(٨) زاد في تفسير العياشي : والله إن كنا وقبصر لكنا في الخز والوشي والديباح والنساجات ، وإنا معه في الأخشنين ، نأكل الخشن ، ونلبس الخشن حتى.

الرحمن الرحيم ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ ليلة العقبة « (١) » .

عن القمّي : نزلت في الذين تحالفوا في الكعبة أن لا يردّوا هذا الأمر في بني هاشم ، فهي [كلمة] الكفر ، ثم قعدوا لرسول الله ﷺ في العقبة ، وهمّوا بقتله ، وهو قوله : ﴿وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وقال في موضع آخر : فلما أطلع الله نبيّه ﷺ وأخبره ، حلفوا له أنهم لم يقولوا ولم يهّموا به ، حتى أنزل الله ﴿يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية (٢) .

ثم بيّن الله أنّ حقّ النبيّ ﷺ أن يشكروه لا أن يهّموا بقتله ، بقوله : ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما كرهوا شيئا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإحسانه ، بسبب الغنائم والعطايا ، وهذا موجب للمحبّة والشكر ، لا العداوة والكفر .

قيل : إنهم كانوا حين قدوم رسول الله ﷺ المدينة في غاية شدّة العيش ؛ لا يركبون الخيل ، ولا يحوزون الغنيمة ، فأثروا بالغنائم وكثرت أموالهم (٣) .

وقيل : كان أحدهم يبيع الرؤوس ، وآخر يبيع الكراع ويفتل القرامل (٤) .

وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم ، فاستغنى (٥) .

وقيل : الضمير في ﴿أَغْنَاهُمْ﴾ للمؤمنين ، أي غاظهم إغناؤه للمؤمنين (٦) .

ثم استعطف قلوبهم ودعاهم إلى التوبة بقوله : ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ من كفرهم ونفاقهم ﴿يَكُ﴾ ذلك التوب ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ وأنفع في الدّنيا والآخرة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ ويعرضوا عن قبول الإسلام والتّوبة خالصة (٧) لله ، واستمروا على ما هم عليه من الكفر والتّفاق والغدر ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال - وقيل : عند الموت (٨) ، وقيل : في القبر (٩) - ﴿وَوَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بالنّار وغيرها من أنواع العذاب المعدّ للكفار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بسعتها وتباعد أقطارها ، وكثرة أهلها ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحفظهم منه بالشفاعة ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم منه بالقدرة والقوة .

روي أنّه لما تلا رسول الله ﷺ الآية على المنافقين ، قال بعضهم : يا رسول الله ، لقد عرض الله عليّ التوبة ، والله لقد قبلت فتاب (١٠) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٤٦ / ١٨٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٠١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٥٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٨ .

(٤) تفسير الصافي ٢ : ٣٦٠ ، والقرامل : جمع القرملة ، وهو ضفائر من شعر أو غيره تصل بها المرأة شعرها .

(٥ و ٦) . تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٨ .

(٧) في النسخة : خالصا .

(٨ و ٩) . تفسير الرازي ١٦ : ١٣٧ .

(١٠) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٨ .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ *

فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٥) و (٧٦)﴾

ثم بين الله أن غدر المنافقين لا يختص بالنبي والمؤمنين ، بل يجاهرون بالغدر بالله ومخالفة عهده بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ عهدا مؤكدا بالحلف ، حيث قال : والله ﴿لَئِنْ آتَانَا﴾ الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وخزائن رحمته مالا ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولنؤدّيّ حقوقه الواجبة ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصالحين الملتزمين بالعمل بأحكام الله. عن ابن عباس : يريد الحج ^(١) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ﴾ الله وأعطاهم ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وكرمه مالا ، منعوا حق الله ، و﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن الوفاء بعهدهم ^(٢) مع الله ﴿وَهُمْ﴾ قوم عادتهم أنهم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن طاعة الله وجميع العهود.

عن ابن عباس : أن حاطب بن أبي بلتعة ، أبطأ عنه ماله بالشّام. فلحقه شدّة ، فحلف بالله وهو واقف في بعض مجالس الأنصار : لئن آتانا من فضله لأصدّقن ولأؤدّيّ منه حق الله ^(٣) .

في حكاية ثعلبة بن حاطب

وروي أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان ملازما لمسجد الرسول ليلا ونهارا ، وكان يلقب لذلك حمامة المسجد ، وكانت جبهته كركبة البعير من كثرة السجود على الأرض والحجارة المحماة بالشّمس ، ثم جعل يخرج من المسجد كلّما فرغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجماعة من غير لبث واشتغال بالدعاء ، فقال ﷺ له يوما : « ما لك [صرت] تعمل عمل المنافقين بتعجيل الخروج ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنّي في غاية الفقر بحيث أن لي ولا مرأتني ثوبا واحدا ، وهو الذي عليّ وأنا أصليّ فيه وهي عريانة في البيت ، ثم أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه وتصلّي فيه ، فادع الله أن يرزقني مالا ، فقال ﷺ : « ويلك يا ثعلبة ، قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه » . فراجعته ، فقال ﷺ : « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ، فو الذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبا وفضّة لسارت ، ولكن أعرف أن الدنيا حظّ من لا حظّ له ، وبها يغترّ من لا عقل له » . فراجعته وقال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق نبيا ، لو دعوت الله أن يرزقني مالا لأؤدّيّ كلّ ذي حقّ حقّه ، فقال ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالا » - ثلاث مرّات.

فأخذ غنما ، فنمت كما ينمو الدود حتّى ضاقت بها أزقة المدينة ، فنزل واديا حتّى فاتته الجماعة ، لا يصلّي بالجماعة إلّا الظّهر والعصر ، ثمّ نمت وكثرت فتتخى مكانا بعيدا حتّى انقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل رسول الله ﷺ عنه ، فقيل : كثر ماله حتّى لا يسعه واد ، فخرج بعيدا ، فقال ﷺ : « ويح ثعلبة » .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٩ .

(٢) في النسخة : بعهد.

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٣٨ .

فلما نزل قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً... ﴾ استعمل النبي ﷺ رجلين على الصدقات ؛ رجلا من الأنصار ، ورجلا من بني سليم ، وكتب لهما الصدقة وأسناها ، وأمرهما أن يأخذها من الناس ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فيه الفرائض ، فقال : ما هذه إلا حزية أو اخت الجزية ، وقال : ارجعا حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه : « ويح ثعلبة » مرتين ، فنزلت .

فركب عمر راحلته ومضى إلى ثعلبة وقال : ويحك يا ثعلبة هلكت ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال ﷺ : « إن الله منعي أن أقبل منك » فجعل يثو التراب على رأسه ، فقال ﷺ : « هذا عملك » (١) .

عن القمي : عن الباقر عليه السلام : هو ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عوف ، كان محتاجا فعاهد الله ، فلما آتاه بخل به (٢) .

أقول : إنما أمر الله أن لا يقبل الرسول ﷺ صدقته لكونه إهانة وعبرة لغيره ، أو لكون صدقته رياء لا خالصا لوجه الله .

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٧٨)

ثم بين الله أثر البخل والإعراض عن العهد بقوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ الله ، وجعل عاقبة أمرهم ، أو أثر بلخهم وعقبه ﴿ نِفَاقًا ﴾ راسخا ثابتا ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ مستمرا ﴿ إِلَى يَوْمِ ﴾ يرجعون فيه إلى الله و﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام : اللقاء [هو] البعث (٣) . وقيل : يوم خروجهم من الدنيا - ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وما وفوا بما عاهدوه ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ في أقوالهم وعهودهم .

ثم ونجهم الله على إبطائهم التَّفَاق وطعنهم سرا في النبي ﷺ ودينه ؛ بقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ وما في قلوبهم من الكفر والتَّفَاق ، أو العزم على التَّخَلُّف ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما يفاوضونه من الطَّعن في النبي ﷺ ودينه ، أو تسمية الزَّكاة حزية ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ والمطلع على الخفايا والأسرار ، بحيث لا يخفى عليه خافية ، فكيف يجترئون على ارتكاب القبائح ؟

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٦٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٠١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٠ .

(٣) التوحيد : ٢٦٧ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦١ .

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٧٩) و (٨٠)﴾

ثمَّ أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين بلمز النبي ﷺ وتعييبه ، ذمهم بلمز المؤمنين والاستهزاء بهم ، بقوله: ﴿الَّذِينَ﴾ قيل التقدير : هم الذين ﴿يَلْمِزُونَ﴾ ويعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ والمتنقلين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويغتابونهم ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ التي تصدّقوا [بها] لتجهيز جيش غزوة تبوك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ للإِنفاق ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ ومقدار طاقتهم من الصدقة ، وإن كان في غاية القلّة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ويستهزئون بهم ، أولئك ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ بأن جازاهم جزاء السخرية ، كما عن الرضا عليه السلام ^(١) ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

عن ابن عباس قال : إنّ رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم وحثّ على أن يجمعوا الصدقات ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لي ثمانية آلاف درهم ؛ فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة ، وهذه الأربعة أقرضتها ربّي . فقال ﷺ : « بارك الله لك فيما أعطيت ، وفيما أمسكت » ^(٢) . قيل : قبل الله دعاءه ﷺ فيه ، حتّى صالحت امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا . وجاء عمر بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عديّ الأنصاري بسبعين وسقا من تمر الصدقة ، وجاء عثمان بن عفّان بصدقة عظيمة ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، وقال : آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله ، فأخذت صاعين من تمر ؛ فأمسكت أحدهما لنفسي ولعيالي ، وأقرضت الآخر ربّي ، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات . فقال المنافقون على وجه الطعن : ما جاءوا بصدقاتهم إلّا رياء وسمعة ، وأمّا أبو عقيل فإتّما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر ، والله غنيّ عن صاعه ، فأنزل الله هذه الآية ^(٣) .

عن القمّي : جاء سالم بن عمير الأنصاري بصاع من تمر ، فقال : يا رسول الله ، كنت ليلتي أحيّرا لجرير حتّى عملت بصاعين من تمر ؛ فأما أحدهما فأمسكته ، وأمّا الآخر فأقرضته ربّي ، فأمر رسول الله ﷺ أن ينشره في الصدقات ، فسخر منه المنافقون فقالوا : والله إن الله لغنيّ عن هذا الصاع ، ما يصنع الله بصاعه شيئا ، ولكنّ أبا عقيل أراد أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت ^(٤) .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٢٦ / ١٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦١ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٤٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٤٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦١ .

وعن الصادق عليه السلام : آجر أمير المؤمنين عليه السلام نفسه على أن يستقي كل دلو بتمرة يختارها ؛ فجمع تمرا ، فأتى [به] النبي صلى الله عليه وآله وعبد الرحمن بن عوف على الباب فلمزه ، أي وقع فيه ، فانزلت هذه الآية (١) .

ثم أنه روي عن ابن عباس قال : عند نزول الآية الأولى في المنافقين قالوا : يا رسول الله ، استغفر لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « سأستغفر لكم » . واشتغل بالاستغفار لهم ، الخبر (٢) ، فردع الله نبيه صلى الله عليه وآله عن الاستغفار بقوله : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فاختار أيهما شئت ، فإيهما متساويان في عدم التفعّل لهم ، بل ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ قيل : إنّ السبعين كناية عن الكثير (٣) ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أبدا لا تمناع المغفرة لهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ والكافر غير قابل لأن تناله المغفرة وتشمله الرحمة ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ والمتمردين عن حدود الله وأحكامه . وروي أنهم كانوا تأتون رسول الله صلى الله عليه وآله فيعتذرون ويقولون : إن أردنا إلّا إحسانا وتوفيقا ، فنزلت (٤) .

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ

كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) ﴾

ثم بالغ سبحانه في ذم المتخلفين عن الرسول في غزوة تبوك بقوله : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ الذين أجازهم رسول الله صلى الله عليه وآله في تخلفهم رفقا بهم ، أو لعلمه بأنهم يفسدون ويشوشون عليه . وقيل : هم المتخلفون بغير الإجازة ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ وإقامتهم في المدينة ، كما عن ابن عباس (٥) ﴿ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ولعصيان أمره ، أو خلف الرسول صلى الله عليه وآله وبعده ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا ﴾ أعداء الله ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ولطلب مرضاته ، لا اعتقادهم أنه تعريض للمال والنفس للتلف ، وترويج للباطل . ثم بين الله أنهم مع تقاعد أنفسهم عن الجهاد وفرحهم به ، سعوا في منع غيرهم من الخروج بقوله : ﴿ وَقَالُوا ﴾ لإخوانهم وأصدقائهم : ﴿ لَا تَنْفِرُوا ﴾ ولا تخرجوا إلى سفر الغزو ﴿ فِي ﴾ زمان ﴿ الْحَرِّ ﴾ والصيف .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٤٨ / ١٨٦١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٤٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٧٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٤٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٤٦ .

ثم ردهم وهدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من حرارة الشمس والصَّيف في الدنيا ، وقد اختزمتها لأنفسكم بعودكم عن الجهاد ، ومخالفتكم الرسول ﷺ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون بقوة العقل أنَّ بعد هذه الدَّار دار الجزاء ، وأنَّ مشقة حرِّها راحة بالنسبة إلى مشقة حرارة النَّار في الآخرة ، مع أنَّ الأولى سريعة الزَّوال ، والثانية باقية.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد ذكر فرح المنافقين بالعود ، وكان الضَّحك من لوازم شدَّة الفرح ، هددهم بغاية الحزن في الآخرة على معاصيهم وابتلائهم بالعذاب بقوله : ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ في الدنيا ضحكا ﴿قَلِيلًا﴾ وإن كان ضحكهم مدَّة عمرهم ، فإنَّ مدَّة عمر الدنيا قليلة ، فكيف بمدَّة عمرهم ؟ ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ في الآخرة على أنفسهم بابتلائهم بالعذاب بكاء ﴿كَثِيرًا﴾ حيث لا انقطاع له ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ لأنفسهم من المعاصي والدُّنوب.

روي أنَّ أهل التَّفاق ييكون في النَّار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ، ولا يكتحلون بنوم ^(١) . وفي رواية : أنَّه يرسل الله البكاء على أهل النَّار فييكون حتَّى تنقطع الدَّموع ، ثمَّ ييكون الدم حتَّى ترى وجوههم كهيئة الاحدود ^(٢) .

وقيل : إنَّ القلَّة كناية عن العدم ، والكثرة كناية عن الدَّوام ، وعليه يجوز أن يكون وقتهما في الدنيا ، ويجوز أن يكون في الآخرة ^(٣) .

وعن النبي ﷺ أنَّه قال : لو تعلمون ما أعلم لبكىتم كثيرا وضحكتم قليلا ^(٤) . وروي أنَّه خرج ذات يوم ، فإذا قوم يتحدَّثون ويضحكون ، فوقف وسلَّم عليهم ، فقال : أكثروا ذكر هادم اللَّذات ، قيل : وما هادم اللَّذات ؟ قال : الموت ^(٥) .

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ

الْخَالِفِينَ﴾ (٨٣)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد توضيح غاية خبث المنافقين وكفرهم وتعييبهم النبي ﷺ والمؤمنين وتوهينهم

(١ و ٢) . تفسير روح البيان ٣ : ٤٧٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٧٦ .

(٤ و ٥) . تفسير روح البيان ٣ : ٤٧٦ .

إيّاهم ، أمر نبيّه ﷺ بالإعراض عنهم ، والاستغناء عن نصرتهم وكونهم في جيش المسلمين ، بقوله : **﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾** وأعادك من غزوة تبوك **﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾** تخلفوا عنك في تلك الغزوة بغير عذر وعلة **﴿فَاسْتَأْذِنُوكَ﴾** واستجازوا منك **﴿لِلْخُرُوجِ﴾** من المدينة إلى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة **﴿فَقُلْ﴾** لهم إعراضا عنهم : إنكم **﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾** إلى غزوة **﴿أَبَدًا﴾** ولا تدخلوا في عداد المسلمين **﴿وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾** من أعدائي **﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ﴾** وفرحتم **﴿بِالْفُجُودِ﴾** عن القتال والتخلف عن جيش المسلمين ، والإقامة بالمدينة **﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** وفي الخرجة السابقة ، وهي الخروج إلى تبوك ، إذن **﴿فَافْعَدُوا﴾** في مكانكم **﴿مَعَ الْخَالِفِينَ﴾** والتزموا بيوثكم مع المتخلفين من النساء والصبيان ، فإنكم مثلهم ، لا تليقون للجهاد. فأخرجهم الله من ديوان الغزاة ، ومحا أساميهم من دفتر المجاهدين ، ونحاهم عن محفل صحبة النبي ﷺ ، عقوبة لهم على تخلفهم وإهانة نبيهم ، وإظهارا لنفاقهم وشدة كفرهم.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨٤)

ثم أنّه تعالى بعد ما أمر نبيّه ﷺ بإهانتهم وتذليلهم في حال حياتهم ، أمر بإهانتهم بعد موتهم بقوله : **﴿وَلَا تُصَلِّ﴾** يا محمد **﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾** بعد ما **﴿مَاتَ أَبَدًا﴾** لتدعو وتستغفر له **﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾** ولا تقف عند تربته للزيارة والدعاء.

قيل : كان النبي ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ^(١) .

ثم علّل سبحانه وجوب تذليلهم ، وحرمة الاستغفار لهم بقوله : **﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** مدّة حياتهم **﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾** وتمرّدون عن طاعة الله ، فلذا يستحقّون الخذلان والعذاب في الدنيا والآخرة.

عن ابن عباس : لما اشتكى عبد الله بن أبيّ ، عاده رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ، ويقوم على قبره. ثمّ إنّه أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب قميصه ليكفن فيه ، فأرسل إليه القميص الفوقاني ، فردّه وطلب الذي يلي جلده ليكفن فيه ، فقال عمر : لم تعطي قميصك الرّجس النّجس ؟ فقال ﷺ : « إنّ قميصي لا يغني عنه من الله شيئا ، فلعلّ الله أن يدخل به ألفا في الاسلام » ، وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله ، فلمّا رأوه يطلب هذا القميص ويرجوه أن ينفعه ، أسلم منهم ألف.

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٥٣ .

فلما مات جاء ابنه يعزفه ، فقال ﷺ لابنه : « صلّ عليه وادفنه » . فقال : إن لم تصلّ عليه يا رسول الله ﷺ ، لم يصلّ عليه ، مسلم ، فقام ﷺ ليصلّي عليه ، فقام عمر وحال بين رسول الله وبين القبلة ، لئلا يصلّي عليه . فنزلت هذه الآية ، وأخذ جبرئيل بثوبه ، وقال : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾^(١) .

نقل كلام الفخر الرازي وردّه

قال الفخر الرازي : إنّ هذا يدلّ على منقبة عظيمة من مناقب عمر ؛ لأنّ الوحي نزل على وفق قوله^(٢) .

أقول : من اعتقد أنّ رأي عمر كان أصوب من رأي رسول الله ﷺ فهو كافر ، وأمّا اعتقادنا أنّ رسول الله ﷺ ما كان يريد إلّا ما أراد الله ، وأتته ﷺ كان يعلم القرآن جميعه قبل نزوله ، وإنّما كان مأمورا بإظهار الرّفق وحسن الخلق بالنسبة إلى البرّ والفاجر حتّى ينزل الوحي برده ، ويكون بذلك معذورا في أنظار النّاس .

بل نقول : إنّ الرواية وأمّثالها دالة على قدح عظيم في عمر ، وغاية حسارته على الرسول ﷺ باعتراضه عليه ، وحيلولته بينه ﷺ وبين القبلة ، واعتقاده أنّه أعقل منه ﷺ ، ولذا لم يرد عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أمثال ذلك ، مع كونه أقرب النّاس إلى الرسول ﷺ ، وأعزّهم عليه ، وأحبّهم عنده ، وأعقل الصّحابة وأعلمهم ، بل أعقل أهل العالم سوى الرسول ﷺ ، ولم يكن ذلك إلّا لغاية معرفته بشؤون الرّسول ، وتسليمه له ، وتبعيته لإرادته .

عن القمّي رحمه الله : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، مرض عبد الله بن أبيّ وكان ابنه عبد الله مؤمنا ، فجاء إلى النّبي ﷺ وأبوه يجود بنفسه ، فقال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمّي ، إنّك إن لم تأت أبيّ كان ذلك عارا علينا ، فدخل عليه رسول الله ﷺ والمنافقون عنده ، فقال له ابنه عبد الله : يا رسول الله ، استغفر له . [فاستغفر له] فقال عمر : ألم ينهك الله - يا رسول الله - أن تصلّي عليهم أو تستغفر لهم ؟ فأعرض عنه رسول الله ، فأعاد عليه ، فقال له : « ويلك ، إنّّي خيّرت فاخترت ، إنّ الله يقول : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ »

فلما مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، إن رأيت أن تحضر جنازته ؟ فحضر رسول الله ﷺ وقام على قبره ، فقال له عمر : ألم ينهك الله أن تصلّي على أحد منهم مات أبدا ، وأن تقوم على قبره ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « ويلك ، وهل تدري ما قلت ؟ إنّما قلت : اللهم احش قبره نارا ، وجوفه نارا ، واصله النار » . فبدا من رسول الله ﷺ ما لم يكن يحب^(٣) .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٥٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٥٢ .

(٣) تفسير القمّي ١ : ٣٠٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٤ .

وعن الباقر عليه السلام : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي : إِذَا فَرِغْتَ مِنْ أَيْبِكَ فَأَعْلَمْنِي ، وَكَانَ قَدْ تَوَقَّيْ ، فَأَتَاهُ فَأَعْلَمَهُ ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعْلَيْهِ لِلْقِيَامِ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ؟﴾ فقال له : « ويحك - أو ويلك - إنما أقول : اللهم احش قبره نارا ، و [املأ] جوفه نارا ، واصله يوم القيامة نارا » ^(١) .

وفي رواية : « أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِ ابْنِهِ فِي الْجَنَازَةِ فَمَضَى ، فَتَصَدَّى لَهُ عُمَرُ ثُمَّ قَالَ : أَمَا نَحَاكَ رَتَكَ عَنْ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، أَوْ تَقُومَ عَلَى قَبْرِهِ ؟ ! فلم يجبه ، فلما كان قبل أن ينتهي إلى القبر أعاد عمر ما قال له أولا ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر عند ذلك : ما رأيتنا صلينا له على جنازة ولا قمنا له على قبر . ثم قال : إن ابنه رجل من المؤمنين ، وكان يحق علينا أداء حقه ، فقال عمر : أعوذ بالله من سخط الله ، وسخط رسوله » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا صَلَّى عَلَى مَيِّتٍ ، كَبَّرَ وَتَشَهَّدَ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَصَلَّى عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَدَعَا لِلْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ كَبَّرَ الرَّابِعَةَ وَدَعَا لِلْمَيِّتِ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَانصَرَفَ . فَلَمَّا نَحَاهُ اللَّهُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ، كَبَّرَ وَتَشَهَّدَ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّينَ ، ثُمَّ كَبَّرَ وَدَعَا لِلْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ كَبَّرَ الرَّابِعَةَ وَانصَرَفَ وَلَمْ يَدْعُ لِلْمَيِّتِ » ^(٣) .

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

ثم أنه تعالى بعد التأكيد في إهانة المنافقين ، والإعراض عنهم ، والاستغناء عنهم وعن معاونتهم ، ردع المؤمنين عن توهم أن كثرة مالهم وولدهم موجب لإعزازهم والاعتناء بشأنهم ؛ بقوله : ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ﴾ ولا يحسن في نظرك ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ وإن كثرت ﴿وَأَوْلَادُهُمْ﴾ وإن كانوا كثيرين مقتدرين ، فإنهما موجبان لخسارهم لأجل أنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بتمتعهم بالأموال والأولاد ﴿أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ ما داموا ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يلحقهم من المصائب والهموم ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أن ﴿تَزْهَقَ﴾ وتخرج ﴿أَنْفُسُهُمْ﴾ من أبدانهم أو من الدنيا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ لاشتغالهم بالتمتعات ، وإصلاح مفاسد ما أعطوا ^(٤) من الزينات الفانيات ، وانهماكهم في الشهوات ، والإلهاء عن النظر في الآيات.

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٤٨ / ١٨٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٤٨ / ١٨٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٤ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٤٩ / ١٨٦٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٥ .

(٤) في النسخة : اعطى .

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ

مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦)

ثمَّ أنّ الله تعالى بعد ذمّ المنافقين بالتخلف عن الرسول ومخالفة أمره ، ذمهم بمخالفة أمر نفسه الذي هو في القرآن ، المشتغل على إعجاز البيان ، الدالّ على كونه من الله بقوله : ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ﴾ من قبل الله ﴿سُورَةً﴾ تامّة ، أو آية منها وكان مضمونها : ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيّها المسلمون عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ﴾ وآياته ودينه ﴿وَجَاهِدُوا﴾ أعداء الله ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾ تراهم مع ذلك يتشاقلون ، و﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ في القعود منه ﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ والسّعة والرئاسة ﴿مِنْهُمْ﴾ بأن جاءوا عندك ﴿وَقَالُوا﴾ لك : ﴿ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُنْ﴾ في المدينة ونقعد في بيوتنا ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ والمعذّرين عن الجهاد من النّساء والصّبيان والمجانين .

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ * لَكِنْ

الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٧) و (٨٨)

ثمّ ذمهم الله بقوله : ﴿رَضُوا﴾ حبّاً للبقاء ، وشوقاً إلى الشّهوات ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ والعجزة الذين وظيفتهم التخلف كالتّساء والصّبيان والمجانين ، أو المراد : مع الذين لا خير فيهم ﴿وُطِبِعَ﴾ الله وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بأن أظلمها وأفساها في الغاية ﴿فَهُمْ﴾ لذلك الطّبع والحتّم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الإيمان الحقيقي والجهاد في سبيل الله من الخير وسعادة الدّارين ، وما في التخلف عنه ، وتحمل منافيات المروءة ؛ من الذلّ والعار ، ومن الشّقاوة والتّكال .

ثمّ بيّن الله سبحانه أنّ حال الرّسول والمؤمنين الذين عقلوا أنّ في الإيمان والجهاد في سبيل الله خير الدّارين ، بخلاف حال المنافقين وأنهم إن تخلفوا عن الغزو ، فقد بادر إليه الذين هم خير منهم وأخلص ؛ بقوله : ﴿لَكِنْ﴾ إن تخلف المنافقون عن الجهاد فقد بادر ﴿الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله واليوم الآخر ﴿مَعَهُ﴾ وبتبعهم ^(١) إليه و﴿جَاهِدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ طاعة لله ، وشوقاً إلى رضاه ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المجاهدون ﴿لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الدّنيويّة والاخرويّة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ﴾ بالخصوص ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدّارين ، والفائزون بأعلى المقاصد والحظوظ التي لا تتصوّرهما العقول في النّشأتين ؛ من النّصر والغنيمة ، والشّرف وحسن الذّكر ، والجنّة والتّعم الدّائمة ، والكرامة

(١) في النسخة : بتبعه .

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
* وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨٩) و (٩٠)﴾

ثم ذكر أهم الحظوظ بقوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ﴾ وهباً ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذوات أشجار كثيرة
مثمرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، أو الأربعة المعهودة ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾
أبدا دائما ﴿ذَلِكَ﴾ الفوز بالجنة ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه.
ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين الذين كانوا في المدينة يتثاقلهم في الجهاد ، وتباطئهم في الخروج ، ذم
أهل البوادي منهم بقوله : ﴿وَجَاءَ﴾ إلى الرسول ﴿الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ والمعتذرون من أهل البوادي
بالأعذار غير الوجهية ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القعود عن الجهاد ﴿وَقَعَدَ﴾ جمع آخر منهم عنه بلا استئذان
واعتماد ، جرأة على الله ورسوله ، لظهور أنهم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعواهم الإيمان بهما.
قيل : إن أقواما تكلفوا عذرا بباطل ، فهم الذين عني الله بقوله : ﴿وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ﴾ وتخلف
الآخرون بلا عذر ولا شبهة عذر ، جرأة على الله تعالى ، فهم المرادون بقوله : ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ﴾
ثم هددهم سبحانه بقوله : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ واستمروا على النفاق ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أما
في الدنيا فبالقتل والأسر ، ونهب الأموال والإذلال ، وأما في الآخرة فبالتأثر ، وسائر فنون العذاب المعد
للكفار.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩١) و (٩٢)﴾

ثم أعذر سبحانه المؤمنين العاجزين عن المسافرة والجهاد بقوله : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ كالمهرمي
والزمنى ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الذين لا يمكنهم السفر لضعف القوى ، أو ظن الضرر ﴿وَلَا عَلَى﴾

الفقراء ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ على أنفسهم في السفر لشدة فقرهم ﴿حَرَجٌ﴾ وبأس في التخلف عن السفر والغزو ، ولكن ذلك ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ وأخلصوا قلوبهم وأعمالهم ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يغشوا الرسول والمؤمنين لأهم المحسنون في أعمالهم ، و﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ من أهل الإيمان شيء ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ من العقاب والعتاب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ، يثيبهم على إيمانهم وإحسانهم أفضل الثواب ﴿وَلَا﴾ حرج أيضا ﴿عَلَى﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا مَا أَنُوكَ﴾ وحضروا عندك والتمسوا منك ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على مركوب ، يطيقون السير معك ، مع وجدانهم التفقة على أنفسهم ، وأنت ﴿قُلْتَ﴾ في جوابهم : إني ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فلما يمسوا منك ﴿تَوَلَّوْا﴾ ورجعوا من عندك ﴿وَأَعَيْنُهُمْ تَفِيقُ﴾ وتسيل ﴿مِنْ الدَّمْعِ﴾ كأن كلها دمع فائض ﴿حَزَنًا﴾ على حرمانهم من الجهاد لأجل ﴿أَلَا يَجِدُوا﴾ من المال مقدار ﴿مَا يَنْفِقُونَ﴾ في شراء المركوب.

قيل : الفقراء الذين لم يجدوا ما ينفقون على أنفسهم هم مزينة وجهينة وبنو عذرة ^(١) ، والذين لم يجدوا ما يحملون عليه سبعة من الأنصار ، فإثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : نذرنا الخروج ، فاحملنا على الخفاف المرقوعة ^(٢) والتعال المخصوفة ، فنغزو معك ، فقال : « لا أجد » ، فتولوا وهم ييكون ^(٣) . وعن ابن عباس : سأله أن يحملهم على الدواب ، فقال ﷺ : « لا أجد ما أحملكم عليه » لأن الشقة بعيدة ، والرجل يحتاج إلى بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماء وزاده ^(٤) . عن القمي رحمه الله : جاء البكاؤون إلى رسول الله ﷺ وهم سبعة نفر ؛ من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، قد شهد بدرًا لا اختلاف فيه ، ومن بني واقف : هرمي ^(٥) بن عمير ، ومن بني حارثة : علبة ^(٦) بن زيد ، وهو الذي تصدق بعرضه ^(٧) ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر بالصدقة ، فجعل الناس يأتون بها ، فجاء علبة فقال : يا رسول الله ، ما عندي ما أتصدق به ، وقد جعلت عرضي حلاً ، فقال له رسول الله ﷺ : قد قبل الله صدقتك. ومن بني مازن بن النجار : أبو ليلي عبد الرحمن بن كعب ، ومن بني سلمة ^(٨) : عمرو ^(٩)

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٤٨٤ .

(٢) في النسخة : المدبوغة .

(٣) تفسير أبي المسعود ٤ : ٩٢ ، تفسير روح البيان ٣ : ٤٨٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٦٢ .

(٥) في النسخة : حرمي ، وفي المصدر : هدمي (هرمي خ ل) ، وقد اختلف في اسم أبيه أيضا ، ففي أسد الغابة : هرمي بن عبد الله ، وفي طبقات ابن سعد ومغازي الواقدي : هرمي بن عمرو . راجع : أسد الغابة ٥ : ٥٨ ، طبقات ابن سعد ٢ : ١٦٥ ، مغازي الواقدي ٣ : ٩٩٤ .

(٦) في النسخة والمصدر : علبة ، تصحيف ، راجع : أسد الغابة ٥ : ١٠ ، طبقات ابن سعد ٢ : ١٦٥ ، مغازي الواقدي ٣ : ٩٩٤ . (٧) تصدقت بعرضه ، أي تصدق بعرضه على من ذكره بما يرجع إليه عيبة .

(٨) في النسخة : بني سلمى ، وما أثبتناه من المصدر واسد الغابة ٤ : ١٢٣ ، وطبقات ابن سعد ٢ : ١٦٥ ، ومغازي الواقدي ٣ : ٩٩٤ .

(٩) في النسخة : عمر ، وما أثبتناه من المصدر والمصادر المتقدمة ، وقد وقع الاختلاف في اسم أبيه ، ففي المصدر : - غنمة (عتمة خ ل) ، وفي أسد الغابة : غنمة ، وفي طبقات ابن سعد : غنمة ، وفي مغازي الواقدي : عتبة .

بن غنيمه ، ومن بني زريق - أو رزين - : سلمة بن صخر ، والعرباض ^(١) بن سارية السلمي . هؤلاء جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليكون ، فقالوا : يا رسول الله ، ليس بنا قوة أن نخرج معك ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ إلى قوله : ﴿لَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ قال : وإنما سأل البكاؤون نعلًا يلبسونها ^(٢) .

وقيل : هم بنو مقرن ، وكانوا سبعة إخوة كلهم صحبوا النبي ﷺ ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم ^(٣) .

وقيل : إنما نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه ^(٤) .

وقيل : إنهم ثلاثة إخوة : معقل ، وسويد . والنعمان ، بنو مقرن ، سألوا النبي ﷺ أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والتعال المخصوفة ^(٥) .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَتَعَذَّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد ما نفى السبيل عن المؤمنين المعذورين ، أثبتها على غير المعذورين بقوله : ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ من العتاب والعقاب والخزي ثابت ﴿عَلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ في القعود والتخلف ﴿وَهُمْ أَغْنَاءُ﴾ واجدون لاهبة السفر والغزو مع السلامة.

ثم كأنه قيل : ما كانت علة استدأهم ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ وتحملوا الذناء والذلة والانتظام في عداد النساء والعجزة ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ﴾ لذلك الطبع ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ منافع الجهاد ومضار القعود عنه أبدا ، ولذا تنفروا عن الجهاد.

قيل : كانوا ثمانين رجلا من قبائل شتى ^(٦) ، ذمهم سبحانه بالاعتذار بالأعذار الباطلة الكاذبة بقوله :

(١) في النسخة : ومن بني الغرماء ضرة ، وفي المصدر : ومن بني العرباض ناصر ، تصحيف ، راجع : المصادر المتقدمة ، واسد الغابة ٣ : ٣٩٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٨٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٦٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٦٢ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٢٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٨ .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف عنكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوة تبوك ﴿إِلَيْهِمْ﴾

ثم لما كان الجواب وظيفه الرسول ، أمره الله بأن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ فإن فائدة الاعتذار دفع التوهم السيء في حق المعتذر ، وهو لا يكون إلا بتصديق المعتذر إليه ، ونحن ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ ولا نصدقكم في اعتذاركم أبدا ؛ لأنه ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ﴾ وأخبرنا بالوحي بعضا ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ الموجب للعلم بضمائركم من الكفر والشر والفساد ، فلذا لا يمكننا تصديقكم فيما هو معلوم الكذب عندنا ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ فيما بعد ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ من التوبة ، ونصرة النبي ﷺ ، والنصح له ، وغيرها مما له شهادة على صدق اعتذاركم ، ومن الغدر والكفر والفساد ما هو من أدلة كذبه ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ وترجعون بالملوث من الدنيا ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ ودار الجزاء المستورة عن الأنظار ﴿وَوَعَدَ اللَّهُ﴾ ﴿الشَّهَادَةَ﴾ وكشف السر عما في الضمائر ، ورفع الحجاب عن الجنة والنار ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ الله عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من السيئات السابقة والآخرة ، والحسنات بما يحكم به عليكم من العتاب والعقاب ، ولكم من الإكرام والثواب .

﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ

رَجَسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)﴾

ثم بعد بيان كذبهم في الاعتذار ، ذمهم سبحانه بخلفهم الكاذب عليه بقوله : ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة ﴿إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ وانصرفتم من سفر الغزو ﴿إِلَيْهِمْ﴾ : إنا ما قدرنا على الخروج ، ولو قدرنا ما تخلصنا ، كما قيل : إنه مقالة جد بن قيس ، ومعتب بن قشير وأصحابهما ^(١) ﴿لِنُغَرِّضُوا عَنْهُمْ﴾ عن لومهم وتعنيفهم ، وتصفحوا عن تقصيرهم . قيل : إنهم طلبوا إعراض الصفح ؛ فأمر الله المؤمنين بإعراض المقت ^(٢) بقوله : ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ عن ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام ^(٣) .

وقيل : قال النبي ﷺ حين قدم المدينة : « لا تجالسوهم ولا تكلموهم » ^(٤) .

ثم نبه سبحانه على علة الإعراض بقوله : ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ وقدر ذاتا وروحا ، لا يتطهرون بالتقريع والنصح ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ ومقرهم في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ لا ينجون منها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر وقبائح الأعمال ، فإذا كانوا كذلك تكون مجالستهم ومكالمتهم مؤثرة في ظلمة

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٩٥ ، تفسير روح البيان ٣ : ٤٨٧ .

(٢) ٣ و ٤ . تفسير الرازي ١٦ : ١٦٤ .

القلب وكدورة الروح ، وموجبة للبعد عن الله.

﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

ثم لما كان المنافقون طالبين للإعراض مع الصّفا والرضا ، نهى الله المؤمنين عن ذلك بقوله :
﴿يَخْلِفُونَ﴾ بالله ﴿لَكُمْ﴾ على صدق معاذيرهم كذبا ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم ، وتعاملوا معهم معاملتكم
مع المسلمين ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فقد خالفتم الله في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ أبدا ﴿عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ﴾ والطّاعين عليه بالكفر وفساد الأعمال ، فعليكم أن لا ترضوا عنهم أيضا لأنّ رضا المؤمن تابع
لرضا الله.

القَمِّي رحمه الله : لما قدم النبي ﷺ المدينة من تبوك ، كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون للمنافقين
ويؤذونهم ، وكانوا يخلفون لهم أنّهم على الحقّ ، وليسوا بمنافقين لكي يعرضوا عنهم ويرضوا عنهم ، فأُنزل
الله هذه الآية (١) .

عن (المجمع) : عن النبي ﷺ : « من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه ، [وأرضى عنه الناس] ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله [سخط الله] عليه ، وأسخط عليه الناس » (٢) .

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ

الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٧) و (٩٨)﴾

ثم أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين من أهل المدينة ، ذمّ أهل البادية منهم بقوله : ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وأهل
البدواري منهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر وسكّان البلد. قيل : لأنّهم يشبهون الوحوش من حيث
إنّهم مجبولون على الامتناع عن الطاعة والانقياد (٣) ﴿و﴾ هم ﴿أَجْدَرُ﴾ وأولى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الأحكام والعبادات ، لعدم ملازمتهم حضوره ، وبعدهم عن استماع القرآن والمواظظ
الشفافية وسنن الرسول ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ، بدويهم

(١) تفسير القمي ١ : ٣٠٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٨ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٦٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٤٨٩ .

وحضريهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازي به محسنهم ومسيئهم.

ثمَّ أنّه تعالى بعد ذمّ المنافقين من الأعراب لشدة الكفر والتّفاق والجهل ، ذمّهم بسوء الأعمال بقوله : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ﴾ ويعدّ ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ من ماله في الظّاهر في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ وخسرانا وضرا على نفسه ، لاعتقاده عدم النّفع له فيه في الدّنيا والآخرة ، وإنّما ينفقه رياء واتّقاء من المسلمين ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ﴾ وينتظر في شأنكم ﴿الدَّوَائِرَ﴾ والمصيبات ؛ من الموت والقتل والأسر بأيدي الكفّار بعد موت الرّسول ﷺ .

ثمّ دعا عليهم بمثل ما طلبوا للمسلمين بقوله : ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ والبليّة المحيطة المكروهة من الخزي والقتل والأسر في الدّنيا ، والعذاب الشّديد في الآخرة ، فلا يرون في النّبّي ﷺ والمؤمنين إلّا ما يسوءهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم عند الإنفاق وغيره ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بنيّاتهم وما في ضمائرهم من الرّياء والاتّقاء والكفر ، وعداوة النّبّي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ
وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْآنٌ لَهُمْ سَيَدْخُلُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٩٩)﴾

ثمّ مدح المؤمنين الخلّص منهم بقوله : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ ويعدّ ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ من أمواله في سبيل الله ﴿قُرْبَاتٍ﴾ ووسائل حصول الكرامة والمثوبة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ عليهم ، ودعائهم لهم بالخير والبركة والغفران .
ثمّ شهد سبحانه بصحة معتقدهم في نفقتهم بقوله : ﴿أَلَا﴾ تنبّهوا أيّها المؤمنون ﴿إِنَّهَا قُرْآنٌ﴾ عظيمة ، ووسيلة حصول المنزلة العالية ﴿لَهُمْ﴾ عند الله ، ومن آثار قريهم أنّه تعالى ﴿سَيَدْخُلُ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وجنته ، ويحيط بهم فضله ونعمه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لسيئاتهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بأن يوفّقهم لطاعته والعمل بمرضاته .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾

ثمّ لما مدح الله المؤمنين من الأعراب ، ووعدهم الثواب ، وأعلن بعدم رضائه عن المنافقين والفاسقين ، بيّن أفضليّة الصّحابة السّابقين في الإيمان والتّصرة ، ورضاءه منهم بقوله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ في الإيمان والتّصرة ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ كأمير المؤمنين وحمزة. وعنه عائشة : « لا يقع اسم الهجرة على أحد إلّا بمعرفة الحجّة في الأرض ، فمن عرفها وأقرّها فهو مهاجر »^(١) ﴿وَوُكِّلَ مِنْ الْأَنْصَارِ﴾ كالسّبعة الذين بايعوا الرّسول ﷺ في العقبة الاولى والسّبعين الذين بايعوه في العقبة الثانية.

والقمي رحمه الله : هم التّقباء ؛ أبو ذرّ ، والمقداد ، وسلمان ، وعمّار ، ومن آمن وصدّق وثبت على ولاية أمير المؤمنين عائشة^(٢) .

وفي (نهج البلاغة) : « اسم الهجرة لا يقع على أحد إلّا بمعرفة الحجّة في الأرض ، فمن عرفها وأقرّها فهو مهاجر »^(٣) .

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ واقتدوا بهم متلبّسين ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ من الأخلاق الحسنة ، والصفّات الكريمة ، والأعمال الصّالحة.

عن الصادق عليه السلام في حديث : « فبدأ بالمهاجرين الأوّلين على درجة سبقهم ، ثمّ ثنى بالأنصار ، ثمّ ثلث بالتّابعين بإحسان ، فوضع كلّ قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده »^(٤) .

روت العامّة : أنّه أوحى إلى النّبي ﷺ وهو ابن أربعين سنة في مكّة ، فبايعه جماعة من النّاس ، فعدا عليهم كفّار قريش فظلموهم ليردّوهم إلى ما كانوا عليه ، فأمرهم النّبي ﷺ بالهجرة إلى أرض الحبشة ، فخرجوا نحو من ثمانين رجلا ، وهذه هي الهجرة الأولى^(٥) .

في نقل كلام الفخر الرازي وردّه

أقول : لا شبهة أنّهم السّابقون في الهجرة ، ولم يكن فيهم أبو بكر ، فما ذكر الفخر الرّازي - من أنّ السّبق إلى الهجرة إنّما حصل لأبي بكر ، فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر^(٦) - من الأغلاط ؛ لأنّ المهاجرين إلى الحبشة كانوا أسبق في الهجرة من أبي بكر ، وإن كان مراده الهجرة إلى المدينة ، فمن المعلوم أنّ مصعب بن عمير كان أسبق منه فيها ، ونصيبه أوفر من نصيبه ، حيث رووا أنّه لما انصرف أهل العقبة الثّانية إلى المدينة ، بعث النّبي ﷺ معهم مصعب بن عمير ليفقّه أهلها ، ويعلمهم القرآن ، وكانت^(٧) هجرته في السنة الثّانية عشر^(٨) .

(١) نهج البلاغة : ٢٨٠ / ١٨٩ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٦٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٠٣ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٦٩ .

(٣) تقدم آنفا .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٣ / ١٨٧٢ ، الكافي ٢ : ٣٤ / ١ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٦٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤٩٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٦ : ١٦٩ .

(٧) في النسخة : كان .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ٤٩٢ .

ثمّ بشرّ سبحانه المهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسان برضائه عنهم بقوله : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدّنيويّة والاخرويّة.

قال الفخر الرّازي : فإذا ثبت هذا يعني كون أبي بكر من السّابقين إلى الهجرة ، صار محكوما عليه بأنّه رضي الله عنه ورضي هو عنه ، وذلك في أعلى الدّرجات من الفضل ، فإذا ثبت هذا وجب أن يكون إماما حقّا بعد الرّسول ، إذ لو كانت إمامته باطلة لاستحقّق اللّعن والمقت ، وذلك ينافي مثل هذا التعظيم ، فصارت هذه الآية من أدلّ الدلائل على فضل أبي بكر وعمر ، وصحّة إمامتهما. ثمّ أورد على نفسه : بأنّه لم قلتّم أنّه بقي على تلك الحالة ، ولم لا يجوز أن يقال أنّه تغيّر عن تلك الحالة ، وزالت عنه تلك الفضيلة ، بسبب إقدامه على الإمامة ^(١) .

ثمّ أجاب عنه : بأنّ قوله تعالى : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يتناول جميع الأوقات والأحوال ؛ بدليل أنّه لا وقت ولا حال إلّا ويصحّ استثناءه منه ، فيقال : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ إلّا في وقت طلب الإمامة ، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ ^(٢) .

أقول : فيه أنّ الظاهر من الآية رضاه تعالى عنهم في أوّل إيمانهم وهجرتهم ، وإنّه باق ما لم يصدر منهم ما يوجب الغضب والسّخط ، ولو لا ذلك لزم القول برضائه تعالى عن عمر وعثمان حين فرارهما من الرّحف يوم احد ، وكون فرارهما حقّا ، ولزم ذلك كون ثبات الرّسول ﷺ فيه باطلا ، وعن جميع الصّحابة حين مخالفتهم الرّسول ﷺ ومعارضتهم له يوم الحديبية.

ومع القول بذلك لا معنى لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ^(٣) لأنّ رضاه حصل ولم يزل ، فكان الإخبار بحدوثه بعد البيعة إخبارا بحصول ما كان حاصلًا ، ولزم القول برضائه تعالى عن الزّبير حين خروجه من بيت أمير المؤمنين ﷺ بالسّيف ، يوم اجتماع النّاس على بابه لإخراجه إلى بيعة أبي بكر ، وكونه حقّا ، فكانت إمامة أبي بكر وبيعته باطلتين.

وأیضا لزم كون قتال طلحة والزّبير مع أمير المؤمنين ﷺ حقّا ، ولا يقول به مسلم ، وكون تخلف كثير من الصّحابة والسّابقين الأوّلين - كسعد بن عباد وأضرابه ، عن بيعة أبي بكر ، واجتماعهم على قتل عثمان - حقّا ، فكانت ^(٤) إمامة أبي بكر وعثمان باطلة خصوصا بناء على ما قاله أكثر مفسّري العائمة من أنّ الآية تتناول جميع الصّحابة ؛ لأنّ جميعهم موصوفون بكونهم سابقين أوّلين بالنّسبة إلى سائر المسلمين ^(٥) .

(١) تفسير الرّازي ١٦ : ١٦٩ .

(٢) تفسير الرّازي ١٦ : ١٧٠ .

(٣) الفتح : ٤٨ / ١٨ .

(٤) في النسخة : فكان .

(٥) تفسير الرّازي ١٦ : ١٧١ .

ثم بشرهم الله بالتَّوَابِ الاخرى بقوله : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ﴾ المذكور من رضاء الله عنهم ، وخلودهم في الجنة هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز ولا نجاح أعظم منه.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَتْ لَهُمْ مَّرَاتِنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

ثم أنه تعالى بعد ذم المنافقين المشهورين في المدينة والبوادي ، أخبر بنفاق بعض المسلمين المبطنين للنفاق بقوله : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ وفي أطراف بلدكم ﴿مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ وأهل البوادي المشهورين بينكم بالإيمان ﴿مُنَافِقُونَ﴾ مستور نفاقهم عنكم. قيل : هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار ، كانوا نازلين حول المدينة ^(١) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا﴾ وعتوا واستمروا ﴿عَلَى النَّفَاقِ﴾ وبلغوا في المهارة فيه إلى درجة ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مع كمال فطنتك ، وقوة فراستك ، و﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعرفهم لإحاطتنا بضمايرهم وأسرارهم ﴿سَعَدَتْ لَهُمْ﴾ قبل يوم القيامة ﴿مَّرَاتِنِ﴾ مرة في الدنيا ، ومرة في البرزخ والقبر. وقيل : إن المراد من ﴿مَّرَاتِنِ﴾ تكرر عذابهم في الدنيا ^(٢) ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ في القيامة ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ لا يقادر قدره.

﴿وَأَخْرُوزٌ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾

ثم ذكر سبحانه القسم الثالث من أهل المدينة بقوله : ﴿وَأَخْرُوزٌ﴾ منهم ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ قيل : هم المنافقون الذين تابوا من نفاقهم ^(٣). وقيل : هم جمع من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك كسلا لا نفاقا وكفرا ^(٤) ، ثم أقرّوا على أنفسهم بالعصيان ، وأظهروا الندامة ، وهم ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ من حضورهم في الغزوات ، واهتمامهم بالعبادات ، وندمهم على القعود عن غزوة تبوك ، وتوبتهم من التخلف ﴿وَأَخَرَ سَيِّئًا﴾ من المعاصي السابقة واللاحقة.

روي أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعه بن حزام ^(٥) .

وقيل : كانوا عشرة ، فسبعة منهم لما بلغهم ما نزل في المتخلفين وأيقنوا بالهلاك ، أوثقوا أنفسهم

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٧٣ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٩٧ ، تفسير روح البيان ٣ : ٤٩٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٩٨ ، تفسير روح البيان ٣ : ٤٩٤ .

(٣) و (٤) . تفسير الرازي ١٦ : ١٧٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٧٥ .

على سواي المسجد ، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد وصلى ركعتين ، وكانت هذه عادته ، فلما رآهم موثقين سأل عنهم ، فذكر له أنهم حلفوا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون الرسول هو الذي يحلهم ، فقال ﷺ : « وأنا أقسم أي لا أحلهم حتى أومر فيهم » . فنزلت هذه الآية .

فأطلقهم وعذرهم ^(١) لما أخبر الله بقبول توبتهم بقوله : ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويعود عليهم بالرحمة والمغفرة ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ومفضل عليهم بالتواب .

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ

لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣)

روي أنهم قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا ، وإنما تخلفنا عنك بسببها ، فتصدق بها وطهرنا ، فقال : ما امرت أن آخذ من أموالكم شيئا . فنزل قوله تعالى ^(٢) : ﴿خُذْ﴾ يا محمد ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ التي أعطوك ﴿صَدَقَةً﴾ حال كونك ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب التي خلطوها بأعمالهم الصالحة ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بتلك الصدقة أنفسهم بالكمال ، وأموالهم في الدنيا والآخرة بالبركة والثواب - وقيل : يعني تبالغ في تطهيرهم ^(٣) ، أو تعظيم شأنهم وتثني عليهم بما ﴿وَصَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ وادع لهم بالخير والبركة والغفران ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ عليهم ودعائك لهم ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وطمأنينة تطمئن بها قلوبهم . وعن ابن عباس : إن دعائك رحمة لهم ^(٤) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم وتوبتهم ومقالاتهم عند إعطائهم الصدقة ودعائك لهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الصدق والخلوص .

قيل : إن رسول الله ﷺ أخذ ثلث أموالهم لتكميل توبتهم ، وتكفير ذنوبهم التي منها تخلفهم عن الغزو ^(٥) .

عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه قوم بصدقته قال : « اللهم صل عليهم » ^(٦) . وعن الصادق عليه السلام أنه سئل عن هذه الآية : أجارية في الإمام بعد رسول الله ﷺ قال : نعم ^(٧) .

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ

التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٧٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٧٩ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٩٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٨٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٤٩٥ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ١٠٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧١ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٥ / ١٨٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧١ .

ثم لما لم يصرح الله سبحانه في الآية السابقة بقبول توبتهم ، صرح به بقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ الْمُذْنِبِ﴾ **﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾** المؤمنين المذنبين التائبين **﴿وَيَأْخُذُ﴾** منهم **﴿الصَّدَقَاتِ﴾** الصادرة منهم عن خلوص النية. ثم أكد قبول توبتهم بقوله : **﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ السَّوَابُ﴾** على المذنبين ، ومبالغ في قبول توبتهم **﴿الرَّحِيمِ﴾** بهم.

روي أن رسول الله ﷺ لما حكم بصحة توبتهم ، قال الذين لم يتوبوا : هؤلاء الذين تابوا كانوا معنا بالأمس لا يكلّمون ولا يجالسون ، فما لهم ؟ فنزلت ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « أن الله يقول : ما من شيء إلا وقد وكلت [به] من يقبضه غيري إلا الصدقة فيأتي أتلّفها بيدي تلّفها ، حتى إن الرجل ليتصدق بالتمرّة أو بشقّ التمرّة فاريّها له كما يريّ الرجل فلوه ^(٢) وفصيله ، فيأتي يوم القيامة وهو مثل احد وأعظم من احد » ^(٣) .

وعن السجّاد عليه السلام : « ضمنت على ربّي أن الصدقة لا تقع في يد العبد حتى تقع في يد الربّ ، وهو قوله : **﴿هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾** ^(٤) .

وعنه عليه السلام : أنّه كان إذا أعطى السائل قبل يد السائل ، ف قيل له : لم تفعل ذلك ؟ قال : « لأتمّ تقع في يد الله قبل يد العبد » . وقال : « ليس من شيء إلا وكلّ به ملك إلا الصدقة فإنّها تقع في يد الله » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « كان أبي إذا تصدّق بشيء وضعه في يد السائل ثم ارتدّه منه فقبّله وشتمه [ثم رده في يد السائل] » ^(٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا ناولتم السائل شيئاً فاسألوه أن يدعو لكم فإنّه يجاب له فيكم ، ولا يجاب في نفسه - إلى أن قال : - وليردّ الذي ناوله يده إلى فيه فيقبلها ، فإنّ الله تعالى يأخذها قبل أن تقع في يده ، كما قال : **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾** ^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام في حديث : « والأخذ في وجه القبول منه ، كما قال : **﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾** أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها » ^(٨) .

وقيل : إنّ قوله **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾** ذكر أنّ الأخذ هو الرسول ﷺ ، وفي هذه ذكر أنّ

الأخذ

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٨٥ .

(٢) الفلو : الجحش أو المهر يقطع أو يبلغ السنة .

(٣) الكافي ٤ : ٤٧ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٧ / ١٨٨٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٧ / ١٨٨٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٦ / ١٨٨٢ ، الكافي ٤ : ٩ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

(٧) الخصال ١٠٩ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

(٨) التوحيد ١٦٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٢ .

هو الله ، فيفهم من الآيتين أنَّ أحد الرسول أخذ الله ، ففيه التنبيه على عظم شأن الرسول ﷺ (١) .

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

ثم رغب سبحانه التائبين على العمل بعد قبول توبتهم ، أو عموم العباد في مطلق الخيرات ، ورهبهم من العصيان بقوله : ﴿وَقُلِ﴾ للتائبين ، أو لعموم المؤمنين : ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شئتم من الأعمال خيرا أو شرا ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ﴾ ويعلم البتة ﴿عَمَلَكُمْ﴾ خيرا كان أو شرا ، ظاهرا كان أو خفيا ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أيضا يراه ، بل ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يرونه .

عن الباقر عليه السلام : « هو والله علي بن أبي طالب عليه السلام » (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « هم الأئمة عليهم السلام » (٣) .

وعنه عليه السلام قال : « إيتانا عني » (٤) .

وعنه عليه السلام : « تعرض على رسول الله ﷺ أعمال العباد كل صباح ، أبرارها وفجارها ؛ فاحذروها ، وهو قوله تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا...﴾ الآية » (٥) .

وعنه عليه السلام أنه قرئ عنده هذه الآية فقال : « ليس هكذا هي ، إنما هي (والمؤمنون) ، فنحن المؤمنون » (٦) .

أقول : ليس المراد تغيير اللفظ ، بل بيان أن مادة « مؤمنون » الأمن لا الإيمان .

وروي : لو أنَّ رجلا عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة ، لخرج عمله إلى الناس كائنا ما كان (٧) .

﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ وترجعون البتة بعد الموت ﴿إِلَى﴾ جزاء أعمالكم ، أو إلى دار الآخرة التي هي معنى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ لغيابه عن أنظار العامة ، ﴿وَوَعَدَ﴾ عالم ﴿الشَّهَادَةِ﴾ لحضوره عند الناس ، أو لشهودهم حقائق الأعمال والأشياء فيه ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم الله ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بإراءتكم جزاءه .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٨٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٨ / ١٨٨٩ ، الكافي ١ : ١٧١ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٩ / ١٨٩٣ ، الكافي ١ : ١٧١ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٣ .

(٤) الكافي ١ : ١٤٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٣ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢٥٩ / ١٨٩١ ، الكافي ١ : ١٧١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٣ .

(٦) الكافي ١ : ٣٥١ / ٦٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٣ .

(٧) تفسير الرازي ١٦ : ١٨٩ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٠١ .

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ إِذَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ﴾ (١٠٦)

ثم بيّن سبحانه القسم الآخر من الناس بقوله : ﴿وَأَخْرَجُوا﴾ منهم قوم ﴿مُرَجُومٌ﴾ ومؤخرون في جزائهم ﴿لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ وإلى نزول حكمه في شأنهم ، أو إلى إرادته التعذيب أو العفو ، فهو تعالى ﴿إِذَا يُعَذِّبُهُمْ﴾ على ذنوبهم إن سؤفوا التوبة إلى أن يموتوا على ما هم عليه ﴿وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا عن خلوص ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم من التعذيب والعفو .

روي عنهما عليهما السلام في هذه الآية : « أنهم قوم مشركون ، قتلوا مثل حمزة وجعفر وأشباههما من المؤمنين ، ثم دخلوا في الإسلام ، فوحدوا الله وتركوا الشرك ، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنة ، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار ، فهم على تلك الحال إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » ^(١) .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ

حَارَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ

تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٧) و (١٠٨)

ثم ذم الله المنافقين على بناء مسجد ضرار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وبنوا ﴿مَسْجِدًا﴾ بجنب مسجد قبا ^(٢) ، ليكون أو ليضروا به ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ ليفرقوا به ﴿تَفْرِيقًا﴾ ويوقعوا اختلافا ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ﴾ يترصدوا وينتظروا ﴿إِزْوَاجًا﴾ وانتظارا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ﴾

في بيان علة بناء مسجد ضرار

عن ابن عباس وجمع من مفسري العامة قالوا : كانوا اثني عشر رجلا من المنافقين ، بنوا مسجدا ليضاروا مسجد قبا ^(٣) .

وقيل : إن أبا عامر الزاهب - والد حنظلة ، الذي غسلته الملائكة - وسمّاه رسول الله ﷺ الفاسق ، وقد تنصّر في الجاهلية ، وترهب وطلب العلم ، فلمّا خرج رسول الله ﷺ عاداه لأتّه زالت رئاسته ،

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٦١ / ١٩٠١ والكافي ٢ : ٢٩٩ / ١ عن الباقر عليه السلام ، تفسير القمي ١ : ٣٠٤ عن الصادق عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٤ .

(٢) مسجد قبا : أصله اسم بئر في قرية تجتمع حولها بنو عمرو بن عوف ، على ميلين من المدينة ، وفيها مسجد التقوى ، وهو أول مسجد صليت فيه صلاة الجمعة .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٣ . عن ابن عباس ومجاهد وقتاده وعامة أهل التفسير .

وقال : لا أجد قوما يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم ، ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلمّا انهزمت هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح ، وابنوا لي مسجدا ، فيأتيّ ذاهب إلى قيصر وآت من عنده بجند فاخرج محمدا وأصحابه . فبنوا هذا المسجد ، وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلّي بهم في ذلك المسجد ^(١) .

وعن (الجوامع) قال : روي أنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قبا ، وصلّى فيهم رسول الله ﷺ حسدّهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، وقالو : بنينا مسجدا نصلّي فيه ولا نخضر جماعة محمّد . فبنوا مسجدا إلى جنب مسجد قبا ، وقالوا لرسول الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك : إنّنا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه ، فقال : « إني على جناح سفر » . ولما انصرف من تبوك نزلت الآية ، فأرسل من هدم المسجد وأحرقه ، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ^(٢) .

ثمّ أخبر الله تعالى بنفاق البانين للمسجد بقوله : ﴿وَلِيُخْلِفَنَّ﴾ بالله للرسول ﷺ عند سؤاله عن علّة بنائه ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ وما قصدنا بنيائه ﴿إِلَّا﴾ الفعلة أو الخصلة أو الإرادة ﴿الْحُسْنَى﴾ من الصلّاة والتوسعة على ضعفاء المؤمنين وقيل : إنهم قالوا لرسول الله ﷺ : إنّنا قد بنينا مسجدا لذي العلّة والحاجة ، والشيخ الفاني ، والليلة الممطرة ، والليلة الشتائية ^(٣) . فردّ الله سبحانه عليهم ، وكذب قولهم وحلفهم بقوله : ﴿وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يقولون .

عن القمّي قال : كان سبب نزولها أنّه جاء قوم من المنافقين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، أتأذن لنا أن نبني مسجدا في بني سالم للعليل والليلة الممطرة ، والشيخ الفاني ؟ فأذن لهم رسول الله ﷺ وهو على جناح الخروج إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ، لو أتيتنا وصلّيت فيه ، فقال : « أنا على جناح السّفَر ، فإذا وافيت - إن شاء الله - أتيتك فصلّيت فيه » .

فلمّا أقبل رسول الله ﷺ من تبوك نزلت هذه [الآية] في شأن المسجد وأبي عامر الرّاهب ، وقد كانوا حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم يبنون ذلك للصّلاح والحسنى ، فأُنزل الله على رسوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني : أبا عامر الرّاهب ، كان يأتيهم ويذكر رسول الله ﷺ وأصحابه ^(٤) .

قيل : إنّ كان من أشرف قبيلة الخزرج ، وكان له علم بالتّوراة والإنجيل ^(٥) . وكان يذكر صفات

(١) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٣ .

(٢) جوامع الجامع : ١٨٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٧٥ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٢٠ ، تفسير الرازي ١٦ : ١٩٤ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٠٥ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٧٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٥ .

النبي ﷺ لأهل المدينة قبل هجرته إليها ، فلما هاجر إليها وآمن به أهلها ، تركوا صحبة أبي عامر ^(١) ، فحسد النبي ﷺ وقال له : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : « دين إبراهيم الخليل » . قال : لا والله ، ليس ذلك . فقال النبي : « بل جئت بما بيضاء نقيّة » . فقال أبو عامر : أمات الله من [هو] كاذب منا طريدا وحيدا غريبا . فقال النبي ﷺ : « آمين » ، فهرب بعد غزوة بدر ولحق بكفار مكة ^(٢) . وعن تفسير الإمام عليّ : « أنّ رسول الله ﷺ كان تأتيه الأخبار عن صاحب دومة الجندل ، وكان ملك النواحي ، له مملكة عظيمة مما يلي الشام ، وكان يهدّد رسول الله ﷺ بقصده وقتل أصحابه ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ خائفين وجلين من قبله ... ثم إنّ المنافقين اتفقوا وباعوا لأبي عامر الزّاهب الذي سمّاه رسول الله ﷺ الفاسق ، وجعلوه أميرا عليهم ، وبخعوا له بالطّاعة ، فقال لهم : الرأي أن أغيب عن المدينة لئلاّ اتهم إلى أن يتمّ تدبيركم ، وكاتبوا أكيدر صاحب دومة الجندل ليقصد المدينة ^(٣) . فأوحى الله إلى محمّد ﷺ وعرفه ما أجمعوا عليه من أمره ، وأمره بالمسير إلى تبوك ، وكان رسول الله ﷺ كلّما أراد غزوا ورى بغيره إلاّ غزوة تبوك ، فإنّه أظهر ما كان يريد ، وأمر أن يتزوّدوا لها ، وهي الغزاة التي افتضح فيها المنافقون ، وذمّهم الله في تثبطهم عنها ، وأظهر رسول الله ﷺ ما أوحى إليه أنّ الله سيظهره بكيدر - أو أكيدر - حتّى يأخذه ويصلحه على ألف أوقية من ذهب في رجب ومائتي حلّة ، وألف أوقية في صفر ومائتي حلّة ، وينصرف سالما إلى ثمانين يوما ، وقال لهم رسول الله ﷺ : إنّ موسى وعد قومه أربعين ليلة ، وأنا أعدكم ثمانين ليلة ، ثمّ أرجع سالما غانما ظافرا بلا حرب تكون ، ولا يستأسر أحد من المؤمنين . فقال المنافقون : لا والله ، ولكنّها آخر كراته [التي] لا ينجز بعدها ، إنّ أصحابه ليموت بعضهم في الحرّ ورياح البوادي ومياه المواضع المؤذية الفاسدة ، ومن سلم من ذلك فبين أسير في [يد] أكيدر ، وقتيل وجريح .

واستأذنه المنافقون بعلل ذكروها ؛ بعضهم يعتلّ بالحرّ ، وبعضهم بمرض في جسده ، وبعضهم بمرض عياله ، وكان يأذن لهم .

فلما صحّ عزم رسول الله ﷺ على الرحلة إلى تبوك ، عمد هؤلاء المنافقون فبنوا خارج المدينة مسجد ضرار ، يريدون الاجتماع فيه ، ويوهمون أنّه للصّلاه ، وإنّما كان ليجمعوا فيه لعلّ الصلاة فيتمّ تدبيرهم وتقع هناك ما يسهل به لهم ما يريدون .

ثمّ جاء جماعة منهم إلى رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله ، إنّ بيوتنا قاصية عن مسجدك ،

وإنّا

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٦ .

(٣) زاد في المصدر : ليكونوا هم عليه ، وهو يقصدهم فيصطلموه .

نكره الصلّاة في غير جماعة ، ويصعب علينا الحضور ، وقد بنينا مسجدا ، فإن رأيت أن تقصده وتصلّي فيه لنتيّم وتبرك بالصلّاة في موضع مصلاّك ، فلم يعرفهم رسول الله ﷺ ما عرفه الله من أمرهم ونفاقهم ، فقال : ائتوني بحماري ، فأتي بيعفور فركبه يريد مسجدهم ، فكلّما بعثه هو وأصحابه لم ينبعث ولم يمشي ، فإذا صرف رأسه عنه إلى غيره سار أحسن سيره وأطيبه ، قالوا : لعلّ الحمار رأى من الطريق شيئا كرهه ولذلك لا ينبعث نحوه.

فقال رسول الله ﷺ : ائتوني بفرس فركبه ، فلمّا بعثه نحو مسجدهم لم ينبعث ، وكلّما حرّكه نحوه لم يتحرّك ، حتّى إذا فتلوا رأسه إلى غيره سار أحسن سير ، فقالوا : لعلّ هذا الفرس قد كره شيئا في هذا الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : تعالوا نمش إليه ، فلمّا تعاطى هو ومن معه المشي نحو المسجد جثوا في مواضعهم ولم يقدروا على الحركة ، فإذا همّوا بغيره من المواضع حقّت حركاتهم ، وحقّت أبدانهم ونشطت قلوبهم ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أمر قد كرهه الله ، وليس يريد الآن وأنا على جناح سفر ، فأمهلوا حتّى أرجع إن شاء الله ، ثمّ أنظر في هذا نظرا يرضاه الله.

وجد في العزم على الخروج إلى تبوك ، وعزم المنافقون على اصطلام مخلفيهم إذا خرجوا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا محمد ، العلي الأعلى يقرئك السلام ، ويقول : إمّا أن تخرج أنت وقيم عليّ ، وإمّا أن يخرج عليّ وقيم أنت ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك لعليّ ، فقال عليّ عليه السلام : السمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ، وإن كنت أحبّ أن لا أتخلف عن رسول الله في حال من الأحوال.

فقال رسول الله ﷺ : أما ترضى أن تكون مّيّ بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي . قال : رضيت يا رسول الله ، فقال له رسول الله : يا أبا الحسن ، إنّ [لك] أجر خروجك معي في مقامك في المدينة ، وإنّ الله قد جعلك أمة وحدك ، كما جعل إبراهيم أمة ، تمنع جماعة المنافقين والكفار هيبتك عن الحركة على المسلمين.

فلمّا خرج رسول الله ﷺ وشيّعته عليّ عليه السلام ، خاض المنافقون وقالوا : إمّا خلفه محمد بالمدينة لبعضه له وملا له منه ، وما أراد بذلك إلّا أن يبيته المنافقون فيقتلوه . فاتّصل ذلك برسول الله ﷺ ، فقال عليّ عليه السلام : أسمع ما يقولون يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما يكفيك أنّك جلدة ما بين عيني ، ونور بصري ، وكالروح في بدني .

ثمّ سار رسول الله ﷺ بأصحابه ، وأقام عليّ عليه السلام بالمدينة ، فكان كلّما دبر المنافقون أن يوقعوا بالمسلمين فزعوا من عليّ عليه السلام وخافوا أن يقوم معه عليهم من يدفعهم عن ذلك ، وجعلوا يقولون فيما بينهم : هي كرة محمد التي لا يؤوب منها ... إلى أن عاد رسول الله ﷺ غانما ظافرا ، وأبطل الله

كيد المنافقين ، وأمر رسول الله ﷺ بإحراق مسجد ضرار ، وأنزل الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا...﴾ الآيات.

ثم ذكر أنّ أبا عامر الزّاهب كان عجل هذه الامة كعجل قوم موسى ، وأنّه دمر الله عليه وأصابه بقولنج وبرص [وفالج] ولقوة^(١) وبقي أربعين صباحا في أشدّ عذاب ، ثم صار إلى عذاب الله «^(٢) . وقيل : إنّّه مات بالشّام طريدا وحيدا^(٣) .

وقيل : إنّّه أمر الرّسول ﷺ مالك بن الدخشم^(٤) ومعن بن عديّ بخراب المسجد وإحراقه ، فألقوا فيه النّار فاحترق بعض من فيه^(٥) .

قيل : إنّ مجمع بن جارية^(٦) كان إمام مسجد ضرار ، ثمّ جاء إلى عمر وطلب منه إمامة مسجد قبا ، قال عمر : لا ، إنّك كنت إمام مسجد ضرار ، قال مجمع : مهلا لا تعجل عليّ ، إنّني كنت في ذلك الزّمان شابّا وكان المصلّون فيه شيوخا ، وكنت قارئاً للقرآن وهم لا يعلمون منه شيئا ، وما كنت مطلّعا على أحوالهم ، ولو كنت مطلّعا ما أقمت معهم ساعة ، فقبل عمر عذره وأعطاه إمامة مسجد قبا^(٧) .

ثمّ قيل : لما رجع النّبيّ ﷺ من تبوك همّ أن يذهب إلى مسجد ضرار ، فنهاه الله عنه^(٨) بقوله

:

﴿لَا تَقُمْ﴾ يا محمّد للصّلاة ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ والله ﴿لَمَسْجِدَ أُسَسْ﴾ وبني ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾ وخلوص النّيّة والأغراض الخيريّة ﴿مَنْ أَوَّلَ يَوْمٍ﴾ بني - عنهما عليهما السلام : يعني مسجد قبا^(٩) - ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ للصّلاة ﴿فِيهِ﴾ من أن تقوم للصّلاة في مسجد أسس على العصيان والضّرر على المسلمين. روي أنّ رسول الله ﷺ لما هاجر من مكّة وقدم قرية قبا - وهي قرية بقرب المدينة على نصف فرسخ - نزل في بني عمرو بن عوف ؛ وهم بطن من الأوس ، على كلثوم بن هرم^(١٠) ، وكان شيخ بني عمرو بن عوف ، أسلم قبل وصول الرّسول ﷺ إلى قبا أو بعده - على خلاف فيه - فلمّا نزل قال عمّار بن ياسر : لا بدّ لرسول الله من أن يجعل له مكان يستظلّ به إذا استيقظ ويصلّي فيه ، فجمع

(١) القولنج : مرض معويّ مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح ، وسببه التهاب القولون ، والبرص : بياض يقع في الجسد لعلّة ، واللّقوة : داء يعرض للوجه ، يعوجّ منه الشّدق إلى أحد جانبيّ العنق ، فيخرج البلغم والبصاق من جانب واحد ، ولا يحسن التقار الشفتين ، ولا تنطبق إحدى العينين.

(٢) التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام : ٤٨١ - ٤٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٦.

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٢١ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٦.

(٤) في النسخة : مالك بن الدخشم ، تصحيف ، راجع : اسد الغابة ٤ : ٢٧٨.

(٥) تفسير مجمع البيان ٥ : ١١٠.

(٦) في النسخة : مجمع بن حارث ، تصحيف ، راجع : اسد الغابة ٤ : ٣٠٣.

(٧) الكشف ٢ : ٣١٢.

(٨) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٥.

(٩) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٢ / ١٩٠٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٩.

(١٠) في النسخة : كلثوم بن الهند ، وفي تفسير روح البيان : كلثوم بن الهذم ، تصحيف ، راجع : اسد الغابة ٤ : ٢٥١.

حجارة فأسس رسول الله ﷺ مسجدا ، واستتمّ بنيانه عمّار ، فعَمَّارُ أَوَّل من بني مسجدا لعموم المسلمين ، وكان مسجد قبا أول مسجد صلّى فيه رسول الله ﷺ بأصحابه جماعة ظاهرين ، فلبث رسول الله بقبا بقيّة يوم وروده وهو يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس - وقيل : بضع عشرة ليلة ، وقيل : أربعة عشر يوما - فلمّا تحوّل منه إلى المدينة كان يأتيه يوم السّبت ما شيا أو راكبا ويصلّي فيه ، ثمّ ينصرف (١) .

وقيل : إنّ الله ﷻ كان يأتيه في كلّ سنة ويصلّي فيه (٢) .

وقيل : إنّ المراد من المسجد مسجد الرّسول في المدينة (٣) .

وروي أنّ رجلين اختلفا فيه ، فقال أحدهما : مسجد قبا ، وقال آخر : مسجد الرّسول ، فسألاه ﷻ ، فقال : « هو مسجدي هذا » (٤) .

ثمّ بيّن سبحانه وجه ترجيح مسجد المؤمنين بقوله : ﴿ فِيهِ رَجُلٌ ﴾ مؤمنون ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ من الأقدار الجسمانيّة ؛ كالبول والغائط ، بالماء والأحجار ، ومن الأقدار الرّوحانيّة ؛ كالذنوب والأخلاق الرذيلة ، وأدناس الشكّ والشكّ ، بالتوبة والرياضة ، والجدّ في القيام بوظائف العبوديّة ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ ويحيط بهم فضله ورحمته .

روي أنّه لما نزلت هذه الآية ، مشى رسول الله ومعه المهاجرون حتّى وقف على باب مسجد قبا ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : مؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ، ثمّ أعادها ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنهم لمؤمنون ، وأنا معهم ، فقال : أترضون بقضاء الله ؟ قالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : نعم ، قال : أتشكرون في الرّخاء ؟ قالوا : نعم ، قال ﷻ : مؤمنون وربّ الكعبة . ثمّ قال : يا معشر الأنصار ، إنّ الله أثنى عليكم ، فما الذي تصنعون في الوضوء ؟ قالوا : نتبع الماء الحجر ، فقرأ النبيّ : ﴿ فِيهِ رَجُلٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ... ﴾ الآية (٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « هو الاستنجاء بالماء » (٦) .

وعن الباقر والصادق عليه السلام : ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ : بالماء عن الغائط والبول (٧) .

وروي أنّ أَوَّل من استنجى بالماء إبراهيم عليه السلام (٨) .

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٥ .

(٣) جوامع الجامع : ١٨٦ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٦ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٢١ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٨ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٣ / ١٩٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٩ .

(٧) مجمع البيان ٥ : ١١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٧٩ .

(٨) تفسير روح البيان ٣ : ٥٠٨ .

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ

شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)﴾

ثم أنكر سبحانه اعتقاد التساوي بين مسجد قبا ومسجد ضرار ، أو فضيلة الثاني على الأول تنبيها على فضيلة الأول على الثاني بقوله : ﴿أَفَمَنْ﴾ والتقدير : أبعد ما علم حال المتقين ، فمن ﴿أَسَّسَ﴾ وأحكم قواعد دينه ومسجده و﴿بُنْيَانَهُ﴾ بوضعه ﴿عَلَى تَقْوَى﴾ وخوف ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ في مخالفته ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ عظيم منه بالاشتغال بطاعته ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع أساس دينه ومسجده و﴿بُنْيَانَهُ عَلَى﴾ الباطل الذي هو مثل ﴿شَفَا جُرُفٍ﴾ وشفير طين مجتمع في طرف السيل ﴿هَارٍ﴾ ومشرف على السقوط ، في عدم الثبات ﴿فَانْهَارَ﴾ وأهوى باطل المبطل ، ونفاق المنافق ﴿بِهِ﴾ بعد موته بسرعة ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ؟﴾ وحاصل المراد ، والله أعلم : أنّ البناء الذي كان بغرض التقوى والخوف من الله ، وبقصد تحصيل مرضاته لازم الإبقاء ، ولبانيه الفضيلة ، والذي كان بغرض الكفر والتفاح لازم الهدم ، ولبانيه النار والعقاب ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوصل إلى النجاة والتجاح والخير والصّلاح ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بمعصية الله والكفر والتفاح.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ (١١٠)﴾

ثم بيّن الله سبحانه ضرر بناء مسجد ضرار على أنفس المنافقين بقوله : ﴿لَا يَزَالُ﴾ ويكون دائما ﴿بُنْيَانُهُمْ﴾ ومسجدهم ﴿الَّذِي بَنَوْا﴾ ضارا على أنفسهم ، لأنّه زاد ﴿رِيبَةً﴾ وشكّا ثابتا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حالا بعد حال ، لا خلاص لهم منه ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعا ، وتفرّق أجزاؤهم ^(١) تفريقا بحيث لا يبقى لها قابليّة إدراك وإضمار ، أو قابلية حياة ، فما دامت قلوبهم سالمة لا تخلو من الريب . قيل : إنّ المنافقين عظم فرحهم ببناء المسجد ، فلما أمر الرسول ﷺ بتخريبه ثقل ذلك عليهم ، وازداد بغضهم له وارتياحهم في نبوته ﷺ ^(٢) .

وقيل : إنّ الرسول ﷺ لما أمر بتخريب المسجد ، ظنّوا أنّه لأجل الحسد ، فارتفع أمانهم عنه ، وعظم خوفهم منه ، وصاروا مرتابين في أنّه هل يتركهم أو يقتلهم ويأمر بنهب أموالهم ^(٣) . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنفاقهم وسوء ضمائرهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بتخريب مسجدهم .

(١) في النسخة : أجزائه .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٦ : ١٩٧ .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد بيان تخلف المنافقين عن الغزو ، وإصرارهم على القعود عن الجهاد ، وتديبرهم في تخريب الاسلام وذمهم على ذلك ، بين فضيلة المؤمنين الخالص (١) ، ورغبهم في الجهاد بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الخالص (٢) ببيعتههم ومعاهدتهم مع الرسول ﷺ على نصرته ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ كي يبدلوهما في تقوية الإسلام وترويجه ، وحفظ الرسول ﷺ ونصرته ﴿بِأَنْ لَهُمُ﴾ بالاستحقاق في الآخرة ﴿الْجَنَّةَ﴾ ونعمها أبدا ، فهم وفاء بهذه المعاملة والمبايعة ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ الكفار والمشركين ، ويبذلون أموالهم وأنفسهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطلبا لمرضاته ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ أعداءه ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ في نصرته رسوله وحماية دينه .

قيل : لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية بمكة وهم سبعون - أو أربعة وسبعون - نفسا قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؟ فقال ﷺ : « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك ، فماذا لنا ؟ قال : « الجنة » ، قالوا : ربح البيع لا نقيلا ولا نستقيل ، فنزلت (٣) .

وفي التعبير عن الأمر بالجهاد باشتراؤه أنفسهم وأموالهم ؛ مع كونه تعالى مالكهما ، غاية التلطّف في الدّعوة إليه ، والتّحريض عليه ، وإشارة إلى أنّ المؤمن مادام كونه متعلّق القلب بحياته وماله ، امتنع وصوله إلى الدّرجات العالية من القرب والنّعم الاخرية .

ثمَّ أكّد سبحانه وعده بالجنة بقوله : ﴿وَعْدًا﴾ واجب الوفاء ﴿عَلَيْهِ﴾ تعالى وفي عهده ﴿حَقًّا﴾ وثابتا بحيث لا يمكن تخلفه عنه وترك وفائه به .

ثمَّ لما كان من لوازم البيع الذي يكون ثمنه مؤجلا أن يكتب في كتاب ، أخبر سبحانه عن الكتاب الذي كتب هذا البيع فيه بقوله : ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ والتّقدير : أنّه يشبّه فيهما ﴿وُ﴾ في ﴿الْقُرْآنِ﴾ وقيل : إنّ المراد أنّه تعالى ذكر في التّوراة والإنجيل أنّه اشترى من أمة محمّد ﷺ أنفسهم وأموالهم

(١ و ٢) في النسخة : الخالصين .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ١٩٩ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥١٢ .

بأنّ لهم الجنة ، كما بيّن ذلك في القرآن ^(١) .

وعلى التفسير الأول تكون الآية دليلاً على ثبوت الأمر بالجهاد في الشريعتين السابقتين على الاسلام.

ثمّ أكّد سبحانه وجوب وفائه بهذا العهد بقوله : ﴿وَمَنْ﴾ يكون ﴿أَوْفَى﴾ وأعمل ﴿بِعَهْدِهِ مِنْ﴾ الله ﴿والذات المتّصف بالالوهية﴾ مع كون الحكمة والعدل المقتضيين للوفاء بالعهد ، وامتناع التخلف عنه عينها ، فإذا كان الأمر كذلك يمتنع أن يساويه أحد في الوفاء فضلاً عن أن يكون أوفى منه ، إذن ﴿فَاسْتَبِشِرُوا﴾ وافرحوا غاية الفرح أيّها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمْ﴾ أنفسكم وأموالكم من الله بالجنة ، وقيل : أي بالثمن ^(٢) ﴿الَّذِي بَايَعْتُمْ﴾ أنفسكم وأموالكم ﴿بِهِ﴾ وفيه غاية التقرير للبيع ، وإشعار بغاية الرّبح فيه ، حيث إنّّه مبادلة الفاني بالباقي ، والزائل بالدائم ، مع كون البديلين له تعالى .

ثمّ قرّر ذلك بقوله : ﴿وَذَلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والتّجّاح الأكمل بأعلى المقاصد .
روى الخضر الرّازي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : « ليس لأبدانكم ثمن إلّا الجنة فلا تبيعوها إلّا بما » ^(٣) .

وروى بعض العامّة عنه عليه السلام أنّه كان يقول : « يابن آدم اعرف قدر نفسك ، فإنّ الله عزّك قدرك ، لم يرض أن يكون لك ثمن إلّا الجنة » ^(٤) .

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ﴾

﴿بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

ثمّ عزّف سبحانه المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بقوله : ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الشّرك - كما عن ابن عباس ، أو منه ومن التّفاق ؛ كما عن بعض ، أو من كلّ معصية ؛ كما عن آخرين ^(٥) - و﴿الْعَابِدُونَ﴾ لله المعظّمون له في السّراء والضّراء - وعن ابن عباس : الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم ^(٦) - و﴿الْحَامِدُونَ﴾ له على كلّ حال ، الشّاكرون لنعمائه الدّنيويّة والاخرويّة ، و﴿السَّائِحُونَ﴾ وهم الصائمون - كما عن ابن عباس ^(٧) ، أو الطالبون للعلم ، السائرون في الأرض لطلبه ؛ كما عن عكرمة ^(٨) ، أو المجاهدون والمهاجرون ؛ كما عن بعض ^(٩) - و﴿الرَّاكِعُونَ﴾ لله ﴿السَّاجِدُونَ﴾ له ؛ وهم

(١) تفسير الرّازي ١٦ : ٢٠١ .

(٢) تفسير مجمع البيان ٥ : ١١٤ .

(٣) تفسير الرّازي ١٦ : ١٩٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٥١٣ .

(٥) تفسير الرّازي ١٦ : ٢٠٢ .

(٦ و ٧) . تفسير الرّازي ١٦ : ٢٠٣ .

(٨) تفسير الرّازي ١٦ : ٢٠٤ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥١٩ .

(٩) تفسير الرّازي ١٦ : ٢٠٤ .

الحافظون للصلاة ، المديون عليها ، و﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الإيمان بالله والرسول وطاعتهما ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من الشرك والعصيان ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ من تكاليفه وأحكامه ، المراعون لها ، المجتهدون في العمل بها .

ثم أنه تعالى بعد أمره المؤمنين بالاستبشار في الآية السابقة ، أمر نبيه ﷺ ببشارتهم بأعلى المثوبات بقوله : ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا محمد ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بثواب يجلّ عن إحاطة الأفهام به ، وبلوغ الأوهام إليه ، والتعبير بالكلام عنه .

عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت هذه الآية ، يعني ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى آخره ، قام رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ، أرايتك الرجل يأخذ الله سيفه فيقاتل حتى يقتل ، إلا أنه يعترف من هذه المحارم ، أشهد هو ؟ فأنزل الله على رسوله ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآية ، فبشّر النبي ﷺ المجاهدين من المؤمنين الذين هذه صفتهم وحليتهم بالشهادة والجنة » .

وقال عليه السلام : ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب ، ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الذين لا يعبدون إلا الله ، ولا يشركون به شيئا ، ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على كل حال في الشدة والرخاء ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ الذين يواظبون على الصلوات الخمس ، الحافظون لها ، والحافظون عليها بركوعها وسجودها ، والخشوع فيها ، وفي أوقاتها ﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بعد ذلك ، والعاملون به ، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ والمنتهون عنه . قال : فبشّر من قتل وهو قائم بهذه الشروط بالشهادة والجنة» (١) .

عن العياشي قال : « هم الأئمة » (٢) .

وعن القمي قال : نزلت الآية في الأئمة عليهم السلام ، لأنه وصفهم بصفة لا تجوز في غيرهم ، فالأمرون بالمعروف هم الذين يعرفون المعروف كلّ ، صغيره وكبيره ، والناهون عن المنكر هم الذين يعرفون المنكر كلّ ، صغيره وكبيره ، والحافظون لحدود الله هم الذين يعرفون حدود الله ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، ولا يجوز أن يكون بهذه الصفة غير الأئمة عليهم السلام (٣) .

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا

(١) الكافي ٥ : ١٥ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨١ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٥ / ١٩١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨١ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨١ .

عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
* وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٤) و (١١٥)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْأَمْرِ بِالتَّوْبَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالتَّأْكِيدِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي إِظْهَارِ عِدَاوَتِهِمْ
وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ ، وَبَيَانِ عَدَمِ فَائِدَةِ الْاسْتِغْفَارِ لَهُمْ ، نَهَى النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ لَهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا
أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ ؛ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَانَ ﴾ يَصِحُّ ﴿ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ فِي حِكْمَةِ اللَّهِ
وَحُكْمِهِ ﴿ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الْمُتَجَاهِرِينَ مِنْهُمْ بِالشِّرْكِ ، أَوْ الْمُنَافِقِينَ ﴿ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَ قُرْبَى ﴾
وَمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِمْ بِالْوِلَادَةِ أَوْ الْمَصَاهِرَةِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ ﴾ وَظَهَرَ ﴿ لَهُمْ ﴾ بِسَبَبِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ
وَمَوْتِهِمْ عَلَيْهِ ﴿ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وَأَهْلُ النَّارِ .

رَوَى الْفَخْرُ الرَّازِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ : أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبْوَيْهِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : «
فَقُلْتُ لَهُ : أَتَسْتَغْفِرُ لِأَبْوَيْكَ وَهُمَا مُشْرِكَانِ ؟ فَقَالَ : أَلَيْسَ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ ؟ فَذَكَرْتُ
ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ «^(١) ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ نَاشِئًا عَنْ سَبَبٍ مِنْ
الْأَسْبَابِ ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

قِيلَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَرْجُو إِيمَانَ آزَرَ ، وَلِذَا وَعَدَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾^(٢)
، وَقَوْلِهِ : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾^(٣) .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ ﴾ لِإِبْرَاهِيمَ وَظَهَرَ ﴿ لَهُ ﴾ بِأَنَّهُ رَآهُ مُصْرًّا عَلَى الشِّرْكِ ﴿ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ أَبَدًا
﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وَتَنَزَّهَ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ لَهُ .

عَنِ الصَّادِقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ
مَوْعِدَةٍ ؟ ﴾ فَقِيلَ : يَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَعَدَ أَبَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ ، قَالَ : لَيْسَ هُوَ هَكَذَا ، إِنَّ أَبَا إِبْرَاهِيمَ
وَعَدَهُ أَنْ يَسْلَمَ فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾^(٤) .

وَفِي رِوَايَةٍ : « لَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ فَلَمْ يَسْتَغْفِرْ لَهُ »^(٥) .

وَعَنِ الْقَمِّيِّ ﷺ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ قَالَ لِأَبِيهِ : إِنَّ لَمْ تَعْبُدِ الْأَصْنَامَ اسْتَغْفِرْتُ لَكَ ، فَلَمَّا لَمْ يَدْعِ

الْأَصْنَامَ

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢٠٩ .

(٢) سورة مريم : ١٩ / ٤٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٢ ، والآية من سورة الممتحنة : ٤ / ٦٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٦ / ١٩١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٢ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٦ / ١٩١٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٢ .

تبرأ منه (١) .

أقول : لا منافاة بين التفسيرين لجواز وقوع كلا الوعدين .

ثم بين سبحانه علّة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ وكثير التفجع على خلق الله ، وشديد الرأفة والشفقة على الناس ﴿ حَلِيمٌ ﴾ وصبور على أذاهم ، ولذا كان يحلم على أذى أبيه ويترحم له ، فيستغفر له .

وعن النبي ﷺ أنّه قال : « الأواه الخاشع المتضرّع » (٢) . وفي رواية أخرى قال : « الدعاء » (٣) . وقيل : معناه أنّه كلما ذكر لنفسه تقصيرا ، أو ذكر عنده شيء من شدائد الآخرة كان يتأوه إشفاقا منه ، واستعظاما له (٤) . وعليه يكون قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ علّة للتبري من أبيه ، والمعنى : أنّه مع كونه بهذه الصفات ، غلظ قلبه عليه ، وتبرأ منه بعد ما ظهر إصراره على الشرك ، فأنتم أولى بذلك .

ثم قيل : إنّ المؤمنين لما خافوا على أنفسهم من استغفارهم لأبائهم وأقربائهم ممن مات على الكفر قبل نزول الآية ، وعلى المسلمين الذين ماتوا وكانوا في حياتهم يستغفرون للمشركين (٥) ، أزال الله خوفهم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ وليس من شأنه ومقتضى حكمته وعدله ﴿ يُضِلُّ ﴾ ويصرف عن طريق الجنة ﴿ قَوْمًا ﴾ من الأقوام ، يأخذ بالعذاب طائفة من الناس ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام ووفقهم لقبوله ﴿ حَتَّى يُبَيِّنَ ﴾ ويوضح ﴿ لَهُمْ ﴾ بتوسط الرسول الباطن ، أو الرسول الظاهر ﴿ مَا يَتَّقُونَ ﴾ ويحترزون عنه من المحرمات - وعن الصادق عليه السلام قال : « ما يرضيه ويسخطه » (٦) - فلا عقوبة من الله إلّا بعد إعلامهم بتكليفه ، وإزالة العذر عنهم ، فإنّ العقوبة بلا بيان - مع كون الجهل عن قصور الجاهل عذرا عقليّا - من الجهل ، ومن البين ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

في الاستدلال على البراءة في مشكوك الوجوب والحرمة

فالآية دالة على أنّ الأصل في مشكوك الوجوب والحرمة البراءة . والجواب عنه بأنّه - بعد دلالة الأدلة المتبعة على وجوب الاحتياط عند الشك في الحرمة ، لا يكون العقاب عليه عقابا بلا بيان - فاسد ، بأنّه مبني على كون وجوب الاحتياط نفسيا ، وأمّا مع كونه مقدّميا علميا ناشئا عن تنجّز الواقع الجاهل ، فالعقاب يكون على الواقع الجاهل الذي تنفي الآية صحته ، ويحكم العقل أيضا بقبوحه . وما قيل من أنّ الإضلال غير العقوبة فلا ربط للآية بالبراءة المتنازع فيها . ففيه : أنّ الملاك واحد

إن

(١) تفسير القمي ١ : ٣٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٢ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٦ : ٢١١ .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٢ .

(٥) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٢ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٢٦٧ / ١٩١٩ ، الكافي ١ : ١٢٤ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٣ .

لم نقل بالأولوية ، فلا بدّ من حمل ما دلّ على وجوب الاحتياط في المقام على الاستحباب ، أو على الحرمة المعلومة بالإجمال .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ

وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

ثمّ لما كان ارتكاب القبيح من العالم بالقبح قد يكون لأجل الحاجة ، نفاها عن نفسه بإثبات سعه ملكه ، وكمال قدرته بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا حاجة له إلى شيء ، و﴿يُحْيِي﴾ بقدرته الموتى ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياء ، فليس له عجز عن تحصيل مراده .

ثمّ استدلّ على عدم إمكان صدور العقاب منه بلا بيان بغاية لطفه بعباده بقوله : ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيّها المؤمنون في عالم الموجود ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومّا سواه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ وحافظ لصلاحكم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ دافع للمضارّ عنكم .

وقيل : إنّّه قال قوم من المسلمين : لما أمرتنا بالانقطاع عن المشركين فلا يمكننا مخالطة آبائنا وأبنائنا ؛ لأنّه ربّما كان كثير منهم كافرين ، فسلى سبحانه قلوبهم : بأنكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم ونصرتهم ، فالإله الذي هو مالك السماوات والأرض ، والحيي والميت ، ناصركم ووليكم ، فلا يضركم الانقطاع عنهم ^(١) .

أو المراد : أنكم لا تخافوا من ضرر الكفار بالتبرّي منهم ، فإنّ مالك عالم الوجود ؛ القادر على كلّ شيء ، هو ناصركم ووليكم ، فلا يقدرون على إضراركم . وعلى أي تقدير ، فالآية دالّة على كمال لطفه بعباده المؤمنين .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ

رَحِيمٌ (١١٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى أظهر غاية لطفه بخصوص المهاجرين والأنصار بقبول توبتهم ، ضامّا للنبي المعصوم عن كلّ ذنب بهم ، تعظيما لهم ، وتطيبا لقلوبهم ؛ بقوله ، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ قيل : إنّ نكتة ضمّ النبي بهم ، أنّ قبول التوبة فضل الله ورحمته المخصوصة به ، وكلّ فضل

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٣ .

ورحمة ونعمة يريد إيصالها إلى العباد لا بدّ من أن يكون عبورها على ولاية النبوة ، ثمّ يفيض منها على المهاجرين والأنصار وسائر الأمة ^(١) .

أقول : ولعلّه لتلك التكنة والحكمة يستحبّ الابتداء بالصلاة على النبي ﷺ عند طلب الحاجة من الله تعالى ، وعليه يحمل ما روي عن الصادق عليه السلام ، والرضا عليه السلام من أنّهما قرآ : (لقد تاب الله بالنبي ﷺ على المهاجرين والأنصار) ^(٢) ، وما في ذيل رواية أبان بن تغلب ، عن الصادق عليه السلام من قوله : « إنّما تاب الله به على أمته » ^(٣) .

ثمّ وصف الله المهاجرين والأنصار بما يوجب قبول توبتهم ، وإنزال الرحمة عليهم بقوله : ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وخرجوا معه ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ ونصروه في زمان الشدة - وهو غزوة تبوك - فإنه قد أصابهم فيها مشقة عظيمة من شدة الحرّ وقلة المركب ؛ حتّى روي أنّه كانت العشرة تعتقب على بعير واحد ^(٤) ، ومن قلة الزاد ؛ حتّى روي أنّه ربّما مصّ التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتّى لا يبقى منها إلّا النواة ، وكان معهم شيء من شعير مسوس ، فكان إذا وضع أحدهم اللقمة في فيه أخذ أنفه من نقر تلك اللقمة ، ومن قلة الماء ^(٥) .

في ذكر بعض المتخلفين في غزوة تبوك عن النبي ﷺ

روي أنّ عمر قال : خرجنا في قيظ شديد ، وأصابنا فيه عطش شديد ، حتّى [أن] الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه ^(٦) .

عن القمي رحمه الله : هم أبو ذرّ ، وأبو خيثمة ، وعمر بن وهب ، الذين تخلّفوا ثمّ لحقوا برسول الله ﷺ ^(٧) .

قال : وتخلّف عن رسول الله ﷺ قوم من أهل نيات ^(٨) وبصائر ، لم يكن يلحقهم شك ولا ارتياب ، ولكنهم قالوا : نلحق برسول الله ، منهم أبو خيثمة وكان قويا ، وكان له زوجتان وعريشان ^(٩) ، وكانت زوجته قد رشّتا عريشيه [وبردتا له الماء ، وهيئتا له طعاما ، فأشرف على عريشيه ، فلمّا نظر إليهما] قال : والله ، ما هذا بإنصاف ، فإنّ رسول الله مع أنّه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر قد خرج في الصبح ^(١٠) والريح ، وقد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله ، وأبو خيثمة قويّ قاعد في عريشيه مع

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٥ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ١٢٠ ، الاحتجاج : ٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٣ .

(٣) الاحتجاج : ٧٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٥ .

(٥) (٦ و ٥) . تفسير الرازي ١٦ : ٢١٥ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٢٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٤ .

(٨) في المصدر : ثبات .

(٩) العريش : كل ما يستظل به ، وفي المصدر : عريشان ، والعريشة : المودج .

(١٠) الصبح : وهو الصوت الشديد يقرع السمع ، وهو صوت قرع الصخرة ، وضرب الحديد على الحديد .

امرأتين حسناوين ، لا والله ما هذا بإنصاف. ثم أخذ ناقته فشدد عليها رحله فلحق برسول الله ﷺ ، فنظر الناس إلى راكب على الطريق ، فأخبروا رسول الله ، فقال ﷺ : « كن أبا خيثمة » ، فكان أبا خيثمة ، فأقبل وأخبر النبي ﷺ بما كان [منه] ، فجزاه خيرا ودعا له .

وكان أبو ذرّ تخلف عن رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ، وذلك أن جملة كان أعجف ^(١) ، ووقف عليه في بعض الطريق ، فتركه وحمل ثيابه على ظهره ، فلحق برسول الله ﷺ بعد ثلاثة أيام ، فلما ارتفع النهار ونظر المسلمون إلى شخص مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا ذر » ، فقالوا : هو أبو ذر ، فقال رسول الله : « أدركوه بالماء فإنه عطشان » ، فأدركوه بالماء ، فوافق [أبو ذرّ] رسول الله ﷺ ومعه إداوة ^(٢) فيها ماء ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذرّ ، معك ماء وعطشت ؟ » ، قال : نعم يا رسول الله ، بأي أنت وأمي ، انتهيت إلى صحرة وعليها ماء السماء فذقته ، فإذا هو عذب بارد ، فقلت : لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذرّ ، رحمك الله ، تعيش وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، وتدخل الجنة وحدك ، يسعد بك قوم من العراق يتولّون غسلك وتجهيزك [والصلاة عليك] ودفنك » ^(٣) .

أقول : هؤلاء وإن تخلفوا عن رسول الله ﷺ إلا أنّ الظاهر أنّهم لم يكونوا من أهل الذنب الذي أخبر الله عنه بقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ ﴾ وقرب ﴿ يَزِيغُ ﴾ ويميل ﴿ قُلُوبُ قَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ عن الثبات مع الرسول ﷺ ، بأن همّوا بالانصراف من الغزو بغير استئذان ، لشدائد أصابتهم في ذلك السفر ، فعصمهم الله فصبروا وندموا على ما خطر ببالهم .

قيل : إنّ تعالى بشر بقبول توبتهم قبل ذكر ذنبهم تطيبا لقلوبهم ^(٤) .

وقيل : لم يهّموا بالرجوع ، وإنّما خطر في قلوبهم ، فخافوا أن يكون معصية ^(٥) .

ثم أكد الله البشارة بقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ ﴾ الله ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ لئلا يبقى في قلوبهم شكّ في قبول توبتهم . ثم بالغ سبحانه في التأكيد بقوله : ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ بِهِمْ رُؤْفَ ﴾ لا يرضى بضررهم ، ولا اضطراب قلوبهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم بإيصال جميع الخيرات إليهم .

روي أنّ الأصحاب شكوا إلى النبي ﷺ عسرة الماء [في غزوة تبوك] فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنّ الله تعالى عودك في الدّعاء خيرا ، فادع لنا ، قال : « أتحبّ ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة ، فمطرت حتى ارتوى الناس ، واحتملوا ما يحتاجون إليه ، وتلك السحابة لم

(١) الأعجف : الهزيل .

(٢) الإداوة : الإناء الصغير لحمل الماء .

(٣) تفسير القمي ١ : ٢٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٤ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٦ .

تتجاوز العسكر^(١) .

وروي أنهم نزلوا يوماً في غزوة تبوك بفلاة من الأرض على غير ماء ، وكادت عتاق الخيل والركاب تقع عطشا فدعا ﷺ وقال : « أين صاحب الميضة »^(٢) ؟ قيل : هو ذا يا رسول الله ، قال : « جئني بميضاؤك ، فجاء بها وفيها شيء من الماء ، فوضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من أصابعه العشرة ، فأقبل الناس واستقوا ، وفاض الماء حتى روي ورووا خيلهم وركابهم ، وكان في العسكر من الخيل اثني عشر ألفا ، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير ، والناس ثلاثون ألف وقيل : سبعون^(٣) .

وروي أنهم لما أصابهم في غزوة تبوك مجاعة ، قالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا نحرنا نواضحنا^(٤) وركابنا وادّهنّا ، فقال عمر : يا رسول الله ، إن فعلت فنى الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادعوا الله لهم فيها بالبركة ، لعل الله أن يجعلها في ذلك ، فقال ﷺ : « نعم » فدعا بنطع^(٥) فبسطه ، ثم دعا بفضل أزوادهم ، فجعل الرجل يأتي بكف من ذرة ، ويجيء الآخر بكف من تمر ، ويجيء الآخر بميرة ، حتى اجتمع على التطع من ذلك شيء يسير ، فدعا ﷺ بالبركة .

ثم قال : « خذوا في أوعيتكم » ، فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة فقال ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقي الله بها عبد غير شاك إلا وقاه النار »^(٦) .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾

ثم عطف سبحانه على قبول توبة عموم المهاجرين والأنصار قبول توبة الثلاثة الذين كانوا مرجون لأمر الله بقوله : ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ عن رسول الله وأقاموا بالمدينة ؛ وهم كعب بن مالك الشاعر ، ومرارة^(٧) بن الربيع العنبري ، وهلال بن أمية .

قيل : كان لأحدهم أرض ثمنها مائة ألف درهم ، فقال : يا أرضاه ، ما خلّفتني عن رسول الله إلا أمرك ، اذهبي فأنت في سبيل الله ، فلا كابدنّ المفاوز حتى أصل إلى رسول الله ففعل . وكان للثاني أهل ، فقال :

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٩ .

(٢) الميضة : إناء يتوضأ به .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٦ .

(٤) التواضح : جمع ناضح ، وهو البعير يستقي عليه .

(٥) التطع : البساط من جلد .

(٦) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٦ .

(٧) في النسخة : زرارة ، وما أثبتناه موافق للمصدرين الآتين ، وراجع : اسد الغابة ٤ : ٣٤٣ .

يا أهلاه ، ما خلّفتني عن رسول الله إلا أمرك ولا كابدنّ المفاوز حتّى أصل إليه وفعل. والثالث ما كان له أهل ولا مال ، فقال : ما لي سبب إلا الضنّ بالحياة ، والله لا كابدنّ المفاوز حتّى أصل إلى رسول الله ، فلاحقوا بالرسول ، فأنزل الله ﴿وَأَخْرُوجُوا مُرْجُونَ لَأْمَرِ اللَّهِ﴾^(١) .

وأخر قبول توبتهم ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ومع سعتها ؛ لأنهم بسبب إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم ، صاروا بحيث كأثم لم يجدوا فيها موضع قرار. وضيق الأرض كناية عن شدة الحيرة والوحشة.

وقيل : إنهم لم يلحقوا بالنبي ﷺ ، فنهى ﷺ عن مجالستهم ومكالمتهم ، وأمر بمباينتهم حتّى أمر نساءهم بذلك ، فضاقت عليهم الأرض^(٢) ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ وامتألت قلوبهم بالوحشة والغم بحيث لم يبق لهم فيها ما يسع شيئاً من الراحة والسرور ، ولخوفهم من الله ومن أن يموتوا ولا يصلّي عليهم النبي والمؤمنون - وقيل : جاءت امرأة هلال إلى النبي ﷺ وقالت : يا رسول الله ، لقد بكى هلال حتّى خفت على بصره^(٣) .

قيل : كانوا على تلك الحالة خمسون يوماً^(٤) ﴿وَضُفُّوا﴾ واطمأنوا ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ ومن سخطه ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ ولا مخلص من نعمته إلا الاستغفار والتضرّع لديه.

ثم أكّد سبحانه قبول توبتهم بقوله : ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بفضله ﴿لِيُتُوبُوا﴾ ويرجعوا إلى حالتهم السابقة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على المذنبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين ولو عادوا في اليوم مائة مرة. عن القمي قال : تخلف عن رسول الله ﷺ قوم من المنافقين ، وقوم من المؤمنين المستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق ؛ منهم كعب بن مالك الشاعر ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفي ، فلمّا تاب الله عليهم.

قال كعب : ما كنت قطّ أقوى منّي في الوقت الذي خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان إلا ذلك اليوم^(٥) ، فكنت أقول : أخرج غدا ، أخرج بعد غد ، فإني قويّ وتوانيت وبقيت بعد خروج النبي ﷺ أيّاماً أدخل السوق ولا أقضي حاجة ، فلقيت هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وقد كانا تخلّفاً أيضاً ، فتوافقنا أن نبكر إلى السوق ولم نقض [حاجة] ، فمارلنا نقول : نخرج غدا وبعد غد ، حتّى بلغنا إقبال رسول الله ﷺ فندمنا.

فلمّا وافى رسول الله ﷺ واستقبلناه تهنّئاً بالسلامة ، فسلمنا عليه فلم يرّد علينا السلام فأعرض

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٧ ، تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٨ .

(٢) (٤٢) تفسير الرازي ١٦ : ٢١٨ .

(٥) في النسخة : إلى ذلك اليوم .

عنا ، وسلمنا على إخواننا فلم يردوا علينا السلام ، فبلغ ذلك أهلينا فقطعوا كلامنا ، وكنا نحضر المسجد فلم يسلم علينا أحد ولا يكلمنا ، فجاءت نساؤنا إلى رسول الله ﷺ فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا ، أفعتزلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا تعزلهم ، ولكن لا يقربوك » .

فلما رأى كعب بن مالك وصاحبه ما قد حل بهم قالوا : ما يقعدنا بالمدينة ولا يكلمنا رسول الله ولا إخواننا ولا أهلونا ، فهلموا نخرج إلى هذا الجبل ، فلا نزال فيه حتى يتوب الله علينا أو نموت ، فخرجوا إلى ذناب ^(١) جبل بالمدينة ، فكانوا يصومون ، وكان أهلهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثم يولون عنهم لا يكلمونهم ، فبقوا على هذه الحالة أياما كثيرة ، يكون بالليل والتّهار ، ويدعون الله أن يغفر لهم ، فلما طال عليهم الأمر قال كعب : يا قوم ، قد سخط الله علينا ، ورسوله قد سخط علينا ، وإخواننا سخطوا علينا ، وأهلونا سخطوا علينا فلا يكلمنا أحد ، فلم لا يسخط بعضنا على بعض ، فتفرقوا في الليل ، وحلفوا أن لا يكلم أحد [منهم] صاحبه حتى يموت أو يتوب الله عليه ، فبقوا على هذه الحالة ثلاثة أيام ، كل [واحد] منهم في ناحية من الجبل ، لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلمه .

فلما كان في الليلة الثالثة ، ورسول الله ﷺ في بيت أم سلمة ، نزلت توبتهم على رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ حيث لا يكلمهم رسول الله ﷺ ولا إخوانهم ولا أهلهم ، فضاقت المدينة عليهم حتى خرجوا منها ، وضاقت عليهم أنفسهم حيث حلفوا أن لا يكلم بعضهم بعضا ، فتفرقوا وتاب الله عليهم لما عرف صدق نياتهم ^(٢) .

روى بعض العامة عن كعب أنه قال : أنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري ، فقال ﷺ : « يا أم سلمة ، تيب على كعب » ، قالت : أ فلا أرسل إليه فابشّره ؟ قال : « إذن يحطم ^(٣) الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة » ، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أعلم بتوبة الله علينا . قال : فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجا فوجا يهتفون بالتوبة ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، وذلك لأنه ﷺ كان أخى بينهما حين قدم المدينة ^(٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١١٩)

(١) الذناب من كل شيء : عقبه ومؤخره .

(٢) تفسير القمي ١ : ٢٩٦ - ٢٩٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٦ .

(٣) أي يزدحمون .

(٤) تفسير روح البيان ٣ : ٥٢٩ .

ثمَّ أنّه تعالى بعد قبول توبة المتخلفين ، أمر المؤمنين بطاعة الرسول وملازمته في الجهاد وغيره بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ومخالفة رسوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وهم الرسول ﷺ ، ومن هو بمنزلته في العصمة عن الخطأ وبيان خلاف الواقع.

نقل كلام فخر الرازي في حجة الإجماع

قال الفخر الرازي في تفسيره : إنّهُ تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ، ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بدّ من وجود الصادقين في كلّ وقت ، وذلك يمنع من إطباق الكلّ على الباطل ، ومتى امتنع إطباق الكلّ على الباطل ، وجب إذا أطبقوا على شيء أن يكونوا محقّين. فهذا يدلّ على أن إجماع الامة حجة ^(١) .

ثمّ اعترض على نفسه بأنّه لم لا يجوز أن يكون الصادق هو المعصوم الذي يمتنع خلوه زمان التكليف منه ؛ كما تقوله الشيعة ^(٢) . ثمّ ردّ ذلك الاعتراض بقوله : نحن نعترف بأنّه لا بدّ من معصوم في كلّ زمان ، إلّا أنا نقول : ذلك المعصوم هو مجموع الامة ، وأنتم تقولون : ذلك المعصوم هو واحد منهم. فنقول : هذا الثاني باطل ؛ لأنّه تعالى أوجب على كلّ أحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين ، وإنّما يمكنه ذلك لو كان علما بأن ذلك الصادق من هو ، لا جاهلا بأنّه من هو ، فلو كان مأمورا بالكون معه كان ذلك تكليفا بما لا يطاق ، وأنّه لا يجوز ، لكنّا لا نعلم إنسانا معيّنا موصوفا بوصف العصمة والعلم ، [والعلم] بأنّا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة. فثبت أنّ قوله : ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ليس أمرا بالكون مع شخص معيّن ، ولما بطل هذا ، بقي أنّ المراد منه الكون مع مجموع الامة ، وذلك يدلّ على أن قول مجموع الامة حقّ وصواب ، ولا معنى لقولنا « الإجماع حجة » إلّا ذلك ^(٣) ، انتهى كلامه بطوله المملّ.

في إبطال استدلال الفخر على حجة الإجماع

وفيه : أنّ لفظ ﴿الصَّادِقِينَ﴾ كالنصّ في أنّ المراد الأشخاص ، لا المجموع المركّب من الأشخاص ، مع كون كلّ واحد منهم كاذبا ، أو من يجوز عليه الكذب. وعدم علم هذا الشخص المتعصّب بالشخص الموصوف بالعصمة لا يكون قرينة على إرادة المجموع من الامة ، مع قيام الأدلّة القطعية والروايات المتواترة على تعيينه باسمه ونسبه ، في كلّ زمان وعصر عند من برئ عن التعصّب واللجاج ، وطابت طينته ، وظهر مولده ، مع أنّ الوجدان القطعي يشهد بعدم تمكّن أحد من المؤمنين حتّى المجتهدين المتبحّرين منهم ، من العلم باتّفاق مجموع الامة ، بحيث لم يشدّ منهم واحد على أمر ، حتّى في الزمان المتّصل بوفاة الرسول ﷺ الذي كان المسلمون بالنسبة إلى الأعصار المتأخّرة في غاية القلّة ، ولو ادّعى أحد بالعلم بذلك حسنا ، نعلم

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢١ .

بحسب العادة بكذبه ، مع أنه لا شبهة في أن المراد من ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في زمان نزول الآية شخص الرسول ﷺ ، وإرادة الشخص المعين منه في زمان ، والهيئة المركبة من الامة في زمان آخر ، تستلزم إرادة المعنيين المستقلين الحقيقي والمجازي من استعمال واحد ؛ وهو محال ، وليس بينهما جامع عربي بكون اللفظ مستعملا فيه ، ويكون كل واحد منهما مصداقه.

وفي (الإكمال) : عن أمير المؤمنين أنه قال في مجمع من المهاجرين والأنصار ، أيام خلافة عثمان: « أسألكم بالله ، أتعلمون أنه لما نزلت هذه الآية قال سلمان : يا رسول الله ، عاتمة هذه الآية أم خاصة ؟ قال ﷺ : أما المأمورون فعامه المؤمنين أمروا بذلك ، وأما الصادقون فخاصة لأخي وأوصيائي من بعده إلى يوم القيامة » ، قالوا : اللهم نعم ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « إيانا عنى » ^(٢) . وعنه عليه السلام قال : « مع آل محمد » ^(٣) .

وعن الرضا عليه السلام : « الصادقون هم الأئمة » ، الخبر ^(٤) .

وقال العلامة : روى الجمهور : أنها نزلت في علي عليه السلام ^(٥) . فلا ترتبط الآية بحجة الإجماع ، بل هي دالة على عصمة علي عليه السلام وأولاده الطيبين وإمامتهم ، رغما للتواصب.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٠) * (١٢١)﴾

ثم أنه تعالى بعد الأمر بكون المؤمنين مع الرسول ﷺ في جميع غزواته ، أكدته بالنهي عن التخلف عنه بقوله : ﴿مَا كَانَ﴾ صحيحا في حكم الله ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ من المؤمنين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ والذين في أطرافهم من مؤمني أهل البوادي كجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ في غزوة من غزواته ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ ولا يعرضوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ

(١) كمال الدين : ٢٧٨ / ٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٨ .

(٢) الكافي ١ : ١٦٢ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٧ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ١٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٨ .

(٤) الكافي ١ : ١٦٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٧ .

(٥) كشف الحق : ١٩٠ .

نَفْسِهِ ﴿ وَلَا يَضَاقُوا مِنْ بَذَلُوا ﴾^(١) مهجهم دونه ، بل عليهم أن يصبروا معه على البأساء والضراء ، وأن يفعلوا بأنفسهم لنفسه برغبة ونشاط ﴿ ذَلِكَ ﴾ الثبات معه ، أو الإلزام مّا على متابعتة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ إذا ثبتوا على الجهاد معه ، والتمزوا بخدمته ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ولا ينالهم عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وتعب في أبدانهم ، ولو كانا يسيرين ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ ومجاعة ، ولو كانت قليلة ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وترويج دينه ، وإعلاء كلمته ﴿ وَلَا يَظُنُّونَ ﴾ بأقدامهم وحوافر خيولهم وأخفاف راحلهم ﴿ مُوْطِئًا ﴾ ومكانا ﴿ يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ ويسوءهم وطء المسلمين فيه من أراضيههم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ ﴾ قبل ﴿ عَدُوٍّ ﴾ من أعداء الله ﴿ نِيْلًا ﴾ من آفة ومحنة ، من قتل وجراحة وأسر وخوف ﴿ إِلَّا كُتِبَ ﴾ في صحيفة أعمالهم ، وثبت ﴿ لَهُمْ ﴾ عند الله ﴿ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ وحسنة مقبولة توجب الثواب الجزيل ، والأجر العظيم.

ثم أكد سبحانه وعده وقرره بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ بكرمه وفضله وعدله ﴿ لَا يُضِيعُ ﴾ ولا يبطل ﴿ أَجْرَ ﴾ إحسان ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وثواب أعمال الصالحين ﴿ وَلَا يَنْفَقُونَ ﴾ في سبيل الله وجهاد أعدائه ﴿ نَفَقَةً ﴾ سواء كانت ﴿ صَغِيرَةً ﴾ كنعل فرس ، بل ثمرة ﴿ وَلَا كَبِيرَةً ﴾ وكثيرة كآلف دينار أو أزيد ﴿ وَلَا يَفْطَعُونَ ﴾ ولا يتجاوزون في سيرهم ﴿ وَادِيًا ﴾ من الأودية ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ في دفتر أعمالهم ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والسير ﴿ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ ﴾ بذلك العمل جزاء ﴿ أَحْسَنَ ﴾ وأفضل من جزاء سائر ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الخيرات والعبادات ، أو أحسن من ذلك العمل الذي عمل ، ومن المال الذي بذل.

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي

الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢)

ثم أنه روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا خرج إلى الغزو لم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر ، فلما بالغ الله سبحانه في تعيب المنافقين في غزوة تبوك ، قال المؤمنون : والله ، لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع الرسول ﷺ ولا عن سرية ، فلما قدم الرسول المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعا إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة^(٢) ، فنهى المسلمين عن أن ينفروا جميعا إلى الغزوات ويتركوا النبي ﷺ في المدينة وحده ، بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وما يسوغ لهم ﴿ لِيَنْفِرُوا ﴾ إلى الجهاد ﴿ كَافَّةً ﴾ وعامة ، ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿ فَلَوْ لَا نَفَرَ ﴾ وخرج إلى الجهاد ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ وجماعة كثيرة ﴿ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وجماعة قليلة ، وأقامت البقية عند

(١) في النسخة : بذل.

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢٥ ، مجمع البيان ٥ : ١٢٥.

الرَّسُولَ ﷺ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ويتعلّموا أحكام الإسلام ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ ويخوفوا بالإرشاد إلى ما تعلّموه من الأحكام ، وبيان عقوبة الله على مخالفتها ﴿قَوْمَهُمْ﴾ التّافرين ﴿إِذَا رَجَعُوا﴾ من الجهاد ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وحضروا عندهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ باطلاّعهم على الأحكام بتوسّط المقيمين المتفّقين من الرّسول ﴿يَحْذَرُونَ﴾ ويحْتَنِبُونَ عصيانها بعد التعلّم.

عن الباقر عليه السلام : « كان هذا حين كثر النّاس ، فأمرهم [الله] أن تنفر طائفة منهم ، وتقيم طائفة للتّفقّه ، وأن يكون الغزو نوبا » (١) .

وقيل : إنّ المراد : تفقّه الطّائفة التّافرة بمشاهدة الآيات الإلهيّة الدّالة على صدق النبيّ ﷺ ، وصحّة دين الإسلام ، من غلبة عدّة قليلة من المسلمين ؛ مع قلّة زادهم وسلاحهم ، على أضعافهم من المشركين مع كمال قوّتهم وشوكتهم ، وغيرها من الآيات الاخر ﴿لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ التّافرين بما شاهدوه من الآيات ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ باطلاّعهم على دلائل صدق النبيّ ﷺ ودين الاسلام ﴿يَحْذَرُونَ﴾ الكفر والضّلال (٢)

وقيل : إنّ المراد أنّ المسافرة إلى الرّسول لطلب العلم وتعلّم الأحكام ليس كالهجرة والجهاد واجبا على جميع المسلمين ، بل هو واجب كفاية عليهم ، فليخرج من القبائل وسكنة البلاد طائفة قليلة إلى حضرة الرّسول ﷺ ، ليتفّقوها في الدّين ، ويتعلّموا الأحكام ، ويعودوا إلى قبائلهم وأوطانهم ، فينذروا ويرشدوا كلّ طائفة قومهم ، لكي يرجعوا عن الكفر ويهتدوا إلى الأحكام المنزلة. وحاصل مفاد الآية وجوب التّفنّن لطلب العلم والتّفقّه على من به الكفاية.

عن الصادق عليه السلام ، أنّه قيل له : إنّ قوما يروون أنّ رسول الله ﷺ قال : « اختلاف امتي رحمة » فقال : « صدقوا » ، فقليل : إن كان اختلافهم رحمة ، فاجتماعهم عذاب ؟

قال : « ليس حيث تذهب وذهبوا ، إنّما أراد قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ...﴾ الآية ، فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله ﷺ ويختلفوا إليه ، فيتعلّموا ثمّ يرجعوا إلى قومهم فيعلّموهم ، إنّما أراد اختلافهم من البلدان ، لا اختلافا في دين الله ، إنّما الدّين واحد » (٣) .

وعن (الكافي) : قيل للصادق عليه السلام : إذا حدث على الإمام حدث ، كيف يصنع النّاس ؟ فقال : « أين قول الله عزّ وجلّ : ﴿فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ...﴾ الآية » قال : « هم [في عذر] ما داموا في الطّلب ، وهؤلاء

(١) مجمع البيان ٥ : ١٢٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٨٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٦ : ٢٢٦ .

(٣) علل الشرائع ٨٥ : ٤ / ، تفسير الصّافي ٢ : ٣٨٩ ، وزاد في المصدر : إنّما الدين واحد.

الذين ينتظرونهم في عذر حتى يرجع إليهم أصحابهم» (١) .

وعن الباقر والصادق عليه السلام : « تفقهوا في الدين ، فإن من لم يتفقه منكم في الدين فهو أعرابي ، إن الله يقول في كتابه : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (٢) .

ثم أعلم أنه استدلل كثير من العامة والخاصة بهذه الآية على حجية خبر الواحد في الأحكام بوجوه ، والحق عدم دلالتها عليها بوجه ؛ لأن الظاهر منها بيان الطريق العادي العقلائي لتحصيل العلم بالأحكام ، لا الحكم الشرعي التعبدى الطريقي ، ويشهد على ذلك استدلال الإمام عليه السلام بالآية على وجوب الفحص عن الإمام بعد الإمام بتوسط المبعوثين مع الإجماع باعتبار اليقين بإمامة الإمام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

ثم أنه تعالى بعد إرشاد عباده إلى طريق العلم بالأحكام ، أرشدهم إلى أصوب طرق الجهاد مع الكفار ؛ وهو الابتداء بالأقرب فالأقرب ، بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ ويجاورونكم ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ ولا تدعوا الجهاد مع الأقرب وتجاهدوا الأبعد لحكم واضحة ، عن الصادق عليه السلام قال : « الدليل » (٣) . وعن القمي عليه السلام : يجب على كل قوم أن يقاتلوا من يليهم ممن يقرب [بلادهم] من الكفار ولا يجوزوا ذلك الموضع (٤) ﴿وَلْيَجِدُوا﴾ ويعاينوا ﴿فِيكُمْ﴾ حين الجهاد وقبله ﴿غِلْظَةً﴾ وخشونة في القول ، وشجاعة في القلب ، وقساوة في القتل ، فأثما أربع لقلوبهم ، وأزجر لهم عن الكفر والقبائح ، ولازموا التقوى واعتمدوا في نصركم عليهم على الله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ بالنصر والتأييد والحفظ والتسديد ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٤) * (١٢٥)﴾

(١) الكافي ١ : ٣٠٩ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٧١ / ١٩٣١ ، الكافي ١ : ٢٣ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٨٩ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٧١ / ١٩٣٢ ، التهذيب ٦ : ١٧٤ / ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٠٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٠٩ .

ثم أخبر الله عن بعض أقاويل المنافقين المؤثرة في تثبيط المؤمنين عن الجهاد بقوله : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ من الله إلى الرسول ﴿سُورَةٌ﴾ من سور القرآن وسمعها المنافقون ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ﴾ لإخوانهم المنافقين استهزاء وسخرية ، أو لبعض المؤمنين صرفا لهم عن الإيمان ، وتثبيطا لهم عن الجهاد ﴿إِيَّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة المنزلة ﴿إِيمَانًا﴾ بمحمد ﷺ ودينه .

ثم أجاب الله سبحانه عنهم بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ، عن صميم القلب ، وبرتوا عن التفات ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ السورة المنزلة ﴿إِيمَانًا﴾ بالله وبرسالة محمد ﷺ ، وبقينا بها لظهور كونها كلام الله ، الخارج إتيان مثلها من طوق البشر ﴿وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ﴾ ويفرحون بنزولها لما يعتقدون بأن فيها المنافع الدنيوية والاخرية لأنفسهم وإخوانهم المؤمنين ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من الكفر والشك والتفاسد والكبر والحسد ، وغيرها من الرذائل ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ تلك السورة بسماعها ﴿رَجْسًا﴾ وكفرا منضمًا ﴿إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ وكفرهم السابق لازدياد حسدهم الرسول ﷺ على ما آتاه الله من فضله ، وإصراراً على عنادهم للحق ، حتى أحاطت ظلمة الكفر على قلوبهم فطبع عليها ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ في الحديث : أن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين ^(١) ، كما قال : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ ^(٢) .

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ

يَذْكُرُونَ (١٢٦)﴾

ثم وبَّخهم الله تعالى وأنكر عليهم الإصرار على الكفر والتفاسد مع وفور دلائل الحق المقتضية للإيمان والخلوص ، بقوله : ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ﴾ والتقدير : ألا ينظرون ولا يرون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويتلون امتحانا ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً﴾ من أعوام أعمارهم بالأمراض ، والشدائد الموجبة لتفكيرهم في العواقب ، وتدكرهم للموت ، وتنبههم لفناء الدنيا مرة واحدة ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ - قيل : هو كناية عن الكثرة ^(٣) - ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ ولا يرجعون عن كفرهم ونفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ويتعظون بتلك الفتن ، ولا ينتبهون بسوء عاقبة الكفر ومعاندة الله والرسول .

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا

(١) تفسير روح البيان ٣ : ٥٤٠ .

(٢) البقرة : ٢ / ٢٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٣ : ٥٤١ .

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

ثم أخبر سبحانه عن غاية حيث سريرتهم ، وحيلهم في إضلال الناس ، وأعمالهم الرادعة لغيرهم عن الإيمان بالقرآن بقوله ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ من الله ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن على النبي ﷺ فيها فضائح المنافقين ضحكوا ، ثم ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ نظرا مفهما للطنع فيها والاستهزاء بها ، وتغامزوا فيها إنكارا لها ، ويقولون لإخوانهم حين إرادتهم الخروج من المسجد ، أو من محضر النبي ﷺ خوفا من افتضاحهم بالضحك من تلك السورة ، بعد غلبته عليهم : يا إخواننا ، إن قمتم من المجلس وانصرفتم منه ﴿هَلْ يَرَأَيْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين أو لا ، فإن يراكم أحد منهم لا تخرجوا وانتظروا غفلتهم عنكم ، وعدم التفاتهم إليكم ، فعند ذلك قوموا واخرجوا ، فكانوا يترصدون ذلك ، فإن لم يرههم أحد من المؤمنين قاموا ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ وخرجوا وتفرقوا مخافة الفضيحة بضحكهم ، وذلك الانصراف لأنه ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن قبول الهداية والإيمان ، وطبع عليها.

وعن ابن عباس : عن كلّ رشد وخير وهدى ^(١) .

وعن القمي رحمه الله : عن الحقّ إلى الباطل ^(٢) . ويحتمل كون الجملة دعائية.

ثم علّل سبحانه صرف قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فوائد الإيمان والتسليم ، ومضارّ الكفر والتفارق وسوء عاقبتهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٨) و (١٢٩)

ثم أنّه تعالى بعد بيان فضائح المنافقين وعنادهم للرّسول ، أظهر منته على الناس ، وعظمة نعمته عليهم ببعث رسول من جنسهم فيهم ، وحبّ ذلك الرّسول لهم وشفقته عليهم ، تحبيبا لقلوب المنافقين إيّاه ، وجلبا لتوجههم إليه ، بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيّها الناس من جانب الله ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن رفيع المنزلة ، ومن أفاضل مننه تعالى عليكم أنّه جعل ذلك الرّسول ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم ، أي من البشر لا من الملائكة. ويحتمل أن يكون الخطاب إلى العرب ، ويكون المراد من قوله : ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي من العرب.

عن ابن عباس قال : ليس في العرب قبيلة إلّا ولدت النبي ﷺ بسبب الجدّات ؛ مضرها وريعهما

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢٣٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٠٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩١ .

ويمانيها ، فالمضربون والربيعيون هم العدنانية ، واليمانبيون هم القحطانية ^(١) .

والمنة عليهم بذلك ، لأن كل ما يحصل له من العز والشرف فهو عائد إليهم ، مع مدخليته التامة في الشفقة عليهم ، ولذا بين سبحانه شفقتة عليهم بقوله : ﴿عَزِيزٌ﴾ وشاق ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ومشقتكم ، وثقيل عليه تضرركم وتحرّجكم ، فحاله بالنسبة إليكم حال الأب الشفيق بالنسبة إلى ولده ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ وشديد الطلب لإيمانكم ، وتربية قلوبكم ، وتركبة نفوسكم ، وتهذيب أخلاقكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كما أنه على الكافرين شديد غليظ.

ثم ختم سبحانه السورة المباركة بتسليّة قلب حبيبه على عناد القوم ، بقوله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا مع ذلك عن الإيمان بك ، فلا تبال بهم ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ وكفاني ﴿اللَّهُ﴾ الذي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ في جميع اموري ، ولذا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو غيره ، ولا أخاف إلا منه ؛ لأنّه القاهر على جميع الموجودات ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

عن الصادق عليه السلام : « أي الملك العظيم » ^(٢) .

روي « أنه من قرأ سورة الأنفال وبراءة في كل شهر لم يدخله التفاق ، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام ^(٣) ، ويأكل من موائد الجنة مع شيعته حتى يفرغ الناس من الحساب » ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٦ : ٢٣٦ .

(٢) تفسير الصافي ٢ : ٣٩٢ .

(٣) ثواب الأعمال : ١٠٦ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢١٣ / ١٧٦٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٢ .

في تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١)﴾

ثمّ لما ختم سبحانه سورة براءة - بذكر استهزاء المنافقين بالرّسول وكتابه ، وتسليته ، وأمره بالتوكّل عليه وعدم المبالاة بهم ، وبيان استحقاقه العبوديّة ، وكونه مربّي الموجودات - اردفت بسورة يونس ببيان عظمة القرآن الدالّ على صدق الرّسول.

ثمّ توبيخ الكفّار على التعجّب من رسالة رسول من جنسهم ، وتسلية الرّسول بذكر توكّل نوح وعدم مبالاته بمعارضة قومه ، ونصرته عليهم ، ونصرة موسى على فرعون وقومه.

ثمّ شرح ربوبيّته للعرش ببيان كونه خالق السّماوات والأرض ، ومدبّر الموجودات ، ابتداءً فيها بذكر الأسماء المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وقد مرّ تفسيره.

ثمّ افتتحها بذكر الحروف المقطّعات بقوله : ﴿الر﴾ وقد مرّ تأويلها في بعض الطرائف ، وبيان حكمة ذكرها التي منها جلب التوجّه إلى ما يذكر بعدها من المطالب المهمّة ؛ التي منها عظمة شأن القرآن ، ولذا ذكرها بعدها ردّاً على المستهزئين بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الآيات التي في هذه السّورة ، أو المنزلة من أوّل القرآن إلى هنا ، أو في القرآن كلّهُ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ والقرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾ والمستحكم المصون من التّغيير والتّحريف والحو والاندراس في كرور الدّهر ، أو المخزون عند الله ، أو المشتمل على الحكم غير المتناهية ، أو الحاكم بين النّاس بالحقّ ومميّزه عن الباطل ، أو الدالّ على الحكمة والصّواب ، أو المحكوم فيه بالعدل والإحسان وسائر المحسّنات العقلية ، وبمثوبة المطيعين وعقوبة العاصين.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (٢)﴾

ثم لما أثبت سبحانه نبوة نبيه ﷺ بتعظيم كتابه وتوصيفه بما لا يمكن أن يكون الموصوف به إلا من الله ، أنكر على منكبيه التعجب من رسالة البشر ، أو رسالة مثل محمد اليتيم الفقير ، بقوله : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ وهم كفار مكّة - على ما قيل (١) - ﴿عَجَبًا﴾ من ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ﴾ كائن ﴿مِنْهُمْ﴾ جنسا ونسبا ، وقلنا له بالوحي : ﴿أَنْ أَنْذِرَ﴾ وخوف ﴿النَّاسِ﴾ بالعذاب على الشرك والعصيان ، كي يرتدعوا عنهما ﴿وَيُبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدةانية الله ورسالتك ﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ وعملا صالحا ، أو ثوبا مذخورا ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكهم.

وعن ابن عباس : لهم شفاعة نبيهم ، وهو أمامهم إلى الجنة ، وهم بالآثر (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « أَنْ مَعْنَى ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ﴾ شَفَاعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ » (٣) .

وعنه عليه السلام أيضا : « هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (٤) .

ثم كأنه قال : لا مجال للعجب من رسالة البشر ، أو رسالة محمد ، إنما العجب في أنه لما أتاهم بالمعجزات وأنذرهم ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنادا ولجاجا : ﴿إِنْ هَذَا﴾ الرجل المدعي للنبوة ، الفاعل لخوارق العادات ﴿لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ ومشعبد ظاهر.

أقول : فيه دلالة على أنهم رأوا منه معجزة لم يمكنهم معارضته.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)

ثم أنه تعالى بعد توبيخ الكفار على إنكار رسالة الرسول ، بين أنه تعالى خالق العالم ومدبره ، تنبيها على كمال حكمته المقتضي لبعث الرسول واستحقاقه العبادة بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ومدبر اموركم هو ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ السبع ﴿وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأوقات ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ واستولى بالعلم والتدبير ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ وسرير سلطنته ، أو على جميع الموجودات ، وهو ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وينظم شؤون الخلق على وفق الحكمة ، ويهيئ ما فيه صلاح كل شيء ، ومن تديره في نظام العالم إرسال الرسول ، وإنزال الكتب ، وجعل القوانين والأحكام والثواب والعقاب ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ في تديره وثوابه وعقابه ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ورضاه ؛ لأنه تعالى أعلم بمواضع (٥)

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٦ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ١٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٤ / ١٩٤٠ ، الكافي ٨ : ٣٦٤ / ٥٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٣ .

(٥) في النسخة : مواضع .

الحكمة والصّواب من جميع خلقه ؛ ملكا كان أو نبيا أو رسولا ، فكيف بالأصنام التي هي جمادات لا شعور لها بشيء ، ولا إدراك ؟ وأعجب من كلّ عجب أنّ المشركين كانوا يتعجبون من أن يكون البشر رسولا ، ولا يتعجبون من أن يكون الحجر المنحوت أو الفلّز المصنوع بأيديهم إلها أو شفيعا عند الله .

ثمّ لما أثبت سبحانه كمال قدرته وحكمته وتدييره وعظمته ، خصّ الربوبية والالوهية ، واستحقاق العبادة بذاته المقدّسة بقوله : ﴿ذَلِكُمْ﴾ الموصوف بالصفّات الكمالية والجمالية هو ﴿الله﴾ المستحقّ للعبادة ، وهو ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومليكم ومدبّر اموركم ، لا غيره كوكبا كان أو صنما ، أو غيرهما ، فإذا علمتم ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ، واخضعوا له بقلوبكم وجوارحكم ، ولا تشركوا به شيئا في الربوبية والعبادة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنّ الإله والربّ لا بدّ أن يكون له تلك الصّفات ، وأنّ الأصنام بمعزل عن الالوهية واستحقاق العبادة.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾

ثمّ لما أثبت سبحانه توحيد المبدأ ، ربّ عليه المعاد بقوله : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ومعادكم بعد خروجكم من الدّنيا ﴿جَمِيعاً﴾ بحيث لا يشدّ منكم أحد ، وهذا الوعد يكون ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ الذي يستحيل منه الخلف في وعده ، بل يحقّ ﴿حَقّاً﴾ ويثبت ثبوتا لا مجال للشكّ فيه .

ثمّ استدلّ على إمكانه بقوله : ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ ويوجد الإنسان في هذا العالم ، بلا سبق مثال ، من نقطة أمشاج ، للإيمان والعمل الصّالح ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ البتّة لقدرته على الإعادة والخلق ثانيا ، لكونه أهون عليه .

ثمّ استدلّ على وجوبه بقوله : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانيته وبرسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في الدّنيا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ المقتضي لعدم تضييع أجر المحسنين ، وعدم التسوية بينهم وبين المسيئين .

قيل : إنّ المراد : ليجزيهم بقسطهم وعدلهم ^(١) في حقوق أنفسهم ؛ حيث لم يظلموا عليها بالمعاصي وتعريضها للهلاك والعذاب ، وفي حقوق غيرهم من التّاس .

وإنّما لم يعيّن الجزاء تنبيها على أنّه بما يليق بلطفه وكرمه ، وكونه ممّا لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد .

(١) جوامع الجامع : ١٩٠ .

ثم قيل : لما لم يكن المقصود الأصلي في الخلق هو العذاب ^(١) ، غير سبحانه التَّظْم في بيان جزاء الكفار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الدنيا بالله ووحدايته ورسله ﴿لَهُمْ﴾ بالاستحقاق ﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وماء حار مثناه [في] حرارته ﴿وَعَذَابٌ﴾ بالتأثر ﴿أَلِيمٌ﴾ غايته ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَكْفُرُونَ﴾ وقيل : إن نكتة تغيير التَّظْم ، التنبيه على المبالغة في استحقاقهم ^(٢) .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)﴾

ثم لما كان الأهم إثبات المبدأ وكونه ^(٣) ملازما للقول بالمعاد وسائر العقائد الحقة ، عاد إلى الاستدلال عليه بقوله : ﴿هُوَ﴾ الإله القادر ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ بقدرته ﴿الشَّمْسُ﴾ وخلقها لتكون ﴿ضِيَاءً﴾ للعالم ﴿وَالْقَمَرَ﴾ خلق ﴿الْقَمَرَ﴾ ليكون في الليل ﴿نُورًا﴾ للناس ﴿وَقَدَرَهُ﴾ قيل : إن التقدير : وقدر مسير القمر ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدر القمر ذا منازل ^(٤) - وقيل : إن ضمير ﴿قَدَرَهُ﴾ راجع إلى الكوكبين ، فاللفظ مفرد والمعنى تثنية ، ومنازل الشمس البروج الاثنا عشر ، ومنازل القمر ثمان وعشرون ، فإذا كان في آخر منازلها دق واستقوس ^(٥) - وذلك التقدير ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ أيها الناس بسيرهما في منازلهما ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ للأوقات من الأيام والشهور ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ المذكور من الكوكبين ومنازلهما ، بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والحكمة وصلاح نظام العالم ، كذلك التفصيل البديع لتلك الآية ﴿يُفَصِّلُ﴾ ونذكر متواليا واحدا بعد واحد ، ونشرح ونبين ﴿الْآيَاتِ﴾ والدلائل المتقنة على قدرتنا وحكمتنا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويعقلون ، أو يتفكرون في الموجودات وحكمها ، ليطلعوا على شؤون صانعها ، فيأثم المنتفعون بها .

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾

ثم أنه تعالى بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر ، وفائدتهما بفائدة سير الكوكبين ، استدلل بفائدة أخرى لسير الشمس وبسائر الموجودات بقوله : ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٤٢٨ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٤٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٤ .

(٣) في النسخة : ومكونه .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ١٢٠ ، تفسير الرازي ١٧ : ٣٥ .

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ١٢٠ .

وَالنَّهَارِ ﴿بِالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَتَغْيِيرِهَا بِالطَّوْلِ وَالْقَصْرِ ، أَوْ تَعاقِبِهما وَذهاب أحدهما ومجيء الآخر﴾ ﴿و﴾ في ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الكواكب السيّارة والثّابتة ﴿و﴾ في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الجبال والمعادن والبحار والحيوانات والنباتات ، وسائر ما فيها من الممكنات ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة على كونها تحت قدرة قادر حكيم متفرد بالصّنع والتّديير ، وإتّما الانتفاع بها يكون ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَقَّهُونَ﴾ سوء العاقبة ، ولذا يتدبّرون فيها ؛ فيزدادون معرفة ويقينا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات التّوحيد والمعاد ، هدّد منكريهما بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ ينكرون المعاد ، و﴿لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يظنّون ﴿لِقَاءَنَا﴾ والبعث لجزائنا بعد الموت ، ولا يخافون الحشر ^(١) ، كما عن ابن عباس ^(٢) ، أو لا يطمعون في الثّواب ، كما عن غيره ^(٣) ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واختاروها وانهمكوا في شهواتها ﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ وسكنت قلوبهم إلى لذاتها وزخارفها ، بحيث لا توجّه لهم إلى غيرها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ﴿غَافِلُونَ﴾ وعن النّظر إليها ذاهلون ، لاستغراقهم في التّفكّر فيما يضادّها ، واشتغال قلوبهم بما يلهي عنها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المتصفون بتلك الرّذائل ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ ومسكنهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾ الموقدة التي تطلّع على الأفئدة ﴿بِمَا كَانُوا﴾ في الدّنيا ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر ، وقساوة القلب ، والبعد عن الله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ (١٠)﴾

ثمّ بشر سبحانه الموحّدين بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ تفكّروا في آيات الله ، وتدبّروا فيها بعقولهم السّليمة ، ولذا ﴿آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيّته وصفاته الجمالية والجلالية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقاموا بوظائف العبوديّة سرّاً وعلانية ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ في الآخرة بعد بعثهم من قبورهم ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ وبسبب نوره إلى الجنّة التي وعد المتّقون .

روي أنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون

له

(١) في تفسير الرازي : البعث .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٧ : ٣٨ .

نورا ^(١) .

وقيل : يعني : يرشدهم ربهم في الدنيا بسبب إيمانهم إلى جميع الخيرات ^(٢) .

وفي الآخرة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ يعني تحت قصورهم وسرورهم ﴿الأنهار﴾ الكثيرة ، أو الأربعة ﴿في جنات النعيم﴾ وبساتين كثيرة النعم ﴿دعواهم﴾ في تلك الجنات ، ودعائهم أو عبادتهم ﴿فيها﴾ أو قولهم ، أو طريقتهم في تمجيد الله قولهم : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾

عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن التسبيح ، فقال : « اسم من أسماء الله تعالى ، ودعوى أهل الجنة » ^(٣) .

قيل : إنهم إذا مر بهم طير يشتهونه قالوا : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم الملك بذلك المشتبه ^(٤) .

وقيل : إن المعنى أنه ليس تمنيتهم في الجنة إلا في تسبيح الله وتنزيهه وتقديسه ^(٥) ؛ لأن لذتهم وسرورهم وكمال حالهم به .

وقيل : إن أهل الجنة إذا دخلوها ووجدوا نعمها العظيمة ، عرفوا صدق وعده تعالى . فعند هذا قالوا : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي نسبحك وتنزهك عن الخلف في الوعد والكذب ^(٦) في القول .

﴿وتحييتهم﴾ وتكرمتهم من الملائكة في الجنة ، أو تحية بعضهم لبعض ﴿فيها﴾ عند الملاقاة ﴿سلام﴾ عليكم ، إذ فيه بشارة بالأمن من كل مكروه ﴿وآخر دعوانهم﴾ وخاتمة دعائهم ، أو أقوالهم ، أو عبادتهم ﴿أن الحمد لله رب العالمين﴾

قيل : إنهم إذا أكلوا وشبعوا قالوا ذلك ^(٧) .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون أنفاسكم » ^(٨) .

وقيل : إنهم يفتتحون بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختتمون بشكره والثناء عليه ^(٩) . وقيل : إن التسبيح من نعم الله عليهم ، ولذا تأخر الحمد عنه ، وختم به الذكر ^(١٠) .

﴿ولَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ﴾

الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم أنه تعالى بعد تهديد الكفار ووعدهم بالعذاب الآخروي ، نبه على أن مصلحة الإمهال منعت من نزول العذاب عليهم في الدنيا ، مع استحقاقهم له بقوله : ﴿لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ والعذاب حسب استحقاقهم واستعجالهم فيه ﴿استعجالهم﴾ ونحو تسريعهم ﴿بالخير﴾ من العافية والراحة

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٤١ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٢٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٩ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٥ / ١٩٤٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٥ .

(٤ و ٥) . تفسير الرازي ١٧ : ٤٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٧ : ٤٥ .

(٧ و ١٠) . تفسير الرازي ١٧ : ٤٦ .

والخطام الدنيويّة ﴿لَقُضِيَ﴾ واذي ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في السّاعة ﴿أَجْلُهُمْ﴾ الذي عيّن لعذابهم ، واميتوا واهلكوا دفعة وبلا مهلة ، ولكن لا يعجل ولا يقضى ﴿فَنَذَرُ﴾ ونترك الكفرة ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ ولا يتوقعون ﴿لِقَاءَنَا﴾ والحشر إلينا لجزاء أعمالهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ وعتوهم من الكفر وإنكار الحشر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتردّدون ، إلزاما للحجّة ، أو استدراجا ، أو لطفاً بهم لأجل أن يؤمنوا ، أو بمن في أصلاهم كي يخرجوا إلى الدّنيا ويوفقوا للإيمان.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان استحقاق الكفار للعذاب ، بيّن أنّهم - مع غاية ضعفهم ، وقلة طاقتهم في تحمّل مكروه من المكاره الجزئية الدّنيوية ، وتضرّعهم إلى الله ، ودفعه تعالى ذلك المكروه والضّرر عنهم - أعرضوا عنه ، وتجرّأوا عليه ، وعبدوا الأصنام ، وكفروا بنعمه بقوله : ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾ وأصاب ﴿الْإِنْسَانَ﴾ الشّقيّ ﴿الضُّرُّ﴾ والمكروه من فقر أو مرض ، أو غيرها من المضارّ ، جنّز و﴿دَعَانَا﴾ لكشفه من غاية عجزه وضعفه ، وتضرّع إلينا لدفعه ، في جميع أحواله [سواء أ] كان ملقى ﴿لِجَنبِهِ﴾ على الأرض ، أو مضطجعا في الفراش ﴿أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ لا يفتّر عن الضّراعة في حال من حالاته.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ ودفعنا ﴿عَنْهُ﴾ لإخلاصه في دعائه ﴿ضُرُّهُ﴾ وأزلنا عنه ما كرهه ، نسينا ، ونسي ابتلاءه وتضرّعه ، وتفصّلنا عليه ، و﴿مَرَّ﴾ ومضى على المسلك الذي كان عليه قبل تضرّره ؛ من الشّرك والطّغيان ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى﴾ كشف ﴿ضُرِّ مَسَّهُ﴾ ولم نمنّ عليه بشيء من النّعم حتّى نستحقّ عليه الشّكر ﴿كَذَلِكَ﴾ التّزيين الحاصل في نظير هذا الكافر لكفران التّعمة والطّغيان على المنعم ﴿زُيِّنَ﴾ من قبل النّفس والشّيطان ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ والمتجاوزين عن حدود العقل ، والمتعديّين على أنفسهم باختيار الشّرك ، والانهماك في الشّهوات ، والغفلة عن شكر المنعم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الله ، ومعارضة الرّسل ، وارتكاب القبائح.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد المشركين بعذاب الآخرة ، وإظهار منته عليهم - بإمهالهم في الدّنيا مع

استحقاقهم نزول العذاب عليهم فيها ، والتنبية على علة استحقاقهم ؛ وهي الجرأة على الله ، وكفرانهم نعمه ، بعد تنبيههم على غاية ضعفهم ، وعدم طاقتهم على تحمّل أقلّ قليل من المضارّ الدنيويّة ، فكيف بعذاب الاستئصال في الدّنيا ، وعذاب النّار في الآخرة ؟ - وعظمهم سبحانه بيان ما نزل على الامم السابقة لكفرهم وعدم إيمانهم بالرّسل ، اعتبارا لهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ؛ كالغرق والحسف والصّيحة والصّاعقة وغيرها ﴿الْفُرُونَ﴾ والامم الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أيّها المشركون ، وفي الأعصار السابقة على عصركم أيّها الظّالمون ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك ، بسبب الإصرار على الشّرك ، وتكذيب الآيات ﴿وَوَ﴾ الحال أنّه قد ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ من قبل الله ﴿رُسُلُهُمْ﴾ مستدلّين على دعواهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والحجج الواضحات من المعجزات الباهرات ، والبراهين السّاطعات ﴿وَمَا كَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسله ، لشدّة قساوتهم ، ورسوخ حبّ الدّنيا في قلوبهم ، وفساد أخلاقهم ، فصاروا بحيث لا يرجى منهم الهداية ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء الفضيع ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ في كلّ عصر وزمان.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ أيّها المشركون في هذا العصر ﴿خَلَائِفَ﴾ وأبدالا لهم في السّكونة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ والتّعيش فيها ﴿مَنْ بَعْدِهِمْ﴾ وبعد إهلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ﴾ نظر الاختبار ، ونعلم بالشّهود ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ في أيّام حياتكم ، أتعملون خيرا أو شرا ؟ فنجازيكم حسب أعمالكم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي

أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه تكذيب الامم الماضية المهلكة لرسلمهم ، ذكر تكذيب مشركي مكّة للنبيّ ﷺ بقوله : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ المنزلة من القرآن ، مع كونها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدّلالات على صدق النبيّ ، وكونها كلام الله ﴿قَالَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ولا يؤمنون باليوم الآخر حتّى يخافوا من التّكذيب والاستهزاء بالقرآن : ﴿إِنْتِ﴾ يا محمّد ﴿بِقُرْآنٍ﴾ آخر ﴿غَيْرِ هَذَا﴾ الذي أتيت به ترتيبا ونظما ومطلبا ، فإنّ فيما أتيت به ما نستبعده من أمر البعث ، وما نكرهه من ذمّ آلهتنا وتحقيرهم ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾ وغيره من حيث المطلب وإن أبقيته على ما هو عليه من النّظم والترتيب.

وقيل : إنّ الفرق بين إتيان الغير والتّبديل أنّ المراد من الأوّل : إتيان كتاب آخر مغاير لما أتى به في المطلب ، مع إبقاء الأوّل على حاله ، ومن الثاني : تغيير ما أتى به. وعلى أيّ تقدير ، كان المقصود إظهار

أنه كلام تقوله من قبل نفسه ، وأنه كاذب فيما يدّعيه من أنه من الله ^(١) أو السّخرية والاستهزاء به .
عن ابن عباس : أنّ خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاص بن وائل السّهمي ، والأسود بن المطّلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن حنظلة ، فقتل الله كلّ واحد منهم بطريق آخر ، كما قال الله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ^(٢) ، فذكر الله أنّهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن ، قال الذين لا يرجون لقاءنا : إئت بقرآن غير هذا أو بدّله ^(٣) .
ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بجوابهم بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد للمستهزئين : ﴿ مَا يَكُونُ لِي ﴾ ولا يمكنني ﴿ أَنْ أُبَدِّلَهُ ﴾ من قبلي و ﴿ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ لأنّه ليس بكلامي وكلام غيري من البشر ، بل إنّما هو كلام ربّي ، و ﴿ إِنْ أَتَيْعَ ﴾ فيما أتلو عليكم ﴿ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ من قبل ربّي ، بلا تصرّف وتغيير متّي فيه ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بالتّغيير في كلامه ، أو التّبديل فيه ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فإنّ العاصي مستحقّ له ؛ ولو كان على فرض المحال أحبّ الخلق إليه .
وإنّما اقتصر في الجواب على بيان عدم قدرته على التّبديل ، لفهم عدم قدرته على التّغيير بالألويّة .

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ﴾

أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)

ثمّ أمره الله سبحانه بالاستدلال على عدم كون القرآن من تلقاء نفسه بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمّد لهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن لا أتلو عليكم القرآن ، ما أوحاه إليّ ، و ﴿ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ لعجزي عن إتيان هذا الكتاب المحتوي على العلوم الكثيرة ، وتفصيل المبدأ والمعاد ، والمعارف والحكم والأحكام ، وتواريخ الأنبياء وأمهم ، وغيرها ممّا لا يحيط به البشر ، مع إعجاز البيان بحيث لا يقدر على إتيان سورة منه جميع الفصحاء ؛ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فلا بدّ من كونه بوحى الله وتعليمه ﴿ وَ ﴾ لو شاء ﴿ لَا أَدْرَاكُمْ ﴾ وأعلمكم ، أو أنذركم ﴿ بِهِ ﴾ - كما عن ابن عباس ^(٤) - مع أنّكم تعلمون أنّي لا أعرف الخطّ ، وما طالعت الكتب ، وما جالست عالما قطّ ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ ﴾ ومكثت ﴿ فِيكُمْ ﴾ وبين ظهرانكم ﴿ عُمُرًا ﴾ طويلا ، ومدة مديدة ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ ما كنت أتلوّه ولا أعلمه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وتدركون أنّ من لم يقرأ كتابا ، ولم يجالس عالما ، ولم يمارس بحثا ، لا يمكنه أن يأتي بمثل هذا الكتاب العظيم الشأن ، الفائق على الكتب السّماوية ، فلا بدّ أن يكون بتعليم الله ووحيه .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣ ، تفسير الرازي ١٧ : ٥٥ - ٥٦ ، مجمع البيان ٥ : ١٤٧ .

(٢) الحجر : ٩٥ / ١٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ٥٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ٥٨ .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾

﴿الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾

ثم أكد تنزهه عن الاختلاق بإظهار علمه بغاية قبح الافتراء على الله ، وسوء عاقبته بقوله :
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على نفسه بتعريضها للهلاك ، وعلى غيره من الناس بإضلالهم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾
بإسناد ما ليس له إليه ﴿كَذِبًا﴾
ثم ساوى بين المفتريين على الله والمكذبين لآياته ، في كونهم أظلم خلق الله ، تهديدا لهم بقوله :
﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة منه ، واستهزا بها ؛ كالمشركين المستهزين بالقرآن.
ثم بالغ في تهديدهم بقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ ولا ينجو ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ من العذاب ، ولا يفوزون بمطلوب.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُنَبِّئُوكُم بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾

ثم لما كان التماسهم تغيير القرآن لتضمينه شتم الأصنام وتحقيرها ، وتجهم سبحانه على عبادتها
بقوله : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ويشركون به في العبادة والخضوع ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ شيئا إن لم يعبدوه ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ قليلا إن عبدوه ، لأنه جماد لا شعور له ولا قدرة ، واللائق للعبادة هو الحي المدرك القادر على كل شيء ، والعجب أنهم مع ذلك كانوا يشيرون إلى أصنامهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عن جهالة وسفاهة :
﴿هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَاؤُنَا﴾ في مهماتنا وحوائجنا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾
قيل : إن وجه اعتقاد المشركين شفاعة الأصنام ، أنهم توهموا أنهم ليسوا أهلا لعبادة الله ، وإنما
الأهل واللائق لها الأرواح المدبرة لهذا العالم ، أو الكواكب المؤثرة في المواليذ ؛ كالشمس والقمر ، وسائر
السيارات.

في ذكر مبدأ عبادة الأصنام

ثم لما كانت الأرواح غير مشاهدة ، والكواكب غارية ، وضعوا لكل روح أو لكل كوكب صنما ،
فاشتغلوا بعبادته باعتقاد أن ذلك الروح أو الكوكب يشفع لهم عند الله ^(١) .
وفيه : أن ظاهر الآيات أنهم كانوا يعتقدون أن نفس الأصنام يشفعون لهم ، ويمكن أن [يكون]
وجه اعتقاد مبدعي هذا المذهب في أول الأمر ذلك ، ثم بعد تمادي الزمان غلب الجهل على أتباعهم ،

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٥٩ .

واعتقدوا ذلك في نفس الأصنام باعتقاد أنّ قدماءهم أيضا كانوا معتقدين لذلك.

قيل : إنّ أوّل ما حدثت عبادة الأصنام في قوم نوح ، وذلك أنّ آدم كان له خمسة أولاد صلحاء ؛ وهم : ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فمات ودّ وحزن النَّاس عليه حزنا شديدا ، فاجتمعوا حول قبره ولا يكادون يفارقونه ، وذلك بأرض بابل ، فلمّا رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان ، وقال لهم : [هل] لكم أن اصوّر لكم صورة إذا نظرتم إليها ذكرتموه ؟ قالوا : نعم ، فصوّر لهم صورته ، فصار كلّما مات منهم واحد صوّر صورته ، وسمّوا تلك الصّور بأسمائهم ، ثمّ لما تقادم الزّمن وتناست الأبناء والأبناء ، وأبناء الأبناء ، قال لمن حدث بعدهم : إنّ الذين كانوا قبلكم يعبدون هذه الصّور ؛ فعبدوها ، فأرسل الله إليهم نوحا عليه السلام فنهاهم عن عبادتها ، فلم يجيبوه إلى ذلك ، وكان بين آدم ونوح عليه السلام عشرة قرون كلّهم على شريعة من الحقّ ، ثمّ أن تلك الصّور دفنها الطّوفان في ساحل جدّه ، فأخرجها اللّعين.

وأوّل من نصب الأوثان في العرب عمرو بن لحيّ بن خزاعة ، وذلك أنّه خرج من مكّة إلى الشام في بعض اموره ، فرأى بأرض البلقاء العماليق ^(١) وهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم : أ فلا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب ، فأعطوه صنما - يقال له هبل - من العقيق ، على صورة إنسان ، فقدم به مكّة فنصبه في بطن الكعبة على يسراها ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فكان الرّجل إذا قدم من السّفر بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده ^(٢) .

فردّهم الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ، تقرّبا لهم ، وتحمّكا بهم : ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ وتخبرونه ، وهو علّام الغيوب ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ في عالم الوجود ، لا ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ وعالم الملكوت ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وعالم الملك. ومعلوم أنّ ما لا يعلمه الله لا وجود له.

القمّي عليه السلام قال : كانت قريش يعبدون الأصنام ، ويقولون : إنّما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فإنّا لا نقدر على عبادة الله ، فردّ الله عليهم فقال : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي ليس يعلم ^(٣) ، فوضع حرفا مكان حرف ، أي ليس له شريك يعبد ^(٤) .

ثمّ نزه ذاته المقدّسة عن الشريك بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به ، وتبرأ وجلّ عن هذا النقص.

(١) زاد في تفسير روح البيان : ولد عملاق بن لاود بن سام بن نوح.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥ .

(٣) في النسخة : أي يعلم أنّه ليس ، وما أثبتناه من تفسير الصافي.

(٤) تفسير القمي ١ : ٣١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٧ .

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ

بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تبرئة نفسه عن اتّخاذ الشّريك ، تبّه على أنّ حدوث مذهب الشّرك إمّا كان بالأهواء الزّائغة والآراء الفاسدة بقوله : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ﴾ من زمان آدم إلى زمان نوح ﷺ - على ما قيل (١) - ﴿إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وجماعة متّفقة على ملّة التّوحيد والمذهب الحقّ - كما مرّ - وعن ابن عبّاس رضی الله عنه قال : كانوا على دين الإسلام في عهد آدم ﷺ وعهد ولده (٢) ، وقيل : إنّ المراد من النّاس : العرب (٣) ، فإنّهم كانوا على مذهب التّوحيد من زمان إبراهيم ﷺ - ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ - على التّفسير الأوّل - في عهد نوح ، وعن ابن عبّاس : عند قتل قابيل هابيل (٤) ، وعلى أنّ المراد من النّاس : العرب ، عند تغيير عمرو بن لحي دين إسماعيل ، فمنهم من بقي على التّوحيد ودين الحقّ ، ومنهم من أشرك وكفر.

قيل : إنّ الغرض من بيان بدء حدوث الشّرك ترك تعصّب العرب لنصرته ، بل الاستدلال به على بطلانه ، لكون آدم والأطايب من أولاده على دين التّوحيد دليل على بطلان مذهب الشّرك (٥) .

وقيل : إنّ المراد أنّ النّاس كانوا على فطرة التّوحيد فاختلّفوا بواسطة الآباء (٦) .

وقيل : كانوا على الكفر فاختلّفوا بواسطة الأنبياء . وعليه يكون الغرض تسليّة النبي ﷺ وقطع رجائه بإيمان الكلّ (٧) .

ثمّ تبّه سبحانه على استحقاق المخالفين لأهل الإيمان التّسريع في تعذيبهم ، والتّعجيل في إهلاكهم ، وإنّما اقتضت الرّحمة وصلاح نظام العالم إمهالهم إلى أجلهم ، بقوله : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من قوله : سبقت رحمتي غضبي (٨) ، ومن قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (٩) - على قول - ومن إخباره تعالى بأنّ التّكليف باق على العباد وإن كانوا به كافرين - على قول آخر (١٠) - ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من التّوحيد والشّرك ، وقضائه بإنزال العذاب على المشركين والرّحمة على المؤمنين ، وإنّما الرّحمة الواسعة ، ومصلحة نظام العالم على الوجه الأتمّ ، وكرامة النبي ﷺ الأكرم اقتضت إمهال المشركين وتأخير تعذيبهم إلى ما بعد الموت ويوم القيامة .

والحاصل : أنّ الحكمة اقتضت أن تكون هذه الدّار الفانية دار بلاء واختبار ، والدّار الآخرة دار

ثواب

(١) تفسير الرازي ١٧ / ٦٢ ، تفسير أبي السعود ٤ / ١٣٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ٦١ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٣٢ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ١٤٩ ، منسوب إلى القليل .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ٦٢ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٧ : ٦٢ .

(٨) الأحاديث القدسية : ٢٣٠ ، تفسير الرازي ١٧ : ٦٣ .

(٩) الأنفال : ٨ / ٣٣ . (١٠) تفسير الرازي ١٧ : ٦٣ .

﴿وَيَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾

الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

ثم أنه تعالى بعد إبطال مذهب الشرك ، وبيان استحقاق المشركين التعجيل في عقوبتهم والتسريع في إهلاكهم ، حكى سبحانه تعنتهم على النبي ﷺ ، واقتراحهم عليه معجزة أخرى ، سوى ما رأوه منه من القرآن ، وسائر ما نسبوه إلى السحر ؛ بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تعنتا ولجأ : ﴿لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومعجزة سوى القرآن ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ مع كفاية القرآن لإثبات نبوته لما فيه من وجوه الإعجاز . ولما كان إنزال الزائد على الكفاية منوطا بمصلحة لا يعلمها إلا الله ، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يردهم بقوله : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ والعلم بالمصالح الواقعية خاص ﷻ لا يشركه فيه غيره ﴿فَانتَظِرُوا﴾ مشيئته وفعله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك .

وقيل : إن المعنى : انتظروا لما يفعل الله بكم بحجودكم الآيات المنزلة (١) .

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ

أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١)

ثم بين سبحانه أن تكذيبهم المعجزات وتعنتهم إنما يكون لبطرهم بالراحة ، وسعة العيش بقوله : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ قيل : يعني مشركي مكة ﴿رَحْمَةً﴾ من سعة وصحة (٢) ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ﴾ من فقر ومرض ﴿إِذَا لَهُمْ﴾ حين إذاقتهم الرحمة ﴿مَكْرٌ﴾ وسعي بليغ ﴿فِي﴾ تكذيب ﴿آيَاتِنَا﴾ ومعجزات نبينا ﷺ .

روي أن الله سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ، ثم أنزل الأمطار النافعة على أراضيهم ، ثم أتهم نسبوا تلك الرحمة إلى أصنامهم ، وطفقوا يقدحون في آيات الله ، ويكيدون الرسول ، فقابلوا نعمة الله بالكفران (٣) .

ثم أمر الله نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وأعجل عقوبة مما تأتون به في إبطال الحق ، فإنه يزيل عنكم تلك النعمة بتسليط المسلمين عليكم ، وابتلائكم بالقتل

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٤٣١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ٦٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٩ .

والأسر ، أو الانقياد للرسول قبل أن تنالوا بمطلوبكم ؛ من الإخلال بأمر الرسول ﷺ ، والإفساد في دينه.

ثم بالغ في تهديدهم بقوله : ﴿إِنْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكتبة لأعمال الناس ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ وما تحتالون في تكذيب الآيات ، في صحائف أعمالكم ، ثم يعرض عليكم يوم القيامة لتزداد فضيحتكم وخزيكم.

وقيل : إن المراد أن لا يخفى على الحفظة شيء من خفيات أعمالكم ، فكيف بالله المطلع على السرائر (١) ؟

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾

ثم ذكر سبحانه أحد مصاديق الرحمة بعد الضر بقوله : ﴿هُوَ﴾ القادر الرحيم ﴿الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ ويمكنكم لقطع المسافة ﴿فِي الْبَرِّ﴾ على الأقدام ، وظهر الدواب ﴿وَو﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ بالسفن والزوارق ، لنيل مقاصدكم وأنتم ذاهلون عن ألطافه ﴿حَتَّى إِذَا﴾ اتفق في التسييرات (٢) أنكم ﴿كُنْتُمْ﴾ متمكنين ﴿فِي الْفُلِكِ﴾ والسفن ، ثم عدل سبحانه عن الخطاب إلى الغيبة مبالغة في تعجيب حالهم وإنكارها عليهم ؛ بقوله : ﴿وَجَرَيْنَ﴾ تلك السفن ﴿بِهِمْ﴾ على الماء ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة ، موافقة لمقصودهم ﴿وَفَرِحُوا﴾ وسرّوا ﴿بِهَا﴾ لطيبها وموافقتها ، فإذا تلقت تلك الريح ، أو الفلك ، و﴿جَاءَتْهَا﴾ من الطرف المخالف ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة ، بحيث استولت على الأولى الطيبة ﴿وَجَاءَهُمُ﴾ لشدة الريح وتلاطم البحر ﴿الْمَوْجُ﴾ كالجبال ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وجانب ﴿وُظَنُوا﴾ لذلك ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ الهلاك وسدت عليهم المسالك ، فارتعدت فرائصهم من الخوف ، وصاروا منقطعي الرجاء من الخلق ، إذن ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ وتضرعوا إليه بالفطرة ، حال كونهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ غير مشركين به ، قائلين في دعائهم : يا رب ، والله ﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ المهلكة

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٤٣٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٠ .

(٢) في النسخة : التسييرات.

﴿لَتَكُونَنَّ﴾ البتة بعد ذلك ﴿مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لنعمك التي منها نعمة النجاة المسؤولة بتخصيصك بالعبادة والطاعة.

روى الفخر الرازي عن الصادق عليه السلام أنه قال له رجل : اذكر دليلا على إثبات الصانع ؟ فقال : أخبرني عن حرفتك ؟ فقال : أنا رجل أتجر في البحر ، فقال : صف لي كيفية حالك ؟ فقال : ركبت البحر ، فانكسرت السفينة ، وبقيت على لوح واحد من ألواحها ، وجاءت الرياح العاصفة. فقال جعفر الصادق عليه السلام : هل وجدت في قلبك تضربا ودعاء ؟ فقال : نعم ، فقال جعفر : فإلهك هو الذي تضربت إليه في ذلك الوقت (١) .

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ﴾ الله من الورطة ، وما غشيهم من الكربة ؛ إجابة لدعوتهم الخالصة ، ووجدوا السلامة التي هي أعظم النعم ﴿إِذَا هُمْ﴾ في حال السلامة والراحة ﴿يَبْغُونَ﴾ ويظلمون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويفسدون في أقطارها - عن ابن عباس : يريد به الفساد والتكذيب ، والجرأة على الله تعالى (٢) - حال كونهم متدينين ﴿بِغَيْرِ﴾ دين ﴿الْحَقِّ﴾ وهو التوحيد ، أو حال كونهم مبطلين في بغيهم لا محققين ؛ كما فعل النبي ﷺ ببني قريظة ، أو مبطلين في اعتقادهم.

ثم وعظهم سبحانه بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الباغون ﴿إِنَّمَا﴾ يكون ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وظلمكم ، أو إفسادكم في الأرض ، ضرر عظيم ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وجزاؤه لا حق بكم ، لا على من تبغون عليه ، أو المراد : إنما يكون بغيكم على أمثالكم ، وأبناء نوعكم الذين هم كأنفسكم ، فتمتعوا ﴿بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وانتفعوا بلذاتها ، فإنها لا تبقى إلا مدة قليلة ، ثم نزول بسرعة ﴿ثُمَّ﴾ يكون ﴿إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وإلى محضر عدلنا مصيركم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ ونخبركم ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتعديكم أشد العذاب عليه.

عن النبي ﷺ قال : أسرع الخير ثوابا صلة الرحم ، وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة (٣).

وروي أيضا : نثنان يعجلهما الله في الدنيا : البغي ، وعقوق الوالدين (٤) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي (٥) .

وعن الصادق عليه السلام : ثلاث يرجعن على صاحبهن : التكب ، والبغي ، والمكر. ثم تلا هذه الآية

(٦)

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ٧١ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ٧١ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ٧١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ٧١ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٥ / ١٩٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٣٩٩ .

يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ثم لما نبه سبحانه على فناء الدنيا وزوال لذاتها ، أوضحه بضرب المثل بقوله : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وحالها العجبية في سرعة الزوال والفناء ، بعد اغترار الناس بها ﴿كَمَا﴾ نافع ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بالأمطار على أرض ميتة ، فاحضرت بسبب المطر ﴿فَاخْتَلَطَ﴾ وكشف ﴿بِهِ نَبَاتٌ﴾ تلك ﴿الْأَرْضِ﴾ بأنواعه المختلفة النافعة ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالزروع والبقول ﴿وَمَا يَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ كالخشائش ، فيبقى ذلك النبات مختلطا ومشتبكا ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ﴾ من ذلك النبات ﴿زُخْرُفَهَا﴾ وغاية حسنها كالعروس التي لبست الثياب الفاخرة ، المختلفة الألوان ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ بجميع الألوان التي تنزى بها ﴿وَوَظَنَ﴾ أصحاب تلك الأرض و﴿أَهْلُهَا أَنَّهُمْ﴾ متمكنون من حصاد تلك الأرض ، و﴿قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وعلى رفع غلتها ﴿أَتَاهَا﴾ بغتة ﴿أَمْرُنَا﴾ وحكمنا بخرابها ، وهلاك ثمارها بأفة من الآفات ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ بسبب نزول الآفة أرضا ملساء ، كأن زرعها وحشيشها صار ﴿حَصِيدًا﴾ من أصله ، بل ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنِ﴾ ولم ينبت فيها شيء ﴿بِالْأَمْسِ﴾ وفي الزمان السابق ﴿كَذَلِكَ﴾ التوضيح والتفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ، أو نذكر واحدة بعد أخرى ﴿الْآيَاتِ﴾ القرآنية التي منها الآيات المنبهة على زوال الدنيا ، وعدم لياقتها للاغترار بها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها ، ويقفون على دقائقها.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥)

ثم أنه تعالى بعد تنفير الناس من الدنيا ولذاتها ، رغبهم في الآخرة بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ الناس من دار البلاء ﴿إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ويرغبهم فيها .
عن الباقر عليه السلام قال : « إِنَّ السَّلَامَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجْ ، وداره التي خلقها لعباده ولأوليائه الجنة » (١) .
قيل : إِنَّ وجه تسمية الله نفسه بالسَّلَام سلامته - لوجوب ذاته - من الآفات والتغيير والاحتياج ، أو سلامة الناس من ظلمه ، أو أنه معطي السلامة من الآفات والمكاره والعيوب (٢) .
وقيل : إِنَّ دار السَّلَام الجنة ، لسلامة من دخل فيها من الضرر والآفة والمكروه ، أو لأن الله يسلم على

(١) معاني الأخبار : ١٧٦ / ٢ ، تفسير الصافي : ٣٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ٧٥ .

أهلها ^(١) ؛ كما قال تعالى : ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ ^(٢) ، وتسلم الملائكة عليهم ، ويسلم بعضهم على بعض .

عن النبي ﷺ أنه قال : « مثلي ومثلكم شبه سيد بنى دارا ، ووضع مائدة ، وأرسل داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المائدة ، ولم يرض عنه السيد ، فالله السيد ، والدار دار السلام ، والمائدة الجنة ، والداعي محمد » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثقلين : أيها الناس هلموا إلى ربكم ، والله يدعو إلى دار السلام » ^(٤) .

ثم أنه تعالى بعد دعوته العامة ، خص لطفه وتوفيقه بالذوات الطيبة المستعدة بقوله : ﴿وَيَهْدِي﴾ الله بلطفه وتوفيقه ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته وتوفيقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وطريق موصل إلى تلك الدار ؛ وهو معرفة الله بالتوحيد والصفات الكمالية ، ومعرفة ملائكته ورسله وحججه بالرسالة والعصمة ، ووجوب الطاعة .

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

ثم لما دعا الله سبحانه عباده إلى الجنة ، بشرهم بما أعد لهم فيها من الحظوظ بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بتحصيل العقائد الحقّة ، والمعارف الصحيحة ، والأعمال الصالحة في الدنيا ، المثوبة ﴿الْخُسْنَىٰ﴾ والجزاء الأوفى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها من فضله وكرمه .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة ، لها أربعة أبواب » ^(٥) . وعن الباقر عليه السلام : « أما الحسنى فالجنة ، وأما الزيادة في الدنيا ^(٦) ، ما أعطاهم الله في الدنيا لم يحاسبهم به في الآخرة » ^(٧) .

وعن القمي رحمه الله : هي النظر إلى رحمة الله ^(٨) .

أقول : وعليه يحمل ما روته العامة من أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله تعالى : تريدون

شيئا

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٧٥ .

(٢) يس : ٣٦ / ٥٨ .

(٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٧ : ٧٤ .

(٥) مجمع البيان ٥ : ١٥٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

(٦) في تفسير القمي وتفسير الصافي : وأما الزيادة فالدنيا .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

(٨) تفسير القمي ١ : ٣١١ ، وفيه : إلى وجه الله عز وجل ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة ، ألم تنجنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، ثم تلا هذه الآية : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(١) .

ثم بشرهم سبحانه بالصّون عن المكاره كلّها بقوله : ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ ولا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ في الجنة ﴿فَقَتَرٌ﴾ وغبار فيه سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ وهوان. قيل : إنّ نفي الوصفين كناية عن نفي موجبات الخوف والحزن ، ليعلم أنّ نعيمهم غير مشوب بمكروه يوجب سلب نضارة الوجه^(٢) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المحسنون هم (أصحاب الجنة وأهلها) ، و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون مأمونون من الخروج منها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حسن حال المحسنين ، بيّن سوء حال المسيئين بقوله : ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا﴾ وحصلوا العقائد والأعمال ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ في الدنيا فلهم ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ صدرت منهم ﴿يَمْثِلُهَا﴾ بلا زيادة لمنافاتها العدل. قيل : إنّ التقدير : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها^(٣) ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومهانة. وفي إسناد الذلّة إليهم دون وجوههم ، دلالة على إحاطتها بهم ﴿مَا لَهُمْ مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ تعالى ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ وحافظ ، ويسودون ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ والبست ﴿وُجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ حال كونه ﴿مُظْلِمًا﴾ لشدة سوادها بسبب سواد الجهل ، ولظلمة الكفر والضلال. عن الصادق عليه السلام : « أما ترى البيت إذا كان الليل كان أشدّ سوادا فكذلك^(٤) [هم] يزدادون سوادا »^(٥) ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المسيئون ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبدا ، كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها.

القَمِّيُّ عليه السلام ، عن الباقر عليه السلام : « هؤلاء أهل البدع والشبهات والشّهوات ، يسود الله وجوههم ثمّ يلقونهم. قال : ويلبسهم الله الذلّة والصغار »^(٦) .

(١) و ٢ . تفسير روح البيان ٤ : ٣٨ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٣٣ .

(٤) في الكافي : سوادا من خارج فلذلك.

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٧ / ١٩٥٢ ، الكافي ٨ : ٢٥٢ / ٣٥٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا

بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾

ثم بيّن الله تعالى زيادة خزي المشركين بقوله : ﴿وَيَوْمَ﴾ نحيي الكفار والمؤمنين ، و﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ في القبور إلى القيامة ﴿جَمِيعاً﴾ لا يشدّ منهم أحد ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ من بينهم ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ برّهم غيره في الألوهيّة والعبادة : الزموا أيّها العابدون والمعبودون ﴿مَكَانَكُمْ﴾ ولا تبرّحوا عنه ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ الذين تدعون من دون الله ، حتّى ننظر في أمركم ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ وفرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين شركائهم الذين كانوا يعبدونهم ، وانقطعت أطماعهم من شفاعتهم. عن القمّي : يبعث الله نارا تزيل بين الكفار والمؤمنين ^(١) « وقال شركاؤكم » ومعبودوهم من الملائكة والبشر والأصنام وغيرهم ، بعد ما أنطق الله الجمادات منهم : أيّها المشركون ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ وإنّما كنتم تعبدون أهواءكم ، وتطيعون الشياطين الأمرين لكم بالشرك.

﴿فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ

نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ (٢٩) و (٣٠)﴾

ثم لا يكتفون بالتّبري عن المشركين بالإنكار ، بل يستشهدون بالله على قولهم ، بقوله : ﴿فَكَفَى بِاللّهِ﴾ العالم بحقائق الأمور ﴿شَهِيداً﴾ ومطلعا ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ في ﴿إِنْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لِغَافِلِينَ﴾ لعدم الحياة والشّعور للجماد ، ولعدم الرّضا بها من غيره ﴿هُنَالِكَ﴾ المقام ، وفي ذلك الموقف ﴿تَبْلُوا﴾ وتختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ وقدمت من العقائد والأعمال ، فتعلم خيرها وشرّها ، ونفعها وضرّها ، وأعرضوا عن مطاوعتهم الباطل ﴿وَرُدُّوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَى﴾ حكم ﴿اللّهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ومطاعهم ﴿الْحَقُّ﴾ وإلى جزائه وعقابه. وقيل : يعني صاروا ملجأين إلى الإقرار بالوحيّة الله ^(٢) ووحدانيّته ﴿وَصَلَ﴾ وضاع ﴿عَنْهُمْ﴾ في ذلك المقام ﴿مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله بادّعاء الوهيّته وشفاعته.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ

الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

(١) تفسير القمي ١ : ٣١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ٨٥ .

فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ (٣١) و (٣٣)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ فَضَائِحِ الْمُشْرِكِينَ ، أَمَرَ نَبِيَّهِ ﷺ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى فِسَادِ مَذْهَبِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ، لِلْمُشْرِكِينَ احْتِجَاجًا عَلَى صِحَّةِ التَّوْحِيدِ ، وَبَطْلَانِ الشِّرْكِ ﴿مَنْ﴾ الَّذِي ﴿يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بِإِنزَالِ الْأَمْطَارِ النَّافِعَةِ ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ﴾ بِإِنْبَاتِ النَّبَاتَاتِ الَّتِي هِيَ غِذَاؤُكُمْ وَغِذَاءُ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا ؟ ﴿أَمَنْ﴾ الَّذِي ﴿يَمْلِكُ﴾ وَيَخْلُقُ لَكُمْ ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ اللَّذِينَ هُمَا أَعْظَمُ أَعْضَائِكُمْ ، وَأَنْفَعُهَا لَكُمْ ؟ وَقِيلَ يَعْنِي : مَنْ يَحْفَظُهُمَا مِنَ الْآفَاتِ مَعَ كَثَرَتِهَا ^(١) ؟ ﴿وَمَنْ﴾ الَّذِي ﴿يُخْرِجُ﴾ وَيَخْلُقُ بِقُدْرَتِهِ الْحَيَوَانَاتِ ﴿الْحَيَّ مَنْ﴾ الْمَبْدَأُ ﴿الْمَيِّتَ﴾ كَالنَّطْفَةِ ﴿وَيُخْرِجُ﴾ وَيَخْلُقُ الشَّيْءَ ﴿الْمَيِّتَ﴾ كَالْمَيِّتِ ﴿مَنْ﴾ الْحَيَوَانَاتِ ﴿الْحَيَّ ؟﴾ وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْحَيِّ : الْمُؤْمِنُ ، وَمِنَ الْمَيِّتِ : الْكَافِرُ ^(٢) ﴿وَمَنْ﴾ الَّذِي ﴿يُدَبِّرُ﴾ وَيَنْظُمُ ﴿الْأُمُورَ﴾ فِي عَوَالِمِ الْوُجُودِ عُلُوقًا وَسُفُلِيًّا ، وَجِسْمَانِيًّا وَرُوحَانِيًّا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ : إِنَّهُ ﴿اللَّهُ﴾ وَحْدَهُ ، لَا يُعْتَقَدُ لَهُمْ بِأَنَّهُ صَانِعُ الْعَالَمِ وَمُدَبِّرُهُ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ لِقَوْلِهِمْ بِأَنَّهُمْ شَفَعَاءُ .

فَإِذَا اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللَّهُ فِي أَنْ تَجْعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي الْعِبَادَةِ مَعَ اعْتِرَافِكُمْ بِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمُورِ بِيَدِهِ ، وَأَنَّ الْأَصْنَامَ مَقْهُورُونَ تَحْتَ قُدْرَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ الْقَادِرُ الْقَاهِرُ الْمُدَبِّرُ بِالْخُصُوصِ ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتَةُ رُبُوبِيَّتُهُ ، لَا مَا أَشْرَكْتُمْ بِهِ . فَإِذَا ثَبِتَ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الدِّينَ الْحَقُّ ﴿فَمَاذَا بَعَدَ﴾ دِينَ ﴿الْحَقِّ﴾ وَغَيْرَ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ ﴿إِلَّا الضَّلَالُ﴾ لِعَدَمِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَمَنْ تَخَطَّى أَحَدَهُمَا وَقَعَ فِي الْآخَرِ ، فَإِذَا عَرَفْتُمْ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاضِحَ ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ عَنِ الْحَقِّ ؟ وَكَيْفَ تَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى الْبَاطِلِ وَالضَّلَالِ ؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْحَقُّ الَّذِي ثَبِتَ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ لَهُ عَقْلٌ ﴿حَقَّتْ﴾ وَثَبِتَتْ ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وَحُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وَتَمَرَّدُوا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَخَرَجُوا عَنْ قَابِلِيَّةِ الْهُدَايَةِ ، وَذَلِكَ الْحُكْمُ وَالْقَضَاءُ الثَّابِتُ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَبَدًا ، لَعَلَّمَهُ تَعَالَى بِخَبَثِ طَبِئَتِهِمْ ، وَالطَّبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ : ثَبِتَ عَذَابُ رَبِّكَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٣) ، بَلْ يَمُوتُونَ كَفَّارًا .

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ١٤١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٣ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ١٦٢ ، تفسير الرازي ١٧ : ٨٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ٨٨ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ
أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٤) * (٣٥)﴾

ثم أكد سبحانه الحجة عليهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ ومعبوداتكم ﴿مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ ويوجده أولا بلا مثال سابق ، من نطفة أمشاج ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويخلقه ثانيا بعد إمامته وصيرورته ترابا .

فلما كان الجواب في القضيةتين في غاية الوضوح ، لسطوع برهانه ، وإن كانوا جاحدين للمعاد ، أمر نبيه ﷺ بأن ينوب عنهم في الجواب بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لا غيره ؛ كائنا ما كان ، فلما ظهر ذلك ﴿فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ﴾ وإلى أين تقلبون عن سبيل الحق ؟

ثم بالغ سبحانه في تأكيد الحجة بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين تدعون من دون الله ﴿مَنْ يَهْدِي﴾ أحدا ﴿إِلَى﴾ الدين ﴿الْحَقِّ﴾ بنصب الحجج والبراهين ، وإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، وتوفيق النظر والتدبر فيها ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ بلطفه ﴿يَهْدِي﴾ جميع الخلق ﴿لِلْحَقِّ﴾ ويرشدهم إليه بتوسط الهداة ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي﴾ الناس ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الله الهادي لعباده إلى كل خير ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ﴾ يطاع و﴿يُتَّبَعَ﴾ في أحكامه ﴿أَمْ لَا يَهْدِي﴾ ولا يهتدي إلى شيء من منفعه ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ بتوسط غيره .

قيل : إنّ المشركين لما كانوا معتقدين بالوهية الأصنام عبّر الله عن أصنامهم بما يغيّر عن العاقل العالم ^(١) .

وقيل : إنّ المراد من قوله : من ﴿لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ هم العقلاء من آلهتهم ؛ كالملائكة ، وعيسى عليه السلام ، وعزير ^(٢) .

فإذا كان اتباع الهادي إلى الصّراب واجبا بحكم العقل والوجدان ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وأي داع يدعوكم إلى اتباع الجماد الذي لا هداية له ، و﴿كَيْفَ﴾ وأنتم عقلاء ﴿تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يحكم به عاقل ، وتلتزمون بما لا يلتزم به شاعر .

﴿وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٩١ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٤٣٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٤ .

يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) و (٣٧)

ثم ذكر سبحانه علّة عبادتهم الأصنام بقوله : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في اعتقاد الوهية الأصنام ،
وكونها شفعاء لهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ ضعيفا حاصلًا لهم من تقليد آبائهم. وفيه إشعار بأن بعضهم كانوا عاملين
بالتوحيد ، وكانوا يكابرون في إنكاره عنادا.

ثم أبطل سبحانه اتباعهم الظنّ بقوله : ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ وإن كان في غاية القوة ﴿لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾
والواقع ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ، ولا يكفي في التدنّين بأمر ، ولا يقوم مقام العلم واليقين أبداً.
ثم هدّدهم سبحانه على اتباع الظنّ بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتباع الظنّ ،
والإعراض عن البرهان.

ثم أنّه تعالى بعد إثبات التوحيد ، شرع في إثبات النبوة بدفع دعوى المشركين أنّ القرآن هو كلام
البشر بقوله : ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ مع ما هو عليها من وجوه الإعجاز ﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾ قيل : إنّ المعنى :
ليفتري ^(١) ، أو افتراء واختلافاً ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وصادرا من غيره تعالى ، لعدم قدرة غيره على ترتيب مثله
﴿وَلَكِنْ﴾ يكون ﴿تَصْدِيقَ﴾ الكتاب ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومطابقا لما نزل من الله قبله في المعارف والمواعظ ،
وبيان أحوال الأنبياء وقصص الأمم الماضين ، مع كون من أتى [به] أمياً لم يقرأ الخطّ ، ولم يطالع
الكتب ، ولم يجالس العلماء ، ولم يتلمذ عند أحد ، فلو لم تكن مطالبه مطابقة لما في الكتب ، لبالغ
المعاندون في الطعن والقبح فيه ، ولما لم يطعن أحد فيه مع شدة حرص الكفار عليه وعنادهم له ، علم
مطابقته.

ثم ثنى سبحانه الدليل على صدق كون القرآن كلام الله بقوله : ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتبيين ما
شرّع من الأحكام الموافقة للعقل وصالح الكلّ إلى يوم القيامة ، ولذا ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنّه نازل ﴿مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)

ثم أنّه تعالى بعد الاستدلال على صدق القرآن بالدليلين المتقنين ، أنكر على المشركين نسبة
الافتراء إليه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ إنّ محمداً اختلق القرآن و﴿افْتَرَاهُ﴾ على الله. ثم أمر نبيه ﷺ

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٩٤ .

بالتحدّي به بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم : إن كان القرآن كلام البشر ﴿فَأْتُوا﴾ أيها المهرة في الفصاحة والبلاغة ﴿بِسُورَةٍ﴾ واحدة صغيرة ﴿مِثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة والحلاوة ﴿وَادْعُوا﴾ لإعانتكم على ترتيب سورة مثل القرآن ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ﴾ دعوته ﴿مَنْ ذُوَ اللَّهِ﴾ ومما سواء ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادّعاء أنّه كلام البشر ، وأني افتريته ، فان ما افتراه أحد من الناس يقدر على إتيان مثله غيره ، فعجز الكلّ من عمل ، مع كثرة المهرة فيه ، دليل قاطع على أنّه من الله ، خصوصا مع تحدّي مدّعي النبوة به.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾

ثمّ ذكر سبحانه علّة تكذيبهم بقوله : ﴿بَلْ﴾ لشدة النفور عن مخالفة آبائهم في الدّين ، سارعوا إلى أن ﴿كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ولم يعطوه حقّ النّظر ليفهموا معانيه وحقائقه ودقائقه ، ويقفوا على كنهه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ﴾ ولم يقع بعد ﴿تَأْوِيلُهُ﴾ وما أخبر الله به من الامور المستقبلية ، ليعلموا صحّة أخباره الغيبية بصدق النبي ﷺ وكتابه ﴿كَذَلِكَ﴾ التّكذيب الصادر من قومك بلا تأمل في معجزتك ﴿كَذَّبَ﴾ الامم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم.

ثمّ هدّد سبحانه المكذّبين بقوله : ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد نظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ المكذّبين ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك بعذاب الاستئصال ، أو بإيقاعها في أشدّ الخسران ، لأنّهم طلبوا الدّنيا وتركوا الآخرة ، فلمّا ماتوا فاتتهم الدّنيا والآخرة ، ووقعوا في أشدّ العذاب.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تهديد المكذّبين بالعذاب ، تبه على علّة تأخيره عنهم ، وإمهالهم بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ فيما بعد ، أو في قلبه ، ويكذب عنادا ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أبدا ، لا ظاهرا ولا باطنا ، لفرط غباوته ، وقلة تدبّره. عن الباقر عليه السلام : هم أعداء محمد وآل محمد [من] بعده (١) . ﴿وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ والمعاندين الذين أفسدوا فطرتهم الأصليّة ؛ فيعاقبهم أشدّ العقاب.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ

(١) تفسير القمي ١ : ٣١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٣ .

﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١)

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بالمدارة مع المشركين ، أو زجرهم وردعهم ، أو إظهارا لليأس منهم بقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ، في ادعاء الرسالة والتوحيد بعد إلزامهم بالحجة ﴿فَقُلْ﴾ في جوابهم : ﴿لِي عَمَلِي﴾ من الإيمان بالله وطاعته ، أو جزاء عملي ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿عَمَلُكُمْ﴾ من الشرك والطغيان ، أو جزاء عملكم ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ﴾ وغير مسؤولين ﴿مِمَّا أَعْمَلْتُمْ﴾ فلا تؤاخذون به ﴿وَأَنَا﴾ أيضا ﴿بَرِيءٌ﴾ وغير مسؤول ﴿مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا أوأخذ بعملكم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ

مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٤٢) و (٤٣)

ثم بالغ سبحانه في بيان شدة عداوة المكذبين بالقرآن بحيث لا يرجى إيمانهم ؛ بقوله : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القرآن وتعلمه أصحابك ؛ وهم كالصم لا يفهمون كلامك ، ولا يلتفتون إلى محاسنه لشدة بغضهم لك ونفرتهم من القرآن ، فلا تقرأ عليهم القرآن ، ولا تجهد نفسك في دعوتهم ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ﴾ بقدرتك البشرية ، وتفهم كلامك ﴿الصُّمَّ﴾ الذين سدّ أسماع قلوبهم الشبهوات ، وحبّ الدنيا ، وشدة العداوة من إدراك الكلام ومحاسنه ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإنّ تفهيم الكلام للأصمّ العاقل لو كان ممكنا لفراسته ، لا يمكن تفهيمه للأصمّ المجنون ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ ببصره الظاهر ﴿إِلَيْكَ﴾ وإلى معجزاتك الواضحة ، ولكنهم لعمى قلوبهم لا يرون نورك وجهات إعجاز معجزاتك ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ وفاقد البصر إلى طريق الحقّ ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ بعين قلوبهم الطريق.

وقيل : إنّ المقصود من الآيتين تسليّة النبي ﷺ بتشبيه المكذّبين المصّرّين على الكفر بالأصمّ الذي لا عقل له ، والأعمى الذي لا بصيرة له ، فكما يمنع الصمّ في الأذن ، والعمى في العين عن إدراك محاسن الكلام ومشاهدة محاسن الصّورة - خصوصا إذا انضمّ إلى الصمّ عدم العقل ، وإلى العمى عدم البصيرة - كذلك تمنع شدة بغض المكذّبين للحقّ ، وعداوتهم للرّسول ، ونفرتهم عن القرآن ، وعن قبولهم الهداية ، وكما أنّ الطّبيب إذا رأى مريضا لا يمكن علاجه ، أعرض عنه بلا استيحاش من عدم قبوله العلاج ، كذلك يجب على الرّسول الإعراض عن هؤلاء المكذّبين بلا استيحاش من عدم قبولهم الحقّ .^(١)

(١) الرازي ١٧ : ١٠١ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ * وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ
اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٤﴾ و ﴿٤٥﴾

ثم نبه سبحانه على أنّ قطع الرحمة عنهم مع سعتها إنما هو بسيئات أعمالهم ؛ بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يَظْلِمُ النَّاسَ﴾ ولا يقطع عنهم رحمته ، ولا ينقصهم مما يتعلق بمنافعهم الدنيوية والاخرية ؛ من السمع
والبصر ، والعقل والبصيرة ، واستعداد الهداية ﴿شَيْئًا﴾ ولو كان يسيرا ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ بسيئات أعمالهم
﴿أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث إثم لانحماكهم في الشهوات يضيّعون استعدادهم ، ويفسدون عقولهم ، ولذا
يجرمون من السعادات الاخرية.

ثم هدّد سبحانه المكذّبين المضّيعين لفطرهم الأصلية وعقولهم السليمة بقوله : ﴿وَيَوْمَ﴾ يحيي الله
المكذّبين و﴿يُحْشَرُهُمْ﴾ فيه ، وحالهم أنّ مدّة أعمارهم في الدنيا ، أو إقامتهم في القبور ﴿كَأَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا﴾
ولم يمكثوا فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ وزمانا قليلا ﴿مِنَ النَّهَارِ﴾
قيل : إنّ الساعة كناية عن أقلّ زمان ، وتخصيصها بالنهار لكون ساعاته أعرف حالا من ساعات
الليل ^(١) .

ثمّ بالغ سبحانه في تقليل مكنتهم بقوله : ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في ذلك اليوم ؛ كما يعرف بعضهم
بعضا في الدنيا ، كأثمّ لم يفارقوا إلا مدّة قليلة ، ثمّ ينقطع التعارف إذا عاينوا الأهوال.
وقيل يعني : يعرف بعضهم بعضا بما كانوا عليه من الكفر والطغيان ^(٢) .
قيل : إنّ استقلالهم الأعمار إنّما يكون لصرفها فيما لا نفع فيه ، أو لما يشاهدون من أهوال
القيامة ، أو لطول مقامهم ووقوفهم في الحشر ^(٣) .
ثمّ أخبر سبحانه بغاية خسراهم بقوله : ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ وأنكروا
الحشر للحساب وجزاء الأعمال ﴿وَمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مُهْتَدِينَ﴾ إلى منافعهم ومصالحهم.
وقيل : إنّ كلام المشركين ، والمعنى : ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين وقائلين قد خسر الذين
... إلى آخره ^(٤) .

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٩ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٧ : ١٠٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ١٠٥ .

مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ (٤٦) و (٤٧) ﴿﴾

ثمَّ أتتعالى بعد تهديد المكذّبين ، عاد إلى تسليّة نبيّه بقوله : ﴿وَإِنَّمَا نُرِيَّتَكَ﴾ في الدّنيا ﴿بَعْضَ﴾ العذاب ﴿الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ على تكذيبك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وخرجتك من الدّنيا قبل أن نريتك عذابهم ﴿فَالْيَنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ ومصيرهم في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ ومطلع ﴿عَلَى مَا﴾ كانوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾ من تكذيبك فنريتك إذا مجازاتهم كما تحبّ.

وقيل يعني : أنّ الله شاهد عليهم ، يشهد بأعمالهم القبيحة على رؤس الأشهاد يوم القيامة ؛ ليزداد خزيهم ^(١) .

وقيل : إنّ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار على الإخبار ، أو بمعنى الواو ^(٢) .

ثمّ بالغ سبحانه في تسليّة نبيّه ﷺ بقوله : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الامم من زمان آدم إلى اليوم ﴿رَسُولٌ﴾ مبعوث من جانب الله ؛ لهدايتهم ودعوتهم إلى التّوحيد والمعاد ، على حسب حكمته ولطفه ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ إلى كلّ أمة ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات والمعجزات القاهرة ، كذّبت أمتّه ، فإذا ﴿قُضِيَ﴾ من قبل الله بين الرّسول و﴿بَيْنَهُمْ﴾ بأن يحكم بنجاة الرّسول والمؤمنين به ، وهلاك المكذّبين له ، وهو الحكم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل على المكذّبين ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء الموجب لتعذيبهم ، لكونه نتيجة أعمالهم بعد إتمام الحجّة عليهم ، وقطع أعدائهم ببيانات الرّسول ، وإقامته الدّلائل على الحقّ.

وقيل : إنّته تعالى لما قال : ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يوم القيامة ، بيّن أنّه مع ذلك يحضرهم في موقف القيامة مع رسولهم ، ليشهد عليهم بتلك الأعمال ، حتّى يظهر عدله تعالى غاية الظّهور ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « تفسيرها في الباطن أنّ لكلّ قرن من هذه الامّة رسولا من آل محمّد

ﷺ يخرج إلى القرن الذي هو إليهم رسول ؛ وهم الأولياء وهم الرّسل . وأمّا قوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فإن ^(٤) معناه : أنّ رسل الله يقضون بالقسط وهم لا يظلمون » ^(٥) .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) قُلْ لَا أَفْلِكُ لِنَفْسِي صَرًّا وَلَا نَفْعًا

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

(١ و ٢) تفسير روح البيان ٤ : ٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ١٠٦ .

(٤) في تفسير العياشي : قال .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٨ / ١٩٥٨ ، وزاد فيه : كما قال الله ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٥ .

يَسْتَفِيدُونَ (٤٩)

ثم أتت تعالى بعد تهديد المكذّبين بالعذاب ، حكى استهزاءهم به بقوله : ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لك يا محمد ، وللمؤمنين بك استهزاء ، أو استبعادا لما وعدتهم من العذاب : ﴿متى﴾ يكون وقوع ﴿هذا الوعد﴾ الذي وعدتمونا به ﴿إن كنتم صادقين﴾ في وعدكم ؟

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بأن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : إني ﴿لا أملك﴾ ولا أقدر ﴿لنفسي﴾ على أن أدفع ﴿ضراً﴾ وإن كان يسيراً ﴿ولا﴾ أن أجلب ﴿نفعاً﴾ وإن كان حقيراً ﴿إلا ما شاء الله﴾ أن أدفعه من الضرّ ، أو أجلبه من النفع ؛ لأنّه تعالى مالكهما ، وهو لم يعين لوعده وقتاً ، إنّما المعلوم عندنا ^(١) ﴿لكل أمة﴾ وعد بتعذيبهم ﴿أجل﴾ ووقت معيّن لعذابهم ، خاصّ بهم في علمه ، يحلّ بهم العذاب الموعود عند حلوله ، و﴿إذا جاء﴾ كل أمة ﴿أجلهم﴾ المضروب لهلاكهم ، أنجز الله وعده ﴿فلا يستأخرون﴾ عنه ولا يمهلون ﴿ساعة﴾ وزماناً قليلاً ﴿ولا يستفيدون﴾ عليه .
عن الصادق عليه السلام : « هو الذي سمي ملك الموت في ليلة القدر » ^(٢) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحقُّ هُوَ قُلْ

إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٠) و (٥٣)﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بلوم المكذّبين في تعجيلهم العذاب بقوله : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني أيّها المكذّبون ﴿إن أتاكم﴾ ونزل بكم ﴿عذابه﴾ الموعود ﴿بياتاً﴾ وليلاً ﴿أو نهاراً﴾ وأنتم تشتغلون بأمور معاشكم ﴿ما ذا﴾ وأي نفع تصوّرون للعذاب الذي ﴿يسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ هؤلاء ﴿المُجْرِمُونَ﴾ أي مقصود لهم في استعجاله ، مع أنّ العاقل يستأخره ويفرّ منه لشدة مرارته وصعوبة تحمّله .
وفي وضع المجرمين موضع الضمير ، تنبيه على علة استحقاقهم العذاب ، وعلى مقتضى فرارهم منه ، ومباينة حالهم للاستعجال فيه .

ثم كأنّه قال سبحانه : إن كان غرضهم من الاستعجال علمهم بصدق النبي ، وإيمانهم بتوحيد الله وصدق وعده ، فليعلموا أنّ الإيمان بعد مشاهدة العذاب لا ينفعهم في الخلاص والوصول إلى ثوابه ،

(١) زاد في النسخة : أن ، قبل الآية ، وحذفناها لما يترتب عليها من تغيير الموقع الإعرابي للفظ الآية وتفسيرها بحيث يكون (أجلاً ووقتاً معيناً ...) .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٨ / ١٩٥٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٥ .

بل يقال لهم عند إيمانهم بعد رؤية العذاب توبيخا وتقريعا لهم : ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ، وهل بعد نزوله عليكم وسقوط الايمان عن النّفع في حقكم ﴿أَمَنْتُمْ بِهِ﴾ وصدّقتموه ؟ !
ثمّ أكّد سبحانه التّوبيخ والتّقريع عليهم بقوله : ﴿آلَانْ﴾ وهل في هذا الحين تؤمنون بالله وبرسالة الرّسول ، وترجون الانتفاع بالايمان والخلاص به من العذاب ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ﴾ قبل نزوله ﴿بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيبا لوعده الله ، واستهزاء بالرّسول ؟

﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ بعد نزول العذاب ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بوضع تكذيب الرّسول موضع تصديقه ، والكفر موضع الإيمان : ﴿ذُوقُوا﴾ واطعموا ﴿عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ والدّائم ، كما أذقتم الرّسول والمؤمنين جرعة الغصص ، وكؤوس الكروب ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم بسبب ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدّنيا ﴿تَكْسِبُونَ﴾ لأنفسكم من الكفر والعصيان ، وفيه تنبيه على أنّه تعالى خلق الخلق للرحمة ، وإنّما العذاب هو نتيجة أعمالهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية استهزاء المكذّبين بوعدهم بالعذاب ، حكى عنهم السّؤال عن صدق هذا الوعد بقوله : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ويستخبرون منك يا محمّد ، بعد إخبارك إياهم بالعذاب ﴿أَحَقُّ﴾ هذا الوعد ، وصدق ﴿هُوَ﴾ أم صرف تخويف لا واقع له ؟ ﴿قُلْ﴾ في جوابهم : ﴿إِي وَرَبِّي﴾ ونعم والله ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ حقيق بالقبول ، وصدق لا مجال للريب فيه. عن الباقر عليه السلام : « ويستنبئك ^(١) أهل مكّة عن عليّ : أ إمام هو ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ ^(٢) ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم من إدراككم ، وفائتين عنه بالهرب حين إرادته تعذيبكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾

ثمّ بالغ سبحانه ؛ بعد نفي قدرتهم على الهرب من العذاب ، في بيان عدم تمكّنهم من الخلاص ببذل الفداء بقوله : ﴿وَلَوْ﴾ فرض ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس التي ﴿ظَلَمَتْ﴾ بالإشراك - وعن القمّي : آل محمّد حقّهم ^(٣) - ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وكنوزها وأمتعتها ﴿لَافْتَدَتْ﴾ تلك النفوس ﴿بِهِ﴾ وبذلتها بجزاء نجاتها من العذاب - عن القمّي : يعني في الرّجعة ^(٤) - لا يقبل منها ﴿وَأَسْرُوا﴾ وأخفوا ﴿النّدامة﴾ على ما ارتكبه من الشّرك والعصيان ، كراهة لشماتة الأعداء - كما عن

(١) زاد في الأمالي : يا محمّد.

(٢) أمالي الصدوق : ٧٧١ / ١٠٤٧ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٠٦ .

(٣) و (٤) . تفسير القمي ١ : ٣١٣ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٠٦ .

الصادق عليه السلام (١) - أو عجزا عن التطق لغاية الحيرة والدهشة ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ وقيل : إنَّ ﴿أَسْرَوْا﴾ هنا بمعنى أظهروا (٢) ؛ لأنه ليس بيوم تصبّر ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ جميعا ؛ المشركين منهم وغير المشركين ، من سائر فرق الكفار والطغاة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ، ويحكم عليهم بالعذاب اللائق بهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فعل بهم من العذاب ، لكونه نتيجة سيئاتهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٥) و (٥٦)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد نفي الكذب في وعده ، ونفي قبوله الفداء لرفع العذاب ، أعلن بغناه المطلق ، وعدم تطرّف الكذب في وعده بقوله : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يحتاج إلى أخذ الفداء ، وليس لكم مال تفدون به ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ وصدق لا يمكن الخلف فيه ، لقبحه المنافي لحكمته ، وكمال قدرته على إنجازهِ ﴿وَلَكِنْ﴾ الناس ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لقصور عقولهم ، وكمال غفلتهم ، بسبب انهماكهم في الشهوات ، فيقولون ما يقولون.

ثمَّ أكّد سبحانه كمال قدرته بقوله : ﴿هُوَ﴾ القادر الذي ﴿يُحْيِي﴾ الميّت ﴿وَيُمِيتُ﴾ الحيّ ، بلا دخل لأحد في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ كما أنكم منه تبدأون.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد تحذير الناس من الكفر وتكذيب الرّسل ، وجه خطابه إليهم ، استعماله لهم نحو الحقّ وقبوله ؛ بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ثمَّ دعاهم إلى اتباع القرآن بذكر فوائده العظيمة بقوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ الآيات القرآنية التي هي ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ لكم ، وتذكّرة بعواقب أعمالكم ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم ﴿وَو﴾ هي ﴿شِفَاءٌ﴾ وبرء ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ والقلوب من الأمراض الروحانيّة كالجهل والشكّ ، ورذائل الأخلاق. عن الصادق عليه السلام : أنّه شفاء من أمراض الخواطر ، ومشتبهات الأمور (٣) . وفي رواية : من نفث الشيطان (٤) ﴿وَو﴾ هي ﴿هُدًى﴾ ورشاد إلى الحقّ وسائر الخيرات ﴿وَرَحْمَةً﴾ وفضل خاصّ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المتدبّرين فيها ، المقتبسين من أنوارها.

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٧٩ / ١٩٦١ ، تفسير القمي ١ : ٣١٣ ، مجمع البيان ٥ : ١٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١١١ .

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٤٠٧ .

(٤) الكافي ٨ : ٤٤ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٧ .

قيل : شبه الله نبيه ﷺ بالطبيب الحاذق وكتابه بكتاب فيه دستور معالجة المريض ^(١) .

ولما كان أول التدبير في معالجته نهي عن تناول ما يضره ، وصف القرآن أولا بكونه موعظة ، وزاجرا عن المعاصي وارتكاب المبعثات والمهيات عن الله . ثم استعمال الأدوية المنقية لمزاجه من الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض ، وصف القرآن ثانيا بكونه شفاء ، والمراد منه المجاهدة في إزالة الأخلاق الرذيلة ، فإذا زالت حصل الشفاء للقلب والصفاء للروح . ثم استعمال الأدوية المقوية للمزاج ، وصف القرآن ثالثا بكونه هدى ، والمراد منه تجلية الأنوار القدسية في القلب . ثم استعمال ما يوجب تزايد القوة من مرتبة الصحة إلى مرتبة الكمال القابل ، وصف القرآن رابعا بكونه رحمة ، والمراد منها إيصال جوهر الروح إلى أعلى درجات القرب ، وهذا خاص بالمؤمنين الكاملين في الإيمان والعمل .

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾

ثم أنه تعالى بعد الإشارة إلى مراتب تفضله ورحمته بعباده المؤمنين ، أمر نبيه بأن يأمر المؤمنين بتخصيص فرحهم وسرورهم لهما بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمؤمنين : ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ وهو رسوله ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وهي القرآن فليفرحوا ، وإن فرحوا بشيء في العالم ﴿فَبِذَلِكَ﴾ المذكور من الفضل والرحمة بالخصوص ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ لا بشيء آخر ؛ لأن ما ذكر من الفضل والرحمة ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ وأفضل وأنفع ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من زخارف الدنيا الفانية ، وحطامها الكاسد .

عن النبي ﷺ : « فضل الله : نبوة نبيكم ، ورحمته : ولاية علي بن أبي طالب ، ﴿فَبِذَلِكَ﴾ قال : بالنبوة والولاية ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني : الشيعة ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني : مخالفهم ، من الأهل والمال والولد ، في دار الدنيا » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « فضل الله : رسول الله ﷺ ، ورحمته : علي بن أبي طالب » ^(٣) .

وزاد القمي عليه السلام : فبذلك فليفرح شيعتنا ، هو خير مما أعطي أعداؤنا من الذهب والفضة » ^(٤) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَدْنٰ

لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩)﴾

(١) تفسير الرازي ١٧ : ١١٥ .

(٢) أمالي الصدوق : ٥٨٣ / ٨٠٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٧ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ١٧٨ ، جوامع الجامع : ١٩٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٧ .

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال مذهب الشّرك ، وتوعيد المشركين على تكذيب الرّسول ﷺ واستهزائهم به وبالقرآن ، ويخّهم على بدعهم ومفترياتهم على الله بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للمشركين : ﴿رَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من السّماء ﴿مِنْ رِّزْقٍ﴾ حلال بسبب الأمطار ، وتأثير الشّمس وسائر الكواكب ، في نضجه وتربيته وتلوينه. وقيل : إنّ المراد من الإنزال من السّماء : التّفدير فيه ^(١) ، وقيل : الخلق والإنشاء ^(٢) ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ بعضا ﴿مِنْهُ حَرَامًا﴾ على أنفسكم كالسّائبة وأخواتها ﴿وَوَ﴾ بعضا ﴿حَلَالًا﴾ ثمّ أكّد سبحانه الأمر بالاستخبار بالتّكرار بقوله : ﴿قُلْ﴾ توبيخا لهم : ﴿أَلَا أَدْنَى لَكُمْ﴾ في هذا الجعل والتّبعيض ، فتمثّلون أمره تعالى ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ﴾ بأهوائكم ﴿تَفْتَرُونَ﴾ وفي نسبة ذلك إليه تكذبون ؟ فإنّ قولوا إنّ الجعل على سبيل الافتراء ، فقد التزمتم بما اتّفق العقلاء على بطلانه وقبحه ، وتستحقّون العقوبة عليه ، وإنّ قولوا إنّّه بإذن الله ، فمن المعلوم أنّه ما شافهكم الله به ، فلا بدّ أن تلتزموا بمجيء رسول منه إليكم ، مع أنّكم تنكرون الرّسالة ، وتبالغون في تكذيب مدّعيتها ، فثبت أنّكم مفترّون.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠)

ثمّ أظهر سبحانه التعجّب من جرأتهم على الله في هذا الافتراء بقوله : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ الحكيم ﴿الْكَذِبَ؟﴾ وأيّ توهم لهم أن يصنع بهم ويتعامل معهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الذي هو يوم عرض الأعمال والأقوال ، والمجازاة عليها مثقالا بمثقال ؟ أيّ توهمون أنّهم لا يسألون عن افتراءهم ، ولا يجازون عليه ، أو يجازون ولكن لا يجازون جزاء شديدا ، ولذا لا يبالون بما يرتكبون ؟ كلّا بل يعدّون عذابا شديدا ، بل أشدّ العذاب ؛ لأنّ عصيانهم أشدّ المعاصي وفي ذكر الكذب مع الافتراء ؛ الذي هو عين الكذب ، مبالغة في قبحه.

ثمّ أكّد سبحانه استحقاقهم العذاب بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ جميعا بإعطائهم القوى والعقل المميّز بين الحسن والقبيح ، والحقّ والباطل ، وإرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وتعليم الشّرائع ، وبالإرشاد إلى طرق تحصيل المعاش والمعاد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على تلك النّعم بالقيام بوظائف العبوديّة ، وصرف القوى الظاهرية والباطنية فيما خلقت له ، ولذا يستحقّون العذاب ،

(١) تفسير أبي المسعود ٤ : ١٥٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٥٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١٢٠ .

ويتلون بأشدّ العقاب.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر إصرار المشركين على الكفر وتكذيب النبي ﷺ واستهزائهم بالقرآن ، وأمر النبي ﷺ بالجواب عن مقالاتهم والمداراة معهم ، وتهديدهم بالعذاب ، بالغ في تسليّة النبي والمؤمنين ، وتهديد الكفار ببيان أنّ جميع أحوالهم وأعمالهم بعين الله بقوله : ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ من الشؤون ، وحال من الأحوال الظاهرة والباطنة والخفية ، من أمور الدنيا أو من جميع الأمور ، ثمّ حصّر شأن تلاوة القرآن بالذكر تعظيماً له بقوله : ﴿وَمَا تَتْلُوا﴾ تلاوة هي بعض شأنك والمعظم ﴿مِنْهُ﴾ يكون ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾

وقيل : إنّ ضمير ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى القرآن من باب الإضمار قبل الذكر ؛ لتعظيم القرآن (١) . ثمّ جمع في الخطاب بين النبي ﷺ والمؤمنين بقوله : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ حليل أو حقير ، ظاهر أو خفي ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ ورقباء حافظين له ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ وتخوضون ﴿فِيهِ﴾ وتشتغلون به ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ولا يبعد ﴿عَنْ رَبِّكَ﴾ ولا يغيب عن علمه المحيط بجميع الأشياء ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وما يساوي وزن نملة صغيرة أو هباءة لا ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهما كناية عن عالم الوجود ﴿وَلَا﴾ شيء ﴿أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذرة ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ و [هو] اللوح المحفوظ.

وقيل : إنّ المعنى : لا يعزب عن ربك شيء من الأشياء ، ولكنّ جميع الأشياء في كتاب مبين ، فكيف يعزب عنه شيء (٢) ؟ فإذا كان كذلك فليخف الكافرون عذاب الله ، ولا يخف المؤمن منهم.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢)

ثمّ بالغ سبحانه في تقوية قلب النبي ﷺ والمؤمنين بقوله : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ وأحباءه من النبي والمؤمنين ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين من نيل مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوت مأمول ومطلوب.

(١) تفسير الرازي ١٧ : ١٢٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٥٨ .

عن النبي ﷺ أنه سئل عن أولياء الله ، فقال : « هم الذين يذكر الله برؤيتهم » ، يعني في السمّت والهيئة (١) .

وعن الصادق ، عن النبي ﷺ : « من عرف الله وعظمه منع فاه من الكلام ، وبطنه من الطعام ، وعنى نفسه بالصيام والقيام . قالوا : بآبائنا وامهاتنا يا رسول الله ، هؤلاء أولياء الله ؟ قال : إنّ أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكرا ، ونظروا فكان نظرهم عبرة ، ونطقوا فكان نطقهم حكمة ، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة ، لو لا الآجال التي كتب الله عليهم لم تقرر أرواحهم في أجسادهم خوفا من العقاب (٢) ، وشوقا إلى الثواب » (٣) .

عن الباقر عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب علي بن الحسين عليه السلام : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا أدّوا فرائض الله ، وأخذوا بسنن رسول الله ، وتورّعوا عن محارم الله ، وزهدوا في عاجل زهرة الدّنيا ، ورغبوا فيما عند الله ، واكتسبوا الطّيبات من الرّزق ، لا يريدون [به] التّفاخر والتّكاثر ، ثمّ أنفقوا فيما يلزمهم من حقوق واجبة ، فاولئك الذين بارك الله لهم فيما اكتسبوا ، ويثابون على ما قدّموا لآخرتهم » (٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته ، المطيعين له في ظهوره ، اولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (٥) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا

تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٣) وَ (٦٤)﴾

ثمّ وصف سبحانه أوليائه بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب بكلّ ما جاء من عند الله ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الأعمال السيئة ، والأخلاق الذميمة ، وحبّ الدّنيا ، وما ألهى عن ذكر الله .
وقيل : يتّقون ممّا سوى الله ، وهو التّقوى الحقيقي (٦) .

ثمّ تبه الله على نتيجة ولايته بقوله : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالسلامة من كلّ شرّ ومكروه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وبالرحمة الموصولة ، والتّعم بعد الموت ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾

وقيل : إنّ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيان لتوليهم الله تعالى (٧) ، وقوله : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بيان لتولي الله إيّاهم .

(١) جوامع الجامع : ١٩٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٢) في الكافي : العذاب .

(٣) الكافي ٢ : ١٨٦ / ٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٠ / ١٩٦٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٥) إكمال الدين : ٣٥٧ / ٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٦) تفسير أبي السعود ٤ : ١٥٩ .

(٧) تفسير البيضاوي ١ : ٤٤٠ .

عن النبي ﷺ : ﴿البُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرؤيا الحسنة يراها المؤمن ، فيبشّر بها في دنياه»^(١) .
وعنه ﷺ في رواية عامية : « هي في الدنيا الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن لنفسه ، أو ترى له ،
وفي الآخرة الجنة »^(٢) .

وفي (الفقيه) : وأما قوله ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فإنّها بشارة [المؤمن] عند الموت ، يبشّر [بها] عند
موته أنّ الله عزّ وجلّ قد غفر لك ولمن يحملك إلى قبرك^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « يبشّرهم بقيام القائم وبظهوره ، وبقتل أعدائهم ، وبالنجاة في الآخرة ،
والورود على محمد وآله الصّادقين على الحوض »^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ الرّجل إذا وقعت نفسه في صدره ، يرى رسول الله ﷺ ، فيقول له
: أنا رسول الله ، أبشر. ثمّ يرى عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، فيقول : أنا عليّ بن أبي طالب الذي كنت
تحبّه ، أنا^(٥) أنفعك اليوم. قال : وذلك في القرآن قوله عزّ وجلّ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ^(٦) .

وعن الباقر عليه السلام : « إنّما أحدكم حين تبلغ نفسه هاهنا ينزل عليه ملك الموت فيقول له : [أمّا
[ما كنت ترجو فقد اعطيتك ، وأمّا ما كنت تخافه فقد أمنت منه. ويفتح له باب إلى منزله من الجنة ،
ويقال له : انظر إلى مسكنك من الجنة ، وانظر هذا رسول الله وأمير المؤمنين والحسن والحسين رفقاؤك ،
وهو قول الله تبارك وتعالى وتقدّس : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ إلى آخر الآية »^(٧) .

ثمّ أكّد سبحانه الوعد بقوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ ولا تغيير ﴿لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ ولأقواله ، ولا خلف في
وعده ﴿ذَلِكَ﴾ التبشير في الدارين ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه.

﴿وَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

ثمّ أنّه تعالى بعد بشارة النبي والمؤمنين بالأمن من كلّ مكروه ، وكان المشركون في تدبير إهلاك النبي
ﷺ وإبطال أمره ، نهّاه تعالى عن المبالاة بهم والتأثّر بأفعالهم وأقوالهم بقوله : ﴿وَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾
وتكذيبهم وتشاورهم في تدبير إهلاكك.

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ٨٠ / ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١٢٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٦١ ، جوامع الجامع : ١٩٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٠ .

(٣) من لا يحضره الفقيه ١ : ٨٠ / ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٠٩ .

(٤) الكافي ١ : ٨٣ / ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٠ .

(٥) في الكافي : تحبّه تحبّ أن.

(٦) الكافي ٣ : ١٣٣ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٠ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٠ / ١٩٦٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٠ .

ثم كآته قيل : لم لا يحزن مع قلة أنصاره وكثرة أعدائه ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾ والقوة والغلبة ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿جَمِيعاً﴾ في مملكته وسلطانه ، لا قدرة لأحد غيره ، فهو يغلبهم وينصر رسله والمؤمنين ، و﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لمفالات المعاندين ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما عزموا عليه ، وهو مجازيهم أشدّ الجزاء. ففيه مع تأمينه من القتل والإيذاء ، تبشير له بالغلبة والنصرة.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾

ثم أكد سبحانه كمال قدرته ، ونفوذ سلطانه بقوله : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحده بلا شركة أحد من مخلوقاته ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ، فإنّ الجميع - مع كونهم شاعرين عاقلين قادرين - مقهورون تحت قدرته وسلطانه ، فكيف بغيرهم من الحيوانات والنباتات والجمادات ؟

ثم أنّه تعالى بعد إثبات قدرته وتوحيده في الألوهية والسلطنة ، ذمّ المشركين بقوله : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سواه من الأصنام ، بتوهم أنّهم ﴿شُرَكَاءُ﴾ لله في الألوهية والعبادة برهانا وبقينا ، بل ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ﴾ شيئا ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الحاصل من عمل الآباء والكرماء ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويخمنون من عند أنفسهم. وقيل : أي يكذبون في قولهم : أنّها آلهة.

وقيل : إنّ (ما) في قوله ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ استفهامية ، والمعنى : أي شيء يتبع المشركون ؟ والجواب :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(١) ، وقيل : إنّها موصولة^(٢) ، والمعنى لله ما يتبع المشركون^(٣) .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٧) و (٦٨)﴾

(١) تفسير الصافي ٢ : ٤١١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٤١ .

(٢) في تفسير البيضاوي : موصولة ومعطوفة على (من) في الآية لله مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

(٣) تفسير الصافي ٢ : ٤١١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٤١ .

ثم بالغ سبحانه في تقرير قدرته الكاملة الدالة على اختصاص العزة به بقوله : ﴿هُوَ﴾ القادر
 ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿لَكُمْ اللَّيْلَ﴾ وجعله مظلماً ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ وتستريحوا ﴿فِيهِ﴾ من تعب طلب المعاش
 ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ومضيئاً ، لتحركوا فيه لتحصيل معاشكم ومصالحكم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجعل ﴿لآيَاتٍ﴾
 بينات ، وبراهين ساطعات على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ الدلائل ، أو آيات القرآن سماع تدبر وتفهم
 واعتبار.

ثم أنه تعالى بعد إبطال القول بوجود الشريك له ، شرع في إبطال القول بوجود الولد له بقوله :
 ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ واختار لنفسه ﴿وَلِداً﴾ من الملائكة ؛ كما هو قول مشركي العرب ، أو من البشر ؛
 كعيسى وعزير. ثم نزه ذاته المقدسة عن هذه النسبة ، أو أظهر التعجب من كلمتهم الحمقاء بقوله :
 ﴿سُبْحَانَهُ﴾ كيف يكون له الولد و﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ على الإطلاق ، واتخاذ الولد من آثار الحاجة ؟ !
 ثم أكد غناه بقوله : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما ، ولا يمكن أن يكون الولد
 ملكاً لوالده.

ثم أكد بطلان قولهم ، بقوله مخاطباً لهم : ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ﴾ وما لكم ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وبرهان ﴿بِهَذَا﴾
 القول ، وكفى في بطلانه عدم البرهان به.

ثم وبخهم بقوله : ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتختلقون ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ العظيم ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من القول ببرهان
 ساطع ! ومن المعلوم أن الالتزام بما لا يعلم عين السفة ، ومباين لطريقة العقلاء.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٦٩) و (٧٠)

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ ويقولون عليه
 ﴿الْكَذِبَ﴾ من اتخذه الشريك والولد ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ ولا يفوزون بنعمة الآخرة ، ولا ينجون من عذابها.

ثم كآته قيل : كيف وكثير منهم متنعمون بالنعم (١) ؟ فأجاب سبحانه : ذلك ﴿مَتَاعٌ﴾ وتلدذ
 يسير ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ زائل بسرعة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا

يَكْفُرُونَ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٦٤.

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي
بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١)﴾

ثم ذكر سبحانه معارضة نوح قومه تسليية للمؤمنين ، وتهديدا للكفار بقوله : ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
نُوحٍ﴾ وخبره الذي له شأن من معارضته لقومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد ، ليتدبروا
وينزجروا عما هم عليه من الشرك والشقاق ، وثبت نبوتك بسبب موافقة ما تخبر به لما ثبت في الكتب
السماوية وغيرها ، مع علمهم بأنك امي لم تقرأ كتابا ، وما جالست عالما ويظهر لهم أن العزة لله ،
ويطمئن المؤمنون بأن الله ينصر أوليائه ، ويقوى قلبك في معارضة قومك وعدم المبالاة بهم وبأقوالهم ﴿إِذْ
قَالَ﴾ نوح ﴿لِقَوْمِهِ﴾ بعد تكذيبهم قوله وإيذائهم له : ﴿يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ﴾ وشق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وثقل على
قلوبكم ﴿مَقَامِي﴾ فيكم ، ومكثي بينكم لطول مدته ، ونفرتكم عن دعوتي ، أو قيامي للوعظ
﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وبراهين الوهية ووحدايته ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ وبه وثقت في
جميع اموري منذ عرفته ، فلا ابالي بكم ، ولا أخاف من كيدكم ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أنتم ﴿أَمْرَكُمْ وَ﴾ اعزموا على
السعي في إهلاكه الذي هو مطلوبكم ، أو اجمعوا ذوي الأمر منكم ، أو وجوه كيدكم ، وادعوا إلى
إعانتكم عليه ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ وأصنامكم.

وقيل : إن الواو بمعنى (مع) (١) .

وقيل : إن التقدير : اجمعوا أمر شركائكم (٢) . وعلى أي تقدير ، هو مبني على التهكم.

ثم بالغ في دعوتهم إلى مبارزته وإظهار عدم المبالاة بهم بقوله : ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك
ومقصودكم هذا ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ ومستورا ، بل اجعلوه ظاهرا مكشوفاً لعدم الداعي إلى ستره مع عدم
خوفكم مني ، واستحالة هربي منكم عند اطلاعي على تجمعكم على قتلي . وقيل : إن المعنى : لا يكن
أمركم وحالكم ؛ الذي يعتريك من كراهة مقامي وتذكيري عليكم ، غمة وكربة ، بل عجلوا في تخلص
أنفسكم بإهلاكه (٣) . وعن القمي : لا تغتموا (٤) ﴿ثُمَّ اقْضُوا﴾ وأدوا ﴿إِلَيَّ﴾ إهلاكه الذي تتوهمون أنه
حقّي عليكم ، أو المراد : أوصلوه إليّ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني ساعة ، بل عجلوا بذلك غاية التعجيل
، فإنّي مع ثقتي بالله وبحفظه إيتاي حسب وعده ، أعلم أنكم لن تجدوا إلى ذلك سبيلا .

(١) تفسير الرازي ١٧ : ١٣٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٦٦ ، تفسير أبي السعود ٤ : ١٦٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٦٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٦٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١١ .

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾

ثمَّ بيّن أنّه لا علة لإعراضهم عنه ، وإرادتهم إهلاكه بقوله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عني وعن نصحي وتذكيري ، فقد فعلتم ما لا سبب له ولا باعث ، فإن تحيلتم أي أطمع في أموالكم ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ﴾ بمقابل وعظي وتذكيري ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ وعوض تؤدونه إليّ من أموالكم ، حتّى يؤدّي ذلك إلى إعراضكم لثقله عليكم ، أو لدلالته على أنّ قصدي من دعوتي طلب الدّنيا لا امتثال أمر الله ، واعلموا أنّ قصدي إطاعة أمر الله ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ وما عوض عملي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لأنّ العمل له ، وعوضه عليه ، وهو لا يضيع أجر العاملين له ، وإن لم تنفعكم دعوتي ، وتولّيتهم عن الإصغاء لكلامي ، فإنّ عليّ العمل بما أمرت به ﴿وَأَنَا﴾ أمّرت ﴿أَمْرْتُ﴾ من قبل عقلي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمنقادين لأوامره ، ولذا لا اخالف أمره ، ولا أرجو الثّواب إلّا منه .

وقيل : إنّ المعنى : وأمّرت أن أكون من المستسلمين لما يصيبني من البلاء في طاعته ^(١) .
﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد إتمام الحجّة عليهم ، وإيضاح الحجّة لهم ، كتكذيبهم قبله ، فلمّا ظهر أنّ تولّيتهم ليس إلّا من العتوّ والطّغيان ، فلا جرم حقّت عليهم كلمة العذاب ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ﴾ كان ﴿مَعَهُ﴾ من المؤمنين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ الذي صنعه بأمرنا ، وكانوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ في الأرض من الهالكين برحمتنا التي [هي] من شؤون الرّبوبيّة ﴿وَأَعْرَفْنَا﴾ بالطّوفان الكفّار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ غضبا عليهم بمقتضى جرائمهم الموبقة ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمّد ، أو أيّها الإنسان ، نظر التعجب والاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ أمر ﴿الْمُنْذَرِينَ﴾ وإلى مال أمرهم . وفيه تهويل لما جرى عليهم ، وتهديد لمكذّبي الرّسول وتسليّة له .
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ بالرسالة ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ وبعد انقضاء رسالته بالموت ﴿رَسُولًا﴾ كثيرة ، عظيمة الشّأن ﴿إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كهود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، وإبراهيم إلى أهل بابل ، وشعيب إلى أهل مدين ، وغيرهم ممن قصّ أحوالهم أو لم يقصّ ﴿فَجَاءُوهُمْ﴾ وأتوا بينهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ١٦٥ .

الباهرات ، لا بأن يأتي كل رسول بمعجزة واحدة ، بل لكل واحد منهم معجزات عديدة ، خاصة به حسب اقتضاء الحكمة البالغة ﴿فَمَا كَانُوا﴾ هؤلاء الأقوام ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أن يروا المعجزات ، ولم يرج منهم أن يصدّقوهم في رسالتهم التي أنكروها في أول بعثتهم ، أو في عالم الذرّ ، لشدة إصرارهم على العتوّ والتمرد والعناد للحقّ ، والطّبع على القلوب ﴿كَذَلِكَ﴾ الطّبع المحكم ﴿نُطْبِعُ عَلَى قُلُوبٍ﴾ الكفار ﴿الْمُغْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن حدود العقل ، المتجافين عن قبول الحقّ وسلوك طريق الرّشد ، فلم يمكن إيمانهم بسوء اختيارهم وانهماكهم في الشّهوات والضّلال.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ﴾ (٧٥) و (٧٧)

ثمّ حكى سبحانه إرسال موسى عليه السلام بعد أولئك ، ومعارضة قومه معه ، وتوكّله على الله بقوله : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ بالرسالة ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ بن عمران ﴿وَأَخَاهُ﴾ هَارُونَ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وأشرف قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ، فأتيهم وبلغاهم الرسالة ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن قبول قولهما واتباعهما ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ متمرّنين على العتوّ والطّغيان ، ومعتادين لارتكاب العصيان ، فلذا احتروا على تكذيبهما ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ الآيات البينات التي كلّها ﴿الْحَقُّ﴾ الذي عرفوه ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا﴾ عتوا وعنادا : ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به وسّمه معجزة ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة ، لا مجال للشكّ فيه ، فلا يجوز الاعتماد عليه في الإيمان بموسى واتباعه ، ولا الاغترار به.

فلما كذّبوه ونسبوا ما أتى به من المعجزة الظّاهرة [إلى السحر] ﴿قَالَ مُوسَى﴾ للمكذّبين تعجّبا من قولهم ، وتوبيخا لهم : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعد شيء من السّحر - الذي هو الباطل البحت - ما تقولون ، أو تعيونه وتطمعون فيه ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ ووقفتم عليه من غير تدبّر وتأمل؟! ثمّ بالغ في توبيخهم بقوله : ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ المعجز الذي إعجازه في غاية الظّهور ، بحيث لا يمكن أن يرتاب فيه أحد ؟ وكيف يمكن أن أكون من السّاحرين ، ﴿وَوَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ لا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ ولا يفوز بمطلوب ، ولا ينجون من مكروه ، مع أنّي ظافر بكلّ مطلوب ومصون من كلّ محذور ؟

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ اانْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا

جِئْتُمْ بِهِ السَّخْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحَقِّقُ اللَّهُ

الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) و (٨٢)

ثمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ : ما قال فرعون وملؤه لموسى في جوابه ؟ فأجابهم سبحانه بقوله : ﴿قَالُوا﴾ عجزا عن حاجته : ﴿أَجِئْتَنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا﴾ من عبادة الأصنام ، وتمنعنا من تقليدهم في الشرك ﴿وَتَكُونُ﴾ بآتباعنا ﴿لَكُمْ الْكِتَابُ﴾ والسلطنة والتفوق علينا ﴿فِي﴾ تلك ﴿الْأَرْضِ﴾ ومملكة مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ﴾ البتة ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبكما مصدقين في دعوى النبوة ، وتوحيد الإله ، ولا نؤثر رئاستكما على رئاستنا. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لخدمه ومأله : ﴿أَنْتَوْنِي﴾ من كل ناحية ﴿يَكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بالسحر ، حاذق فيه ، حتَّى يعارضوا موسى بمثل ما أتى به ، فذهب الخدمة وأتوا بهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ﴾ ووقفوا في مقابل موسى ﷺ لمعارضته ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ إظهارا لعدم مبالاته بهم : ﴿أَلْقُوا﴾ أيها السحرة ﴿مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ من الحبال والعصي ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ حباهم وعصيتهم ، واسترهبوا الناس بسحرهم ﴿قَالَ مُوسَى﴾ لهم وهو غير مكتثر بهم ويعملهم : ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ﴾ وما صنعتموه هو ﴿السَّخْرُ﴾ البين الذي يعرفه كل أحد ، واعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ وبمحقه ، بما يظهره على يدي من المعجزة ، أو المراد أن الله يظهر بطلانه للناس ويفضح فاعله.

ثمَّ بَيَّنَّ سبحانه علَّةَ إبطاله بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ﴾ ولا يثبت على حاله ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سواء أكان سحرا أو غيره ، لأنَّه لا يرضى بالفساد في الأرض ﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويثبت به ويديمه ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ ومواعيده التي وعدها على لسان رسله ، أو بما سبق من قضائه ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ المصرون على العصيان. وفيه تسلية للنبي ﷺ .

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّه لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾

ثمَّ ألقى موسى عصاه ، وأبطل سحر السحرة ، وأتى بمعجزات كثيرة أخرى ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ مع ذلك ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ وجماعة قليلة ، أو حديثو السن ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ بني إسرائيل ، عن ابن عباس قال : لفظ

« الذرّة » يعبر [به] عن القوم على وجه التحقير والتّصغير ^(١) . وقيل : اريد بالذرّة أولاد من دعاهم ، وأمّا الآباء فقد استمرّوا على الكفر ^(٢) . وقيل : اريد من « قومه » قوم فرعون : وهم آسية ، وخازنة ، وامرأة خازنة وماشطتها ، ومؤمن آل فرعون ^(٣) - وعلى أي تقدير ، كان إيمانهم ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ وقيل : إنّ ضمير الجمع راجع إلى فرعون لما يعتاد في ضمائر الأعظم ^(٤) . وقيل : عبر عن قوم فرعون باسمه ^(٥) . وقيل : إنّ راجع إلى الذرّة ؛ لأن آباءهم كانوا يمنعونهم من الإيمان خوفا عليهم من فرعون ^(٦) - ﴿ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ ويعذبهم ﴿ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ ﴾ وغالب ، أو متكبر وعات ﴿ فِي ﴾ تلك ﴿ الْأَرْضِ ﴾ التي ملكها ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ في الظلم والفساد بتعذيب الضّعفاء ، وسفك الدماء ، أو في الكبر والعتوّ حتّى ادّعى الربوبية ، واسترقّ أبناء الأنبياء .

﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ للمؤمنين لما اشتدّ خوفهم من فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّهِ ﴾ عن صميم القلب ، وعرفتموه بالقدرة الكاملة والرحمة والرأفة ﴿ فَعَلَيْهِ ﴾ وحده ﴿ تَوَكَّلُوا ﴾ واعتمدوا في حفظكم ، وإن نزل بكم بلاء فاصبروا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ومستسلمين لقضائه ، راضين برضاه ﴿ فَقَالُوا ﴾ محبين له من غير ريث إظهارا لكمال الإيمان والخلوص : ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ في جميع امورنا . ثم قالوا متوجهين إلى الله ومتضرعين إليه : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ﴾ بمقتضى ربوبيتك ولطفك ﴿ فِتْنَةً ﴾ ومورد عذاب ﴿ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أو لا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن دينك ، أو يفتنوا بنا بتخيلهم أنّنا لو كنّا على الحقّ ما أصابنا منهم ضرر . عنهما ﴿ إِنَّا لَنُفَصِّلُ ﴾ : « لا تسلطهم [علينا] فتفتنهم بنا » ^(٧) - ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ ﴾ صحبة ﴿ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وسوء جوارهم ، أو من ظلمهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إظهار القوم لإيمانهم وتوكلهم عليه وتضرعهم إليه ، أمر موسى وهارون باتخاذ المساجد لهم ، والاهتمام بالصلاة ، وتبشير المؤمنين بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ﴾ هارون ﴿ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ أو اتخذا ، أو هيّبا ﴿ لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ يسكنون فيها ، ويرجعون إليها للعبادة ﴿ وَاجْعَلُوا ﴾ أنتم وقومكما ﴿ بُيُوتَكُمْ ﴾ تلك ﴿ قِبْلَةً ﴾ ومصلى ، أو مساجد متوجهة إلى القبلة - عن

(١ و ٢) . تفسير الرازي ١٧ : ١٤٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ١٤٤ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٤٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٤٤٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ١٤٥ .

(٦) تفسير أبي السعود ٤ : ١٧٠ .

(٧) مجمع البيان ٥ : ١٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٤ .

ابن عباس : كانت الكعبة قبله موسى ^(١) . ومن غيره : كانت قبلته جهة بيت المقدس ^(٢) . وقيل : يعني : اجعلوا بيوتكم متقابلة ، والمقصود حصول الجمعية ، وتعاضد بعضهم ببعض ^(٣) . وقيل يعني : صلّوا في بيوتكم لئلا يظهر عليكم الكفار فيؤذوكم ويفتنوكم عن دينكم ^(٤) . وقيل يعني : استقبلوا البيوت لأجل الصلاة ^(٥) ﴿وَأَقِيمُوا﴾ جميعا ﴿الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا إجابة لدعائكم ، وبالجنة في الآخرة.

وإنما خاطب سبحانه خصوص موسى وهارون في اتخاذ المساجد لأنّه وظيفة الرؤساء ، وخاطب الكلّ في الأمر بجعل البيوت مساجد والصلاة فيها ، لأنّه وظيفة الكلّ ، وخاطب موسى في الأمر بالبشارة لأنّه وظيفة الرسول.

عن العياشي : أنّ رسول الله ﷺ خطب الناس فقال : أيّها « الناس ، إنّ الله عزّ وجلّ أمر موسى وهارون أن يبنيا لقومهما بمصر بيوتا ، وأمرهما أن لا يبيت في مسجدهما جنب ، ولا يقرب فيه النساء إلّا هارون وذريّته ، وإنّ عليّا مّي بمنزلة هارون من موسى ، فلا يحلّ لأحد أن يقرب النساء في مسجدي ، ولا يبيت فيه جنب ، إلّا عليّ وذريّته ، فمن ساءه ذلك فها هنا » . فضرب ^(٦) بيده نحو الشام ^(٧) .

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٨) و (٨٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر موسى ببشارة المؤمنين بالنصر والغلبة على الأعداء إجابة لدعائهم ، حكى دعاء موسى ﷺ على الكفار بعد بيان سبب طغيانهم بقوله : ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ غضبا على فرعون وقومه : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ وأعطيت ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ ومفاخر كثيرة ؛ كالجمال والقوّة والشوكة ونظائرها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ وفيرة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فألهتهم تلك الزينة والأموال عن ذكرك وذكر الآخرة ، فاشتغلوا بإضلال عبادك ، كأنك ﴿رَبَّنَا﴾ أعطيتهم تلك ﴿لِيُضِلُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِكَ﴾ ويصرفوهم عن تصديق رسولك واتّباع دينك.

(١ و ٢ و ٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٧ : ١٤٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ١٤٧ .

(٦) في المصدر : وأشار .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٣ / ١٩٧٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٤ .

وعن القمّي : يفتنون النَّاسَ بالأموال ليعبدوهم ولا يعبدونك ^(١) . وقيل : إنّ الكلام على سبيل التعجّب المقرون بالإنكار ، والمعنى : آتيتهم ذلك ليضلّوا . وقيل : إنّ ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ دعاء عليهم كما يقال : ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الكافرين ^(٢) . وقيل : إنّ اللّام للعاقبة ^(٣) ، والمعنى : صار عاقبة إحسانك إليهم إضلالهم .

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾ وأورد الهلاك ، أو التّغيير ﴿عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ حتى لا ينتفعوا بها ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وأفسها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ بشيء من الحقّ ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ ويعاينوا ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ في الدّنيا ، أو في الآخرة ، فلا ينفعهم الإيمان إذ ذاك .

عن ابن عبّاس : أنّ موسى كان يدعو ، وهارون كان يؤمّن ^(٤) .

عن النّبي ﷺ : « دعا موسى وأمن هارون وأمنت الملائكة ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى : ﴿قَدْ أَجِيتَ دَعْوَتُكُمَا﴾ ومن غزا في سبيل الله استجيب له كما استجيب لكما يوم القيامة ^(٥) .

وعن ابن عبّاس : بلغنا أنّ الدّراهم والدّنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها ^(٦) .

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ وأثبتنا على ما أنتما عليه من الدّعوة ولا تستعجلا ، فإنّ ما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ﴾ ولا تسلكا ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وطريق الجهال في الاستعجال ، وعدم الوثوق بوعد الله ، أو لا يعلمون أنّ عادة الله تعليق الأمور بالحكم والمصالح .

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ

الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾

ثمّ أخبر سبحانه بإنجازه وعده لموسى والمؤمنين بالنّصر ، وكيفية إهلاك فرعون وقومه بقوله : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وعبرناهم ﴿الْبَحْرَ﴾ بتخفيفه وحفظهم ، حتّى خرجوا منه إلى السّاحل ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ ولحقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ وذهبوا في أثرهم ليرتكبوا ﴿بَغْيًا﴾ وظلما عليهم ، أو إفراطا في قتلهم ﴿وَعَدُوًّا﴾ وتجاوزا في ظلمهم ، أو المعنى : حال كونهم باغين في القول ، عادين في الفعل ، وذلك أنّ موسى عليه السلام لما خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، سمع بخروجهم فرعون وتبعهم حتّى وصل إلى ساحل البحر ، وبنو إسرائيل خرجوا منه ومسلكهم باق على حاله ييسا ، فسلّكه بجنوده أجمعين ، فلمّا دخلوا في مسلكهم الذي كان في البحر غشيتهم من اليمّ ما غشيتهم .

(١) تفسير القمي ١ : ٣١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٧٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٢ .

(٥) الكافي ٢ : ٣٧٠ / ٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٥ .

(٦) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٢ .

عن العياشي مرفوعاً : « لما صار موسى عليه السلام في البحر أتبعه فرعون وجنوده ، قال : فتهيب فرس فرعون أن يدخل البحر ، فتمثل له جبرئيل على رمكة ^(١) ، فلما رأى فرس فرعون الرمكة أتبعها فدخل في البحر هو وأصحابه فغرقوا » ^(٢) .

﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ﴾ ووصل به ﴿الْعَرَقُ﴾ وعاین الموت ﴿قَالَ﴾ إلقاء واضطراباً ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وأخلصت له ديني كما أخلصوا له دينهم ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ والمنقادين له كما هم كذلك. وإنما أظهر تبعيته لهم في الإيمان رجاء أن يكون تبعاً لهم في النجاة.

قيل : كرر المعنى الواحد بثلاث عبارات ، حيث قال أولاً : ﴿آمَنْتُ﴾ ثم قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ ثم قال : ﴿أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ حرصاً على القبول المفضي إلى النجاة ^(٣).

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ

لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩١) و (٩٢)﴾

ثم ونحى الله سبحانه على تأخيره الإيمان إلى وقت لا نفع له بقوله : ﴿الآن﴾ وهل في هذا الوقت الذي لا ينفعك الإيمان فيه تؤمن وتتوب ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ ربك ﴿قَبْلُ﴾ وفي زمان ينفعك فيه الإيمان والتوبة ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض ، المبالغين في الضلال والإضلال ؟ وفيه غاية التوبيخ والتفريع.

عن الصادق عليه السلام : « ما أتى جبرئيل رسول الله ﷺ إلا كئيباً حزينا ، ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون ، فلما أمره الله بنزول هذه الآية ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ نزل عليه وهو ضاحك مستبشر ، فقال له رسول الله ﷺ : ما أتيتني يا جبرئيل إلا وقد تبين الحزن في وجهك حتى الساعة ؟ قال : نعم يا محمد ، لما أغرق الله فرعون قال : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فأخذت حمأة ^(٤) فوضعتها في فمه ، ثم قلت له : ﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وعملت ذلك من غير أمر الله ، ثم خفت أن تلحقه الرجمة من الله ويعذبني الله على ما فعلت ، فلما كان الآن وأمرني الله أن أودّي إليك ما قلته لفرعون ، آمنت وعلمت أن ذلك كان الله تعالى رضا » ^(٥) .

أقول : في الرواية بنظري إشكالات لا مجال لذكرها ، وإنما يسهّل الخطب أنّها من الأحاد التي لا

(١) الرمكة : أنثى الفرس تتخذ للتسل.

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٤ / ١٩٧٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٧٣ .

(٤) الحمأ : الطين الأسود المتين ، والقطعة منه : حمأة.

(٥) تفسير القمي ١ : ٣١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٦ .

توجب علما ولا عملا.

وعن الرضا عليه السلام أنه سئل : لأيّ علّة أغرق الله فرعون وقد آمن به ، وأقرّ بتوحيده ؟ قال : « لأنه آمن عند رؤية البأس ، والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول ، وذلك حكم الله تعالى ذكره في السلف والخلف » . الخبر (١) .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ وننقذك من البحر ﴿بِذَنِكَ﴾ وجئتك بعد موتك ، ونلقي جيفتك الخبيثة على نجوة من الأرض ، ليتيقن بنو إسرائيل بعد رؤيتك هالكا بإنجاز الله وعده إياهم بهلاكك ، كما عن القمي : أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل أنّ الله قد أغرق فرعون فلم يصدّقوه ، فأمر الله عزّ وجلّ البحر فلفظ به على الساحل حتّى رأوه ميّتا (٢) .

﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ وبقي بعدك من القائلين بالوحيّتك وربوبيّتك ﴿آيَةً﴾ ودليلا على نهاية عجزك ؛ كما قيل : أراد الله أن يشاهده الخلق على الذلّ والمهانة ، بعد ما سمعوا منه قوله : ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ لينزجروا عن مثله (٣) .

قيل : تخصيصه من بين المغرقين بهذه الحالة العجيبة ، آية عظيمة على كمال قدرته تعالى ، وعلى صدق موسى عليه السلام (٤) .

عن الرضا عليه السلام في رواية : « وأما فرعون فنبيذ الله وحده وألقاه بالسّاحل لينظروا إليه وليعرفوه ، ليكون لمن خلفه آية ، ولئلاّ يشكّ أحد في هلاكه ، إنهم كانوا اتّخذوه ربّا ، فأراهم الله إيّاه جيفة ملقاة على السّاحل ، ليكون لمن خلفه عبرة وموعظة » (٥) .

وعنه عليه السلام : « أنّه كان من قرنه إلى قدمه في الحديد قد لبسه على بدنه ، فلمّا غرق ألقاه الله تعالى على نجوة من الأرض [يبدنه] ، ليكون لمن بعده علامة فيرونها مع ثقله بالحديد على مرتفع من الأرض ، وسبيل التّقليل أن يرسب ولا يرتفع » (٦) .

وعن ابن عبّاس : كان عليه درع من ذهب يعرف بها ، فأخرجه الله [من الماء] مع ذلك الدّرع ليعرف (٧) .

ثمّ وبّخ سبحانه النّاس على إعراضهم عن الآيات بقوله : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧٧ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٧ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣١٦ وتفسير الصافي ٢ : ٤١٨ عن الباقر عليه السلام .

(٦) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٧٨ / ٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٧ : ١٥٧ .

لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها مع وفورها.

عن الصادق عليه السلام : « كان بين قول الله : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ وبين أخذ فرعون أربعون سنة » (١) .

عن الباقر عليه السلام : « أَملى الله لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ، ثم أخذ الله نكال الآخرة والاولى ، وكان بين أن قال الله لموسى وهارون : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ وبين أن عرفهما الله الإجابة أربعون سنة » (٢) .

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا
حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

ثم أنه تعالى بعد ذكر غضبه على فرعون بالغرق والإهلاك ، بين رحمته على بني إسرائيل بقوله :
﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ وأسكننا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد إنجائهم من ظلم فرعون ، وإهلاك أعدائهم ﴿مَبُوءًا صَدَقِ﴾
ومنزلاً صالحاً مرضياً ، ومسكناً محموداً ؛ وهو الشام ومصر ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كالمِنِّ والسلوى ،
والأثمار اللذيذة ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في أمور دينهم ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بصحة جميعها ، والاطلاع بسبب
تلاوة التوراة على جميع الشرائع والأحكام ، ووجوب التوحيد واتحاد الكلمة.

عن ابن عباس : المراد ببني إسرائيل بني قريظة ، وبني النضير ، وبني قينقاع ، الذين كانوا في عصر
النبي ﷺ ، أنزلهم الله بين المدينة والشام من أرض يثرب ، ورزقهم من الرطب والتمر الذي لا يوجد مثله
في البلاد ، فما اختلفوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه ، فأمن به بعضهم كعبد الله بن
سلام وأضرابه ، وكفر به آخرون. والمراد بالعلم : القرآن العظيم (٣) .

ثم وعد سبحانه المؤمنين ، وأوعد الكافرين منهم بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي﴾ ويحكم
﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإثابة المؤمنين ، وتعذيب الكافرين.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٤) و (٩٥)

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٤ / ١٩٧٥ ، بحار الأنوار ١٣ : ١٤٠ / ٥٥ .

(٢) الخصال : ٥٣٩ / ١١ ، بحار الأنوار ١٣ : ١٢٨ / ٢٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٧٩ عن ابن عباس .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان اختلاف بني إسرائيل في أمور الدّين ، بيّن إعجاز القرآن بكونه موافقا للكتب السماوية ، مع كون من أتى به أميا ؛ بقوله مخاطبا لرسوله ﷺ في الظّاهر ، ولامته في الواقع : ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص التي من جملتها قصّة موسى وفرعون ، وإنجاء بني إسرائيل وإسكانهم الأرض المقدّسة ﴿فَسُئِلَ﴾ عن صحتّها العلماء ﴿الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ السماوي التّازل ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ومن قبل كتابك ؛ كعبد الله بن سلام وتميم الدّاري وأضرابهما من علماء أهل الكتاب ، فإنّ جميع ما نزل عليك محقّق عندهم ، ثابت في كتبهم .

وقيل : إنّ الخطاب في الظّاهر والواقع للرسول ﷺ ، ولا يستلزم القضيّة الشرطيّة إمكان تحقّق مقدّمها ، بل تصحّ مع امتناعه وامتناع جزائه ؛ كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(١) . فلا دلالة في الآية على إمكان وجود الشكّ للرسول .

وقيل : إنّ الخطاب لكلّ من يسمع ، والمعنى : إن كنت أيّها الإنسان أو السّامع في شكّ^(٢) . وعن الهادي عليه السلام أنّه سأله أخوه موسى عن هذه الآية ، حين كتب إليه يحيى بن أكثم يسأله عن مسائل فيها : أخبرني من المخاطب بالآية ، فإن كان المخاطب هو النبي ﷺ فليس قد شكّ^(٣) ، وإن كان المخاطب غيره ؛ فعلى غيره إذن انزل الكتاب ؟ قال موسى : فسألت أخي - عليّ بن محمّد عليه السلام - عن ذلك ، فقال : « المخاطب بذلك رسول الله ﷺ ، ولم يكن في شكّ ممّا أنزل الله^(٤) ، ولم يكن يسأل ، ولكن ليتبعهم كما قال تعالى : ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٥) ، وكذلك عرف النبيّ أنّه صادق فيما يقول ، ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه »^(٦) .

وعن النبيّ ﷺ قال : « لا أشكّ ولا أسأل »^(٧) .

وعن القميّ رحمه الله : عن الصادق عليه السلام : « لما اسري برسول الله ﷺ إلى السّماء وأوحى [الله] إليه في عليّ عليه السلام ما أوحى من شرفه ومن عظمته عند الله ، ورد إلى البيت المعمور ، وجمع له النبيّين وصلّوا خلفه ، عرض في نفس رسول الله ﷺ من عظم ما أوحى إليه في عليّ عليه السلام ، فأُنزل الله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسُئِلَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعني : الأنبياء ، فقد أنزلنا إليهم في

(١) الزخرف : ٤٣ / ٨١ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٨٠ .

(٣) زاد في تفسير العياشي : فيما أنزل الله .

(٤) هناك كلام طويل في المصدر أسقطه المؤلّف للاختصار ، وأبدله بعبارة (ولم يكن يسأل) .

(٥) آل عمران : ٣ / ٦١ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٤ / ١٩٧٧ ، علل الشرائع : ١٢٩ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٩ .

(٧) علل الشرائع : ١٣٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٩ .

كتبهم في فضله ما أنزلنا في كتابك. إلى أن قال : فو الله ، ما شك وما سأل » (١) .

ثم أكد سبحانه صدق ما أخبر به بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا مجال للريب فيه ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لظهور حقايقه بالآيات الباهرة والحجج القاطعة ، فإذا علمت أن ما أنزل إليك موافق لما في سائر الكتب السماوية ، ولا يمكن أن يكون ما أخبر به ربك مخالفا للواقع ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ والشاكين فيه ، بل دم على ما أنت عليه من اليقين كما كنت من قبل.

ثم أنه تعالى بعد التهي عن الشك ، وبيان طريق تحصيل اليقين للناس ، أعلن بغاية قبح التكذيب به بالتهي عنه من لا يتصور في حقه إمكان صدوره منه بقوله : ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ الْكٰفِرِ﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ﴾ مع عظم قدرك ، وعلو مقامك ، وغاية قربك إلى ربك ﴿مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة أنفسا وأعمالا ، ومن المكذبين عقوبة ونكالا بذلك التكذيب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا﴾

العَذَابُ الْأَلِيمُ (٩٦) و (٩٧)

ثم أنه تعالى بعد التهي عن الشك في نبوة نبيه ﷺ ، وصحة دينه ، وصدق ما أخبر به في كتابه ، والتنبيه على طريق إزالة الشك لو فرض وجوده ، وتحصيل اليقين ، وبيان غاية قبح التكذيب بآيات الله ، والتهديد عليه بغاية الخسران في الدارين ، بين شدة إصرار جماعة من الكفار مع ذلك على كفرهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وثبتت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحكمه بأن يبقوا على الكفر ويخلدوا في العذاب ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وكتابك أبدا ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ﴾ من قبل ربك ﴿كُلُّ آيَةٍ﴾ ومعجزة اقترحوها ، بل يصرون على الكفر ﴿حَتَّى يَرَوْا﴾ في الدنيا ، أو بعد الموت ﴿العَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وحيث لا ينفعهم الإيمان ، كما لم ينفع فرعون وأضرابه.

﴿فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾

عَذَابُ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَاعُهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)

ثم لا مهم ووجه سبحانه بقوله : ﴿فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى ، وأهالي بلدة من البلدان ﴿آمَنَتْ﴾ قبل رؤية العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ، ويكشف بسببه العذاب عنها ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ بن متى فإنهم من بين أهل القرى مخصوصون بهذا الإيمان النافع بعد التكذيب. وقيل :

(١) تفسير القمي ١ : ٣١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤١٩ .

إن الاستثناء منقطع ، والمعنى : ولكن قوم يونس . ﴿لَمَّا آمَنُوا﴾ حين رأوا أمارات العذاب ، وبادروا إلى التوبة ﴿كَشَفْنَا﴾ ودفعنا ﴿عَنْهُمْ﴾ بإيمانهم ﴿عَذَابَ﴾ الاستئصال الموقع لهم في ﴿الْخِزْيِ﴾ والهوان والفضيحة ونجيتهم منه ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لكون إيمانهم في وقت الاختيار وبقاء التكليف ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ متاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿إِلَى حِينٍ﴾ وزمان قدرناه لهم في علمنا .

روت العامة : أنَّ يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه ، فذهب عنهم مغاضبا ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب ، فلبسوا المسوح وعجّوا أربعين ليلة ، وكان يونس قال لهم : إنَّ أجلكم أربعون ليلة ، فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك . فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد ، فظهر منه دخان شديد ، وهبط ذلك الدخان حتّى وقع في المدينة وسود سطوحهم ، فخرجوا إلى الصحراء ، وفرّقوا بين النساء والصبيان ، وبين الدواب وأولادها ، فحنّ بعضها إلى بعض ، فعلت الأصوات وكثرت التضرّعات ، وأظهروا الإيمان والتوبة ، وتضرّعوا إلى الله تعالى ، فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة (١) .

وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن ردّوا المظالم ، حتّى إنَّ الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه ، فيردّه إلى مالكه (٢) .

عن الفضل بن عباس : أمّهم قالوا : إنَّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت ، وأنت أعظم منها وأجلّ ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله (٣) .

وقيل : إنَّهم خرجوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم ، فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم : قولوا : يا حيّ حين لا حيّ ، ويا حيّ يا محيي الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت . فقالوا ، فكشف الله عنهم العذاب (٤) .

في قصة نزول العذاب على قوم يونس ورفعهم بالتوبة

وعن الباقر عليه السلام يقول : « [وجدنا في بعض] كتب أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : حدّثني رسول الله ﷺ : أنَّ جبرئيل حدّثه أنَّ يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، وكان رجلا تعتره الحدة ، وكان قليل الصبر على قومه والمدارة لهم ، عاجزا عمّا حمّل من ثقل حمل أوقار النبوة وأعلامها ، وإنّه تفسّخ تحتها كما يتفسّخ الجذع تحت حملة ، وإنّه أقام فيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله والتصديق به واتباعه ثلاثا وثلاثين سنة ، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه إلا رجلان ؛ اسم أحدهما روبييل ، واسم الآخر تنوخا ، وكان روبييل من أهل بيت العلم والنبوة والحكمة ، وكان قديم الصّحبة ليونس بن متى من قبل أن يبعثه الله بالنبوة ، وكان تنوخا

(١ و ٢ و ٣ و ٤) . تفسير الرازي ١٧ : ١٦٥ .

رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العبادة ، وليس له علم ولا حكم ، وكان روبيل صاحب غنم يراعها ويتقوت منها ، وكان تنوخا رجلا خطّابا يحتطب على رأسه ويأكل من كسبه ، وكان لروبييل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا ؛ لعلم روبيل وحكمته وقدم صحبته.

فلما رأى يونس ^(١) أن قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ، ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر ، فشكا ذلك إلى ربه ، وكان فيما شكا أن قال : يا ربّ إنك بعثني إلى قومي ولي ثلاثون سنة ، فلبثت فيهم أدعوهم إلى الإيمان بك والتّصديق برسالي ، واخوفهم عذابك ونقمتهك ثلاثا وثلاثين سنة ، فكذبوني ولم يؤمنوا بي ، وجحدوا نبوتي واستخفّوا برسالي ، وقد توعدوني وخفت أن يقتلوني ، فانزل عليهم عذابك فإنهم قوم لا يؤمنون.

قال : فأوحى الله إلى يونس : إنّ فيهم الحمل والجنين ، والطفّل والشّيخ الكبير ، والمرأة الضعيفة والمستضعف المهين ، وأنا الحكم العدل ، سبقت رحمتي غضبي ، لا أعدّب الصّغار بذنوب الكبار من قومك ، وهم يا يونس عبادي وخلقي ، وبرّتي في بلادي ، وفي عيلتي ، أحبّ أن أتأناهم وأرفق بهم وانتظر توبتهم ، وإنما بعثتك إلى قومك لتكون حفيظا عليهم ، تعطف عليهم بسجال ^(٢) الرحمة الماسّة منهم ، وتأناهم برأفة النبوّة ، وتصبر عليهم بأحلام الرّسالة ، وتكون لهم كهية الطيب المداري العالم بمدارة الداء ^(٣) ، فحرّجت ^(٤) بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرّفق ، ولم تسسهم بسياسة المرسلين. ثم سألتني عن سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك ، وعبدني نوح كان أصبر منك على قومه ، وأحسن صحبة ، وأشدّ تأتيا في الصبر عندي ، وأبلغ في العذر ، فغضبت له حين غضب لي ، وأجبت له حين دعاني.

فقال يونس : يا ربّ ، إنّما غضبت عليهم فيك ، وإنما دعوت عليهم حين عصوك ، فو عزّتك لا أتعطّف عليهم برأفة أبدا ، ولا أنظر إليهم بنصيحة شفيق بعد كفرهم وتكذيبهم إياي وجحدهم نبوتي ، فأنزل عليهم عذابك ، فإنهم لا يؤمنون أبدا.

فقال الله تعالى : يا يونس ، إنّهم مائة ألف أو يزيدون من خلقي ، يعمرون بلادي ويلدون عبادي ، ومحبتّي أن أتأناهم للذي سبق [من] علمي فيهم وفيك ، وتقديري وتدييري غير علمك وتقديرك ، وأنت المرسل وأنا الربّ الحكيم ، وعلمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا يعلم ما منتهاه ،

(١) السّجال : جمع سجل ، وهي الدلو العظيمة المملوءة ، والمراد هنا : المقدار العظيم من الرحمة.

(٢) في تفسير العياشي : المداوي العالم بمداواة الدواء.

(٣) في تفسير العياشي : فخرقت ، ومعنى حرّج به : ضيّق عليه ، وخرق به : لم يرفق به ، ولم يحسن معاملته.

وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له.

يا يونس ، قد أجبته إلى ما سألت من إنزال العذاب عليهم ، وما ذلك يا يونس بأوفر لحظك عندي ، ولا أحمد ^(١) لشأنك ، وسيأتيهم عذاب في شوال يوم الأربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس ، فأعلمهم ذلك. فسر [ذلك] يونس ولم يسؤه ، ولم يدر ما عاقبته.

فانطلق يونس عليه السلام إلى تنوخا العابد فأخبره بما أوحى إليه من نزول العذاب على قومه في ذلك اليوم ، وقال له : انطلق حتى أعلمهم بما أوحى الله إلي من نزول العذاب ، فقال تنوخا : فدعهم في غمرتهم ومعصيتهم حتى يعذبهم [الله] . فقال له يونس : [بل] نلقى روبيل فنشاوره ، فإنه رجل عالم حكيم من أهل بيت النبوة ، فانطلقا إلى روبيل ، فأخبره يونس بما أوحى الله إليه من نزول العذاب على قومه في شوال يوم الأربعاء في وسط الشهر بعد طلوع الشمس ، فقال له : ما ترى ، انطلق بنا حتى أعلمهم ذلك ؟

فقال له روبيل : ارجع إلى ربك رجعة نبي حكيم ، ورسول كريم ، واسأله أن يصرف عنهم العذاب ، فإنه غني عن عذابهم ، وهو يحب الرفق بعباده ، وما ذلك بأضر لك عنده ، ولا أسوأ لمنزلتك لديه ، ولعل قومك بعد ما سمعت ورأيت من كفرهم وجحودهم يؤمنون يوما ، فصابرهم وتأناهم. فقال له تنوخا : ويحك يا روبيل ، ما أشرت على يونس وأمرته [به] بعد كفرهم بالله ، وجحدهم لنبيه ، وتكذيبهم إياه ، وإخراجهم إياه من مسكنه ، وما هموا به من رجه.

فقال روبيل لتنوخا : اسكت ، فإنك رجل عابد لا علم لك.

ثم أقبل إلى يونس عليه السلام فقال : أرايت يا يونس إذا أنزل الله العذاب على قومك ، أفيهلكهم جميعا أو يهلك بعضا ويبقي بعضا ؟ فقال له يونس : بل يهلكهم جميعا ؛ وكذلك سألته ، ما دخلتني لهم رحمة تعطف ، اراجع الله فيهم وأسأله أن يصرف عنهم. فقال له روبيل : أتدري يا يونس ، لعل الله [إذا] أنزل عليهم العذاب فأحسنوا به ، أن يتوبوا إليه ويستغفروا ، في يرحمهم الله فإنه أرحم الراحمين ، ويكشف عنهم العذاب من بعد ما أخبرتهم عن الله تعالى أنه ينزل عليهم العذاب يوم الأربعاء ، فتكون بذلك عندهم كذبا.

فقال له تنوخا : ويحك يا روبيل ، لقد قلت عظيما ، يخبرك النبي المرسل أن الله أوحى إليه أن العذاب ينزل عليهم ، فترد قول الله ، وتشك فيه وفي قول رسوله ، اذهب فقد حبط عملك. فقال روبيل لتنوخا : لقد فسد رأيك.

(١) في تفسير العياشي : أجل.

ثمّ أقبل إلى يونس عليه السلام فقال : أنزل الوحي والأمر من الله فيهم على ما أنزل عليك فيهم من إنزال العذاب عليهم ؟ وقوله الحقّ ، أرايت إذا كان ذلك فهلك قومك كلّهم ، وخربت قريتهم ، أليس يمحو الله اسمك من النبوّة وتبطل رسالتك ، وتكون كبعض ضعفاء النّاس ، ويهلك على يديك مائة ألف (١) من النّاس ؟

فأبى يونس عليه السلام أن يقبل وصيّته ، فانطلق ومعه تنوخا إلى قومه ، فأخبرهم أنّ الله أوحى إليه أنّه منزل العذاب عليهم يوم الأربعاء في شوال في وسط الشهر بعد طلوع الشّمس ، فردّوا عليه قوله [وكذبوه] وأخرجوه من قريتهم إخراجا عنيفا.

فخرج يونس عليه السلام ومعه تنوخا من القرية ، وتنحّيا عنهم غير بعيد ، وأقاما ينتظران العذاب ، وأقام روبييل مع قومه في قريتهم ، حتّى إذا دخل عليهم شوال صرخ روبييل بأعلى صوته في رأس الجبل إلى القوم : أنا روبييل الشّفيق عليكم ، الرّحيم بكم ، قد أنكرتم عذاب الله ، هذا شوال قد دخل عليكم ، وقد أخبركم يونس نبيّكم ورسول ربّكم أنّ الله أوحى إليه أنّ العذاب ينزل بكم في شوال في وسط الشهر يوم الأربعاء بعد طلوع الشّمس ، ولن يخلف الله وعده رسله ، فانظروا ما ذا أنتم صانعون. فأفزعهم كلامه فوقع في قلوبهم تحقيق نزول العذاب ، فأقبلوا نحو روبييل وقالوا له : ماذا أنت مشير به علينا يا روبييل ؟ فإنّك رجل عالم حكيم ، لم نزل نعرفك بالرفّة علينا والرّحمة لنا ، وقد بلغنا ما أشرت به على يونس [فينا] ، فمرنا بأمرك وأشر علينا برأيك.

فقال لهم روبييل : إنّّي أرى لكم وأشير عليكم أن تنظروا وتعمدوا إذا طلع الفجر يوم الأربعاء في وسط الشهر ، أن تعزلوا الأطفال عن الاتّهامات في أسفل الجبل في طريق الأودية ، وتوقفوا النساء في سفح الجبل ، ويكون هذا كلّه قبل طلوع الشّمس ، [فإذا رأيتم ريحا صفراء أقبلت من المشرق] فعجّوا عجيجا ، الكبير منكم والصّغير بالصّراخ والبكاء والتضرّع إلى الله ، والتّوبة إليه والاستغفار له ، وارفعوا رؤوسكم إلى السّماء وقولوا : ربّنا ظلمنا أنفسنا ، وكذبنا نبيّك ، وتبنا إليك من ذنوبنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين المعذبين [فأقبل توبتنا] وارحمنا يا أرحم الرّاحمين. ثمّ لا تملّوا من البكاء والصّراخ والتضرّع إلى الله والتّوبة إليه ، حتّى توارى الشّمس بالحجاب ، أو يكشف الله عنكم العذاب قبل ذلك. فأجمع رأي القوم جميعا على أن يفعلوا ما أشار به عليهم روبييل.

فلما كان يوم الأربعاء الذي توقّعوا العذاب ، تنحّى روبييل عن القرية حيث يسمع صراخهم ويرى العذاب إذا نزل ، فلما طلع الفجر يوم الأربعاء فعل قوم يونس ما أمرهم روبييل به ، فلما بزغت الشّمس

(١) زاد في العياشي : أو يزيدون.

أقبلت ريح صفراء مظلّمة مسرعة لها صرير وحفيف [وهدير] ، فلَمَّا رَأَوْهَا عَجَّوْا جميعاً بالصَّراخ والبكاء والتضرّع إلى الله ، وتابوا واستغفروا ، وصرخت الأطفال بأصواتها تطلب أمهاتها ، وعجّت سخال البهائم تطلب التّدي ، وثغت ^(١) الأنعام تطلب الرّعي ، فلم يزلوا بذلك ، ويونس وتنوخا يسمعان صيحتهم وصراخهم ، ويدعوان الله بتخليط العذاب عليهم ، وروبيّل في موضعه يسمع صراخهم وعجيجهم ويرى ما نزل ، وهو يدعو الله بكشف العذاب عنهم .

فلَمَّا أن زالت الشمس ، وفتحت أبواب السّماء ، وسكن غضب الرّبّ تعالى ، رحمهم الرّحمن ، واستجاب دعاءهم وقبل توبتهم ، وأقالهم عثرهم . وأوحى إلى إسرّافيل أن اهبط إلى قوم يونس فإبهم عَجَّوْا إلى بالبكاء والتضرّع ، وتابوا إلى واستغفروني ، فرحمتهم وتبت عليهم ، وأنا الله التّواب الرّحيم ، أسرع إلى قبول توبة عبدي التائب من الذّنْب ، وقد كان عبدي يونس ورسولي سألني نزول العذاب على قومه وقد أنزلته عليهم ، وأنا الله أحقّ من وفي بعهده ، ولم يكن اشترط يونس ﷺ حين سألني أن أنزل عليهم العذاب أن اهلكهم . فاهبط إليهم واصرف عنهم ما نزل بهم من عذابي .

فقال إسرّافيل : يا ربّ ، إنّ عذابك بلغ اكتافهم وكاد أن يهلكهم ، وما أراه إلّا وقد نزل بساحتهم ، فإلى أين أصرفه ؟

فقال الله : كلا ، إنّني قد أمرت ملائكتي أن يصرفوه ولا ينزلوه عليهم ، حتّى يأتيهم أمري فيهم وعزيمتي ، فاهبط يا إسرّافيل عليهم واصرفه عنهم ، واصرف به إلى الجبال وناحية مفاض ^(٢) العيون ومجاري السيول ، في الجبال العاتية العادية المستطيلة على الجبال ، فأذلّها به وليّنها حتّى تصير ملتئمة حديدا جامدا . فهبط إسرّافيل فنشر أجنحته ، فاستاق بها ذلك العذاب حتّى ضرب بها تلك الجبال التي أوحى الله إليه أن يصرفه إليها .

قال أبو جعفر ﷺ : « وهي الجبال التي بناحية الموصل اليوم ، فصارت حديدا إلى يوم القيامة . فلَمَّا رأى قوم يونس أن العذاب قد صرف عنهم ، هبطوا إلى منازلهم من رؤس الجبال ، وضمّوا إليهم نساءهم وأولادهم وأموالهم ، وحمدوا الله على ما صرف عنهم . وأصبح يونس وتنوخا يوم الخميس في موضعهما الذي كانا فيه ، لا يشكّان أنّ العذاب قد نزل بهم وأهلكهم جميعا لما خفيت أصواتهم عنهما ، فأقبلا ناحية القرية يوم الخميس مع طلوع الشّمس ينظران إلى ما صار إليه القوم ، فلَمَّا دنوا من القوم واستقبلتهم الخطّابون والحمارّة ^(٣) والرّعاة بأغنامهم ، ونظروا إلى أهل القرية

(١) أي صاحت .

(٢) في تفسير العياشي : الجبال بناحية مفاض .

(٣) الحمارّة : أصحاب الحمير .

مطمئنين ، قال يونس لتنوحا : كذّبي الوحي ، وكذب وعدي لقومي ، لا وعزة ربّي لا يرون لي وجهاً أبداً بعد ما كذّبي الوحي .

فانطلق يونس عليه السلام هارباً على وجهه مغاضباً لربه ناحية بحر إيلة ، متنكراً فراراً من أن يراه أحد من قومه فيقول له : يا كذاب ، فلذلك قال الله : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾^(١) الآية ، ورجع تنوحا إلى إى القرية فلقي روبييل ، فقال له : يا تنوحا ، أيّ الرأيين كان أصوب وأحقّ ، رأيي أو رأيك ؟ فقال تنوحا : بل رأيك كان أصوب ، ولقد كنت أشرت برأي العلماء والحكماء . وقال تنوحا : أما إنّي لم أزل أرى أيّ أفضل منك لزهدي وفضل عبادتي ، حتّى استبان فضلك بفضل علمك ، وما أعطاك ربّك من الحكمة مع التقوى أفضل من الزهد والعبادة بلا علم . فاصطحبا فلم يزالا مقيمين مع قومهما .

ومضى يونس على وجهه مغاضباً لربه ، فكان من قصّته ما أخبر الله به في كتابه : ﴿فَأَمْنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٢) .

قال أبو عبيدة : قلت لأبي جعفر عليه السلام : كم كان غاب يونس عن قومه حتى رجع إليهم بالنبوة والرسالة ، فأمنوا به وصدّقوه ؟ قال : « أربعة أسابيع ؛ سبعا منها في ذهابه إلى البحر ، وسبعا في بطن الحوت ، وسبعا تحت الشجرة بالعراء ، وسبعا منها في رجوعه إلى قومه » .

فقلت له : وما هذه الأسابيع ، شهور أو أيام أو ساعات ؟ فقال : « يا أبا عبيدة ، إنّ العذاب أتاهم يوم الأربعاء في النصف من شوال ، وصرف عنهم من يومهم ذلك ، فانطلق يونس عليه السلام مغاضباً فمضى يوم الخميس ، سبعة أيام في مسيرة إلى البحر ، وسبعة أيام في بطن الحوت ، وسبعة أيام تحت الشجرة بالعراء ، وسبعة أيام في رجوعه إلى قومه ، فكان ذهابه ورجوعه [مسير] ثمانية وعشرين يوماً . ثم أتاهم فأمنوا به وصدّقوه واتبعوه ، فلذلك قال الله : ﴿فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٣) .

أقول : في الرواية إشكالات غامضة لا تنحلّ إلّا بارتكاب التأويل في ظواهرها ، والتكلّف في توجيهها ، بما لا ينافي عصمة الأنبياء ، وكونهم أعقل امتهم ، وأعلمهم ، وأطوعهم لأوامر الله ، وأسلمهم لمرضاته .

وعنه عليه السلام : « أنّ يونس لما آذاه قومه دعا الله عليهم ، فأصبحوا أوّل يوم ووجوههم صفر ، وأصبحوا اليوم الثاني ووجوههم سود . قال : وكان الله واعدتهم أن يأتيهم العذاب ، فأتاهم حتّى نالوه برماحهم ،

(١) الأنبياء : ٨٧ / ٢١ .

(٢) الصافات : ٣٧ / ١٤٨ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢٨٥ / ١٩٧٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢١ .

ففرّقوا بين النساء وأولادهنّ ، وبين البقر وأولادها ، ولبسوا المسوح والصّوف ، ووضعوا الحبال في أعناقهم والرماد على رؤوسهم ، وضجّوا ضجّة واحدة إلى ربّهم ، وقالوا : آمنا بإله يونس ، فصرف الله عنهم العذاب ، وأصبح يونس وهو يظنّ أنّهم هلكوا ، فوجدهم في عافية » (١) .

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل : لأيّ علّة صرف الله العذاب عن قوم يونس ؛ وقد أظلمهم ، ولم يفعل كذلك بغيرهم من الامم ؟ قال : « لأنّه كان في علم الله أنّه سيصرفه عنهم يلتوبتهم ، وإنّما ترك إخبار يونس عليه السلام بذلك لأنّه عزّ وجلّ أراد أن يفرّغه لعبادته في بطن الحوت ، فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته » (٢) .

وعنه عليه السلام : « أنّ جبرئيل عليه السلام استثنى في هلاك قوم يونس ، ولم يسمعه يونس عليه السلام » (٣) .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية عدم نفع جهد يونس في إيمان قومه ، وإنّما هم آمنوا أخيراً بتوفيق الله ، بيّن أنّ إيمان جميع النّاس منوط بمشيئته وتوقيفه ، لا بجهد الرّسل في إيمانهم وإكراههم لهم ؛ بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمان النّاس بالإكراه والاضطرار ﴿لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم﴾ بحيث لا يشدّ منهم أحد حال كونهم ﴿جَمِيعاً﴾ ومتفقين عليه . ولكن لم يشأ ذلك لمنافاته للحكمة البالغة التي عليها أساس التّكوين والتّشريع ، بل مقتضى الحكمة أن يشاء لهم ما يشاءون لأنفسهم من الكفر والإيمان ، حسب اقتضاء طبيعتهم ، تكميلاً لحكم القبضتين ، وتحصيلاً لأهل النّشأتين .

فإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يا محمّد ﴿تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ على الإيمان الذي لم يشأ الله إكراههم عليه ﴿حَتَّى يَكُونُوا﴾ بإكراهك عليه ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ ليس ذلك عليك ولا مقدورك ، إنّما عليك البلاغ والإنذار والنّصح .

وفيه دلالة على كمال حرصه على إيمان قومه ، وتسليّة قلبه الشّريف بقطع رجائه في إيمان جميعهم .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٩٤ / ١٩٨١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٦ .

(٢) علل الشرائع : ٧٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٦ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ٧٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٧ .

ثم بيّن سبحانه إناطة الإيمان بمشيئته وتوفيقه بقوله : ﴿وَمَا﴾ وما صحَّ ﴿لِنَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتوفيقه وتسهيله ولطفه ، لا بالمعجزات وتقدير الدلائل ودفع الشبهات والمبالغة في الوعظ والتّصح ، وإن كان لها دخل .

ثم بيّن أنّ الكفر أيضا يكون بخذلانه ، الناشئ عن قلة العقل وكثرة الجهل ؛ بقوله : ﴿وَيَجْعَلُ﴾ الله ﴿الرَّجْسَ﴾ والكفر المستقذر لشدة قباحته ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، ولا يتدبرون فيها .

عن الرضا عليه السلام أنّه سأله المأمون عن هذه الآية ، فقال : « حدّثني أبي ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنّ المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ : لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثير عددنا وقوينا على عدونا ، فقال رسول الله ﷺ : ما كنت لألقى الله ببدعة لم يحدث إليّ فيها شيئا ، وما أنا من المتكلفين . فأنزل الله عليه : يا محمد ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ على سبيل الإلجاء والاضطرار في الدنيا ، كما يؤمنون عند المعاناة ورؤية البأس في الآخرة ، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقّوا منّي ثوابا ولا مدحا ، ولكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطّرين ، ليستحقّوا منّي الزلفى والكرامة ، ودوام الخلود في جنة الخلد ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وأما قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فليس ذلك على سبيل تحريم الإيمان عليها ، ولكن على معنى أنّها ما كانت لتؤمن إلّا ، بإذن الله وإذنه أمره لها بالإيمان ما كانت متكلّفة متعبّدة ، وإلجاؤه إياها إلى الإيمان عند زوال التّكليف والتعبّد عنها » . فقال المأمون : فرّجت [عني فرّج الله عنك] (١) .

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ﴾

لا يُؤْمِنُونَ (١٠١)

ثمّ أنّه تعالى بعد الإشارة إلى أنّ الكفر إنّما يكون بسبب عدم التعقّل والتدبّر في الآيات ، وأنّ الإيمان موقوف على تعقلها والتفكّر فيها ، أمر نبيه ﷺ ببعث الناس إلى النّظر والتفكّر في الآيات السماويّة والأرضيّة بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمّد للناس عموما ، أو لأهل مكّة ﴿انظُرُوا﴾ بنظر التفكّر والاعتبار ﴿مَاذَا﴾ من الآيات الدالّة على التوحيد ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأيّ شيء بديع فيهما من عجائب الصّنع الدالّة على كمال قدرة الله وحكمته .

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٣٥ / ٣٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٧ .

عن النبي ﷺ : « تفكروا في الخلق ، ولا تتفكروا في الخالق » ^(١) .

ثم ذم الكفار الذين لا يتأثرون بالآيات بقوله : ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ﴾ وعجائب المصنوعات ، والبراهين الساطعات على التوحيد ﴿وَالنُّذُرُ﴾ والمواعظ ، أو الرسل المنذرون ﴿عَنْ قَوْمٍ﴾ علم الله أنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وحكم عليهم بأنهم أهل النار لحب طينتهم ، وغاية شقاوتهم ، وشدة قساوتهم .
عن الصادق عليه السلام : ﴿الْآيَاتُ﴾ الأئمة عليه السلام ، و﴿النُّذُرُ﴾ الأنبياء عليه السلام » ^(٢) .

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢)

ثم ذمهم سبحانه وهددهم على عدم الإيمان بقوله : ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ هؤلاء المصرون على الكفر في إيمانهم شيئا ﴿إِلَّا﴾ يوما ﴿مِثْلَ أَيَّامِ﴾ المشركين المعارضين للرسل من الأمم ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ومضوا من الدنيا بعذاب الاستئصال ، وواقعة عظيمة من الوقائع العظام التي كانت للمكذّبين الذين كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأعصار السابقة على عصرهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، تهديدا لهم : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ ما هو عاقبة أمركم من الابتلاء بالعذاب أيضا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك لأنكم لا تستحقون غيره . وقيل يعني : انتظروا هلاكي ، وإني [معكم] من المنتظرين لهلاككم ^(٣) .

عن الرضا عليه السلام : « انتظار الفرج من الفرج ، إنّ الله يقول : ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ » ^(٤) .

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

ثم أنّه تعالى بعد بيان إنزال العذاب على الأمم السابقة ، بين لطفه بالرسول والمؤمنين بقوله : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ والمراد : أنّا كنّا ننزل العذاب على أمم ، ثمّ ننجي رسلنا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم من ذلك العذاب حين نزوله ﴿كَذَلِكَ﴾ الإنجاء الذي كان لهم في الأعصار السابقة حق ﴿حَقًّا﴾ وثبت ثبوتنا ﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى الحكمة والعدل ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من الرسل وأتباعهم في كلّ عصر ، من الشدائد والبلايا . وإمّا أدخل الرسل في المؤمنين للإشعار بأنّ ملاك النجاة هو الإيمان .

عن الصادق عليه السلام : « ما يمنعكم [من] أن تشهدوا على من مات منكم على هذا الأمر أنّه

من أهل

(١) تفسير الرازي ١٧ : ١٦٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٠ ، الكافي ١ : ١٦١ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٨٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٩٧ / ١٩٨٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٨ .

الجنة ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٤) و (١٠٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى التوحيد ، وأمر الناس بالنظر في الآيات الدالة عليه ، أمر رسوله ﷺ بإعلام الناس بدينه وهو التوحيد والبراءة من الشرك بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الذي اخترته لنفسه ، ولا تتيقنوا به ﴿فَلَا أَعْبُدُ﴾ أبدا الآلهة ﴿الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لعلمي بعدم قابلية شيء منها للعبادة ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي﴾ بقدرته ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وبإرادته يميّتكم .

وقيل : يعني أعبد الذي وعدني بأن يتوفّاكم ويهلككم ويقيني ، فإنّه الذي يجب أن يخاف منه ، دون ما هو بمعزل عن القدرة على التصرف في موجود من الموجودات كأصنامكم . وإنّما قدّم ترك عبادة الغير في الذّكر على تخصيص عبادته بالله ، لتقدّم التّخلية ، وللاّيدان في أوّل الأمر بالمخالفة^(٢) .

وقيل : إنّ المراد : إن كنتم في شكٍّ من صحّة ديني ، فاعلموا أنّ ديني الإخلاص في العبادة لمن بيده ناصية كلّ شيء ، ورفض عبادة غيره ممّا لا يضرّ ولا ينفع ، فانظروا بعقولكم أيّهما أولى بالعبادة ، فإن تفكّرت علمتم أن لا مجال للشكّ في صحّة ديني فضلا عن القطع بعدمه ، أو إن كنتم في الشكّ من ثباتي على ديني ، فإنّي لا أتركه أبدا^(٣) .

﴿وَأُمِرْتُ﴾ من قبل خالقي وعقلي ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ، الموحدين له ﴿و﴾ قيل لي : ﴿أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ ووجه عقلك وقلبك وشرّاشر وجودك ﴿لِلدِّينِ﴾ القيم ، وأقبل بكلك إليه ، حال كونك ﴿حَنِيفًا﴾ ومعرضا عن غيره من الأديان الباطلة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ البتّة في آن من عمرك ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ اعتقادا وعملا ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبد بوجه من الوجوه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وممّا سواه ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ بإيصال محبوب إليك ، أو دفع مكروه عنك إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بشيء أبدا إن تركته ، لعدم قدرته على شيء ، وعدم شعوره بشيء ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ما نهيت عنه من عبادة غير الله ﴿فَإِنَّكَ﴾

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٩٧ / ١٩٨٦ ، مجمع البيان ٥ : ٢٠٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٧٩ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٧٩ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٤٨ .

إِذَا ﴿لِسُوءِ اخْتِيَارِكَ﴾ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى اللَّهِ بِتَضْيِيعِ حَقِّهِ وَكَفْرَانِ نِعَمِهِ ، وَعَلَى نَفْسِكَ بِتَعْرِيزِهَا لِلْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الدَّائِمِ .

القَمِّي : مخاطبة للنبي ﷺ ، والمعني الناس (١) .

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾

يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴿﴾

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ بَيَانِ عَجْزِ غَيْرِهِ عَنِ الضَّرِّ وَالتَّفَعُّعِ ، بَيَّنَّ أَنَّ جَمِيعَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ بِيَدِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ﴾ وَيَصْبُكَ ﴿بِضُرٍّ﴾ وَمَكْرَهُ ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ وَلَا دَافِعَ ﴿لَهُ﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تَعَالَى شَأْنُهُ ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ مِنَ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ﴿فَلَا رَادَّ﴾ وَلَا مَانِعَ ﴿لِفَضْلِهِ﴾ وَإِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ ، لِعَجْزِ الْغَيْرِ عَنْ مَعَارَضَتِهِ .

قِيلَ : إِنَّمَا ذَكَرَ الْإِرَادَةَ مَعَ الْخَيْرِ وَالْمَسِّ مَعَ الضَّرِّ ، لِلْإِذَانِ بِأَنَّ الْخَيْرَ مَطْلُوبُهُ تَعَالَى أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ، وَالضَّرَّ ثَانِيًا (٢) وَبِالْعَرَضِ ، أَوْ لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ الضَّرَّ كُلَّهُ وَجُودِي ، وَأَمَّا الْخَيْرُ فَقَدْ يَكُونُ عَدَمِيًّا .

لَمَّا نَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّ الْخَيْرَ إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِهِ لَا بِالِاسْتِحْقَاقِ ، قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ مُؤْمِنًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ بِالْمَسْأَلَةِ وَالطَّاعَةِ ، وَلَا تَيَاسَوْا مِنْهُ بِسَبَبِ الْعَصِيَانِ ، إِذْ هُوَ الْمَفْضَلُ الْحَسَنُ ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) ﴿﴾

ثُمَّ بَالِغَ سَبْحَانَهُ فِي السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالنَّبَوَّةِ وَالْمَعَادِ بِذِكْرِ الدَّلَائِلِ الْمُتَقَنَّةِ ، وَالْبَرَاهِينِ الْحَكِيمَةِ عَلَيْهَا ، الْمَوْجِبَةِ لَاهْتِدَاءِ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ بِهِ ، خَتَمَهَا بِأَمْرِ نَبِيِّهِ ﷺ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَالْإِهْتِدَاءِ بِهِ ، وَإِعْلَامِ النَّاسِ بِإِتِمَامِ الْحُجَّةِ بِهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قَدْ تَمَّتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ ، وَانْقَطَعَتْ عَنْكُمْ الْمَعْذَرَةُ ، حَيْثُ إِنَّهُ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ ﴿الْحَقُّ﴾ الْمُشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ اللَّطِيفُ بِكُمْ ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ إِلَى الْحَقِّ بِالْإِيمَانِ بِهِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي﴾ إِلَى الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ ﴿لِنَفْسِهِ﴾ لَا تَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٣٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٨٧ .

وانحرف عن طريق الحق بالكفر به والإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ عن سبيل كل خير ، ووباله ﴿عَلَيْهَا﴾
 وضرر راجع إليها ، فلا نفع لله ولي في إيمانكم ، ولا ضرر عليه وعليكم بكفركم ﴿وَمَا أَنَا﴾ من قبل ربي
 ﴿عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وحفيظ حتى أجبركم على الإيمان ، وأقهركم على قبول الحق والعمل به ، بل إنما تكون
 وظيفتي التبليغ والإنذار والتبشير ، وقد عملت بها.

﴿وَأَتَيْعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩)

ثم أتته تعالى بعد أمر نبيه ﷺ بدعوة الناس إلى الإيمان بالقرآن والعمل به ، وإتمام الحجّة عليهم ،
 أمره تعالى بأن يتبعه بنفسه الشريفة ، وإن لم يؤمن ولم يعمل به أحد ، والصبر على أذى قومه بقوله :
 ﴿وَأَتَيْعُ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ من الآيات القرآنية ، والتزم بالإيمان والعمل بها ، وإن أعرض عنها
 جميع الناس ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على كل ما أصابك من المكارِه والأذى لا تباعك وحي ربك ، ودم على ذلك
 ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فيهم بما يستحقّون من العذاب والهلاك ، ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وأعدل
 القاضين ، وأصوبهم في الحكم ، لا يجور ولا يخطأ.

روي عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة يونس اعطي له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق
 بيونس وكذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون » ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة يونس في كلّ شهرين أو ثلاثة لم يخف [عليه] أن يكون
 من الجاهلين ، وكان يوم القيامة من المقرّين » ^(٢) . إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين على إتمام تفسيرها ، وأسأله التوفيق لإتمام ما يتلوها.

(١) مجمع البيان ٥ : ١٣١ .

(٢) ثواب الأعمال : ١٠٦ ، مجمع البيان ٥ : ١٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٢٩ .

في تفسير سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكِيبُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ (١)﴾

ثم لما ختمت سورة يونس ؛ وكانت سورة هود أنسب السور بها ، لاشتراكهما في التصدير بالحروف المقطعة ، وبيان كون الآيات محكمة ، وفي الدعوة إلى التوحيد ، ودفع شبهات المشركين فيه وفي النبوة والمعاد ، والتحدّي بسور القرآن وتهديدهم بالعذاب ، وفي بيان هلاك الأمم الماضية به ، وفي حاجة الأنبياء وكمال توكلهم وصبرهم ، إلى غير ذلك من المطالب العالية ، أردفها بسورة هود فافتتحها بذكر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم بذكر الحروف المقطعة بقوله : ﴿الر﴾ وقد مرّ تفسيرها (١) .

ثم شرع في إثبات النبوة بإثبات عظمة القرآن بقوله : ﴿كِتَابٌ﴾ والتقدير : هذا القرآن العظيم كتاب رفيع الشأن ، الذي ﴿أَحْكَمْتُ﴾ ونظمت ﴿آيَاتُهُ﴾ نظماً رصيفاً محكماً ، بمعنى أنه لا يعتريه النقص والخلل ، أو لا يطرأ عليه النسخ (٢) بكتاب بعده ، أو بمعنى كثير الحكمة ، أو مؤيداً بالحجج القاطعة الدالة على صدقه ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ بفصول من المعارف والأحكام ، والقصص والمواعظ ، ومهمات المعاش والمعاد.

وقيل : فصلت يعني فرقت في التنزيل منجّمة بحسب المصالح (٣) ، أو فرقت بين الحق والباطل (٤) .
وقيل يعني : زينت بإعجاز البيان ، وكثرة الفوائد ؛ كما تزين القلائد بالفرائد (٥) .
ونزلت ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ إله ﴿حَكِيمٍ﴾ لا نهاية لحكمته ﴿خَيْرٍ﴾ بخفيايات الأمور . وأما وصف ذاته المقدسة بالوصفين ، تنبيها على كون كتابه حاوياً للحكم التي لا تحصى ، والعلوم التي لا تنتهي .

(١) مرّ تفسيرها في الطرفة (١٨) من مقدمة التفسير .

(٢) في النسخة : لا يطرأه النسخ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ١٨٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ١٧٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٩٠ .

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) وَ (٤)﴾

ثمَّ بيّن سبحانه أنّ إنزال هذا الكتاب الذي هو أفضل الكتب السماويّة لأجل ﴿أَلَا تَعْبُدُوا﴾ أيّها الناس شيئاً ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تخضعوا إلّا له. قيل : إنّ كلمة (أن) مفسّرة لمعنى القول (١) المشرب في « فصلت » ، والتقدير : إنّ القول المفصّل فيه أن لا تعبدوا ، أو للأمر ، والمعنى : لتأمر الناس يا محمّد أن لا يعبدوا إلّا الله ، وتقول لهم : ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوّف من عذابه على ترك عبادته ، والتوجّه إلى عبادة غيره ﴿وَوَ﴾ لكم ﴿بَشِيرٌ﴾ بثوابه على عبادته. وإتّما قدّم الإنذار لكونه أدخل في الردع من التبشير .

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ واطلبوا منه ستر ذنوبكم بالتوبة ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ من ذنوبكم ﴿إِلَيْهِ﴾ عن صدق وخلوص. وقيل يعني : استغفروا من الشّرك ، ثم ارجعوا إليه بالطّاعة ، أو توبوا إليه من المعاصي (٢) . إذن ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ ويعيشكم عيشاً رغيداً مرضيًّا ، لا يفوتكم فيه شيء من مشتهيّاتكم ، ولا ينقصه شيء من الكدورات ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وعمركم المقدور ، وموتكم الطّبيعي ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ ومزيّة في الأعمال والأخلاق ، والكمالات العلميّة ﴿فَضْلَهُ﴾ ومزيّته في الجزاء في الدّارين ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وتعرضوا عمّا أدعوكم إليه من التّوحيد والاستغفار والتّوبة ، وتصروا على ما أنتم عليه من الشّرك والعصيان ﴿فَإِنِّي﴾ بمقتضى شفقتي ورحمتي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ وأتوقع في حقكم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شأنه ، عظيم أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة. والقمّي : يعني : الدّخان والصّيحة (٣) .

ثمّ قرّر سبحانه كبر اليوم بقوله : ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده بعد الموت ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومآبكم في ذلك اليوم ؛ فيعاقبكم على أعمالكم ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه تعذيبكم بعد الإماتة والبعث .

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِصُدُورِهِمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾

(١) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٨٤ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣١ .

ثم لما كان مجال للسؤال عما قابلوا النبي ﷺ من القبول والإعراض ، أجاب سبحانه بقوله : ﴿أَلَا﴾ يا أهل العقل تعجبوا من فعلهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ بعد ما سمعوا المقال الذي ينبغي أن تحتر منه صمم الجبال ﴿يَفْتَنُونَ﴾ ويعطفون ﴿صُدُّورَهُمْ﴾ على ما فيها من الكفر وعداوة النبي ﷺ عطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة ﴿لِيَسْتَحْفُوا﴾ من الرسول ، أو من الله ويستتروا ﴿مِنْهُ﴾ لئلا يطلع على ما هم عليه .
عن الباقر عليه السلام : « أخبرني جابر بن عبد الله أن المشركين كانوا إذا مروا برسول الله ﷺ حول البيت ، طأطأ أحدهم ظهره ورأسه - هكذا - وغطى رأسه بثوبه حتى لا يراه رسول الله .
فأنزل الله هذه الآية » (١) .

وروي أنّ طائفة من المشركين قالوا : إذا أغلقنا أبوابنا ، وأرسلنا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وثنيينا صدورنا على عداوة محمد ، فكيف يعلم بنا ؟ (٢)
وعن ابن عباس : أنّها نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السباق للحديث ، يظهر المحبة لرسول الله ، ويضمّر في قلبه ما يضادّها (٣) .
وعن ابن شداد : أنّها نزلت في بعض المنافقين ، كان إذا مرّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه ، وغطى وجهه ، كيلا يراه النبي ﷺ ، قيل : إنّما صنع ذلك لأنّه لو رآه النبي ﷺ لم يمكنه التخلف عن حضور مجلسه ، والمصاحبة معه ، وربّما يؤدّي ذلك إلى ظهور ما في قلبه من الكفر والتّفاق (٤) .

ثم هدّدهم الله بقوله : ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ويغطونها عليهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا يُسْرُونَ﴾ في صدورهم من الكفر ﴿وَمَا يُغْلِنُونَ﴾ ويظهرون بأفواههم من الطعن على النبي ﷺ وكتابه ؛ فيعاقبهم عليه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بذاته ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وضمائر القلوب من الأسرار والنيات التي لا يطلع عليها أحد ، فكيف يخفى عليه ضمائرهم ؟

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي﴾

كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)

ثم أنّه تعالى بعد ما تبيّن على علمه بالضمائر والظواهر ، أكّده ببيان تكفله لأرزاق الحيوانات ، المتوقّف على علمه بأحوالها بقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وحيوان متحرّك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من ظهرها

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢٩٩ / ١٩٨٨ ، الكافي ٨ : ١٤٤ / ١١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣١ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٥ .

(٣ و ٤) . تفسير روح البيان ٤ : ٩٤ .

وتخومها ، ذكرا أو انثى ، صغيرا أو كبيرا ، وحشياً أو أهلياً ، برّياً أو بحرياً ، طائراً أو غير طائر ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الخالق لها ﴿رِزْقُهَا﴾ وما تعيش به ^(١) من الغذاء والشراب وغيرها ، مدّة حياتها ، تفضّلاً وإحساناً ﴿وَيَعْلَمُ﴾ قبل وجوها وبعده ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ ومسكنها في الأرض ﴿وَمُسْتَوْدَعُهَا﴾ ومحلاً تكون مودعة ^(٢) فيه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وما يجري مجراها من البيضة ونحوها .

وقيل : المستقرّ : محلّ التعيش ، والمستودع : محلّ الموت ^(٣) . وقيل : إنّ الأوّل أصلاب الآباء ، والثاني أرحام الأمهات ^(٤) .

ثمّ بالغ سبحانه في علمه بقوله : ﴿كُلُّ﴾ من الدوابّ وأرزاقها ومستقرّها ومستودعها مكتوب ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ واللّوح المحفوظ الذي تظهر فيه جميع المقدّرات لمن ينظر إليه من الملائكة ، والنّفوس المقدّسة .

في (نهج البلاغة) : « قسّم أرزاقهم ، وأحصى آثارهم وأعمالهم ، وعدد أنفاسهم ، وخيانة أعينهم وما تخفي صدورهم من الضمير ، ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظهور ، إلى أن تتناهى بهم الغايات » ^(٥) .

روي أنّ موسى عليه السلام عند نزول الوحي إليه ، تعلّق قلبه بأحوال أهله ، فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة ، فانشقّت وخرجت صخرة ثانية ، ثمّ ضرب بعصاه عليها فانشقّت وخرجت صخرة ثالثة ، ثمّ ضربها بعصاه فانشقّت وخرجت منها دودة كالذرة ، وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ، ويسمع كلامي ، ويعرف مكاني ، ويذكرني ولا ينساني ^(٦) .

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُبْلِغَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧)

ثمّ أشار سبحانه إلى علّة إحاطة علمه بجميع الموجودات ؛ وهي قيموميته عليها بقوله ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي﴾ بقدرته ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما بينهما ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قد مرّ تفسيره ^(٧) .

(١) في النسخة : وما يعيش بها .

(٢) في النسخة : يكون مودعا .

(٣) و (٤) . تفسير روح البيان ٤ : ٩٦ .

(٥) نهج البلاغة : ١٢٣ الخطبة ٩٠ .

(٦) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٦ .

(٧) تقدّم في الآية (٥٤) من سورة الأعراف ، والآية (٣) من سورة يونس .

ثم بالغ سبحانه في إظهار قدرته بقوله : ﴿وَكَانَ﴾ قبل خلقها ﴿عَرْشُهُ﴾ وسرير سلطنته ؛ مع كونه أعظم الأشياء ، مستقراً ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ الذي لا يستقرّ عليه الثَّقِيل ، وهو تعالى بقدرته التي لا حدّ لها أمسكه عليه بغير عمد.

روي عن النبي ﷺ : « كان الله ولم يكن معه شيء ، وكان ^(١) عرشه على الماء » ^(٢) .
أقول : في اقتران القضيّتين دلالة على أنّ المراد بالعرش والماء غير معناهما الظاهر ، وإلاّ لنافت القضية الاولى.

وعن كعب الأحبار : خلق الله تعالى ياقوتة خضراء ، فنظر إليها بالهيبة ، فصارت ماء يرتعد من مخافة الله ، ثم خلق الرّيح فجعل الماء على متنها ، ثم وضع العرش على الماء ^(٣) .
القمّي رحمه الله : كان [ذلك] في مبدأ الخلق ^(٤) . [وكان عرشه على الماء و] الماء على الهواء ، والهواء لا يحدّ ، ولم يكن يومئذ خلق غيرهما ، والماء عذب فرات ^(٥) .
أقول : يمكن أن يكون المراد من العرش : الوجود المنبسط الذي يعبر عنه بنفس الرحمن ، ومن الماء : علمه تعالى بعلاقة كونهما سبب حياة كلّ شيء.

وعن الباقر عليه السلام : « أنّ الله عزّ وجلّ ابتدع الأشياء كلّها بعلمه على غير مثال كان قبله ، فابتدع السّماوات والأرضين ؛ ولم يكن قبلهنّ سماءات ولا أرضون ، أما تسمع لقوله تعالى : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؟﴾ ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فقال : « ما يقولون [في ذلك] ؟ » قيل : يقولون إنّ العرش كان على الماء ، والربّ فوقه. فقال : « كذبوا ، من زعم هذا فقد صيرّ الله محمولاً ووصفه بصفة المخلوقين ، ولزمه أنّ الشيء الذي يحمله أقوى منه » . ثمّ قال : « إنّ الله حمّل دينه وعلمه الماء ، قبل أن تكون سماء أو أرض ، أو جنّ أو إنس ، أو شمس أو قمر » ^(٧) .

أقول : يحتمل أن يكون علمه مبتدأ ، والماء خبره ، والمعنى أنّ العرش دينه ، والماء علمه. ويمكن أن يكون المراد من الماء : الأئمة المعصومين وأشباههم ، والمعنى : حمّل دينه وعلمه النبي ﷺ وأوصيائه. والحاصل أنّ هذه الروايات من المتشابهات التي يجب ردّ علمها إليهم عليهم السلام .
ثمّ بيّن سبحانه حكمة الخلق بقوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويعامل معكم معاملة الممتحن لأحوالكم بعد

(١) في تفسير الرازي ثم كان.

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٢ .

(٥) تفسير القمي ٢ : ٦٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٢ .

(٦) الكافي ١ : ٢٠٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٢ .

(٧) الكافي ١ : ١٠٣ / ٧ ، التوحيد : ٣١٩ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٢ .

خلق هذه الدار ، وإسكانكم فيها ، والإنعام عليكم بفنون النعم ، وتكليفكم وتعريضكم للثواب والعقاب ﴿إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

روي أنّ المعنى : تمتاز درجات أفرادكم في العلم والمعرفة والعقائد الحقّة ، وتبين مراتب أعمالكم الجوانحيّة والجوارحيّة ؛ فيجازيكم حسب استحقاقكم.

روي عن النبي ﷺ ، « يعني : أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله »^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « ليس يعني أكثركم عملا ، ولكن : أصوبكم عملا ، وإتّما الإصابة خشية الله والنّية الصادقة »^(٢) .

ثمّ لما كان لازم الابتلاء بالتكاليف وجود عالم آخر للحساب والجزاء ، وبخّ المشركين على إنكاره بقوله : ﴿وَلَيْنَ قُلْتِ﴾ يا محمد للنّاس : ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ لجزاء أعمالكم ، مستدلا على صحّة قولك بالقرآن النّاطق ، الذي هو أعظم معجزاتك ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم : ﴿إِنْ هَذَا﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشعبذة ظاهرة ، أو ما قولك هذا إلّا خديعة باطلة مثل السّحر الظّاهر .

وقيل : إنّ وجه تعلّق الآية بما قبلها ، أنّ البعث لما كان خلقا جديدا ، كأنّه تعالى قال : هو الذي خلق جميع الموجودات ابتداء لهذه الحكمة ، ومع ذلك إن أخبرتهم بأنّه تعالى يعيدكم تارة اخرى ، يقولون ما يقولون ، مع أنّ الإعادة أهون من الابتداء^(٣) .

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ

لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨)

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية تكذيبهم الرّسول ، حكى استهزاءهم بوعده بالعذاب بقوله : ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الذي وعدتهم به ﴿إِلَى أُمَّةٍ﴾ وطائفة من الأيام ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ وقليلة. القمّي : عن أمير المؤمنين عليه السلام : يعني به الوقت^(٤) . وقيل يعني : إلى انقراض جماعة قليلة من المتوعّدين بالعذاب^(٥) ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء بوعيدك ﴿مَا﴾ ذا ﴿يَحْسِبُهُ﴾ وأيّ مانع يمنعه من التّزول علينا.

ثمّ ردّهم سبحانه بقوله : ﴿أَلَا يَوْمُ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب الموعود ، وحنّ حينه ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ ومدفوعا ﴿عَنْهُمْ﴾ البتّة ، بل وقع عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب. وإتّما أخبر بصيغة الماضي ، تنبيها على تحقّق وقوعه ، ومبالغة في التّهديد.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٠٠ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٣٣ .

(٢) الكافي ٢ : ١٣ / ٤ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٣٢ .

(٣) تفسير أبي السّعود ٤ : ١٨٨ .

(٤) تفسير القمّي ١ : ٣٢٣ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٣٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ١٨٩ .

عن القمّي : يعني : إن متّعناهم في هذه الدّنيا إلى خروج القائم ؛ فردّهم ونعدّهم ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَخْبِسُهُ﴾ أي يقولون : ألا يقوم القائم ، ألا يخرج ؟ على حدّ الاستهزاء ^(١) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « الامة المعدودة أصحاب القائم الثلاثمائة وبضعة عشر » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « هو القائم وأصحابه » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ يعني عدّة كعدة بدر ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قال : العذاب ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « أصحاب القائم الثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، هم والله الامة المعدودة التي قال الله في كتابه » ، وتلا هذه الآية. الخبر ^(٥) .

﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ * وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ

نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهٍ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ (٩) و (١٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد الإخبار بتحقّق العذاب على المستهزئين ، بيّن شدّة كفرهم في حال الشّدّة والرخاء بقوله : ﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وأعطيناه نعمة من صحّة وجدة وأمن وغيرها ، بحيث يجد أقلّ قليل من لذّتها وطعم حلاوتها ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾ وسلبناها ﴿مِنْهُ﴾ مع شدّة تعلّقه بها وحرصه عليها ، بسبب عصيانه وشؤم نفسه ﴿إِنَّهُ لَكُفُورٌ﴾ من تلك النّعمة ، وشديد القنوط من روحه ، ومنقطع الرّجاء من عود النّعمة إليه ، لاعتقاده أنّ سبب النّعمة اتّفاقي ، فإذا انعدم يبعد عوده ، وهو حين وجوده ﴿كُفُورٌ﴾ لتلك النّعمة لا يؤدّي شكرها ، لعدم اعتقاده أنّها من الله ﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءً﴾ من الصّحة والراحة والأمن وغيرها ﴿بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهٍ﴾ ونقلناه من الشّدّة إلى الرّخاء ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ غرورا بدوام تلك النّعم : ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ وزال المصائب والمضارّ ﴿عَنِّي﴾ فلا تعود إليّ أبدا ، إذن ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ﴾ وبطر بتلك النّعم ، و﴿فَخُورٌ﴾ على التّاس بها ، مشغول عن القيام بشكرها ، لكون الدّنيا أكبر همّه ، والفوز بسعادتها أعظم مطالبه.

وفي التّعبير ، عن نيل النّعم بالدّوق ؛ الذي هو إدراك الطّعم ، وعن الابتلاء بالضّرّاء بالملسّ ؛ الذي هو مبدأ الوصول ، إشعار بأنّ ما يجده الإنسان في هذا العالم انمّودج لما يجده في الآخرة. وفي إضافة الأوّل إلى ذاته المقدّسة دون الثّاني ، تنبيه على أنّ الخيرات بتفضّله ، والشّرور بسيّئات الأعمال.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٣ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٠١ / ١٩٩٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٠١ / ١٩٩٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٣ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٠١ / ١٩٩٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٣ .

عن القمّي رحمه الله قال : إذا أغنى الله العبد ثم افتقر ، أصابه الإياس والجزع والهلع ^(١) .

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١١) و (١٢)

ثم بيّن حال المؤمنين الصّابرين بقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في البلياء والشّدائد ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عند النّعمة والراحة شكراً ﴿أُولَئِكَ﴾ الصّابرون الشّاكرون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ للدّنوب ، ونجاة من الشّدائد الآخرويّة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وثواب عظيم ، والنّعم الدّائمة بما صبروا في الدّنيا على البلياء ، وشكروا للنّعم.

ثم لما كان المشركون يكذبون القرآن ويستهنئون به ، بحيث كان يضيق صدر النبي ﷺ أن يبلغ إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، هيجه الله سبحانه لأداء الرّسالة ، وعدم المبالاة باستهزائهم به بقوله : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ للقيام بوظيفة الرّسالة ، ويتوقع منك أن لا تبلغ ﴿بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ من الآيات الدّالة على صدق نبوّتك ، المناادية بأنّها من عند الله ، أو ممّا يخالف رأي المشركين كإبطال مذهبهم ، وذمّ آلهتهم وسبّها ، وإلزامهم بترك تقليد آبائهم ﴿وَضَائِقٌ﴾ بتبليغه قلبك ، وعارض لك ﴿بِهِ﴾ من الغمّ ما لا يسعه ﴿صَدْرُكَ﴾ مع أنّك أفسح النّاس صدرا ، وأصرهم في جنب الله ، وكان ذلك لأجل ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ تكديبا لك واستهزاء بك ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ﴾ إليه ، وهلاّ القي ﴿عَلَيْهِ﴾ من السّماء ﴿كَنْزٌ﴾ ومال وافر ينفقه في اموره واستتباع النّاس له كالمملوك ، ويستدلّ به على صدقه ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ من الملائكة يصدّقه في دعوى رسالته ، ويعينه على عدوّه.

قيل : إن القائل عبد الله بن اميّة المخزومي ^(٢) .

وعن ابن عباس رضی الله عنه : أنّ رؤساء مكّة قالوا : يا محمّد ، اجعل لنا جبال مكّة ذهبا إن كنت رسولا . وقال آخرون : آتينا بالملائكة حتّى يشهدوا على نبوّتك ، فقال : لا أقدر على ذلك . فنزلت ^(٣) ، فردّهم الله بقوله : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ومأمور من قبل ربّك لوعظ النّاس ، وتخويفهم من الشّرك والعصيان ، بتلاوة ما أوحى إليك من القرآن عليهم ، غير مبال بتكذيبهم وردّهم ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ﴿وَكِيلٌ﴾ وحفيظ ؛ فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء ، فتسلّ ولا يضيق صدرك.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ١٩١ .

(٣) تفسير الرازي ١٧ : ١٩٢ ، تفسير أبي السعود ٤ : ١٩١ .

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « أَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَزَلَ قَدِيدًا ^(١) قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُوَالِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَفَعَلَ ، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُؤَاحِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَفَعَلَ ، وَسَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْعَلَ وَصِيِّي فَفَعَلَ . فَقَالَ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ : وَاللَّهِ لَصَاعٌ [مِنْ] تَمَرٍ فِي شَرِّ ^(٢) بَالٍ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ، فَهَلَّا سَأَلَ رَبَّهُ مُلْكًا يَعْضُدُهُ عَلَى عَدُوِّهِ ، أَوْ كَنْزًا يَسْتَعْنِي بِهِ عَنْ فَاقَتِهِ ، وَاللَّهِ مَا دَعَاهُ إِلَى حَقِّ أَوْ بَاطِلٍ إِلَّا أَحَابَهُ إِلَيْهِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ...﴾ الآية » ^(٣) .

وزاد العياشي : « ودعا رسول الله ﷺ لأُمير المؤمنين عليه السلام في آخر صلاته رافعا بها صوته : اللهم هب لعلِّي المودّة في صدور المؤمنين ، والهيبه والعظمة في صدور المنافقين . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ^(٤) فقال رمع : والله لصاع [مِنْ] تَمَرٍ فِي شَرِّ بَالٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا سَأَلَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ ، أَفَلَا سَأَلَ رَبَّهُ مُلْكًا يَعْضُدُهُ ، أَوْ كَنْزًا يَسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى فَاقَتِهِ . فَأَنْزَلَ فِيهِ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ هُودٍ أَوَّلُهَا : ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية » ^(٥) .

عن العياشي : عن زيد بن أرقم ، قال : إِنَّ جَبْرِئِيلَ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِوَلَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، فَضَاقَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خِيفَةً تَكْذِيبَ أَهْلِ الْإِفْكَ وَالتَّفَاقُ ، فَدَعَا قَوْمًا أَنَا مِنْهُمْ ، فَاسْتَشَارَهُمْ فِي ذَلِكَ لِيَقُومَ بِهِ فِي الْمَوْسَمِ ، فَلَمْ يَنْدِرْ مَا نَقُولُ لَهُ ، وَبَكَى فَقَالَ لَهُ جَبْرِئِيلُ : يَا مُحَمَّدُ ، أَجَزَعْتَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « كَلَّا يَا جَبْرِئِيلُ ، وَلَكِنْ قَدْ عَلِمَ رَبِّي مَا لَقِيتُ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ لَمْ يَقْرَؤُوا لِي بِالرَّسَالَةِ حَتَّى أَمْرِي بِجِهَادِهِمْ ، وَأَهْبَطَ إِلَيَّ جُنُودًا مِنَ السَّمَاءِ فَنَصْرُونِي ، فَكَيْفَ يَقْرَؤُونَ لِعَلِّي بَعْدِي ؟ » فَانْصَرَفَ عَنْهُ جَبْرِئِيلُ ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية ^(٦) .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣)﴾

ثمّ ضرب سبحانه عن ذكر عدم اعتنائهم بالوحي ، وتهاوّنهم به ، واقتراحهم عليه ، وذكر ما هو أشدّ قبحا وهو نسبة القرآن إلى الافتراء بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قيل المعنى : بل يقولون ^(٧) في شأن القرآن عنادا ولجاجا : إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَنُسَبَهُ كَذِبًا إِلَى اللَّهِ ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي

(١) قديد : اسم موضع قرب مكة .

(٢) الشَّرِّ : القرية الصغيرة يوضع فيها الماء ليبرد .

(٣) الكافي ٨ : ٣٧٨ / ٥٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٤ .

(٤) مريم : ١٩ / ٩٦ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٢ / ١٩٩٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٥ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٠١ / ١٩٩٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٥ .

(٧) تفسير أبي السعود ٤ : ١٩١ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٠٥ .

جوابهم تعجيزا لهم : إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا﴾ أنتم أيضا ؛ مع كونكم مهرة فنّ الكلام ، وحذقة صناعة الفصاحة والبلاغة ، ممارسين الخطب والأشعار ، مزاولين أساليب النظم والنثر ، مطلعين على الوقائع والأيام ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة ، والحلاوة وحسن النظم ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ ومختلقات من عند أنفسكم ﴿وَادْعُوا﴾ للاستظهار في المعارضة ، وترتيب السور المختلفة ﴿مِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ دعاء والاستعانة به من آهتكم التي تستمدون بها في أموركم ، والكهنة الذين تلتجئون إليهم في مهماتكم ، وكلّ من ترجون منه مساعدتكم ، حال كونكم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومنحازين عنه تعالى ، لأنّه القادر على ذلك دون غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى أيّ افتريته ، فإنّ ذلك يستلزم أن يقدر غيري من البشر على إتيان مثل هذا القرآن ، ولا أقلّ من سور قليلة منه .

﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ﴾

﴿مُسْلِمُونَ﴾ (١٤)

ثمّ خاطب سبحانه رسوله ﷺ بصيغة الجمع تعظيما له ، أو إتياء مع المؤمنين بقوله : ﴿فَالَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ هؤلاء الكفار المكذّبون ﴿لَكُمْ﴾ ولم يقدروا على إتيان ما سألتموه منهم ، مع شدّة حرصهم على إبطال قولكم ، وإظهار افتراءكم ، وتبيّن عجزهم عن المعارضة ، ولو مع الاستعانة بغيرهم من الإنس والجنّ ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أنّ إتيان مثله خارج عن طوق البشر وغيره من المخلوقين ، و﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ﴾ من القرآن انزل ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وقدرته الكاملة خاصّة من دون دخل غيره فيه . واثبتوا على الإيمان به . وفي التعبير عن الإتيان بالمثل بالاستجابة إشعار بل دلالة على أنّ النبي ﷺ بل والمؤمنين يأمرؤهم بالإتيان بمثله ، ودعوههم إليه مع إرادتهم منهم وقوعه ، مع علمهم بعجزهم منه . ثمّ لما ثبت كون القرآن الناطق بالتوحيد وبطلان الشّرك ، نازلا من عند الله ، ثبت أنّ الشّرك فاسد ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ أيّها المؤمنون بعد وضوح صحّة مذهب التّوحيد ، وصدق النّبيّ في دعوى النّبوة ، وصدق كتابه ﴿مُسْلِمُونَ﴾ عن صميم القلب ، مخلصون في الإيمان . وقيل : إنّ ضمائر الجمع في الآية كلّها راجع إلى المشركين ، والمعنى : إن لم يستجب لكم آهتكم في الإعانة على المعارضة ، فاعلموا أيّها المشركون أنّ هذا القرآن أمّا انزل بعلم الله ، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد لزوم الحجة عليكم ، أم تصرّون على الشّرك والكفر عنادا ولجاجة ؟

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا

يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا

وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) و (١٦)

ثم لما كان غرض الكفار - من معارضة النبي ﷺ ، وتكذيب القرآن ، واقتراحهم عليه بجعل جبال مكة ذهباً ، وتغييره بعدم نزول كنز عليه - طلب الدنيا وحب زخارفها ، لا طلب الحق والآخرة ، هددهم بغاية الخسران ، وعذاب التيران في الآخرة بقوله : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ ويطلب ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وزخارفها بأعماله الخيرية ﴿نُوفَّ إِلَيْهِمْ﴾ ونعطهم كاملاً ما يساوي ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ من الأجر الدنيوي ﴿فِيهَا﴾ لأنَّ همهم مقصورة على تحصيل الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ولا ينقصون شيئاً من أجورهم ، بحيث إذا خرجوا منها لم يكن معهم أثرها ، حتَّى لا يستحقُّون شيئاً من الثواب الموعود عليها في الآخرة ﴿أُولَئِكَ﴾ الطَّالِبُونَ للدنيا هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ لعدم لياقتهم إلَّا لها ﴿وَحِطَّ﴾ وفسد ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ من الأعمال الصالحة ، لعدم كونها لوجه الله ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ رياء وسمعة ، لعدم صلوحه في نفسه لترتيب الأجر عليه.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا

وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ

فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

ثم أنَّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار في الآخرة وغاية خسرافهم ، وضعة محلهم ، بيّن حسن حال النبي ﷺ والمؤمنين ، ورفعة مقامهم ، بإنكار التساوي بينهما بقوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ﴾ قادراً ومستولياً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحيطة واضحة كائنة ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ على صحة دينه ، وبرهان على كلِّ حق وصواب ، ويتبع ذلك البرهان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أو يتبع ذلك الذي كان على بيّنة ﴿شَاهِدٌ﴾ ومصدق ﴿مِنْهُ﴾ يشهد له على صدقه ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ تشهد له التوراة التي هي ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ حال كونه ﴿إِمَامًا﴾ وتبعاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ ونعمة للناس ، كمن يريد الكفر والضلال طلباً للدنيا وزينتها ، لا يكون ذلك أبداً ، فكيف وبينهما بون بعيد ؟ وقيل : إنَّ وجه التّظلم بين الآيتين وسابقتهما ، أنَّه لما أمر الله المؤمنين بأن يزدادوا يقيناً بنزول القرآن بعلم الله ، بعد ظهور عجز البشر عن الإتيان بمثله ، وبيّن أنَّ الكفار لا حظَّ لهم في الآخرة ، كان مجال توهم الحظَّ لهم فيها بسبب الأعمال الخيرية ، دفع الله ذلك التوهم بقوله : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا...﴾ الآية (١) ، ثم عاد سبحانه إلى التَّغْيِيبِ في الإيمان بالقرآن والتَّوْحِيدِ والإسلام بقوله : ﴿أَفَمَنْ
كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾

ثمَّ أنّه قد كثر الاختلاف بين مفسّري العامّة في المراد من الآية ، فمنهم من قال : إنّ المراد من من ﴿كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ هو النبيّ ، ومن البينة هو القرآن ، ومن التلاوة قراءة القرآن ، ومن الشاهد جبرئيل (٢) ، وقيل : لسان النبيّ ﷺ (٣) ، وقيل : معجزاته (٤) ، وقيل : هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ؛ كما نقله الفخر الرازي ، وقال : المراد بكلمة (منه) تشريف الشّاهد بأنّه بعض [من] محمّد ﷺ (٥) ، فيكون حاصل المراد : أنّ النبيّ ﷺ على بَيِّنَةٍ عظيمة على نبوّته ، وصحّة دينه وهي القرآن ، ويتلوه ويقرأه أمير المؤمنين عليّ الذي هو جزء من محمّد ﷺ ، وبمنزلة نفسه.

وروى العلامة في (نهج الحق) ، عن الجمهور : أنّ من ﴿كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ رسول الله ﷺ ، والشاهد عليّ عليه السلام (٦) .

وقال القاضي في (إحقاق الحق) ، بعد نقل إنكار فضل بن رزيحان الناصبي كونه من تفاسير أهل السنة : إنّ ما نسب المصنّف روايته إلى الجمهور ، قد رواه ابن جرير الطّبري ، وذكره الثّعلبي ، وكذا الحافظ أبو نعيم بثلاثة طرق عن عبد الله بن عبد الله الأسدي ، والفلكي المفسّر عن مجاهد وعن عبد الله بن شدّاد ، وغيرهم من قدماء أهل السّنة ، ومن المتأخّرين فخر الدّين الرازي ، ثمّ نقل عبارة الفخر التي ملخصها ما ذكرنا.

ثمّ قال القاضي : ولا ريب أنّ شاهد النبيّ ﷺ على امّته يكون أعدل الخلائق سيّما إذا تشرّف بكونه بعضا منه ﷺ كما ذكر الرازي ، فكيف يتقدّم عليه غيره ؛ مع كون ذلك الشّاهد من النبيّ ﷺ ، لأنّ (من) هاهنا لتبيين الجنس ، فيؤذن بأنّ عليّ بن أبي طالب من جنس الرّسول ﷺ وقوله : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فيه بيان لكون عليّ عليه السلام تالي الرّسول من غير فصل بينهما بتال آخر ، فمن جعله تاليا بعد ثلاثة فعليه الدّلالة ، لأنّ التّالي هو من يلي غيره على أثره من غير فصل بينهما (٧) .

أقول : الظّاهر أن (من) للتّبعية - كما ذكره الفخر - ودلالته على فضل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أقوى من كون (من) لتبيين الجنس ، وكون عليّ عليه السلام بعضا من الرّسول ﷺ لكونه نفسه ، كما دلّت عليه آية المباشرة ، فما دام كون نفس النبيّ - التي هي بعض مجموع من نفسه وبدنه - موجودا بين النّاس ، كان

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ١٩٤ .

(٢) و (٣) . تفسير الرازي ١٧ : ٢٠١ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ١٩٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ٢٠١ .

(٦) نهج الحق : ١٩٥ .

(٧) إحقاق الحق ٣ : ٣٥٧ و ٣٥٨ .

النبي موجودا بينهم ، فلا معنى لرجوع الناس إلى غيره.
ولو قلنا أنّ (يتلو) مأخوذ من تلاوة القرآن وقراءته - كما ذكره الفخر - فمعناه أنّه كالرسول
ومنزله في تبليغ كتاب الله إلى الأمة ، فيكون مفاده مفاد قوله ﷺ : « أنت مّي بمنزلة هارون من
موسى » .

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ما من رجل من قريش إلّا وقد انزلت فيه آية أو آيتان من كتاب الله .
فقال رجل من القوم : فما نزل فيك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أما تقرأ الآية التي هي في هود ﴿أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ محمد على بيته من ربه ، وأنا الشاهد » (١) .

وفي (الأمالي) : « وأنا الشاهد ، وأنا منه » (٢) .

وفي (البصائر) : « وأنا الشاهد له فيه ، وأنا أتلوه معه » (٣) .

وفي (الاحتجاج) ، أنّه سئل عن أفضل منقبة له ، فتلا هذه الآية وقال : « أنا الشاهد من
رسول الله ﷺ » (٤) .

وفيه ، في حديث : قال له بعض الزنادقة : وأجد الله يخبر أنّه يتلو نبيّه شاهد منه ، وكان الذي
تلاه عبدة الأصنام برهة من دهره. فقال : « وأما قوله : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ فذلك حجة الله ، أقامها
الله على خلقه ، وعرفهم أنّه لا يستحقّ مجلس النبيّ إلّا من يقوم مقامه ، ولا يتلوه إلّا من يكون في
الطهارة مثله ومنزله ، لئلا يتسع من مسّه رجس الكفر في وقت من الأوقات ، انتحال الاستحقاق لمقام
الرسول » . الخبر (٥) .

وعن الكاظم والرضا عليه السلام : أمير المؤمنين ؛ الشاهد على رسول الله ، ورسول الله على بيته من
ربه » (٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « إنّما انزل ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إماما ورحمة ﴿وَمِنْ
قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ » (٧) .

أقول : هذه الرواية محمولة على أنّ قوله : ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ حالان للشاهد ، لوضوح عدم
التحريف في الكتاب المجيد.

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٣ / ١٩٩٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

(٢) أمالي الطوسي : ٣٧٢ / ٨٠٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

(٣) بصائر الدرجات : ١٥٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

(٤) الاحتجاج : ١٥٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

(٥) الاحتجاج : ٢٤٥ و ٢٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٨ .

(٦) الكافي ١ : ١٤٧ / ٣ عن أبي الحسن عليه السلام ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٢٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٧ .

وقيل : إنّ المراد من من ﴿كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ أصحاب النبي ﷺ ومن (البينة) القرآن ، ومن (الشاهد) النبي ﷺ (١) .

وقيل : إنّ الشاهد اشتمال القرآن على أعلى مرتبة الفصاحة والبلاغة ، بحيث لا يقدر البشر على إتيان مثله (٢) .

عن الحسين بن عليّ ؑ : « الشاهد من الله محمد ﷺ » (٣) .

وقيل : إنّ المراد من من ﴿كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ مؤمنو ٩ أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه (٤) ، واستشهدوا له بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون بكونهم على بينة على الدين الحق من مذهب التوحيد والإسلام ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حقّ الإيمان ، لتوافق البرهان ونصّ القرآن المشتمل على إعجاز البيان ، ودلالة توراة موسى بن عمران على صحته ، وصدق النبيّ الجائي به ، ولذا بلغ في القوة والظهور إلى ما لا مزيد عليه .

ثمّ هدّد سبحانه الكافرين بالقرآن بقوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ ويجحده ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ والقبائل من أهل مكّة ، الذين تحزّبوا واجتمعوا على إبطال الحق وإطفاء نور الرّسول ، أو المراد حزب أهل الكتاب ، وحزب المشركين ، وحزب المنافقين ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يوم القيامة حسبما وعدهم الله بقوله : ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾

ثمّ بالغ سبحانه في تأكيد صدق القرآن ، أو صدق الوعيد المذكور بقوله : ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمد ، أو يا إنسان ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشكّ ﴿مِنْهُ﴾ بعد ظهور صدقه ، وكونه من عند الله بالشواهد المذكورة ، أو بعد وضوح كون الكافرين بالقرآن من أعداء الله ، ومن المتوعّدين بالنار . وعن الصادق ؑ : ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ من ولاية عليّ ؑ « (٥) إِنَّهُ الْحَقُّ » الثابت ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ اللّطيف بك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقصور عقولهم ونظرهم ، أو لعنادهم ولجاجهم .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ

الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾

ثمّ قيل : إنّ بعض الكفّار كانوا شديدي الحرص على الدّنيا ، فردّهم الله بقوله : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الآية ، وبعضهم كانوا قادحين في معجزات النبي ﷺ ، فردّهم الله بقوله : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾

(١) و٢ . تفسير الرازي ١٧ : ٢٠٢ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ٢٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ٢٠١ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٣ / ١٩٩٧ .

مِنْ رَبِّهِ ﴿وَبَعْضُهُمْ كَانُوا مُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ بِالْقَوْلِ شِفَاعَةَ الْأَصْنَامِ ، فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عَلَى اللَّهِ ، وَعَلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَنْ أَفْثَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِقَوْلِهِ : هَؤُلَاءِ الْأَصْنَامُ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . لَا وَاللَّهِ ، لَا يَكُونُ أَحَدٌ أَظْلَمَ مِنْهُ ، لِأَنَّ الشَّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ ^(١) .

ثُمَّ هَدَّاهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿أُولَئِكَ﴾ الظَّالِمُونَ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وَيَحْضُرُونَ عِنْدَهُ ﴿وَيَقُولُ﴾ أَهْلُ الْمَوْقِفِ ، أَوِ الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ ، أَوِ الْأَنْبِيَاءُ ، أَوِ الْأَئِمَّةُ الَّذِينَ هُمْ ﴿الْأَشْهَادُ﴾ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَفْضِيحًا لَهُمْ : ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ اللَّطِيفُ بِهِمْ ، الْحَسَنُ بِنِعْمَةِ عَلَيْهِمْ ، الْمَالِكُ لِنَوَاصِيهِمْ بِقَوْلِهِمْ : الْأَصْنَامُ شُرَكَاءُ اللَّهِ فِي الْإِلَوهِيَّةِ ، وَشَفَعَاؤُنَا عِنْدَهُ ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ وَغَضَبُهُ وَعَذَابُهُ ﴿عَلَى﴾ هَؤُلَاءِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ عَلَى اللَّهِ بِالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَعْرِيزِهَا لِلْهَلَاكِ .

رَوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَسْتَرِهِ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ : أَيُّ عَبْدِي ، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ . فَإِذَا أَقَرَّهُ بِذَنْبِهِ قَالَ : فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُكَ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ غَفَرْتُكَ لَكَ الْيَوْمَ ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابُ حَسَنَاتِهِ . وَأَمَّا الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ : ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يَفْضَحُونَهُمْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَيَبَيِّنُونَ أَنَّهُمْ مُلْعُونُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ ^(٢) .

الْقَمِّي : يَعْنِي بِالْأَشْهَادِ الْأَئِمَّةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ آلُ مُحَمَّدٍ حَتِّهِمْ ^(٣) .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٩)

ثُمَّ ذَمَّهُمْ سَبْحَانَهُ بِأَسْوَأِ أَعْمَالِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ بِشِبْهَاتِهِمْ ﴿عَنْ﴾ الدَّخُولِ فِي ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَدِينِ الْحَقِّ وَقَوْلُهُ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ وَيَطْلُبُونَ لَهَا ﴿عِوَجًا﴾ وَانْحِرَافًا ، بِأَنَّهُ يَصِفُوهَا بِالْبَعْدِ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ يَبْغُونَ أَهْلِهَا أَنْ يَنْحَرِفُوا عَنْهَا بِتَعْوِيجٍ دَلَّالٍ لَهَا الْمُسْتَقِيمَةَ . الْقَمِّي : ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ ؛ وَهِيَ الْإِمَامَةُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حَرَّفُوهَا إِلَى غَيْرِهَا ^(٤) .

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ بِالْخُصُوصِ ﴿كَافِرُونَ﴾ لَيْسَ كُفْرُ غَيْرِهِمْ فِي جَنْبِ كُفْرِهِمْ بِشَيْءٍ .

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾

يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ

(١) تفسير الرازي ١٧ : ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ١١٢ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٩ .

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٠) و ﴿٢١﴾

ثم عاد إلى تهديدهم بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ الملعونون ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله ومانيه من تنفيذ إرادته ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بالهرب منه والمدافعة عن عذابه ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومما سوا بعضا ﴿مِنْ أَوْلِيَاءِ﴾ وأنصار ينجونهم من العذاب بالقهر ، فلا حيلة لهم في الخلاص منه ، بل هم لكفرهم بالمبدأ والمعاد ، وجمعهم بين ضلال أنفسهم وإضلال غيرهم ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وقيل : تضعيف العذاب حكمة تأخيرهم عنهم ^(١) .

ثم بين سبحانه علّة شدّة كفرهم وتماديهم في الضلالة بقوله : و ﴿مَا كَانُوا﴾ لفرط تصاممهم عن الحق ، وامتناعهم عن الإذعان بالقرآن الذي طريق تلقّيه السمع ﴿يَسْتَبْطِئُونَ السَّمْعَ﴾ والإصغاء إليه ﴿وَمَا كَانُوا﴾ لشدّة بغضهم للنبي ﷺ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ معجزاته ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ اشتروا الضلالة بالهدى ، وعبادة الأصنام بعبادة الله ، والعذاب بالمغفرة ، فلذا ﴿خَسِرُوا﴾ وأضروا ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ غاية الخسران ، وأشدّ الضرر ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُمْ﴾ في ذلك اليوم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة وشفاعتها . وعن القمي : بطل الذين دعوا [غير] أمير المؤمنين ﷺ ^(٢) .

﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٢) و ﴿٢٣﴾

ثم بالغ سبحانه في الإعلام بغاية خسراهم بقوله : ﴿لَا جَزَمَ﴾ ولا بدّ ، أو لا شكّ ، أو حقّا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ بحيث لا يداينهم أحد في الخسران .

ثم أنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار في الآخرة وغاية خسراهم ، بين حسن حال المؤمنين وكثرة رحمتهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾ وأطمأّنوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ورحمته ، أو خضعوا له ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وملازموها ، و ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبدا لا يخافون الخروج منها .

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ فَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤)

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ١٩٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٣٩ .

ثم أوضح سبحانه سوء حال الكفار وحسن حال المؤمنين ، بضرب المثل بقوله : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق الكفار وفريق المؤمنين وحالهم العجيبة ، ببيان أوضح : أنّ فريق الكفار ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِ﴾ الذي يكون متحيّراً في جميع اموره ، لا يهتدي إلى شيء من مصالحه ومنافعه ﴿وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ﴾ الذي يهتدي إلى كلّ خير ﴿هَلْ﴾ الفريقان ﴿يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وحالا ؟ كلاً ، لوضوح أنّ الأول يتخبط في المسالك ويقع في المهالك ، والثاني يمشي مطمئناً ويهتدي إلى جميع مطالبه إلى أقطار الأرض ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟﴾ قيل : إنّ التقدير : أتعتقلون عن هذا التفاوت بينهما ، فلا تذكرون ؟ أو فلا تتألمون في هذا المثل ، مع أنّ العاقل لا ينبغي له الغفلة وعدم التذكّر. وفي المثل تقرير لعدم التساوي بين من كان على بينة ، وغيره (١) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا نَذِيرٌ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٥) و (٢٨)﴾

في بيان كيفية دعوة نوح ومعارضته قومه

ثم أنّه تعالى بعد تهديد الكفار بالعذاب الاخروي ، ذكر قصّة نوح وهلاك قومه ، عبرة وتهديدا لهم بالعذاب الدنيوي ، وتسليّة للنبي ﷺ بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فقال : يا قوم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ ومخوّف بالعذاب على الشرك والطغيان ﴿مُبِينٌ﴾ لإنداري أكمل بيان ، وموضّح له أوضح تبيان . وقيل يعني : مبين ما أعدّ الله للمطيعين من الثواب (٢) .

ثم بيّن سبحانه كيفية إنذاره ، وما أنذر به بقوله : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولا تشركوا به شيئا ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن خالفتُموني ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ من جهة ما يقع فيه من العذاب ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكانوا ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ في جوابه ، تماديا في الكفر ، وعنادا للحقّ : ﴿مَا نَرَاكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ تأكل وتنام وتمشي ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ وآمن بك ﴿إِلَّا﴾ الصعاليك ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِيَ الرَّأْيِ﴾ وأدانينا ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ وظاهر الأنظار من غير تعمّق ، أو بلا حاجة إليه لوضوحه ، فلا عبرة باتّباعهم لك ، لأنّهم ليسوا بذوي عقل رزين ، ورأي أصيل ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا﴾

(١) تفسير أبي السعود ١ : ١٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ : ٢١٠ .

مِنْ فَضْلٍ وَمَزِيَّةٍ مِنْ حَيْثُ الْعَقْلُ وَالشَّرَفُ وَالْمَالُ ، توجب اختصاصكم بالنبوة ، والقرب من الله ﴿بَلْ نَطْنُكُمْ﴾ جميعا ﴿كَاذِبِينَ﴾ في دعوى التوحيد والنبوة.

﴿قَالَ﴾ لهم نوح بلطف ولين : ﴿بَا قَوْمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني عن عقل وإنصاف ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ في دعوى نبوتي ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ عظيمة ، وحجة واضحة من كمال العلم والمعرفة ، والمعجزة الباهرة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وملكي الذي أرسلني إليكم ﴿وَأَتَانِي رَحْمَةً﴾ عظيمة ، ونعمة جسيمة ﴿مِنْ عِنْدِهِ﴾ وبلطفه وقدرته ، من النبوة والمعجزة ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ واشتبهت حقيقة الأمر ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لسوء أخلاقكم ، وتقولون إنه لم تظهر عندكم نبوتي ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنْكُمْوهَا﴾ ونجركم على قبولها والاهتداء بها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وعنهما معرضون ، لعدم إقبال قلوبكم إليها ، وعدم تأملكم فيها.

وحاصل الجواب : أخبروني إن كانت لي حجة ظاهرة ، وأنتم لا تسلّمون لها لخفائها عنكم ، بسبب حسدكم وعنادكم ، هل نقدر على إلزامكم بقبولها ، مع عدم نظركم إليها ، وعدم تأملكم فيها ، وإعراضكم عنها ؟ كلا ، لا نقدر على ذلك. وفيه إظهار غاية تمرّدهم ، واليأس عن إيمانهم. وقيل : إنّ المقصود صرفهم عن الإعراض ، وحثّهم على التدبّر في حججه ومعجزاته (١) .

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ

آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)﴾

ثمّ لما كان من موجبات الإعراض أو توهم الكذب توهم طمعه في أموالهم ، أعلمهم ببراءته عن الطمع في أموالهم بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إن كان سبب إعراضكم عني ، وتكذيبكم قولي توهم طمعي في أموالكم ، فاعلموا أيّ مأمور من قبل ربّي بتبليغ دينه ، ولذا ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ وإن كان يسيرا ؛ لأنّ عملي ليس لكم حتّى استحقّ عليكم أجره ﴿إِنْ أَجَرِيَ﴾ وما جزاء عملي على أحد ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لأنّي عامل له ، فلا تحرموا أنفسكم عن السعادة في الدارين ، باحتمال طمعي في أموالكم ، وتضرركم بسبب قبول قولي والإيمان بي ، وأمّا اعتراضكم بأن أتباعي الفقراء وأداني الناس ، فلا وقع له ، لأنّي رسول الله إلى الناس ، وإنّما غرضي هدايتهم ، ولذا لا يتفاوت في نظري كون المهتدي غنيا أو فقيرا ، شريفا أو ضيعا ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيّته من مجلسي ومن حولي ، وإن كانوا أفقر خلق الله وأردلهم ، حيث ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ، فيشكون إليه طاردهم ويخاصمونهم.

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٠١ .

أو المراد : كيف أطردهم ، مع أنهم أعظم الناس قدرا ، وأعلاهم منزلة ؟ لأنهم ملاقو ربهم ، والفائزون بقرب مليكهم ، بسبب إيمانهم وحسن عملهم. ثم أنتم ترون أنفسكم أعقل وأعلم مني ومنهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ بالواقعيات ، وما وراء المحسوسات ، وعواقب الأمور ، وتغترن بالظواهر لقصور نظرهم ، وعدم تدبركم ، ولذا تدعون أنهم أرذل الناس وتسالون طردهم.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣٠) و (٣١)﴾

ثم بالغ في الاعتذار عن عدم طردهم بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ وينجيني ﴿مَنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهُ﴾ ويدفع عني عقابه ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ وأبعدتهم من حولي ، مع أنني مأمور بتقريبهم وإكرامهم ؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن هذا أبلغ الإعذار في ترك طردهم ؟

ثم لما كان في قوله : ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ إيهام بغناه المطلق ، وفي دعوى رسالته إيهام بكونه ملكا في اعتقاد القائلين بأنه بشر ، وفي قوله : إني ﴿أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ إيهام بكونه عالما بالبواطن والمعيات ، وفي قوله : ﴿مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيهام بكونه عالما بما في أنفسهم من الخلوص في الإيمان ، وكل ذلك كان موردا لتكذيبهم ؛ لغاية استبعاده في نظرهم ، دفع جميع التوهمات بقوله : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ ويبيدي مفاتيح كنوزه ، ولي الغنى المطلق ، حتى يتحدثوا ذلك وتقولوا : ﴿مَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فإن النبوة لا تنال بالمال والجاه ﴿وَلَا﴾ أقول : إني ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ حتى تستبعدوه مني ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من الملائكة ، حتى تكذبوني وتقولوا : ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ﴾ فإن البشرية من مبادئ النبوة لا من موانعها ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ وتستزدلوهم في أنظاركم : ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تقولون ذلك في شأنهم ، أو آتاهم جميع الخيرات بخلوص إيمانهم. وإنما أنظر أنا بظاهر حالهم ومقالمهم ، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الخلوص والتفان ﴿إِنِّي إِذَا﴾ واللَّهُ ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ على نفسي بادعاء ما ليس لي ، وعلى المؤمنين بطردهم وتحقيرهم.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٢) و (٣٣)﴾

فلما ردّ نوح شبههم ، وألزمهم بالحجج والبيّنات الواضحة ، ضاقت عليهم الحيل و﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ وخاصمتنا في إثبات نبوتك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ وأطلته حتى مللتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب العاجل ، عى ترك إيماننا بك ، وما ادّعت من التوحيد ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ في دعوى نبوتك ووعيدك ، فإنّ مواعظك ومناظرتك لا تؤثر فينا ﴿قَالَ﴾ نوح : أنا لا أقدر على إتيان العذاب ، بل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إتيانه عاجلا أو آجلا ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ له ومانعيه من تعذيبكم بالهرب والدّفاع.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ﴾

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾

ثمّ نبّههم بكونه ناصحا لهم لا مجادلا ، وأظهر يأسه عن إيمانهم متأسفا عليهم بقوله : ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ﴾ ولا يؤثر فيكم ﴿نَصْحِي﴾ وموعظتي ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ﴾ وأرشدكم بما فيه خيركم ، وأزجركم عما فيه ضرركم وشركم ، لا تسمعوا قولي ، ولا تعتنوا إلى نصحي ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ ويضلّكم عن صراط الحقّ لخبث طينتك وسوء اختياركم وإعمالكم له ذلك ، إذ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومالك أمركم ، العالم بطينتك وسوء أخلاقكم وأعمالكم ، حيث إنّهُ خلقكم أولا ، وربّاكم في مدّة عمركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ آخرا ؛ فيجازيكم بما تستحقّون.

عن الرضا عليه السلام : « يعني : الأمر إلى الله يهدي من يشاء » (١) .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد حكاية محاكمة نوح مع قومه - التي [هي] من الأخبار الغيبية بالنسبة إلى النبيّ الاُمّي ، والدلائل الواضحة على صدق القرآن - وبّخ المشركين بنسبة الافتراء إليه بقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المشركون في شأن القرآن العظيم : إنّ محمّدا ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه من عند نفسه ﴿قُلْ﴾ يا محمّد هؤلاء المعاندين المصّرّين على الكفر واللّجاج : ﴿إِنْ افْتَرَيْتُهُ﴾ كما تقولون ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ وعقوبة ذنبي ، وإن كنت صادقا في نسبة القرآن إلى ربّي ؛ وأنتم تكذبوني ، فعليكم عقاب ذنبكم ووبال جرمكم ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إسناد الافتراء إليّ ، فلا وجه لمعادتكم لي.

وقيل : هذه الآية تتمّة قول نوح ، والضّمير المنصوب في ﴿افْتَرَيْتُهُ﴾ راجع إلى الوحي الذي ادّعا

(٢) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٤ / ٢٠٠٢ ، وفيه : يهدي ويضلّ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٧ / ٢٢٠ .

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

ثم لما كان يعس نوح عليه السلام من إيمان معارضيه دون غيرهم من الكفار ومن في أصلاهم ، أخبره سبحانه بعدم إيمان الموجودين في عصره ، ولا من في أصلاهم أبدا بقوله : ﴿وَأُوحِيَ﴾ من قبل الله ﴿إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ﴾ ومن في أصلاهم أحد أبدا ﴿إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ بك ، فلا تحمل في حقهم وفي حق نسلهم الإيمان ، ثم أنهم إن عصوك وكذبوك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من العصيان والإيذاء ، وبما كانوا يرتكبون من التكذيب والاستهزاء ، لأنه قد انتهت مدة إمهالهم ، وقربت ساعة مجازاتهم.

عن النبي ﷺ : « أن نوحا [كان] إذا جادل قومه ضربوه حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : اللهم اهد قومي فاهم لا يعلمون » (١) .

قيل : لما جاء هذا الوحي ، دعا عليهم فقال : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ...﴾ الآية (٢) .

عن الباقر عليه السلام : « أن نوحا عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم سرا وعلانية ، فلما أبوا وعتوا قال : رب ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ فأوحى الله تعالى إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ...﴾

الآية. فلذلك قال نوح : ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاغْرًا كَفَّارًا﴾ (٣) . الخبر (٤) .

﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾

وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا

نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٧) و (٣٨)

ثم أمره الله بصنع الفلك بقوله : ﴿وَأَصْنَعِ﴾ يا نوح ﴿الْفُلْكَ﴾ حال كونك محظوظا ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحفظنا إياك من أن يمنعك الكفار من صنعه ، أو من الخطأ فيه ، أو بحفظ الملائكة المؤيدين لك المؤكدين بحفظك وإعانتك ، وليكن صنعك إياه بتعليمنا ﴿وَوَحِّينَا﴾ إليك كيفية صنعه.

عن ابن عباس : لم يعلم نوح كيفية صناعة الفلك ، فأوحى إليه أن يصنعها مثل جوجو الطائر ، فأخذ القدوم وجعل يضرب ولا يخطأ (٥) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٢ ، والآية من سورة نوح : ٧١ / ٢٦ .

(٣) سورة نوح : ٧١ / ٢٦ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٥ / ٢٠٠٤ ، الكافي ٨ : ٢٨٢ / ٤٢٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٢ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٣ .

وروي أنه أمر بغرس الأشجار ، فنمت تلك الأشجار ، في مدة عشرين سنة ، فلم يولد في تلك المدة مولود ، وبلغت الأطفال التي ولدت من قبل ، وكفروا وعارضوا نوحا تبعا لأبائهم ^(١) .

ثم لما كان نوح عليه السلام كثير الشفقة على قومه ، أوحى الله إليه بقوله : ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي﴾ ولا تراجعني ﴿فِي﴾ شأن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان ، ولا تشفع لهم في دفع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ بالطوفان لا محالة في حكمي وقضائي ، فلا يمكن صرفه عنهم.

﴿وَوُكِّلَ لَهُ﴾ كان نوح ﴿يَصْنَعُ الْفُلَ﴾ التي أمر بصنعها ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ﴾ وأشرف ﴿مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ إما لعدم معرفتهم بنفعها - قيل : إن قومه قالوا : ما تصنع يا نوح ؟ فقال : أصنع بيتا يمشي على الماء ، فتعجبوا وسخروا منه - وإما لأنه كان يصنعها في أبعد موضع من الماء في وقت غاية عزته ^(٢) ، وكان القوم يتضحكون ويقولون : يا نوح ، صرت نجارا بعد ما كنت نبيا ، ويقولون : أتجعل للماء إكفا ^(٣) ، فأين الماء ^(٤) ؟ !

وعن الباقر عليه السلام : « أَنْ نوحا عليه السلام لما غرس النوى ، مرّ عليه قومه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون : قد قعد غراسا ، حتى إذا طال النخل ، وكان جبّارا طويلا ، قطعه ثم نحتّه ، فقالوا : قد قعد نجارا. ثم ألّفه فجعله سفينة ، فمرّوا عليه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون : قد قعد ملاحا في فلاة الأرض ؛ حتى فرغ منها » ^(٥) .

وقيل : إنّه كان ينذرهم بالغرق ، فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا ، عدّوه من المحالات ، ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص منه سخروا منه ^(٦) .

فلما رأى نوح عليه السلام سخريتهم ﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ إذا وقع عليكم الغرق في الدنيا ، والخرق في الآخرة ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩)

ثم هدّدهم بقوله : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعن قريب تشهدون ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ عظيم في الدنيا ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويذلّه ، وهو الطوفان ﴿وَيَحِلُّ﴾ ويرد ﴿عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ﴾ بالنار ﴿مُقِيمٌ﴾ دائم لا انقطاع له أبدا.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٣ .

(٢) أي قلته .

(٣) الإكاف : البردعة أو البردعة ، وهي ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه كالسرج للفرس .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٥ .

(٥) الكافي ٨ : ٢٨٣ / ٤٢٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٧ : ٢٢٤ .

قيل : صنع نوح السفينة في سنتين ، واستأجر اجراء ينحتون معه ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « كان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات ممّا يلي غربي الكوفة ، وكان نوح رجلاً نجّاراً ، فجعله الله نبياً وانتجبه ، ونوح أوّل من عمل سفينة تجرى على ظهر الماء » .
قال : « ولبت نوح في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الهدى ، فيمّرّون به ويسخرون منه ، فلمّا رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ... ﴾ ^(٢) ، فأوحى الله إليه : يا نوح ، اصنع الفلك وأوسعها وعجل عملها بأعيننا ووحينا ، فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده يأتي بالخشب من بعد ، حتّى فرغ منها .

فسئل [عليه السلام] : في كم عمل نوح سفينته حتّى فرغ منها ؟ قال : في دورين . قيل : وكم الدّوران ؟ قال : ثمانون سنة . قيل : إنّ العامّة يقولون : عملها في خمسمائة عام ، فقال : كلاً والله ، كيف والله يقول : ﴿ وَوَحَيْنَا ﴾ ^(٣) .

قيل : إنّ المراد بالوحي السّريّة والعجلة ^(٤) .

وعن (حياة الحيوان) : أنّ أوّل من اتّخذ الكلب للحراسة نوح عليه السلام ، قال : يا ربّ أمرتني أن أصنع الفلك ، وأنا في صناعته أصنع أيتاماً فيجيئون بالليل فيفسدون كلّ ما عملت ، فمتى يلتئم لي ما أمرتني به ، قد طال عليّ أمري ؟ فأوحى الله إليه : يا نوح ، اتّخذ كلباً يحرسك . فاتّخذ نوح كلباً ، وكان يعمل بالنّهار وينام بالليل ، فإذا جاء قومه ليفسدوا بالليل ينبحهم الكلب ، فينتبه نوح فيأخذ المراهة ^(٥) ويثب إليهم فينهزمون منه ، فالتأم ما أراد ، وفعل السفينة ^(٦) .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴿

ثمّ أنّه كان مشغولاً بصنع الفلك ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ للتّنور بالفوران ، أو عذابنا ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ ونبع الماء منه بشدّة كغليان القدر . قيل : كان التّنور في مسجد الكوفة ، والسّفينة أيضاً فيه ^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « كان التّنور في بيت عجز مؤمنة في دبر قبلة ميمنة المسجد » يعني مسجد الكوفة ، فقليل له : فإنّ ذلك موضع زاوية باب الفيل اليوم . ثمّ سئل : أو كان بدو خروج الماء من ذلك

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٣ .

(٢) نوح : ٧١ / ٢٧ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٥ / ٢٠٠٥ ، الكافي ٨ : ٢٨٠ / ٤٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٦ .

(٤) تفسير الصافي ٢ : ٤٤٦ .

(٥) المراهة : العصا الصّخمة .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٣ .

(٧) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٠٨ .

التَّوَرَّ؟ قال : « نعم ، إِنَّ اللهَ أَحَبُّ أن يري قوم نوح آية » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « جاءت امرأة نوح إليه ، وهو يعمل السفينة ، فقالت له : إن التَّوَرَّ قد خرج منه ماء ، فقام إليه مسرعا حتَّى جعل الطَّبَق عليه ، فحتمه بخاتمه فقام الماء ^(٢) ، فلمَّا فرغ من السفينة جاء إلى خاتمه ، ففضَّه وكشف الطَّبَق ففار الماء » ^(٣) .

في بيان ركوب نوح في السفينة وحمل الحيوانات فيها

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أَنَّ نوحا لما فرغ من السفينة ، وكان ميعاده فيهما بينه وبين ربِّه في إهلاك قومه أن يفور التَّوَرَّ ، ففار فقالت امرأته : إِنَّ التَّوَرَّ قد فار ، فقام إليه فحتمه ، فقام الماء » .
الخبر ^(٤) .

ثمَّ ﴿قُلْنَا﴾ لنوح : ﴿أَحْمِلْ فِيهَا﴾ معك ﴿مِنْ كُلِّ﴾ من أنواع الحيوان التي لا بدَّ من وجودها في الأرض ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الذَّكَرَ والانثى ، لئلا ينقرض نسلها .

روي أَنَّ نوحا عليه السلام قال : يا ربِّ ، كيف أحمل من كلِّ زوجين اثنين ؟ فحشر الله إليه السَّباع والطَّير ، فجعل يضرب يديه في كلِّ جنس ، فيقع الذَّكَرُ في يده اليمنى والانثى في اليسرى ، فيجعلها في السفينة ^(٥) .

وقيل : لم يحمل فيها إلَّا ما يلد ويبيض ، دون ما يتولَّد من التراب كالحشرات ^(٦) .

وقيل : أوَّل ما حملة الذرة ^(٧) ، وآخر ما حملة الحمار ، فلمَّا دخل صدره تعلَّق إبليس بذنبه فلم تستقلَّ رجلاه ، فجعل نوح عليه السلام يقول : ويحك ادخل ، فينهض فلا يستطيع ، حتَّى قال نوح عليه السلام ادخل والشَّيْطَانُ معك ، فلمَّا قال نوح عليه السلام ذلك حلَّى الشَّيْطَانُ سبيله ، فدخل ودخل الشَّيْطَانُ معه ، فقال نوح عليه السلام : ما أدخلك يا عدوَّ الله ؟ قال : ألم تقل : ادخل والشَّيْطَانُ معك ؟ قال : اخرج عني يا عدوَّ الله . قال : مالك بدَّ من أن تحملني معك ^(٨) .

ونقل أنَّه عليه السلام قال للحمار : ادخل يا ملعون ، فدخل الحمار [السفينة] ودخل معه إبليس ، فلمَّا كان بعد ذلك رأى نوح إبليس في السفينة ، فقال له : دخلت السفينة بغير أمري ؟ فقال إبليس : ما دخلت إلَّا بأمرك ، فقال له : أنا ما أمرتك ، فقال : أمرتني حين قلت للحمار : ادخل يا ملعون ، ولم يكن ثمَّة ملعون

(١) الكافي ٨ : ٢٨١ / ٤٢١ ، مجمع البيان ٥ : ٢٤٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٣ .

(٢) قام الماء : إذا ثبت لا يجد منفذا .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٧ / ٢٠٠٨ ، الكافي ٨ : ٢٨٢ / ٤٢٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٣ .

(٤) الكافي ٨ : ٢٨١ / ٤٢٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٣ .

(٥ و ٦) . تفسير روح البيان ٤ : ١٢٦ .

(٧) الذرّ : صغار التَّمَل .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٦ .

إلا أنا فدخلت ، فتركه ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « حمل نوح في السفينة الأزواج الثمانية التي قال الله : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ ^(٢) ، فكان من الضأن اثنين ؛ زوج داجنة يريها الناس ، والزَّوج الآخر التي تكون في الجبال وحشية ، احلَّ لهم صيدها » ^(٣) .

القَمِّي : عنه عليه السلام : « لما أراد الله هلاك قوم نوح عَقَّمَ أرحام النساء أربعين سنة ، فلم يولد لهم مولود ، ولما فرغ نوح عليه السلام من إيجاد السفينة أمره الله أن ينادي بالسريانية أن تجتمع جميع الحيوانات ، فلم يبق حيوان إلا حضر ، فأدخل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين ، ما خلا الفأر والسنور ، وإلَّهم لما شكوا من سرقين ^(٤) الدواب والقدر ، دعا بالخنزير فمسح جبينه فعطس ، فسقط من أنفه فأر ، فتناسل ، فلما كثروا شكوا إليه منها ، فدعا بالأسد فمسح جبينه فعطس ، فسقط من أنفه زوج سنور » . وفي رواية : « شكوا العذرة ^(٥) ، فأمر الله الفيل فعطس فسقط الخنزير » ^(٦) .

وعنه عليه السلام : « كان طول سفينة نوح ألف ذراع ومأتي ذراع ، وعرضها ثمانمائة ومأتي [ذراع] ، وطولها في السماء ثمانين [ذراعا] » ^(٧) .

وفي رواية أخرى : « طولها ثمانمائة [ذراع] ، وعرضها خمسمائة [ذراع] » ^(٨) .

وعن الرضا عليه السلام : « اتَّخَذَ نوح عليه السلام في الفلك تسعين بيتا للبهائم » ^(٩) .

وفي رواية : « وكان نوح عليه السلام قد اتَّخَذَ لكل ضرب من أجناس الحيوان موضعا في السفينة ، وجمع لهم فيها ما يحتاجون إليه من الغذاء » ^(١٠) .

وقيل : كانت من خشب السَّاج ، وجعلت ثلاثة بطون ؛ حمل في البطن الأول الوحوش والسباع والهوام ، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام ، وفي البطن الأعلى هو ومن معه ، مع ما يحتاجون إليه من الزَّاد ، وحمل معه جسد آدم ^(١١) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٧ .

(٢) الزمر : ٣٩ / ٦ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٨ / ٢٠١٢ ، الكافي ٨ : ٢٨٣ / ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٥ .

(٤) السَّرقين : السَّرحين ، وهو زبل الحيوان .

(٥) العذرة : الغائط .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٢٤٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٥ ، تفسير القمي ١ : ٣٢٦ « قطعة منه » .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣١٠ / ٢٠٢٢ ، الكافي ٨ : ٢٨٣ / ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٦ .

(٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٤٤ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٦ .

(٩) الخصال : ٥٩٨ / ١ ، عن ابن عباس ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٥ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٤ .

(١١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٠٦ .

وقيل : جعل في الأول الدواب والوحوش ، وفي الثاني الإنس ، وفي الأعلى الطير ^(١) .
﴿وَوَحَّيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ مِنْ رَبِّهِ أَنْ اصْلُبْ لَكَ وَثَاقًا مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْ أُولِئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ : « كانوا ثمانية :
نوح وأهله : وبنوه الثلاثة ، ونسأؤهم » ^(٢) - ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ﴾ في علمي ﴿عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والحكم بآته من
المغرقين ، وهو ابنه كنعان ، وامه غائلة ، لأحكما كانا كافرين ﴿وَوَحَّيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ أَنْ اصْلُبْ لَكَ وَثَاقًا مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْ أُولِئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ : « كانوا ثمانية : نوح وأهله : وبنوه الثلاثة ، ونسأؤهم » ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام ، في رواية : « وكان الذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين رجلا » . الخبر ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر » ^(٥) .
وعن الباقر عليه السلام : « ليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح ، قال الله في كتابه :
﴿اِصْلَحْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَاطِلٍ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ وقال : ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ...﴾ » ^(٦) .
وعن الصادق عليه السلام : « أن نوحا حمل الكلب في السفينة ، ولم يحمل ولد الزنا » ^(٧) .
وعنه عليه السلام : « ينبغي لولد الزنا أن لا تجوز له شهادة ، ولا يوم الناس ، لم يحمله نوح في السفينة ،
وقد حمل فيها الكلب والخنزير » ^(٨) .

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ
تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ
مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا
عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

الْمُغْرَقِينَ (٤١) و (٤٣)﴾

ثم أنه روي عن الصادق عليه السلام : « ثم [إن الله] أرسل [عليهم] المطر يفيض فيضا ، وفاض
الفرات فيضا ، والعيون كلهن فيضا » ^(٩) .
وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « وانكسفت الشمس ، وجاء من السماء ماء منهمر صبّ بلا
قطر ،

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٠٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٨ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٢٧ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٢٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٤ .

(٥) تفسير الصافي ٢ : ٤٤٤ ، والآية من سورة الأسراء : ١٧ / ٣ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٩ / ٢٠١٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٥ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٩ / ٢٠١٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٥ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٧ / ٢٠٠٧ .

وتفجرت الأرض عيونا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^(١) .

﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن معه من المؤمنين بعد حمل الأزواج في السفينة : ﴿ارْكَبُوا﴾ أيها المؤمنون ،
وادخلوا ﴿فِيهَا﴾ حال كونكم مستعينين ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أو قائلين : له ﴿مَجْرَاهَا﴾ وحين سيرها على الماء
﴿وَمُرْسَاهَا﴾ ووقت وقوفها عليه.

وعن الصادق عليه السلام : « أي مسيرها وموقفها »^(٢) .

وقيل : إن المعنى : بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، فكان عليه السلام إذا أراد أن تجري قال : بسم الله ؛
فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله ؛ فرست^(٣) .
ثم بين نوح عليه السلام علة نجاتهم بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين ، ولذا أنجأكم
مع زلاتكم وفرطاتكم.

قيل : سارت السفينة لأول يوم من رجب ، أو لعشر منه^(٤) .

فركب نوح عليه السلام والمؤمنون في السفينة مسمين ﴿وَهِيَ﴾ كانت ﴿تَجْرِي﴾ على الماء ، وتسير ﴿بِهِمْ﴾
﴿فِي﴾ خلال ﴿مَوْجٍ﴾ ومياه مرتفعة على الماء لشدة الرياح ، وكانت الأمواج في عظمتها وارتفاعها
﴿كَالْجِبَالِ﴾

عن الرضا عليه السلام : « أنّ نوحا عليه السلام لما ركب السفينة أوحى الله إليه : يا نوح ، إن خفت الغرق
فهللني ألفا ، ثم سلني النجاة ، انجك ومن آمن معك من الغرق . قال : فلما استوى نوح ومن آمن معه في
السفينة ورفع القلس^(٥) ، عصفت الريح عليهم ، فلم يأمن نوح عليه السلام [الغرق] ، وأعجلته الريح فلم
يدرك أن يهلل [الله] ألف مرة ، فقال بالسريانية هيلوليا^(٦) ألفا ألفا ، يا ماريا اتقن^(٧) . قال :
فاستوى القلس واستقرت السفينة ، فقال نوح عليه السلام : إنّ كلاما نجاتي الله به من الغرق لحقيق أن لا
يفارقي . قال : فنقش في خاتمه : لا إله إلا الله ألف مرة ، يا رب أصلح »^(٨) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ نوحا عليه السلام لما ركب السفينة وخاف الغرق ، قال : اللهم إني أسألك
بمحمد^(٩) وآل محمد لما أنجيتني من الغرق ، فنجّاه الله عز وجل »^(١٠) .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٤ ، والآية من سورة القمر : ٥٤ / ١٢ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ١٢٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٧ : ٢٢٩ .

(٥) القلس : العظيم من جبال السفينة .

(٦) في تفسير الصافي وعيون أخبار الرضا عليه السلام : هيلوليا .

(٧) في عيون أخبار الرضا عليه السلام : أيقن .

(٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٥٥ / ٢٠٦ ، وفيه : يا رب أصلحي ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٧ .

(٩) في الاحتجاج : بحق محمد .

(١٠) الإحتجاج : ٤٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٧ .

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان ، وقيل : اسمه يام ^(١) .

وقيل : إنه كان ربيبه ^(٢) ، ابن واغلة ^(٣) الكافرة ^(٤) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : أنه قرأ : « ابنها » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « ليس بابنه ، إنما هو ابن امرأته ، وهو لغة طيئي ، يقولون لابن المرأة : ابنه » ^(٦) .

﴿وَكَانَ فِي مَغْزِلٍ﴾ وناحية بعيدة من نوح : ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ في السفينة ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وتغرق وتهلك. عن الصادق عليه السلام : « نظر نوح إلى ابنه يقع ويقوم ، فقال له : ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ...﴾ الآية ^(٧) . » ﴿قَالَ﴾ ابنه : ﴿سَآوِي﴾ والتجئ ﴿إِلَى جَبَلٍ﴾ من الجبال العظيمة المرتفعة ، فإنه ﴿يَعْصِمُنِي﴾ ويحفظني بارتفاعه ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾ والغرق ، فلا أحتاج إلى سفينتك ﴿قَالَ﴾ نوح : يا بني ﴿لَا عَاصِمَ﴾ ولا حافظ ﴿الْيَوْمَ﴾ لأحد ﴿مِنَ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ العباد ، وهو الله تعالى. قيل : إن المعنى : لا معصوم من العذاب إلا من يرحمه الله ^(٨) .

عن الصادق عليه السلام : « أنه قال حين أشرف على النجف : هو الجبل الذي اعتصم به ابن جدّي نوح عليه السلام ، فقال : ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فأوحى الله إليه : يا جبل ، أعتصم بك مني أحد ، فغار في الأرض وتقطع إلى الشام » ^(٩) .

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ فانقطع كلامهما بسبب الحيلولة ﴿فَكَانَ﴾ كنعان بن نوح ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُغْرَقِينَ﴾ والمهلكين.

عن ابن عباس أنه قال : أمطرت السماء أربعين يوما وليلة ، وخرج ماء الأرض كذلك ، فارتفع الماء على أطول جبل في الأرض بخمسة عشر ذراعا ، أو بثلاثين ، أو بأربعين ، وطافت بهم السفينة الأرض كلها في خمسة أشهر لا تستقرّ على شيء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت حول الحرم اسبوعا ، وقد اعتق الله البيت من الغرق ^(١٠) .

القمّي : عن الصادق عليه السلام في حديث : « فدارت السفينة وضربت بها الأمواج ، حتى وافت مكة وطافت بالبيت ، وغرق جميع الدنيا إلا موضع البيت ، وإنما سمّي البيت العتيق ، لأنه اعتق من الغرق ، فبقي الماء

(١) مجمع البيان ٥ : ٢٤٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٣٠ .

(٢) التزيب : ابن امرأة الرجل من غيره.

(٣) في تفسير روح البيان : واعلة.

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ١٣٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ٢٣١ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٢٨ ، تفسير العياشي ٢ : ٣٠٩ / ٢٠١٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٧ ، وابنه : بفتح الهاء ، أي : ابنها.

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٢٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٨ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ١٣٢ .

(٩) من لا يحضره الفقيه ٢ : ٣٥١ / ١٦١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٨ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ١٣٣ .

ينصب من السماء أربعين صباحا ، ومن الأرض العيون ، حتى ارتفعت السفينة فسحت ^(١) السماء .
 قال: فرفع نوح عليه السلام يده فقال : يا رهمان أتقن ، وتفسيرها : يا رب ، أحسن ^(٢) .
 وعنه عليه السلام : « ارتفع الماء على كل جبل وكل سهل خمسة عشر ذراعا » ^(٣) .
 وقيل : رفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء السادسة ^(٤) ، واستودع الحجر الأسود أبا قبيس إلى
 زمن إبراهيم ^(٥) .

وعن الكاظم عليه السلام : « أن نوحا كان في السفينة ، وكان فيها ما شاء الله ، وكانت السفينة مأمورة
 ، فطافت بالبيت ، وهو طواف النساء » ^(٦) .
 وفي رواية : وسعت بين الصفا والمروة ^(٧) .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

وعن الصادق عليه السلام ، بعد حكاية دعاء نوح عليه السلام : « فأمر الله عز وجل الأرض أن تبلع ماءها
 بقوله : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ قال : نزلت بلغة الهند : اشربي ^(٨) . ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ وأمسكي
 ماءك ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ ونقص الماء من وجه الأرض ﴿ وَقُضِيَ ﴾ وتم ﴿ الْأَمْرُ ﴾ وهو إنجاز ما وعد ، وفرغ
 من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين .

وفي رواية : « فبلعت الأرض ماءها ، فأراد ماء السماء أن يدخل في الأرض ، فامتنعت الأرض
 من قبوله ، وقالت : إنما أمرني الله أن ابلع مائي ، فبقي ماء السماء على وجه الأرض ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾
 السفينة ، واستقرت على جبل ﴿ الْجُودِيِّ ﴾ وهو جبل عظيم بالموصل ، فبعث الله عز وجل جبرئيل ،
 فساق الماء إلى البحار حول الدنيا » ^(٩) .

وفي رواية عن الكاظم عليه السلام : « فأوحى الله إلى الجبال : إني وازع سفينة نوح عبدي على جبل
 منك ، فتناولت وشمخت ، وتواضع الجودي ، وهو جبل عندكم ، فضربت السفينة بجؤجؤها ^(١٠) الجبل
 ، قال :

(١) سحت السماء : صبت الماء .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٨ .

(٣) الكافي ٨ : ٢٨٤ / ٤٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٠ .

(٤) زاد في تفسير روح البيان : وهو البيت المعمور .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ١٣٣ .

(٦) الكافي ٢ : ١٠١ / ١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٩ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣١٠ / ٢٠٢٢ ، الكافي ٨ : ٢٨٣ / ٤٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٠ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣١٠ / ٢٠٢٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٨ .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٢٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٩ .

(١٠) الجؤجؤ : صدر السفينة .

فقال نوح عند ذلك : يا ماري أتقن ، وهو بالسريانية : رَبِّ أَصْلَحْ » ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « سمع نوح صرير السفينة على الجودي ، فخاف عليها ، فأخرج رأسه من كوة كانت فيها ، رفع يده وأشار بإصبعه وهو يقول : يا رهمان ^(٢) أتقن ، تأويلها : رَبِّ أَحْسَنْ » ^(٣) .
وعن الصادق عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَوْحَى إِلَى نُوحٍ وَهُوَ فِي السَّفِينَةِ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ اسْبُوعًا ، فطاف كما أوحى [الله تعالى] إليه ، ثُمَّ نَزَلَ فِي الْمَاءِ إِلَى رَكْبَتَيْهِ ، فَاسْتَخْرَجَ تَابُوتًا فِيهِ عِظَامُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فحمله في جوف السفينة ، حتَّى طاف ما شاء الله أَنْ يَطُوفَ ، ثُمَّ وَرَدَ إِلَى بَابِ الْكَوْفَةِ فِي وَسْطِ مَسْجِدِهَا ، ففِيهَا قَالَ اللَّهُ لِلْأَرْضِ : ﴿ اِنْبِئِي مَاءُكَ ﴾ فبلعت [ماءها] من مسجد الكوفة كما بدأ الماء منه ، وتفرَّق الجمع الذي كان مع نوح عليه السلام في السفينة » الخبر ^(٤) .

﴿ وَقِيلَ ﴾ على سبيل اللعن والطرْد : ﴿ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥) قيل : إِنَّ الْقَائِلَ هُوَ اللَّهُ ^(٦) ، وقيل : نوح ^(٧) .

عن الصادق عليه السلام ، أَنَّهُ سَأَلَ : كَمْ لَبِثَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَنْ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ حَتَّى نَضَبَ الْمَاءُ وَخَرَجُوا مِنْهَا ؟ فَقَالَ : « لَبِثُوا فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهَا ، وَطَافَتْ بِالْبَيْتِ اسْبُوعًا ، ثُمَّ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَهُوَ فِرَاتُ الْكَوْفَةِ » ^(٨) .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴿

ثم حكى سبحانه اعتراض نوح عليه السلام عند هلاك كنعان بالغرق ، مع وعده إتياء بإنجاء أهله ؛ بقوله : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ﴾ حزنا على ابنه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي ﴾ كنعان - أو يام - كان ﴿ مِنْ أَهْلِي ﴾ الذين وعدتني بإنجاءهم في قولك : ﴿ وَأَهْلُكَ وَإِنَّ وَعْدَكَ ﴾ هذا ، بل جميع وعودك ^(٩) ﴿ الْحَقُّ ﴾ والصدق ، لا يمكن تطرّق الخلف إليه ﴿ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ وأعدلهم ﴿ قَالَ ﴾ الله : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ ﴾

(١) الكافي ٢ : ١٠١ / ١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٩ .

(٢) في تفسير العياشي : رهمان .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣١١ / ٢٠٢٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٠ .

(٤) التهذيب ٦ : ٢٣ / ٥١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٤٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٧ : ٢٣٥ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٢٥٠ .

(٧) مجمع البيان ٥ : ٢٥٠ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣٠٧ / ٢٠٠٧ ، الكافي ٨ : ٢٨١ / ٤٢١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٠ .

(٩) في النسخة : وعدك .

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴿الَّذِينَ وَعَدْتُكَ بِنَجَاتِهِمْ﴾ ؛ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِكَ ﴿إِنَّهُ﴾ بِذَاتِهِ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ وفيه مبالغة في ذمّه.

عن الصادق عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لَأَنَّهُ كَانَ مُخَالَفًا لَهُ ، وَجَعَلَ مِنْ أَتْبَعِهِ مِنْ أَهْلِهِ » (١) .

وفي رواية : « نَفَاهُ عَنْهُ حِينَ خَالَفَهُ فِي دِينِهِ » (٢) .

ثمّ أنّه تعالى بعد تنبيه نوح عليه السلام بخطأه ، وأن ولده كان ممّن سبق عليه القول ، عاتبه على عدم تأمّله في حسن مطلوبه بقوله : ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي﴾ ولا تطلب منّي عمل ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ وبصلاحه وصوابه ﴿عِلْمٌ﴾ أجد مثل هذا السؤال [ليس] من شأنك الرفيع ومقامك المنيع عندي ، و﴿إِنِّي﴾ لحبيّ لك وشفقتي عليك ﴿أَعْظُكَ﴾ وأنصحك كراهة ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ في آن ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بعلوّ منزلتك المنافي للسؤال الذي يكون تركه أولى وأفضل ، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّين.

﴿قَالَ﴾ نوح معتذرا من تركه الأولى ، ومستغفرا من زلّته : ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ لا أملك لنفسي أن أحفظها من مثل هذه الزلاّت ، و﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ وألتجئ إليك وإلى حفظك في بقية عمري من ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ فيما بعد ﴿مَا لَيْسَ لِي﴾ برضاك ﴿بِهِ﴾ وما صوّبته (٣) عندك ﴿عِلْمٌ﴾ فضلا عما أعلم فسادَه وعدم رضاك به ، فاعفر لي ما صدر منّي ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي﴾ زلّتي ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بقبول توبتي ومعذرتي ﴿أَكُنْ﴾ ألبّة ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أعمالا ، فإنّ الانصراف عن شكر نعمك ، والاشتغال بما ليس فيه رضاك ؛ كطلب نجاة من يستحقّ العذاب ، خسران ظاهر ، وغبن فاحش. وفيه غاية التذلل والاستكانة.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ

سَنُنتَعِمُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾

وإنّما آخر سبحانه ذكر نداء نوح عليه السلام عن ذكر زوال الطوفان مع كونه في بدوه ، رعاية للترتيب بين توبته واعتذاره ، وبين إظهار غاية لطفه به بأمره تعالى بنزوله من الفلك بسلام وبركات عليه وعلى أتباعه بقوله : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ﴾ وانزل من الفلك على الأرض متلبّسا ﴿بِسَلَامٍ﴾ وأمن من الآفات والمكاره ، وحفظ كامل كائن ﴿مِنَّا﴾ أو تحية عظيمة من قبلنا ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ كثيرة وخيرات نامية فائضة ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ﴾ وجماعات كثيرة مؤمنة متولّدة ومنشعبة ﴿مِّمَّنْ مَعَكَ﴾

(١) تفسير العياشي ٢ / ٣١٢ / ٢٠٢٨ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ / ٧٥ / ٣ ، مجمع البيان ٥ : ٢٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٠ .

(٢) تفسير العياشي ٢ / ٣١٢ / ٢٠٢٨ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ / ٧٦ / ٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥١ .

(٣) كذا ، والظاهر صوابه.

قيل : لما خرج نوح عليه السلام من السفينة خاف من الشدة وضيق المعاش ، لعلمه بفناء ما على الأرض مما ينتفع به البشر ، فبشّره الله بالسلامة المستلزمة للأمن من الآفات ، والسّعة في العيش ، وبالبركات وهي الثّبات والبقاء ببقاء نسله ، حيث إنّ لم يكن معه إلّا نسله ، أو كان ولكن مات من لم يكن من نسله ، ولذا قالوا إنّ آدم الثاني ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية : « فنزل نوح عليه السلام بالموصل من السفينة مع الثّمانين ، وبنوا مدينة الثّمانين ، وكانت لنوح ابنة ركبت معه السفينة ، فتناسل النّاس منها ، وذلك قول النّبي صلى الله عليه وآله : نوح أحد الأبوين » ^(٢) .

ثمّ أنّه تعالى بعد تبشيره بحسن حال المؤمنين من ذريته وذريّة من معه ، بيّن حال الكفّار منهم بقوله : ﴿وَأَمَّمْ﴾ وجماعات منهم ﴿سَمَتْنَهُمْ﴾ في الدّنيا قليلا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ﴾ ويصيبهم بعد الموت وفي الآخرة ﴿مِنْهُ﴾ عقوبة على كفرهم وسوء أعمالهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

قيل : إنّ لما رست السفينة على الجوديّ كشف نوح عليه السلام الطّبق الذي فيه الطّير ، فبعث الغراب لينظر هل غرقت البلاد ، وكم بقي من الماء ، فيأتيه بخبر الأرض ؟ فأبصر جيفة ، فوقع عليها واشتغل بها ولم يرجع ، ثمّ أرسل الحمامة فلم تجد موضعا في الأرض ، فجاءت بورق التّيتون في منقارها ، فعرف نوح عليه السلام أنّ الماء قد نقص ، وظهرت الأشجار ، ثمّ أرسلها فوقعّت على الأرض ، فغابت رجلاها في الطّين قدر حمرتها ، فجاءت إلى نوح عليه السلام فأرته ، فعرف أنّ الأرض قد ظهرت ، فبارك على الحمامة وطوّقها الخضرة التي في عنقها ، ودعا لها بالأمان ، فمن ثمّ تألف البيوت ، ودعا على الغراب بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت ، وتتشأمّ العرب به » ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام : « لما حسر الماء عن عظام الموتى ، فرأى ذلك نوح عليه السلام جزع جزعا شديدا واغتمّ لذلك ، فأوحى الله عزّ وجلّ [إليه] هذا عملك ^(٤) ، أنت دعوت عليهم ، فقال : يا ربّ إنّّي أستغفرُك وأتوب إليك. فأوحى الله إليه أن كل العنب الأسود ليذهب غمّك » ^(٥) .

وقيل : لما ارتفع الطّوفان قسّم نوح عليه السلام الأرض بين أولاده الثّلاثة ، فأما سام فأعطاه بلاد الحجاز واليمن والثّمام ، فهو أبو العرب ، وأما حام : فأعطاه بلاد السّودان ، فهو أبو السّودان ، وأما يافث فأعطاه بلاد المشرق ، فهو أبو التّرك » ^(٦) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٦ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٢٨ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٥١ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ١٤٢ .

(٤) زاد في الكافي : بنفسك .

(٥) الكافي ٦ : ٣٥٠ / ٢ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٥٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ١٤١ .

عن الصادق عليه السلام : « كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة » ^(١) .

وعنه عليه السلام : « عاش نوح عليه السلام ألفي [سنة] وثلاثمائة سنة ، منها ثمانمائة وخمسون سنة قبل أن يبعث ، وألف سنة إلا خمسين عاما وهو في قومه يدعوهم ، وخمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة ، ونضب الماء فمصرّ الأمصار ، وأسكن ولده البلدان . ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس ، فقال : السّلام عليك ، فردّ عليه نوح فقال : ما جاء بك يا ملك الموت ؟ فقال : جئتك لأقبض روحك ، قال : دعني أدخل من الشمس إلى الظلّ ، فقال له ، نعم ، فتحول ثم قال : يا ملك الموت كلّ ما مرّبي من الدّنيا مثل تحويلي من الشمس إلى الظلّ ، فامض لما امرت به ، فقبض روحه » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « عاش نوح بعد الطّوفان خمسمائة سنة ، ثم أتاه جبرئيل فقال : يا نوح ، إنّه قد انقضت نبوتك ، واستكملت أيامك ، فانظر إلى الاسم الأكبر ، وميراث العلم ، وآثار النّبوة التي معك ، فادفعها إلى ابنك سام ، فإنّي لا أترك الأرض إلّا وفيها عالم تعرف به طاعتي ، ويعرف به هداي ، ويكون نجاة [فيما] بين مقبض النّبي ومبعث نبيّ آخر ، ولم [أكن] أترك النّاس بغير حجّة [لي] وداع إليّ وهاد إلى سبيلي ، وعارف بأمري ، فإنّي [قد] قضيت أن أجعل لكلّ قوم هاديا أهدي به السّعداء ، ويكون حجّة لي على الأشقياء . قال : فدفع نوح عليه السلام الاسم الأكبر ، وميراث العلم ، وآثار النّبوة إلى سام ، وأمّا حام ويافت فلم يكن عندهما ما ينتفعان به . قال : وبشّرهم نوح عليه السلام بهود ، وأمرهم باتّباعه ، وأمرهم أن يفتحوا الوصيّة في كلّ عام ، وينظروا فيها ، ويكون عيدا لهم » ^(٣) .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾

فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴿

ثمّ تَبَّه سبحانه على إعجاز القرآن من جهة تضمّنه للمعانيات ، إثباتا لصدقه وصدق النّبي ﷺ بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ القصة التي قصصناها عليك من تفصيل دعوة نوح ، ومحاجته مع قومه ، وصنعه الفلك ، واستهزاء قومه به ، وغرقهم بالطّوفان ، ومكاملته مع ابنه كنعان ، إلى آخرها ، كلّها ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ومن الأخبار التي لا يعلم بها أحد إلّا بطريق الوحي ، ونحن ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ بتوسّط جبرئيل ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ ﴾ وإن لم تكن أميّاً ﴿ وَلَا ﴾ يعلمها ﴿ قَوْمُكَ ﴾ بهذا التفصيل ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ نزول ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ، وإن علموا بها إجمالاً ، فمع هذه المعجزة العظيمة إن أصروا على تكذيبك في النّبوة ،

(١) كمال الدين : ٥٢٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٤ .

(٢) الكافي ٨ : ٢٨٤ / ٤٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٤ .

(٣) الكافي ٨ : ٢٨٥ / ٤٣٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٤ .

وتكذيب كتابك ﴿فَاصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ، كما صبر نوح ﷺ سنين متطاولة على ذلك ،
وابشر بأنه كما كانت عاقبة صبر نوح الناصر والظفر والفرج والسرور ، تكون عاقبة صبرك كذلك ، بل
نقول : ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمؤمنين الصابرين كافة ، [سواء] كانوا
رسلا أو غيرهم. وفيه تسلية النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أنْتُمْ إِلَّا
مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا
تَعْقِلُونَ (٥١)﴾

ثم أردف سبحانه قصة نوح بقصة هود ، ازديادا للاعتبار والتسليّة بقوله : ﴿وَالِىٰ عَادِ﴾ أرسلنا
﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن هو من قبيلتهم ، وكان اسمه ﴿هُودًا﴾ وهذه القبيلة كانت من العرب ، بناحية اليمن ،
على ما قيل (١) .

ثم أنه ﷺ دعاهم إلى التوحيد ، و﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ، فإنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ
إِلَهِ﴾ ومعبود مستحق للعبادة ﴿غَيْرُهُ﴾ تعالى ، لدلالة جميع الموجودات على الوهيته ووحدانيته ﴿إِن أنْتُمْ﴾
وما كنتم ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وكاذبون في دعوى كون غيره شريكا له في الألوهية ، لظهور آثار الحدوث في غيره
، الدالة (٢) على كونه مخلوقا مثلكم.

ثم دفع توهم طمعه في أموالهم ، استجلابا لقلوبهم بقوله : ﴿يَا قَوْمِ﴾ إن تحترزوا من قبول قولي
لتوهمكم طمعي في أموالكم ، فاعلموا أيّ بعلمي هذا من الدعوة والهداية إلى التوحيد ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا﴾ وعوضا من أموالكم ﴿إِن أَجْرِي﴾ وما عوض عملي ﴿إِلَّا عَلَى﴾ الله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني
بقدرته ، أتذكرون توحيده ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أنه حق لا محيص عنه بحكم العقل السليم ؟ وإني بريء من
الطمع في أموالكم.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ

قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾

ثم حثهم على ترك الشرك والتوبة منه بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا﴾ واسألوا ﴿رَبَّكُمْ﴾ ستر ما سلف
من إشراككم به ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالتدم على عصيانكم ، وبالعزم على عدم العود إلى

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٩ .

(٢) في النسخة : الدلالة.

مثله ، فإن فعلتم ذلك يقبل الله توبتكم ، و﴿يُرْسِلِ﴾ ويمطر ﴿السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ برحمته ، حال كونه ﴿مُدْرَارًا﴾ ومتتابعاً في أوقات الحاجة إليه ، فعند ذلك تكثر نعمكم وتوفر حظوظكم ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ مع ذلك ﴿قُوَّةً﴾ في الجسم ﴿إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ التي تكون في الحال ، فلذا تتمكّنون من كمال الانتفاع بتلك النعم ، فتجتمع لكم السعادة الجسمانية والمالية.

ثم أكّد أمره بالمعروف بنهيهِ عن المنكر بقوله : ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عن نصحي وإرشادي لكم إلى خيركم ، حال كونكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وعاصين لرّبكم ، مستحقّين لعقوبة مليكم. قيل : إنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، حُرّاصاً عليها أشدّ الحرص ، وكانت بساتينهم في غاية اللّطف والبهجة ، وكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا في غاية القوّة والبطش ، محفوظين بها من العدو ، مهيبين في كلّ ناحية ^(١) ، مفتخرين بكثرة المال والقوّة ، ولذا وعدهم هود بالزيادة فيها.

﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾

ثم أنّ القوم بعد ما سمعوا دعوة هود إلى التّوحيد ، وترغيبهم إلى التّوبة من الشّرك ﴿قَالُوا﴾ تكذّيباً له : ﴿يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وما أقمت حجّة على نبوتك ، وصدق قولك ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا التي كنّا نلتزم بها تقليداً لأبائنا ، حال كون التّرك صادراً ﴿عَنْ﴾ مجرّد ﴿قَوْلِكَ﴾ بلا حجّة ولا معجزة دالّة على صدقه ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولقولك بمصدّقين.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى

اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ (٥٤) و (٥٦)﴾

ثم لم يكتفوا بتكذيبه ، بل نسبوه إلى الجنون بقوله : ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ في شأنك ﴿إِلَّا﴾ قولا خاصّاً وصدقا ، وما نعتقد إلّا اعتقاداً صائباً ، وهو أنّه ﴿اعْتَرَاكَ﴾ وأصابك ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ وأصنامنا ﴿بِسُوءٍ﴾ وجنون ، لأنّك تشتمهم ، وتمنع عن عبادتهم ، وتحطّهم عن مقام الألوهيّة بقولك : ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فلا اعتداد بقولك ، ولا ينبغي للعاقل تصديقك والإيمان بك.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٤٧.

وفي تنكير السوء ، ونسبته إلى بعض آهتهم ، إشعار بعدم مبالغتهم فيه ، وإن بالغوا في تكذيبه بدعوى عدم قابلية كلامه للتصديق ونظمه في الهدايات ، ولذا بالغ هو ﷺ أيضا في الإجهار بعدم الوهية أصنامهم ، و﴿ قَالَ : ﴾ يا قوم ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا ﴾ جميعا ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ ﴾ ما دامت حياتي ﴿ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ صنما كان أو غيره ، فإن استثقلتم قولي ، ونصبتُم لي العداوة ، وصدقتُم في دعوى قدرة أصنامكم على الإساءة بي ﴿ فَكَيْدُونِي ﴾ واحتالوا أنتم وأصنامكم ﴿ جَمِيعاً ﴾ في قتلي ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد احتيالكم ﴿ لَا تُنْظِرُونَ ﴾ ساعة ولا تمهلوا في لحظة ، فإنني لا أبالي مع انفرادي منكم مع كثرتم وقوتكم ، وشدة بطشكم وبأسكم ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ ومالكي ومالككم ، ووتقت به ، والتجأت إليه ، فأنه القادر على حفظي فيكم ، ودفعكم عني ، لوضوح أنه ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ في الأرض ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ تعالى مالکها ، والقاهر عليها ، يصرفها حيث يشاء ، كأنه تعالى ﴿ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ لا تقدر على أن تتحرك إلا بإرادته تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ من الحق والعدل ، ولذا لا يكاد يسلطكم علي ، ويضيع من توكل عليه واعتصم به .

عن أمير المؤمنين ﷺ : « يعني أنه على الحق ، يجزي بالإحسان إحسانا ، وبالسّيء سيئا ، ويعفو عمن يشاء ويغفر [سبحانه وتعالى] » ^(١) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ (٥٧)

ثم أعلمهم بتمامية الحجة عليهم بقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ وتعرضوا عن قبول قولي ، وتصبروا على تكذبي ﴿ فَقَدْ ﴾ أتممت عليكم الحجة ، حيث إنني ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بلا تفريط مني في أداء رسالتي ، وتقصير مني في القيام بوظيفتي ، وإنما التفريط من قبلكم ، حيث إنكم مع وضوح الحق عندكم أبيتم إلا الجحود والتكذيب ، فاحذروا من أن يهلككم الله على كفركم عن آخركم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي ﴾ في دياركم وأموالكم بعد إهلاككم ﴿ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وفريقا سواكم ، أطوع له منكم ، ﴿ وَو ﴾ أنتم ﴿ لَا تَضُرُّوهُ ﴾ بتوليكم وإعراضكم عن قبول دعوة رسوله ، والإيمان بتوحيده ﴿ شَيْئًا ﴾ يسيرا ، ولا تنقصون من ملكه وسلطانه نقيرا ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ ومستول ورقيب ، فكيف يقدر شيء على الإضرار به ؟

وقيل : يعني هو مطلع على كل شيء ، فلا يخفى عليه عصيانكم وطغيانكم ، فيجازيكم عليه

أسوأ

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣١٢ / ٢٠٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٦ .

الجزاء. أو هو مطلع على عملي وعملكم ، فيحفظني من مكرهم وشركم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ

عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾

ثم أنهم بعد تلك المواعظ والتعهدات ، بالغوا في الإصرار على الكفر ومعارضة الرسول ، فاستحقوا عذاب الاستئصال ، فأخبر سبحانه بنزوله عليهم بقوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ونزل عذابنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وهم أربعة آلاف - على ما قيل (١) - ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنَّا﴾ وهي التوفيق للإيمان الذي أنعمناه عليهم ، والهداية له.

ثم بين سبحانه المراد من الأمر ، وما نجّاهم منه بقوله : ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وشديد ، أنزلناه على الكافرين.

وقيل : اريد بالتنجية الثانية عذاب الآخرة (٢) .

وإنما ذكره لبيان تكملة النعمة عليهم بالنجاة في الدارين ، وتشديده فيها على الكفار.

عن القمّي رحمه الله : أنّ عادا كانت بلادهم في البادية من المشرق (٣) إلى الأجر أربعة منازل ، وكان لهم زرع ونخل كثير ، ولهم أعمار طويلة وأجساد طويلة ، فعبدوا الأصنام ، وبعث الله إليهم هودا يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد ، فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه ، فكفّت السماء عنهم سبع سنين حتى قحطوا. وكان هودا زراعاً ، وكان يسقي الزرع ، فجاء قوم إلى بابه يريدونه ، فخرجت إليهم امرأة شمطاء عوراء فقالت : من أنتم ؟ قالوا : نحن من بلاد كذا وكذا ، أجدبت بلادنا فجئنا إلى هود نسأله أن يدعو الله حتى تمطر وتخصب بلادنا ، فقالت : لو استجيب لهود لدعا لنفسه ، فقد احترق زرعه لقلّة الماء. قالوا : فأين هو ؟ قالت : في موضع كذا وكذا ، فجاءوا إليه فقالوا : يا نبي الله ، قد أجدبت بلادنا ولم تمطر فاسأل الله أن تخصب بلادنا وتمطر. فتهيأ للصلاة وصلّى ودعا لهم فقال : ارجعوا فقد امطرتم وأخصبت بلادكم ، فقالوا : يا نبي الله ، إننا رأينا عجباً ، قال : وما رأيتم ؟ قالوا : رأينا في منزلك امرأة شمطاء عوراء قالت لنا : من أنتم [وما] تريدون ؟ فقلنا : جئنا إلى هود ليدعو الله لنا فتمطر ، فقالت : لو كان هود داعياً لدعا لنفسه ، فإنّ زرعه قد احترق. فقال هود : هي أهلي ، وأنا أدعو الله أن يطول لها البقاء. فقالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّه ما خلق الله مؤمناً إلّا وله عدوّ يؤذيه ، وهي عدوّ لي ، فلئن يكون عدوّ من أملكه خير من أن يكون عدوّ من يملكني.

(١ و ٢) مجمع البيان ٥ : ٢٦٠.

(٣) في المصدر : الشقيق.

فبقي هود عليه السلام في قومه يدعوهم إلى الله ، وينهاهم عن عبادة الأصنام حتى أخصبت بلادهم ، وأنزل الله عليهم المطر ، وهو قوله عز وجل : ﴿ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ... ﴾ الآيات .
فلما لم يؤمنوا أرسل الله عليهم الريح الصرصر - يعني : الباردة - وهو قوله تعالى في سورة القمر : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ ^(١) ، وحكى في سورة الحاقة فقال : ﴿ وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ ^(٢) ، قال : كان القمر منحوسا بزحل سبع ليالٍ وثمانية أيام ^(٣) .
وقيل : إنَّ العذاب الغليظ هو السَّموم ^(٤) ، كانت تدخل أنوف الكفرة ، وتخرج من أدبارهم ، فتقطعهم إربا إربا ^(٥) .

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ ﴾

﴿ قَوْمُ هُودٍ ﴾ (٦٠)

ثم ذمهم الله بعد إهلاكهم بقوله : ﴿ وَتِلْكَ الْقَبِيلَةُ الْمُهْلَكَةُ ﴾ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴿ ودلائل توحيده ، ومعجزات نبيه ﴾ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴿ جميعا بعضيائهم هودا ، لكون جميعهم على قول واحد ﴾ وَاتَّبَعُوا ﴿ في الكفر والعصيان ﴾ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ﴿ وتمرّد عن الحق ﴾ عَنِيدٍ ﴿ ومعارض له . قيل : « تلك » إشارة إلى قبورهم ^(٦) .

ثم بين سبحانه سوء عاقبتهم عبرة للناس بقوله : ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ واردفوا باتّباعهم رؤساء الضلال ، الدّعاة إلى الكفر بالآيات ، وتكذيب الرّسل ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ وبعدا عن الرّحمة وعن كلّ خير ، بحيث لا يفارقهم أبدا ، بل يدور معهم حيثما داروا ﴿ وَكَذًا ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ ويكون أثر بعدهم الدّخول في التّار ، والخلود فيها .

ثم بالغ سبحانه في تفضيح حالهم ، والحثّ في الاعتبار بهم بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ ونعمه ، وجحدوا وحدانيّته . ثمّ دعا عليهم بالهلاك تسجيلا لاستحقاقهم له بقوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا ﴾ وهلاكها قطعيا ﴿ لِعَادٍ ﴾ ثمّ بين المراد من عاد بقوله : ﴿ قَوْمُ هُودٍ ﴾ لئلا يشتبّه بعاد الثانية ؛ وهم عاد بن إرم .

(١) القمر : ٥٤ / ١٨ و ١٩ .

(٢) الحاقة : ٦٩ / ٦ و ٧ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٧ .

(٤) السّموم : هي الريح الحارّة ، والحرّ الشديد النافذ في المسام .

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ٢١٩ .

(٦) تفسير البيضاوي ١ : ٤٦١ .

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ

مُجِيبٌ (٦١)﴾

ثم أتبع سبحانه قصّة ثمود بالقصّتين ازديادا لعبرة المشركين ، وتسليية للنبي ﷺ والمؤمنين بقوله : ﴿وَالِى﴾ قبيلة ﴿ثَمُودَ﴾ الذين هم من العرب سمّوا باسم أبيهم الأكبر ^(١) ، أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ ورجلا منهم سمّي ﴿صَالِحًا﴾ قيل : هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عتيد بن حادر ^(٢) بن ثمود ^(٣) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده لأنّه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

ثم استدلل على استحقاقه العبادة بنعمه الدالّة على كمال قدرته ورحمته حتّا لهم عليها بقوله : ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ وخلقكم بقدرته من آدم ، أو من المنيّ المتكوّن من الأغذية النباتيّة ، ومعلوم أنّ آدم أو النبات مخلوق ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ وتراهما ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾ واستبقاكم مدّة طويلة ، أو أقدركم على العمارة ﴿فِيهَا﴾ أو جعلها لكم نحو العمري ^(٤) ، بأن أسكنكم فيها مدّة حياتكم ، ثم جعلها بعد موتكم لغيركم ، فإذا كان الله بهذه المرتبة من القدرة عليكم ، والإحسان إليكم ، المقتضيين للخوف من عصيانه والشكر له ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ عمّا صدر منكم من العصيان وكفران النعمة ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ وارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالإيمان بوحدانيّته ، والندم على الشّرك ، والعزم على عدم العود إليه ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ منكم علما وإحاطة ، يسمع استغفاركم ، ويرى تضرّعكم ، أو قريب الرّحمة منكم ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعائكم.

قيل : إنّ قوله : (قريب) ناظر إلى أمره بالتّوبة ، و(مجيب) إلى أمره بالاستغفار ، كأنّه قال : ارجعوا إليه فإنّه قريب ، وأسألوه المغفرة فإنّه مجيب ^(٥) .

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُوًّا قَلِيلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يُنْصِرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَاذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٥٣ .

(٢) في تفسير أبي السعود : ماشح بن عبيد بن جادر ، وفي تفسير روح البيان : ماسح بن عبيد بن خاور .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٥٣ .

(٤) العمري : من عقود التمليك ، كأن تقول : هذه الدار لك عمرك ، أي ما دمت حيا .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ١٥٤ .

فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٢) وَ (٦٤)

ثمَّ أَنَّ الْقَوْمَ بَعْدَمَا دَعَاهُمْ صَالِحٌ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّوْحِيدِ ﴿قَالُوا﴾ فِي جَوَابِهِ : ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ ومَحَلًّا لِلْأَمَالِ مِنْ حَيْثُ قُوَّةُ عَقْلِكَ ، وَرِزَانَةُ رَأْيِكَ ، وَحَسَنُ تَدْبِيرِكَ ، وَكَمَالُ شَفَقَتِكَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : يَعْنِي فَاضِلًا خَيْرًا نَقَدَمَكَ عَلَى جَمِيعِنَا ^(١) ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الْوَقْتُ الَّذِي ادَّعَيْتَ بَطْلَانَ مَذْهَبِنَا وَفُسَادَ عِقَائِدِنَا ، وَدَعَوْتِنَا إِلَى التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، يَا لِلْعَجَبِ ﴿أَتَنْهَانَا﴾ عَنْ ﴿أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الْأَقْدَمُونَ ، وَتَأْمُرَنَا بِأَنْ نَتْرِكَ تَقْلِيدَ أَسْلَافِنَا الْأَكْرَمِينَ ؟ ! إِذْنٌ قَدْ انْقَطَعَ رَجَاؤُنَا عَنْكَ ، وَتَبَيَّنَ خَطْؤُنَا فَبِكَ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَذَلِكَ الشَّكُّ فِيمَا تَدْعُونَا ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ وَمَوْقِعٌ لِلْقَلْقِ وَالِاضْطِرَابِ فِي قُلُوبِنَا ، أَوْ نَحْنُ فِي ^(٢) رِيبةٍ عَظِيمَةٍ.

وَقِيلَ : إِنَّ الشَّكَّ هُوَ تَسَاوِيُ الْإِحْتِمَالَيْنِ ، وَالرَّيْبُ هُوَ رَجْحَانُ احْتِمَالِ السَّوِّ وَالْفُسَادِ ^(٣) .

﴿قَالَ﴾ صَالِحٌ بَرَفَقَ وَلَيْنَ : ﴿يَا قَوْمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ وَأَخْبَرُونِي ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ فِي ادِّعَائِي ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ وَحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ ، أَوْ مَعْرِفَةٍ وَبَصِيرَةٍ كَامِلَةٍ كَائِنَةً ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وَمِلِكِي ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ﴾ فِي الْوَاقِعِ وَالْحَقِيقَةِ ﴿رَحْمَةً﴾ وَرِسَالَةً ، أَوْ مَعْجَزَةٍ قَاهِرَةٍ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ وَيَحْفَظُنِي ﴿مِنْ﴾ عَذَابِ ﴿اللَّهِ﴾ وَبِأَسْهِه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ وَخَالَفْتَ أَمْرَهُ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَيْكُمْ ، وَنَهَيْهِ [عَنْ] الْمَسَاهَلَةِ فِيهِ وَالْمَدَارَاةَ مَعَكُمْ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إِذْنٌ بِتَوْفِيقِكُمْ السَّكُوتَ عَنْ دَعْوَتِكُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَالْمُوَافَقَةَ مَعَكُمْ فِي الشَّرْكِ ، شَيْئًا ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ وَتَضَرَّرَ ، حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ فِي مُوَافَقَتِكُمْ إِلَّا التَّعَرُّضُ لِسُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ : مَا تَزِيدُونَنِي بِمَا تَقُولُونَ غَيْرَ أَنْ [أَنْسِبَكُمْ إِلَى الْخُسْرَانِ وَ] أَقُولُ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَخَاسِرُونَ ^(٤) .

﴿وَيَا قَوْمُ﴾ إِنْ تَرِيدُونَ مَتَى آيَةً وَمَعْجَزَةً دَالَّةً عَلَى صِدْقِ نَبَوِّيَّ وَصَحَّةِ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ ، فَانْظُرُوا ﴿هَذِهِ﴾ الْحِجَّةَ الْعَظِيمَةَ ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الَّتِي خَلَقَهَا بِقُدْرَتِهِ مِنَ الصَّخْرَةِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ دَفْعَةً مِنْ غَيْرِ وَلَادَةٍ ، وَهِيَ ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ عَظِيمَةٌ ، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى نَبَوِّيَّ ، وَصِدْقُ قَوْلِي ، وَلَا يَثْقُلُ عَلَيْكُمْ كَوْنُهَا فَيْكُمْ ، لِأَنَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ عُلُوفَتُهَا ^(٥) ﴿فَذَرُوهَا﴾ وَخَلُّوهَا ﴿تَأْكُلُ﴾ التَّبَاتَاتِ وَالْحَشَائِشَ الَّتِي تَجْدهَا ﴿فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ وَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَوْذَوْهَا ﴿وَلَا تَمْسُوهَا﴾ وَلَا تَصِيبُوهَا ﴿بِسُوءٍ﴾ مِنْ ضَرْبٍ وَقَتْلٍ لِبُغْضِكُمْ إِيَّاهَا ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ إِذْنٌ ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ سَرِيعَ التَّنْزِيلِ.

في قصة ناقة صالح

روي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَمَّا دَعَا صَالِحٌ قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ كَذَّبُوهُ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ فَسَأَلَ

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢١ .

(٢) في النسخة : ذو .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٢ .

(٥) أي علفها .

رَبِّهِ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ مِنْ عِنْدِهِمْ ، فَأَذِنَ لَهُ ، فَخَرَجَ فَاَنْتَهَى إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَإِذَا بِرَجُلٍ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ، فَقَالَ لَهُ صَالِحٌ : وَيْحَكَ مِنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، كُنْتُ فِي سَفِينَةٍ كَانَتْ قَوْمُهَا كُفْرًا غَيْرِي ، فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ وَنَجَّانِي مِنْهُمْ ، فَخَرَجْتُ إِلَى جَزِيرَةٍ أُتَعَبَّدُ هُنَاكَ ، فَأَخْرَجَ أَحْيَانًا وَأَطْلَبُ شَيْئًا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي .

فَمَضَى صَالِحٌ فَاَنْتَهَى إِلَى تَلٍّ عَظِيمٍ ، فَرَأَى رَجُلًا فَاَنْتَهَى إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَقَالَ لَهُ صَالِحٌ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : كَانَتْ هَاهُنَا قَرْيَةٌ كَانَتْ أَهْلُهَا كُفْرًا غَيْرِي ، فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ وَنَجَّانِي مِنْهَا ، فَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى هَاهُنَا إِلَى الْمَوْتِ ، وَقَدْ أَنْبَتَ اللَّهُ لِي شَجَرَةً رَمَّانَ ، وَأَظْهَرَ عَيْنَ مَاءٍ ، أَكَلُ مِنَ الرَّمَّانِ ، وَأَشْرَبُ مِنَ مَاءِ الْعَيْنِ وَأَتَوَضَّأُ مِنْهُ . فَذَهَبَ صَالِحٌ وَانْتَهَى إِلَى قَرْيَةٍ كَانَتْ أَهْلُهَا كُفْرًا كُلَّهُمْ غَيْرِ أَخَوَيْنِ مُسْلِمَيْنِ يَعْمَلَانِ عَمَلَ الْخَوَاصِ .

فَضْرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلًا وَقَالَ : لَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ كُفْرًا وَفِيهِمْ مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ ، فَلَا يَسْكُنُ قَلْبُهُ مَعَ أَحَدٍ حَتَّى يَجِدَ الْمُؤْمِنَ . وَلَوْ أَنَّ مُنَافِقًا دَخَلَ قَرْيَةً فِيهَا أَلْفُ رَجُلٍ كُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَفِيهِمْ مُنَافِقٌ وَاحِدٌ لَمْ يَسْكُنْ قَلْبُ الْمُنَافِقِ مَعَ أَحَدٍ مَا لَمْ يَجِدِ الْمُنَافِقَ .

فَدَخَلَ صَالِحٌ وَانْتَهَى إِلَى الْأَخَوَيْنِ ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمَا أَيَّامًا ، وَسَأَلَ عَنْ حَالِهِمَا ، فَأَخْبَرَاهُ أَنََّّهُمَا يَصْبِرَانِ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنََّّهُمَا يَعْمَلَانِ عَمَلَ الْخَوَاصِ ، وَيَمْسُكَانِ قُوَّتَهُمَا وَيَتَصَدَّقَانِ بِالْفَضْلِ ، فَقَالَ صَالِحٌ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَانِي فِي الْأَرْضِ مِنْ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى أَذَى الْكُفَرِ ، فَأَنَا أَرْجِعُ إِلَى قَوْمِي وَأَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ ، فَارْجِعْ إِلَيْهِمْ وَقَدْ كَانُوا خَرَجُوا إِلَى عِيدِ لَهُمْ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَسَأَلُوهُ آيَةً ، فَقَالَ : أَيُّ آيَةٍ تَرِيدُونَ ؟ فَأَشَارَ سَيِّدُهُمْ جَنْدَعُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى صَخْرَةٍ مُنْفَرَدَةٍ يُقَالُ لَهَا الْكَائِنَةُ ، وَقَالَ لَهُ : أَخْرِجْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً وَاسِعَةَ الْجَوْفِ ، كَثِيرَةَ الْوَبَرِ ، عَشْرَاءَ - أَيُّ أَتَتْ عَلَيْهَا مِنْ يَوْمِ أَرْسَلْتُ الْفَحْلَ عَلَيْهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ - فَإِنْ فَعَلْتَ صَدَقْنَاكَ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَوَاقِفَهُمْ : لَنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَتُؤْمِنَنَّ ، قَالُوا : نَعَمْ ، فَصَلَّى وَدَعَا رَبَّهُ ، فَتَمَخَّضَتِ الصَّخْرَةُ تَمَخَّضَ النَّتُوجُ بَوْلُهَا ، فَانْشَقَّتْ عَنْ نَاقَةٍ عَشْرَاءَ جَوْفَاءَ وَبَرَاءَ كَمَا وَصَفُوا ، فَقَالَ : ﴿ يَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ... ﴾ فَاَمِنْ جَنْدَعُ فِي جَمَاعَةٍ وَامْتَنَعَ الْبَاقُونَ»^(١) .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : « وَمَنْعَ الْبَاقِينَ [مِنَ الْإِيمَانِ] دَوَابُ بْنُ عَمْرٍو ، وَالْحَبَّابُ صَاحِبُ أَوْثَانِهِمْ ، وَرِبَابُ كَاهِنِهِمْ ، فَمَكَثَتْ النَّاقَةُ مَعَ وَلَدِهَا تَرْعَى الشَّجَرَ وَتَرْدُ الْمَاءَ غَبَاً^(٢) ، فَمَا تَرَفَعَ رَأْسُهَا مِنَ الْبُئْرِ حَتَّى تَشْرَبَ

(١) تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٤ : ١٥٧ .

(٢) وَتَرْدُ الْمَاءِ غَبَاً : أَنْ تَشْرَبَ يَوْمًا وَتَتْرَكَ يَوْمًا .

كلّ ما فيها ، ثمّ تتفحّج^(١) فيحلبون ما شاءوا حتّى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدّخرون^(٢) ، وهم تسعمائة أهل بيت ، وقيل : ألف وخمسمائة.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِنَا إِنَّ رَبَّنَا هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٥) و (٦٦)

ثمّ أنّه ﷺ لما خاف عليها لما شاهد من إصرارهم على الكفر ، قال : ﴿لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه ، وتشتو بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره ، فشقّ عليهم ذلك ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ واقتسموا لحمها فرقي فصيلها^(٣) جبلا اسمه قارة فرغا^(٤) ثلاثا ، فقال لهم صالح : أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه ، وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها^(٥) ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح : ﴿تَمَتُّعُوا﴾ وتعيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ ومنازلكم ، أو في الدنيا ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ بلا نقص وزيادة ﴿ذَلِكَ﴾ الوعد الذي وعدتكم من نزول العذاب بعد ثلاثة أيام ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ فيه ، أو غير كذب لا يتطرق إليه الخلف.

ثمّ حكى سبحانه إنجاء صالح والمؤمنين بقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وحكمنا بنزول العذاب ، أو نزل عذابنا ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ واتبعوه ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ عظيمة فائضة عليهم من النبوة وخلوص الإيمان ، أو برأفة خاصة بهم ﴿مِنَّا﴾ من عذاب الاستئصال ﴿وَمِن خِزْيِ يَوْمِنَا﴾ وذلة وفضيحة كائنة لهم حينئذ من الموت بالصيحة ، أو من خزي يوم القيامة ، وهو أنّه ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ يا محمد ﴿هُوَ الْقَوِيُّ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على جميع خلقه ، المسلّط على إنفاذ إرادته.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾

فِيهَا أَلَا إِنَّ ثُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثُمُودَ﴾ (٦٨)

ثمّ أنّه تعالى بعد إخباره بما هو الأهمّ من نجاة أوليائه ، أخبر بهلاك أعدائه بقوله : ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بظلمهم ﴿الصَّيْحَةَ﴾ التي فيها صوت كلّ صاعقة ، وصوت كلّ شيء في الأرض - على ما

(١) أي تباعد ما بين رحليها ليحلبوها.

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٢.

(٣) الفصيل : ولد الناقة.

(٤) أي صوّت وضجّ.

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٢.

قيل ^(١) ، وقيل : المراد صيحة جبرئيل ^(٢) - فتقطعت قلوبهم - وقيل : لما وقع بعدها التموّج في الهواء ، وقعت بعدها الرحمة التي أخبر الله بها في سورة الأعراف ^(٣) ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ ومسكنهم ، أو بلادهم ﴿جَانِبَيْنِ﴾ حامدين ، لا صوت لهم ولا حركة ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ في الدنيا ، أو في ديارهم ومسكنهم ، ولم يتعيشوا ﴿فِيهَا﴾ أبداً.

ثم أعلن سبحانه بدمهم وشدة استحقاقهم بقوله : ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ ولم يؤدوا شكر نعمه ، ولذا استحقوا أشدّ العذاب ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ من الرحمة ﴿لِثَمُودَ﴾ وهلاكاً فضيعاً لهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾

في ذكر قصة لوط وقومه

ثم عقب سبحانه قصّتهم بقصة قوم لوط بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ﴾ الملائكة الذين هم ﴿رُسُلُنَا﴾ إلى قوم لوط لإهلاكهم ، ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أولاً ﴿بِالْبُشْرَى﴾ والخبر الموجب لسرور قلبه ، وهو إخباره بولادة إسحاق من سارة ؛ كما عن العياشي ^(٤) ، أو بولادة إسماعيل من هاجر ؛ كما عن الباقر ^(٥) ، أو بسلامة لوط وإهلاك قومه ؛ كما قيل ^(٦) .

وعن ابن عباس : كانوا ثلاثة : جبرئيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ^(٧) .
وعن الصادق ^(٨) : « كانوا أربعة : جبرئيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وكروبييل » ^(٨) .
وقيل : هم جبرئيل ، واثنان عشر ملكاً على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية الحسن ^(٩) .
وقيل : كانوا تسعة ^(١٠) .

فلما حضروا عند إبراهيم ﴿قَالُوا﴾ : نسلم عليك ﴿سَلَامًا﴾ وقيل : يعني قالوا قولاً ذا سلام ، أو ذكروا سلاماً ^(١١) ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ^(١١) محبباً لهم : عليكم ﴿سَلَامٌ﴾ كامل تام من ربكم ، أو مني . قيل : إنه ^(١١) كان كثير المحبة للضيافة ، ومَرَّ عليه خمس عشرة ليلة لا يأتيه الضيف ، فاغتم لذلك ، ثم جاءته

(١ و ٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٦٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣١٤ / ٢٠٣٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣١٣ / ٢٠٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٦ و ٧) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣ .

(٨) مجمع البيان ٥ : ٢٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣ .

(١٠) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣ ، مجمع البيان ٥ : ٢٧٢ .

(١١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٤ .

الملائكة في صورة الأضياف ليسرّ برؤيتهم ، فلمّا رآهم بصورة لم ير مثلهم ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وما توقّف حتّى ﴿أَنْ جَاءَ﴾ عندهم ﴿يَعْجَلُ حَنِيدٌ﴾ ومشويّ في حفرة من الأرض بحجارة محمّاة بغير تنور ومسّ نار ، كفعل أهل البادية ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : يعني : « زكّينا مشويّا نضيجا » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : يعني : « مشويّا نضيجا » ^(٣) .

وقيل : يعني : مشويّا يقطر منه دسمه ^(٤) .

وعنه عليه السلام : « قال عليه السلام ^(٥) : كلوا ، فقالوا : لا نأكل حتّى نخبرنا ما ثمنه ، فقال : إذا أكلتم فقولوا : بسم الله ، وإذا فرغتم فقولوا : الحمد لله » . قال الصادق عليه السلام : « فالتفت جبرئيل إلى أصحابه ؛ وكانوا أربعة رئيسهم جبرئيل ، فقال : حقّ لله أن يتخذ هذا خليلا » ^(٦) .

فلم يأكلوا من العجل ، ولم يمدّوا أيديهم إليه ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم عليه السلام أن ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ بل كانوا ينكتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ويأكلون منه - على ما روي ^(٧) - وكان ترك الأكل أمانة إرادة السوء بالضيف ﴿تَكْرَهُمْ﴾ وكره ذلك منهم ﴿وَأَوْحَسَ﴾ وأدرك في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لظنّه من عدم أكلهم الطّعام إرادتهم السوء به ، أو أنّهم ملائكة أرسلهم الله إليه لأمر أنكره عليه ، أو لتعذيب قومه .

فلمّا رأت الرّسل تشويش قلبه الشّريف ﴿قَالُوا﴾ تسكيناً له : ﴿لَا تَخَفْ﴾ منّا على نفسك وقومك ﴿إِنَّا﴾ ملائكة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ من جانب الله بالعذاب ﴿إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ خاصّة ، فطب نفساً .
﴿وَأَمْرَانَهُ﴾ ابنة عمّه هاران بن ناحور ^(٨) - على ما قيل ^(٩) - ﴿قَائِمَةً﴾ وراء السّتر ، أو في المجلس للخدمة - لكون خدمة الضّيفان من مكارم الأخلاق - فسمعت كلامهم ﴿فَضْجَكَتْ﴾ سرورا بزوال الخوف عن إبراهيم ، أو بالشارة بهلاك أهل الفساد ، أو بهما ، أو بقول جبرئيل : حقّ لمثل هذا الرّجل أن يتّخذ ربه خليلا ، أو موافقة قول الملائكة لقولها لإبراهيم عليه السلام قبل مجيئهم : إنّ الله لا يترك قوم لوط حتّى يعذبهم ، أو برؤيتها أنّ الملائكة أحيوا العجل المشويّ حين سألهم إبراهيم عليه السلام معجزة دالّة

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٢٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣١٣ / ٢٠٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣١٥ / ٢٠٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٦٢ .

(٥) أي إبراهيم عليه السلام .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣١٥ / ٢٠٣٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٥٩ .

(٧) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٤ .

(٨) في مجمع البيان : هاران بن ناحور .

(٩) مجمع ليبيان ٥ : ٢٧٣ .

على كونهم رسل الله ، على ما قيل ^(١) .

وقيل : إنّ معنى « ضحككت » تعجّبت ، كما عن الباقر عليه السلام ^(٢) . أو حاضت من الفزع . وعن الصادق عليه السلام : « يعني حاضت » ^(٣) . وعن القمي : أي حاضت ، وقد كان ارتفع حيضها منذ دهر طويل ^(٤) .

﴿فَبَشِّرْنَاهَا﴾ بتوسط أولئك الرسل ﴿يَاسْحَاقُ﴾ عقيب سرورها أو تعجّبها ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقُ﴾ وبعده ﴿يَعْقُوبُ﴾ قيل : لما حاضت بشرت بالولد ^(٥) .

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ * قالوا

أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ

لُوطٍ (٧٢) و (٧٤)

فَمَا سَمِعْتَ سَارَةَ تَلَكُ الْبَشَارَةَ ﴿قَالَتْ﴾ إظهارا لفصاحة هذا الخبر ، وتعجّباً منه : ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ ويا عجباً ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ بنت تسعة وتسعين سنة ، كما قيل ^(٦) ، أو تسعين سنة ، كما عن أحدهما عليه السلام ^(٧) ﴿وَهَذَا الرَّجُلُ بَعْلِي﴾ وزوجي ترونه ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة سنة ، كما قيل ^(٨) ، أو ابن مائة وعشرين سنة ، كما عن أحدهما عليه السلام ^(٩) . لا يكون ذلك بحسب العادة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الخبر الذي تخبرون به لو وقع ﴿لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وقع بالنسبة إلى عادة الله المسلوكة في عباده . وإنّما كان مقصودها استعظام الأمر ، لا إظهار الشك في قدرة الله .

فلما رأى الرسل تعجّبها ممّا بشروها به ﴿قَالُوا﴾ منكرين عليها : ﴿أَتَعْجِبِينَ﴾ يا سارة ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وشأنه بسبب إيجاد الولد من الكبيرين الفانيين ، مع أنّ قدرته أعظم من ذلك ، حيث إنّهُ خلق الإنسان من تراب ، وسنّته في عموم الناس غير سنّته في خواصّ أوليائه إظهاراً للآية . واعلمي أنّه تكون ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ﴾ ونعمه الفاضلة ﴿وَبَرَكَاتُهُ﴾ النامية وخيراته المتكاثرة نازلتين ﴿عَلَيْكُمْ﴾ محيطتين بكم ، لازميتين لكم يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ومنها إكرامكم بهذه الولادة .

قيل : إنّ الرّحمة هي النبوة ، والبركات هي الأسباط ^(١٠) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٢٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣١٣ / ٢٠٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٠ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣١٤ / ٢٠٣١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٣٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٢٦ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٢٧٣ .

(٧) علل الشرائع : ٥٥١ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٠ .

(٨) مجمع البيان ٥ : ٢٧٣ .

(٩) علل الشرائع : ٥٥١ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٠ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ١٦٤ .

ثم حثوها على الحمد والثناء على الله بقوله : ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ ومحمود بذاته ، أو مستحق للحمد من عباده ﴿مَجِيدٌ﴾ فيما ينعم عليهم. قيل : إن المجيد الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ^(١).
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ وزال ﴿عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّفْعُ﴾ والخوف الذي طرأ عليه ^(٢) من عدم أكل الرسل عنده ، لما عرف أنهم الملائكة ولم يجئوا لتعذيب قومه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ بنجاة قومه ، أو بالولد ، كان ﴿يُجَادِلُنَا﴾ ويكلمنا بمكالمة رسلنا ﴿فِي﴾ شأن ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ ورفع العذاب عنهم بشفاعته.
قيل : إنه قال لهم - حين قالوا : إنا مهلكو أهل هذه القرية : أ رأيتم إن كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين ، أ تهلكونها ؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ العشرة ، قالوا : لا ، قال : فرجل واحد مسلم ؟ قالوا : لا ، قال : إن فيها لوطا ^(٣) .

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ * يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَتْهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا فِي صَنِيعِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٧٥) و (٨١)

ثم لما كان الباعث على المجادلة صفاته الحميدة ، مدحه الله بها بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ ومساهل في الانتقام من المسيئين ﴿أَوَّاهٌ﴾ وشديد الأسف على المذنبين ﴿مُنِيبٌ﴾ ورجاع إلى الله ، ضراع إليه .

ثم قالت الرسل : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ﴾ وكفَّ ﴿عَنْ هَذَا﴾ الجدال والترحم بمن ليس أهلا للرحمة ، والإشفاق على من لا يليق بالشفقة ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وبلغ وقت جريان قدره على وفق قضائه في حق قوم لوط ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ ونازل عليهم ﴿عَذَابٌ﴾ شديد ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ ولا مدفوع عنهم بجدال أو شفاعاة ودعاء.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ١٦٤ .

(٢) في النسخة : طرأه .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٢٩ .

عن ابن عباس : ثم انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط ، وبين القريتين أربعة فراسخ ، ودخلوا عليه على صورة شبان مرد من بني آدم ، وكانوا في غاية الحسن ^(١) .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ ورآهم بتلك الصفة من الحسن والجمال ﴿سَيِّئَ بِهِمْ﴾ وخاف من قومه عليهم ، أو على نفسه حيث منعه من أن يدخل عليه الضيف ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ وقلّت بمكانهم طاقة تحمله ، أو ضاق صدره أو قلبه وانقبض من ورودهم عليه ، لعلمه ببحث قومه ، وعجزه عن دفاعهم عنهم ﴿وَقَالَ﴾ تلّها : ﴿هَذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمَ عَصِيبٍ﴾ وشديد عليّ أمره .

روي أنّ الله تعالى قال للملائكة : لا تهلّكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلمّا مشى منطلقا بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرها ؟ قال : أشهد بالله أنّهم لشرّ قوم في الأرض عملا - يقول ذلك أربع مرّات - ، فدخلوا منزله ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت : إنّ في بيت لوط رجلا ما رأيت مثل وجوههم قطّ ^(٢) .

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ﴾ وهو في بيته مع أضيافه ، وهم ﴿يُفْهَرُغُونَ﴾ ويسرعون ﴿إِلَيْهِ﴾ لشدة طلبهم الفاحشة من أضيافه ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ويرتكبون القبائح ، ويتمرّنون عليها ، بحيث لم يبق في نظرهم قبحها ^(٣) ، ولذا كانوا متجاهرين بها ، غير مستحيين منها . فلمّا رآهم لوط وعلم بقصدهم ﴿قَالَ﴾ لهم وقاية لأضيافه ، وإظهارا لغاية كرامة نفسه : ﴿يَا قَوْمُ﴾ إن تريدون قضاء الشهوة فانظروا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ النسوة ﴿يَنَاتِي﴾ فاقضوا بمنّ الشهوة ﴿مَنْ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وأنزه .

قيل : كانوا يطلبون من قبل ولا يجيبهم ، لخبثهم وعدم كفاءتهم ^(٤) ، ولم يقل ذلك على الجّد والحقيقة ، وإنّما قاله طمعا في أن يستحيوا أو يرقّوا له ، فينزعوا عنه أراذله .

وعن القمي : عني به أزواجهم ، وذلك أنّ النبيّ أبو أمّته ، فدعاهم إلى الحلال ، ولم يكن يدعوهم إلى الحرام ^(٥) .

وحكي ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير ^(٦) .

ثمّ نصّحهم بقوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب الفاحشة بإتيان الذّكران ، ثمّ تصرّع إليهم بقوله : ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ ولا تفضحوني ، أو لا تخلوني عند الناس ﴿فِي﴾ شأن ﴿ضَيْفِي﴾ هؤلاء ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ومهتد إلى الحقّ ، ومنكر لفعل القبيح يردّ هؤلاء الأوباش .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٣١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٧ .

(٣) في تفسير روح البيان ٤ : ١٦٧ واستمروا حتى لم تعب عندهم قباحتها .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٨ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٣٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦١ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٢٧٩ .

عن أحدهما عليه السلام : « أنه وضع يده على الباب ، ثم ناشدهم فقال : « اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ، ثم عرض عليهم بناته بنكاح » ^(١) .

ثم أتهم مع جميع ذلك **﴿قَالُوا﴾** مجيبين له : يا لوط **﴿لَقَدْ عَلِمْت﴾** بعد إقامتك فينا مدة طويلة أنه **﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍ﴾** وحاجة في رفع الشهوة ، أو حق تمتع ، لأنهن لسن لنا بأزواج ، ولا تميل طباعنا أيضا إليهن **﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾** وما نشتهي ، وهو موافقة الذكران ، ولا ننصرف عنها.

فلما يئس لوط من انصرافهم عما هم عليه **﴿قَالَ﴾** تمنيا : **﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾** وعلى دفعكم قدرة بنفسي **﴿أَوْ آوِي﴾** وألتجئ **﴿إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** وناصر قاهر امتنع به عنكم.

وقيل : يعني : أو أن لي أحد الأمرين لفعلت ما فعلت ^(٢) .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله أخي لوطا ، كان يأوي إلى ركن شديد » ^(٣) .

عن الباقر عليه السلام : « رحم الله لوطا لو يدري من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث يقول : **﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾** أي ركن أشد من جبرئيل ؟ » ^(٤) .

روي أنه أغلق أبوابه دون أضيافه ، وأخذ يجادلهم من وراء الباب ، فتسوّروا الجدار ، فلما رأت الملائكة كرب لوط وعجزه عن مدافعتهم **﴿قَالُوا﴾** تسلية له : **﴿يَا لُوطُ﴾** لا تغتم ولا تبال بهم **﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾** وإهم **﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾** بسوء ومكره ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ^(٥) .

وفي (الجوامع) : قال جبرئيل : إن ركنك لشديد ، افتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ^(٦) ، فاستأذن جبرئيل ربه في عقوبتهم فأذن له ، فقام جبرئيل في الصورة التي يكون فيها ، فنشر جناحه ، وله جناحان ، وعليه وشاح من درّ منظوم ، وهو براق الثنايا ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم ، فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء النجاء ، فإنّ في بيت لوط قوما سحرة ^(٧) .

ثم قالوا للوط : **﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾** وعيالك **﴿بِقِطْعٍ﴾** وطائفة **﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾** واخرجوا جميعا من القرية **﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾** ولا ينظر إلى الواء **﴿مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾** أنت وأهلك. قيل : لئلا يبطئوا في السير ، أو لئلا يروا ما ينزل بالقوم من العذاب ، فيرقّوا ^(٨) لهم ، أو المراد : لا يتخلف منكم [أحد] **﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾**

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣١٨ / ٢٠٤٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٣٥ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٩ .

(٤) الكافي ٥ : ٥٤٦ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٢ .

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٩ .

(٦) جوامع الجامع : ٢٠٨ .

(٧) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٦٩ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ١٦٩ .

روي أنه لما أسرى بأهله تبعتهم ، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : يا قوماه ، فأدركها حجر فقتلها ^(١) .

والظاهر ؛ كما عن الأكثر ، الاستثناء راجع إلى قوله : ﴿فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ﴾ لا إلى قوله : ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ والمعنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ من العذاب لا محالة ، فتكون من الهالكين.

ثم ذكروا علّة خروجه بالليل بقولهم : ﴿إِنَّ مُوعِدَهُمْ﴾ ووقت نزول العذاب عليهم هو ﴿الصُّبْحُ﴾ روي أنما لما قالوا : ﴿إِنَّ مُوعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ قال لوط : أريد أعجل من ذلك ، بل الساعة ، فقالوا : ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ^(٢) .

قيل : إنّ علّة توقيت العذاب بالصّبح أنّه وقت الدّعة والرّاحة ، والعذاب فيه أشدّ ^(٣) .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾

* مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٢) و (٨٣)

ثمّ حكى سبحانه كيفيّة العذاب وشدّته بقوله : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وعذابنا ، أو وقت نزوله على القرى السبعة ^(٤) ، وفيها أربعمئة ألف ألف - على ما قيل ^(٥) أو أمرنا به بقولنا : (كن) ، أو أمرنا للملائكة بإهلاكهم ، قلبناها ، بأن ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بتوسّط جبرئيل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ بعد قلبها ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ قيل : إنّ معرّب « سنگ گل » ^(٦) . وقيل : إنّ « سجين » قلبت نونه لاما ^(٧) . وقيل : يعني : من طين ، فإنّ أصل الحجر الطّين ^(٨) ، وقيل : مأخوذ من (سجلّ) ، والمعنى أنّه ممّا كتب الله أن يعدّ بهم به ^(٩) . وقيل : إنّ اسم سماء الدّنيا ^(١٠) . وقيل : معناه موضع الحجارة ، وهي جبال مخصوصة ^(١١) ، وذلك السجّيل ^(١٢) ﴿مَنضُودٍ﴾ وموضوع بعضه فوق بعض ، ليكون معدّا للعذاب ، أو المعنى كان ذلك المطر متتابعاً بنزول بعضه إثر بعض ؛ كقطر الأمطار. وكلّ حجارة ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ ومعلّمة بخطوط حمراء مثل الجزع ^(١٣) ، أو بنقط فيها - كما عن القمّي ^(١٤) أو بأمثال الخواتيم ، أو بسيماء لا تشارك حجارة الأرض ، أو

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٣٦ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٢٩ . (٢) تفسير الرازي ١٨ : ٣٧ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٧٠ .

(٤) في تفسير أبي السعود : قرى قوم لوط ، وهي التي عبّر عنها بالمؤتفكات ، وهي خمس مدائن .

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣٠ .

(٦) ١١ و ٦ تفسير الرازي ١٨ : ٣٨ .

(٧) هذا التعبير لا يتناسب مع قوله : مَنضُودٍ من حيث الإعراب ، فهو يقتضي أن يكون (منضودة) بالرفع .

(٨) الجزع : ضرب من العقيق بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٣٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٣ .

بأنّه كان عليها اسم من رمى بها. وعلى أيّ تقدير كانت تلك الحجارة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وفي خزائنه لا يتصرّف فيها غيره.

ثمّ هدّد سبحانه مشركي عصر النبي ﷺ بقوله : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين هم في هذا العصر ﴿بَعِيدٌ﴾

عن النبي ﷺ أنّه سأل جبرئيل عن هذا ، فقال : يعني ظلمي أمّتك ، ما من ظالم منهم إلّا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة (١) .

عن الباقر عليه السلام : ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [من] ظالمي أمّتك ، إن عملوا ما عمل قوم لوط (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « من مات مصرّاً على اللّواط لم يمّت حتّى يرميه الله بحجر من تلك الحجارة تكون فيه منيته ، ولا يراه أحد » (٣) .

وعنه عليه السلام : « ما من عبد يخرج من الدّنيا يستحلّ عمل قوم لوط إلّا رمى الله كبده من تلك الحجارة تكون منيته فيها ، ولكنّ الخلق لا يرونه » (٤) .

وقيل : إنّ المراد : ليست القرى المؤتفكات من مشركي مكّة ببعيد ، لأنّها كانت في الشّام ، وهو قريب من مكّة (٥) .

عن الباقر عليه السلام : « كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله ، فطلبهم إبليس الطّلب الشّديد ، وكان من فضلهم وخيرهم أنّهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النّساء خلفهم ، فلم يزل إبليس يعتادهم ، وكانوا إذا رجعوا خرّب إبليس ما كانوا يعملون ، فقال بعضهم لبعض : تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا ، فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان ، فقالوا له : أنت الذي تخرب متاعنا مرّة بعد مرّة ، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه ، فجعلوه عند رجل ، فلمّا كان اللّيل صاح ، فقال له : مالك ؟ فقال : كان أبي ينوّمني على بطنه ، فقال له : تعال فتم على بطني ، قال : فلم يزل بذلك الرّجل حتّى علّمه أن يفعل بنفسه ، فأولا علّمه إبليس والثّانية علّمه هو ، ثمّ انسلّ فقرّر منهم ، وأصبحوا وجعل الرّجل يخبر بما فعل الغلام ويعجبهم منه وهم لا يعرفونه ، فوضعوا أيديهم فيه حتّى اكتفى الرّجال بالرّجال بعضهم ببعض ، ثمّ جعلوا يرصدون مازة الطّريق فيفعلون بهم ، حتّى تنكّب (٦) مدينتهم الناس ، ثمّ تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٣٩ .

(٢) الكافي ٥ : ٥٤٦ / ٥ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٦٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٢١ / ٢٠٤٦ ، الكافي ٥ : ٥٤٨ / ٩ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٦٣ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٣٦ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٣٩ .

(٦) أي أعرض عنها وتجنّبها .

فلَمَّا رَأَى أَنَّهُ قَدْ أَحْكَمَ أَمْرَهُ فِي الرِّجَالِ ، جَاءَ إِلَى النِّسَاءِ فَصَيَّرَ نَفْسَهُ امْرَأَةً ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رِجَالَكُمْ يَفْعَلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا كُنْتُمْ تَعْتَدُونَ . وَكُلٌّ ذَلِكَ يَعْظَمُهُمْ لُوطٌ وَيُوصِيهِمْ ، وَإِبْلِيسُ يَغْوِيهِمْ حَتَّى اسْتَغْنَى النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ .

فلَمَّا كَمَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بَعَثَ اللَّهُ جِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيْلَ فِي زَيِّ غُلَمَانٍ عَلَيْهِمْ أَقْبِيَّةٌ ، فَمَرُّوا بِلُوطٍ وَهُوَ يَحْرِثُ فَقَالَ : أَيْنَ تَرِيدُونَ ؟ مَا رَأَيْتُ أَجْمَلَ مِنْكُمْ قَطُّ ، قَالُوا : إِنَّا أَرْسَلْنَا سَيِّدَنَا إِلَى رَبِّ هَذِهِ الْمَدِينَةِ . قَالَ : أَوْ لَمْ يَبْلُغْ سَيِّدُكُمْ مَا يَفْعَلُ أَهْلُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؟ يَا بَنِي إِهْتَمُّ وَاللَّهِ يَأْخُذُونَ الرِّجَالَ فَيَفْعَلُونَ بِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّمُ ، قَالُوا : أَمَرْنَا سَيِّدَنَا أَنْ نَمُرَّ وَسَطَهَا ، قَالَ : فَلْيَ إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ ، قَالُوا : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : تَصِيرُونَ هَاهُنَا إِلَى اخْتِلَاطِ الظَّلَامِ ، فَجَلَسُوا ، فَبَعَثَ ابْنَتَهُ فَقَالَ : جِئِي لِيُخْبِرَا لَكُمْ بِمَا فِي الْقَرْعَةِ ^(١) وَعِبَاءٌ يَتَغَطَّوْنَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ .

فلَمَّا أَنَّ ذَهَبَتِ ابْنَتُهُ أَقْبَلَ الْمَطَرُ وَالْوَادِي ، فَقَالَ [لُوطٌ] : السَّاعَةُ يَذْهَبُ بِالصَّبِيَّانِ الْوَادِي ، قَالَ : قُومُوا حَتَّى نَمُضِيَ ، وَجَعَلَ لُوطٌ يَمْشِي فِي أَصْلِ الْحَائِطِ ، وَجَعَلَ جِبْرِيْلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيْلُ يَمْشُونَ وَسَطَ الطَّرِيقِ ، فَقَالَ يَا بَنِي امشُوا هَاهُنَا ، فَقَالُوا : أَمَرْنَا سَيِّدَنَا أَنْ نَمُرَّ فِي وَسَطِهَا ، وَكَانَ لُوطٌ يَسْتَعْنِمُ الظَّلَامَ ، وَمَرَّ إِبْلِيسُ فَأَخَذَ مِنْ حَجَرِ امْرَأَةٍ صَبِيًّا فَطَرَحَهُ فِي الْبُيْرِ ، فَتَصَايَحُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ كُلُّهُمْ عَلَى بَابِ لُوطٍ ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَى الْغُلَمَانِ فِي مَنْزِلِ لُوطٍ ، قَالُوا : يَا لُوطُ قَدْ دَخَلْتَ فِي عَمَلِنَا ، قَالَ : هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِي فِي ضَيْفِي ، قَالُوا : هُمْ ثَلَاثَةٌ ، خُذْ وَاحِدًا وَأَعْطِنَا اثْنَيْنِ . قَالَ : فَأَدْخَلَهُمْ فِي حَجَرَةٍ ، وَقَالَ : لَوْ أَنَّ لِي أَهْلَ بَيْتٍ يَمْنَعُونِي مِنْكُمْ ، فَتَدَافَعُوا عَلَى الْبَابِ وَكَسَرُوا بَابَ لُوطٍ وَطَرَحُوا لُوطًا ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيْلُ : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ فَأَخَذَ كُلُّهُمْ مِنْ بَطْحَاءٍ فَضَرَبَ بِهَا وَجُوهَهُمْ وَقَالَ : شَاهَتِ الْوُجُودُ فَعَمِيَ أَهْلُ الْبَلَدِ كُلُّهُمْ ، فَقَالَ لَهُمْ لُوطٌ : يَا رَسُولَ رَبِّي فَمَا أَمْرُكُمْ رَبِّي فِيهِمْ ؟ قَالُوا : أَمَرْنَا أَنْ نَأْخُذَهُمْ بِالسَّحَرِ ، قَالَ : فَلْيَ إِلَيْكُمْ [حَاجَةٌ] قَالُوا : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : تَأْخُذُونَهُمُ السَّاعَةَ ^(٢) ، فَقَالُوا : يَا لُوطُ ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ لَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ ، فَخَذَ أَنْتَ بَنَاتَكَ وَدَعَ امْرَأَتَكَ ^(٣) .

وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلْ بَعَثَ أَرْبَعَةَ أَمْلَاحَ فِي إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ : جِبْرِيْلُ ، وَمِيكَائِيلُ ، وَإِسْرَافِيْلُ وَكَرُوبِيْلُ ، فَمَرُّوا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُمْ مَعْتَمُونَ ، فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ فَلَمْ يَعْرِفَهُمْ ، وَرَأَى هَيْئَةً حَسَنَةً فَقَالَ : لَا يَخْدُمُ هَؤُلَاءِ إِلَّا أَنَا بِنَفْسِي ، وَكَانَ صَاحِبُ ضِيَاةٍ ، فَشَوَى لَهُمْ عَجَلًا سَمِينًا حَتَّى أَنْضَجَهُ ، ثُمَّ قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا وَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، فَلَمَّا رَأَى

(١) القرعة : واحدة القرع : وهو نبات الدَّبَاءِ ، تستخدم قشوره كإِنَاءٍ لِلْمَاءِ وَغَيْرِهِ .

(٢) زاد في الكافي : فإني أخاف أن يبدو لربي فيهم .

(٣) الكافي ٥ : ٥٤٤ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٤ .

ذلك جبرئيل حسر العمامة عن وجهه فعرفه إبراهيم ، فقال : أنت هو ، قال : نعم. ومَرَّت سارة امرأته فبَشَّرَها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، فقالت : ما قال الله عَزَّجَلْ ، وأجابوها بما في الكتاب العزيز ، فقال لهم إبراهيم : لماذا جئتم ؟ قالوا : في إهلاك قوم لوط ، فقال : إن كان فيهم مائة من المؤمنين أَتَهْلِكُونَهُمْ ؟ قالوا : لا ... إلى آخر ما سبق من مجادلة إبراهيم ، بتفاوت يسير .

قال الراوي : [قال عَزَّجَلْ] « لا أعلم هذا القول إلَّا وهو يستبقيهم ، وهو قول الله عَزَّجَلْ : ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ فَأَتُوا لوطاً وهو في زراعة قرب القرية ، فسَلَّمُوا عليه وهم معتمون ، فلَمَّا رَأَى هيئة حسنة ، عليهم ثياب بيض ، وعمائم بيض ، فقال لهم : المنزل ؟ فقالوا : نعم ، فتقدَّمهم ومشوا خلفه فتندَّم على عرضه المنزل عليهم وقال : أي شيء صنعت ، أن آتي [بهم] قومي وأنا أعرفهم ! فالتفت إليهم فقال : إنَّكم لتأتون شرارا من خلق الله ، قال جبرئيل : لا نعجل عليهم حتَّى يشهد عليهم ثلاث مرَّات ، وقال هذه واحدة ، ثمَّ مشى ساعة ثمَّ التفت إليهم وقال : إنَّكم لتأتون شرارا من خلق الله ، قال جبرئيل : هذه ثنتان ، ثمَّ مشى فلَمَّا بلغ المدينة التفت إليهم فقال : إنَّكم لتأتون شرارا من خلق الله ، فقال جبرئيل : هذه الثالثة ، ثمَّ دخل ودخلوا معه حتَّى دخل منزله ، فلَمَّا رأتهم امرأته رأت

هيئة حسنة ، فصعدت فوق السطح وصققت : فلم يسمعوا ، فدخنت ، فلَمَّا رأوا الدخان أقبلوا يهرعون حتَّى جاءوا إلى الباب ، فنزلت إليهم فقالت : عنده قوم ، ما رأيتم قوما قطَّ أحسن منهم هيئة ، فجاءوا إلى الباب ليدخلوا ، فلَمَّا رآهم لوط قام إليهم ، فقال لهم : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ وقال : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدعاهم إلى الحلال ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ فقال : ﴿لَوْ أَنَّنِي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى ذُكُنٍ شَدِيدٍ﴾ فقال جبرئيل : لو يعلم أيُّ قوَّة له .

قال : فكاثروه ^(١) حتَّى دخلوا البيت ، فصاح به جبرئيل وقال : يا لوط دعهم يدخلون ، فلَمَّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم ، فذهبت أعينهم ، وهو قول الله عَزَّجَلْ : ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ^(٢) ، ثمَّ ناداه جبرئيل فقال له : ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ بَصُلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ وقال له جبرئيل : إِنَّا بعثنا في إهلاكهم ، فقال : يا جبرئيل عَجَّل ، فقال : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ فأمره فتحمل هو ومن معه إلَّا امرأته ، ثمَّ اقتلعها - يعني المدينة - جبرئيل بجناحيه من سبعة أرضين ، ثمَّ رفعها حتَّى سمع أهل السَّماء ^(٣) نباح الكلاب وصراخ الديوك ، ثمَّ قلبها وأمطر عليها وعلى

(١) أي غالبوه بالكثرة.

(٢) القمر : ٥٤ / ٣٧ .

(٣) في الكافي : أهل السماء الدنيا .

من حول المدينة حجارة من سجيل» (١) .

وعن الباقر عليه السلام : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ يا لوط ، إذا مضى من يومك هذا سبعة أيام وليالها ﴿يَقْطَعِ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قال : فلما كان اليوم الثامن مع طلوع الفجر قدم [الله] رسلا إلى إبراهيم يبشرونه بإسحاق ويعزونه بهلاك قوم لوط ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ (٢) .
أقول : لا يخفى ما في روايات هذه القصة من الاختلاف من جهات كثيرة ، والذي يهون الخطب أنه لا حجية فيها. ولا بأس بالتبرع بحمل بعضها على الإجمال ، وبعضها على التفصيل ، وبعضها على اشتباه الراوي.

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٍ (٨٤)﴾

ثم ذكر سبحانه بعد قصة هلاك قوم لوط قصة هلاك قوم شعيب ، بعد إتمام الحجة عليهم ، وإصرارهم على الكفر والطغيان ، إرعابا لقلوب المشركين ، وتسليّة للنبي صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿وَالِى﴾ قبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾ وهم أولاد مدين بن إبراهيم الخليل ، سموا باسم جدّهم الأعلى ، أو المراد : أهل مدين - وهي بلدة بناها مدين وسميت باسمه (٣) - أرسلنا ﴿أَخَاهُمْ﴾ وواحدا منهم ، كان اسمه ﴿شُعَيْبًا﴾ ليدعوهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام ﴿قَالَ﴾ لهم بلين ورفق : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده واتركوا عبادة غيره ، لأنه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ﴾ ومعبود مستحق للعبادة ﴿غَيْرُهُ﴾

ثم أنه عليه السلام بعد ردعهم عن أشنع العقائد التي كانوا عليها ، نهاهم عن أقبح الأعمال التي كانوا حريصين عليها بقوله : ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ حين تؤدّون حقوق الناس بالكيل أو الوزن ، ولا تظلموهم بالسرقة من أموالهم عند إيفائها.

ثم نصحهم بقوله : ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ﴾ متلبّسين ﴿بِخَيْرٍ﴾ وسعة في المعاش ، وثروة مغنية لجميع حوائجكم ، فلا تتوسّلوا إلى ازديادها بالظلم على الناس ، أو المراد : إنّى أراكم محاطين بنعم الله التي كان حقّها أن تشكروها بالإحسان إلى غيركم ، فلا تزيّلوها بكفراخا بما أنتم عليه من الظلم.
ثم هدّدهم عليه بقوله : ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من أن تلاقوا في الدّنيا ، أو في الآخرة ، أو فيهما،

(١) الكافي ٥ : ٥٤٦ / ٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٥ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٣٣ / ٢٣٣٩ ، علل الشرائع : ٥٤٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٣ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣١ .

بعملكم هذا ﴿عَذَابٌ يَوْمٌ مُحِيطٌ﴾ بكم ، ذلك اليوم بما فيه من الشرور ، إحاطة الدائرة بما فيها ، بحيث لا ينجو منها أحد.

قيل : إن التهديد بتوصيف اليوم بالإحاطة ، أبلغ من توصيف العذاب بها ^(١) .

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا

تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥)

ثم أكد ردعهم عن عادتهم الشنيعة بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ والعدل عند إيفائكم الحقوق إلى صاحبها ، أو استيفائكم حقوق أنفسكم من غيركم. ومن المعلوم أن لازم وجوب الوفاء الاحتياط فيه عند الشك فيه ، حتى يعلم بحصوله.

عن الباقر عليه السلام : « وجدنا في كتاب رسول الله ﷺ إذا طُفِّفَ ^(٢) المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والتقص » ^(٣) .

وفي رواية أخرى : « وشدة المؤنة ، وجور السلطان » ^(٤) .

ثم عمم التهي عن تنقيص جميع الحقوق ولو كان إيفاءها بغير المكيال والميزان بقوله : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ ولا تنقصوهم ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ التي يجب عليكم أن تؤدوها إليهم بالكيل والوزن ، أو بغيرهما من الأموال والحقوق.

ثم عمم التهي لمطلق الإضرار على الغير ، والإفساد في دينهم أو دنياهم بقوله : ﴿وَلَا تَعْتُوا﴾ ولا تسعوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ مصالح أنفسكم وأبناء نوعكم ، دنيوياً واخروياً ، أو المراد : لا تسعوا في إفساد أمور غيركم حال كونكم بهذا الإفساد مفسدين في أمور أنفسكم.

﴿بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ (٨٦)

ثم بالغ في التصح بقوله : ﴿بَقِيَ اللَّهُ﴾ وما رزقكم من الحلال ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع مما تكتسبون بالتطفيف والبخس وغيرهما ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بأحكام الله وثوابه وعقابه في الآخرة ، تصدقون قولي ، أو المراد : إن كنتم مصدقين بأبي ناصح لكم ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ ورفيق حتى أحبركم على ترك القبائح ، أو حافظ لأعمالكم كي اجازيكم بها ، وإنما أنا نذير والله هو الخفيظ ، أو المراد : وما

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣١ .

(٢) طُفِّفَ المكيال : إذا بخسه ونقصه .

(٣) الكافي ٢ : ٢٧٧ / ٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٧٧ / ١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٧ .

أنا بحافظ عليكم نعم الله إن لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفران الموجب لزوالها.

عن الباقر عليه السلام : « أَنْ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ [به] القائم حين يخرج ، هذه الآية : ﴿ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ثم يقول : أنا بقية الله [في أرضه] وحيته وخليفته عليكم ، فلا يسلم عليه مسلم إلا قال : السلام عليك يا بقية الله في أرضه » ^(١) .

روي أَنَّ الباقر عليه السلام صعد جبلا يشرف على مدين حين اغلق دونه باب مدين ، ومنع أن يخرج إليه بالأسواق ، فخطبهم بأعلى صوته : « يا أهل المدينة الظالم أهلها ، أنا بقية الله ، يقول الله : ﴿ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ﴾ وكان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم : يا قوم ، هذه والله دعوة شعيب النبي ، والله لئن لم تخرجوا إلى هذه الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم » ^(٢) .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ (٨٧) و (٨٨) ﴾

ثم أَنَّ القوم بعد إبلاغ التصح والإنذار ﴿ قَالُوا ﴾ لشعيب عنادا واستهزاء : ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ وتدعوك إلى أن تأمرنا ﴿ أَنْ نَتْرَكَ ﴾ عبادة ﴿ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ، ﴿ أَوْ ﴾ نترك ﴿ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ من التصرف بالزيادة والتقص ، والأخذ والإعطاء.

قيل : إنه عليه السلام كان يصلي بالليل ، ويعظ قومه بالنهار وينهاهم عن تقطيع أطراف الدراهم والدنانير ^(٣) ، والبخس والتطفيف . وكانوا إذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضحكون ^(٤) ، ولذا أسندوا مواعظه إلى الخطرات الحاصلة له من مواظبته على الصلاة.

ثم وصفوه بالعقل والرشد تهما كما بقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ والعقل المهتدي إلى كل خير . والمقصود ضدهما ، والإشعار بأنه السفيه الضال . وعليه يحمل ما عن القمي : أنهم قالوا : إِنَّكَ

(١) كما الدين : ٣٣١ / ١٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٨ .

(٢) الكافي ١ : ٣٩٢ / ٥ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٨ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٦٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ١٧٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣٢ .

لأنت السّففيه الجاهل ، فحكى ^(١) الله عَزَّجَ قولهم : فقال : ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ^(٢) .

وقيل : إنّ الحليم الرشيد ؛ بلغة أهل مدين ، الأحق السّففيه ^(٣) .

وقيل : إنّّه تعليل لما سبق من استبعادهم قوله ، والمعنى : إنّك لأنّ الحليم الرشيد على زعمك ،

فلا ينبغي منك هذه الأقوال الفاسدة ^(٤) .

﴿قَالَ﴾ شعيب : ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وحجّة واضحة على نبوّتي ، أو
حكمة كاملة أوتيتها ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّي﴾ ومليكي ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ﴾ بفضلله ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ ومالا حلالا
يكفيّني في معيشتي وراحتي ، أو وهبني من التّبوّة مرتبة عالية ، فهل يسعني ؛ مع هذا الإنعام العظيم
وتفضّله عليّ بالسّعادة الجسمانيّة والروحانيّة ، أن أقصر في تبليغ وحيه ، وإخالفه في أمره ونهيّه ، بأن أوافق
معكم ولا آمركم بترك عبادة الأصنام وقبائح الأعمال ، مع أنّه تعالى أرسلني إليكم لذلك ؟ ! ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾
بنصحي لكم وردعكم عمّا أنتم عليه ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ وما أنا مائل ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمْ﴾ وأزجركم ﴿عَنْهُ﴾ من
المشتهيات ، بل أختار لكم ما أختار لنفسي ، وأزجركم عمّا أنزجر عنه ، وأنتم تعرفون من حالي مدّة
عمري بينكم أيّ ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ وما أطلب بنصحي ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ لنفوسكم وأعمالكم ، وتنزيهكم عن
القبائح مقدار ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ من الإصلاح ، أو ما دمت متمكّنا منه ، وما أريد إلقاء الفتنة فيكم ﴿وَمَا
تُؤْفِقُنِي﴾ لإنفاذ مقصودي وتحقيق مرامي المذكور ﴿إِلَّا بِاللّٰهِ﴾ الموقّق لكلّ خير . وفيه تنبيه على عدم جواز
اعتماد المؤمن في أعماله على قدرته .

ثمّ قرّر ذلك بقوله : ﴿عَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت في القيام بوظيفتي عمّا سواه ؛ لأنّه
القادر على كلّ شيء ، وما سواه عاجز عن كلّ شيء ﴿وَالِإِلَهِ أَنْيَبُ﴾ وأرجع فيما أنا بصددّه من
الإصلاح والإرشاد ، أو إليه أقبل بشرائري في جميع اموري . وفيه إعلان بكمال توحيده ، وبعدم مبالاته
بعداوة النّاس ، وإشعار بمعرفته بالمعاد .

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ
رَبِّي رَحِيمٌ وَذُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقُهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا
ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ

(١) في المصدر : فكى .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٦٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ١٧٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٣٣ .

﴿عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ زَقِيبٌ (٨٩) وَ (٩٣)﴾

ثم بالغ في نصيحهم بقوله : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ ولا يحملنكم ﴿شِقَاقِي﴾ وعداوتي على ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ بكفركم ولجاجكم ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من العذاب ، فإن لم تعتبروا بأولئك الأمم المهلكة ؛ لبعد مكائهم وزمانهم ، فاعتبروا بقوم لوط ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ مكانا لقرب بلادهم من مدين ، وزمانا لكون زمان إهلاكهم أقرب إلى زمانكم من زمان هلاك هؤلاء الأقوام ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الإشرار به ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ من التطفيف وغيره من المعاصي ، حتى يغفر لكم ، ويتوب عليكم ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ﴾ بعباده التائبين ﴿وَذُودٌ﴾ ومحبت لهم ، ينجيهم من العذاب ، ويعطيهم الثواب.

﴿قَالُوا﴾ بعد تلك المواعظ الكافية ، إهانة له : ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ولا نفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ قيل : إنما كانت علة عدم فهمهم غاية نفرتهم عن كلامه ^(١) ، أو عدم معرفتهم صحة دلائل التوحيد ، وشناعة البخس والتطفيف.

ثم بالغوا في تحقيره بقولهم : ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا﴾ وبيننا ﴿ضَعِيفًا﴾ في القوى الجسمانية ، بحيث لا تقدر على الدفاع إن أذيناك وقتلناك ، أو مهينا لا عز لك ﴿وَلَوْ لَا رَهْطُكَ﴾ وحرمة أقرارك الذين هم على ديننا ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ وقتلناك بأسوأ القتل ، وهو رميك بالحجارة ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ومكرم ، وإنما يحفظك من الرجم حرمة قومك لا حرمتك.

﴿قَالَ﴾ شعيب : ﴿يَا قَوْمِ أَرْهَطِي﴾ وعشيرتي ﴿أَعِزُّوا﴾ وأكرم ﴿عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ العزيز القاهر الذي أرسلني إليكم لتبليغ توحيده وأحكامه ، فإن إهانتني وإيذائي إهانتته وإيذاؤه ﴿وَوُ﴾ أنتم ﴿اتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ وبذتموه خلف أظهركم ، وجعلتموه منسيا لا تعتنون به أبدا.

ثم إنه بعد توبيخهم على جعل رعاية قومه أولى من رعاية حرمة الله ، هددهم بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من القبائح والسيئات ﴿مُحِيطٌ﴾ ومطلع ، بحيث لا يخفى منه شيء ، فيجازيكم عليها أسوأ الجزاء ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ واسعوا في الإضرار بي ، وإيصال الشر إلي ﴿عَلَى﴾ قدر ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ ووسعكم ، بلا تقصير وتوان ، و﴿إِنِّي﴾ أيضا ﴿عَامِلٌ﴾ ومجدد قدر وسعي في التبليغ وإتمام الحجة

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٤٦٧.

عليكم ، إذن ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعن قريب تشهدون ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾ من قبل الله ﴿عَذَابٌ﴾ شديد ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويذله فوق الدّل الذي يلزمه الهلاك بمطلق العذاب ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ في دعواه ، أنتم في دعوى الشّرك ، أو أنا في دعوى التّوحيد ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا عاقبة أمري وأمركم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ومنتظر لذلك.

عن الرضا عليه السلام : « [ما] أحسن الصّبر وانتظار الفرج ! أما سمعت قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾^(١) .

عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه كان إذا ذكر شعيبا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » لحسن مراجعته في كلامه بين قومه^(٢) .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ (٩١) وَ (٩٥)﴾

ثمّ حكى الله لطفه بشعيب والمؤمنين ، وغضبه على أعدائهم بقوله : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وعذابنا ، أو وقت أمرنا ملكا بإهلاكهم بالصّيحة ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وفضل ﴿مِنَّا﴾ أو بإيمان وطاعة وقّناهم لهما ﴿وَأَخَذَتِ﴾ الكافرين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر ﴿الصَّيْحَةُ﴾ السّماوية المهلكة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أو صاروا دفعة ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ ومسكنهم ﴿جَائِمِينَ﴾ ميّتين لا حراك لهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ في الدّنيا ، ولم يعيشوا ﴿فِيهَا﴾ أبدا ﴿أَلَا﴾ يا أهل العالم ﴿بُعْدًا﴾ من الرّحمة الواسعة الإلهية ، وهلاكها دائما ﴿لِمَدِينٍ﴾ وأهله ﴿كَمَا بَعْدَتْ﴾ وهلكت ﴿ثُمُودُ﴾

عن ابن عباس : لم يعذب الله تعالى امتين بعذاب واحد ، إلّا قوم شعيب ، وقوم صالح . فأما قوم صالح فأخذتهم الصّيحة من تحتهم ، وأما قوم شعيب فأخذتهم من فوقهم^(٣) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ﴾

(١) كمال الدين : ٦٤٥ / ٥ ، مجمع البيان : ٢٨٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ١٧٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٥١ .

الْمَرْفُودُ (٩٦) و (٩٩)

ثمّ ختم سبحانه قصص الأنبياء وهلاك امهم بقصة موسى وهلاك فرعون وقومه بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ وهي التّوراة والشّرائع ، كما قيل ^(١) ، أو المعجزات الباهرات ؛ على قول آخر ^(٢) ، ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والبرهان القاطع ، على قول ، أو المعجزات التسع ، على آخر ^(٣) ، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ﴾ وأشرف قومه ، أمّا فرعون فجحدده وعارضه ، وأمّا ملأه ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ وامتلوا ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ إيتاهم بالكفر والجحود لنبوّة موسى ﷺ ، وتكذيبه فيما جاء به ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وذو صلاح أو محمود العاقبة ، بل كان عين الغي والضلال.

وكما كان هو قدوة ومتّبعاً لهم في الكفر والفساد في الدّنيا ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ الأشرف منهم والأراذل ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهم يتبعونه في طريق جهنّم ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ الموقدة ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ﴾ وساء المكان الذي يدخلونه ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ واردفوا ، أولئك القوم الذين اتّبعوه ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ لعنة عظيمة دائمة ، حيث تلعنهم الامم إلى يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حيث يلعنهم جميع أهل الموقف ، بسبب اتّباعهم أمر فرعون ﴿بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾ وساء العطاء المعطى ، أو العون المعان به تلك اللّعة.

القمّي : ﴿فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ يعني : الهلاك والغرق ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [أي] يرفدهم الله بالعذاب ^(٤) . فإذا كان حال الاتّباع هكذا ، فكيف يكون حال المتبوع ؟ !

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١٠٠)

ثمّ استدلّ سبحانه بصدق هذه القصص على صدق النّبي ﷺ ، مع كونه أمّياً ، بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ المهلكة ، الذي لا تعلمه أنت ولا قومك ، وإنّما نحن ﴿نَقِصُهُ﴾ بالوحي ﴿عَلَيْكَ﴾ فلا مجال للشك في نبوتك.

وأمّا تلك القرى التي نزل فيها العذاب ، فبعض ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ وبقا إلى الآن بأساسه وبنيناها ^(٥) كالزّرع القائم على ساقه ، ﴿وَمِنْهَا﴾ ﴿حَصِيدٌ﴾ وعافى الأثر كالزّرع المحصود. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٥٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٥٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٥٣ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٣٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧١ .

(٥) في النسخة : بأساسها وبنيناها .

ذُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَّيِبٍ * وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ
إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ

خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠١) و (١٠٣)

ثم نبه سبحانه على أن تعذيب أهالي القرى كان بمقتضى العدل بقوله : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتعذيبهم ﴿وَلَكِنْ﴾ هم ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للهلاك بسبب اختيارهم الكفر ، وارتكابهم العصيان .
ثم ونحهم على عبادة الأصنام بقوله : ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ وما نفعتهم في دفع العذاب عنهم بالقدرة أو الشفاعة ﴿آلِهَتُهُمْ﴾ وأصنامهم ﴿الَّتِي﴾ كانوا ﴿يَدْعُونَ﴾ ويعبدونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يسير ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعذابه ، لعدم قدرتهم ومكانتهم عند الله ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بعبادتهم ﴿غَيْرَ تَتَّيِبٍ﴾ وهلاك وتخسير .

ثم بين سبحانه عمومية عذابه لكل أمة ظالمة بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الأخذ الشديد الذي كان للامم المذكورة ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ وعذابه ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وعذب أهاليها وهم كفار طغاة ﴿إِنَّ أَخَذَهُ﴾ وعذابه ﴿أَلِيمٌ﴾ وموجع ﴿شَدِيدٌ﴾ في الغاية .

عن النبي ﷺ : « أَنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ الظَّالِمَ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ » . ثم تلا هذه الآية (١) .
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الأخذ للامم الهالكة ، أو في المذكور من قصصهم ﴿لَآيَةً﴾ وعبرة كاملة ، وموعظة شافية ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ لأنه المعتبر به ، حيث إنه يستدل بما حاق بهم من العذاب في الدنيا بسبب الكفر والعصيان على شدة عذاب الآخرة . وأما من ينكر الآخرة ، فإنه لا يتأثر بهذه الحوادث ، لأنه يسندها إلى الأوضاع الفلكية والأسباب الاتفاقية .

ثم وصف سبحانه يوم القيامة ترهيباً للقلوب بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ من الأولين والآخرين ، للحساب والجزاء ﴿وَذَلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ ومحضر فيه جميع الخلائق من أهل السماوات والأرضين ، ليشهدوا أعمال العباد وجزاءهم عليها .

القَمِّي : يشهد عليهم الأنبياء والرسل (٢) .

وعن أحدهما ﷺ ، في هذه الآية : « فذلك يوم القيامة ، وهو اليوم الموعود » (٣) .

عن السجادة ﷺ : « واعلم أنَّ من وراء هذا أعظم وأوقع للقلوب ، يوم القيامة ﴿ذَلِكَ﴾

يَوْمٌ

(١) مجمع البيان ٥ : ٢٩٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٢ / ٢٠٥٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٢ .

مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١﴾ يَجْمَعُ اللَّهُ عِزَّكَ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١﴾ .

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ

سَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا

دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٥) و (١٠٧)﴾

ثمَّ بيّن سبحانه علّة تأخيره بقوله : ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ لعلّة من العلل ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ وانقضاء مدّة قليلة تقتضيها الحكمة البالغة ، فإذا انقضت فلا بدّ من خراب الدّنيا وقيام القيامة ، وكلّ آن قريب .

ثمَّ قرّر سبحانه عظمة ذلك اليوم ، بذكر بعض أحواله بقوله : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ الأمر المهيب الهائل ، أو ذلك اليوم ؛ بتأويل اليوم المذكور بحين ، إذن ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ ولا تنطق فيه بما ينفعها من الاعتذار والشفاعة والجواب ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وإرادته ، أو بترخيصه لها في التكلّم . قيل : إنّه في بعض المواقف (٢) .

ثمَّ بيّن سبحانه أحوال أهل الموقف بقوله : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وخبث النفس والعمل ، مستحقّ للعذاب ﴿وَسَعِيدٌ﴾ منهم طيّب النفس والعمل ، مستحقّ للثواب والإكرام .

ثمَّ كأنّه قيل : ما حالهم وشأنهم ؟ فأجاب تعالى بقوله : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فَفِي النَّارِ﴾ يدخلون ويستقرّون ، فيشتدّ كربهم وبلاؤهم ، بحيث يكون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وصوت كصوت الحمار عند ردّ نفسه ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وصوت كصوته عند إخراج نفسه .

وقيل : الزّفير في الحلق ، والشّهيق في الصّدر (٣) .

وقيل : الزّفير الصّوت الشّديد ، والشّهيق الصوت الضّعيف (٤) .

وقيل : الزّفير ما يجتمع في الصّدر من النفس عند البكاء الشّديد ؛ فينقطع النّفس ، والشّهيق هو الصوت الذي يظهر عند اشتداد الكرب والحزن ، وربّما تتبعهما الغشية ، وربّما حصل عقيبهما الموت (٥) . والمراد وصف شدّة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، وانحصر فيه روجه . وعن ابن عبّاس قال : ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ يريد ندامة ، ونفسا عاليا ، وبكاء لا ينقطع ، وحزنا لا يندفع (٦) .

وقيل : الزّفير لهيب جهنّم ، يرفعهم بقوّته ، حتّى إذا وصلوا إلى أعلى درجات جهنّم وطمعوا في

أن

(١) الكافي ٨ : ٧٣ / ٢٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٢ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٤١ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٦٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٦٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ٦٣ .

يخرجوا منها اعيدها فيها ، ويردّوا إلى أسفل دركاتهما ، فالزفير ارتفاعهم في النار ، والشهيق انحطاطهم فيها (١) ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وبقيها في عالم الآخرة ، فإن لأهل الآخرة سماوات وأرضاً لقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (٢) ، وللروايات الدالة على أنّ لجهنّم جبلا وأودية.

وقيل : إنّ الكلمة كناية في لسان العرب عن الدوام (٣) ؛ كقولهم : ما لاح كوكب ، وما اختلف الليل والنهار ، ولو لم تكن سماوات وأرض وكوكب ، للتصوص القاطعة على دوام العذاب والنعم في الآخرة وأبديتهم ، فلا مجال للقول بانقطاع عذاب الكفار للآية وبعض الوجوه الفاسدة.

وقيل : إنّ المراد : السماوات والأرض الدنيوية (٤) .

وعن القمي : هذا في نار الدنيا قبل يوم القيامة (٥) .

وقيل : إنّ الأبدية مفهومة من قوله : ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ بناء على أن (إلا) بمعنى سوى ، والمعنى : أنّهم يكونون في النار في مدة بقاء السماوات والأرض سوى ما يتجاوز عن ذلك من الزيادة التي لا آخر لها (٦) .

وفيه من الضعف ما لا يخفى ، وأكثر المفسرين على أنّ الاستثناء على (حقبا) ، وأنّ الآية في بيان عذاب الكفار في الآخرة لا في البرزخ ، والمعنى : إلا زمانا شاء ربك عدم خلودهم فيها ، ولم يشأ ولا يشاء ذلك أبدا ، وإتاما المقصود بيان أنّ خلودهم فيها بإرادة الله ولو شاء لا يخلدهم ، ولكن لا يشاء ذلك البتة ، للأدلة القطعية على خلودهم فيها وعدم خروجهم منها. ويؤيد ذلك تذييل الآية بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلْ لِمَا يُرِيدُ﴾

وقيل : إنّ المراد من المستثنى مدة أعمارهم في الدنيا ، أو مدة مكثهم في القبر والبرزخ ، أو في المحشر للحساب ، ثم يصيرون إلى النار (٧) . والكل فاسد.

وقيل : زمان خروجهم من النار ، وانتقالهم إلى الزمهرير وسائر أنواع العذاب (٨) .

وقيل : إنّ المراد استثناء أشقياء أهل التوحيد ، فإنّه لا خلود لهم فيها (٩) .

وعن الباقر عليه السلام : « هاتان الآيتان - يعني : هذه الآية ، وما بعدها - في غير أهل الخلود من الأشقياء والسعداء » (١٠) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٦٢ .

(٢) إبراهيم : ١٤ / ٤٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٦٤ .

(٤) تفسير الصافي ٢ : ٤٧٣ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ٦٥ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ٦٦ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٣ / ٢٠٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٣ ، وفيهما : من أهل الشقاوة والسعادة .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ (١٠٨)

ثمّ بيّن سبحانه حال السّعداء بقوله : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ ووحدوا ربّهم ، وبذلوا جهدهم في طاعته ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ يدخلون ويستقرون ، حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ودائمين ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهو يعطيهم ذلك ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ ويفضّل عليهم تفضّلا غير مقطوع عنهم أبدا.

ويأتي في الآية كلّ ما ذكر في سابقتها من الوجوه ، لدفع المنافاة بين تقييد الدّوام فيها بدوام السّماوات والأرض والاستثناء ، وبين ما علم من الأدلّة القطعيّة من الدّوام الأبدي بلا استثناء. وقيل في الآية : إنّ السّعداء قد يرفعون إلى العرش ، ومقام الرّضوان ، والمنازل الرّفيعة التي لا يعلمها إلّا الله ^(١) .

وفيه : إنّ الخروج من الجنّة ولو أنا ما مناف للأدلّة القطعيّة على الخلود فيها. وأمّا مقام الرّضوان والمنازل الرّفيعة ، فكأنّها في الجنّة ليس بخارج منها.

وعن الصادق عليه السلام أنّه قال : « قال الجاهل بعلم التّفسير : إنّ هذا الاستثناء من الله إنّما هو لمن دخل الجنّة والنّار ، وذلك أنّ الفريقين جميعا يخرجان منهما فتبقيان وليس فيهما أحد وكذبوا ، فإنّ الله تعالى ليس يخرج أهل الجنّة ولا كلّ أهل النّار منهما أبدا ، كيف يكون ذلك وقد قال الله في كتابه : ﴿مَا كَيْفِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ ^(٢) ليس فيه استثناء ؟ » ^(٣) .

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾

﴿وَإِنَّا لَمَوْفُونَ بِمَا نَعْبُدُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (١٠٩)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان سوء عاقبة المشركين الماضين ، وابتلائهم بالعذاب ، وعدم انتفاعهم بألّهمهم في دفعه ، وذكر حال الأشقياء والسّعداء في الآخرة ، بيّن مساواة حال المشركين المعاصرين للنبي ﷺ وألّهمهم ، مع السّابقين المهلكين وألّهمهم ، في سوء العاقبة وابتلائهم بالعذاب ، وعدم إغناء ألّهمهم عنهم ، تسليّة للنبي ﷺ ، وتبشيرا له بالنّصر ، وتهديدا للمشركين بقوله : ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا محمّد ، بعد ما انزل إليك من القرآن ، وأطلعت بما فيه من قصص الامم ، كائنات ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ وشكّ ﴿مِنْ﴾ حال

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٦٧ .

(٢) الكهف : ١٨ / ٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٣ / ٢٠٥٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٣ .

﴿مَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون المعاصرون لك من الأصنام ، في أَمَا لا تدفع عنهم شيئا من العذاب ، واعلم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ الأصنام ﴿إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ﴾ ها ﴿آبَاؤُهُمْ﴾ وكبرائهم الذين بيّنت لك سوء عاقبتهم ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ بلا تفاوت ، فكما كانت عبادة قدمائهم إياها عن جهل وتقليد بلا تحقيق وبرهان ، كانت عبادة هؤلاء المشركين الموجودين في عصرك لها كذلك ﴿وَأَنَا﴾ كما وقّينا نصيب آبائهم من الرزق والسّعة والعمر ، وإرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وإتمام الحجّة عليهم في الدّنيا ، وإنزال العذاب عليهم فيها وفي الآخرة ، والله ﴿لَمُؤَفَّفُوهُمْ﴾ ومعطوهم كاملا ﴿نَصِيْبُهُمْ﴾ وحظّهم المعيّن لهم من المذكورات ، حال كون ذلك التّصيب ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ منه مثقال ذرّة ، ويكون حال هؤلاء كحال قدمائهم بدوا وختما بلا تفاوت. فليكونوا على حذر ، وكن أنت على ما أنت عليه من التّبليغ ، والقيام بوظيفه الرسالة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي

بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تسليّة نبيّه ﷺ في إنكار المشركين التّوحيد ، ومعارضتهم له فيه ، سلّاه سبحانه في إنكارهم صدق كتابه بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فمن قومه من آمن به ، ومنهم من أنكر صدقه ، كما اختلف قومك في شأن كتابك أنّه من عند الله أو من اختلاق البشر ، فلا تبال يا محمّد باختلاف قومك وتكذيبهم كتابك ، فإنّهم على سيرة من قبلهم ، واصبر كما صبر موسى ﷺ .

عن الباقر ﷺ : « اختلفوا كما اختلفت هذه الامة [في الكتاب] ، وسيختلفون في الكتاب

الذي مع القائم الذي يأتيهم به ، حتّى ينكره ناس منهم ^(١) ، فيقدّمهم ويضرب أعناقهم » ^(٢) .

ثمّ بيّن الله شدّة استحقاقهم العذاب بقوله : ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ من وعده أو حكمه بتأخير عذاب هذه الامة ، أو حكمه بين المختلفين إلى القيامة ، لحكمة داعية إليه ، أو إخباره بسبق رحمته غضبه ﴿لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ وحكم عليهم في الحال بعذاب الاستئصال ، أو بالتمييز بين الحقّ والمبطل من قومك بإهلاك مكذّبي كتابك ، مع أنّهم ليسوا على يقين من كذبه ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ عظيم من صدقه ، وترديد ﴿مِنْهُ﴾ مع وضوح دلائله ﴿مُرِيبٍ﴾ ذلك الشكّ ، وموقع لقلوبهم في اضطراب وتشويش ، مع أنّ الحقّ الاطمئنان به.

(١) في الكافي : ناس كثير .

(٢) الكافي ٨ : ٢٨٧ / ٤٣٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٤ .

﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر الاختلاف في صدق كتابه ، وعد المصدّقين وأوعد المكذّبين بقوله : ﴿وَإِنْ كُلًّا﴾ من المصدّقين لكتابك والمكذّبين له ﴿لَمَّا لَيُؤْفِقِينَهُمْ﴾ وليعطيتهم ﴿رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وجزاء تصديقهم وطاعتهم ، وعقوبة تكذيبهم وعصيانهم ، حسبما يستحقّون ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطلّع بحيث لا يخفى عليه جلاله ودقائقه ، ومقدار ما يستحقّون من الثواب والعقاب ، فلا ينقص من حقوق كلّ منهم شيء.

وقيل : إنّ تعالى لما أخبر بتوفية الأجزية ، أكّده بسبعة أنواع من التأكيدات : كلمة (إِنْ) وكلمة (كَلِّ) ، واللام الداخلة على خبر (إِنْ) ، وماء الموصولة ، والقسم المضمّر في (لَيُؤْفِقِينَ) ، واللام الداخلة على جوابه ، والتّون المؤكّدة. فجميع هذه التأكيدات تدلّ على أنّ أمر الرّبوبيّة والعبوديّة ، لا يتمّ إلّا بالبعث والقيامة والعقاب والثّواب ^(١) .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا

تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ

لَا تُنصَرُونَ (١١٢) و (١١٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد تسليّة النبي ﷺ في تكذيب نبوّته وكتابه ، ومعارضة المشركين له ، أمره بالتّبات على دينه ودعوته بقوله : ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ يا محمّد ، واثبت على ما أنت عليه من الدّين والدّعوة إليه. وعن الصادق عليه السلام : « أي افتقر إلى الله بصحّة العزم » ^(٢) ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ به من ربّك ، وعلى النّحو الذي أراد منك ، غير عادل عنه ، ولا متوان فيه ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ كذا ﴿مَنْ تَابَ﴾ من الشّرك والعصيان ، وكان ﴿مَعَكَ﴾ في الإيمان ، وتبعك في العقائد والأعمال.

وعن ابن عباس : ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آية أشدّ عليه من هذه الآية ، ولهذا قال ﷺ : « شَيَّبَتْنِي سورة هود وأخواتها » ^(٣) .

وعن بعض أنّه قال : رأيت النبي ﷺ في النّوم ، فقلت له : روي عنك أنّك قلت : « شَيَّبَتْنِي سورة هود وأخواتها » . فقال : نعم ، فقلت : وبأيّ آية ؟ قال : « بقوله : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ » ^(٤) . ثمّ خصّ سبحانه الخطاب بالمؤمنين بقوله : ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ ولا تتجاوزوا عن حدود الله وأوامره

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٧٠ .

(٢) جوامع الجامع : ٢١١ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٤ .

(٣) و (٤) . تفسير الرازي ١٨ : ٧١ .

ونواهيه بطريق الإفراط والتفريط ، ولا تدخلوا طاعة أهويتكم في طاعة ربكم ، عن ابن عباس : تواضعوا لله ، ولا تتكبروا على أحد ^(١) . وقيل : يعني : لا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظيم نعمه ^(٢) ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التعدي والتقصير ﴿نَصِيرٌ﴾ ومطلع غايته ، فيجازيكم عليه ، فاتقوا في المحافظة على حدوده . وفيه غاية التهديد ﴿وَلَا تَرْكَنُوا﴾ ولا تسكنوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والعصيان ، ولا تميلوا إليهم بالحبّة والتّصح ولو قليلا .

وعنهم ^(٣) : « الرّكون المودّة والتّصيحة والطّاعة » ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « هو الرّجل يأتي السلطان ، فيحبّ بقاءه إلى أن يدخل يده في كيسه فيعطيه » ^(٥) . أقول : الظاهر من السلطان السلاطين المعاصرون لهم الغاصبون لحقهم .

وعن ابن عباس : لا تدهنوا الظّلمة ^(٦) . ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾ وتصيبكم ﴿النَّارُ﴾ في الآخرة ، ﴿وَوَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومّا سواه ﴿مِنْ أَوْلِيَاءٍ﴾ وأعوان يدفعون عنكم العذاب ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ من قبل الله ، لشدّة استحقاقكم .

عن الصادق عليه السلام : « أما أنّه لم يجعلها خلودا ، ولكن قال : ﴿فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ﴾ فلا تركنوا إليهم » ^(٧) .

قال السّدي : إنّ الرّكون [المنهي عنه] هو الرضا بما عليه الظّلمة من الظّلم ، وتحسين طريقتهم وتزيينها عندهم وعند غيرهم ، فأما مداخلتهم لدفع ضرر ، أو اجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخل في الرّكون إليهم ^(٨) . فإذا كان الرّكون إليهم موجبا لمسّ النار ، فكيف حال أنفسهم ؟

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد أمره بالاستقامة ، ونهيّه عن التعدي عن حدوده والرّكون إلى الكفّار ، والتهديد عليه ، أمرنا بالصّلاة التي هي أعظم العبادات ، وأتمّ الرّكون والإقبال إلى الله بقوله : ﴿وَأَقِمِ﴾ يا محمّد وأدّ الصّلاة التي هي عمود دينك ، ومعراج امتك في ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ وهما الغداة والعشيّ ﴿وَزُلْفَا﴾ وساعات قريبة من النّهار ، كائنة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾

(١) و ٢ . تفسير الرازي ١٨ : ٧١ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ٣٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ .

(٤) الكافي ٥ : ١٠٨ / ١٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ .

(٥) مجمع البيان ٥ : ٣٠٦ عن السدي .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٤ / ٢٠٥٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ٧٢ ، والقول منسوب إلى المحققين .

قيل : ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الغداة والعصر ، و﴿زُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء «^(١)» .
وعن الباقر عليه السلام : ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الغداة والمغرب ، و﴿زُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ﴾ العشاء الآخرة «^(٢)» .
ثم حث سبحانه على الصلوة بقوله : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ﴾ والأعمال الخيرية التي منها الصلوة
﴿يُذْهِبْنَ﴾ ويمحّن ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الصغار .
عن النبي صلى الله عليه وآله : « أَنْ الصَّلَاةَ إِلَى الصَّلَاةِ كَقَارَةَ مَا بَيْنَهُمَا مَا اجْتَنَبْتَ الْكِبَائِرَ » «^(٣)» .
وعن ابن عباس : إن الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب ، بشرط الاجتناب عن الكبائر «^(٤)» .
وفي رواية : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفّرات لما بينهما
إذا اجتنبت الكبائر » «^(٥)» .
وعن مجاهد : الحسنات قول العبد : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر «^(٦)» .
عن الصادق عليه السلام : « صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب بالنهار » «^(٧)» .
وعنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أربع من كنّ فيه لم يهلك - إلى أن قال : - ويهيم
بالسيئة أن يعملها ، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء ، وإن هو عملها أجل سبع ساعات ، وقال
صاحب الحسنات لصاحب السيئات ؛ وهو صاحب الشمال : لا تعجل ، عسى أن يتبعها بحسنة
تمحوها ، فإن الله يقول : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أو الاستغفار » الخبر «^(٨)» .
وعنه عليه السلام : « إعلم أنّه ليس شيء أضّر عاقبة ، ولا أسرع ندامة ، من الخطيئة ، وأنّه ليس شيء
أشدّ طلبا ولا أسرع دركا للخطيئة ، من الحسنة . أما أنّها لتدرك الذنب العظيم القديم المنسي عند صاحبه
، فتحطّه وتسقطه وتذهب به بعد إثباته ، وذلك قوله : ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ...﴾ إلى آخره » «^(٩)» .
وعن أحدهما عليه السلام : « أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام قال : سمعت جبري رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أرجأ آية في
كتاب الله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ...﴾ وقرأ الآية كلّها . وقال : يا عليّ ، والذي بعثني بالحق بشيرا
ونذيرا [إنّ] أحدكم ليقوم إلى «^(١٠)» وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب ، فإذا استقبل الله بقلبه ووجهه
، لم يفتل [عن صلاته] وعليه من ذنوبه شيء ، كما ولدته أمّه ، فإن أصاب شيئا بين الصلاتين كان
له مثل ذلك ، حتّى عدّ الصلوات الخمس . ثم قال : يا عليّ ، إنّما مثل الصلوات الخمس لأمّتي كنهر جار
على باب

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٤٦ . (٢) التهذيب ٢ : ٢٤١ / ٩٥٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٧٢ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ . (٤) تفسير الرازي ١٨ : ٧٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ١٩٧ . (٦) تفسير الرازي ١٨ : ٧٤ .

(٧) الكافي ٣ : ٢٦٦ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ . (٨) الكافي ٢ : ٣١٣ / ٤ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٥ .

(٩) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٨ / ٢٠٦٧ ، مجمع البيان ٥ : ٣٠٧ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٦ . (١٠) في مجمع البيان : من .

أحدهم ، فما يظنّ أحدهم إذا كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك التّهر خمس [مرّات في اليوم]
 أكان يبقى في جسده درن ؟ فكذلك والله الصّلوات الخمس [لأمتي] « (١) .
 وعن عليّ عليه السلام : « أنّ الله يكفّر بكلّ حسنة سيّئة » . [ثمّ] تلا هذه الآية (٢) .

في قصة أبي اليسر

وروت العامة في سبب نزول الآية : أنّ أبا اليسر الأنصاري كان يبيع التّمر ، فأنته امرأة فأعجبته ، فقال لها : إنّ في البيت أجود من هذا التّمر ، فذهب بها إلى داخل البيت ، فضمّها إلى نفسه وقبلها ، وفعل بها كلّ شيء إلّا الجماع ، فقالت له : اتّق الله ، فتركها وندم ، فأتى أبا بكر فأخبره ، فقال : استر على نفسك وتب إلى الله ، فلم يصبر فأتى عمر ، فقال له مثل ذلك ، فلم يصبر ، ثمّ أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل ، فقال : « أنتظر أمر ربّي ، فاستر على نفسك » ، فلمّا صلّى العصر نزلت هذه الآية ، فقال ﷺ : « صليت العصر معنا ؟ » قال : نعم ، فقال : « اذهب ، فإنّها كفّارة لما فعلت » ، فقال الحاضرون : هذا له خاصّة أم للنّاس عامّة ؟ قال : « بل للنّاس كافّة » (٣) .
 ثمّ حتّ سبحانه على العمل بالتكاليف بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ المذكور من الاستقامة على الدّين ، وترك الرّكون إلى الظّالمين ، وإقامة الصّلاة ﴿ ذِكْرِي ﴾ وعظة ﴿ لِلذّٰكِرِيْنَ ﴾ والمتعظين .

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ
 أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٥) و (١١٦)﴾

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بالأمر بالصّبر والوعد بالأجر بقوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمّد ، على مشاقّ التكاليف ، واحمل نفسك على الطّاعة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ ﴾ ولا ييطل ﴿ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بل يوفّيهم أجور أعمالهم على حسب استحقاقهم .

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر النّبى ﷺ والمؤمنين بالاستقامة على الدّعوة والإرشاد ، وعدم الرّكون إلى الكفّار ، والرّكون إلى الله بالقيام إلى الصّلاة ، والصّبر على مشاقّ التكليف ، نّبّه على أنّ رفع الكفر والفساد لا يكون إلّا بالدّعوة إلى الحقّ ، والنّهي عن المنكر بقوله : ﴿ فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ وهلّا وجد من الامم الهالكة السّابقة على عصركم فريق ﴿ أُولُوا بَقِيَّةٍ ﴾ وأصحاب فضل وخير ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ المفسدين ﴿ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ والعصاة عن العصيان في الدّنيا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وغير

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٢٥ / ٢٠٦١ ، مجمع البيان ٥ : ٣٠٨ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٧٦ .

(٢) أمالي الطوسي : ٢٦ / ٣١ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٧٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ١٩٧ .

شرذمة^(١) . والاستثناء راجع إلى التّفي المستفاد من كلمة التّحضيض ، والمعنى : ما كان من القرون غير قليل من ذوي عقل وفضل .

وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ، والمعنى : ولكن قليلا ﴿مَنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾^(٢) .

وعليه يكون حاصل المفاد أنّه لم يكن في الامم السابقة الطّاغية رجال صلحاء ينهونهم عن المنكر ، تيّ لا ينزل عليهم العذاب ، نعم قليل منهم نحوهم عن المنكر ، فنجوا من العذاب ، وهم أتباع الأنبياء . وأما غيرهم فتركوه ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بارتكاب الفساد ، وترك التّهي عن المنكر ﴿مَا أَنْزَلْنَاهُ﴾ وانعموا ، أو اطلقوا وتركوا ﴿فِيهِ﴾ من الشّهوات واللذات التي آثروها على رضا الله تعالى والتّعم الاخرية ﴿وَكَانُوا﴾ لذلك ﴿مُجْرِمِينَ﴾ وصاروا عصاة طاغين ، ومستحقّين لعذاب الاستئصال ، مبتلين بأشدّ التّكال . أما جهّالهم فبسبب العصيان والطّغيان ، وأما علماءهم فبسبب المداراة وترك التّهي عن المنكر .

روي أنّ الله لا يعذب العامّة بعمل الخاصّة ، حتّى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكروا ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامّة والخاصّة^(٣) .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١١٧)

ثمّ تبه سبحانه على أنّ تعذيبهم كان بمقتضى عدله بقوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما صحّ له ﴿لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ﴾ بالعذاب ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه لهم ، أو بظلمهم على أنفسهم بسبب الشّرك والعصيان ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم ، منصفون في حقوق إخوانهم .

عن النبي ﷺ : ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ينصف بعضهم من بعض^(٤) .

حاصل الآية : أنّ الله لا يهلك قوما بمجرد الشّرك واعتقاد الباطل ، وإنّما يهلكهم إذا سعوا في الفساد ، وظلموا النّاس ، فإنّ من رحمته تعالى أن يسامح في حقوق نفسه دون حقوق النّاس .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ

رَبُّكَ وَلَٰذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

أَجْمَعِينَ (١١٨) * (١١٩)

(١) الشّرذمة : الجماعة القليلة من الناس .

(٢) تفسير روح البيان ٢ : ٢٠٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٢ : ٢٠٠ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٣٠٩ ، تفسير الصّافي ٢ : ٤٧٧ .

ثم نبّه سبحانه على أنّ أمره بدعوة الناس إلى التوحيد ونهيهم عن المنكر ، ليس لعجز نفسه عن حملهم على الإيمان ؛ بقوله : ﴿ وَ ﴾ ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ بالمشيئة التكوينية إيمانهم ﴿ لَجَعَلِ النَّاسَ ﴾ في جميع الأزمنة ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وجماعة متفقة على دين الحق وألزمهم وقهرهم على ملة التوحيد ، ولكن لم يشأ ذلك لحكمة داعية إلى إيكالهم إلى اختيارهم ﴿ وَ ﴾ لذا ﴿ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في العقائد والأخلاق في القرون والأعصار ، فتأهوا في شعب الباطل ومسالك الضلال ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ ووقفه للاهتداء إلى الحق ، وأرشدته إلى الصراط المستقيم ﴿ وَلِذَلِكَ ﴾ المذكور من الرحمة ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ وللاهداء إلى الحق بفضله أوجدتهم .

عن الصادق عليه السلام ^(١) ، في هذه الآية : « الناس مختلفون في إصابة القول ، وكلهم هالك ، ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ وهم شيعتنا ، ولرحمته ^(٢) خلقهم ، [وهو قوله : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾] ، يقول : لطاعة الامام عليه السلام » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون به رحمته ، فيرحمهم » ^(٤) .
وعن الباقر عليه السلام قال : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ في الدين ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ يعني : آل محمد وأتباعهم . يقول الله : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يعني : أهل الرحمة لا يختلفون [في الدين] » ^(٥) .
وقيل : إنّ لام (لذلك) لام العاقبة ، واسم الإشارة إشارة إلى الاختلاف بمعنى المخالفة ^(٦) وضمير ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ راجع إلى عموم الناس ، والمعنى : وكان عاقبة خلقهم المخالفة للحق .
وقيل : إنّ اسم الإشارة راجع إلى المذكور من الرحمة والاختلاف ، والمراد : أنّه خلق أهل الرحمة للرحمة ، وأهل العذاب للاختلاف ^(٧) .

عن ابن عباس قال : خلق [الله] أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وأهل العذاب لأن يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ^(٨) .
﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ وحقت ، أو وصل وعيده إلى عباده ، أو مضى حكمه وقضاؤه من قوله : ﴿ لَا مُلَآئِنَ ﴾ في القيامة ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ البتة ﴿ مَنْ ﴾ الشياطين وعصاة ﴿ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾
عن القمي عليه السلام : « وهم الذين سبق الشقاء لهم ، فحق عليهم القول أنّهم للنار خلقوا ، وهم الذين حقت عليهم كلمة ربك أنّهم لا يؤمنون » ^(٩) .

(١) في الكافي : عن الباقر عليه السلام .

(٢) في النسخة : ولرحمتهم .

(٣) الكافي ١ : ٣٥٥ / ٨٣ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٧ .

(٤) التوحيد : ٤٠٣ / ١٠ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٧ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٨ .

(٦) تفسير البيضاوي ١ : ٤٧٣ .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٢٠٢ .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ٧٩ .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٣٨ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٨ .

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ
وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا
عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٢٠) و (١٢٢)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد بيان كثير من قصص الأنبياء وامهم ، نبه على فوائده بقوله : ﴿وَكَلَّا نَقْصُ﴾
ونتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد شيئا ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ وبعضا من أخبارهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ونقوي به
قلبك في القيام بوظيفة الرسالة ، ونزيد به يقينك بأنك مؤيد من ربك وتطيب به نفسك ، وتعلم أنَّ ما
يفعل بك من التَّكْذِيب والإيذاء فقد فعل بغيرك من الأنبياء. وفيه تسلية عظيمة ، فإنَّ من رأى لنفسه
شركاء في المصيبة هانت عليه ، وسلا قلبه.

﴿وَجَاءَكَ﴾ من قبلنا ووحينا ﴿فِي هَذِهِ﴾ السَّورَة ؛ كما عن ابن عباس ^(١) ، أو هذه الأنبياء
المقتصَّة عليك ، والوعد والوعيد ، أو في هذه الآيات التي ذكرت قبل هذا الموضع ، أو في هذه الدُّنيا
﴿الْحَقُّ﴾ والتَّيَّان الصَّدَق الذي هو دليل نبوتك ، أو البرهان القاطع على التَّوْحِيد وسائر المعارف ، أو
بيان أنَّ الخلق يجازون بأنصابتهم المذكورة في قوله : ﴿وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَ﴾ فيه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾
ونصيحة ﴿وَذِكْرَى﴾ وتنبيه ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك وبكتابك ، لأتَّهم المتعطلون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك ولا يصدِّقون كتابك ، ولا ينتفعون بالإعذار والإنذار ، والوعد
والوعيد ، والوعظ والتَّهْدِيد : ﴿أَعْمَلُوا﴾ واجتهدوا في كفركم ، وتكذيب كتاب ربكم ، أو في إهلاك
والإضرار بي ﴿عَلَى﴾ قدر ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ واستطاعتكم ، أو المراد : لا تقصِّروا ولا تتوانوا فيما تعزمون عليه
من الإخلال في أمر رسالتي ، على حالكم الذي أنتم عليه ﴿إِنَّا﴾ أيضا ﴿عَامِلُونَ﴾ ومبالغون في أداء
الرسالة ، ومجدِّون في إحياء الحق وإماتة الباطل ، على قدر وسعنا ، أو على ما نحن عليه من الحال.
القسمي : أي نعاقبكم ^(٢) ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ بنا الدائرة ، أو خذلانكم ، أو نزول العذاب عليكم كما نزل على
الذين من قبلكم ﴿إِنَّا﴾ أيضا ﴿مُنْتَظِرُونَ﴾ نصرنا من قبل ربنا ، أو نزول العذاب عليكم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد ما أخبر نبيّه ﷺ بقصص الأنبياء وامهم ، وأمره بإظهار عدم المبالاة بمكائد
الكفَّار ، أعلن بكمال علمه وسعة قدرته ، وأمر نبيّه ﷺ بالقيام بوظائف عبوديته ورسالته ، والتوكُّل

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٠٤ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٨ .

عليه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويختصّ به العلم بخفياتهما ، لا يشركه فيه غيره ، ولا تخفى عليه خافية ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى وحده ﴿يُرجِعُ الْأُمُورَ﴾ المتعلّق بعوالم الوجود ﴿كُلُّهُ﴾ من الإيجاد والإعدام ، والإماتة والإحياء ، والتّسمية والتّربية ، وإرسال الرّسل ، وتوفيق النّاس وهدايتهم إلى الحقّ وإضلالهم عنه ، ونصر الرّسل وخذلان معارضيهم ، أو المراد : أنّه إليه تعود عواقب الامور في القيامة ، كما أنّه مصدر جميعها ، فهو يثيبك على طاعتك وتبليغك ، ويعاقب أعداءك على عدم الإيمان بك ومعارضتك ، فإذا كان ربّك كذلك ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ حقّ عبادته ، وأطعه حقّ طاعته ، واستقم على تبليغ رسالته ومكابدة أعدائه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وفوّض امورك إليه ، فإنّه ناصرك وكافيك وعاصمك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهؤلاء الكفّار ، فإنّ الغفلة لا تجوز على العالم بغيب السّماوات والأرض ، فيجازيك وإيّاهم على حسب الأعمال والاستحقاق.

روي أنّ هذه الآية خاتمة التّوراة ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة هود في كلّ جمعة ، بعثه الله يوم القيامة في زمرة النّبیین ، ولم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة » ^(٢) .

الحمد لله على التّوفيق لإتمام تفسير سورة هود ، ونسأله التّوفيق لتفسير ما يتلوها بمحمّد وآله الطّيبين.

(١) مجمع البيان ٥ : ٣١٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٠٥ .

(٢) ثواب الاعمال : ١٠٦ ، تفسير الصافي ٢ : ٤٧٨ .

في تفسير سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾

ثم لما ختم الله سبحانه سورة هود بذكر كمال علمه وسعة قدرته ، وأمر نبيه ﷺ بالعبادة والتوكل عليه ، أردفها بسورة يوسف لما فيها من الشواهد على علمه وقدرته ، ومن عبادة يوسف وتوكله ونتائجها ، فابتدأها على دأبه بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم افتتحها بالحروف المقطعات من قوله : ﴿الر﴾ قيل : هي رمز من : أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ، وما جرى عليه ، أو أرى ما لا يرى الخلق^(١).

وعن الصادق عليه السلام : « يعني : أنا الله الرؤوف »^(٢).

ثم وصف كتابه العظيم بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الآيات أو السورة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ والقرآن الظاهر أمره من كونه كلام الله ، لدلالة ما فيه من وجه الإعجاز ، أو المظهر للمعارف والأسرار والأحكام ، أو المراد : تلك الآيات آيات مكتوبة في اللوح المحفوظ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٢) و (٣)﴾

ثم أنه تعالى بعد مدح كتابه بالشرف الذاتي ، وصفه بالشرف الإضافي بقوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى النبي الصادق بتوسط جبرئيل ، حال كونه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مضامينه ، وتفهمون معانيه ، حتى تتم عليكم الحجة ، ولا يبقى لكم العذر في ضلالتكم ، بأن تقولوا أنه ليس بلغتنا وما خاطبنا الله به.

ثم روي أنّ جمعا من أئمة اليهود قالوا لرؤساء المشركين : سلوا محمدا لم انتقل [آل] يعقوب من

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٠٧.

(٢) معاني الأخبار : ٢٢ / ١.

الشّام إلى مصر ، وعن قصّة يوسف ؟ فنزلت ^(١) .

وعن سعيد بن جبیر : لما نزل القرآن على رسول الله ﷺ ، وكان يتلوّه على قومه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو قصصت علينا فنزل قوله ^(٢) : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ وتلو ﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وأنفع الأخبار ، لكثرة ما فيه من العبر والحكم والعجائب والفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، كسير الملوك والممالك ، ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، والتجاوز عنهم بعد القدرة عليهم ، وغير ذلك .
وقيل : إنّ المراد أنّ هذه القصّة ﴿بِمَا أُوحِينَا﴾ وبسبب إيجائنا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾
ثم علّل سبحانه كون علمه بما بسبب الوحي بقوله : ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ والذّاهلين عنها .

قيل : إنّما عبّر سبحانه عن عدم علمه بالغفلة ، إجلالا لشأنه ^(٣) . ويمكن كون التعبير على وجه الحقيقة ، لأنّ جميع القصّة كان بمنظره ومراه ﷺ في عالم الأشباح ، وبعد انتقاله إلى هذا العالم ذهل عنها لاستغراقه في التوجّه إلى الله وعبادته ، وإرشاد الخلق وهدايتهم .

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤)

ثم شرع سبحانه في القصّة بقوله : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بعد انتباهه من النوم ﴿لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾
ثم كأنه قيل له : كيف رأيتهم ؟ فقال : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وخاضعين .

وإنّما ذكر الشمس والقمر ، مع كونهما من الكواكب ، لإظهار شرفهما . وإنّما أخرهما في الذكر للإشارة إلى تأخّر رؤيتهما عن رؤية الكواكب كما تأخّر ملاقاته أبويه عن ملاقاته أخويه . وإنّما أرجع ضمير العقلاء إلى الكواكب لإسناد السجدة ؛ التي هي فعل العقلاء ، إليها ، أو للإشعار بكون الأجرام الفلكيّة حيّة عاقلة ؛ كما عليه الفلاسفة .

عن وهب : أنّه قال : رأى يوسف ؛ وهو ابن سبع سنين ، أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدّائرة ، وإذا عصا صغيرة وثبت عليها وابتلعتها ، فذكر ذلك لأبيه ، فقال : إيتاك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن اثنتي عشرة سنة - وقيل : ابن عشر سنين ليلة الجمعة والقدر ^(٤) -

(١) جوامع الجامع : ٢١٣ ، تفسير الصّافي ٣ : ٧ ، تفسير الرازي ١٨ : ٨٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٠٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٨٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٢ .

الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصّها على أبيه ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « رأى الرؤيا وهو ابن تسع سنين » ^(٢) .

عن جابر [بن عبد الله] قال : أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له بشان ، فقال : يا محمد ، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ساجدة له ، ما أسماؤهن ؟ فلم يجبه النبي ﷺ يومئذ في شيء . فنزل جبرئيل فأخبر النبي ﷺ بأسمائها ، فبعث النبي ﷺ إلى بشان ، فلما أن جاءه قال النبي ﷺ : « هل أنت مسلم إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم ، فقال له النبي ﷺ : « جوبان - وفي نسخة : جربان - ، والطارق ، والذيل ، وذو الكتفين ، وقايس ^(٣) ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق - وفي رواية : والفيلق - ، والمصبح ، والصدوح - وفي رواية : والضروح - ، وذو الفروع - وفي رواية : والفزع - ، والضياء ، والنور ، رآها في أفق السماء ساجدة له » .

وفي رواية : « أنه رآهن نزلن من السماء وسجدن له » . فقال بشان : والله إن هذه لأسماؤها ، ثم أسلم ^(٤) .

أقول : المراد بالضياء والنور الشمس والقمر .

وقيل : إنه عليه السلام رأى أنه على جبل شامخ ، حوله أثمار جارية وأشجار خضرة ، فرأى الكواكب سجدن له ^(٥) .

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥)

﴿ قَالَ ﴾

فلما ذكرها لأبيه ، وكان شديد الحب له ولأخيه بنيامين ، وعالما بشدة حسد إخوته عليه ﴿ قَالَ ﴾ إشفافا عليه : ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ إن هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد - على رواية جابر ^(٦) - ولكن ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ ولا تخبرهم بها ، فإنهم يعرفون تعبيرا ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ ﴾ ويحتالوا في إهلاكك ﴿ كَيْدًا ﴾ عظيما ويدبروا تديبرا خفيا عنك ، لا تقدر على دفعه .

ثم أكد نهيته بقوله : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ ﴾ كائنا من كان ﴿ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة ، فلا تستبعد صدور قتلك من إخوانك الذين هم أولاد الأنبياء ومربوبون في حجر النبي ، مع أنك الأخ النسبي والدني لهم .

نقل أنه لما بلغ إسحاق إلى مائة وثمانين [سنة] من العمر ، وصى إلى يعقوب بأن يخرج إلى

خاله

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٨٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٦ .

(٣) في الخصال وتفسير الصافي : قايس .

(٤) الخصال : ٤٥٤ / ٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢١٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٢ .

(٦) الرواية المتقدمة الواردة عن الخصال .

في جانب الشّام حذرا من أن يقتله أخوه عيص حسدا ، لأنّه أقسم بالله ^(١) أن يقتل يعقوب ، فانطلق يعقوب إلى خاله ليا بن فاهر وأقام عنده ، وكانت لخاله بنتان إحداها لايا وهي كبراهما ، والاخرى راحيل وهي صغراهما ، فخطب يعقوب إلى خاله أن يزوجه إحداها ، فقال له خاله : هل لك مال ؟ قال : لا ، ولكن أعمل لك ، فقال : نعم ، صداقها أن تخدمني سبع سنين ، فقال يعقوب : أخدمك سبع سنين على أن تزوجني راحيل ، قال : ذلك بيني وبينك. فرعى له يعقوب سبع سنين ، فزوجه الكبرى وهي لايا ، قال يعقوب : [إنك] خدعتني ، إنّما أردت راحيل ، فقال له خاله : [إنا] لا ننكح الصّغيرة قبل الكبيرة ، فهلمّ فاعمل سبع سنين اخرى فازوجك اختها - وكان الناس يجمعون بين الاختين ، إلى أن بعث الله موسى - ، فرعى [له] سبع سنين اخرى ، فزوجه راحيل فجمع بينهما ، وكان خاله حين جهّزها دفع إلى كلّ واحدة منهما أمة تخدمها ، اسم إحداها زلفة والاخرى بلهة ، فوهبتا الأمتين ليعقوب ، فولدت لايا ستّة بنين وبناتا واحدة اسمها دينة ، واسم البنين : روبيل ، وشمعون ، ويهوذا ، ولاوي ، ويسجر ، وزبالون. وولدت زلفة ابنين : دان ، ويغثالي. وولدت بلهة حاد واشير. وبقيت راحيل عاقرا سنين ، ثم حملت وولدت يوسف.

وليعقوب إحدى وتسعون سنة ، وأراد يعقوب أن يهاجر إلى موطن أبيه إسحاق بكل الحواشي ، وكان ليوسف خال له أصنام من ذهب ، فقالت لايا ليوسف : اذهب واسترق منه صنما ، لعلنا نستنفق منه ، فذهب يوسف فأخذ صنما. وقيل : إنّ خاله جهّزه ، وفي سنة هجرته حملت راحيل ببنيامين ، وماتت في نفاسها ويوسف ابن سنتين ^(٢) .

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ

﴿حَكِيمٌ﴾ (٦)

ثم عبّر يعقوب رؤياه بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الاجتباء ، ومثل هذا الاصطفاء الذي لك من بين إخوتك ، لمثل هذه الرؤيا العظيمة ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ وبصطفيك ﴿رَبُّكَ﴾ للنبوة التي هي أعظم منها ، أو لعلّو الدرجة ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ شيئا ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرؤى - وإنما عبّر عن الرؤى بالأحاديث ، لكونها أحاديث الملك إن كانت صادقة ، وأحاديث النّفس والشّيطان إن كانت كاذبة - أو العلم بحقائق الأشياء ، أو تفسير كتب الله المنزل ، وبيان المراد من عبارات الأنبياء ﴿وَيُتِمُّ﴾ الله باصطفائك للسلطنة

(١) زاد في تفسير روح البيان : في قصة الشّواء.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢١١ .

﴿نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ ويضمّ في حقك إلى النبوة التي هي أعظم نعمه الواقعية الروحانية ، الملك الذي هو أعظم نعمه الظاهرية الجسمانية ، أو المراد به : يكمل عليك الحظوظ الدنيوية والاخرية ﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ ونسله وأشرف قومه ، بأن يصل نعمهم الدنيوية بالنعم الاخرية ، ويجمع لهم السعادة في الدارين ، من كثرة الأولاد والخدم ، والتوسعة في المال والجاه ، والوقع في القلوب ، ومعرفة الله ، ووفور العلم ، وحسن الأخلاق والعاقبة ، دون النبوة في أولاده الصّليبين ، لكونهم بالظلم على يوسف عصاة ، ولا يكون النبيّ إلا معصوما من المعاصي والخطأ والزلل من أول عمره ، ولا دلالة لرؤيتهم في المنام بصورة الكواكب التي يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر ، على نيلهم منصب النبوة ، لكفاية صبرورثهم ذوي الفضل والعلم ، بحيث يستضاء بهم في ظلمات الجهل والضلال كسائر العلماء الراشدين ، في تعبير الكواكب ، ولا شبهة في صدق إتمام النعم عليهم بذلك ، وصحة التشبيه بقوله : ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث جمع الله لهما حظّ الدنيا ؛ من السعة في المال والجاه ، والعظمة في القلوب ، وحظّ الآخرة ؛ من النبوة والرّسالة.

وقيل : يعني : يتمّ نعمته عليك بخلاصك من السّجن والحن ، كما أتمّها على أبويك إبراهيم بنجاته من النّار ، وإسحاق بتخليصه من الذّبح ^(١) .

وفيه : أنّه قد ثبت أنّ الخلاص من الذّبح كان لإسماعيل ، لا لإسحاق .

وقيل : إتمام النّعمة على إبراهيم عليه السلام بإنجائه من النّار وذبح الولد ، واتّخاذه خليلا ، وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه ، واتّخاذه رسولا ^(٢) .

وإنّما عبّر عن إبراهيم وإسحاق بالأبوين مع كونهما جدّيه ، لكون الجدّ أبا حقيقة ، وليبان كمال ارتباطه بالأنبياء العظام.

ثمّ بيّن استحقاقه للاجتناء بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يفعل ذلك لأنّه ﴿عَلِيمٌ﴾ بحقائق الأمور ، فلا يخفى عليه استحقاقك للاجتناء وإتمام النّعمة ، و﴿حَكِيمٌ﴾ ومعطي كلّ شيء ما يستحقّه ، وفاعل لما هو صلاح وصواب.

عن الباقر عليه السلام : « تأويل رؤيا يوسف أنّه سيملك مصر ، ويدخل عليه أبواه وإخواته ، أمّا الشّمس فإنّها أمّه راحيل - وفي رواية : خالته - ، والقمر يعقوب ، وأمّا الأحد عشر كوكبا فإنّ إخوته . فلمّا دخلوا عليه سجدوا لله شكرا لله وحده حين نظروا إليه » . الخبر ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٩٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٦ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٣٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٠ .

قيل : كان بين رؤيا يوسف ووقوع تعبيرة عشرون أو أربعون ، أو ثمانون سنة ^(١) .
قال بعض الحكماء : إنّ الرؤيا الرديئة يقع تعبیرها عن قريب ؛ لأنّ رحمة الله بعباده أن لا يعلمهم بسوء أو شرّ إلا قريبا من وقوعه لئلا تطول مدّة حزنهم ، بخلاف الرؤيا الحسنة المبشرة ، فإنّها تطول مدّة وقوع تعبیرها ، ليكون السرور الحاصل بها أكثر وأتم ^(٢) .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلنَّاسِ لَئِنْ﴾ (٧)

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ إخبار النبي ﷺ بقصة يوسف دليل على صدق دعواه في التوحيد [و] النبوة بقوله : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ الأحد عشر ﴿آيَاتٌ﴾ باهرة ، ودلالات ظاهرة على توحيد الله وقدرته وحكمته ، وحجج تامّة على صحّة نبوة محمد ﷺ وصدق كتابه ؛ لأنّه أمي ، وعلى حفظه من شرّ الأعداء وإن حسده الحاسدون ، وعلى نصره عليهم وتعليه قدره وإن طال الزّمان ﴿لِلنَّاسِ لَئِنْ﴾ عنها والمستمعين لها.

وعن ابن عباس قال : دخل خبر من اليهود على النبي ﷺ فسمع منه قراءة يوسف ، فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنّه سمعها منه كما في التّوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع ، فقالوا : من علّمك هذه [القصة] ؟ فقال : « الله علّمني » ، فنزل : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ...﴾ الآية ^(٣) .

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ

مُبين (٨)﴾

ثمّ شرح سبحانه قصّتهم بقوله : ﴿إِذْ﴾ الإخوة ﴿قَالُوا﴾ فيما بينهم : والله ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا﴾ يعقوب ﴿مِنَّا﴾ والحال أنّهما صبيّان ضعيفان ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ورجال أقوياء وكفأة ، قوامون بأموره ومصالحه ، قيل : إنّ العصبة عشرة رجال فصاعدا ^(٤) ، وقالوا : إنّّه لحبّه لهما يفضّلهما علينا ، والله ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ بعمله ذلك ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وخطأ ظاهر. وإنّما قالوا ذلك مع اعترافهم بنبوة أبيهم ، لقصور معرفتهم بشأن النبي من كونه معصوما عن الخطأ حتّى في العاديّات. قيل : إنّ شدّة حبّ يعقوب لهما إنّما كان لموت أمّهما في صغرهما ، وظهور آثار الرّشد والنّجاة فيهما أزيد ممّا كان يجده في سائر أولاده ^(٥) ، ولعلمه بأنّ يوسف وارث نبوّته.

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٢٠ ، تفسير الرازي ١٨ : ٨٧ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٥٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٨٧ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٩٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٩٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢١٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٩٣ .

﴿اَفْتُلُوا يُوسُفَ اَوْ اَطْرَحُوْهُ اَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ اَبْيَكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ

قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)﴾

ثمَّ اشتدَّ حسدهم على يوسف حتَّى قال بعضهم - قيل : إنه دان ^(١) ، وقيل : إنه شمعون ^(٢) ، وقيل : إنه يهوذا ^(٣) ، وقيل : إنهم شاوروا أجنبيًا ^(٤) ، وقيل : إنَّ القائل الشَّيطان ، فإنَّه جاءهم بصورة الشيخ ، فقال لهم : - إنَّ يوسف يريد أن يتَّخذكم عبيدا لنفسه ، فقالوا : فما التَّديير ^(٥) ؟ فقال : ﴿اَفْتُلُوا يُوسُفَ اَوْ اَطْرَحُوْهُ﴾ وألقوه ﴿اَرْضًا﴾ بعيدة من العمران حتَّى يهلك فيها من الجوع والعطش ، أو تأكله السَّباع ، إذن ﴿يَخْلُ﴾ ويخلص ﴿لَكُمْ وَجْهُ اَبْيَكُمْ﴾ ويكن محبًا لكم ، مقبلا عليكم ، مشغلا بشأنكم ، غير متوجَّه إلى غيركم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ ووراء الفراغ من أمره ﴿قَوْمًا﴾ وجماعة ﴿صَالِحِينَ﴾ حسني ^(٦) الحال عند أبيكم ، أو في الدُّنيا ، أو تائبين من ذنبكم.

عن السَّجاد عليه السلام : « أي تتوبون » ^(٧) .

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ اِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾

ثمَّ كأنَّه قيل : هل اتَّفقا على هذا الرأْي ؟ فقليل : لا ، بل ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ - قيل : هو يهوذا ، وكان أقدمهم في السنِّ والرأْي والفضل ^(٨) . وقيل : هو روبيل ، وكان ابن خالته ، وأحسنهم في الرأْي ^(٩) . وعن القمِّي : أنَّه لاوي ^(١٠) - : ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإنَّ القتل بغير الحرم من أقبح القبائح ، ولا تطرحوه أرضا بعيدة ، فإنَّه مثل القتل ، بل هو عينه لعدم احتمال السَّلامة له ﴿وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وقعر البئر الذي يستسقى منه ﴿يَلْتَقِطُهُ﴾ ويأخذه إذن ﴿بَعْضُ﴾ القوافل ﴿السَّيَّارَةِ﴾ والمارة ، ويذهب به معه ﴿اِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بمشورتي ، وعاملين برأْيي ، فافعلوا ذلك ، فإنَّ فيه غرضكم وهو التَّفريق بينه وبين أبيه ، ومظنَّة حفظه من التَّلف . وإمَّا لم يحتم رأيه عليهم لتألف قلوبهم وتوجيههم إلى رأيه . وقيل : يعني : إن كنتم فاعلين ما يفرِّق بينه وبين أبيه ^(١١) .

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٥٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٥٦ ، تفسير الرازي ١٨ : ٩٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٩٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٩ .

(٦) في النسخة : حسن .

(٧) علل الشرائع : ٤٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٧ .

(٨ و ٩) تفسير الرازي ١٨ : ٩٥ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٣٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٧ .

(١١) تفسير الصافي ٣ : ٧ .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا

يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١١) و (١٢) ﴿

ثمّ أنّه لما اتفقوا على رأي القائل جاءوا أباهم و﴿قَالُوا﴾ مكرا واستعطافا واستنزالا له عن تصميمه على تحفظه عنهم : ﴿يَا أَبَانَا مَا﴾ العذر ﴿لَكَ﴾ وأي داع يدعوك إلى أن ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى﴾ أحيينا ﴿يُوسُفَ﴾ ونحن بنوك ؟ ولم نخاف منا عليه ؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَنَاصِحُونَ﴾ وعليه لمشفقون ، لا نطلب إلّا خيره .

قيل : لما كان عادتهم أن يذهبوا إلى الرّعي ^(١) ، قالوا : ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصّحراء ﴿يَرْتَعْ﴾ من الفواكه ، يأكل منها كثيرا ﴿وَيَلْعَبُ﴾ بالاستباق والتناضل ، وغيرهما ممّا يناسب الصّبيان ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَحَافِظُونَ﴾ من المكاره والمضارّ والآفات ، فأكدوا وعد حفظه بأنواع التأكيدات .

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ *﴾
﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ *﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾ (١٣) و (١٥) ﴿

ثمّ كأنّه قيل : هل قبل يعقوب قولهم وأجاب مسألتهم ؟ فقيل : لا ، بل ﴿قَالَ﴾ يا بني ﴿إِنِّي﴾ والله ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ فراق يوسف ، ويؤلم قلبي ﴿أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لقلّة صبري عنه ﴿و﴾ مع ذلك ﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرّعي والّعب ، وتهاونكم في حفظه .

قيل : إنّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك لأنّ الأرض كانت مذأبة ^(٢) . وروي أنّه عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى في المنام كأنّه على رأس جبل ، ويوسف في الصّحراء ، فهجم عليه أحد عشر ذئبا ، فغاب يوسف بينهم ^(٣) . وقد لقّنهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بتلك الحجّة .

عن النبي ﷺ قال : « لا تَلَقَّنُوا الكذب فيكذبوا ، فإنّ بني يعقوب لم يعلموا أنّ الذّئب يأكل الإنسان حتى لقّنهم أبوهم » ^(٤) .

وعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَرَّبَ يعقوب لهم العلة فاعتلّوا بها في يوسف » ^(٥) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٩٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢١ ، والأرض المذأبة : الكثيرة الذئاب .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢١ .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٣٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨ .

(٥) علل الشرائع : ٦٠٠ / ٥٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٨ .

قيل : إِنَّ البلاء موَكَّل بالمنطق ^(١) .

ثمّ لما سمع الإخوة ذلك الكلام من أبيهم ، وكانوا يعلمون أنّ الخوف أقوى السببين لامتناعه من الإجازة ، اقتصرسوا على دفعه و﴿قَالُوا لَنْ أَكَلَهُ الدُّنْبُ﴾ بيننا ﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ﴾ ورجال أقوياء حافظون له ﴿إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾ وهالكون ضعفا وعجزا ، أو مستحقّون للهلاك لعدم الخير في حياتنا ، أو لأن يدعى علينا بالخسار والدمار ، أو مغبونون بترك حرمة الوالد والأخ.

قيل : لما رأى يعقوب إلحاح بنيه في إخراج يوسف معهم إلى الصّحراء ، ومبالغتهم بالعهد واليمين ، ورأى ميل يوسف إلى التّفرّج والتّفريح ^(٢) ، رضي بالقضاء وأذن لهم في إخراجهم معهم ، فأمر أن يغسل بدن يوسف في طست كان أتى به جبرئيل إلى إبراهيم حين مجيء الفداء ، فأجرى فيه دم الكبش ، وأمر أن يرّجل شعره ^(٣) ويدهن بدهن إسماعيل الذي جاء به جبرئيل من الجنّة ، وأن يكحل ففعلوا ^(٤) .

وروي أنّ إبراهيم عليه السلام لما القي في النّار وجرد عن ثيابه ، أتاه جبرئيل بقميص من حرير الجنّة فألبسه إيّاه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق ، وإسحاق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تميمة ^(٥) وعلّقها في عنق يوسف. ثمّ شايعه إلى شجرة كانت على باب كنعان تسمّى بشجرة الوداع ، فضمّه إليه وودّعه وبكى بكاء شديدا ، فقال يوسف : لم تبكي يا أبة ؟ فقال : حزنا على فراقك ، وما أدري إلى ما تصير عاقبة أمرك. ثمّ قال : يا بني اوصيك بأربع ، فاجعلها نصب عينيك : يا بني ، لا تنس الله على كلّ حال ، فإنّه لا قرين خير من ذكر الله وشكره. وإذا وقعت في بليّة فاستعن بالله. وأكثر من قول : حسبي الله ونعم الوكيل ، فإنّه لما القي جدّك خليل الله في النّار قاله ، فدفع الله عنه ضرّ أصحاب نمrod وشّرهم ، وما أصابه حرّ النّار ، يا بني لا تنسني فإني لا أنساك. ثمّ بالغ في الوصيّة بحفظه إلى بنيه ^(٦) .

وعن السّجاد عليه السلام : « لما خرجوا [به] من منزلهم لحقهم أبوهם مسرعا فانتزعهم من أيديهم ، فضمّه إليه واعتنقه وبكى ، ثمّ دفعه إليهم » ^(٧) .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ وهم يحملونه على عواتقهم ، ويعقوب عليه السلام ينظر إليهم ويبكي ، فأسرعوا في المشي مخافة أن يأخذه منهم ولا يدفعه إليهم ، فلمّا بعدوا عن العيون تركوا وصايا إبيهم ، فألقوه على الأرض وقالوا : يا صاحب الرّؤيا الكاذبة ، أين الكواكب التي رأيتهم لك ساجدين حتّى يخلّصوك من أيدينا اليوم ؟ قيل : لما حكى يوسف رؤياه سمعها بعض أزواج إخوته ، فحكّتها لهم ، فاطّلعوها على

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٩٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٢ .

(٢) في تفسير روح البيان : والتّنزه.

(٣) رجل شعره : سواه وزيّنه وسرّحه.

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٢ .

(٥) التميمة : ما يعلّق في العنق لدفع العين.

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٢ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٣٥ / ٢٠٧٧ ، علل الشرائع : ٤٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨ .

رؤياه ^(١) فجعلوا يؤذونه ويضربونه ، وكلّما لجأ إلى واحد منهم ضربه ، ولا يزدادون عليه إلّا غلظة وحنقا ، وهو يبيكي وينادي : يا أبتاه ، ما أسرع ما نسوا عهدك ، وضيعوا وصيتك ، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء ^(٢) !

وقيل : إنهم جرّوه على الأرض جائعا عطشانا ، حتّى أشرف على الهلاك ^(٣) .
وروي : إنهم أتوا به غيظة ^(٤) أشجار فقالوا : نذبحه ونلقيه تحت [هذه] الشجرة فيأكله الذئب الليلة ^(٥) .

وقيل : إنّه أخذه روبيل فجلد به الأرض ^(٦) ، ووثب على صدره ، وأراد قتله ، ولوى عنقه ليكسره ، فنادى يوسف : يا يهودا - وكان أرفقهم به - اتق الله وحل بيني وبين من يريد قتلي ، فأخذته الرأفة والرحمة ، فقال يهودا : ألسنتم قد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه ؟ قالوا : بلى ^(٧) ، قال : ألقوه في غيابة الحبّ ، فسكن غضبهم.

﴿وَأَجْمَعُوا﴾ وعزموا واتفقوا على ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ ويلقوه ﴿فِي غِيَابَتِ الْحَبِّ﴾ وقعره ، فأتوا به على رأس البئر الذي حفره شدّاد حين عمّر بلاد الاردنّ ، وكان على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب بكنعان ، وكان عمقها سبعين ذراعا ، وكان رأسها ضيقا وأسفلها واسعا - على ما قيل ^(٨) ، وقيل : هو بئر بيت المقدس ^(٩) - فنزعوا قميصه ليلطّخوه بالدم الكذب ، فقال : يا إخوتاه ردّوا عليّ قميصي أتواري به في حياتي ، ويكون كفني بعد مماتي ، فلم يفعلوا فتعلّق بشياهم فنزعوها من يديه ، فدلّوه فيها بحبل مربوط على وسطه فتعلّق بشفيرها ، فربطوا يديه ، فلمّا بلغ نصفها قطعوا الحبل وألقوه فيها ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثمّ آوى إلى صخرة بجانب البئر ، فقام عليها وهو يبيكي ، فنادوه فظنّ أنّها رحمة أدركتهم فأجابهم ، فأراد أن يرضخوه ، فمنعهم يهودا ^(١٠) .

وفي رواية عن السجّاد عليه السلام : « وألقوه في البئر وهم يظنون أنّه يغرق في الماء ، فلمّا صار في قعر الحبّ ناداهم : يا ولد رومين اقرأوا يعقوب منّي السلام ، فلمّا سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض : لا تزالوا من هاهنا حتّى تعلموا أنّه قد مات ، فلم يزلوا بحضرته حتّى أمسوا ورجعوا » ^(١١) .

وعن القمّي رحمه الله : فأذنوه من رأس الحبّ وقالوا له : انزع قميصك ، فبكى وقال : يا إخوتي [لا]

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢١٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٣ .

(٤) الغيظة : الموضع الكثير الشجر.

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٣٥ / ٢٠٧٧ ، علل الشرائع : ٤٧ / ١ .

(٦) جلد به الأرض : ضربها به.

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٣ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ٩٦ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٣ .

(١١) تفسير العياشي ٢ : ٣٣٥ / ٢٠٧٧ ، علل الشرائع : ٤٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨ .

تَجَرَّدُونِي ، فَسَلَّ واحد منهم عليه السَّكِين وقال : لئن لم تنزعه لأقتلَنَّكَ ، فنزعه فدلَّوه في البئر وتنحَّوا عنه ، فقال يوسف في الحبِّ : يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ارحم ضعفي وقلة حيلتي وصغري ^(١) .
وروي أنَّه قال : يا شاهداً غير غائب ، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ^(٢) .

وفي رواية أخرى : اجعل لي فرجاً ممَّا أنا فيه ^(٣) .
وروي أنَّه ذكر الله بأسمائه الحسنى ، فسمعه الملائكة فقالوا : يا ربَّ نسمع صوتاً حسناً في الأرض ^(٤) ، فأمهلنا ساعة ، فقال الله : أ لستم قلتم : أ تجعل فيها من يفسد فيها ؟ فحقَّته الملائكة فأنس بهم ^(٥) .

وقيل : إنَّ الله أوحى إلى جبرئيل : أدرك عبيدي قبل أن يصل إلى قعر البئر ، فأدركه جبرئيل وأخذه بيده ، وأجلسه على صخرة كانت في قعر البئر ، وألبسه قميص الخليل الذي عوذه به يعقوب ، وأطعمه من طعام الجنة وشرابها ^(٦) .
وروي أن هوائم الأرض ^(٧) قال بعضها لبعض : لا تخرجنَّ من مساكنكنَّ ، فإنَّ نبياً من الأنبياء نزل بساحتكنَّ ، فأبحرنَّ إلَّا الأفعى ، فلما قصدت يوسف ، فصاح بها جبرئيل ، فصمَّت وبقي الصَّمم في نسلها ^(٨) .

ثمَّ حكى سبحانه أَلطافه بيوسف ، وكأنَّه قال : فحفظناه ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ بتوسُّط جبرئيل ﴿إِلَيْهِ﴾ إيناساً له ، وإزالة لوحشته ، وتبشيراً له أن لا تخف ولا تحزن ، إِنَّا نخلِّصك من الحبِّ ، ونرفع مكانك ، ونمكِّنك في الأرض ، ونخرج إليك إخوانك حتَّى يجيئك خاضعين متذلِّلين ، فعند ذلك والله ﴿لَنَبْنِيَنَّهُمْ﴾ وتخبرهم ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ وعملهم ﴿هَذَا﴾ الذي صدر منهم ﴿وَوَ﴾ الحال أنَّ ﴿هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بأنَّك يوسف لتباين حالك هذا وحالك حين ملاقاتهم ، حيث إنَّك يومئذ عالي الشَّأن ، عظيم السُّلطان ، متغيَّر الهيئة والصَّورة ، لطول عهدهم بك.

وفيه إشارة إلى دخولهم عليه بمصر ممتارين ^(٩) ، فعرفهم وهم له منكرون.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٩٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(٤) في تفسير روح البيان : الحب .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ ، وفي النسخة : شرابه ، بدل : شرابها .

(٧) في تفسير روح البيان : البئر .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(٩) ممتارين : طالبين وجامعين للميرة ، وهي الطعام .

روي أنهم حين دخلوا عليه لطلب الخنطة عرفهم وهم له منكرون ، ثم دعا بصواع ^(١) فوضعه على يده ثم نقره فطنّ ، فقال : إنّه ليخبرني هذا الصّواع بأنّه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف ، فطرحتموه في البئر وقتلتم لأبيكم أكله الذّئب ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « يقول : لا يشعرون أنّك أنت يوسف ، أناه جبرئيل فأخبره بذلك » ^(٣) .
وقيل : يعني : أنهم لا يشعرون بنزول الوحي إليه ، وإزالة الوحشة عنه ^(٤) .
عن السّجاد عليه السلام ، أنّه سئل : ابن كم كان يوسف يوم ألقيوه في الحبّ ؟ قال : « كان ابن تسع سنين » ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّه كان ابن سبع سنين » ^(٦) .
أقول : يمكن أن تكون السّبع تحريف التسع .
وقيل : إنّ كان ابن اثني عشرة سنة ^(٧) . وقيل : سبع عشرة سنة ^(٨) . وقيل ثماني عشرة سنة ^(٩) .
ثمّ قيل : إنّهم ذبحوا جدّيا على قميصه ^(١٠) .
وعن القمي رحمه الله : فقالوا : نعمد إلى قميصه فنلطّخه بالدم ، ونقول لأبينا : إنّ الذّئب أكله ، فقال لهم أخوهم لاوي : يا قوم ، ألسنا بني يعقوب إسرائيل الله ، ابن إسحاق نبي الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، أفتظنّون أنّ الله يكتّم هذه الخبر عن أنبيائه ؟ فقالوا : ما الحيلة ؟ قال : نقوم ونغتسل ، ونصلّي جماعة ، ونتضرّع إلى الله تعالى أن يكتّم ذلك عن أبينا ، فإنّه جواد كريم ، فقاموا واغتسلوا ، وكان في سنّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنهم لا يصلّون جماعة حتّى يبلغوا أحد عشر رجلا ، فيكون واحد منهم إماما وعشرة يصلّون خلفه . فقالوا : كيف نصنع ، وليس لنا إمام ؟ فقال لاوي : نجعل الله إمامنا ، فصلّوا وتضرّعوا وبكوا وقالوا : يا ربّ اكتم علينا هذا ^(١١) .

﴿وَجَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاؤَا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبَّرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٦) و (١٨)﴾

(١) الصّواع : الصاع ، وهو المكّيال ، أو إناء يشرب به .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٩ .

(٤) جوامع الجامع : ٢١٤ .

(٥) علل الشرائع : ٤٨ / ١ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٣٦ / ٢٠٨٠ ، تفسير الصافي ٤ : ٩ .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٣ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ ، تفسير الرازي ١٨ : ٩٩ .

(٩) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٣٤١ ، تفسير الرازي ١٨ : ١٠٢ .

(١١) تفسير القمي ١ : ٣٤١ ، تفسير الصافي ٤ : ٩ .

فرجعوا إلى كنعان ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ ودخلوا عليه آخر النهار وهم ﴿يَبْكُونَ﴾ فلما رأى يعقوب بكاءهم فرح وقال : هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فما فعل يوسف ؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا﴾ من عند يوسف كي ﴿نَسْتَبِقُ﴾ بالتناضل والعدو ﴿وَتَرْكُنَا﴾ وخلينا ﴿يُوسُفَ﴾ وحده ﴿عِنْدَ مَاعِنَا﴾ وزادنا وثيابنا وأثاننا ﴿فَأَكَلَهُ الذَّبُّ﴾ بلا ريث وطول زمان يحتاج إلى التعهد ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا أبة ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ ومصّدق ﴿لَنَا﴾ في ما نذكره ، لفرط حبّك ليوسف ، وسوء ظنّك بنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ من قبل عندك في سائر أخبارنا ﴿صَادِقِينَ﴾ غير متّهمين بالكذب أو المراد : وإن كنّا في هذا الذي نقول صادقين في الواقع ﴿وَجَاءُوا﴾ للشهادة على صدقهم بقميص يوسف ، حال كونهم صابّين ﴿عَلَى قَمِيصِهِ بَدَمٍ﴾ مكذوب كأنّه عين ﴿كَذِبٍ﴾ بحيث لا يشكّ فيه كلّ من يراه.

روي أنّه لما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح بأعلى صوته ، ثمّ قال : أين قميصه ؟ فأخذه وألقاه على وجهه ، وبكى حتّى خضب وجهه بدم القميص. ثمّ قال : تالله ، ما رأيت إلى اليوم ذنباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزّق عليه قميصه ^(١).

وعن الصادق عليه السلام في رواية قال : « اللهم لقد كان ذنباً رفيقاً حيث لم يشقّ القميص » ^(٢) . والقمي بالله : قال [يعقوب] : ما كان أشدّ غضب ذلك الذّئب على يوسف ، وأشفقه على قميصه ، حيث أكل يوسف ولم يمزّق قميصه ^(٣) .

ثمّ ﴿قَالَ﴾ : ليس الأمر كما تقولون ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ وسهلت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ أو هوّنت في نظركم ﴿أَمْرًا﴾ عظيماً ، أمّا ما عليكم فتدارك الذّئب ، وأمّا ما عليّ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أو المراد : فصبر جميل وظيفتي وتكليفني ، وهو ما لا شكوى فيه إلى الخلق - على رواية ^(٤) ، أو : ما لا جنح فيه ؛ على قول آخر ^(٥) - ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ والمطلوب منه الإعانة ﴿عَلَى﴾ تحمّل ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وتخبرون به من أمر يوسف ، والصّبر على فراقه.

عن السّجّاد عليه السلام : « أنّه لما سمع مقالتهن ، استرجع واستعبر ، وذكر ما أوحى الله إليه من الاستعداد للبلاء » ^(٦) .

قيل : إنّ الله ابتلى يعقوب بفراق يوسف ، لأنّه ذبح جدياً بين يدي أمّه ^(٧) . وقيل : إنّّه استطعمه فقير يوماً فما اهتمّ بإطعامه ، فانصرف الفقير حزينا ^(٨) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٦ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٣٧ / ٢٠٨٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٣ .

(٦) علل الشرائع ٤٧ : ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠ .

(٧ و٨) . تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٥ .

وقيل : لما ولد يوسف اشترى له ظئرا ^(١) ، وكان لها ابن رضيع ، فباع ابنها تكثيرا للبن على يوسف ، فبكت وتضرعت ، وقالت : يا رب ، إنَّ يعقوب فترق بيني وبين ولدي ، ففترق بينه وبين ولده يوسف ، فاستجاب الله دعاءها ، فلم يصل يعقوب إلى يوسف إلَّا بعد أن لقيت تلك الجارية ابنها ^(٢) .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ

بِضَاعَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ

مِنَ الرَّاهِدِينَ (١٩) و (٢٠)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد ذكر ما جرى بين يعقوب وإخوة يوسف ، ذكر كيفية تخليص يوسف من البئر ، وما جرى عليه بعد خلاصه بقوله : ﴿وَجَاءَتْ﴾ من طرف مدين قافلة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ ومارة من الأرض التي فيها البئر ، قاصدين مصر ، بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في البئر ، فنزلوا قريبا منها ، وكانت البئر معروفة ترد عليها القوافل كثيرا ، وإتَّما ألقوه فيها ليلتقطه السيَّارة ، وليكون أقرب إلى السلامة ؛ كما قيل . عن ابن عباس : جاءت سيَّارة - أي قوم يسكرون - من مدين إلى مصر ، فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق ، فهبطوا على أرض فيها حبَّ يوسف ، وكان الحبُّ في قفرة بعيدة من العمران ، لم يكن إلَّا للزَّعاة ^(٣) .

وفي رواية : لما دعا يوسف بالدَّعاء الذي نقلناه سابقا ، ما بات في الحبِّ ، وخرج منه بعد رجوع إخوته ^(٤) .

قيل : كان مأؤه ملحا فعذب حين القي فيه ^(٥) .

وعلى أي تقدير احتاجت ^(٦) القافلة إلى الماء ﴿فَأَرْسَلُوا﴾ رجلا كان ﴿وَارِدَهُمْ﴾ وسقَّاءهم الذي يرد الماء - يقال له مالك بن زعر الخزاعي - ليطلب لهم الماء ، فجاء على رأس الحبِّ ﴿فَأَدْلَى﴾ وأرسل ﴿دَلْوَهُ﴾ في الحبِّ ليمألها من الماء ، وكان يوسف في ناحية من قعره ، فتعلَّق بالحبل - وقيل : أوحى إليه بأن يتعلَّق به ^(٧) - وتعلَّق به ، فلما نظر مالك ، فإذا بغلام وجهه كفلقه القمر ، فنادى من فرط الشَّغف : يا للبشارة ، لنفسه وأصحابه ، و﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾ احضري ، فهذا أوانك - وقيل : معناه : ابشروا يا أصحابي - ﴿هَذَا غُلَامٌ﴾ لا نظير له ، قد أنعم الله به علينا بدل الماء ، نبيعه بثمن عال ^(٨) ، أو صرنا

(١) الظَّفر : المُرْضعة لغير ولدها.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٥ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦١ .

(٦) في النسخة : احتاج .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٨ .

(٨) تفسير الرازي ٧ : ١٠٦ .

سببا لحياته.

وقيل : إنّ البشري كان علما لصاحبه ، ناداه ، ليعينه على نزع الدلو من البئر ^(١) .

وعن الأعمش : أنّه دعا امرأة اسمها بشري ^(٢) .

قيل : لما خرج يوسف من البئر بكّت أطراف البئر على مفارقتها ^(٣) .

ثمّ أنّ مالكا وأصحابه لما خافوا من أهل القافلة أن يشاركوهم في يوسف أخفوه ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ منهم ، بأن جعلوه ﴿بِضَاعَةً﴾ ومتاع تجارة ، وقالوا : إنّ أهل الماء أو دعوه عندنا لنبيعه بمصر ؛ كذا قيل ^(٤) .
وعن ابن عباس : أنّ إخوة يوسف لما طرحوه في الحبّ ورجعوا إلى كنعان ، عادوا بعد ثلاثة أيّام ليتعرّفوا خبره ، فوجدوه عند السيّارة ^(٥) .

وقيل : إنّ يهودا كان يأتيه كلّ يوم بالطعام ، فأتاه يومئذ فلم يجده فيها ، فأخبر إخوته فأتوا ورأوا آثار السيّارة ، فطلبوهم

فلما رأوا يوسف قالوا : هذا عبدنا أبق منا ، ووافقهم يوسف على ذلك ، لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانيّة ^(٦) .

وعن السجّاد عليه السلام : « أنّهم لما أصبحوا قالوا : انطلقوا بنا حتّى ننظر ما حال يوسف ، أمات أم هو حيّ ؟

فلما انتهوا إلى الحبّ ، وجدوا بحضرة الحبّ سيّارة ، وقد أرسلوا واردهم وأدلى دلوه ، فلما جذب دلوه فإذا هو بـغلام متعلّق بدلوه ، فقال لأصحابه : يا بشري هذا غلام ، فلما أخرجه أقبل إليهم إخوته فقالوا : هذا عبدنا سقط [منا] أمس في هذا الحبّ ، وجئنا اليوم لنخرجه ، فانتزعوه من أيديهم وتنحّوا به ناحية ، فقالوا : إمّا أن تقرّ لنا أنّك عبدنا فنبيعك [على] بعض هذه السيّارة ، أو نقتلك ، فقال لهم يوسف : لا تقتلوني ، واصنعوا ما شئتم ، فأقبلوا به إلى السيّارة فقالوا : أمنكم من يشتري منا هذا العبد ؟
^(٧) وعن ابن عباس : أسروا شأنه ، يعني : أخفوا كونه أخا لهم ^(٨) .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ممّا يسرون وما يعلنون ﴿وَشَرُّهُ﴾ وباعوه من السيّارة - وعن مجاهد : أنّهم قالوا للقوم : استوثقوه لئلاّ يأبّق ^(٩) . وقيل : إنّهم باعوه ممّن استخرجه ^(١٠) . وقيل : إنّ الوارد وأصحابه باعوه ^(١١) .

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٤٧٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٧ .

(٦) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦١ ، تفسير الرازي ١٨ : ١٠٦ .

(٧) علل الشرائع : ٤٨ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١ .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٦ .

(٩ و ١٠) . تفسير الرازي ١٨ : ١٠٧ .

(١١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦١ .

وقيل : إنّ الشَّرَاءَ بمعنى الإِشْرَاءَ ، والمراد أنّ القوم اشتروه ^(١) - ﴿بِثْمَنِ﴾ وعوض ﴿بِخَسٍ﴾ وناقص من حيث الغشّ وقلة العيار.

وعن ابن عباس : يعني : بثمان حرام ، لأن ثمن الحرّ حرام ^(٢) . لأنّ البخس بمعنى الناقص ، والحرام ناقص البركة.

وقيل : يعني : بثمان ظلم ، لكون الظلم نقصا ^(٣) .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان قلة الثمن في نفسه ، بيّن قلّته من حيث المقدار بقوله : ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة لا توزن.

قيل : إنهم كانوا لا يوزنون الدرهم إلّا إذا بلغت اوقية ؛ وهي الأربعون ^(٤) .

وقيل : إنّ قوله ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ بيان للثمن البخس ، بمعنى : ثمن قليل ^(٥) .

وقيل : يعني : ثمن ناقص عن قيمة يوسف نقصانا ظاهرا ^(٦) ، وهو دراهم معدودة.

عن ابن عباس : كانت عشرين درهما ^(٧) ، وهو مرويّ عن السّجاد عليه السلام ^(٨) .

وعن السّدي كانت : اثنين وعشرين [درهما] ، والإخوة كانوا أحد عشر ، فكلّ واحد أخذ اثنين إلّا يهوذا ^(٩) .

أقول : لا شبهة في وقوع السهو في ذكر عدد الإخوة ، لأنهم كانوا عشرة ، وكذا في التّقسيم.

﴿وَكَانُوا﴾ بائعو يوسف ﴿فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ﴾ وغير الراغبين ، أمّا لو كانوا إخوته فوجهه واضح ، وأمّا لو كانوا ملتقطوه ، فلأنّ الملتقط متهاون لما يلتقطه ، أو خوفهم أن يظهر له مالك أو صاحب ، فينزعه من أيديهم ، وأمّا لو كان المراد القوم الذين اشتروه ، فلا يظهر الرّغبة فيه ، للتّوصّل بذلك إلى تقليل الثمن ، أو لاطمئنانهم بكذب دعوى رقيته ، واحتمالهم أن ينتزع منهم.

قيل : إنّ يوسف أخذ يوما مرآة ، فنظر إلى صورته ، فأعجبه حسنه وبهاؤه ، فقال : لو كنت عبدا فباعوني لما وجد لي ثمن ، فابتلى بالعبودية ، وبيع بثمان بخس ^(١٠) .

روى بعض العامة : أنّ الصّبيان أخذوا النّبيّ ﷺ في طريق المسجد ، وقالوا : كن لنا جملا ، كما تكون للحسن والحسين ، فقال لبال : اذهب إلى البيت وآت بما وجدته لأشتري نفسي منهم ، فأتي بثمان جوزات ، فاشتري بها منهم نفسه ، وقال : أخي يوسف باعوه بثمان بخس دراهم معدودة ، وباعوني بثمان جوزات ^(١١) .

(١ و ٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٧ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٨ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦١ .

(٨) علل الشرائع : ٤٨ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٨ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٥ .

(١١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٢٩ .

قيل : حمل القوم يوسف إلى مصر ، فاطّلع أهل مصر بمجيء تجّار مدين ، فخرجوا ليشترّوا من أمتعتهم ، وخرج فيهم بعض خدام العزيز ، فلمّا رأوا يوسف تحيّرّوا من غاية حسنه ونعت جماله ، فرجعوا وأخبروا به العزيز ، وهو كان يعشقه لما سمع من صيت حسنه ، وافتتن أهل مصر به ، والتمسوا من مالكة أن يعرضه للبيع ، فزيّنه وأخرجه إلى السّوق وعرضه للبيع مزايده ثلاثة أيّام ، واجتمع النّاس لشرائه ، وفيهم عجوز أتت بشيء من الغزل لتشتريه به ، فتزايدها في ثمنه حتّى بلغ إلى ما لا يقدر عليه أحد غير العزيز ، فاشتراه بوزنه مرّة مسكا ، ومرّة لؤلؤا ، ومرّة ذهباً ، ومرّة فضّة ، ومرّة حريرا . وكان وزنه أربعمئة رطل ، وستّة سبع عشرة سنة ^(١) .

وقيل : إنّهُ اشتراه بعشرين دينارا ^(٢) .

وقيل : [اشتراه العزيز بأربعين دينارا] وزوج نعل ، وثوبين أبيضين ^(٣) .

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ

وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ

غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

﴿وَقَالَ﴾ العزيز ﴿الَّذِي اشْتَرَاهُ﴾ وكان ﴿مِنْ﴾ أهل ﴿مِصْرَ﴾ بعد أن ذهب به إلى بيته ﴿لَامْرَأَتِهِ﴾

راعييل ، الملقبة بزيخا بنت دعائل ، أو هيكاهم : أن ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ ومسكنه ، واجعليه أحسن ما يكون.

قيل : هو كناية عن المبالغة في إكرام نفسه ، وإحسان تعهده في المطعم والمشرب ، وغيرهما ^(٤) .

ثمّ ذكر علّة لزوم إكرامه بقوله : ﴿عَسَىٰ﴾ ويرجى ﴿أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في أمورنا ، ويكفيينا مهمّاتنا ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ﴾ ونختاره لأنفسنا ﴿وَلَدًا﴾ لما تفرّس منه الرّشد والتّجابه وكرامة النّفس ، ولم يكن له ولد. ولذا قالوا : هو أفرس النّاس.

قيل : إنّهُ كان على خزائن مصر ، وصاحب جنود الملك ، وكان اسمه قطفير - أو أطفير - ولقبه

العزيز ، لغلبته على أهل مملكته ، وقربه من الملك ، وهو يومئذ ريثان بن الوليد العماليقي ^(٥) .

قيل : إنّهُ عمّر إلى زمان موسى ، وكان هو فرعون موسى ^(٦) .

وقيل : إنّهُ كان من أجداد فرعون موسى ، وآمن بيوسف ، ومات في حياته ، وملك بعده قابوس

بن ^(٧)

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٩ .

(٣) جوامع الجامع : ٢١٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣١ .

(٥ و ٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٨ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٠ .

(٧) في النسخة : قامومن .

مصعب (١) .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ التمكن البديع والرفعة التي حصلت ليوسف في قلب العزيز ، حتى أمر امرأته بإكرام مشواه. أو التمكن الذي حصل له في منزله ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وجعلنا له مقاما عاليا ﴿فِي﴾ أهل تلك ﴿الْأَرْضِ﴾ ووجهة تامة في أنظار سكة تلك المملكة ، ومحبوبة كاملة في قلوبهم ، ليرتّب على تلك المكانة والوجهة ما جرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ ونلهمه مقدارا كافيا ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرؤى والمنامات التي عمدتها رؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك. وإنما أراد إخوته إذلاله وإهلاكه ، وأراد الله إعزازه ورفعته محلّه ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ وقادر على إنفاذ إرادته ، لا دافع لقضائه ، ولا مانع عن إجراء حكمه - في أرضه وسمائه - قيل : إنّ ضمير ﴿أَمْرِهِ﴾ راجع إلى يوسف ، والمعنى : أنّه تعالى غالب على أمر يوسف (٢) - ويده انتظامه ، لا بسعيه وإرادته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ زمام جميع الامور بيد الله ، بل يزعمون أنّ لهم فيها دخلا ، ولتديبرهم فيها تأثيرا ، أو المراد : أنّهم لا يعلمون لطائف صنع الله ، وخفايا فضله.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ * وَرَأَوْدَتُهُ
الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ
رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ
رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ (٢٢) و (٢٤) ﴿

ثم أنّه تعالى بعد بيان صبر يوسف على البلايا والمحن ، ومكافاته بالنعم الجسمانيّة الظاهرية ؛ من التمكن في قلب العزيز ، وعلوّ منزلته عند أهل مصر ، ذكر مكافاته بالنعم الروحانيّة الباطنيّة بقوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وكمّلت قواه الجسمانيّة والروحانيّة ﴿آتَيْنَاهُ﴾ وأعطيناه ﴿حُكْمًا﴾ ونبوة ، أو حكمة عمليّة ، التي هي الاستيلاء على النفس ، بحيث يسهل عليه منعها عن اتّباع الهوى ، وارتكاب الرذائل ﴿وَعِلْمًا﴾ كاملا بجميع ما يحتاج إليه الناس من المعارف والأحكام ، جزاء على حسن صبره ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الجزاء البديع الجزيل ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ جميعا على أعمالهم الحسنة. قيل : إنّّه ﷺ صار نبيا وله ثلاث وثلاثون سنة (٣) .

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٠٨ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١١٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١١٠ .

والأشدّ : سنّ الوقوف ، وهو ما بين ثلاثين وأربعين ؛ كما هو مروى عن ابن عباس ^(١) .
وقيل : إنّه كان نبياً حين القي في الحب ^(٢) . وكان له ثماني عشرة سنة ، وهو الأشدّ ، لأنّه سن
الشباب ، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين .

قيل إنّ زليخا كانت أجمل نساء عصرها ، وكانت بنت جلموس ^(٣) سلطان المغرب ، فرأت ذات
ليلة في المنام غلاما على أحسن ما يكون من الحسن والجمال ، فسألت عنه ، فقال : أنا عزيز مصر ،
فلما استيقظت افتتنت بما رأت في الرؤيا ، وأدّى ذلك إلى تغيّر حالها ، ولكنها كتمت حالها عن الأغيار
دهرا . ثمّ تفتّن من في البيت من الجوّاري وغيرهنّ أنّ بها أمرا ، فقال بعض : أصابتها عين ، وبعض :
أصابها سحر ، وبعض : مسّها الجنّ ، وبعض : ابتلت بالعشق ، ففتّش عن أمرها ، فما وجد فيها غير
العشق ، وقد كان خطبها ملوك الأطراف ، فابت إلاّ عزيز مصر ، فجهّزها أبوها بما لا يحصى من العبيد
والجوّاري والأموال ، وأرسلها مع حواشيه إلى جانب مصر ، فاستقبلها العزيز بجمع كثير في زينة عظيمة ،
فلما رآته زليخا علمت أنّه ليس الذي رآته في المنام ، فأخذت تبكي وتحتسّر على ما فات من المطلوب ،
فسمعت هاتفا يقول : لا تحزني يا زليخا ، فإنّ مقصودك يحصل بواسطة هذا .

ثمّ لما دخلوا مصر أنزلوا زليخا في دار العزيز بالعزّ والاحترام ، وهي في نفسها على آلام الفراق ،
وكانت على هذه الحال سنين ، وبقيت بكرا لأنّ العزيز كان عنيّنا ، ثمّ كان ما كان من حسد إخوان
يوسف عليه ، ووصوله إلى مصر بالعبوديّة ، فلما رآته زليخا علمت أنّه هو الذي رآته في المنام ، فلما ورد
يوسف في دار العزيز ملك سلطان العشاق مملكة قلب زليخا ^(٤) .

روي أنّ يوسف كان يأوي إلى بستان في قصر زليخا يعبد الله فيه ، وكان قد قسّم نهاره ثلاثه
أقسام : ثلثا لصلواته ، وثلثا لبكائه ، وثلثا لذكر الله وتسبيحه ، فلما أدرك يوسف مبالغ الرّجال ، طلبت
منه الوقاع .

﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ وجاءت وذهبت عنده المرأة ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ لتخادعه ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ وهو يهرب
منها إلى البستان ، فلما طال ذلك عليها تغيّر لونها واصفر وجهها ، فدخلت عليها دايتها فأخبرتها بذلك
، فأشارت عليها أن تبني له بيتا مزينا بكلّ ما تقدر عليه من الزينة والطيب ، ليكون وسيلة إلى صحبة
يوسف ، فبنته ، فلما فرغ الصنّاع من عمله دعت العزيز ، فدخل فيه فأعجبه ، لكونه على اسلوب
عجيب ، وقال لها : سمّيه بيت السرور ثمّ فرح ، فاستدعت يوسف فزينه بكلّ ما يمكن من الزينة ،

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١١٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٣ .

(٣) في تفسير روح البيان : طيموس .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٤ .

وتزيّنت هي أيضا ، وكانت بيضاء حسناء ، بين عينيها خال يتألأ حسنا ، ولها أربع ذوائب قد نظمتها بالدّر والياقوت ، وعليها سبع حلل ، وأرسلت قلائدها على صدرها ، فجاءوا بيوسف ، فلمّا دخل عليها في البيت الأوّل أغفلته وأغلقته ، وراودته عن نفسه بكلّ حيلة ، فلم يجبها ، ثمّ أدخلته في البيت الذي يليه ، وراودته بكلّ ما يمكن ، فلم يساعدها يوسف ، ودفعها بكلّ ما قدر عليه ، ثمّ إلى أن انتهى إلى البيت السّابع ^(١) ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ السّبعة كلّها عليه ، بحيث لم يمكن فتحها عادة.

ثمّ دعتة إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ﴾ له : ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأقبل وأسرع إليّ - قيل : هذه الكلمة بالعبريّة : هيا لج ^(٢) ، فعزّبه القرآن - فامتنع يوسف من إجابتها ، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ وألتجئ إليه من أن أعصيه ، واضيع حقوقه ، وأكفر نعمه العظام عليّ.

ثمّ اعتذر أوّلا بأنّ هذا العمل كفران نعمة العزيز بقوله : ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ ومنعمي ، وسيّدي الذي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وأكرمني غاية الكرامة ، ثمّ اعتذر ثانيا بأنّ في هذا العمل خسران الدّارين بقوله : ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ على أنفسهم بفعل القبيح ، وعلى منعميهم بالخيانة في عرضهم.

ويحتمل أن تكون كلمة ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ حقيقة عرقية في إظهار الامتناع الشّديد ، وقوله ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ علّة له ، وقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ علّة للعلّة. ويكون حاصل المعنى : لا يكون ذلك العمل مميّ أبدا ، لأنّ العزيز ربّي الذي أحسن إليّ بإكرام مثواي ، وحقّه أن لا أخونه في عرضه ، لأنّه ظلم في حقّه ، ولا يفلح الظالمون.

ويحتمل أن يكون ضمير ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ راجعا إلى الله ، والمعنى : إنّ الله ربّي ومنعمي ، حيث أكرمني غاية الإكرام ، وعصيانه كفران نعمته ، وظلم في حقّه ، ولا يفلح الظّالم.

عن ابن عباس قال : كان يوسف إذا تبسّم رؤي النّور في ضواحه ، وإذا تكلم رؤي شعاع النّور في كلامه يذهب من بين يديه ، ولا يستطيع آدمي أن ينعت نعته ، فقالت له : يا يوسف ، إنّما صنعت هذا البيت المزين لأجلك ، فقال يوسف : يا زليخا ، إيّ أخشى أن يكون هذا البيت الذي سمّيته بيت السّرور بيت الأحزان والثّبور ، وبقعة من بقاع جهنّم. فقالت زليخا : يا يوسف ، ما أحسن عينيّك ! قال : هما أوّل شيء يسيل إلى الأرض من جسدي. قالت : ما أحسن وجهك ! قال : هو للتراب يأكله. قالت : ما أحسن شعرك ! قال : هو أوّل ما ينتشر من جسدي. قالت : إن فراش الحرير مبسوط فقم واقض حاجتي ، قال : إذن يذهب نصبي من الجنّة. قالت : إن طرقي سكران من محبّتك ، فارفع طرفك إلى

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٦.

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١١٣.

حسني وجمالي ، قال : صاحبك أحقّ بحسنك وجمالك ^(١) .

﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ﴾ وعزمت على مخالطته ومجامعته عزما جزما بعد تغليق الأبواب ، ودعوتهما إلى نفسها ، والإلحاح في مقاربتها ، ومدّ يدها إليه لتعانقه ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ وعزم على إجابتها بمقتضى الطبيعة البشرية وقوة شهوة الشباب مع وجود أسباب هيجان الرغبة ﴿لَوْ لَا أَنْ رَأَى﴾ يوسف ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وحجته الباهرة الدالة على قبح الزنى ، وكونه مبعوضا له تعالى ، وكمال إيقانه الواصل إلى مرتبة عين اليقين التي تتجلى عندها حقائق الأشياء بصورتها الواقعية البرزخية.

وهذه المرتبة هي العصمة الالهية ، ولكن رأى البرهان فلم يهتمّ بها أصلا ، وكان فاقد الشرط ، والمقصود بيان أنه لم يكن امتناعه عن ارتكاب الفاحشة لقصور في قواه الطبيعية ونقص في موجبات الرغبة ، بل كان بمقتضى العقّة والعصمة الألفية ^(٢) مع وفور الدواعي النفسانية وتامة الموجبات الخارجية لظهور أحكام الطبيعة.

عن الرضا عليه السلام ، وقد سأله المأمون عن عصمة الأنبياء : قال عليه السلام : « لقد همت به ، ولو لا أن رأى برهان ربه لهم بما كما همت به ، لكنّه كان معصوما ، والمعصوم لا يهتمّ بذنب ولا يأتيه » .
قال : « ولقد حدّثني أبي ، عن أبيه الصادق عليه السلام ، أنّه قال : همت بأن تفعل ، وهم بأن لا يفعل » ^(٣) .

وفي رواية : « أنّها همت بالمعصية ، وهمّ يوسف بقتلها إن أجبرته ، لعظم ما تداخله ، فصرف الله عنه قتلها والفاحشة » ^(٤) .

وقيل : إنّ البرهان هو أنّه رأى مكتوبا في جانب البيت : ﴿لَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى﴾ ^(٥) .
وقيل : إنّّه قال له ملك : أنت همّ بفعل السفهاء ، وأنت ^(٦) مكتوب في ديوان الأنبياء ^(٧) وفي هذا القول ما لا يخفى .

وقيل : إنّّه انفرج له سقف البيت ، فرأى يعقوب عاضّا على يديه ^(٨) .

وقيل : إنّ يعقوب ضرب على صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ^(٩) .

وقيل : بدت كفّ [فيما بينهما] لا عضد لها ولا معصم ، مكتوب فيها : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ

لِحَافِظِينَ*

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٦ .

(٢) كذا ، ولعلّ مراده المألوفة .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٠١ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٣ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٨ .

(٦) زاد في النسخة : واسمك .

(٧) و (٨) تفسير روح البيان ٤ : ٢٣٨ .

(٩) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦٦ .

كِرَامًا كَاتِبِينَ»^(١) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢) فلم يتنبه^(٣) ، ثم رأى فيها : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٤) فلم ينجع. فقال الله عز وجل لجبرئيل : أدرك عبدي قبل أن يصيب الفاحشة^(٥) . فانخط جبرئيل عليه السلام وهو يقول : يا يوسف ، اتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء^(٦) .

في عصمة الأنبياء

أقول : لا شبهة في فساد هذا القول وكذبه ، وقيل : إنّه رأى تمثال العزيز^(٧) . وقيل : إنّه رأى شخصا يقول له : يا يوسف ، انظر إلى يمينك ، فنظر [فرأى] شعبانا أعظم ما يكون ، فقال : هذا يكون في بطن الزاني غدا^(٨) . وقيل : إنّه سمع قائلا يقول : يابن يعقوب ، المؤمن كالطير^(٩) له ريش ، فاذا زنى سقط ريشه^(١٠) . وقيل : إنه رأى جبرئيل عاضا على يده^(١١) . عن السجّاد عليه السلام : قامت امرأة العزيز إلى الصنم ، فألقت عليه ثوبا ، فقال لها يوسف : [ما هذا ؟ قالت : أستحيي من الصنم أن يرانا ، فقال لها يوسف : [أستحيين ممّن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ، ولا يأكل ولا يشرب ، ولا أستحيي أنا ممّن خلق الانسان فعلمه ، فذلك قوله : ﴿لَوْ لَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّي﴾^(١٢)] .

وروي ذلك عن الباقر عليه السلام بعد أن كذّب قول الناس إنّه رأى يعقوب عاضا على إصبعه^(١٣) . وعن الصادق عليه السلام : « أن رضا الناس لا يملك ، وألستهم لا تضبط ، وكيف تسلمون ممّا لا يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم ، ألم ينسبوا يوسف عليه السلام إلى أنه همّ بالزنا »^(١٤) . أقول : والعجب أنّه مع ذلك روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام باسناده عن علي عليه السلام أنه قال : « طمعت فيه وطمع فيها ، فكان طمعه فيها أنّه همّ أن يحلّ التّكّة »^(١٥) بل نقلوا عن ابن عباس أنه قال : حلّ الهميان^(١٦) ، وجلس منها مجلس الخائن^(١٧) . وعنه أيضا : أنّها استلقت له وجلس بين رجلها ينزع ثيابه^(١٨) .

أقول : لا شبهة أن كلّها من الأكاذيب بحكم العقل والنقل وإجماع أهل الحلّ والعقد.

(١) الإنفطار : ٨٢ / ١٠ و ١١ . (٢) الإسراء ١٧ / ٣٢ .

(٣) في تفسير أبي السعود : فلم ينته . (٤) البقرة : ٢ / ٢٨١ .

(٥) في تفسير أبي السعود : الخطيئة . (٦) تفسير أبي السعود : ٤ : ٢٦٦ .

(٧) تفسير أبي السعود : ٤ : ٢٦٧ . (٨) تفسير روح البيان : ٤ : ٢٣٨ .

(٩) في تفسير الرازي : يا ابن يعقوب لا تكون كالطير يكون .

(١٠) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٠ . (١١) مجمع البيان ٥ : ٣٤٥ .

(١٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٤٥ / ١٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤ .

(١٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٠ / ٢٠٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤ .

(١٤) أمالي الصدوق : ١٦٤ / ١٦٣ ، تفسير الصافي ٢ : ١٤ .

(١٥) تفسير الرازي ١٨ : ١١٥ . (١٦) الهميان : شداد السراويل .

(١٧ و ١٨) تفسير الرازي ١٨ : ١١٥ .

قال الفخر الرازي : إن كلَّ من له تعلُّق بتلك الواقعة ، شهد ببراءة يوسف من المعصية ، فإنَّ الذين لهم تعلُّق بتلك الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود وربِّ العالمين ، وكلَّهم شهدوا ببراءته ، والشيطان أقرَّ أيضا ببراءته من المعصية ، فاذا كان الأمر كذلك لم يبق لمسلم مجال التوقُّف في هذا الباب .

أما ادِّعاء يوسف ببراءته فقولُه : ﴿ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ﴾^(١) وقولُه : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾^(٢) .

وأما المرأة فاتَّما اعترفت بذلك بقولها للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾^(٣) وبقولها : ﴿ الْآنَ خَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٤) .

وأما زوج المرأة فبقولُه : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ * يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾^(٥) .

وأما الشهود فيقول الشاهد : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٦) .
وأما النسوة فبقولهنَّ : ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾^(٧) وقولهنَّ : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾^(٨) .

وأما شهادة الله فبقولُه : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾
وأما اقرار إبليس بذلك فبقولُه : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴾^(٩) فأقرَّ بأنَّه لا يمكنه إغواء العباد المخلصين .

ثم بيَّن الله منته على يوسف بقولُه : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الاراءة للبرهان أريناه ، ومثل ذلك التبصير بصرناهُ فيما قيل ، أو مثل ذلك التثبت
تثبتناه ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ كَلَّه ، ومنه خيانة العزيز ، أو قتل زليخا ﴿ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ كان هو الزنا ، أو ما شابهه في شدة القباحة .

ثم علَّل ذلك اللطف به بقولُه : ﴿ إِنَّهُ ﴾ أحد ﴿ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ والمصطفين لعبادتي وطاعتي .

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ * قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي

(١) يوسف : ١٢ / ٢٦ .

(٢) يوسف : ١٢ / ٣٣ .

(٣) يوسف : ١٢ / ٣٢ .

(٤) يوسف : ١٢ / ٥١ .

(٥) يوسف : ١٢ / ٢٨ و ٢٩ .

(٦) يوسف : ١٢ / ٢٦ .

(٧) يوسف : ١٢ / ٣٠ .

(٨) يوسف : ١٢ / ٥١ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ١١٦ ، والآية من سورة ص : ٣٨ و ٨٢ و ٨٣ .

عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا
رَأَى قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ
عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٥) و (٢٩)

ثمَّ بيّن الله سبحانه شدة طلب زليخا وشدة امتناع يوسف من إجابتها بقوله : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾^(١)
البراني وتسابقا إليه ، أما يوسف فللهرب من زليخا ، وأما زليخا فلصدّ يوسف عن الفرار والخروج.
وفي رواية : كانت الأقفال تتساقط والأبواب تفتح^(٢) ليوسف ، فلما بلغت زليخا اجتذبت قميصه
من خلفه ، لتوقفه وتمنعه من الخروج ﴿وَوَ﴾ لذا ﴿قَدَّتْ﴾ وشقّت ﴿قَمِيصَهُ﴾ طولا ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ وخلف
بالاجتذاب ﴿وَأَلْفَيَا﴾ ووجد العزير الذي كان ﴿سَيِّدَهَا﴾ وزوجها ﴿لَدَى الْبَابِ﴾ وهو يريد أن يدخل
البيت كما قيل ، وقيل : إنه كان جالسا عند الباب مع تملّخا ابن عمّ زليخا^(٣) ، وإنما قال سبحانه
سيدها لأنّ الزوج سيد المرأة ، ولم يكن سيد يوسف لأنّه لم يكن مالكة في الواقع.
ثمّ كأنه قيل : ما قالت زليخا لسيدها عند ذلك ؟ فأجاب سبحانه بقوله : ﴿قَالَتْ﴾ زليخا
لسيدها تنزيها لنفسها : ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ وزوجتك ﴿سُوءًا﴾ أو فحشا ، وليس جزاؤه وعقوبته
﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ ويجس في الحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كالقتل بالسيف أو الضرب الشديد ، وقيل : إن
كلمة ﴿مَا﴾ استفهامية ، والمعنى أيّ شيء جزاؤه^(٤) غير السجن أو العذاب الشديد ؟
قال العزير : من أراد بك سوءا ؟ قالت زليخا : إنّ كنت نائمة في فراشي ، فجاء هذا الغلام
العبري ، وكشف عن ثيابي ، وراودني عن نفسي. فالتفت العزير إلى يوسف ، وقال : يا غلام ، أهذا
جزائي منك ؟ ! أنا أحسنت إليك ، وأنت تخونني^(٥) ! ﴿قَالَ﴾ يوسف تنزيها لعرضه وبرئته لنفسه
وحفظا لها من السجن والتعذيب : ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي﴾ لتخادعني ﴿عَنْ نَفْسِي﴾ وطالبتني مواقعتها ، وأنا
امتنعت من إجابتها حتّى فررت منها.

قيل : إنّ العزير قال : لا أقبل قولك إلا بالبرهان^(٦) . وقيل : إنّ نظر إلى ظاهر حال زليخا
وتظلمها ، فأمر بأن يسجن يوسف ، فعند ذلك دعا يوسف بانزال براءته ، وكان لزليخا خال له ابن في
المهد - ابن ثلاثة أشهر على رواية ، أو ابن أربعة على أخرى ، أو ابن ستة أشهر على الثالثة - فهبط
جبرئيل إلى ذلك الطفل

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٦٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٠ .

(٣) جوامع الجامع : ٢١٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٠ .

(٤) و (٥) . تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٠ .

(٦) في تفسير روح البيان : قول.

وأجلسه في المهد ، وقال له : اشهد ببراءة يوسف : فقام الطفل من المهد فجعل يسعى حتى قام بين يدي العزيز ^(١) ﴿وَشَهِدَ﴾ ببراءة يوسف ، مع أنه ﴿شَاهِدٌ﴾ كان ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ وأقاربها .
وعن ابن عباس : أن الشاهد كان صبيا انطقه الله تعالى في المهد ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « ألهم الله عز وجل يوسف أن قال للملك : سل هذا الصبي في المهد ، فإنه يشهد بأنها راودتني عن نفسي . فقال العزيز للصبي : فأنطق الله الصبي في المهد » ^(٣) .

وقيل : كان لها ابن عم ، وكان رجلا حكيما ، واتفق أنه كان مع العزيز في ذلك الوقت ، يريد أن يدخل عليها . فقال : فقد سمعنا الجليلة ^(٤) من وراء الباب ، وشقّ القميص ولا ندري أيكما قدّم صاحبه ^(٥) ، ثم قال : انظروا إلى قميص يوسف ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ﴾ وشقّ ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ وقدّم ﴿فَصَدَقَتْ﴾ زليخا في أن يوسف أراد بها سوءا ﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في قوله : هي راودتني عن نفسي ﴿وَأِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ﴾ وشقّ ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ وخلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ زليخا في قولها ورميها يوسف ﴿وَهُوَ مِنْ﴾ جملة ﴿الصَّادِقِينَ﴾ في رمي زليخا بمراودته عن نفسه ، لأنه إن كان يوسف طالبا لها ومقبلا إليها ، فإما أن تقوم زليخا في قبالة وتدفعه عن نفسها ، وإما أن تهرب منه ، ويتبعها يوسف ، ويسرع في المشي ، فيعثر بذيله ، وعلى أي تقدير لا بد أن ينشق قميص يوسف من قدّم ، وأما إن كانت زليخا طالبة له ، ويوسف هاربا منها ، فلا بد من أن ينشق قميصه من خلف ، لأنها تتبعه وتحتذب قميصه من خلف .

واعترض عليه بأن شقّ القميص من خلف ليس له دلالة قطعية على براءة يوسف ، لاحتمال أنه لما طلب منها الزنا غضبت عليه ، وأرادت إيذاءه فهرب منها ، وركضت خلفه وجذبت له لتضربه ، فخرق قميصه من خلف .

وفيه : أنه كانت على تقدير كون الشاهد ابن عمها أمارات أخرى على صدقه :
منها : أنه عليه السلام كان بحسب الظاهر عبدا ، والعبد يبعد أن يتجاسر على مولاه وزوجته .
ومنها : أنهم رأوا زليخا زينت نفسها بأكمل الزينة التي لم تتزين بها إلى ذلك اليوم .
ومنها : أن إثار الشهوة كانت فيها متكاملة بصبرها على الزوج سنين متطاولة ، لأن زوجها كان عنيئا .

ومنها : أنهم رأوا يوسف في غاية العفة مدّة مديدة ، إلى غير ذلك من القرائن .
ولذا ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ العزيز أو ابن عمها ﴿قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ﴾ علم ببراءة يوسف وصدقه في قوله

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٣ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥ .

(٤) الجليلة : الصبياح والصحب .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٣ .

و﴿قَالَ﴾ لزيلخا : إن الأمر قد ظهر ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ﴾ ومكركن أيتها النساء الماكرات ، لا من كيد يوسف ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ لأنه أشدّ تأثيرا في النفوس من كيد الرجال ، وأعلق بالقلوب منه ، بل من كيد الشيطان لأته يوسوس مسارقة ، وهنّ يواجهن به الرجال ، فحجّلت زليخا بعد انكشاف الأمر ، واستحيى العزيز وسكت.

ثمّ لما كان حليما قليل الغيرة ، محبّا لزيلخا غاية الحبّ ، خائفا من أن يشتهر الأمر في الناس ، قال ليوسف : يا ﴿يُوسُفُ اعْرِضْ﴾ واعمض ﴿عَنْ هَذَا﴾ الأمر واكتمه عن الناس ، ولا تحدّث به أحدا ، لأنهم يعيرونني إن سمعوا به ، ويا زليخا توبي ﴿وَاسْتَغْفِرِي﴾ الله ﴿لِذَنْبِكِ﴾ الذي ارتكبتة ﴿إِنَّكَ كُنْتَ﴾ وصرت بسببه ﴿مِنْ﴾ جملة القوم ﴿النَّخَاطِئِينَ﴾ والمتعمدين لفعل القبيح. قيل : إن تذكير الجمع لتغليب الذكور على الإناث ^(١).

روي أنّ العزيز حلف أن لا يدخل عليها إلى أربعين يوما ، وأخرج يوسف من عندها ، وشغله بخدمة نفسه ، وبقيت زليخا لا ترى يوسف ^(٢).

وقيل : إنّ الآية من كلام الشاهد ^(٣) ، وكان هو الصبيّ ، أو ابن عمّها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٠) و (٣٢)﴾

ثمّ قيل : إن امرأة ساقى الملك وامرأة حَبّازه وامرأة صاحب دوابّه وامرأة صاحب سجنه وامرأة حاجبه ، كنّ كثير المراودة مع زليخا : فاطّلعن على قضيتها مع يوسف ، فأفشين الخبر في نسوة مصر ^(٤) ، ﴿و﴾ عند ذلك ﴿قَالَ نِسْوَةٌ﴾ كن ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ وبلدة مصر ، أو المراد أنّ النسوة الخمس في المدينة [قلن] للنساء تشنيعا ولوما على زليخا : ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ مع جلالة شأنها وغاية خطرها

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٣.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٣.

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٤.

(٤) مجمع البيان ٥ : ٣٥٢ ، تفسير الرازي ١٨ : ١٢٦.

﴿ثَرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ وتطالب مملوكها موافقته لها وتخادعه ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ وتحتال في تحصيل مقصودها القبيح منه ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾ ووصل ذلك الفتى إلى سويداء قلبها ﴿حُبًّا﴾ وعشقا ، وحاصل المراد أنه تمكّن حبّه في قلبها بحيث شغلها عن غيره.

وقيل : إنّ المعنى أحاط بقلبها حبّه كإحاطة الشّغاف ، وهو الجلدّة المحيطة بالقلب ^(١) .

وقيل : إن المعنى أنّ حبّه شقّ شغاف قلبها : ودخل فيه ^(٢) .

عن القمي ، عن الباقر عليه السلام ، يقول : « قد حجبها حبّه عن الناس فلا تعقل غيره » ^(٣) .

﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَنَرَاهَا﴾ ونعلمها ، كعلمنا بالشيء بطريق المشاهدة غائرة ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ وانحراف

عن طريق العفاف والرّشد والصواب ﴿مُيَبِّنٍ﴾ وظاهر ضلالها عند كلّ أحد ، أو مظهر بين الناس.

قيل : إنّما قلن : لنراها في ضلال ، ولم يقلن : إنّها في ضلال ، إشعارا بأنّ حكمهنّ بضلالها عن

علم ويقين ، لا عن ظنّ وتخمين ، وإعلانا بتنزّههنّ عمّا هي عليه ^(٤) .

قيل : لذا ابتلاهّن الله بما عبّروها ، لأنّه ما عبّر أحد أخاه بذنب إلّا ارتكبه قبل أن يموت ^(٥) .

عن القمي : وشاع الخبر بمصر ، وجعلن النساء يتحدّثن بحديثها ، ويعذلنها ^(٦) ويذكّرنها ^(٧) .

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وتعيّبهنّ إياها في الخفاء والسرّ ، كاخفاء الماكر مكره. وقيل :

مكرهنّ إفشاؤهن سرّ زليخا ^(٨) ، فإنّ إفشاء السرّ يسمى مكرًا.

وقيل : إنّ النسوة كنّ مشتاقات لأنّ ينظرن إلى وجه يوسف ، فاحتلن تعييب زليخا في ذلك ،

لأنّهنّ عرفن أنّهن إذا قلن ما قلن عرضت زليخا عليهن يوسف ليظهر عذرها عندهن ^(٩) .

ولذا ﴿أَرْسَلَتْ﴾ زليخا خدمها ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ لتدعوهن لضيافتها ، إكراما لهنّ ، قيل : دعت أربعين

امرأة ، منهنّ الخمس المذكورات ^(١٠) . عن القمي : بعثت إلى كلّ امرأة رئيسة فجمعتهن في منزلها

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ وهيئت ﴿لَهُنَّ مَتَكًّا﴾ ونمارق يعتمدن عليها ، وقيل : إن المتكأ هو الطعام ، أو الاترج ،

أو الطعام المحتاج إلى القطع بالسكين ^(١١) .

﴿وَأَاتَتْ﴾ وأعطت زليخا ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ﴾ بعد الاتكاء ﴿سِكِّينًا﴾ : لقطع الفواكه أو الأطعمة

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٦ . (٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٥ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٥٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦ . (٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٥ . (٦) في المصدر : ويعبرها .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦ . (٨) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٦ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٧١ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٦ . (١٠) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٧١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٦ .

(١١) تفسير القمي ١ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦ . (١٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٧ .

التي حضرت عندهنّ ، روي أنّ زليخا اتخذت لهنّ ضيافة عظيمة من أنواع الفواكه وألوان الأطعمة والأشربة ما لا يوصف ^(١) .

قيل : جاءت زليخا عند يوسف ، فالبسته حلّة خضراء ، وأرسلت ذوابته على صدره ، وشدّت في وسطه منطقة من الذهب ، وألبسته نعلين مزيّنين بالجواهر ^(٢) .

﴿وَقَالَتْ﴾ له حين اشتغالهنّ باستعمال السكاكين في ما بأيديهنّ من الفواكه وأضرابها : ﴿اخْرِجْ﴾ يا يوسف ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ وابرز لهنّ ، فخرج عليهنّ لما لم يقدر على مخالفتها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ بذلك الحسن الفائق والجمال الرائق الذي يضمحل عنده جمال كلّ جميل ، إذن ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ وأعظمته ، ودهشن من فرط حسنه ، بحيث غفلن عن أنفسهن ، وخرجت أفعالهنّ عن اختيارهنّ ، ولم يعلمن ما يفعلن. وقيل : يعني حضن من شدّة الشّبّ لبوسف ^(٣) ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ بالسكاكين ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ بدل الفواكه والأطعمة. عن وهب : ماتت جماعة منهنّ ^(٤) .

عن النبي ﷺ ، قال : « رأيت في السماء الثانية رجلا صورته كالقمر ليلة البدر ، فقلت لجرئيل : من هذا ؟ قال : أخوك يوسف » ^(٥) .

قيل : كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليل البدر على سائر الكواكب ^(٦) . وقيل : إنه إذا سار في أزقة مصر ، يرى تألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس عليها ^(٧) . وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ^(٨) .

﴿وَوُكِّلَ﴾ لذا ﴿فُلِّنْ﴾ من فرط التعجّب من حسنه وكمال قدرة الله على الخلق : ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ ونزّه عن العجز حيث قدر على خلق مثل هذا الغلام الذي لا يتصوّر له نظير في الجمال والحسن.

ثمّ لما كان المركوز في الأذهان أنّ الملك أحسن المخلوقات بالغن في توصيف حسنه بقولهنّ : ما هذا الذي نراه ﴿بَشَرًا﴾ ومن جنس بني آدم لعدم إمكان وجود هذه الدرجة من الحسن فيهم ، بل ﴿إِنْ هَذَا﴾ الجميل الذي لا نظير له ، وما هو ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على ربه.

قيل : إنّ النساء لما رأين غاية عفته وكرامة نفسه قلن ذلك ^(٩) . فلمّا رأت زليخا دهشة النساء من رؤية يوسف ﴿قَالَتْ﴾ اعتذارا من عشقها إياه وجبها له : ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ الشاب الذي رأيته افتتنّت به هو العبد

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٦ .

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٧٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٧ .

(٥) مجمع البيان ٥ : ٣٥٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٧ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٤٨ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ١٢٨ ، مجمع البيان ٥ : ٣٥٣ .

الكنعاني ﴿الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ﴾ وعدلتني على حبه وافتناني به ، ولو رأيته قبل المجلس أو تصوّرته صورته لما كنتم تلوموني على حبه ، بل ظهر أنك أحقّ باللوم لأنك بنظرة واحدة إليه ظهر فيك ما لم يظهر في المدة المديدة.

قيل : أمّا أشارت زليخا إليه بذلك الذي للبعيد لكونها بعد انصرافه من المجلس ^(١) ، أو لظهور رفعة منزلته في الحسن.

ثمّ إنّها لما ظهر عذرها عند النسوة ، كشفت السرّ عمّا كانت تستره ، وأعلنت بحقيقة الحال بقولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وطلبت منه أن يمكّنني من قربه ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ بالله واستجار إليه من إجابتي ، ﴿وَاللَّهُ﴾ ﴿لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ ولم يجب ما أسأله من المواقعة ﴿لَيَسْجَنَ﴾ البتة ﴿وَلْيَكُونًا﴾ لا محالة ﴿مِّنْ﴾ جملة ﴿الصَّاعِرِينَ﴾ والمهانين في الناس ، وإنما أوعده بالصغار والذلّ لعلمها بأن له تأثيرا عظيما في قلب من كان عزيز النفس رفيع المقام عظيم الخطر كيوسف ، فتضيق عليه الحيل ، وإنّما قالت ذلك بين النساء ليعلم يوسف أنّها ليست من أمرها على خيفة وخفية.

قيل : إنّ النسوة لما سمعن منها هذا التهديد اجتمعن على يوسف ، وقلن : إنّنا نرى صلاحك في موافقتها ، وإلاّ توقعك في السجن ، وتبتليك بالذلّ والصغار ^(٢) .

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ إنّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّىٰ جِئَ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ (٣٣) وَ (٣٦)﴾

ثمّ لما رأى يوسف ﷺ موجبات الرغبة في إجابة مسؤولها كثيرة من حسننها وكثرة أموالها وموافقة النسوة معها ، وتوقع شرّها كالقتل والسجن ونظائرها ، التجأ إلى الله واعتصم به بقوله : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ﴾ الذي تهدّدي به زليخا ، وتخوّفي به النسوة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وأولى بالتحمل لديّ ﴿مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ من الزنا والفحش لقلة المحاذير الدنيوية بالنسبة إلى المحاذير الاخرية ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ ولا تدفع ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ومكرهنّ بي في إلقائي في الخطر وبعثي إلى خلاف رضاك

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٠ .

﴿أَصْبُ﴾ وأميل ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ ووافق ميلهنَّ وأقدم في إجابة مسؤولهنَّ ﴿وَأَكُنْ﴾ بعملِي هذا ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ والسفهاء الذين لا ينظرون إلى سوء عواقب أعمالهم.

القمي رحمه الله : فما أمسى يوسف في ذلك البيت حتى بعثت إليه كل امرأة رآته تدعوه إلى نفسها ، فضجر يوسف في ذلك البيت فقال : ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾^(١) الآية.

قيل : عند ذلك بكت الملائكة رحمة له ، وهبط إليه جبرئيل فقال له : يا يوسف ، ربك يقرئك السلام ويقول لك : اصبر فإن الصبر مفتاح الفرج ، وله عاقبة^(٢) محمودة^(٣) .

قيل : إنه لو قال رب العافية أحب إلي ، لعافاه الله^(٤) ، ولم يتل بالسجن ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دعاءه ومسألته ﴿فَصَرَفَ﴾ ودفع ﴿عَنْهُ﴾ برحمته ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ حسب دعائه ، وثبته على العصمة والعفة التي كان عليها حتى وطّن نفسه على مقاساة السجن واختيار المحنة والشدة على اللذة والراحة ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الداعين له وتضرّع المتضرّعين إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في قلوبهم من الخلوص وبما يصلحهم.

في (العلل) عن السجاد عليه السلام : « كان [يوسف] من أجمل أهل زمانه ، فلمّا راهق راودته امرأة الملك عن نفسه ، فقال لها : معاذ الله إنّنا من أهل بيت لا يزنون : فغلّقت الأبواب عليها وعليه . وقالت لا تخف ، وألقت نفسها عليه ، فأفلت منها هاربا إلى الباب ففتحه ، فلحقته فجدبت قميصه من خلفه فأخرجته منه ، فأفلت منها في ثيابه ، وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلّا أن يسجن أو عذاب أليم .

قال : فهمّ الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف : وإله يعقوب ، ما أردت بأهلك سوءا ، بل هي راودتني عن نفسي ، فسل هذا الصبي أينما راود صاحبه عن نفسه . قال : وكان عندها صبيّ من أهلها زائر لها ، فأنطق الله الصبي لفصل القضاء ، فقال : أتّها الملك ، انظر إلى قميص يوسف ، فان كان مقدودا من قدامه فهو الذي راودها ، وإن كان مقدودا من خلفه فهي التي راودته .

فلما سمع الملك كلام الصبيّ وما اقتصّ ، أفزع ذلك فرعا شديدا ، فجيء بالقميص فنظر إليه ، فلما رآه مقدودا من خلفه قال لها : إنه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم . وقال ليوسف : أعرض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتمه . قال : فلم يكتبه يوسف وأذاعه في المدينة حتّى قلن نسوة فيها : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، فبلغها ذلك فأرسلت إليهنَّ وهيات لهنّ طعاما ومجلسا ، ثمّ أتتهنَّ بأنّرج ،

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٧ .

(٢) في تفسير روح البيان : وعاقبته .

(٣ و ٤) . تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٢ .

وأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا ، ثُمَّ قَالَتْ لِيُوسُفَ : اُخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ : فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ مَا قُلْنَ . فَقَالَتْ لَهُنَّ هَذَا ﴿الَّذِي لَمْ تُنَبِّئِي فِيهِ﴾ يعني في حَبِّهِ ، وَخَرَجْنَ النِّسْوَةُ مِنْ عِنْدِهَا فَأَرْسَلَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى يُوسُفَ سَرًّا مِنْ صَوَاحِبِهَا تَسْأَلُهُ الزِّيَارَةَ ، فَأَبَى عَلَيْهِنَّ ، وَقَالَ : ﴿إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فَصَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ^(١) .

ثُمَّ قِيلَ : لِمَا ظَهَرَ لِلْعَزِيزِ بَرَاءَةَ يُوسُفَ ، لَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُ ، وَخَصَّه بِخِدْمَةِ نَفْسِهِ ، فَاحْتَالَتْ زَلِيخَا بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلٍ تَضَطَّرَّ يُوسُفَ إِلَى مُوَافَقَتِهَا ، فَلَمْ تَوْثُرْ فِيهِ ، فَلَمَّا أَيَسَّتْ مِنْهُ قَالَتْ لَزَوْجِهَا : إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ عَذْرِي ، فِيمَا أَنْ تَأْذُنَ لِي فِي الْخُرُوجِ لِلْإِعْتِذَارِ ، أَوْ تَحْبِسَهُ كَمَا حَبَسْتَنِي ^(٢) .

وقِيلَ : إِنَّ النِّسْوَةَ كَتَّ يَدْعُونَ يُوسُفَ إِلَى أَنْفُسِهِنَّ ، فَلَمَّا يَثْنُ مِنْهُ جِئْنَ إِلَى زَلِيخَا ، وَقُلْنَ : نَرَى أَنْ تَحْبِسَهُ أَيَّامًا قَلِيلًا ، لَعَلَّهُ بَعْدَ ابْتِلَائِهِ بِذَلِكَ السِّجْنِ وَتَعْبِهِ انْقَادَ لَكَ ، فَقَالَتْ زَلِيخَا لِلْعَزِيزِ : أَرَى أَنَّ الْأَصْلَحَ أَنْ تَحْبِسَهُ لِيَنْقَطِعَ عَنِ النَّاسِ ذِكْرُ هَذَا الْحَدِيثِ ^(٣) ، أَوْ يُحْسَبُونَ أَنَّهُ الْمَجْرِمُ ، وَكَانَ الْعَزِيزُ مَطِيعًا لَهَا ، فَاعْتَرَّ بِقَوْلِهَا ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ﴾ وَتَغَيَّرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ وَالشَّوَاهِدَ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ﴾ وَلِيَحْبِسَنَّهُ ﴿حَتَّى حِينَ﴾ انْقِطَاعِ قَالَةِ النَّاسِ بِنَظَرِ الْعَزِيزِ ، وَإِلَى زَمَانِ انْقِيَادِ يُوسُفَ أَوْ حِسَابِ النَّاسِ أَنَّهُ الْمَجْرِمُ بِنَظَرِ زَلِيخَا.

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْآيَاتُ : شَهَادَةُ الصَّبِيِّ ، وَالْقَمِيصُ الْمَخْرُوقُ مِنْ دَبْرٍ ، وَاسْتِبَاقَهُمَا الْبَابَ حَتَّى سَمِعَ مَجَادِبَتَهَا إِيَّاهُ عَلَى الْبَابِ ، فَلَمَّا عَصَاهَا لَمْ تَزَلْ مَوْلَعَةً ^(٤) بِزَوْجِهَا حَتَّى حَبَسَهُ » ^(٥) .

قِيلَ : كَانَ لِلْعَزِيزِ ثَلَاثَةُ سِجُونٍ : سِجْنُ الْعَذَابِ ، وَسِجْنُ الْقَتْلِ ، وَسِجْنُ الْعَافِيَةِ ، فَأَمَّا سِجْنُ الْعَذَابِ فَهُوَ مَخْفُورٌ فِي الْأَرْضِ وَفِيهِ الْحَيَاتُ وَالْعُقَارِبُ ، وَهُوَ مَظْلَمٌ لَا يَعْرِفُ فِيهِ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ ، وَأَمَّا سِجْنُ الْقَتْلِ فَهُوَ مَخْفُورٌ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا ، وَكَانَ الْمَلِكُ إِذَا سَخَطَ عَلَى أَحَدٍ يَلْقِيهِ فِيهِ عَلَى أَمِّ رَأْسِهِ فَلَا يَصِلُ إِلَى قَعْرِهِ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ ، وَأَمَّا سِجْنُ الْعَافِيَةِ فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَى جَانِبِ قَصْرِهِ ، فَإِذَا غَضِبَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ حَوَاشِيهِ حَبَسَهُ فِي ذَلِكَ السِّجْنِ ، فَلَمَّا أَرَادَتْ زَلِيخَا أَنْ يَسْجُنَ يُوسُفَ أَرْسَلَتْ إِلَى سِجَّانِ سِجْنِ الْعَافِيَةِ ، وَأَمَرَتْهُ أَنْ يَصْلَحَ فِيهِ مَكَانًا مُتَفَرِّدًا لِيُوسُفَ ، ثُمَّ قَالَتْ لِيُوسُفَ : لَقَدْ أَعْيَيْتَنِي ، وَانْقَطَعْتَ فَيْكَ حِيلَتِي ، فَلَأَسْلَمَنَّكَ إِلَى الْمَعْدَبِينَ يَعَذِّبُونَكَ كَمَا عَذَّبْتَنِي ، وَلَأَلْبَسَنَّكَ بَعْدَ الْحَلِيِّ

(١) علل الشرائع : ٤٨ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٤ .

(٤) ولع به : اغري به ، في تفسير القمي : ملحمة .

(٥) تفسير القمي ١ : ٢٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٩ .

والحلل جبّة صوف تأكل جلدك ، ولأقيدك بقيد من حديد يأكل رجلك.

ثمّ نزع ما كان عليه من اللباس ، والبسته جبّة صوف ، وقيدته بقيد من حديد ، فلمّا دنا من باب السجن نكّس رأسه ، فلمّا دخل قال : بسم الله ^(١) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ وعبدان من عبيد الملك الأكبر : أحدهما صاحب طعامه ، والآخر صاحب شرابه.

قيل : إنّ جماعة من أهل مصر وعدوها ^(٢) مالا كثيرا ليسمّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم إلى ذلك ، ثمّ أنّ الساقى نكل عن ذلك ، ومضى عليه الحُبّاز فسمّ الخبز ، فلمّا حضر الطعام قال الساقى : لا تأكل أيّها الملك من الخبز فإنّه مسموم. وقال الحُبّاز : لا تشرب أيّها الملك من الشراب فإنّه مسموم ، فقال الملك للساقى : اشر به فشربه فلم يضرّه ، وقال للحُبّاز : كله فأبى ، فجزّبه بدابّة فهلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاتفق أن ادخلا في السجن مع يوسف ^(٣) .

فلمّا دخل يوسف في السجن جلس في ناحية منه ، وأحاط به أهل السجن وهو يبكي ، فأتاه جبرئيل فقال له ﷺ : ممّ بكأوك وأنت اخترت السجن لنفسك ؟ فقال : إنّما بكائي لأنّه ليس في السجن مكان طاهر [أصلي فيه] فقال له جبرئيل : صلّ حيث شئت ، فإنّ الله قد طهّر خارج السجن وداخله أربعين ذراعا لأجلك ، فكان يصليّ حيث أراد ، وكان يصليّ ليلة الجمعة عند باب السجن ، فطلبت زليخا السجّان ، وقالت له : ارفع الغلّ عن يوسف ، وألبسه حلل الحرير والاستبرق ، وارفق به غاية الرفق.

ثمّ أثّر في قلبها الفراق ، واحترقت بنار الاشتياق ، فجاءت ليلة مع دايتها ^(٤) إلى السجن وطالعت جمال يوسف من بعيد : ثمّ كانت تنظر إليه من روزنة ^(٥) القصر إلى السجن ، وكان يوسف على عادته مشغولا بالعبادة ، ويسلّي أهل السجن ، ويحسن إليهم بكلّ ما قدر ، فقالوا ، بارك الله عليك ، ما أحسن وجهك ! وما أحسن خلقك ! لقد بورك لنا في جوارك. فمن أنت يا فتى ؟ فقال ﷺ : أنا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن زبيح الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم. فقال له السجان : لو استطعت خلّيت سبيلك ، ولكن احسن جوارك ، فكن في أيّ بيت شئت ^(٦) .

وروي أنّ الفتيتين قالوا له : إنّنا لنحبّك من حين رأيناك. فقال : أنشد كما بالله أن لا تحبّاني ، فو الله ما أحبّني أحد قطّ إلّا دخل من حبّه عليّ بلاء ، لقد أحبّني عمّتي فدخل عليّ من حبّها بلاء ، ثمّ أحبّني

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٤.

(٢) في تفسير أبي السعود روح البيان : ضمنوا لهما.

(٣) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٧٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٧.

(٤) الداية : المربعة الأجنبية ، والحاضنة ، والقابلة.

(٥) الروزنة : الكوة.

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٨.

أبي فدخل عليّ من حبّه بلاء ، ثمّ أحبّني امرأة صاحبي فدخل عليّ من حبّها بلاء ، فلا تحبّاني بارك الله فيكما ^(١) .

وفي رواية عن الرضا عليه السلام ، « قال : قال السجنان ليوسف : [إني] لاحبّك . فقال يوسف : ما أصابني [بلاء] إلّا من الحبّ ، إن كانت خالتي أحبّني فهي سرقتي ، وإن كان أبي أحبّني فقد حسدني إخوتي ، وإن كانت امرأة العزيز أحبّني فحبستني » ^(٢) .

وعن القمي عليه السلام : إنّ يوسف شكّا إلى الله في السجن ، فقال : يا رب ، بما استحققت السجن

؟

فأوحى الله إليه : أنت اخترت السجن حين قلت : ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه ، هلّا قلت : العافية أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « البكاؤن خمسة » إلى أن قال : « وأمّا يوسف فبكى على يعقوب حتى تأدّى به أهل السجن ، فقالوا له : إمّا أن تبكي الليل وتسكت بالنهار ، وإمّا أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل ، فصالحهم على واحد منهما » ^(٤) .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : « ما بكى أحد بكاء الثلاثة إلى أن قال : وأمّا يوسف فلمّا كان يبكي على أبيه يعقوب وهو في السجن ، فتأدّى به أهل السجن ، فصالحهم على أن يبكي يوما ويسكت يوما » ^(٥) .

قيل : إن زليخا سألت من العزيز بعد أيام أن يخرج يوسف من السجن ، فلم يفعل ، فأنساهم الله أمر يوسف فلم يذكره حتّى مضى عليه خمس سنين ، وبقي الفتيان اللذان دخلا معه السجن فيه خمس سنين ، ثمّ رأيا الرؤيا قبل انقضاء المدّة بثلاثة أيام ^(٦) .

ثمّ **﴿قَالَ﴾** الساقى الذي هو **﴿أَخَذَهُمَا﴾** وكان اسمه ابروها أو بوقا ^(٧) على ما قيل **﴿إِنِّي أَرَانِي﴾** في المنام كأني في بستان ، فإذا أنا بأصل عنبه ^(٨) حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها ، وكأنّ كأس الملك بيدي ، وإني **﴿أَغْصِرُ﴾** فيه العنب الذي يكون مصيره **﴿خَمْرًا﴾** وسقيت الملك فشربه ^(٩) .

وقيل : إن أهل عمان يسمّون العنب بالخمّر ، ف وقعت هذه اللفظة إلى أهل مكّة فنطقوا بها ^(١٠) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٨ .

(٢) ٣ و ٢ . تفسير القمي ١ : ٣٥٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٩ .

(٣) الخصال : ٢٧٣ / ١٥ ، تفسير الصافي ٢ : ١٩ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٤ / ٢١٠٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٤ .

(٦) في تفسير روح البيان : يونا .

(٧) في تفسير روح البيان : حيلة ، وكلاهما بمعنى ، فالحيلة : الكرم .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٧ ، تفسير الرازي ١٨ : ١٣٤ .

(٩) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٤ .

﴿وَقَالَ﴾ الخَبَّازُ وَهُوَ ﴿الْآخِرُ﴾ مِنْهُمَا اسْمُهُ غَالِبٌ أَوْ مَخْلَبٌ عَلَى مَا قِيلَ ^(١) : ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي فِي مَطْبَخِ الْمَلِكِ ، وَأَنَا ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي﴾ ثَلَاثَ سَلَالٍ مَلْتَنَ ﴿خُبْرًا﴾ وَأَرَى أَنَّهُ ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾

قِيلَ : إِنَّ يَوْسُفَ لَمَّا دَخَلَ السِّجْنَ قَالَ لِأَهْلِهِ : إِنِّي أَعْبَرُ الرُّؤْيَا وَالْمَنَامَاتِ ^(٢) . وَعَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « لَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ بِحَبْسِ يَوْسُفَ فِي السِّجْنِ أَهْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا ، فَكَانَ يَعْزِّرُ لِأَهْلِ السِّجْنِ رُؤْيَاهُمْ ، وَإِنْ فَتَيْنَ أَدَخَلَا مَعَهُ فِي السِّجْنِ يَوْمَ حَبْسِهِ ، فَلَمَّا بَاتَا أَصْبَحَا فَقَالَا لَهُ ، إِنَّا رَأَيْنَا « ^(٣) الْخَبْرَ . قِيلَ : إِنَّهُمَا لَمْ يَرِيا شَيْئًا ، وَكَذَبَا فِي ذَلِكَ ^(٤) .

وَقِيلَ : إِنَّ السَّاقِيَّ كَانَ صَادِقًا ، وَالْآخِرَ كَاذِبًا ^(٥) .

وَعَنِ مُحَمَّدٍ : أَنَّهُمَا كَانَا صَادِقَيْنِ ^(٦) . ثُمَّ قَالَ لِيَوْسُفَ اسْتَغْلَامَا وَاجْتَبَارَا : يَا يَوْسُفَ ﴿نَبِّئْنَا﴾ وَأَخْبِرْنَا بِتَعْبِيرِ رُؤْيَانَا وَ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وَلَمَّا رَأَاهُ أَنَّهُ يَأُولُ رُؤْيَا أَهْلِ السِّجْنِ تَأْوِيلًا حَسَنًا عَلَّلَا سُؤْلَهُمُ التَّعْبِيرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ : ﴿إِنَّا نَرَاكَ﴾ وَنَشَاهِدُكَ ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي تَأْوِيلِ الرُّؤْيَا . وَقِيلَ : يَعْنِي مِنَ الْمُتَخَلِّقِينَ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْمُتَزَمِّينَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَهْتَمُّ بِإِزَالَةِ الْغَمِّ عَنِ الْقُلُوبِ ، بِحَسَنِ التَّعْبِيرِ ^(٧) .

عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « كَانَ يَوْسُفُ الْمَجْلِسَ ، وَيَقْرُضُ ^(٨) لِلْمَحْتَاجِ ، وَيَعِينُ الضَّعِيفَ » ^(٩) .

وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : « كَانَ يَقُومُ عَلَى الْمَرِيضِ ، وَيَلْتَمِسُ لِلْمَحْتَاجِ ، وَيَوْسُعُ عَلَى الْخَبِيرِ ^(١٠) .

وَقِيلَ : كَانَ يَعَامَلُ مَعَ أَهْلِ السِّجْنِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَحْسُنُ إِلَيْهِمْ غَايَةَ الْإِحْسَانِ ^(١١) . وَقِيلَ : عَنِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ فِي أَمْرِ الدِّينِ ، وَالْمُؤَاطِبِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُوَثِّقُ بِقَوْلِهِ فِي التَّعْبِيرِ ^(١٢) .

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٧ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٢ / ٢٠٩٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٤ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٧٦ .

(٥) مجمع البيان ٥ : ٣٥٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٧ .

(٦) مجمع البيان ٥ : ٣٥٦ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٥ .

(٨) في الكافي وتفسير الصافي : يستقرض .

(٩) الكافي ٢ : ٤٦٥ / ٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٠ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٠ .

(١١ و ١٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٥ .

وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٧) وَ (٣٨)

ثمَّ أنه أراد دعوتهما إلى التوحيد الذي هو أولى بهما ممَّا سألاه قبل إسعاف حاجتهما على ما هو وظيفة النبوه وطريقة الأنبياء ، فبدأ باظهار معجزة دالة على صدقه في الدعوة ، وهي الإخبار بالمغيبات ^(١) ، حيث ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا﴾ من الخارج ﴿طَعَامٌ﴾ كان مأكولا أو مشروبا ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ وتطعمانه في مقامكما وقتا من الأوقات ﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وبجميع خصوصياته من جنسه ومقداره وكيفية طعمه ولونه وخواصه ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ ويحضر عندكما. قيل : إنه كان يخبرهما بما يؤتى إليهما في السجن ويصفه لهما قبل أن يأتيهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، وكم تأكلان منه ، فيجدان كما أخبرهما ^(٢) .

وقيل : إنما قال ذلك لاعلامهما بعدم اختصاص علمه بتعبير الرؤيا ، بل هو عالم بالمغيبات ^(٣) . وقيل : إنّ الملك كان إذا أراد قتل أحد أدخل في طعامه السم وأرسله إليه ، ولذا قال ذلك ، وأراد من قوله : ﴿نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أخبرتكما بأنّه مسموم أم لا. فتعجبوا من ذلك ، وقالوا : من أين لك العلم الذي يكون للعرّاف والكهنة ؟ قال : ﴿ذَلِكُمَا﴾ الإخبار بالتأويل الذي من العلم بالمغيبات ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بطريق الإلهام والوحي ، وليس من التكهن والتنجيم ^(٤) .

ثمَّ بيّن علّة تفضّل الله عليه بهذه الفضيلة بقوله : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ ورفضت ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ودين جمع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ولا يوحدونه ، بل يعبدون الأصنام ويشركون به ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء والجنّة والنار ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ ومنكرون ﴿وَاتَّبَعْتُ﴾ من بين الملل التي عليها الناس ﴿مِلَّةَ آبَائِي﴾ الكرام ، أعني ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وفيه تعريف نفسه بشرف النسب الموجب لازدياد الرغبة في قبول قوله والاعتداء به.

ثمَّ بالغ في إظهار بطلان الشرك والتبرئ منه بقوله : ﴿مَا كَانَ﴾ يصحّ ﴿لَنَا﴾ معاشر الأنبياء ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ﴾ المتفرد بالالوهية ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ملك أو جنّ أو إنس فضلا عن الجماد الذي لا روح له ولا شعور ﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ ورحمته ﴿عَلَيْنَا﴾ حيث أوحاه إلينا لقوة نفوسنا ، ووفور عقلنا ، وكمال بصيرتنا ﴿وَعَلَى﴾ سائر ﴿النَّاسِ﴾ ببعثنا إليهم لهدايتهم إليه ﴿وَلَكِنْ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٥٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٣٦ .

(٤) في النسخة : والتنجم .

أَكْثَرَ النَّاسِ المبعوث إليهم الرسل **﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾** الله على هذه الرحمة العظيمة والفضل الجسيم ، فلا يقدمون بقبوله والالتزام به ، بل يعرضون عنه ويشركون به الأصنام ، ويعبدون الأوثان.

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾

ثم أخذ **﴿إِلَّا﴾** في الاستدلال على صحة التوحيد وبطلان الشرك بعد مخاطبتهما بما يوجب تهيج المودة وجلب التوجه بقوله : **﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ﴾** ومشاركي في الضيق والضنك ، أو يا ملازمي السجن **﴿أَرْبَابٌ﴾** وآلهة كثيرة **﴿مُتَفَرِّقُونَ﴾** في أطراف العالم على ما تعتقدون ، أو متفاوتون في الجنس كالذهب والفضة والخشب والحجارة ، وفي المقدار كالطول والعرض والقصر والصغر والكبر **﴿خَيْرٌ﴾** لنظام العالم وتربية الموجودات على الوجه الأتم **﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** لجميع الأشياء بحيث يكون كل شيء تحت قدرته ، ولا يمنعه شيء عن إنفاذ إرادته ، فمن البديهي أن الواحد القادر الذي يتم به النظام خير من الكثير العاجز الذي يحتل به النظام.

وقيل : إنَّ المراد أنَّ الواحد القادر الذي لا يقهره شيء وهو يقهر كل شيء خير ، أم الأصنام المتفرقة بالشكل ، المصنوعة بيد الغير ، المقهورة تحت قدرة الخلق ^(١) ؟ أو المراد : أن الإله الواحد الذي نعلم أنه المنعم علينا والمستحق لعبادتنا خير ، أم الآلهة الكثيرة التي لا نعلم أيها خالقنا ورازقنا والمنعم علينا حتى نعبد.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ثم استدلل ثانياً مخاطباً لهما ، ولمن كان على دينهما بقوله : **﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾** إذ تعبدون **﴿مِنْ دُونِهِ﴾** ومما سواه شيئاً **﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾** صرفه لا مسميات لها ، ولا واقعية لمعانيها ، ولا وجود لمفاهيمها في الخارج ، وإنما **﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾** وجعلتموها **﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾** أسماء لهذه الأجسام بمحض جهلكم وضلالكم ، وكانت تسميتها بالآلهة وعبادتها من قبل أنفسكم **﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾** شيئاً **﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾** وبرهان يوجب جوازها **﴿إِنْ الْحُكْمُ﴾** وما الأمر في جواز العبادة المتفرعة على التسمية **﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾** وحده لأنه المستحق لها بالذات ، لكونه الواجب الموجد لجميع الأشياء ، المالك لأمرها.

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٤٠ .

ثم كآته قيل : ماذا أمره في العبادة ؟ فقال : ﴿أَمَرَ﴾ أيها الناس بتوسط الأنبياء ﴿أَلَا تَعْبُدُوا﴾ شيئا ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وأن لا تضرعوا ولا تخضعوا إلا له ﴿ذَلِكَ﴾ التوحيد والتخصيص للعبادة به ، هو ﴿الَّذِينَ الْقِيمُ﴾ والسنة المرضية الثابتة من أول الخلق إلى آخر الأبد ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ، فيتبعون بجهلهم هوى أنفسهم.

﴿بَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ

الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَفُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾

ثم آته ﷺ بعد دعوتهما إلى التوحيد وإقامة البرهان عليه ، عبّر رؤياهما بقوله : ﴿بَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا﴾ الساقى الذي هو ﴿أَحَدُكُمَا﴾ فيتخلص من السجن ﴿فَيَسْقِي﴾ عن قريب ﴿رَبَّهُ﴾ ومالكة الذي هو الملك ﴿خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه من قبل.

روي أنه قال للساقى : ما أحسن ما رأيت ! أما الكرمة فهو الملك ، وأما حسننها فهو حسن حالك عنده ، وأما الأغصان الثلاثة فتلاثة أيام تمضي عليك في السجن ، ثم يرسل إليك الملك عند انقضائها ، فيردك إلى عملك ، فتصير كما كنت بل أحسن ^(١) .

﴿وَأَمَّا﴾ الخباز الذي هو ﴿الْآخَرُ﴾ منكما فيخرج من السجن ﴿فَيُصْلَبُ﴾ ويبقى مصلوبا ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ مع ﴿رَأْسِهِ﴾

روي أنه قال للخباز : بئسما رأيت ، أما خروجك من المطبخ فخروجك من عملك ، وأما السلال الثلاث فتلاثة أيام تمر عليك ، ثم يوجه إليك الملك عند انقضائها فيصلبك ، فتأكل الطير من رأسك ^(٢) .

عن القمي رحمه الله : ولم يكن رأى ذلك وكذب ، فقال له يوسف : أنت يقتلك الملك ويصلبك وتأكل الطير من دماغك ، فحجد الرجل ، وقال : إني لم أر ذلك ، فقال يوسف ﷺ : ﴿فُضِيَ﴾ واتم واحكم ﴿الْأَمْرُ﴾ ^(٣) والتأويل ﴿الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وتسألان عنه ، فكان كما عبّر يوسف حيث أخرج الملك صاحب الشراب فردّه إلى مكانه وخلع عليه وأحسن إليه لما تبين عنده حاله في الأمانة ، وأخرج الخباز ونزع ثيابه وجلده بالسياط حتى مات لما ظهر عنده خيانتة ، وصلبه على قارعة الطريق ، وأقبلت طيور سود فأكلت من رأسه ، وهو أول من استعمل الصلب ، ثم استعمله فرعون موسى ، أقول : بناء على أنه لم يكن هو ، بل كان من أجداده.

(١ و ٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٢ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٢١ .

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾

فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴿﴾

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ وعلم بحصول مكانه له عند الملك ، وقيل : إن المراد بمن ظنّ هو الساقى ﴿ادْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وسيدك ، وقال له : غلام محبوس في السجن قد طال حبسه لعلّه يرحمني ويخلصني منه ^(١) ، فلما نجا الساقى وتقرّب إلى الملك اشتغل بجمع الأموال وانغمّر في اللذائذ والحطوط ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ﴾ بصرف قلبه إلى المهام الدنيوية ﴿ذَكَرَ﴾ يوسف عند ﴿رَبِّهِ﴾ وسيده ، أو أنسى الشيطان يوسف ذكر ربّه وخالفه حتى توسّل بغيره في خلاصه ﴿فَلَبِثَ﴾ وأقام ﴿فِي السَّجْنِ﴾ عقوبة على توسّله بغير الله ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ وسبعة أعوام من يوم التوسّل.

عن الصادق عليه السلام : « لم يفرغ ^(٢) يوسف في حاله إلى الله فيدعوه ، فلذلك قال الله : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ » ^(٣) .
وفي رواية قال : « سبع سنين » ^(٤) .

قال : « فأوحى الله إلى يوسف في ساعته تلك : يا يوسف ، من أراك الرؤيا التي رأيتها ؟ فقال : أنت يا ربّي . قال : فمن حبّيك إلى أبيك ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن وجّه السيارة إليك ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن علمك الدعاء الذي دعوت به حتى جعل لك من الحبّ فرجا ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن جعل لك من كيد المرأة مخرجا ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن أنطق لسان الصبي بعذرك ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن صرف كيد امرأة العزيز والنسوة عنك ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فمن أهلك تأويل الرؤيا ؟ قال : أنت يا ربّي . قال : فكيف استعنت ^(٥) بغيري ولم تستعن ^(٦) بي ؟ وتسلّني أن أخرجك من السجن واستعنت ^(٧) وأملت عبدا من عبادي ليذكرك إلى مخلوق من خلقي في قبضي ، ولم تفرع إليّ ، البث في السجن بذنبك بضع سنين » ^(٨) .
وفي رواية : « ذكر عند كلّ وحي ^(٩) فصاح ووضع خده على الأرض ، ثمّ قال : أنت يا ربّي » ^(١٠) .

عن النبي ﷺ : « رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل اذكرني عند ربك ، لما لبث في السجن

سبعاً بعد

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٣ .

(٢) في تفسير العياشي وتفسير الصافي : يفرغ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٢ / ٢٠٩٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٢ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٥ / ٢١٠٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٢ .

(٥) في تفسير العياشي : استعنت .

(٦) في تفسير العياشي : تستعّث .

(٧) في تفسير العياشي : واستعّث .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٣ / ٢٠٩٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٢ .

(٩) في تفسير الصافي : وفي رواية أخرى عنه عليه السلام اقتصر على بعضها وزاد في كلّ مرّة .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٥ / ٢١٠٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٢ .

الخمس» (١) .

قيل : لبث يوسف في السجن اثنتي عشرة سنة عدد حروف اذكرني عند ربك (٢) .

وقيل : إن في هذا العدد كمال القوة والتأثير ، ولذا كان الأئمة اثني عشر ، والبروج اثني عشر ، والملائكة الموكلون بالبروج اثني عشر (٣) .

أقول : ببالي أنه روي أنّ القائم يخرج في أولى القوة (٤) ، قيل : ما أولو القوة ؟ قال : اثني عشر ألفا (٥) . وقيل : هو عدد لا إله إلا الله ، وعدد محمد رسول الله (٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « إنّ يوسف قال : أسألك بحق آبائي [وأجدادي] عليك إلا فرجت عني ، فأوحى الله إليه ما يكون (٧) أي حق لآبائك وأجدادك عليّ ، إن كان أبوك آدم فإني خلقتك بيدي ، ونفخت فيه من روحي ، وأسكنته جنّي ، وأمرته أن لا يقرب شجرة منها ، فعصاني وسألني فتبت عليه . وإن كان أبوك نوح فإني انتجبتة من بين خلقي ، وجعلته رسولا اليهم ، فلما عصوا دعائي فاستجبت له وأغرقتهم وأنجيتهم ومن معه في الفلك . وإن كان أبوك إبراهيم ، فإني اتخذته خليلا ، وأنجيتهم من النار وجعلتها عليه بردا وسلاما ، وإن كان [أبوك] يعقوب فإني وهبت له اثني عشر ولدا ، فغيّبت عنه واحدا ، فما زال ييكي حتى ذهب بصره ، وقعد في الطريق يشكوني إلى خلقي ، فأني حق لآبائك [وأجدادك] عليّ .

قال : فقال له جبرئيل : قل يا يوسف أسألك بمناك العظيم ، وإحسانك (٨) القديس ، فقالها فرأى الملك الرؤيا » (٩) .

وعنه عليه السلام : « لما انقضت المدة وأذن الله له في دعاء الفرج ، وضع خده على الأرض ، ثم قال : اللهم إن كانت ذنوبي قد أخلقت وجهي عندك فإني أتوجه إليك بوجوه آبائي الصالحين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وفرج الله عنه » (١٠) .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتَبَلَاتٍ

خُضِرَ وَأَخَرُ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا

تَعْبُرُونَ (٤٣)﴾

(١) (٣١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٤ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٣٦ ، تفسير العياشي ٢ : ٣١٩ / ٢٠٤٢ .

(٥) لم نعثر عليه .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٤ .

(٧) في تفسير القمي وتفسير الصافي : يا يوسف و .

(٨) في تفسير القمي : وسلطانك .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٥٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٢ .

(١٠) تفسير القمي ١ : ٣٤٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٣ .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ بعد ما رأى رؤيا اضطرب منها قلبه وخاف من رؤيته غلبة الضعيف على القوي ذهاب ملكه وسلطانه ، وأحضر العلماء والحكماء والكهنة والمعبرين والسحرة والمنجمين اجتهدا لتحصيل العلم بتعبيرها ﴿إِنِّي﴾ كنت ﴿أَرَى﴾ البارحة - وهي ليلة الجمعة على ما قيل ^(١) - في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ خرجن عن النهر اليابس على قول - أو من البحر على آخر ^(٢) - ثم أرى سبع بقرات عجاف مهازيل خرجن من المكان الذي خرجت السمّان ، ثم رأيت أنّه ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ مهازيل ويتلعهن بحيث لم تبق من البقرات السمّان شيء ﴿وَأَرَى﴾ أرى أيضا ﴿سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ رطاب قد انعقدت حبّاتها ، ﴿وَأَرَى﴾ سبع ﴿أَخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ فالتوت على الخضر حتى غلبن عليها على ما قيل ^(٣) .

ثم أمر الحضار بتعبير رؤياه وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ والجماعة الحاضرة من الأشراف ﴿أَفْتُونِي﴾ وأخبروني ممّا تتفردون وتعتقدون ﴿فِي﴾ تعبیر ﴿رُؤْيَايَ﴾ هذه ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ وعلى تأويلها تقدرون .

ثمّ لما أراد الله خلاص يوسف من السجن ، وكانت الرؤيا من توجه النفس وتضاعدها إلى عالم الملكوت والمثال بعد قلة اشتغالها بتدبير البدن ، فكلمّا رأت شيئا من المعاني الحقيقية في تلك العالم ، فإما أن لا تتصرف القوة الخيالية فيه ، فتقع عيناه في الخارج ، ولا تحتاج إلى التعبير ، وإما أن تتصرف فيه القوة الخيالية بتصوير المعاني العقلية بصور مناسبة لها ، كتصوير العلم بصورة اللب ، والزوجة بصورة النعل ، والمال بصورة القاذورات وأمثال ذلك ، فهي محتاجة إلى التعبير ، وهو الانتقال من الصور إلى ما يناسبها من المعاني ، وكلّما تلقى النفس الشياطين حين صعودها فيروغها امورا باطلة مشوشة مختلطة ، أو تطالع الصور الخيالية المرتكزة في الخاطر ، فهي الرؤيا الكاذبة ، وتسمّى بالأضغاث والأحلام .

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

(١ و ٢ و ٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٥ .

سَبْعَ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَخَصِّصُونَ (٤٤) و (٤٨)

ولما ذكر من تقدير خلاص يوسف ، عجز الحكماء والعلماء والكهنة عن تعبير رؤيا الملك ﴿قَالُوا﴾ أيها الملك رؤياك هذه ﴿أَضْعَاثُ أَحْلَامٍ﴾ وتخاليط الرؤى وأباطيلها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ وتعبير أباطيل الرؤى التي هي من الشيطان أو من قوة الخيال ﴿بِعَالَمِينَ﴾ وإنما الذي نعلم هو تعبير الرؤيا الصادقة الحاصلة من رؤية المعاني الحقيقية في عالم الملكوت.

﴿و﴾ إذن ﴿قَالَ﴾ الساقى ﴿الَّذِي﴾ كان أحد الفتيين و﴿نَجَا مِنْهُمَا﴾ من السجن ﴿وَأَدَّكَرَ﴾ وتذكر ما أوصاه به يوسف بعد تأويل رؤياه في السجن ، أو حين خروجه منه ومفارقه يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وأوقات كثيرة من نجاته منه : ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ﴾ واخبركم أيها الملأ الحاضرون العاجزون عن تعبير رؤيا الملك ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ وتعبيده.

قيل : إنه لما رأى الملك متفكراً ، تذكر حال يوسف وتأويله رؤياه في السجن ، وما وصاه به ، فجلس بين يدي الملك على ركبته ، وخاطب الملك بقوله : أنا انبئكم ، وإنما أتى في خطاب الملك بضمير الجمع للتعظيم ، فان أردتم تعبير الرؤيا ﴿فَأَرْسَلُون﴾ وابعثوني إلى السجن ، فان فيه رجلا حكيمًا عارفاً بتعبير الرؤيا ^(١) ، فأرسله الملك إلى يوسف ، فلما جاءه واعتذر إليه من نسيانه قال : يا ﴿يُوسُفُ﴾ ثم عظمه بقوله : ﴿أَيُّهَا الصَّدِّيقُ﴾ المبالغ في الصدق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وأخبرنا برأيك ﴿فِي﴾ تأويل رؤيا ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ﴾ تأويل رؤيا ﴿سَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وعلمي تعبيره ﴿لَعَلِّي أَرْجِعَ﴾ من عندك ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ وأهالي مصر واخبرهم ما أولت وعبرت ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تعبيرها بتعليمك ، أو يعلمون مكانك وفضلك ، وكان من صبر يوسف ومثابته أنه لم يعلق إسعاف حاجته بإخراجه من السجن ، بل ﴿قَالَ﴾ من غير ريث وتوان قل لهم ، أيها الناس ﴿تَزْرَعُونَ﴾ في الأرض من الغلات والحبوب ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾ حال كونكم ﴿ذَابًا﴾ ومستمرين على الزراعة بجهد واجتهاد ، أو زراعة متوالية على عادتكم ﴿فَمَا خَصَدْتُمْ﴾ منها ﴿فَذَرُوهُ﴾ واتركوه ﴿فِي سُنْبُلِهِ﴾ ولا تدوسوه حتى لا يفسد ولا يقع فيه السوس ﴿إِلَّا﴾ قدرا ﴿قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ منه في تلك السنة ، هذا تعبير سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ السبع سنين الرخص ﴿سَبْعَ﴾ اخر من السنين ﴿شِدَادٌ﴾ وصعاب على الناس لأجل الجذب والجوع والغلاء بحيث أنَّ تلك السنين الشداد ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ﴾ وادخرتم ﴿لَهُنَّ﴾ من الحبوب والغلات المتروكة في سنابلها ﴿إِلَّا﴾ مقدارا ﴿قَلِيلًا مِمَّا تَخَصِّصُونَ﴾ وتحرزون للبذر ،

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٦٨.

وهذه السبع الشداد تأويل سبع بقرات عجاف وسبع سنبلات يابسات ، وإنما أسند الأكل إلى السنين مع أنه فعل أهل السنين للتطبيق بين المعبر والمعبر به.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (٤٩)

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من السنين الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ ويمطرون أو ينقذون من الشدة ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ما من شأنه أن يعصر ويؤخذ ماؤه ودهنه كالعنب والزمان والزيتون وأمثال ذلك ، وهذا التعبير كناية عن وفور النعم ، لأنه إذا كان الناس في ضيق من المأكول يأكلون جميع ذلك ولا يعصرون شيئا ليفسد ما سوى مائه.

وقيل : يعني يحلبون الصروع ^(١) .

وقيل : أي ينجون ^(٢) من الشدة ، أو يمطرون ^(٣) ، وهذان المعنيان على قراءة ﴿يَعْصِرُونَ﴾ مبنيًا للمفعول ، كما نسبها العياشي إلى الصادق عليه السلام ^(٤) .

وروي عنه عليه السلام أنه قال « أما سمعت قول الله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ » ^(٥) .
والقمي رحمه الله عنه عليه السلام : « قرأ رجل على أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ - يعني على البناء للفاعل - فقال : ويحك وأي شيء ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يعصرون الخمر ؟ قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، كيف أقرؤها ؟ فقال : إنما أنزلت ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي يمطرون بعد [سنين] الجماعة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ ^(٦) .

وإنما كثر سبحانه لفظ ﴿فِيهِ﴾ إما للاشعار بكون الإغاثة والعصر متغايرين ، أحدهما فعل الله ، والآخر فعل الناس ، وإما لأنَّ المقام مقام تعدد منافع ذلك العام ، ولذا قدّم في الموضعين.
ويحتمل أن يكون التقديم لبيان الحصر ، كأنه فرض أن الإغاثة والعصر في سائر السنوات بالنسبة إلى تلك السنة كالمعدوم ، أو لمراعاة الفواصل.

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٥١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٨٦ .

(٢) جوامع الجامع : ٢١٨ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٨٦ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٨٣ .

(٣) جوامع الجامع : ٢١٨ ، تفسير الرازي ١٨ : ١٥١ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٨٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٧ / ٢١٠٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٤ .

(٥) تفسير الصافي ٣ : ٢٥ ، والآية من سورة النبأ : ٧٨ / ١٤ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٥ .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بَأْلُ

النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

ثمّ رجع الرسول إلى الملك ، وحكى له التعبير الذي بيّنه يوسف للرسول في ضمن الدستور الذي أمر به ، فلمّا سمع الملك التعبير سكن قلبه وفرح ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لخدمه بعد اطلاعه على فضيلة يوسف في العلم : ﴿انْتُونِي بِهِ﴾ وأحضره عندي لأسمع التعبير منه وأكرمه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ من جانب الملك ليخرجه من السجن ويذهب به إلى الملك أبي يوسف من إجابته حتّى تظهر طهارة ذيله ممّا اتهموه ، ومظلوميته في الحبس و﴿قَالَ﴾ للرسول : ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَسْئَلُهُ﴾ أن يتفحص من أنه ﴿مَا بَأْلُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في مجلس ضيافة زليخا بالسكاكين ، وكيف كان حاله وحالي ؟ حتّى يتحقّق عنده واقع الأمر ، وأيّ بريء من التّهمة والخيانة ، ثمّ استشهد بعلم الله بمكر النسوة واتّهامهنّ له بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وهو الله وحده لا الملك ولا العزيز ولا غيرها ، بمكر النساء و﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ في حقّي واتّهامهنّ إياي ﴿عَلِيمٌ﴾

قيل : فيما قاله يوسف للرسول لطائف ، منها أنه أمر الرسول أن يسأل الملك عن حال النسوة ، ولم يقل قل له تفحص عن ذلك ، لئلا يكون في كلامه أمر للملك حتّى يلزم خلاف الأدب ^(١) . ومنها : أنه لم يذكر اسم زليخا تأدّبا ، ومراعاة لحقّها ^(٢) ، واحترازا من أن تبالغ في المكر به مع كونها قادرة على ما لم تقدر عليه غيرها. ومنها : أنه لم يشك من النسوة مع أنّ على ما قيل دعيته إلى أنفسهن ، وبالغن في ترغيبه إلى موافقة زليخا ، بل قيل : إنّ اتّهمته بالفحش عند الملك ^(٣) .

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنّه قال : « لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات السّمان والعجاف ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشتربت عليهم أن يخرجوني من السجن ، ولقد عجبت [منه] حين أتاه الرسول فقال : ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ الآية ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث ، لأسرعت الاجابة وبأدرتهم إلى الباب وما ابتغيت العذر ، إنّ كان حليما ذا أناة » ^(٤) .

قيل : إن هذا الكلام من الرسول على سبيل التواضع لا إظهار أنه كان مستعجلا في الامور غير متأن فيها ^(٥) ، وإنّما لم يسرع يوسف في الخروج لينزل عن قلب الملك ما كان متّهما به ولا ينظر إليه بعين

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧١ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٥١ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٢ .

الصَّغَارِ وَالذَّلِّ (١) .

عن العياشي عنهما عليهما السلام : « أن رسول الله ﷺ قال : لو كنت بمنزلة يوسف حين أرسل إليه الملك يسأله عن رؤياه ما حدّثته حتّى اشتراط عليه أن يخرجني من السجن ، وتعجبت (٢) لصبره عن شأن امرأة الملك حتّى أظهر الله عذره » (٣) .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ

الصَّادِقِينَ (٥١)﴾

ثمّ قيل : إنه لما رجع الرسول إلى الملك وأخبره بالتماس يوسف ، أمر باحضار النسوة (٤) . و﴿قَالَ﴾ لهن ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وأي شأن شأنكن ﴿إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ قيل : إنّ الخطاب في الواقع والظاهر للنسوة ؛ لأنّ كلّ واحدة منهنّ كنّ يدعين يوسف إلى نفسه أو كلّ يراودن (٥) يوسف ليهيجنه لإجابة زليخا (٦) .

وقيل : إنّ الخطاب وإن كان في الظاهر إليهنّ إلّا أنه أريد به واحدة منهنّ (٧) وهي زليخا (٨) ، وعلى أي تقدير ﴿قُلْنَ﴾ جميعهنّ في جواب الملك : ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ وننزّهه عن العجز من خلق هذا البشر العفيف ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وذنب وخيانة ، فلمّا شهدن (٩) كلّهن براءة يوسف وتنزّهه ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وكانت حاضرة في المجلس بعد ما رأت رعايه يوسف حقّها بتركه ذكر اسمها مع النسوة مع أنّها كانت أكثر إساءة إليه ، وأتّه لا ينفع الكتمان : ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ وانكشفت حقيقة الواقع ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وطلبت منه القرب ﴿وَإِنَّهُ﴾ - في قوله : هي راودتني - والله ﴿لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾

قيل : إن الملك أرسل إلى يوسف بأن النسوة اعترفن بذنبنهن وبراءتك ، فاحضر حتى اعاقبهن بحضورك بما تريد. قال يوسف للرسول في جواب الملك : ﴿ذَلِكَ﴾ الالتماس الذي صدر مني لم

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٢ .

(٢) في تفسير العياشي : وعجبت .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٦ / ٢١٠٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٣ .

(٥) في النسخة : يراودون .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٣ .

(٧) في النسخة : منهم .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٣ .

(٩) في النسخة : شهدت .

يكن لأن اعاقب النسوة بما صدر منهن ^(١) بل ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز المنعم عليّ ﴿أَنِّي لَمْ أَخْنُهَا﴾ في عرضه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ وفي الخطأ منه ، أو لم أحن الملك ، فإنّ الخيانة بالوزير خيانة بالملك ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ أنّ الله لا يَهْدِي ولا ينفذ ﴿كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ولا يجعله مؤثراً في حصول المقصود ، بل يبطله كما أبطل مكائد زليخا حتى أقرت بأنّها خانت زوجها.

وقيل : إنه قال هذا الكلام في محضر الملك كما روي عن ابن عباس ، وإنما ذكره على لفظة الغيبة تعظيماً للملك عن الخطاب ^(٢) .

وقيل : إنّ الآية من تنمة كلام امرأة العزيز ، والمعنى أيّ وإن بالغت في إثبات الذنب على يوسف في حضوره إلّا أنّ ذلك الاعتراف مّي بذنبي ليعلم يوسف أيّ لم أخنّه ولم أقل في حقّه خلاف الحقّ وهو في السجن ، ثمّ بالغت في تأكيد الحقّ بقولها : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ﴾ ^(٣) ولذا افتضحت أنا لأني كنت خائنة ، وإنه طهر يوسف من الذنب وأخرجه من السجن ، لأنّه كان بريئاً. أقول : هذا في غاية البعد.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

رَحِيمٌ (٥٣)﴾

ثمّ قال يوسف تواضعا لله وهضمنا للنفس وتحديثا بانعام الله عليه بالتوفيق والعصمة : ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ ولا انزهها عن سوء ولا ازكيها من الخطأ والذنب من حيث هي ومقتضى طبعها ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ بجنسها وبذاتها والله ﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وباعته إلى القبايح والشهوات لميلها إليها والتذاذها بها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ من النفوس بعصمتها من الوقوع في الهلكات وارتكاب المنكرات ، وهي نفوس الأنبياء والأولياء المعصومين ، فاتّما لا تميل إليها ، ولا تأمر بها.

وقيل : إنّ كلمة ﴿مَا﴾ بمعنى الزمان ، والمعنى إلّا زمان رحمة ربي ^(٤) وعصمته لها بتقويته القوة العاقلة وإعلامها بحقائق الأشياء والأعمال.

وقيل : إنّ الاستثناء منقطع ، والمعنى ولكن رحمة ربي تصرفها عن سوء ^(٥) .

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ وستار لخطايا النفوس ﴿رَحِيمٌ﴾ لها بعصمتها من الزلل.

قيل : هذه الآية أيضا بقية كلام زليخا ^(٦) ، والمعنى وما ابرئ نفسي من الخيانة بزوجي والإساءة

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٤ .

(٣) جوامع الجامع : ٢١٩ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٨٦ .

(٥) جوامع الجامع : ٢١٩ .

يوسف ، والمقصود اعتذارها ممّا صدر منها ، أو تأكيد تصديقها إياه.

ثمّ أنّه روي أنّ جبرئيل أتى يوسف في السجن وقال : قل اللهم اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا ، وارزقني من حيث احتسب ومن حيث لا احتسب ^(١) ، فقبل الله دعاءه ، فعظم يوسف في عين الملك ، علما من حيث تعبيره الرؤيا ، وصبرا وثباتا من حيث عدم مبادرته إلى الخروج من السجن ، وأدبا من حيث عدم أمره للملك بالتفتيش للحقّ ، ومراعاة للحقوق من حيث عدم ذكره اسم زليخا مع علم الملك بأنّها أكثر النسوة إساءة إليه ، وعقّة من حيث ظهور براءته من التهمة مع وفور أسباب ارتكابه للزنا بمثل زليخا ، ونسيا لذكر الساقى نسبة له ، فلذا اشتاق إلى لقائه غاية الاشتياق.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا

مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لخدمه : اذهبوا إلى يوسف و﴿انْتُونِي بِهِ﴾ واحضروه لديّ ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ وأخصّه بقربي.

روي أنّ الرسول - وقيل : كان هو الساقى - قال ليوسف : قم إلى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة ^(٢) .

وقيل : إنّ الملك أرسل سبعين حاجبا على سبعين مركبا ، ومعهم تاج وثياب فاخرة إلى السجن ، فلما أتوه وضعوا التاج على رأسه ، وألبسوه الثياب النظيفة ، ثمّ قالوا : أجب الملك. فقام وودّع أهل السجن ودعا لهم ، وقال : اللهم اعطف قلوب الصالحين عليهم ، ولا تستر الأخبار عنهم ، فخرج من السجن وكتب على بابه : هذه منازل البلوى ، وقبور الأحياء ، وشماتة الأعداء ، وتجربة الأصدقاء. ثمّ اغتسل وتنظّف ولبس ثيابا جديدة ، وركب مركبا فارها مكلّلا بالدرّ والجواهر ، فلما قرب من الملك استقبله وأكرمه غاية الإكرام ^(٣) .

روي أنّه لما دخل على الملك قال : اللهمّ إنّني سألك بخيرك من خير ، وأعوذ بعزّتك وقوّتك من شرّه. ثمّ سلّم على الملك ودعا له بالعبرانية ، وكان يوسف يتكلّم باثنين وسبعين لسانا ، فلم يفهمها الملك فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثمّ كلّمه بالعربية فلم يفهمها الملك ، فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان عمّي إسماعيل ، وكان الملك يتكلّم بسبعين لسانا ، فكلّمه بها

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٨ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٧ .

فأجابه بجميعها فتعجب منه ^(١) .

قيل : لما دخل على الملك كان ابن ثلاثين سنة ، فلما رآه الملك شابا قال للساقى : هذا الذي علم تأويل رؤيائي مع أنّ السحرة والكهنة ما علموها ؟ قال : نعم . فأقبل على يوسف وقال : إني أحب أن أسمع التعبير منك ﴿ فَلَمَّا ﴾ أجابه و ﴿ كَلِمَةً ﴾ وعبر عنده الرؤيا شفاهها ، وشهد قلبه بصحة تعبيره ﴿ قَالَ ﴾ ليوسف : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدُنَا مَكِينٌ ﴾ ^(٢) وذو منزلة رفيعة ﴿ آمِينَ ﴾ على كل شيء في مملكتي بحيث لا تتهم .

قيل : لما عبر يوسف رؤيا الملك بين يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق ؟ قال : أرى أن تزرع في هذه السنين المخصبة زرا كثيرا ، وتأخذ من الناس خمس زروعهم ، وتذر الجميع في سنبله ، وتبني الخزائن ، وتجمع فيها الطعام ، فإذا جاءت السنين المجدية تبيع الغلات لأهل مصر ، وتحفظهم من المخمصة ، ويحصل لك مال عظيم . فقال الملك : من لي لهذا الشغل ^(٣) .

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥٥)

﴿ قَالَ ﴾ يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ﴾ هذه ﴿ الْأَرْضِ ﴾ وتلك المملكة ، وولّني أمرها من الإيراد والحفظ والصرف ، وإثما طلب الولاية لكونها وسيلة إلى هداية الناس ، ونفوذ قوله ، وقبول دعوته إلى الحق ، ونشر الأحكام الالهية ، ووضع الحقوق مواضعها ، وبسط العدل ، وإعانة الخلق وحفظهم من التلف في السنين المجدية شفقة عليهم .

عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ في هذه الآية ، أنه قال : « رحم الله أخي يوسف ، لو لم يقل : اجعلني على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة » ^(٤) . ثم وصف نفسه بما يوجب أهليته لذلك بقوله : ﴿ إِنِّي خَفِيفٌ ﴾ لخزائنك من التلف والضّياع والصرف في غير المصرف ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بوجه التصرف فيها . عن الرضا عليه السلام : « حفيظ لما تحت يدي ، عليم بكلّ لسان » ^(٥) .

جواز تركية المرء نفسه عند الاضطرار

عن الصادق عليه السلام : « يجوز أن يزكي الرجل نفسه إذا اضطرّ إليه ، أما سمعت قول يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ وقول العبد الصالح :

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٥٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٦٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٦٠ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٨ / ٢١١٢ ، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ١٣٩ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٧ .

﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(١) .

عن ابن عباس : لما انصرمت السنة من يوم سأل يوسف الإمارة ، دعاه الملك فتوجّه وختمه بخاتمه ، وردّاه بسيفه ، ووضع له سريرا من ذهب مكلّلا بالدّر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة أذرع ، ليه ثلاثون فراشا ، فقال يوسف : أمّا السرير فأشدّ به ملكك ، وأمّا الخاتم فأدبر به أمرك ، وأمّا التاج فليس من لباسي ولباس آبائي ، فقال الملك : فقد وضعته إجلالا لك ، وإقرارا بفضلك . فجلس عليه وأتت له الملوك^(٢) .

وروي أنّ الملك لما عيّن يوسف لأمر الخزان توفّي قطفير عزيز مصر في تلك الليالي^(٣) .

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ

نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

ثمّ لما كانت رفعة مكان يوسف مستندة في الظاهر إلى الملك ، تبه الله على أنّها كانت بقدرته وإنعامه عليه بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ التمكين العظيم ، ومثل هذا الإنعام الجسيم الذي على يوسف من تقربينا إياه من الملك ، وتحبيينا إياه في قلبه ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وأقدرناه على إنفاذ ما أراد ﴿فِي﴾ تلك ﴿الْأَرْضِ﴾ والمملكة ، وهي أربعين فرسخا في أربعين على ما قيل^(٤) ، فهو ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا﴾ وينزل من بلادها ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وأيّ مكان يريد ، لا يدافعه مدافع^(٥) ، ولا ينازعه منازع ، رحمة منا عليه ، وجزاء منا على صبره على البلاء وتسليمه للقضاء وقيامه بوظائف العبودية ، فإنّا ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ وفضلنا ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ أن نرحمه ونتفضّل عليه على حسب استعدادده وقابليته وعمله ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾ ولا نبطل ﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وجزاءهم على إحسانهم من الصبر والقيام بوظائف العبودية.

﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧)

ثمّ بيّن سبحانه أفضلية الأجر الآخروي على الدنيوي بقوله : ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ والثواب الذي نعطيهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل بمراتب من أجر الدنيا وثوابه فيها ، ولكن إنما يكون أجر الآخرة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيته ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ السيئات والقبائح ، وهم الأنبياء وأتباعهم . قيل : إنّ يوسف أمر أهل كلّ قرية وبلدة بالاشتغال بالزّرع وترك غيره ، فلم يدعوا مكانا إلّا زرعوه

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٨ / ٢١١٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٧ ، والآية من سورة الأعراف : ٧ / ٦٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٣ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٩ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٨٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٣ .

(٥) في النسخة : دافع .

حتى بطون الأودية ورؤوس الجبال مدة سبع سنين ، وهو يأمرهم أن يدعوه في سنبله ، وكان يأخذ منهم الخمس ويجعله في الأهرام^(١) ، وكذا ما زرعه السلطان وأعوانه وخدمه ، ثم أقبلت السنون المجذبة ، فحبس الله عنهم القطر من السماء ، والنبات من الأرض حتى لم ينبت لهم في جميع أراضي مصر حبة واحدة^(٢) من المأكولات.

قيل : إن زليخا بعد وفاة قطفير زوجها انقطعت عن كل شيء وسكنت خرابة سنين كثيرة ، وكانت لها جواهر كثيرة [جمعت في زمان زوجها] فإذا سمعت من أحد خبر يوسف أو اسمه ، بذلت منها حبا له حتى نفدت ، وكانت تبكي شوقا إلى يوسف.

ثم لما اشتد حالها لشدائد الخلوة في الخرابة اتخذت بيتا من القصب على الطريق التي هي ممر يوسف ، وكان يوسف يركب في بعض الأحيان وله فرس لا يصهل إلا وقت ركوبه ، ويسمع صهيله على ميلين ، فيعلم الناس بركوبه ، فتقف زليخا على قارعة الطريق ، فاذا مرّ بها يوسف تناديه بأعلى صوتها ، فلا يسمع لكثرة اختلاط أصوات الناس ، فأقبلت يوما على صنمها الذي كانت تعبده ، وقالت له : تبا لك ولمن يسجد لك ، أما ترحم كبري وعمامي وفقري وضعفي ، فأنا اليوم كافرة بك ومؤمنة بربّ يوسف ، وصارت تذكر الله صباحا ومساء.

فبعد ذلك ركب يوسف يوما ، فلما صهل فرسه اجتمع الناس للنظر إلى جماله واحتشامه ، فخرجت زليخا من بيتها ، فلما مرّ بها يوسف نادى بأعلى صوتها : سبحان من جعل الملوك بمعصيتهم عبيدا ، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكا ، فأمر الله الريح فألقت كلامها في مسامع يوسف ، فأثر فيه فبكى ، ثم التفت فرأها ، فقال لغلامه : اقض حاجة المرأة : فقال : ما حاجتك ؟ قالت : إنّ حاجتي لا يقضيها إلا يوسف. فذهب بها إلى دار يوسف.

فلما رجع يوسف إلى قصره نزع ثياب الملك ، ولبس مدرعة من الشعر ، وجلس في بيت عبادته يذكر الله تعالى ، فذكر العجوز ودعا بالغلام وقال له : ما فعلت بالعجوز ؟ فقال : إنّها زعمت أنّ حاجتها لا يقضيها غيرك. فقال : إئتني بها ، فأحضرها فسلمت عليه وهي منكسة الرأس ، فرق لها ، وردّ غلامها ، وقال لها : يا عجوز ، إني سمعت منك كلاما فأعيديه. فقالت : إني قلت : سبحان من جعل الملوك بمعصيتهم عبيدا ، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكا.

في تزويج يوسف بزليخا

فقال : نعم ما قلت ، فما حاجتك ؟ قالت : يا يوسف ، ما أسرع ما نسيتني ! فقال : من

(١) الأهرام : جمع هري ، وهو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٣.

أنت ؟ ما لي بك معرفة. قالت : زليخا. فقال يوسف : لا إله إلا الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، أنت بعد في الدنيا [يا] رأس الفتنة وأساس البلية ! فقالت : يا يوسف ، أبخلت عليّ بحياة الدنيا ! فبكى يوسف وقال : ما صنع حسنك وجمالك ومالك ؟ قالت : ذهب به الذي أخرجك من السجن وأورثك هذا الملك. فقال لها : ما حاجتك ؟ قالت : أو تفعل ؟ قال : نعم وحقّ شبيهة إبراهيم. فقالت : لي ثلاث حاجات : الأولى والثانية أن تسأل الله أن يرّد عليّ بصري وشبابي وجمالي ، فإني بكيت عليك حتّى ذهب بصري ونخل جسمي. فدعا لها يوسف فردّ الله عليها بصرها وشبابها وحسنها. قالت : والثالثة أن تتزوجني. فسكت يوسف وأطرق رأسه ، فأتاه جبرئيل ، وقال : يا يوسف ، ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : لا تبخل عليها بما طلبت ، فتزوّج بها فأتمّ زواجك في الدنيا والآخرة ، فدعا ملك مصر وجميع الأشراف فعقد عليها لنفسه ، ونزلت الملائكة عليه تهنّئه بزواجها ، وقالوا : هنّاك الله بما أعطاك ، فهذا ما وعدك ربّك وأنت في الحب. فقال يوسف : الحمد لله الذي أنعم عليّ وأحسن إليّ وهو أرحم الراحمين.

ثمّ قال : إلهي وسيدي أسألك أن تتمّ هذه النعمة ، وتريني وجه يعقوب ، وتقرّ عينه بالنظر إليّ ، وتسهّل لإخوتي طريقا إلى الاجتماع بي ، فإنّك سميع الدعاء ، وأنت على كلّ شيء قدير ، وأرسل زليخا إلى بيت الخلوة فاستقبلتها الجوّاري بأنواع الحلّي والحلل ، فتزيّنت بها ، فلمّا جنّ الليل دخل يوسف عليها ، وقال لها : أليس هذا خيرا ممّا كنت تريدان ؟ فقالت : أيّها الصديق ، لا تلمني فإنّي كنت امرأة حسنة ناعمة في ملك ودينا ، وكان زوجي عنيّنا لا يصل إلى النساء ، وكنت كما جعلك الله في صورة حسنة ، فغلبتني نفسي ، فلما بني بها وجدها عذراء ^(١) .

وعن الهادي عليه السلام : « لما مات العزيز في السنين الجديّة ، افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت [الناس] فقالوا لها : لو قعدت للعزيز ؟ وكان يوسف يسمّى العزيز. فقالت : أستحي منه ، فلم يزالوا بها حتّى قعدت له [على الطريق] ، فأقبل يوسف في موكبه ، فقامت إليه وقالت : سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيدا ، وجعل العبيد بالطاعة ملوكا. فقال يوسف لها : أنت تيك ؟ فقالت : نعم. فقال لها : هل لك فيّ رغبة ؟ قالت : دعني بعد ما كبرت أتهزّأي ! قال : لا ، [قالت : نعم] فأمر بها فحوّلت إلى منزله وكانت هرمه ، فقال لها [يوسف] : الست فعلت [بي] كذا وكذا ؟ فقالت : إني بليت بثلاثة لم يبل بها أحد. قال : وما هي ؟ قالت : بليت بحبّك ولم يخلق الله لك في الدنيا نظيرا ، وبليت [بحسني] بأنّه لم تكن بمصر امرأة أجمل منّي ولا أكثر مالا منّي ، وبليت بزواج عنيّ. فقال لها يوسف : فما تريدان ؟

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٧٩ - ٢٨٢ .

فقال : تسأل الله أن يرّد عليّ شباي. فسأل الله ، فردّ عليها شباها ، فتزوّجها وهي بكر ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « استأذنت زليخا على يوسف ، فقيل لها : إنّنا نكره أن نقدم بك عليه لما كان منك إليه قالت : إيّ لا أخاف ممن يخاف الله. فلمّا دخلت قال لها : يا زليخا ، مالي أراك قد تغيّر لونك ؟ قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيدا ، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكا. فقال لها : ما الذي دعاك إلى ما كان منك ؟ قالت : حسن وجهك. فقال : كيف لو رأيت نبيا يقال له محمد يكون في آخر الزمان أحسن منّي وجهها ، وأحسن منّي خلقا ، واسمح [مني] كفا ؟ قالت : صدقت. قال : وكيف علمت أنّي صدقت ؟ قالت : لأنّك حين ذكرته وقع حبّه في قلبي فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف أنّها قد صدقت ، وأنّي قد أحببتها حبّها محمّدا ، فأمره الله عزّ وجلّ أن يتزوّجها ^(٢) .

قيل : فحملت من يوسف وولدت له ابنين في بطن واحد ، أحدهما افرائيم ، والآخر ميشا ، وكانا كالشمس والقمر في الحسن والبهاء ، وباهى الله بحسنهما الملائكة في السماوات السبع ، وأحبّ يوسف زليخا حبا شديدا ، وتحوّل عشق زليخا وحبّها الأول إليه حتّى لم يبق له بدونها قرار ، وحوّل الله تعالى عشق زليخا وميلها إلى الطاعة والعبادة ، وراودها يوسف يوما ففترت منه فتبعها وقد قميصها من دبر ، فقالت : إن قدّدت قميصك من قبل ، فقد قدّدت قميصي الآن ، فهذا بذاك ^(٣) .

ثمّ أقبلت السنون المجدبة ، فحبس الله عنهم قطر السماء ونبات الأرض حتّى لم ينبت لهم حبة واحدة ، فاجتمع الناس إليه ، وقالوا : يا يوسف ، قد فنى ما في أموالنا من الطعام ، فبعنا ممّا عندك ، فأمر يوسف بفتح الأهراء ^(٤) ، وباع من أهل مصر ، ولا يبيع من أحد أكثر من حمل بعير ، تقسيطا على الناس ، وكان لم يشبع مدة القحط مخافة نسيان الجياع ^(٥) .

عن الصادق عليه السلام : « لما صارت الأشياء ليوسف بن يعقوب ، جعل الطعام في بيوت ، وأمر بعض وكلائه ببيعه ، وكان يقول : بع بكذا وكذا ، والسعر قائم ، فلمّا علم أنّه يزيد في ذلك اليوم كره أن يجري الغلاء على لسانه ، فقال له : اذهب وبع ، ولم يسمّ له سعرا ، فذهب الوكيل غير بعيد ، ثمّ رجع إليه ، فقال له : اذهب وبع ، وكره أن يجري الغلاء على لسانه ، فذهب الوكيل فجاء أوّل من اكتال ، فلمّا بلغ دون ما كان بالأمس بمكيال قال المشتري : حسبك إنّما أردت بكذا وكذا ، فعلم الوكيل أنّه قد غلا بمكيال ، وهكذا ^(٦) الخبر.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٥٧ .

(٢) علل الشرائع : ٥٥ / ١ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٢ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٣ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٤ .

(٦) الكافي ٥ : ١٦٣ / ٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٧ .

عن الرضا عليه السلام : « باعهم في السنة الأولى بالدرهم والدنانير حتى لم يبق في مصر وما حولها دينار ولا درهم إلا صار في ملكية يوسف ، وباعهم في السنة الثانية بالحليّ والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حليّ ولا جواهر إلا صار في ملكية يوسف ، وباعهم في السنة الثالثة بالدوابّ والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية إلا صار في ملكية يوسف. وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا أمة إلا صار في ملكية يوسف ، وباعهم في السنة الخامسة بالدور والعقار حتى لم يبق بمصر وما حولها دار ولا عقار إلا صار في ملكية يوسف ، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والأثمار حتى لم يبق بمصر وما حولها نحر ولا مزرعة إلا صار في ملكية يوسف ، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حرّ إلا صار عبد يوسف [فملك] أحرارهم وعبيدهم وأموالهم ، وقال الناس : ما رأينا ولا سمعنا بملك أعطاه الله من الملك ما أعطى هذا الملك حكما [وعلمنا] وتديرا » (١) الخبر .

أقول : إنّما صيرّ الله أهل مملكة مصر عبيدا وإماء له ، لأنّهم في البدو نظروا إليه بعنوان العبودية ، ثمّ قال يوسف للملك : أيّها الملك ، ما ترى فيما خولني ربّي من ملك مصر وأهلها ، أشر عليّ برأيك ، فإنّي لم اصلحهم لا فسدّهم ، ولم انجهم من البلاء ليكون وبالا عليهم. قال له الملك : الرأي رأيك. قال يوسف : إنّني أشهد الله وأشهدك أيّها الملك أنّي قد اعتقت أهل مصر كلّهم ، ورددت إليهم أموالهم وعبيدهم ، ورددت إليك خاتمك وسريرك وتاجك على أن لا تسير إلاّ بسيرتي ، ولا تحكم إلاّ بحكمي. فقال الملك : أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأنك رسوله ، فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين (٢) .

قيل : إنّهُ سرى القحط إلى كنعان وبلاد الشام وضاق المعاش على يعقوب وأولاده ، فقالوا لأبيهم : إنّنا سمعنا أنّ في مصر ملكا يعين الناس ويبيع الطعام من المحتاجين ، فأذن لنا أن نذهب إليه ونشتري منه الطعام بالبضاعة التي عندنا ، فأذن لهم جميعا إلاّ بنيامين ليقوم بخدمته ، فتجهّزوا للسفر ، وأخذوا معهم أحد عشر بعيرا لكلّ منهم بعير ، ويعير لبنيامين ، وحملوا عليها البضاعة (٣) ، قيل : كانت نعلا وأدما (٤). وقيل : دراهم (٥) . وقيل : مقلا (٦) .

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٨ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٨٩ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٢٨٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٨ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٤٩٤ ، والمقل : حمل شجرة الدّوم ، وهي تشبه النخلة ، وثمرتها في - غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر ، وله نواة ضخمة ذات لبّ اسفنجي ، يكثر في صعيد مصر وفي بعض بلاد العرب .

وقيل : لما أجدبت بلاد الشام وعلت أسعارها ، جمع يعقوب بنيه ، وقال لهم : اذهبوا إلى مصر ، واشتروا منها طعاما من العزيز . قالوا : يا نبي الله ، كيف يطيب قلبك بأن ^(١) ترسلنا إلى الفراعنة ، وأنت تعلم عداوتهم لنا ، ولا نأمن أن ينالنا منهم شرّ ؟ فقال : بلغني أنّه ولي أهل مصر ملك عادل ، فذهبوا إليه ، وأقرئوه مّيّ السّلام ، فأنّه يقضي حاجتكم ، ثمّ جهّز أولاده العشر ، وأرسلهم إلى مصر ، وكان بين مصر وكنعان ثماني - أو اثني عشر - مراحل ^(٢) .

وعن القمي : ثمانية عشر يوما ^(٣) ، وكان يوسف أوّل من صنع القرطاس ، ومع ذلك أخفى الله أمر يوسف على يعقوب ، ولم يأذن ليوسف أن يخبره عن حاله إلى الأجل المعين .
القمي : كان الناس من الآفاق يخرجون إلى مصر ليمتاروا ^(٤) طعاما ، وكان يعقوب وولده نزولا في بادية فيها مقل ، فأخذ إخوة يوسف من ذلك المقل ، وحملوه إلى مصر ليمتاروا به ، وكان يوسف يتولّى البيع بنفسه ^(٥) .

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَجَاءَ﴾ إذن ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ ممتارين في مصر ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهو في مجلس حكومته على زينة واحتشام ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف في أوّل نظرة لكمال فراسته ، وترصّده لمجيئهم ، وتقارب حال مفارقتهم وحال لقائهم ، وتشابه هيئاتهم وزيّهم في الحالين ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ غير عارفين به لبعد عهدهم منه - عن ابن عباس : كان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة ^(٦) - ولتباين حاله عند مفارقتهم له ، لأنّه كان في سنّ الحداثة وغاية الضعف والحالة التي زاده عليها من الكبر والسّلطان .
عن الباقر عليه السلام : « لم يعرفه إخوته لهيبة الملك وعزّه » ^(٧) .

قيل : إنهم رأوه على السرير ، وعليه ثياب الحرير ، وفي عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج من ذهب ^(٨) .

روي أنّهم كلّموه بالعبرانية ، فقال لهم : من أنتم ، وما شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة ، أصابنا الجهد فجننا للميرة فقال : لعلكم جئتم عيوننا تنظرون إلى عورة بلادني ؟ قالوا : معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدّيق نبي اسمه يعقوب . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنّا اثني عشر ، فهلك ممّا

(١) في النسخة : فان ، ولم ترد في المصدر .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٥ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٩ .

(٤) زاد في النسخة : به .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٦ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٩ / ٢١١٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٢٩ .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ١٦٦ .

واحد. قال : كم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة. قال : فأين الآخر الحادي عشر ؟ قالوا : عند أبيه يتسلّى به من المالك. قال : فمن يشهد لكم أنّكم لستم بعيون ، وأنّ الذي تقولون حقّ ؟ قالوا : نحن أهل بلاد بعيدة لا يعرفنا هنا أحد ، فأمر أن يعطى كلّ واحد منهم حمل بعير من الخنطة ^(١) .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي

الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩)

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وبذل لهم كلّ ما يحتاجون إليه من الزاد ومؤنة السفر ﴿قَالَ﴾ : دعوا بعضكم عندي رهينة ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِنْ آبَائِكُمْ﴾ ومعه رسالة من أبيكم على صدقكم ، فاقترعوا بينهم فأصاب القرة شمعون ، فخلّفوه عنده ، ثمّ حثّهم على إتيانه بقوله : ﴿أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي﴾ واتّمّ لكم ﴿الْكَيْلَ﴾ ولا انقص شيئا من حقّ أحد ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ وأكرم المضيفين.

قيل : إنّهُ لما أعطى كلّ واحد حمل بعير سألوا حملا آخر لبنيامين ، فسألهم عنه قالوا : هو أخونا من أبينا بقي عنده لخدمته. قال يوسف : أنا أعطي على عدد الرؤوس لا عدد البعير ، ثمّ أعطاهم حملا آخر وشرط عليهم أن يأتوا به ^(٢) .

عن القمي عليه السلام : قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نحن بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله الذي ألقاه نمرود في النار فلم يحترق ، وجعلها الله عليه يرثا وسلاما. قال : فما فعل أبوكم ؟ قالوا : شيخ ضعيف.

قال : ألكم أخ غيركم ؟ قالوا : لنا أخ من أبينا لا من أمنا. قال : فإذا رجعتم إليّ فأتوني به ^(٣) . وعن الباقر عليه السلام : « قال لهم يوسف : قد بلغني أنّ لكم أخوين من أبيكم ، فما فعلا ؟ قالوا : أما الكبير منهما فإنّ الذئب أكله ، وأما الصغير فخلّفناه عند أبيه ، وهو به ضنين ، وعليه شفيق. قال : فإني أحبّ أن تأتوني به معكم إذا جئتم تمتارون » ^(٤) .

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ * قَالُوا سَوَادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا

لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا

انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٠) و (٦٢)﴾

ثمّ هدّدهم على التخلّف بقوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ وخالفتم عهدكم ﴿فَلَا كَيْلَ﴾ من الغلّة

﴿لَكُمْ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٦ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٤٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٠ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٤٩ / ٢١١٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٠ .

عِنْدِي﴾ من بعد أصلاً فضلاً عن إيفائه ﴿وَلَا تَقْرَبُون﴾ ولا تدخلون عليّ ، بل لا تدخلون بلادي ، وإنما قال ذلك لعلمه بأنهم مضطرون إلى المراجعة للامتياز ، ولكونه مأموراً من الله أن يطلب أخيه ، ليعظم أجر أبيه على فراقه.

﴿قَالُوا﴾ ليوسف : ﴿سَنُرَاوُذُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونختال في انتزاعه من يد أبيه ، ونجتهد فيه ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك غير مفرطين ولا متوانين في طاعة أمرك.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف بعد أخذ العهد من إخوته على إتيان بنيامين ، سرّاً منهم ﴿لِفَتْيَانِهِ﴾ ومما يليه الموكلين على بيع الطعام وأخذ الأثمان : ﴿اجْعَلُوا﴾ ودسّوا ﴿بِضَاعَتَهُمْ﴾ ومتاعهم الذي أخذتموه منهم ثمناً للحنطة ﴿فِي رَحَالِهِمْ﴾ وجواليقهم تفضّلاً عليهم ، وإكراماً لهم ، وحثاً لهم على الرجوع ، وإعانة لهم على مؤنته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يطلعون على مكرمتهم و﴿يَعْرِفُونَهَا﴾ ويراعون حقّها ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ ورجعوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وأقاربهم ، وفتحوا جواليقهم ورأوا ردّ أمتعتهم إليهم تفضّلاً وإحساناً ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لشكرهم ذلك الإنعام يجدون في الوفاء بالعهد و﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلينا مع أخيه بنيامين.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا

لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ

خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٣) و (٦٤)﴾

فوضع الغلمان بضاعتهم في أوعيتهم خفية منهم ، ثمّ أذن لهم يوسف بالرجوع إلى وطنهم وأهلهم ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا﴾ من مصر ﴿إِلَى﴾ كنعان ودخلوا على ﴿أَبِيهِمْ﴾ يعقوب ﴿قَالُوا﴾ له قبل فتح الأوعية وإطلاعهم على ردّ البضاعة : ﴿يَا أَبَانَا﴾ أخذ منا العهد على أن نذهب ببنيامين معنا إلى مصر ، وإلا ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ وحرماننا من الطعام فيما بعد ، و [من] رجوع شمعون إليك ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلى مصر ﴿آخَانَا﴾ بنيامين إذن ﴿نَكْتَلْ﴾ ما نشاء من الطعام ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من كلّ آفة - ومكرهه - ، وضامنون لسلامته وعوده إليك.

فامتنع يعقوب من إجابتهم ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ والحال أنه ليس تأمينكم على حفظه وردّه ﴿إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى﴾ حفظ ﴿أَخِيهِ﴾ يوسف وردّه إليّ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وما اعتمادي على قولكم في حفظه وردّه إلا كاعتمادي على قولكم في حفظ يوسف في الزمان السابق ، وقد قلتم في حقّه ما قلتم ، وفعلتم ما فعلتم ، فلا ينبغي الوثوق بعد ما رأيتم منكم بقولكم وعهدكم في حفظه ، فإن أرسله معكم فلا اعتمد في حفظه إلا على الله.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ مَنِّي ومنكم لحفظه لكونه تعالى ﴿حَافِظًا﴾ لكلِّ شيء ، فأتوكل عليه ، وافوض أمر حفظه إليه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ من أهل السماوات والأرضين بعباده ، فيرحم شيتي وضعفي ، فلا يرضى بأن يجمع عليّ مصيبتين ، وفيه إشعار برضاه في ذهابهم به ، لاحتياجه إلى الطعام ، وإيناسه الخير والصلاح فيهم ، وعدم شدّة الحسد والحقد بينهم وبين بنيامين ، كذا قيل عن كعب ، لما قال يعقوب : ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ قال الله تعالى : وعزّي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت عليّ (١) .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ زُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا زُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ
يَسِيرٌ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ
يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٥) و (٦٦)

ثم قيل : إنّ يعقوب قال لبنيه : يا بنيّ ، قدّموا أحمالكم لأدعو لكم فيها بالبركة ، فقدّموها إليه (٢) ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ وأبواب جواليقهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ التي سلّموها إلى ملك مصر ثمنًا للطعام ﴿زُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعت في رؤوس أجمالهم ، فلمّا رأوا ذلك ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم : ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ولا نطلب بمدحنا ملك مصر في الكرم كذبا ، أو لا نطلب منه إكراما وتفضلا فوق هذا الاكرام والتفضّل ، أو لا نطلب منك مؤنة الرجوع ﴿هَذِهِ﴾ البضاعة التي ترى هي ﴿بِضَاعَتُنَا﴾ التي سلّمناها له عوض الطعام ﴿زُدَّتْ إِلَيْنَا﴾

أو المعنى أي شيء نطلب بعد إيفائه الكيل لنا وردّ ثمنه إلينا بأحسن وجه ، فاذا رجعنا إليه نأخذ ما نريد من الطعام ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ ونأتيهم ما يكفيهم من الطعام ﴿وَنَحْفَظُ﴾ من كلّ مكروه ﴿أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على كيل أحمال أباعرنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ آخر بسبب حضوره عند الاكتيال ، فإنّ ﴿ذَلِكَ﴾ الذي تحمله أباعرنا ﴿كَيْلٌ﴾ وطعام ﴿يَسِيرٌ﴾ وقليل لا يكفي لحاجتنا ، أو ذلك الذي يعطينا الملك من الزيادة يسير وسهل عليه ، فأنّه سخيّ كريم لا يضايقه من (٣) .

﴿قَالَ﴾ يعقوب : ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إلى مصر أبدا ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ وتعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾ وعهدا أكيدا منضمّا بالحلف بالله - أو بمحمد خاتم الأنبياء (٤) على قول - أو بالإشهاد (٥) أو بالإذن (٦) ﴿مِنْ اللَّهِ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٨٩ ، عن كعب.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩١ .

(٣) في النسخة : متا .

(٤) مجمع البيان ٥ : ٣٧٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ١٧١ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٧٠ .

لَسَأُنَبِّئُ بِهِ ﴿وَتَرَدُّونَهُ صَاحِبًا سَالِمًا إِلَيَّ عَلَى أَيِّ حَالٍ﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ويغلب عليكم بحيث لا تقدرُونَ على حفظه وإتيانه إليّ.

وقيل : يعني إلّا أن تهلكوا جميعاً (١) .

قيل : البلاء موكل بالمنطق ، فأنّه ﷺ قال في حق يوسف : أخاف أن يأكله الذئب ، فابتلي بهذا القول ، وقال هنا : إلّا أن يحاط بكم ، فابتلي أيضاً بهذا القول ، حيث إنهم احيط بهم وغلبوا عليه (٢).

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ﴾ وعاهدوه عهداً مؤكداً بالحلف على حفظه وردّه سالماً إليه ، حثهم على الوفاء به بقوله : ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ القادر القاهر ﴿عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من التعاهد ﴿وَكَيْلٌ﴾ وشهيد ، أو مراقب وكاف ، يشب على الوفاء به ، ويعاقب على الخلف.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧)

ثمّ أذن ﷺ في أن يذهبوا بنيامين معهم إلى مصر ، فتهيئوا للسفر ، فلما أرادوا أن يخرجوا خاف يعقوب عليهم العين ، لكونهم ذوي جمال فائق ، وكمال رائق ، وهئية حسنة ، وبني أب واحد ، ﴿وَمَا لَئِنْ قَالَ يَا بَنِيَّ﴾ اوصيكم بأنّه إذا وصلتكم إلى مصر ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ فيها ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ للمدينة على ما أنتم عليه من العدد والهئية ﴿وَادْخُلُوا﴾ فيه متفرقين ﴿مِنْ أَبْوَابٍ﴾ متعدّدة ﴿مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وطرق متشتتة ، ومسالك مختلفة ، وإتّما وصّاهم في هذه الكثرة ، لأنهم صاروا في السفر الأول مشتهرين في المصر بالقرب عند الملك ، وكانت ترفع إليهم الأبصار دون الكثرة الاولى ، فأنهم كانوا حين الورود مجهولين مقهورين بين الناس غير متجملين تحمّلهم في الثانية ، وإتّما كانت تلك الوصية بالنظر إلى حبّ الأبوة.

ثمّ التفت إلى أنّ التدبير لا يردّ التقدير ، وأنّ القضاء لا يدفع بالحيل والأداء ، فقال : ﴿وَمَا أُغْنِي﴾ ولا أنفعكم بتدبري في دفع إصابة العين ﴿عَنْكُمْ﴾ إذا كان ﴿مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ يسيراً ﴿مِنْ﴾ شَيْءٍ من الضّرر.

القمي : ﷺ : أعلن بتفويضه الأمر إلى الله بقوله ﴿إِنْ أَلْحُمُ﴾ وما القضاء في الامور من النفع والضّر والخير والشرّ لأحد ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وحده لا يشاركه فيه أحد ، ولا يمانعه عنه شيء ، فإذا كان ذلك فإنّي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه فوّضت جميع اموري التي منها حفظ أولادي من الآفات في جميع

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٧٩ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩١ .

الأوقات ﴿وَعَلَيْهِ﴾ تعالى ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ البتة بتبع أنبيائهم.

ثم لما أنكر بعض تأثير العين ، حملوا وصية يعقوب على أنه لما علم اشتغالهم في المصر بالحسن والكمال خاف عليهم أن يحسداهم الناس ، ويسعوا عليهم عند الملك ، أو خاف أن يخافهم الملك الأكبر على ملكه فيحبسهم.

أقول : وإن كان هذا الوجه ممكنا ومحملا إلا أن إنكار تأثير العين إنكار لما هو ثابت بالشرع والتجربة ، فقد روى بعض العامة عن النبي ﷺ : « العين تدخل الرجل في القبر ، والبعر في القدر »^(١). وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام : « أن جبرئيل أتى النبي ﷺ فرآه مغتما فقال : يا محمد ، ما هذا الغم الذي أراه في وجهك ؟ فقال : الحسن والحسين أصابتهم عين. فقال : صدقت ، فإن العين حق »^(٢). إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة من طرق العامة والخاصة التي لا مجال لانكارها.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

﴿وَلَمَّا﴾ وصل أولاد يعقوب إلى مصر ﴿دَخَلُوا﴾ فيها ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ وبنحو [ما] وصّاهم والدهم من دخولهم من أبواب متفرقة ﴿مَا كَانَ﴾ رأي يعقوب وتدييره في حفظهم من الابتلاء ﴿يُغْنِي﴾ وينفع ﴿عَنْهُمْ مِنْ﴾ قضاء ﴿اللَّهِ﴾ ومشئته في حقهم ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ يسير ، ولا يردّه عنهم بوجه ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ قيل : إن الاستثناء منقطع ، والمعنى : ولكن حاجة كانت ﴿فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ﴾ وهو إظهار خوفه من أن تصيبهم العين أو يحسداهم أهل مصر^(٣) ، وهو ﴿قَضَاهَا﴾ بتلك التوصية.

عن ابن عباس : « ذلك التفرق ما كان يردّ قضاء الله ، ولا أمرا قدّره الله^(٤) . وفيه تصديق الله لما قال يعقوب : « ما اغني عنكم من الله شيء » ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ بأن التدبير لا يدفع التقدير ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ ولاجل وحينا إليه.

وقيل : أي لذو حفظ ومراقبة لما علمناه ، أو لذو علم بفوائد ما علمناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الجهال غير العارفين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما علم يعقوب ، أو أن يعقوب بهذه الصفة أو القضاء لا يردّ التدبير. وقيل : إن المراد أنّ المشركين لا يعلمون أنّ الله كيف أرشد أوليائه إلى العلوم النافعة لهم في

(١) تفسير أبي السعود ٤ : ٢٩٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٣ .

(٣ و ٤) تفسير الرازي ١٨ : ١٧٦ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا﴾ مع بنيامين ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ وهو جالس في قصره منقبا على السرير ، فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نحن كنعانيون ، الذين أمرتنا بأن نأتي بأخيها من أبنينا فامتلنا أمرك وأتيناه به . قال : أحسنتم ، وستجدون جزاءكم عندي فاجلسوا . فجلسوا على حاشية البساط ، فأكرمهم وأمر باحضار الطعام ، وقال : فليجلس كل أخوين من أب وأم على خوان من الطعام ، فجلس كل منهم مع أخيه الأبويني على خوان واحد ، وبقي بنيامين فردا لا قرين له ، فبكى حتى غشي عليه ، فأمر يوسف بأن يرشوا الجلاب (٢) على وجهه حتى أفاق ، فقال له يوسف : يا شاب ، ما كان سبب بكائك وغشيتك ؟ قال : كان لي أخ من أمي يقال له يوسف وفقد سنين متطاولة ، فلما أمرت أن يجلس كل أخوين من أب وأم على خوان واحد ذكرته ، وقلت في نفسي : لو كان معي أخ لأجلسني معه ، فأخذتني العيرة وتغير حالي . قال يوسف : أترضى أن أكون أذاك أكل معك ، فأمر أن يوضع خوانا في بيت آخر أو وراء الستر ، فقام يوسف إليه ، ودعا بنيامين و﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بنيامين وضمه إلى نفسه في الطعام والمنزل والمبيت ، وعين لكل اثنين من إخويه بيتا ثم قال لبنيامين : هل تزوجت ؟ قال : نعم ، ولي عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لي هلك .

وقيل : إنه قال : رزقت ثلاثة أولاد ذكور . قال : ما أسماؤهم ؟ قال : اسم أحدهم ذئب . فقال يوسف : أنت ابن نبي ، فكيف سميت ولدك بأسماء الوحوش ؟ فقال : إن إخوتي لما زعموا أنّ أخي أكله الذئب سميت ابني ذئبا حتى إذا صحت به ذكرت أخي ، فبكى وبكى يوسف . وقال : ما اسم الآخر ؟ قال : دم . قال : لم سمّيته بهذا الاسم ؟ قال : إخوتي جاءوا بقميص أخي متضمّخا بالدم ، فسمّيته بذلك حتى إذا صحت به ذكرت أخي ، فبكى وبكى يوسف . فقال : وما اسم الثالث ؟ قال : يوسف ، سمّيته به حتى إذا صحت به ذكرت أخي ، فبكى وبكى يوسف وقال في نفسه : يا الهي وسيدي ، هذا أخي أراه بهذا الحزن ، فكيف يكون حال الشيخ يعقوب ، اللهم اجمع بيني وبينه قبل فراق الدنيا . ثم قال : أتحبّ أن أكون أذاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أحبا مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٧٧ .

(٢) الجلاب : ماء الورد ، فارسي معرب .

يوسف وقام إليه وعانقه و﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ يوسف (١) .

وقيل : إنّ يوسف مدّ يده إلى الطعام وهو متنقّب ، فلمّا نظر بنيامين إلى يد يوسف بكى ، فقال يوسف : مما بكائك ؟ قال : أيها الملك ما أشبه يدك بيد أخي يوسف ، فلمّا سمع منه هذا الكلام لم يتمالك وألقى النقاب من وجهه ، وقال : إنّني أنا أخوك (٢) .

وقيل : إنّ بنيامين لما جلس على الخوان جعل يأكل ويغصّ بأكله ويطيّل النظر إلى يوسف ، فقال له يوسف : أراك تطيل النظر إليّ ؟ فقال : إنّ أخي الذي أكله الذئب يشبهك. فقال يوسف : أنا أخوك (٣) ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بنا فيما مضى ، فإنّ الله أحسن إلينا وجمعنا بالخير ، وأمره أن لا يحبرهم ، بل تخفى الحال عنهم.

عن الصادق عليه السلام : « قد كان يوسف هيّأ لهم طعاما ، فلمّا دخلوا عليه قال : ليجلس كلّ بني أمّ على مائدة ، فجلسوا وبقي بنيامين قائما ، فقال له يوسف : مالك لا تجلس ؟ قال له : إنّك قلت ليجلس كلّ بني أمّ على مائدة ، وليس لي فيهم ابن أمّ فقال يوسف : أما كان لك ابن أمّ ؟ قال له بنيامين : بلى. قال يوسف : فما فعل ؟ قال : زعم هؤلاء أنّ الذئب أكله. قال : فما بلغ من حزنك عليه ؟ قال : ولد لي أحد عشر ابنا كلّهم شققت (٤) له أسماء من اسمه. فقال له يوسف : أراك قد عانقت النساء ، وشممت والولد من بعده ؟ قال له بنيامين : إنّ لي أبا صالحا ، وإنّه قال [لي] تزوّج لعلّ الله أن يخرج منك ذريّة تثقل الأرض بالتسبيح. فقال له [يوسف] : تعال فاجلس معي على مائدي. فقال إخوة يوسف : لقد فضّل الله يوسف وأخاه علينا حتى إن الملك قد أجلسه معه على مائدته (٥) .

وفي رواية : أنه حين أجلسه على المائدة ، تركوا الأكل وقالوا : إنا نريد أمرا وبأبي الله [إلّا] أن يرفع ولد ياميل (٦) علينا (٧) .

وعن القمي رحمه الله : فخرجوا وخرج معهم بنيامين ، وكان لا يؤاكلهم ولا يجالسهم ولا يكلمهم ، فلمّا وافوا مصر دخلوا على يوسف وسلّموا ، فنظر يوسف إلى أخيه فعرفه ، وجلس منهم بالبعيد ، فقال يوسف : أنت أخوهم ؟ قال : نعم. قال : فلم لا تجلس معهم ؟ قال : لأنّهم أخرجوا أخي من أمّي وأبي ثمّ رجعوا ولم يردّوه ، وزعموا أنّ الذئب أكله ، فاليّت على نفسي أن لا اجتمع معهم على أمر مادمت حيا. قال : فهل تزوّجت ؟ قال : بلى. قال : فولد لك ولد ؟ قال : بلى. قال : كم ولد لك ؟ قال : ثلاثة بنين ؟ قال :

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٧ .

(٢ و ٣) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٧ .

(٤) في مجمع البيان : اشتققت .

(٥) مجمع البيان ٥ : ٣٨٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٢ .

(٦) في تفسير العياشي : يامين .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٥١ / ٢١١٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٣ .

فما سميتهم ؟ قال : سميت واحدا منهم بالذئب ، وواحدا القميص ، وواحدا الدم . قال : وكيف اخترت هذه الأسماء ؟ قال : لثلاث أنسى أخي ، كلما دعوت واحدا منهم ذكرت أخي . قال لهم يوسف : اخرجوا ، وحبس بنيامين [عنده] ، فلما خرجوا من عنده قال يوسف لأخيه : ﴿ **أَنَا أَخُوكَ** ﴾ [يوسف] ﴿ **فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾

ثم قال له : أنا أحب أن تكون عندي ، فقال : لا يدعوني إخواني ، فإن أبي قد أخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن يردوني إليه . قال : أنا احتال بحيلة ، فلا تنكر إذا رأيت شيئا ولا تخبرهم . فقال : لا ^(١) . وفي رواية عامية : أن بنيامين لما عرف أخاه أخذته الغشوة من الشوق والفرح ، فلما أفاق عانقه وقاله له : لا افارقت ، قد علمت اعتمام والدي بي ، فإذا حبستك ازداد غمّه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أشهرك بأمر فطيع . قال : لا ابالي ، فافعل ما بدا لك . قال : أدسّ صاعبي في رحلك ، ثم انادى عليك : بأنك سرقته ليتيها لي ردك بعد تسريحك معهم . قال : افعل .

﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا**

الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ (٧٠)

ثم قال يوسف لإخوته : اتخبّون سرعة الرجوع إلى أبيكم ؟ قالوا : نعم ، فأمر الكيال بكيل الطعام ، وقال له : زدهم وقر ^(٢) بعير ، ثم جهّزهم بأحسن جهاز ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ** ﴾ وأكمل مؤنة سفرهم ﴿ **جَعَلَ** ﴾ بمباشرة أو بواسطة افرائيم أو بعض خواصه ومحارمه ﴿ **السَّقَايَةَ** ﴾ والمشرية التي كانت من فضة ، أو من بلور ، أو من زمردة خضراء ، أو ياقوتة حمراء تساوي مائتي ألف دينار ، أو من ذهب مرصعة بالجواهر ، جعلت صواعا وكيلا يكال به الطعام لعزته ، أو يكال به طعام إخوته إكراما لهم ^(٣) ﴿ **فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ﴾ بنيامين ودسّها في حمله .

ثم أمر إخوته بالمسير ، ثم لما انفصل الإخوة من مصر ، طلب أصحاب يوسف السقاية ، فما وجدوها ، وما كان أحد هناك غير الذين ارتحلوا ، فأخبروا يوسف ، فأرسل من استوقفهم فوقفوا ﴿ **ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ** ﴾ ونادى مناد من قبل الملك اسمه افرائيم على ما قيل ^(٤) : ﴿ **أَتَتْهَا الْعِيرُ** ﴾ وقافلة الكنعانيون ﴿ **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾

قيل : أراد يوسف من نسبة السرقة إليهم سرقتهم إياه من أبيه ^(٥) .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٣ .

(٢) الوقر : الحمل الثقيل .

(٣ و ٤) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٩ .

كما روي أيضا عن الصادق عليه السلام قال : « ما سرقوا وما كذب يوسف ، إنما عني سرقتم يوسف من أبيه » ^(١) .

وفي رواية : « ألا ترى [أنه] قال لهم حين قالوا : ماذا تفقدون . قالوا : نفقد صواع الملك ، ولم يقولوا : سرقتم صواع الملك » ^(٢) .

وعنه عليه السلام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا كذب على مصلح ، ثم تلا ﴿ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ثم قال : والله ما سرقوا وما كذب » ^(٣) .
وعنه عليه السلام قال : « إرادة الاصلاح » ^(٤) .

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ
حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا
كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي
رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧١) و (٧٥) ﴾

وقيل : إنَّ النداء كان من قبل الكياليين على ظنِّ سرقتهم ^(٥) ، فلمَّا سمعت الإخوة هذا النداء ﴿ قَالُوا ﴾ للذين جاءوا لطلب السقاية ﴿ وَهُمْ ﴾ ﴿ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ﴾ ازعاجا من نسبتهم إلى السرقة مع كونهم في غاية الشرف : ما هذه النسبة و ﴿ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ وتعدمون ، وأي شيء ضاع منكم ؟ فلمَّا رأى فتیان يوسف في وجوههم غضبا شديدا ﴿ قَالُوا ﴾ في جوابهم ﴿ نَفَقْدُ ﴾ ونعدم ﴿ صُوعَ الْمَلِكِ ﴾ وكيله الذي كلنا به طعامكم.

عن الباقر عليه السلام : « الصاع ^(٦) : الطاس الذي يشرب فيه » ^(٧) .
ثم قال المؤذن تسكيننا لقلوبهم وإيهاما لعدم اعتقادهم السرقة في حقهم : ﴿ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ ﴾ قبل تفتيش الغلمان له ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام جعلاً ^(٨) له ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ وكفيل بأن أوديه ^(٩) إليه من مالي لئلا يتهمني الملك.

فأجابهم الإخوة و ﴿ قَالُوا ﴾ تعجبا من هذه النسبة إليهم مع ظهور الشرف والنجابة والصلاح منهم:

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٥٤ / ٢١٢٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٤ .

(٣) الكافي ٢ : ٢٥٦ / ٢٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٤ .

(٤) الكافي ٢ : ٢٥٦ / ١٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٢٩٩ .

(٦) في تفسير العياشي : صواع الملك.

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٥٤ / ٢١٢٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٤ .

(٨) الجعل : ما يجعل على العمل من أجر.

(٩) في النسخة : كفيل لأديه.

يا أيها الفتية ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وتبين لكم من حالنا أنا ﴿مَا جِئْنَا﴾ من بلدنا إليكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي﴾ هذه ﴿الْأَرْضِ﴾ وتلك البلدة بالسرقة ﴿وَمَا كُنَّا﴾ في مدّة عمرنا ﴿سَارِقِينَ﴾ فإنّ العلم بالأحوال المشاهدة يستلزم العلم بالغائبة ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم ﴿فَمَا﴾ عقوبة السرقة أو السارق وأي شيء ﴿جَزَاؤُهُ﴾ في شرعكم ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ في جحدكم السرقة وإنكار كون الصّواع عندكم ﴿كَاذِبِينَ﴾ فلمّا كانوا مطمئنين ببراءة أنفسهم ﴿قَالُوا﴾ في شرع يعقوب عقوبة السارق أو السرقة و﴿جَزَاؤُهُ﴾ استرقاق ﴿مَنْ وَجَدَ﴾ الصّواع ﴿فِي رَحْلِهِ﴾ وأمتعته ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾

قيل : كان في شرع يعقوب أن يسترقّ السارق سنة (١) .

ثمّ أكّدوا الحكم المذكور بعد بيانه بقولهم : ﴿كَذَلِكَ﴾ الجزاء ومثل تلك العقوبة ﴿نَجْزِي﴾ ونعاقب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالعصيان ، وعلى غيرهم بسرقة ماله .

عن الصادق عليه السلام : « يعنون السّنة التي كانت تجري فيهم أن يجسه » (٢) .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ

نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

ثمّ روي أنّ غلمان يوسف قالوا للإخوة : أنيخوا حتى نفتش رجالكم ، فأناخوا (٣) ﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش بأمر يوسف ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ وجواليقهم في التفتيش ﴿قَبْلَ﴾ تفتيش ﴿وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين دفعا للتهمة . ﴿ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ قيل : فتشوا رحل الأخ الأكبر ، ثمّ الذي يليه ، ثمّ وثمّ إلى أن بلغت التوبة إلى رحل بنيامين ، فقال يوسف : ما أظنّ أنّ هذا أخذ شيئا . فقال فتياه : والله ما نتركه حتّى ننظر في رحله ، فأنّه أطيب لنفسك ولأنفسنا ، ففتحو متاع بنيامين ، فرأوا الصّواع فأخذوه وما معه من الصّواع ، وردّوه إلى مصر (٤) .

وأخذ إخوته يشتمونه بالعبرانية وقالوا : يا لعين (٥) ، ما حملك على سرقة صواع الملك ؟ ولا يزال ينالنا منك بلاء كما لقينا من ابن راحيل . فقال بنيامين : بل ما لقي ابنا راحيل البلاء إلّا منكم ، فأما يوسف فقد فعلتم به ما فعلتم ، وأما أنا فنسبتموني إلى السرقة . قالوا : فمن جعل الإناء في متاعك ؟ قال : إن :

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٠ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٥١ / ٢١١٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٠ .

(٤) في تفسير روح البيان : إلى يوسف .

(٥) في تفسير روح البيان : وقالوا له : يا لصّ .

كنتم سرقتم بضاعتكم الاولى وجعلتموها في رحالكم ، فأنا جعلت الصّواع في رحلي. فقال روبيل: والله لقد صدق وأراد بنيامين أن يخبرهم بخبر يوسف ، فذكر وصيته له فسكت (١) .

ثم ذكر الله سبحانه لطفه بيوسف ومّته عليه بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ الكيد المعجب والتدبير البديع ﴿كَدْنَا﴾ ودبرنا نفعا ﴿يُوسُفَ﴾ وتحصيلا لغرضه حيث ألهمناه أن يسألهم عن جزاء السارق في شرعهم ليلزمهم بما التزموا به ، وإلا فاته ﴿مَا كَانَ لِأَخَذَ﴾ ويسترقّ أو يحبس ﴿أَخَاهُ﴾ بنيامين بالجزاء المقرّر ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ الأكبر وسنّته ، أو في حكمه وقضائه ، لأنّ جزاء السارق في دينه هو ضربه وتغريمه ضعف ما سرق دون الاسترقاق والحبس ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك الكيد الذي علّمناه ، أو يشاء تغيير دين الملك ، أو أخذه بوجه آخر.

ثم مدح سبحانه رفعة مقام يوسف في العلم بقوله : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ كثيرة في العلم ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ رفعة ونعلي إلى مراتب عالية من نريد تعليته بالحكمة حسب استعداد الخلق وقابليتهم ، واقتضاء الحكمة والمصلحة ، كما رفعنا درجة يوسف ومرتبته في العلم على درجة علم إخوته وغيرهم من أهل عصره ﴿وَفَوْقَ﴾ درجة ﴿كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من الخلق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ويكون من كلّ صاحب علم من هو أرفع منه في العلم إلى أن ينتهي إلى الله.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾

ثم أن الإخوة ﴿قَالُوا﴾ ليوسف تنزيها لساحتهم من صنع بنيامين : ﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ هو فليس هذا العمل منه بعيد ولا عجب ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ﴾ كان ﴿لَهُ﴾ من أمّه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وكنا نحن برّاء منهم. فسمع يوسف الكلمة الشنيعة ﴿فَأَسْرَهَا﴾ وأخفاها ﴿يُوسُفُ﴾ منهم ﴿فِي نَفْسِهِ﴾ وقلبه ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ ولم يظهرها ﴿لَهُمْ﴾ بوجه حلما وصفحا.

ثم ﴿قَالَ﴾ في نفسه : يا إخوتي ﴿أَنْتُمْ شَرُّ﴾ مني ﴿مَكَانًا﴾ ومنزلة حيث سرقتموني من أبي ، وفعلتم بي ما فعلتم ﴿وَاللَّهُ﴾ العالم بحقايق الامور ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ومن كلّ أحد ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتنسبون إلى.

قيل : كان جدّه لأمّه يعبد الصنم ، فقالت له أمّه راحيل : خذ صنم أبي واكسره لعلّه يترك عبادته ، فأخذه يوسف وكسره وألقاه بين الجيف في الطريق (٢) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٠.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠١.

عن النبي ﷺ قال : « سرق يوسف صنما لجده أبي أمه من فضة وذهب فكسره وألقاه على الطريق » .

وقيل : كانت لإبراهيم منطقة ^(١) يتوارثها أكابر ولده ، فورثها إسحاق ، ثم وقعت إلى ابنته ، وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف وهي عمته بعد وفاة [أمه] راحيل ، وكانت تحبه حبا شديدا بحيث لا تصبر عنه ، فلما شبَّ أراد يعقوب أن ينتزعه منها ، فاحتالت بأن شددت المنطقة على وسط يوسف تحت ثيابه وهو نائم ، وقالت : فقدت منطقة إسحاق ، فانظروا من أخذها . ففتشوا فوجدوها مشدودة على وسط يوسف تحت ثيابه ، فقالت : إنَّه سرقها مِنِّي ، فكان سلما لي ، وكان حكمهم أنَّ من سرق يسترق ، فتوسلت بهذه الحيلة ، إلى إمساكه عند نفسها ، فتركه يعقوب عندها إلى أن مات ^(٢).

عن الرضا عليه السلام قال : « كانت لاسحاق النبي منطقة يتوارثها الأنبياء والأكابر ، وكانت عند عمّة يوسف ، وكان يوسف عندها ، وكانت تحبه فبعث إليها أبوه : أن ابعثيه ، إلَيَّ وأردّه إليك ، فبعثت إليه : أن دعه عندي الليلة أتمّه ثم أرسله إليك غدوة ، فلما أصبحت أخذت المنطقة فربطتها في حقوه ^(٣) وألبسته قميصا وبعثت به إليه ، وقالت : سرقت المنطقة فوجدت عليه ، وكان إذا سرق أحد في ذلك الزمان دفع به إلى صاحب السرقة » ^(٤) .

وفي رواية : « فقال لها يعقوب : فإنَّه عبدك على أن لا تبيعه ولا تهيبه ، قالت : فأنا أقبله على أن لا تأخذه مِنِّي واعتقه الساعة . فأعطاه إياه وأعتقته » ^(٥) .

وقيل : إنَّه كان يسرق من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء ^(٦) .

وقيل : إنَّه سرق عناقا ^(٧) من أبيه ^(٨) . وقيل : دجاجة ، ودفعه إلى مسكين ^(٩) .

أقول : فساد هذين القولين واضح .

وقيل : إنَّ الإخوة اتهموه وكذبوا عليه ، وكانت قلوبهم مملوءة من الغضب عليه ^(١٠) .

وقيل : إنَّ يوسف نسبهم إلى السرقة بقوله إنكم لسارقون ، فكوفي بقولهم : سرق أخ له ^(١١) .

ثمَّ لما حبس يوسف بنيامين كلمه إخوته في إطلاقه ، روي أنَّه قال له روبيل : أيها الملك لتردّ

إلينا

(١) المنطقة : ما يشدّ به الوسط .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠١ .

(٣) الحقو : الخصر .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٥٥ / ٢١٢٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٥ .

(٥) الخرائج والجرائح ٢ : ٧٣٩ / ٥٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٦ .

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٨٤ .

(٧) العناق : الانثى من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول .

(٨ و ٩) تفسير الرازي ١٨ : ١٨٤ .

(١٠) تفسير الرازي ١٨ : ١٨٤ .

(١١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٢ .

أخانا ، أو لأصيحَنَ صحيحة تضع منها الحوامل في مصر ، وقامت شعور جسده ، فخرجت من ثيابه ، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لا يطاقون خلا أنه إذا مسَّ من غضب واحد منهم سكن غضبه ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنبه فمسّه - وفي رواية ، قال : خذ بيده فمسّه - فسكن غضبه . فقال روبيل : إن هنا لبذرا من بذور يعقوب . فقال يوسف : من يعقوب ^(١) .

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾

روي أنه غضب ثانيا فقام إليه يوسف فركضه برجله ، وأخذ بتلابيبه ، فوقع على الأرض ، فقال : أنتم معشر العبرانيين تظنون أن لا أحد أشدَّ منكم ، فلمَّا رأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليص بنيامين خضعوا ^(٢) ليوسف و﴿قَالُوا﴾ استعطافا ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ﴾ في كنعان ﴿أَبًا﴾ يكون ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن ، أو في القدر والدين بحيث يجب على كلِّ أحد رعاية حاله والترحُّم عليه ، فإنَّ له محبة شديدة وانسا تاما بهذا الولد بعد هلاك أخيه من أمه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا﴾ استعبادا ﴿مَكَانَهُ﴾ وعوضه - أو رهنا - حتى نأتيك بفداء لك ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا بالإكرام والمتفضلين علينا بايفاء كيل ^(٣) الطعام والبذل الكثير وردَّ البضاعة فأتمم إحسانك برِّدَّ أحيانا.

أو المراد ﴿نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى جميع أهل مملكتك باعتاقهم ورد أموالهم إليهم بعد استرقاقهم وتمكَّك أموالهم عوض الطعام ، فكن محسنا إلينا أيضا وإلى أبيه الضعيف بإعتاق ولده الذي لا يبصر على فراقه ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إن فعلت ^(٥) .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ * فَلَمَّا
اسْتَيْسَرُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ
مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي
أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا
إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٧٩) و (٨١)﴾

(١ و ٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٢ .

(٣) في النسخة : الكيل .

(٤) في النسخة : بفراقه .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٥٠ / ٢١١٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٦ .

نحن متهمون بواقعة يوسف ، فكيف المخلص من هذه الورطة ؟ ^(١) . قال يهوذا : ﴿فَلَنْ أُنْزَعَ﴾ ولا افارق أبدا هذه ﴿الْأَرْضَ﴾ وتلك البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الانصراف إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بالخروج منها والرجوع إلى أبي على وجه لا يؤدي إلى نقض الميثاق ، أو يجعل لي مخلصا بسبب من الأسباب .

وقيل : يعني يقضي الله عليّ بالموت ^(٢) ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلّا بالعدل والحق ولا يجوز ولا يداهن ، يا إخوتي ﴿ارْجِعُوا﴾ أنتم ﴿إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا﴾ له ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾ صواع الملك بمصر ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه عندك بالسرقة ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ ورأينا من استخراج الصواع من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ وباطن الأمر وواقع الحال بـ ﴿حَافِظِينَ﴾ فلعلّ أهل مصر رموه في وعائه ليتهموه بالسرقة حسدا وعداوة .

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢)

وقيل : يعني ما كنا نعلم أنّ ابنك هذا يسرق ، ولو علمنا ذلك منه ما ذهبنا به إلى ملك مصر ، ولم نحضره معنا عند الملك ، وما أعطيناك العهد على إرجاعه إليك ^(٣) ، وإن لا تصدّقنا فيما نقول لأنّهمنا عندك بالكذب وخلف العهد ، ففتش عن القضية ﴿وَسَلِّ﴾ عنها ﴿الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وأهل البلدة التي وقعت القضية فيها - قيل : هي مصر ^(٤) وقيل : هي قرية قريبة من مصر ، فأنّه وقعت القضية فيها ^(٥) - ﴿وَوَسَّالِ﴾ أسأل ﴿الْعِيرَ﴾ والقافلة ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا﴾ وتوجّهنا إليك ﴿فِيهَا﴾ فأنّهم كانوا معنا ذهابا وإيابا ، وفي الوقعة .

وقيل : يعني أسأل حيطان القرية وجدرانها والأباعر التي كانت معنا حتى يخبروك بها ، فإنّك من أكابر الأنبياء فينطق الله لك الجمادات والحيوانات ^(٦) .

وقيل : إنّ الشيء إذا ظهر ظهورا تاما يقال [فيه] : سل الجمادات ^(٧) وجميع الأشياء عنه ^(٨) . قيل : كان معهم قوم من كنعان من جيران يعقوب ^(٩) .

ثمّ أكّدوا قولكم بالهلف بالله ، ﴿وَوَقُولُوا﴾ ^(١٠) ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ فيما نخبرك به .

ثمّ لما اخذوا دستور كيفية إخبار يعقوب بالقضية ، رجعوا إلى كنعان ، ورجع يهوذا إلى يوسف ،

فقال

(١) تفسير الرازي ١٨ : ١٨٨ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٣٩١ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٠ .

(٤ و ٦) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٠ .

(٧) في تفسير الرازي : سل السماء والأرض .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٠ .

(٩) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٤ .

(١٠) في النسخة : وقالوا .

له : لم رجعت ؟ قال : إِنَّكَ اتَّخَذْتَ أَخِي رَهِينَةً ، فخذني معه ، فجعله عند أخيه ، وأحسن إليهما .
وعن الصادق عليه السلام قال : « فرجع إخوة يوسف إلى أبيهم ، وتخلّف يهودا ، فدخل على يوسف يكلمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما حتى غضب يهودا ، وكان على كتفه شعره إذا غضب قامت الشعرة ، فلا تزال تقذف بالدم حتّى يمسه بعض ولد يعقوب ، وكان بين يدي يوسف ابن له صغير في يده رمانة من ذهب يلعب بها ، فلما رآه يوسف قد غضب وقامت الشعرة تقذف بالدم ، أخذ الرمانة من يد الصبيّ ، ثمّ دحرجها نحو يهودا ، وتبعها الصبيّ ليأخذها ، فوقعت يده على يد يهودا فذهب غضبه ، فارتاب يهودا ، ورجع الصبيّ بالرمانة إلى يوسف ، ثمّ عاد يهودا إلى يوسف فكلمه في أخيه حتّى ارتفع الكلام بينهما ، حتى غضب يهودا ، وقامت الشعرة ، فجعلت تقذف بالدم ، فلما رأى ذلك يوسف دحرج الرمانة نحو يهودا ، وتبعها الصبيّ ليأخذها ، فوقعت يده على يد يهودا ، فسكن غضبه ، فقال يهودا : « إِنَّ فِي الْبَيْتِ مَعَنَا بَعْضُ وَلَدِ يَعْقُوبَ ، حتّى صنع ذلك ثلاث مرات » ^(١) الخبر .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَإِيسَى

عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٣) و (٨٤)

ثمّ إن الإخوة التسعة لما دخلوا على يعقوب وأخبروه بقضية بنيامين حسبما لقنهم يهودا ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب على ما روى : هبوا أنّه سرق ، ولكن كيف عرف الملك أنّ شرع بني إسرائيل أنّ من سرق يسترق ^(٢) ؟ فما كنتم بريئين من التقصير في حقّه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ واحتالت ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ عظيما ، وهو تهمة بنيامين بالسرقة مع أنّه بريء ، أو إخراجهم معكم إلى مصر بظنّ النفع فترتب عليه هذا الضرر ، أو فتواكم عند الملك بأنّ جزاء السارق استرقاقه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لا شكوى فيه إلى الخلق ، تكليفي ووظيفتي .

قيل : لما أخبروا أبيهم بالواقعة بكى ، وقال : يا بني لا تخرجون من عندي مرة إلّا ونقص بعضكم ، ذهبتم مرة فنقص يوسف ، وفي الثانية نقص شمعون ، وفي هذه المرة نقص كبيركم روبيل - أو يهودا - وبنيامين ، ثمّ بكى وقال : ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ وأرجو منه ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ^(٣) لحسن ظنيّ برحمته ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بشدّة حزني وغاية ضعفي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في فعّاله ، لا يفعل بعبده إلّا ما هو عاين

(١) تفسير القمي ١ : ٣٤٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٠ .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ١٩١ .

التفضّل والاحسان والصلاح ﴿وَتَوَلَّى﴾ وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ بوجهه كراهة لما سمع منهم ، وذهب إلى بيت الأحران ، وهاج حزنه على يوسف لكون مصيبتيه أصل مصائبه ، ولأنّه كان يعلم بحياة غيره دونه ، وكان يتسلّى برؤية بنيامين عن رؤيته ، لكونهما من أمّ واحدة ، وفي غاية المشاهدة ، فضاق قلبه ﴿وَقَالَ يَا أَسْفَى﴾ ويا حزنا ﴿عَلَى يُوسُفَ﴾ تعال فهذا أوانك. في الحديث : « لم تعط أمة من الامم إلّا الله وإنا إليه راجعون [عند المصيبة] إلّا أمة محمد ﷺ ، ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال : ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(١) .

وعن القمي رحمه الله : إنّ يعقوب لم يعلم الاسترجاع ، فمن هنا قال : ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(٢) .
عن الصادق عليه السلام : أنّه سئل : ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف ؟ قال : « حزن سبعين ثكلى بأولادها »^(٣) .

وروي أنّ يوسف قال لجبرئيل : أيها الروح الأمين ، هل لك علم بيعقوب ؟ قال : نعم ، وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن عليك ، قال : فما قدر حزنه ؟ قال : حزن سبعين ثكلى. قال : فما له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما أساء ظنّه بالله ساعة قطّ^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام في رواية - قيل له : كيف حزن يعقوب على يوسف وقد أخبره جبرئيل أنّه لم يمت ، وأنّه سيرجع إليه ؟ قال : « إنه نسي ذلك »^(٥) الخبر ، فأكثر البكاء عليه ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ ومحقت سوادهما ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ روي أنّه ما جفّت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين سنة^(٦) ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممسك عن النياحة وذكر ما لا ينبغي.

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُنَا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ

إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَخُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٥) و (٨٦)﴾

وقيل : يعني مملوءا من الغيظ على أولاده ، ممسكا له قلبه^(٧) ، أو متجرعا غصته لا يظهرها عند أحد ، ثمّ لامه أو سلّاه بعض ولده أو أقربائه و﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُنَا﴾ ولا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ تفتجعا عليه ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ ومريضا أو فاسد الجسم والعقل ﴿أَوْ تَكُونَ﴾ هالكا ﴿مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ من شدة الحزن عليه ﴿قَالَ﴾ يعقوب لا أشكو حزني عند أحد ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ وغمّي الذي لا يطاق له ﴿وَخُزْنِي﴾ وهمّي الذي يطاق له ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنّه لا أرجو كشف الغمّ الشديد ، ولا تفريج الغمّ

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٦ .

(٢ و ٣) تفسير القمي ١ : ٣٥٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٨ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٩ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٥٨ / ٢١٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٨ .

(٦) تفسير أبي السعود ٤ : ٣٠١ .

(٧) تفسير أبي السعود ٤ : ٣٠٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٨ .

الضعيف إلا منه ﴿وَوَ﴾ أنا ﴿أَعْلَمُ مِنْ﴾ لطف ﴿الله﴾ ورحمته بعباده ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولذا أرجو أن يرحمني ويكشف ما بي من الغم والهم.

وقيل : يعني أعلم بالهام الله ما لا تعلمون من حياة يوسف ولقائي إياه ^(١) .
قيل : إن الله أوحى إليه أنه سيوصل إليه يوسف ، ولكنه تعالى ما عيّن الوقت ^(٢) .
عن الصادق عليه السلام : « إن يعقوب عليه السلام لما ذهب منه بنيامين نادى : يا رب ، أما ترحمني ، أذهبت عيني ، وأذهبت ابني . فأوحى الله تعالى : لو أمتهم لأحييتهم لك حتى أجمع بينك وبينهما ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلتها ، وفلان وفلان إلى جانبك صائم لم تعطهم منها شيئا » ^(٣) .
وروى أنه عليه السلام رأى ملكا ^(٤) في منامه ، فسأله عن يوسف فقال : هو حي ^(٥) .
وقيل : علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخرّوا له سجدا ^(٦) .
وعن السدي : لما أخبره أولاده بسيرة ملك مصر أحسّت نفسه وقال : لعلة يوسف ^(٧) .
وعن الصادق عليه السلام : أن أعرابيا اشترى من يوسف طعاما فقال له : إذا مررت بوادي كذا فناد : يا يعقوب فإنه يخرج إليك شيخ ، فقل له : إني رأيت بمصر رجلا يقرئك السلام ويقول : إن وديعتك عند الله محفوظة لن تضيع . فلما بلغه الأعرابي حرّ يعقوب مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : هل لك [من] حاجة ؟ قال : لي ابنة عم - وهي زوجتي - لم تلد ، فدعا له فرزق منها أربعة أبطن في كل بطن اثنين ^(٨) .

وفي رواية : كان يعقوب يعلم أن يوسف حي لم يموت ، وأن الله سيظهره له بعد غيبته ، وكان يخبر بنيه ، وكان أهله وأقرباؤه يفتدونه على ذكر يوسف ^(٩) .

﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧)

وقيل : إنه عليه السلام لما علم أن بنيامين لا يسرق ، وسمع أن الملك ما آذاه وما أهانه ، غلب على ظنه أن الملك هو يوسف ^(١٠) ، فرجع إلى أولاده باللطف ، وتكلّم معهم باللين والرحمة ، وقال : ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا﴾ إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وفتشوا بأسماءكم وأبصاركم بعضا ^(١١) من أخبار ^(١٢) يوسف

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٨ .

(٣) الكافي ٢ : ٤٨٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٩ .

(٤) في تفسير أبي السعود وتفسير الصافي : ملك الموت .

(٥) تفسير أبي السعود ٤ : ٣٠٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٩ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٩ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٨ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٠٩ .

(٨) الخرائج والجرائح ٢ : ٩٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٩ .

(٩) إكمال الدين ١٤٢ / ٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٣٩ .

(١٠) تفسير الرازي ١٨ : ١٩٨ .

وَأَخِيهِ ﴿﴾ بنيامين ، وإِنَّمَا لم يذكر الثالث لكون إقامته بمصر اختيارية.

ثُمَّ رَغَّبَهُمْ فِي التَّفْتِيشِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ وَلَا تَقْنَطُوا ﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ وَرَحْمَتِهِ وَتَفْرِجِهِ وَتَنْفِيسِهِ .
عن الباقر ع : أَنَّهُ سَأَلَ أَنَّ يَعْقُوبَ حِينَ قَالَ لَوْلَدِهِ : ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ أَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَيٌّ وَقَدْ فَارَقَهُ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً ، وَذَهَبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ؟ قَالَ : « نَعَمْ إِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ [أَنَّهُ] حَيٌّ » .

قِيلَ : وَكَيْفَ عَلِمَ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ دَعَا فِي السَّحَرِ أَنْ يَهْبِطَ عَلَيْهِ مَلِكُ الْمَوْتِ ، فَهَبِطَ عَلَيْهِ تَرْيَالُ (١) - وَهُوَ مَلِكُ الْمَوْتِ - فَقَالَ لَهُ تَرْيَالُ : مَا حَاجَتُكَ يَا يَعْقُوبُ ؟ قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنِ الْأَرْوَاحِ تَقْبِضُهَا مَجْتَمِعَةً أَوْ مُتَفَرِّقَةً ؟ قَالَ : بَلْ مُتَفَرِّقَةً رُوحًا . قَالَ : فَمَرَّ بِكَ رُوحُ يُوسُفَ ؟ قَالَ : لَا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ ، فَقَالَ لَوْلَدِهِ : ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ (٢) .

ثُمَّ هَدَّدَهُمْ عَلَى الْيَأْسِ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُقُومُ الْكَافِرُونَ﴾ لِجَهْلِهِمْ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَكَمَالِ لُطْفِهِ وَبِعِبَادِهِ ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَلَمَعْرِفَتِهِمْ بِكَمَالِ صِفَاتِهِ يَرْجُونَهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَاصِيهِمْ أَكْثَرَ مِنَ الرَّمْلِ وَالْحَصَا وَعَدَدَ نَجُومِ السَّمَاءِ ، وَمَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى ، فَامْتَثَلَ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ أَمْرَهُ ، وَأَرَادُوا الرُّجُوعَ إِلَى مِصْرَ .

قِيلَ : كَتَبَ يَعْقُوبُ إِلَى يُوسُفَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ اللَّهُ ابْنِ إِسْحَاقَ [ذِيحِ اللَّهِ] ابْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ ، إِلَى عَزِيزِ مِصْرَ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَأَنَا أَهْلُ بَيْتِ مُوَكَّلٍ بَنَى الْبَلَاءِ ، أَمَّا جَدِّي إِبْرَاهِيمَ فَأَنَّهُ ابْتَلَى بِنَارِ نَمْرُودَ فَصَبَرَ ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا [وَأَمَّا أَبِي إِسْحَاقَ فَابْتَلَى بِالذَّبْحِ فَصَبَرَ ، فَفَدَاهُ اللَّهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ] ، وَأَمَّا أَنَا فَابْتَلَانِي اللَّهُ بِفَقْدِ وَلَدِي يُوسُفَ ، فَبَكَيْتُ عَلَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ بِصُرِّي وَنَحْلِ جَسَمِي ، وَقَدْ كُنْتُ أُنْسَلِي بِهَذَا الْغَلَامِ الَّذِي أَمْسَكَتَهُ عِنْدَكَ وَزَعَمْتَ أَنَّهُ سَارِقٌ ، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَسْرِقُ ، وَلَا نُلْدُ سَارِقًا فَإِنْ رَدَدْتَهُ عَلَيَّ وَإِلَّا دَعَوْتُ عَلَيْكَ دَعْوَةَ تَدْرِكُ السَّابِعَ مِنْ وَلَدِكَ . وَالسَّلَامُ (٣) .

وَعَنِ الصَّادِقِ ع : « أَنَّ يَعْقُوبَ كَتَبَ إِلَى يُوسُفَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

(١) فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ : تَرْيَالُ ، وَكَذَا الَّتِي بَعْدَهَا .

(٢) تَفْسِيرُ الْقَمِيِّ ١ : ٣٥٠ ، تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ ٢ : ٣٦٠ / ٢١٣٧ ، الْكَافِي ٨ : ١٩٩ / ٢٣٨ ، عَلَلُ الشَّرَائِعِ : ٥٢ / ١ ، تَفْسِيرُ الصَّافِيِّ ٣ : ٣٩ .

(٣) تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ ٤ : ٣٠٣ ، تَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ٤ : ٣١٠ .

إلى عزيز مصر ، ومظهر العدل ، وموفي الكيل.

عن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، صاحب نمrod ، الذي جمع له النار ليحرقه بها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وإنجاه منها.

اخبرك - أيها العزيز - أننا أهل بيت لم يزل البلاء [إلينا] سريعا من الله ليلبونا عند السراء والضراء ، وإن المصائب تتابعت على منذ عشرين سنة ، أولها أنه كان لي ابن سمّيته يوسف ، وكان سروري من بين ولدي وقرة عيني وثمره فؤادي و [أن] إخوته من غير أمه سألوني أن أبعثه معهم [يرتع ويلعب ، فبعثته معهم] بكرة فجاؤني عشاء ييكون ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، وزعموا أنّ الذئب أكله ، فاشتدّ لفقده حزني وكثر على فراقه بكائي حتّى ابيضت عينايا من الحزن ، وإنّه كان له أخ ، وكنت به معجبا ، وكان لي أنيسا ، وكنت إذا ذكرت يوسف ضممته إلى صدري فسكن بعض ما أجد في صدري ، وإنّ إخوته ذكروا أنك سألتهم عنه ، وأمرتهم أن يأتوك به ، فان لم يأتوك به منعته الميرة ، فبعثته معهم ليمتاروا لنا قمحا ، فرجعوا إليّ وليس هو معهم ، وذكروا أنّه سرق مكيال الملك ، ونحن أهل بيت لا نسرق ، وقد حبسته عنيّ ، وفجعتني به ، وقد اشتدّ لفراقه حزني حتّى تقوّس لذلك ظهري ، وعظمت به مصيبي مع مصائب تتابعت عليّ ، فمنّ عليّ بتخيلية سبيله وإطلاقه من حبسك ، وطيب لنا القمح ، واسمح لنا في السعر ، وأوف لنا الكيل ، وعجل سراح آل إبراهيم ^(١) .

ثم أعطى الكتاب ولده ، وأعطاهم بضاعة من صوف وسمن ^(٢) . وقيل : من الصنوبر والحبة الخضراء ^(٣) . وقيل : من سويق المقل والأقط ^(٤) . وقيل : الدراهم الزيوف ^(٥) .

وعن الرضا عليه السلام : « كانت المقل ، وكانت بلادهم بلاد المقل » ^(٦) .

فجاءوا إلى مصر ، فلمّا وردوها رأوا أحاهم الذي تخلف عنهم بمصر ، فذهبوا معه إلى يوسف

^(٧) .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾

﴿ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أعطوه كتاب يعقوب وخضعوا له و﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ والملك القادر

(١) مجمع البيان ٥ : ٣٩٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٤١ .

(٢ و ٣) تفسير البيضاوي ١ : ٤٩٤ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٣٠٣ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٤٩٤ ، تفسير أبي السعود ٤ : ٣٠٣ ، الأقط : لن محمض يجمد حتى يستحجر ويطبخ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٤٩٤ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٣ / ٢١٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٠ .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٠ .

القاهر ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الصُّرُءَ﴾ وأصابتنا الشدة من الجوع والضعف والهزال ﴿وَجُنْنَا﴾ إليك ﴿بِضَاعَةِ مُرْجَاةٍ﴾ وعوض غير قابل للقبول لغاية قلته وحقارته و﴿فَأَوْفٍ﴾ وأكمل مع ذلك بكرمك ﴿لَنَا الْكَفِيلُ﴾ من الطعام كما توفيه لغيرها بالأمتعة المرغوبة والدراهم الجياد ﴿وَتَصَدَّقْ﴾ ومن ﴿عَلَيْنَا﴾ بقبول ما عندنا من العوض القليل والمتاع الحقير باعطاء ^(١) الطعام الكثير ، أو باطلاق أخينا بنيامين - عن الصادق عليه السلام : « وتصدق علينا بأخينا بنيامين » ^(٢) - وهذا كتاب يعقوب أرسله إليك في أمره يسألك تخليته سبيله ، فمن به علينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي﴾ أحسن الجزاء ، ويثيب بفضله أعلى الثواب ﴿الْمُتَّصِدِّقِينَ﴾ على المحتاجين ، والمتفضلين على السائلين.

قيل : إثم لم يقولوا : إن الله يجزيك لأثم لم يعلموا بأنه مؤمن ^(٣) .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفُ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩)

ثم روي أنه لما سمع من إخوته عرض الحاجة الشديدة ، وإظهار غاية المسكنة ، وتضرعهم إليه وإلحاحهم لديه ، اغرورقت عيناه ، وسال دمه ، ولما قرأ كتاب أبيه ارتعدت فرائضه ، واقتشعر جلده ، وكثر بكائه ، وعيل صبره ، ولم يتمالك حتى عرفهم نفسه ^(٤) و﴿قَالَ﴾ لهم تصديقا لما أوحى الله إليه حين ألقوه في الحب من قوله : ﴿لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ ^(٥) ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من القبائح والشنائع ﴿يُوْسُفُ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين وهل تنبئهم بسوء ما أقدمتم عليه في حقها حين كانا مقهورين تحت أيديكم من ضريكم يوسف وإلقائه في الحب ، وإيدائكم أخيه ، ونسبتكم إياه إلى السرقة ، وشتمكم له ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ بشدة قبحه لغروركم ، أو بما يقول إليه أمر يوسف ، وإنما كان كلامه هذا شفقة عليهم ونصحا لهم في الدين ، وحثا لهم على التوبة ، لا معاتبة وتثريبا عليهم ، إيثارا لحق الله تعالى على حق نفسه.

﴿قَالُوا أَيْنَ نَلْبِثُكَ يَا يُوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ

بِتَقِيٍّ وَيُصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا

وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (٩٠) * (٩١)

(١) في النسخة : واعطاء.

(٢) مجمع البيان ٥ : ٣٩٩ ، نسبه إلى القيل ، تفسير الصافي ٣ : ٤٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣١١ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٣ .

(٥) يوسف : ١٢ / ١٥ .

ثم قيل : إنه **عَلَيْهِ** رفع الثَّقاب عن وجهه ، وألقى التاج من رأسه ، فنظر إخوته إلى وجهه ^(١) ، و**قَالُوا** تقريراً له واستعجاباً من مقامه : **﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ﴾** أخونا **﴿يُوسُفُ قَالَ﴾** نعم **﴿أَنَا﴾** أخوكم **﴿يُوسُفُ﴾** الذي ظلمتموني بأعظم ظلم.

ثم بالغ في تعريف نفسه وتفخيم بنيامين بقوله : **﴿وَهَذَا﴾** الجالس عندي **﴿أَخِي﴾** من أبي وامي **﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾** وأنعم **﴿عَلَيْنَا﴾** بالسلامة ، والعزة بعد الذلة ، والاجتماع بعد الفرقة.

عن ابن عباس : أي بكلِّ عزٍّ في الدنيا والآخرة ^(٢) .

ثم ذكر علة منة الله على نفسه وأخيه بقوله : **﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾** الله ، ويخافه في معاصيه ويحفظ نفسه من ارتكاب ما يسيئ به **﴿وَيُصْصِرُ﴾** على الطاعة ، ويتحمل أذى الناس يؤجر أجراً عظيماً **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾** ولا يبطل **﴿أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** وهم المتقون الصابرون.

ثم أن الإخوة خضعوا له و**قَالُوا** اعتذاراً من تفریطهم في حقِّه ، وتواضعاً له : **﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ﴾** وفضلك **﴿عَلَيْنَا﴾** بالعلم والحلم والعقل والفضل وحسن الخلق والخلق والسعادة في الدارين **﴿وَإِنْ كُنَّا﴾** في الإساءة إليك **﴿لَخَاطِئِينَ﴾** ومتعمدين بالذنب ، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢)

وعن الباقر **عَلَيْهِ** : « قالوا فلا تفضحنا ولا تعاقبنا اليوم واغفر لنا » ^(٣) . **﴿قَالَ﴾** يوسف لهم كرماً وصفحاً : يا إخوتي **﴿لَا تَثْرِيبَ﴾** ولا تقصير ولا توبيخ **﴿عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** فيما فعلتم بي فضلاً عن العتاب والعقوبة.

وقيل : اليوم متعلق بما بعد ^(٤) فالآية اليوم **﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾** ويستتر ذنوبكم **﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**

روي أنَّ رسول الله **ﷺ** أخذ بعضادتي ^(٥) باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش : « ما تروني فاعلوا بكم ؟ »

قالوا : نظنّ خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال : « أقول ما قال أخي يوسف : **﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾** » ^(٦) .

روي أنَّه لما قرأ الكتاب - كتاب أبيه - بكى وكتب في جوابه :

بسم الله الرحمن الرحيم.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٤ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٣ / ٢١٣٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٤١ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٦ .

(٥) عضادتا الباب : خشبتان تكونان على جانبيه مثبتتان في الحائط.

(٦) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣١٣ .

إلى يعقوب إسرائيل الله من ملك مصر.

أما بعد ، أيها الشيخ ، فقد بلغني كتابك وقرأته وأحطت به علما وذكرت فيه آباءك الصالحين ، وذكرت أنكم أصحاب البلايا ، فأنهم ابتلوا وصبروا وظفروا ، فاصبر كما صبروا ، والسلام .
فلما قرأ يعقوب الكتاب قال : والله ما هذا كتاب الملوك ، ولكنه كتاب الأنبياء ، ولعل صاحب الكتاب هو يوسف (١) .

روي أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا إليه : أنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشيا ، ونحن نستحي منك بتفريطنا فيك . فقال يوسف : إن أهل مصر - وإن ملكت فيهم - كانوا ينظرون إليّ بالعين الأولى ، ويقولون : سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت بكم الآن ، وعظمت في العيون ، حيث علم الناس أنكم إخواني ، وأني من حفدة إبراهيم (٢) .

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْثَوِي بِأَهْلِكُمْ﴾

أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴿﴾

ثم قيل : إنه عليه السلام سأل إخوته عن أبيه ، فقال : ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : ذهب عيناه . فأعطاهم قميصه الذي علّق عليه يعقوب كالتّيممة (٣) حين خروجه مع إخوته ، وقال لهم : يا إخواني ﴿اذْهَبُوا﴾ (٤) معكم ﴿بِقَمِيصِي هَذَا﴾ إلى كنعان ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ واطرحوه ﴿عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ فان فعلتم ذلك يردّ الله إليه عينه ﴿يَأْتِ﴾ إلى حال كونه ﴿بَصِيرًا﴾ وقيل : بصيرا ، يعني يصير بصيرا (٥) .

روي عن النبي ﷺ قال : « أما قوله : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ فإن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار ، أنزل الله جبرئيل بقميص من الجنة ، وطنفسة (٦) من الجنة ، فألبسه القميص ، وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يحدّثه ، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكساه يعقوب يوسف ، فجعله في قسبة من فضة وعلّقها عليه مخافة من إخوته ، فألقي في الحبّ والقميص في عنقه ، وكان فيه ريح الجنة ، ولا يقع على مبتلى أو سقيم إلّا صحّ وعوفي (٧) .

ثم هيأ يوسف أسباب مسافرة أبيه وجميع أقاربه من كنعان إلى مصر ومؤنتهم ، فأعطاهم إخوانه ، قال لهم : اذهبوا إلى كنعان ﴿وَأُنْثَوِي بِأَهْلِكُمْ﴾ وأقاربكم ومن اتصل بكم من النساء والذراري والعييد

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣١٣ .

(٣) التّيممة : ما يعلق في العنق لدفع العين .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٦ .

(٦) الطنفسة : البساط ، والتمرة التي فوق الرحل .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٤ .

والاماء ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يشدّ منهم أحد.

روى أن يهودا حمل القميص وقال : أنا أحزنت أبي بحمل القميص المطلّخ بالدم إليه ، فافرحه كما أحزنته ، فحمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه ، وكانت المسافة ثمانين فرسخا ^(١) .

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتْ﴾ وجاورت ﴿الْعِيرُ﴾ وقافلة الإخوان من حيطان بلد مصر وعمرانه ، هاجت الريح ، فحملت ريح القميص من مسافة ثمانين فرسخا.

قيل : إنّ ريح الصّبا استأذنت ربّها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص ، فأذن لها ، فأتته بها ، ولذا يستروح كلّ محزون بريح الصّبا ، ويشتمّها المكروب فيجد بها روحا ، فلمّا اتصلت بيعقوب وجد ريح الجنّة ، فعلم أنّه ليس في الدنيا من ريح الجنّة إلّا ما كان من ذلك القميص ^(٢) ، فلذا ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حوله من الأهل والأرقاب : ﴿إِنِّي﴾ والله ﴿لَأَجِدُ﴾ وأشمّ ﴿ريح﴾ قميص ﴿يُوسُفَ﴾ ابني ﴿لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ وتنسبوني إلى السّفه أو الخطأ في الحواسّ بسبب الحرم ، أو إلى الكذب في القول لصدّقتموني.

عن الصادق عليه السلام : « وجد يعقوب ريح قميص إبراهيم حين فصلت العير من مصر وهو بفلسطين » ^(٣) .

وعن العياشي مرفوعا : « أنّ يعقوب وجد ريح قميص يوسف من مسيرة عشر ليالي ، وكان يعقوب بيت المقدس ، ويوسف بمصر ، وهو القميص الذي نزل على إبراهيم من الجنّة » الخير ^(٤) .
وعنه عليه السلام : « كان قميص إبراهيم الذي نزل ^(٥) على إبراهيم من الجنّة في قسبة من فضّة ^(٦) ، وكان إذا لبس كان واسعا كبيرا ، فلمّا فصلوا ويعقوب بالرملة ويوسف بمصر ، قال يعقوب : إنّني لأجد ريح يوسف ، يعني ريح الجنّة » ^(٧) الخير.

قيل : لما انقضت أيام المحنة ، أوصل الله إليه ريح يوسف من المكان البعيد ، ومنع من وصول خبره إليه مع قرب إحدى البلدتين من الاخرى في مدّة ثمانين سنة ، وذلك دليل على أنّ كلّ سهل في زمان المحنة صعب ، وكلّ صعب في زمان الاقبال سهل ^(٨) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٦ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ٤٠٢ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٥ / ٢١٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٦ .

(٥) في المصدر : كان القميص الذي انزل به .

(٦) زاد في المصدر : أو حديد .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٥ / ٢١٤٥ .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٨ .

﴿قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾

﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٥) وَ (٩٦)﴾

فلما سمع الحاضرون عنده هذا الكلام منه مع اعتقادهم موت يوسف ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ﴾ يا يعقوب ﴿لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وانحرافك عن الصواب الذي كنت عليه من زمان فقد يوسف باعتقادك حياته ، وإفراطك في حبه وذكره ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ﴾ يهودا الذي هو ﴿الْبَشِيرُ﴾ ليعقوب بحياة يوسف وسلطنته ، كما عن الصادق عليه السلام ^(١) ، وأتى بالقميص ﴿أَلْقَاهُ﴾ وطرحه ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وقيل : إنّ يعقوب أخذ القميص من يهودا وألقاه على وجهه ﴿فَارْتَدَّ﴾ ورجع إلى ما كان عليه من كونه ﴿بَصِيرًا﴾ بقدرة الله وفضله ^(٢) .

قيل : لما عظم فرحه وزالت أحزانه ، عادت قوة بصره ، و﴿قَالَ﴾ لولده وأهله : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ﴾ ^(٣) حين لمتموني على ذكر يوسف ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ بالهام ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿اللَّهِ﴾ وتفضّله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وفرحي بلفائه.

عن الصادق عليه السلام : « كتب عزيز مصر إلى يعقوب : أما بعد ، فهذا ابنك [يوسف] اشتريته بثمان بخرس دراهم معدودة واتّخذته عبداً ، وهذا ابنك بنيامين قد سرق فاتّخذته عبداً » .

قال : « فما ورد على يعقوب شيء أشدّ عليه من ذلك الكتاب ، فقال للرسول : مكانك حتى اجيبه ، فكتب إليه يعقوب : أما بعد ، فقد فهمت كتابك بأنك اتّخذت ابني بثمان بخرس ، واتّخذته عبداً ، وأنتك اتّخذت ابني بنيامين وقد سرق ، واتّخذته عبداً ، فأتنا أهل بيت لا نسرق ، ولكنا [أهل بيت] نبتلى ، وقد ابتلي أبونا إبراهيم بالنار فوقاه الله ، وابتلي أبونا إسحاق بالذبح فوقاه الله ، وإني قد ابتليت بذهاب بصري وذهاب ابني ، وعسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » .

قال : « فلما ولى الرسول عنه رفع يديه إلى السماء ، ثم قال : يا حسن الصّحبة ، يا كريم المعونة يا خيراً كلّهُ ، اثنتي بروح ^(٤) وفرج من عندك ، فما انفجر عمود الصّبح حتّى أتني بالقميص وطرح على وجهه ، فردّ الله عليه بصره ، وردّ عليه ولده ^(٥) » .

روي أنّ يوسف وجّه إلى أبيه جهازاً كثيراً ومأني راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين ، فتهيأ [يعقوب] للخروج إلى مصر ^(٦) .

(١) إكمال الدين : ١٤٢ / ٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٣ .

(٢) و (٣) تفسير الرازي ١٨ : ٢٠٩ .

(٤) زاد في تفسير الصافي : منك .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٦ / ٢١٥١ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٤ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٩ .

وعن الباقر عليه السلام - في رواية - « وردّهم إلى يعقوب في ذلك اليوم ، وجّهّهم بجميع ما يحتاجون إليه ، فلمّا فصلت غيرهم من مصر ، وجد يعقوب ريح يوسف ، فقال لمن بحضرته من ولده : إنّي لأجد ريح يوسف لو لا أن تفتّدون. قال : وأقبل ولده يحثّون السير بالقميص فرحا وسرورا [بما رأوا] من حياة يوسف والملوك الذي أعطاه الله ^(١) ، فكان مسيرهم من مصر إلى بلد يعقوب تسعة أيام [فلمّا أن جاء البشير ألقى القميص على وجهه ، فارتدّ بصيرا] وقال لهم : ما فعل بنيامين ؟ قالوا : أحلفناه عند أخيه صالحا ، فحمد الله يعقوب وسجد لرّبّه شكرا ، ورجع إليه بصره ، وتقوّم ظهره ، وقال لولده : تحوّلوا إلى مصر ^(٢) بأجمعكم في يومكم هذا ^(٣) .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٧) و (٩٨)﴾

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا﴾ بما فعلنا بك ويوسف وبنيامين ﴿خَاطِئِينَ﴾ ومتعمدين بالذنوب ولو لا استغفارك لنا لكنّا هالكين ﴿قَالَ﴾ أبوهم : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ البتّة فيغفر لكم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائبين.

عن الصادق عليه السلام ، قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : خير وقت دعوتكم الله عزّ وجلّ فيه الأسحار » وتلا هذه الآية في قول يعقوب : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وقال : « أخرهم إلى السحر » ^(٤) . وفي رواية عنه عليه السلام : « أخره إلى السحر ليلة الجمعة » ^(٥) .

وعنه عليه السلام أيضا : « أخرهم إلى السحر ، وقال : يا ربّ إنّما ذنبهم فيما بيني وبينهم. فأوحى الله [إنّي] قد غفرت لهم » ^(٦) .

وعنه عليه السلام أنّه سئل [عن يعقوب أنّه] لما قال له بنوه : ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قال ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ فأخّر الاستغفار لهم ، ويوسف لما قالوا [له] : ﴿تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنَّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ قال لا تثرّب عليّكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ^(٧) ؟

قال : « لأنّ قلب الشاب أرقّ من قلب الشيخ ، وكانت جناية ولد يعقوب على يوسف ،

وجنايتهم

(١) في تفسير العياشي : من حال.

(٢) زاد في تفسير العياشي : والعزّ الذي صاروا إليه في سلطان يوسف.

(٣) في تفسير العياشي : تحمّلوا إلى يوسف.

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٨ / ٢١٥٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٥٠ .

(٥) الكافي ٢ : ٣٤٦ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٦٠ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٩ / ٢١٥٤ ، مجمع البيان ٥ : ٤٠٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٦٠ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٨ / ٢١٥٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٦٠ .

(٨) يوسف : ١٢ / ٩١ و ٩٢ .

على يعقوب [إنما] كانت بجنايتهم على يوسف ، فبادر يوسف إلى العفو [عن حقه] ، وأخّر يعقوب العفو لأنّ عفوه [إنما] كان عن حقّ غيره ، فأخّروهم إلى السحر ليلة الجمعة » ^(١) .

وعن الشّعبي ، قال : « قال : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال : أسأل يوسف ، فان عفا عنكم استغفر لكم ، فأخّر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف » ^(٢) .

ثمّ أُنْهَم خرجوا من كنعان متوجّهين إلى مصر ، فلما دنوا منه أخبر بذلك يوسف ، فاستقبلهم مع الملك الأكبر ريثان في أربعة آلاف من الجند ، وقيل : في ثلاثمائة ألف فارس والعظماء وأهل مصر ، ومع كلّ فارس جتّة من فضة وراية من ذهب ، فتزينت الصحراء بهم ، واصطفوا صفوفاً ، وكان الكلّ غلماناً يوسف ومراكبه ، وصعد يعقوب وأولاده تلاً نظروا إلى الصحراء مملوءة من الفرسان ، مزينة بالألوان ، فتعجّب من ذلك فقال له جبرئيل : انظروا إلى الهواء ، فإنّ الملائكة قد حضرت سروراً بجالكم ، كما كانوا محزونين مدّة لأجلكم ، ثمّ نظر يعقوب إلى الفرسان فقال : إنّ فيهم ولدي يوسف : فقال جبرئيل : هو ذاك فوق رأسه الظلّة ، فلم يتمالك أن دفع نفسه عن البعير ، فجعل يمشي متوكّفاً على يهودا ، فقال جبرئيل : يا يوسف ، إنّ أباك يعقوب قد نزل لك فانزل له منزلاً ، فنزل من فرسه ، وجعل كل واحد منهما يعدو إلى الآخر ، فلما تقرّبا قصد يوسف أن يبدأ بالسلام ، فقال جبرئيل : لا ، حتى يبدأ يعقوب به لأنّه أفضل وأحقّ . فابتدأ يعقوب بالسلام ، وقال : السّلام عليك يا مذهب الأحزان ، فتعانقا وبكيا سروراً ، وبكت ملائكة السماء ، وماج الفرسان بعضهم في بعض وصهلت الخيول وسبّحت الملائكة ^(٣) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ يوسف لما قدم على ^(٤) الشيخ يعقوب دخله عزّ الملك فلم ينزل إليه ، فهبط عليه جبرئيل ، فقال : يا يوسف ، ابسط راحتك ، فخرج منها نور ساطع ، فصار في جوّ السماء » فقال يوسف : يا جبرئيل ، ما هذا النور الذي خرج من راحتي فقال : نزع النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب ، فلا يكون في عقبك نبي » ^(٥) .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾

آمِنِينَ (٩٩) ﴿﴾

(١) علل الشرائع : ٥٤ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٩ .

(٤) في الكافي وتفسير الصافي : عليه .

(٥) الكافي ٢ : ٢٣٥ / ١٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٧ .

ثم قيل : إنه هيا بيتا في خارج مصر أو مضربة هناك قعد يوسف فيه ^(١) وقيل : كان له في خارج مصر قصر رفيع ، فلما استقبل أبويه أنزلهم هناك أولا ﴿فَلَمَّا﴾ جاء يعقوب وزوجته اسمها أليا أو ياميل ، وكانت خالته ومريته بعد أمه راحيل ، ولعلّه كان يقول لها أم وسائر إخوته ﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ في القصر أو البيت أو المضربة ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ يعقوب وراحيل ، أو خالته التي كانت بمنزلة أمه ، وعانقهما ثم قام ﴿وَقَالَ﴾ لأبويه وإخوته وأقاربه ^(٢) : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ حال كونكم ﴿آمِنِينَ﴾ من الجوع وإساءة الجبابرة إليكم وسائر المكارة.

قيل : إنهم كانوا من قبل يخافون ملك مصر وجبابرته ، ولا يدخلونها إلا باجازههم ، وكانوا اثنين وسبعين رجلا وامرأة ، فدخلوا جميعا مصر ^(٣) . و [عن] القمي : لما واثى يعقوب وأهله وولده مصر قعد يوسف على سريرته ، ووضع تاج الملك على رأسه ، فأراد أن يراه أبوه على تلك الحالة ، فلما دخل عليه أبواه لم يقم لهما ^(٤) .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وأجلسهما على السرير المختص به إكراما لهما ، بعد أن تواضع له أبواه وإخوته ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾ على الأرض حال كونهم ﴿سُجْدًا﴾ له تحية ومكرمة.

قيل : إنّ السجود كان في ذلك الزمان بمنزلة المصافحة وتقبيل اليد في هذا الزمان ^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « كان سجودهم ذلك عبادة لله » ^(٦) .

قيل : يعني لأجل وجدانه ولقائه سجدوا شكرا لله ، وجعلوا يوسف كالقبلة. وقيل : إنه لم يسجد

له أبواه بل إنما سجد له إخوته ^(٧) ، والمراد في تعبير الرؤيا من سجود الأبوين تعظيمهما له.

وقيل : إنما سجد يعقوب لأجل أن لا يستنكف من السجود له أنفة واستعلاء عليه. وقيل : إن

الله أمر يعقوب بالسجود له لحكمة لا يعلمها غيره ، كما أمر الملائكة بالسجود لآدم ^(٨) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٠ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٠ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٠ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٠ / ٢١٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٨ .

(٧) تفسير الرازي ١٨ : ٢١٢ .

(٨) تفسير الرازي ١٨ : ٢١٣ .

عن ابن عباس : أنَّ يوسف لما رأى سجود أبويه وإخوته له ، هاله ذلك ، واقتشعر جلده منه ﴿وَقَالَ﴾ ليعقوب : ﴿يَا أَبَتِ هَذَا﴾ السجود ﴿تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ التي رأيتها ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمن الصبي ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وصدقا ومطابقة لما وقع الآن بعد أربعين سنة ، أو ثمانين ، أو عشرين .
وعن الباقر عليه السلام : « لما دخلوا على يوسف في دار الملك ، اعتنق أباه وبكى ، [ورفع] ورفع حالته على سرير الملك ، ودخل منزله فادّهن واكتحل ، ولبس ثياب العزّ والملك ، ثم خرج إليهم ، فلمّا رأوه سجدوا [جميعا] له إعظاما وشكرا لله ، فعند ذلك قال : ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ^(١) .

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ ربي صنيعه ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وإمّا لم يذكر خروجه من الحبّ لأن لا يستحي إخوته ، ولا يكون تثريبا عليهم ، ولا يتألم قلب أبيه بتذكّر إلقاءه في الحبّ ، ولأنّه كان الإحسان بإخراجه من السجن أتمّ ، لأنّه كان في الحبّ مع جبرئيل ، وفي السجن مع الكفار ، وإنّه بعد الخروج من الحب صار عبدا ، وبعد الخروج من السجن صار ملكا .

ثمّ ذكر الإحسان الثاني بقوله : ﴿وَجَاءَ بِكُمْ﴾ إلى ﴿مِنَ الْبَدْوِ﴾ والصحراء .
وقيل : إنّ البدو كان اسم موضع معمور من فلسطين قريبا من كنعان يسكنه يعقوب ^(٢) ، وكان ذلك الإحسان ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ﴾ وأفسد ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بتسويلاته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وفي هذا التعبير مبالغة في الإحسان إلى إخوته حيث نسب ما فعله الإخوة به إلى الشيطان ، وعبر عنه بالنزع .

ثمّ اتى على الله بقوله : ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ وذو إحسان خفيّ لعباده ومسبّب الأسباب ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾ وجوده بسهولة ، وإن كان عند العقول في غاية البعد والصعوبة .
ثمّ ذكر علّة لطف تدابير بقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الخصوصيات وخفايا الممكنات ﴿الْحَكِيمُ﴾ ومتقن في أفعاله ، آت بما هو الصواب والصالح لعباده .

عن الغزالي : لا يستحقّ اسم اللطيف إلّا من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دقّ منها ولطف ، ثمّ يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، ولا يتصوّر كمال ذلك في العلم والعقل إلّا الله تعالى ^(٣) .

عن الهادي عليه السلام : « قال يعقوب لابنه : أخبرني بما فعل إخوتك بك حين أخرجوك من عندي . قال : يا أبة ، أعفني من ذلك . قال : فأخبرني ببعضه . قال : إنهم لما أدنوني من الحبّ قالوا : انزع القميص .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٦٩ / ٢١٥٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٣ .

فقلت : يا إخواني ، اتقوا الله ولا تجردوني ، فسلّوا عليّ السكّين وقالوا : لئن لم تنزع لنذبحنّك ، فنزعت القميص وألقوني في الحبّ عريانا. قال : فشهِق يعقوب شهقة وأغمي عليه ، فلمّا أفاق قال : يا بنيّ حدّثني. قال : يا أبة أسألك بآله إبراهيم وإسحاق ويعقوب إلّا أعفيتني ، فأعفاه ^(١) .

وروي أنّ يوسف قال ليعقوب : [يا أبة] لا تسألني عن صنيع إخواني ، واسألني عن صنيع الله بي ^(٢) .

روي أنّ يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه ، فأدخله في خزائن الورق ^(٣) والذهب ، وخزائن الحلبيّ ، وخزائن الثياب ، وخزائن السلاح وغير ذلك ، فلمّا أدخله في خزائن القراطيس - وهو أول من عملها - قال يعقوب : يا بنيّ ، ما أعقّك ^(٤) ! عندك هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل ؟ ! قال : أمرني جبرئيل. قال : أو ما تسأله ؟ قال : أنت أبسط إليه مّيّ فأسأله. قال جبرئيل : الله أمرني بذلك لقولك : **﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّيْبُ﴾** قال : فهلا خفتني ^(٥) ؟

قيل : لما قدم يعقوب على يوسف وقد سأله أولاده أن يستغفر لهم قام في مصلاه إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة ، وكانت ليلة عاشوراء ، فلمّا فرغ رفع يديه وقال : اللهم اغفر جزعي على يوسف وقّله صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا به أحاهم. وقام يوسف خلفه يؤمّن ، وقام إخوانه خلفهما خاشعين ، فأوحى الله إليه : أنّ الله قد غفر لك ولهم أجمعين ، ثمّ لم يزل يدعو لهم كلّ ليلة جمعة مائة و ^(٦) نيف وعشرين سنة إلى أن حضرته الوفاة ^(٧) .

قيل : ولد ليوسف من راعيل الملقبة بزيلخا افرائيم وميشا وحمّة امرأة أيوب ، وولد لافرائيم نون ، ولنون يوشع فتى موسى ، فلمّا نزل يعقوب في قصر يوسف جاء أولاد يوسف فوقفوا بين يدي يعقوب ، ففرّج بهم وقبّلهم ، وحدّثه يوسف بحديثه مع زليخا ، وما كان بينه وبين زليخا ^(٨) ، وأخبره أنّ هؤلاء أولاده منها ، فدعاها ^(٩) يعقوب ، فحضرت وقبّلت يده ، وسألته زليخا أن ينزل عندها ، فقال : لا أرضى بزينتكم هذه ، ولكن اصنعوا لي عريشا من البردي والقصب مثل عريشي بأرض كنعان ، فصنعوا له عريشا كما أراد ونزل فيه في أتمّ سرور ^(١٠) .

وروي أنّ يعقوب أقام مع يوسف مائة وسبعا - أو أربعاً - وعشرين سنة ^(١١) ، وأوصى أن يدفنه

(١) تفسير القمي ١ : ٣٥٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٩ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٤٠٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٠ .

(٣) الورق : الفضّة.

(٤) في تفسير الرازي : ما أغفلك.

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٢١٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٣ .

(٦) في تفسير روح البيان : جمعة في.

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣١٨ .

(٨) في تفسير روح البيان : كان منه ومنها.

(٩) في تفسير روح البيان : فاستدعاها.

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٣ .

(١١) في تفسير الرازي ١٨ : ٢١٦ : أقام معه أربعاً وعشرين سنة.

بالشام إلى جنب أبيه إسحاق ، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج فوافق يوم وفاة عيص فدفنا في قبر واحد ، وكانا في بطن واحد ، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ثم عاد إلى مصر ، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ^(١) .

عن الصادق عليه السلام ، قال : « دخل يوسف في السجن وهو ابن اثني عشرة سنة ، ومكث فيها ثماني عشر سنة ، وبقي بعد خروجه ثمانين سنة ، فذلك مائة سنة وعشر سنين » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : أنه سئل كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر ؟ قال : « عاش حولين » .
قيل : فمن كان الحجة لله في الأرض ، أيعقوب أم يوسف ؟ قال : « كان يعقوب [الحجة] ، وكان الملك ليوسف ، فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت إلى أرض الشام فدفن في بيت المقدس ، فكان يوسف بعد يعقوب الحجة »

قلت : وكان [يوسف] رسولا نبيا ؟ قال : « نعم ، اما تسمع قول الله عز وجل : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ^(٣) .

أقول : لعل الرواية محمولة على أنّ يوسف لم يكن حجة على جميع الناس ، بل على غير يعقوب ، وإنما صار حجة على الجميع بعد موت يعقوب لوضوح أنه عليه السلام كان يوحى إليه ، وينزل عليه جبرئيل ، ويكلمه ويؤنسه ، ولا يكون ذلك إلا للنبي والرسول .
قيل : إنه عليه السلام لما جمع الله شمله ، وبلغ ملكه وأمره إلى الكمال ، علم أنه أشرف إلى الزوال فسأل الله الموت ^(٤) .

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

وقيل : إنه رأى أبيه في المنام ، فقال : يا يوسف ، إني مشتاق إلى لقاءك فأسرع إليّ إلى ثلاثة أيام . ثم انتبه من نومه ودعا إخوته ، وأوصى بوصاياهم ، وولي يهودا ملكه ، وأوصى إليه في حق أولاده ، ثم ناجى ربه وقال : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي﴾ ^(٥) مقدارا وقليلًا ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ والسلطنة الدنيوية ، وهو ملك مصر ﴿وَعَلَّمْتَنِي﴾ بالالهام والوحي شيئا ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وتعبير الرؤى ، أو قليلا من العلم

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٤ .

(٢) مجمع البيان ٥ : ٤٠٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٠ .

(٣) مجمع البيان ٥ : ٤٠٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٠ .

(٤ و ٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٤ .

بحقائق الأشياء والامور ، يا ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخالفهما بقدرتك وحكمتك ﴿أَنْتَ﴾ مع كمال الصفات ﴿وَلِيِّ﴾ والناظر في صلاحه ومدبر اموري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إذن ﴿تَوْفِّي﴾ واقبض روحي ، وأخرجني من الدنيا حال كوني ﴿مُسْلِمًا﴾ وموحدًا ومطيعًا لأحكامك ، مهذب الأخلاق ، كريم الصفات ، كاملاً من جميع الجهات ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ والأكملين في صفات العبودية ، والراقين في أعلى درجات المعرفة والانسانية من آبائي العظام ، وأوليائك الكرام ، واجعلني في زمرة ورفقائهم .

قيل : إنّ الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب الكمالية ^(١) .

قيل : ما تمتّى الموت نبي غير يوسف ^(٢) .

وقيل : إنّهُ ﷺ ناجى ربّه بعد ملاقة أبيه بتلك الكلمات تشكراً لنعم الله عليه ^(٣) .

وفي رواية عن الهادي ﷺ : « فسجد يعقوب وولده يوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ،

ألم تر أنه يقول في شكره ذلك الوقت : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ الآية ^(٤) .

قيل : إنّ يوسف ذكر رؤياه الناعية لزليخا ، ودعا بالدعاء ، فعلمت أنّ الله يقبل دعاءه ، وأن

الأمر يصير إلى الفرقة ، دعت الله أن يعجل وفاتها قبل وفاة يوسف ^(٥) .

وقيل : ماتت زليخا قبل وفاة يوسف مدة مديدة ، فحزن عليها ، ولم يتزوج ، ولما قريت وفاة

يوسف أوصى إلى ولده افرائيم أن يسوس الناس ^(٦) .

وقيل : إنّ يوسف خرج بأهله وولده وجميع من آمن معه من مصر ، ونزل عليه جبرئيل ، فخرق

له من النيل خليجاً إلى الفيّوم ^(٧) ، ولحق به كثير من الناس ، وبنوا هناك مدينتين ، وسمّوها الحرمين ،

وكان يوسف هناك سنين إلى أن مات ، فتخاصم المصريون في مدفنه من جانبي النيل كلّ طائفة أرادوا أن

يدفن يوسف في جانبهم تبرّكاً بقبره الشريف ، وجلبا للخصب حتّى همّوا بالقتال ، ثمّ تصالحوا على أن

يدفن سنة في جانب مصر ، وسنة أخرى في جانب آخر من البدو ، فدفن في الجانب المصري فأخصب

ذلك الجانب وأجذب الجانب الآخر من البدو ، ثمّ نقل إلى الجانب البدوي فأخصب ذلك الجانب

وأجذب الجانب الآخر المصري ، ثمّ اتفقوا على دفنه في وسط النيل ، وقدّروا ذلك بسلسلة ، وعملوا له

صندوقاً من مرمر ^(٨) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٥٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٤٩ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٦ .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٧ .

(٧) الفيّوم : موضع في مصر ، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٧ .

قيل : إنّ الله تعالى حين أمر موسى بالسّير ببني إسرائيل ، أمره أن يحمل عظام يوسف معه حتى يضعها في الأرض المقدّسة ^(١) .

قيل : إنّهُ ﷺ لما أدركته الوفاة أوصى أن يحمل إلى مقابر آبائه ، فمنع أهل مصر أوليائه من ذلك ، وكان نقل موسى عظامه للوفاء بما أوصى به فسأل موسى عمن يعرف موضع قبره ، فما وجد أحدا يعرفه إلّا عجوزا في بني إسرائيل ، فقالت له : يا نبي الله ، أنا أعرف مكانه وأدلك عليه إن أنت تخرجني معك ولم تخلفني بأرض مصر. قال : أفعل ذلك.

وقيل : إنّها قالت : أكون معك في الجنّة ، فكأنّه ثقل عليه ذلك فقبل له : أعطها طلبتها فأعطاه ، وقد كان موسى وعد بني إسرائيل أن يسير بهم إذا طلع القمر ، فدعا ربّه أن يؤخّر طلوع القمر حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل ، فخرجت به العجوز حتى أرته إياه في ناحية من النيل - وقيل : في مستنقع ماء في ناحية [من] النيل ، فقالت لهم : أنضبوا وارفعوا عنها الماء ففعلوا ، فقالت : احفروا فحفروا [وأخرجوه] .

وقيل : ذهب بموسى إلى عمود في شاطئ النيل في أصله سكة من حديد فيها سلسلة مربوطة بصندوق من حديد في وسط النيل ، فاستخرجه موسى وفتح الصندوق ، فوجد صندوقا من مرمر داخل في ذلك الصندوق الذي من الحديد فأخرجه ^(٢) .

وقيل : إنّهُ جاء موسى شيخ له ثلاثمائة سنة ، فقال له : يا نبي الله ، ما يعرف قبر يوسف إلّا والدتي. فقال له موسى : قم معي إلى والدتك ، فقام الرجل ودخل منزله ، وأتى بقعة فيها والدته ، فقال لها موسى : ألك علم بقبر يوسف ؟ قالت : نعم ، ولا أدلك على قبره ، إلّا إن دعوت الله أن يرّد عليّ شبابي إلى سبع عشرة سنة ، ويزيد في عمري مثل ما مضى ، فدعا لها موسى وقال لها : كم عمرك ؟ قالت : تسعة مائة سنة ، فعاشت ألفا وثمانمائة سنة ، فأدّته إلى ^(٣) قبر يوسف ، وكان في وسط النيل ليمرّ النيل عليه فيصل إلى جميع مصر ، فيكونوا شركاء في بركته ، فأخصب الجانبان ، وكان بين دخول يوسف مصر إلى يوم خروج موسى أربعمائة سنة ^(٤) .

وعن الصادق ﷺ : « أنّ الله أوحى إلى موسى بن عمران ، أن أخرج عظام يوسف من مصر ، فاستخرجه من شاطئ النيل ، وكان في صندوق مرمر ، فحمله إلى الشام ، فلذلك يحمل أهل الكتاب

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٧ .

(٢) في تفسير روح البيان : فاحتمله .

(٣) في تفسير روح البيان : فأرته .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٨ .

موتاهم إلى الشام ، وهو يوسف بن يعقوب ، وما ذكر الله يوسف في القرآن غيره ^(١) .

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ

يَمْكُرُونَ﴾ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٢) و (١٠٣)

ثم لما كان الأخبار المغيبات من أعظم المعجزات ، استدلل سبحانه بأخبار النبي الأمي الذي لم يجالس عالما ولم يقرأ كتابا على صدق نبوته بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ والأخبار التي لا يطلع مثلك يا محمد عليها بالأسباب العادية ، بل نحن ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ بتوسط جبرئيل ، لأنها منحصرة في السماع من المطلعين ، ومطالعة الكتب ، وهما منتفیان في حَقِّك بتسليم المخالف والموالف ، وفي الحضور عند وقوع القضية ، وهذا أيضا منتف بالضرورة لوضوح أنك ما كنت في ذلك الزمان في العالم ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ عند إخوة يوسف ، وحاضرا ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لا سيما ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ وحين عزموا على ما رأوا من إلقاء يوسف في الحب ، أو حين اتفقوا عليه مع كوثهم في غاية التستر فيه ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به بترغيبه في الخروج معهم إلى التفرج ، وبأبيه بترضيته خاطره في إرساله معهم ، فمع انتفاء الحضور عندهم ، وعدم كونك قارئا للكتب ، ومتعلما من العلماء ، ثبت كونك عالما بها بالايحاء إليك من الله ، ونبيا صادقا في دعوى نبوتك ، ومع ذلك ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ من اليهود والنصارى والمشركين ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ، وبالغت في دعوتهم وإظهار المعجزات لهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ بك لعنادهم وشدة لجاحهم وإصرارهم على إنكار نبوتك.

روي أَنَّ كَفَّارَ قَرِيْشٍ وَجَمَاعَةً مِنَ الْيَهُودِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ عَلَى طَبَقِ التَّوْرَةِ لَمْ يَسْلَمُوا ، فَحَزَنَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ تَسْلِيَةً لَهُ ^(٢) .

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا دِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ

بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٤) و (١٠٦)

ثم لما كان من دواعي التكذيب توهم طمع المال في المبلغ ، دفع الله هذا التوهم بقوله : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ يا محمد ، عند تبليغ المعارف والأحكام ﴿عَلَيْهِ﴾ شيئا ﴿مِنْ أَجْرِ﴾ ومال يعطونك ما يسأله

(١) من لا يحضره الفقيه ١ : ١٢٣ / ٥٩٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٥١ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٨ .

أهل الطمع على تعليماتهم ﴿إِنَّ﴾ القرآن وما ﴿هُوَ﴾ أو ما تبليغك ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعظة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عامة ،
وبعثنا لهم على سلوك سبيل النجاة ، وإِنَّمَا هو لي وعليّ أجره لا على الناس ، فلا مجال لتوهم شوب
غرضك في تبليغك بالدنيا.

ثم بالغ سبحانه في تسليية نبيه ﷺ في إعراض الكفار عنه وعدم اعتنائهم بمعجزاته بقوله :
﴿وَكَايْنٌ﴾ وكثير ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ وكم من دليل واضح على وجود الصانع الحكيم وتوحيده ﴿فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهؤلاء الكافرون المعاندون ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ ويشاهدونها ﴿وَهُمْ﴾ لا يلتفتون إليها ،
بل هم ﴿عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وبها لا يعتنون ، وفيها لا يتفكرون ، ولا يعتبرون بها.

قيل : لما سمع المشركون تلك الآية قالوا : إنا نؤمن بالله الذي خلق الأشياء ، فردّهم الله بقوله :
﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾^(١) ولا يعترفون بألوهيته ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ به في العبودية والطاعة.

عن ابن عباس ، أنّه قال : نزلت في تنبيه المشركين^(٢) ، لأنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك
، إلّا شريك هو لك ، تملكه وما ملك.
وعنه أيضا : هم الذين يشبهون الله بخلقه.

وعنه أيضا : أنّ أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لا شريك له ، والملائكة بناته ، فلم يوحّدوه ، بل
أشركوا وقال عبدة الأصنام : ربّنا الله وحده ، والأصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده
وعزير ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده لا شريك له والمسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس
والقمر : ربنا الله وحده ، وهؤلاء أربابنا ، وقال المهاجرون والأنصار : ربّنا الله وحده لا شريك معه^(٣) .

عن الباقر عليه السلام : « شرك طاعة وليس شرك [عبادة] »^(٤) .
وزاد القمي رحمه الله : والمعاصي التي يرتكبون ، فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا بالله في
الطاعة لغيره ، وليس باشتراك عبادة^(٥) .

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية : « يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك »^(٦) .
وعنه عليه السلام : « هم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها »^(٧) .
وعنه عليه السلام أيضا : « هو الرجل يقول : لو لا فلان لهلكت ، ولو لا فلان لأصبحت كذا وكذا ،
ولو لا فلان

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٢٩ .

(٢) في تفسير الرازي : تلبية مشركي العرب .

(٣) تفسير الرازي ١٨ : ٢٢٤ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٣ / ٢١٦٨ ، تفسير القمي ١ : ٣٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٢ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٢ .

(٦) الكافي ٢ : ٢٩٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٧) التوحيد : ٣٢٤ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

لضاع عيالي ، ألا ترى أنّه قد جعل الله شريكا في ملكه يرزقه ويدفع عنه » .

قيل : فيقول لو لا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت ؟ قال : « نعم ، لا بأس بهذا » ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « من ذلك قول الرجل : لا وحياتك » ^(٢) .

وعنهما عليهما السلام : « هو شرك النعم » ^(٣) .

وعن الرضا عليه السلام : « شرك لا يبلغ به الكفر » ^(٤) .

أقول : الوجه هو حمل الروايات على بيان عدم انحصار مدلول الآية بالشرك في العبادة ، وإنّ المراد منها جميع مراتب الشرك ولو بأن يرى مع الله غيره بقوله لغيره : وحياتك ، مع أنّ هذا الكلام ليس من الشرك في الطاعة.

﴿ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ ﴾ (١٠٧)

ثمّ هدّد الله سبحانه المشركين والكافرين بنبوّة نبيّه صلّى الله عليه وآله بقوله : ﴿ فَأَمِنُوا ﴾ مع كفرهم وشركهم من ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ وتنزل عليهم بسبب مشاققتهم الله ورسوله عقوبة ﴿ غَاشِيَةٌ ﴾ لهم منبسطة عليهم ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ بحيث لا ينجو منها أحد منهم ، كالصّاعقة والخسف والطوفان ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ وأهوال القيامة ﴿ بَغْتَةً ﴾ وفجأة ، وفي حال عدم كونهم متوقّعين لها ، وغير محتملين إتيانها ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئها ، ولاشغلاهم بالدنيا لا يلتفتون إليها ، وفيه تأكيد معنى البغته.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا

أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨)

ثمّ أنّه تعالى بعد تسليّه نبيّه صلّى الله عليه وآله وذمّ المشركين بإعراضهم عن الآيات الدالّة على توحيدهِ وكمال صفاته ، وتهديدهم عليه ، أمر نبيّه صلّى الله عليه وآله بالثبات على الدعوة إلى توحيدهِ رغما لانوفهم وعدم المبالاة بجحودهم بقوله : و ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمشركين والمكذّبين لك ﴿ هَذِهِ ﴾ السبيل التي أسلكها ، والطريق التي أنا فيها ﴿ سَبِيلِي ﴾ التي لا انحراف لي منها أبدا ما دمت حيا ، وهي أنّي ﴿ أَدْعُوا ﴾ جميع

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٤ / ٢١٦٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٢ / ٢١٦٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٤ / ٢١٧٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٣ / ٢١٦٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

أهل العالم من الأبيض والأسود والعرب والعجم ﴿إِلَى﴾ توحيد ﴿اللَّهِ﴾ ذاتا وصفة وأفعالا ، وإلى دينه وطاعته ، حال كوني ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ كاملة ، وحجة قاطعة ، وبرهانا واضحا ، بل على تنوير القلب وشهود به لما اعتقده وأدعو إليه ، ولا أكون متفردا بهذه الطريقة ، بل ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ من الأنبياء السابقين والأولياء اللاحقين والمؤمنين الكملين عليها.

روى العلامة في (نخب الحق) عن العامة قوله تعالى : ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ هو علي (١) .

عن الباقر عليه السلام : « ذاك رسول الله وأمير المؤمنين والأوصياء من بعدهما » (٢) .

وعنه عليه السلام : « عليّ أتبعه » (٣) .

وعن الجواد عليه السلام حين أنكروا عليه حادثة سنة قال : « وما تنكرون ؟ قال الله لنبيه

ﷺ : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الآية ، فو الله ما تبعه إلا عليّ وله تسع سنين ، وأنا ابن تسع سنين » (٤) .

ثم بالغ في الاعلان بتوحيد الله بتنزيهه عن الشرك بقوله : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ عما يقول الظالمون من الإشرار ، ثم بالتبري منه بقوله : ﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الناس ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين اتخذوا لله ضداً ونظيراً وولداً.

وفي رواية عن الصادق عليه السلام في تفسير ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ قال : « تنزيهه » (٥) .

وفي رواية أخرى ، قال : « أنفة الله ، أما ترى الرجل إذا عجب من شيء قال : سبحان

الله » (٦) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ

نَصْرُنَا فَجَنَّبِي مِنَ نَشَاءٍ وَلَا يَرْدُ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٠٩) و (١١٠)﴾

ثم لما كان من شبهات المشركين في نبوته ﷺ أن الله لو أراد أن يرسل رسولا لأرسل ملكا ، فردّ

الله عليهم بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى الناس ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على إرسالك لتبليغ التوحيد

والمعارف والأحكام وهداية البشر ﴿إِلَّا رَجُلًا﴾ مثل سائر الرجال يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ،

وإنما كانوا يمتازون من غيرهم بأننا كنّا ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ العلوم والمعارف

(١) نخب الحق وكشف الصدق : ١٩٦ .

(٢) الكافي ١ : ٣٥٢ / ٦٦ ، مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٣٧٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٣) روضه الواعظين : ١٠٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٤) الكافي ١ : ٣١٥ / ٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

(٥) الكافي ١ : ٩٢ / ١١ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٤ .

(٦) الكافي ٣ : ٣٢٩ / ٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٣ .

والأحكام لامتيازهم بكمال العقل ونزاهة النفس من الراذل ، وتزيّنهم بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ، وكانوا ﴿مِنْ أَهْلِ الْفُرَى﴾ من الأمصار والرساتيق ، لا البوادي ، ولا الملائكة ، ولا الجنة ^(١) ولا النساء ، ومع ذلك كيف يتعجب هؤلاء المشركون من إرسالك رسولا إليهم .

ثم استدلل سبحانه على رسالة هؤلاء الرجال بتعذيب مكذّبيهم بقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المشركون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ولم يسافروا إلى البلاد ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ بنظر الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ الامم المكذّبة ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بتكذيبهم أولئك الرجال المرسلين إليهم ، فإن آثار نزول عذاب الاستئصال عليهم باقية إلى الآن في محالهم وأماكنهم ، وفيه تحديد مكذّبي النبي ﷺ .

ثم لما كان عمدة الباعث على تكذيب الرسل حب الدنيا وزخارفها ، وعظمهم الله تعالى ورعّبهم في الآخرة بقوله : ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ ونعمها ^(٢) الباقية ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ما حسن من الدنيا ونعيمها لو كان فيها حسن وفضيلة ، وإما هي ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي ، واحتزوا من مخالفة الله وأحكامه ﴿أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المشركون الذين تدعون لأنفسكم العقل هذه الافضلية مع كمال وضوحها ، ولا تدركون هذه الخيرية مع بدايتها ، لأنّ العقل يحكم بالبديهة بأنّ الباقي وإن كان في غاية القلّة خير من الزائل وإن كان في غاية الكثرة ، مع أنّ نعم الآخرة أكثر وأهنأ من نعم الدنيا .

ثم لما هدّد سبحانه المشركين بالعذاب بقوله : ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وقد كانوا في أرغد عيش وطول عمر ، نّبه سبحانه على أنّ الحكمة مقتضية لتأخيرهم عنهم ، كما أخر نزوله على الامم السابقة المهلكة .

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ الذين كانوا قبلك من إيمان قومهم ، وانقطع رجاءهم من قبولهم التوحيد ودخولهم في دين الحق ، وقومهم قد تجرأوا في تكذيبهم ﴿وَوُظِّنُوا﴾ وتوهموا ﴿أَنَّهُمْ﴾ فيما أخبروا به على لسان رسلهم من نصر لرسولهم وهلاك أنفسهم العذاب الاستئصال ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ واجترأوا بما هو خلاف الواقع ﴿جَاءَهُمْ﴾ ونزل على أولئك الرسل ﴿نَصْرُنَا﴾ وإعانتنا لهم بنزول العذاب على قومهم ﴿فَنَجَّيْ﴾ من ذلك العذاب ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾ نجاته وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون بهم ، وهلك به غيرهم ممّن خالفهم وكذبهم ﴿وَلَا يَرُدُّ﴾ ولا يصرف ﴿نَاسُنَا﴾ وعذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والعاصين لنا بانكار التوحيد وتكذيب الرسل .

واعلم أنّ تفسير الآية المباركة بالوجه الذي ذكرنا بناء على القراءة المعروفة - وهي قراءة كذبوا بالتخفيف - سليم من الاشكال . وأما سائر التفسيرات التي ذكرها المفسّرون - وإن كان بعضها منقولا

(١) في النسخة : الأجنة .

(٢) في النسخة : ونعيمها .

عن ابن عباس ، وبعضها مرويا عن أئمتنا عليهم السلام - ففيها إشكالات عظيمة لا يمكن دفعها ، فلذا أعرضنا عن ذكرها ، وأطرحنا تلك الروايات لعدم صحتها واعتبارها.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١١١)

ثمَّ أنه تعالى بعد ذكر قصة يعقوب ويوسف مفصّلاً في هذه السورة المباركة ، وذكر قصص سائر الأنبياء فيها مجملاً وفي غيرها مفصّلاً ، بيّن الغرض من ذكرها بقوله : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ وبيان أحوالهم ، وكيفية دعوتهم ومعاملتهم مع أمهم ، ومعارضة أمهم لهم ، وابتلاء المعارضين لهم بالعذاب ﴿عِبْرَةً﴾ وعظة وفائدة عظيمة من معرفة الله بالقدرّة الكاملة والحكمة البالغة ، وغاية لطفه بعباده الصالحين ، وشدة قهره على الكفار والمجرمين ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة ، فأنهم الذين يعتبرون بها ويستفيدون منها.

ثمَّ مدح سبحانه كتابه المجيد المشتمل على تلك القصص بالصدق لتوقّف الاعتبار بها على العلم به بقوله : ﴿وَمَا كَانَ حَدِيثًا﴾ وقولا صادرا من البشر ﴿يُفْتَرَى﴾ على الله وينسب إليه كذبا ﴿وَلَكِنْ﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ﴾ مطلق الكتاب ﴿الَّذِي﴾ نزل من السماء ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومن قبل نزوله ، ومطابقا له ، أو سببا لكون الأخبار التي في الكتاب بنزول هذا القرآن في آخر الزمان صدقا ، لأنّه لو لم ينزل لكان جميع تلك الأخبار كذبا ، أو سببا لتصديق الناس نزول الكتب السابقة من الله لثبوت صحّة هذا القرآن المخبر بنزول التوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم من السماء ، لاشتمال هذا القرآن على الاعجاز بجهات عديدة دون سائر الكتب ، وانقطاع تواتر كون سائر الكتب نازلا من الله ، فلولا تصديق القرآن المشتمل على الاعجاز لها ، لم يكن لأحد طريق إلى تصديقها وأنّها ممّا أتى بها الرسل.

﴿و﴾ في القرآن يكون ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين ، بل تبين جميع ما يحتاج إليه البشر من العلوم والآداب ، لأنّه ما من علم إلّا وفيه أصله ، بل فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وإنّما يختصّ استفادتها عنه بالراسخين في العلم ، بل لا يعلمون شيئا إلّا من القرآن ﴿و﴾ يكون هو ﴿هُدًى﴾ ورشادا من الضلال لمن استهدى به ، ودلالة إلى جميع الخيرات الدنيوية والاخرية لمن تدبّر فيه واستدلّ به ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسببا للفوز بالمراتب العالية من الكمالات الانسانية وبالدرجات الرفيعة من القرب ، وبالنعم الدائمة والراحة الأبدية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به ، العاملون بما فيه ، فالكتاب الذي له هذه الصفات الجليلة والآثار الكريمة والبركات العظيمة ، لا يمكن أن يكون

باختلاق البشر ومن مفترياتهم على الله ، سيما إذا جاء به الآتي الذي لم يقرأ كتابا ولم يجالس عالما ، ولم يتلمذ عند أحد باتفاق من أهل الانصاف من الأحناء والأعداء.

عن الصادق عليه السلام : « من قرأ سورة يوسف في كل يوم ، أو في كل ليلة ، بعثه الله يوم القيامة وجماله على جمال ^(١) يوسف ، ولا يصيبه فزع يوم القيامة ، وكان من خيار عباد الله الصالحين » ^(٢) .
وزاد العياشي : « واومن في الدنيا أن يكون زانيا أو فحاشا » ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تعلموا نساءكم سورة يوسف ولا تقرئوهن إياها ، فإن فيها الفتن ، وعلموهن سورة التور ، فإن فيها المواعظ » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « يكره لمن تعلم سورة يوسف » ^(٥) .
الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها.

(١) في تفسير العياشي : كجمال ، وفي ثواب الأعمال : مثل جمال.

(٢) ثواب الأعمال : ١٠٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٥ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٢١ / ٢٠٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٥ .

(٤) الكافي ٥ : ٢١٦ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٥ .

(٥) الخصال : ٥٨٦ / ١٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٥ .

في تفسير سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يُؤْمِنُونَ (١)﴾

ثم لما نبّه سبحانه إجمالاً بقوله : ﴿وَكَايْنٌ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) إلى آخره ، على أن العالم مملوء من آيات توحيده وقدرته وحكمته وكمال صفاته ، ثم وصف في آخر السورة كتابه العزيز بأنه تفصيل كل شيء ، وكانت آيات أوائل سورة الرعد تفصيل الآيات السماوية والأرضية ، أردف سورة يوسف بها ، فابتدأها تيمناً وتبركاً بذكر أسمائه المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم أفتتحها بالحروف المقطّعات من قوله : ﴿الْمَر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان حكمة الابتداء بها^(٢) .

عن الصادق عليه السلام : « معناه أنا المحيي المميت الرازق »^(٣) .

وعن ابن عباس : أي أنا الله أعلم وأرى^(٤) .

وفي نقل آخر : أنا الله الملك الرحمن^(٥) .

ثم أنه تعالى بعد جلب القلوب بذكر الحروف إلى الاستماع ، شرع في بيان أهمّ المطالب ، وهو عظمة الكتاب المجيد ، الدالّ على صحّة نبوة نبيّه ﷺ وصحّة دين الاسلام بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ الآيات المرتبة في هذه السورة المباركة ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ المنزل عليك يا محمّد ، ليكون معجزة باقية لك إلى آخر الدهر ، أو آيات الكتاب المنير الذي هو اللوح ، أو الذي بشر الله الأنبياء بنزوله في آخر الزمان ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ في ذلك الكتاب من المعارف والأحكام والقصص والمواعظ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الذي يجب على الناس التمسك به والاتباع له ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وأغلبهم ، وهم

(١) يوسف : ١٢ / ١٠٥ .

(٢) راجع الطرفة (١٨) من مقدمة المفسر .

(٣) معاني الأخبار : ٢٢ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٤ .

(٥) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣٠ .

المتَّبِعُونَ للشَّهَوَاتِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به بغيا وحسدا واستكبارا وعنادا.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾

ثمَّ أنه تعالى بعد ذمِّ الأكثر بعدم الإيمان بالكتاب وما فيه ، وكان أهمُّ ما فيه الدعوة إلى التوحيد والمعاد ، [شرع] في الاستدلال عليهما بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ والمعبود بالاستحقاق هو القادر ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ على الأرض مسيرة خمسمائة عام على ما قيل ^(١) ، بقدرته القاهرة ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ واسطوانة مع غاية عظمة أجرامها ، وأنتم ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مرفوعة بلا عمد ، فلولا قدرة الله القاهرة لا ستحال رفعها وإبقاؤها مرفوعة بلا عمد.

وقيل : إنّ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعمد ، والضمير راجع إليها ، والمعنى أنّه تعالى رفع السماوات بغير عمد مرئية ^(٢) .

وعن الرضا عليه السلام « فتمَّ عمد ، ولكن لا ترونها » ^(٣) .

ويمكن أن يراد بالعمد غير المرئية قدرة الله تعالى. وقيل : إنّها معتمدة على جبل قاف ، وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولا يراه أحد ^(٤) ، وعليه يكون الاستدلال برفعه ووضعه على الجبل لوضوح عدم اقتضاء طبيعتها الرفع والوضع ، وإلا لاشتكت الأجسام فيها لاشتراك جميعها في مقتضيات الطبيعة ، ويمكن أن يكون عمدها كونها كروية ، فإنَّ كلّ جزء من الكرة معتمد على الأجزاء الأخر.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ سبحانه ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ واستولى على عالم الوجود بالقدرة والقهر والعلم والتدبير والحفظ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ مع عظم جرمهما تحت قدرته بأن سيّرهما بكيفية خاصة بارادته ، فلولا كونهما مقهورين تحت إرادة القادر لا متنع اختصاصهما بالحركة دون السكون ، واختصاص ﴿كُلٍّ﴾ منهما بحركة خاصة ، وكلّ منهما ﴿يَجْرِي﴾ ويسير ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وإلى مدّة معينة ، تتم فيها أدوارهما. قيل : هي القيامة التي تكوّن فيها الشمس ، وتتكدّر فيها النجوم ^(٥) ، وحينئذ تنقطع حركتهما ، وينقضي سيرهما.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٧٨ / ٢١٨٢ ، تفسير القمي ٢ : ٣٢٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣٢ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٤٢١ .

عن ابن عباس : للشمس مائة وثمانون منزلاً (١) ، فالمراد بـ ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا .
﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في عالم الوجود وينظّمه ، بأن يعطي كلّ موجود من المجرّدات والماديات والروحانيات والجسمانيات ما يحتاج إليه في بقائه وكماله ، ويخصّص كلا منهما بوضع وموضع وصفة وحلية مناسبة له ، وينظّم الدنيا بالإنجاد والاعدام ، والإمانة والإحياء ، والإغناء والإفقر وغيرها ، ولا يشغله شأن عن شأن ، فانظروا - أيّها العقلاء - كيف بلطفه ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ويبيّن الدلائل على وحدانيته وكمال قدرته وحكمته وسائر صفاته ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ والحضور في القيامة عند مدبر أموركم ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ اليقين بكمال قدرته وحكمته الموجبة لتنتزعه عن اللغو والعبث ، مستلزم لليقين بإعادة الخلق للحساب وجزاء الأعمال .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ

فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغِشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بالآيات السماوية ، استدللّ بالآيات الأرضية بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ الواحد القادر ﴿الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وبسطها من تحت الكعبة يوم دحو الأرض على الماء ، لتثبت عليها الأقدام ، ويعيش عليها الانسان ، وينقلب فيها الحيوان . ثمّ كانت تكفأ بأهلها كما تكفأ السفينة ، فأثقلها بأن خلق ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ بقدرته جبالا ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت كالأوتاد لها ، تمنعها عن الاضطراب والانكفاء .
وقيل : كان اضطرابها من مهابة الله وعظمته (٢) .

قيل : إنّ الله خلق الماء ، فأرسل عليه ريحا هفّافة ، فصفتت الريح الماء ، وضرب بعضه ببعض ، فأبرز منه حجارة في موضع الكعبة كأنّها قبة ، فبسط سبحانه من ذلك الموضع جميع الأرض طولا وعرضا (٣) .

وعن ابن عباس : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قبيس (٤) .

وقيل : أفضل الجبال جبل أحد ، لقوله ﷺ : « احد يحبّنا ونحبّه » (٥) .

ثمّ لما كانت الأنهار متولدة من الجبال ، أردفها بذكرها بقوله : ﴿وَأَنْهَاراً﴾ جارية كثيرة لحياة الأرض

(١) تفسير الرازي ١٨ : ٢٣٣ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٨ ، وأبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٨ .

ومن عليها.

قيل : إنّ الأبحرة تتصاعد من قعر الأرض فتقبل إلى الجبل فتحتبس ، فلا تزال تتناسب فتقلب ماء حتى تحصل مياه عظيمة ، ثمّ لكثرتها وقوتها تثقب الجبل ، وتسيل على الأرض ^(١) .
وقيل : إنّ الله ينزل الأمطار والثلوج فتشربها الأرض ، فتجتمع المياه الكثيرة في عروقها ، ثمّ تنشق عنها في المكان الذي تؤمر بالانشقاق ، فيه فتظهر على وجه الأرض ^(٢) .
وقيل : إنّ الله ينزل الأمطار والثلوج لانتفاع الخلق ، والمملك الموكل بالمياه ميكائيل وأعوانه ^(٣) .
أقول : الظاهر أن تكون الماء في الأرض يكون بكل واحد من السببين ، ولا ينحصر بأحدهما.
قيل : إنّ الأنهار العظيمة في الدنيا خمسة : الفرات ، ودجلة ، وسيحون بالهند ، وجيحون ببلخ ، والنيل بمصر ^(٤) .

ثمّ استدّل سبحانه بالنباتات المتولدة من الأرض والماء بقوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الشَّجَرِ﴾ كالتمر والعنب والمشمش والخواخوش ونظائرها ﴿جَعَلْ﴾ سبحانه وخلق ﴿فِيهَا﴾ بفضلها ﴿زُجْجِنِ اثْنَيْنِ﴾ وصنفين مختلفين بالطبع كالحارّ والبارد ، أو بالطعم كالخلو والحامض ، أو باللون كالأبيض والأحمر.
قيل : إنّ الله خلق من كلّ نوع في بدو الخلق اثنين لا أقل ولا أزيد ، كما خلق من نوع الانسان اثنين آدم وحواء ، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع ^(٥) .

ثمّ لما كان الليل والنهار موجودين بحركة السماوات والشمس ، وبهما ويتعاقبهما يتم النظام ويكمل الإنعام ، استدّل سبحانه بهما على قدرته وحكمته بقوله : ﴿يُغْشِي﴾ ويستتر الله ﴿الَّيْلُ﴾ وظلمته ﴿النَّهَارُ﴾ أو يلبس ظلمة الليل ضياء النهار فتذهب به.

ثمّ لما كان بعض الناس يسندون الحوادث إلى الاختلافات الحاصلة في أشكال الكواكب من غير تفكير ، نبّه سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من الحوادث ﴿لآيَاتٍ﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وحدانية الصانع وقدرته وحكمته ﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها حقّ التفكير ، لا لمن لا فكر له ولا تأمل ، وفيه دلالة على وجوب التفكير فيها ، فإنّ من نظر إلى فوائدها ومصالحها والحكم التي اعملت فيها ، لا مناصّ له من الإذعان بوجود صانع قادر واحد حكيم.

أمّا الأرض فمن حيث امتدادها ورخاوتها وملائمة طبعها لما عليها ، وكونها كالبساط لساكنيها ،

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٨ .

(٢ و ٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٥ .

وانشعاب المسالك والفجاج للمشاة في مناكبها وانفجار العيون ، وتكون المعادن فيها ، وخروج النباتات الكثيرة النافعة منها.

وأما الجبال فمن حيث رسوها وعلوها ، وخروج النباتات والمعادن والمياه الكثيرة منها ، وغيرها من منافعها التي لا تحصى.

وأما الأنهار فمن حيث كثرة منافعها وحياة الأرض وما عليها بها ، وحصولها في بعض الأماكن دون بعض.

وأما الثمار فمن حيث كثرة أنواعها ، واختلاف مقاديرها وألوانها وطعومها ، وصلابتها ولطافتها ، ومنافعها وخواصها وروائحها ، واختلاف قشورها في الكثرة والقلّة والغلظة والرقّة والخاصية ، واختلاف طبائع أجزاء كلّ منها من قشره ولحمه وعجمه ^(١) ومائه ، مع تكون مجموعها ومجموع شجرها من حبة واحدة وماء واحد وأرض واحدة وهواء واحد وإشراق شمس واحدة.

وأما الليل والنهار فمن حيث كثرة فوائدهما وكثرة اختلافهما في الفصول الأربعة في الطول والقصر. والحاصل أنّ الناظر في تلك الآيات بعين الاعتبار ، يرى وحدة مدبرها وقدرته وحكمته.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

ثمّ بالغ سبحانه في الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ وبقاع متلاصقات مختلفات في الصلابة والرخاوة ، والارتفاع والانخفاض ، وكثرة النباتات ^(٢) وقلّتها ، وقابلية الزرع وعدمها ، وصلاحتها العامة [لإنبات] الأشجار بعضها دون بعض وعدم صلوحها لها بالكلية ، وأمثالها. ولو لم يكن ذلك الاختلاف بارادة القادر الحكيم ، لامتنع تحقّقه لاشتراك القطعات في الجسمية والأرضية.

﴿و﴾ فيها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وبساتين كثيرة ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ مختلفة بالصنف واللون ﴿و﴾ منها ﴿زَرْعٌ﴾ مختلف ألوانه وصنوفه ﴿وَنَخِيلٌ﴾ مختلف بالصنف بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ ونخل له ساقان أو أكثر على أصل واحد ﴿و﴾ بعضها ﴿غَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ونخل له ساق واحد.

(١) العجم : جمع عجمة ، وهو نوى كلّ شيء كالزبيب والزمان والبلح وغيرها.

(٢) في النسخة : النبات.

وقيل : يعني بعضها متشابه ، وبعضها غير متشابه ، مع أنّ جميع القطعات والجنّات والزّرع والنخيل ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾^(١) وتنبت الزروع والأشجار في أرض واحدة.

روى العلامة في (نخب الحق) عن جابر ، وقال القاضي في (إحقاق الحق) : أنّ في (كشف الغمة) نقلا عن الحافظ أبي بكر بن مردويه ، عن جابر ، أنّه سمع النبي صلى الله عليه وآله يقول : « النَّاسُ مِنْ شَجَرٍ شَيْءٍ ، وَأَنَا وَأَنْتَ يَا عَلِيٌّ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ » ثم قرأ النبي ﷺ الآية^(٢) .

﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ بعد ذلك ﴿نُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِي الْأُكُلِ﴾ والثمر من حيث المقدار والشكل والطعم واللون والرائحة والخواصّ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الاختلاف بين القطع المتجاورة من الأرض وبين الأشجار المتّحدة في المنبت والهواء والماء وإشراق الشمس ﴿لآيَاتٍ﴾ واضحة وأدلة قاطعة على وجود الصانع القادر الحكيم ﴿لَقَوْمٌ يَفْقَهُونَ﴾ من غير حاجة إلى التفكّر.

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات قدرته المستلزمة لعدم عجزه عن إعادة الخلق للحساب وحكمته الملازمة لتنزّهه عن العبث ، أظهر غاية التعجّب من قول منكري المعاد بقوله : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ يا محمد ، أو أيّها الانسان من شيء في العالم ومن عجائب الدهر ﴿فَعَجَبٌ﴾ كلّ العجب ﴿قَوْلُهُمْ﴾ استبعادا للبعث : ﴿إِذَا كُنَّا﴾ بعد الموت ﴿تُرَابًا﴾ نبعث ؟ !

ثمّ أكّدوا الانكار وقالوا : ﴿أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ونحي مرة أخرى بعود أجسادنا وعود أرواحنا إليها ، مع أنّ الله خلقهم أولا بلا مثال من تراب أو من نطفة ، ومن الواضح أنّ خلقهم ثانيا من التراب أهون ﴿أُولَئِكَ﴾ المنكرون للمعاد هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ حيث أنكروا قدرته وحكمته وكذبوا وعده ﴿وَأُولَئِكَ﴾ تجعل ﴿الْأَغْلَالُ﴾ يوم القيامة ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ويسحبون في السلاسل.

وقيل : إنّ المعنى أنّ الكفر كالأغلال التي في الأعناق ملازم لهم^(٣) ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٢ .

(٢) نخب الحق وكشف الصدق : ١٩٥ ، إحقاق الحق ٣ : ٣٦٠ ، كشف الغمة ١ : ٣١٦ .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٤٢٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٣ .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد حكاية إنكارهم البعث حكى استهزاءهم بوعدهم النَّبيِّ ﷺ بالعذاب الدنيوي بقوله : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ ويطالبونك أن تسرع إليهم ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ والعذاب الدنيوي الذي تعددهم ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وانقضاء مدَّة العافية والإمهال.

قيل : إِنَّ النَّبيَّ ﷺ كلَّما هدَّد المشركين بعذاب القيامة أنكروا البعث ، وكلَّما هدَّدهم بعذاب الدنيا استعجلوه وقالوا : متى يجيئنا ؟ استهزاء وسخرية ، فيطلبون العذاب بدل العافية والرحمة ^(١) .

ثمَّ ردَّهم سبحانه بقوله : ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وفي الأزمنة السابقة على وجودهم ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ والعقوبات التي صارت مثلاً ، ونزلت على أمثالهم ، وبقيت آثارها ، فكيف لا يعتبرون بها مع اطلاعهم عليها ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ لا يعاجل في إهلاكهم ، لكونه تعالى والله ^(٢) ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وتجاوز ﴿لِلنَّاسِ﴾ مع إصرارهم ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ وعصيانهم ، وتماديهم في طغيانهم ، وإلَّا لما بقي على ظهر الأرض من دابة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ إذا حان حين العقوبة ، واقتضت حكمته تعذيبهم البتَّة ﴿لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والعذاب.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

هَادٍ (٧)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد حكاية إنكار المشركين البعث ونبوة النَّبيِّ ﷺ واستهزائهم به ، حكى تعنتهم عليه بقوله : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ أخرى ومعجزة باهرة زائدة على ما أتى بها من القرآن ، ونبوع الماء من أصابعه ، وحنين الجذع لفراقه ، وتسبيح الحصى في كفِّه ونظائرها ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ ثمَّ ردَّهم سبحانه بقوله : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ وواعظ لهم ومبين لهم المعارف ، من توحيد الله وقدرته وحكمته وكمال صفاته ، ومعلِّم لهم أحكام الإسلام وشرائعه ، وآت بما يثبت صدق دعواك من المعجزات ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ في الأعصار السابقة ﴿هَادٍ﴾ من قبل الله ومنذر لهم مثلك ، ولم يأتوا من المعجزات إلَّا مقداراً كافياً في إثبات نبوتهم ، وإن كان قومهم تعنتوا عليهم ، وإلَّا اللازم على الله إتمام الحجة وإعطاء النَّبيِّ ما يثبت نبوته ، ولا يحسن منه إجابة المتعنت لانجرارها إلى ما لا نهاية له ، أو أخذهم بعذاب الاستئصال ، وليس عليك إلَّا البلاغ ، فلا يضيق صدرك بما يقولون.

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٤ .

(٢) كذا ، ولا محلَّ للقسم في الآية.

عن ابن عباس : الهادي هو الله ^(١) .

وعنه أيضا : أنَّ المراد بالهادي هو عليّ عليه السلام ، قال : وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال : « أنا المنذر » ثمَّ أوماً إلى منكب عليّ وقال : « أنت الهادي يا عليّ ، بك يهتدي المهتدون » رواه الفخر الرازي ^(٢) وغيره من مفسري العامة ^(٣) .

وعن (المجمع) : لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : « أنا المنذر ، وعليّ الهادي من بعدي ، يا علي بك يهتدي المهتدون » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « رسول الله ﷺ المنذر ، ولكلّ زمان منّا هاد يهديهم إلى ما جاء به نبي الله ، الهادي ^(٥) من بعده عليّ ثمَّ الأوصياء واحدا بعد واحد » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « كلّ إمام هاد للقرن الذي هو فيهم » ^(٧) .
والقمي رحمته الله : هو ردّ علي من أنكر أنّ في كلّ عصر وزمان إماما ، وأنّه لا تخلو الأرض من حجة ^(٨) .

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ

بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٨) و (٩)﴾

ثمَّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته ، بيّن سعة علمه ، لكمال مدخليته في البعث وجمع ذرات تراب كلّ جسد لاعادة خلقه ، وغاية مدخليته في تهديد المعتنّين بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ تعالى بصفة علمه ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من الذكر والانثى ، والجميل والقبيح ، والطويل والقصير ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ وتنقصه من أعضاء الجنين ومدة حملها التي أقلها ستة أشهر ، وعدده الذي أقله واحد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام في أعضاء الجنين وتمايتها ، وفي مدة حملها التي أكثرها تسعة أشهر على ما هو المشهور المنصور ^(٩) . وقيل : عشرة أشهر ^(١٠) . وقيل : سنة ^(١١) ، وعند الشافعي أربع سنين ^(١٢) ، وعند مالك خمس سنين ^(١٣) ، وفي العدد ^(١٤) : وهو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة على ما قيل ^(١٥) .

عن أحدهما عليه السلام : ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ كلّ حمل دون تسعة أشهر ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ كلّ شيء يزداد

على

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٤ : ٧٢ ، تفسير النيسابوري ١٤ : ٦٨ (هامش الطبري) ، روح المعاني ١٣ : ١٠٨ ، وراجع : إحقاق الحق ٣ :

٨٨ - ٩٢ و ٥٣٢ و ١٤ : ١٦٦ - ١٧١ . (٤) مجمع البيان ٦ : ٤٢٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٥) في الكافي : نبي الله ، ثم الهداة . (٦) الكافي ١ : ١٤٨ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٧) الكافي ١ : ١٤٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ . (٨) تفسير القمي ١ : ٣٥٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٩ و ١٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٧ .

(١٤) أي عدد الأولاد في البطن الواحد .

(١٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٨ .

تسعة أشهر ، فكلّما رأت المرأة الدم في حملها من الحيض فأثّما تزداد بعدد الأيام التي رأت في حملها من الدم « (١) .

عن الصادق عليه السلام : ﴿ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أَنْثَى ﴾ الذكر والانثى ، ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ﴾ ما كان دون تسعة وهو غيض ، ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ ما رأت الدم في حال حملها ازداد به على تسعة أشهر « (٢) .
وفي رواية : ﴿ مَا تَغِيضُ ﴾ [ما] لم يكن حملا ، ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ الذكر والانثى جميعا « (٣) .
وعن القمي : ﴿ مَا تَغِيضُ ﴾ ما تسقط من قبل التمام ، ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ على تسعة أشهر « (٤) .
وقيل : ﴿ مَا تَغِيضُ ﴾ من دم الحيض ، ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فيه « (٥) .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ ﴾ وفي علمه وحكمه محدود ﴿ بِمِقْدَارٍ ﴾ وحدّ مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وجوده لا يجاوز ولا ينقص عنه ، وهو تعالى ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ ومطلع على كلّ مستور عن الحواس كالضمائر وما هو في ستر العدم ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ والحاضر عند الحواس ، وهو ﴿ الْكَبِيرُ ﴾ والعظيم الذي لا يعزب عن علمه شيء ﴿ الْمَتَعَالِ ﴾ والمستعلي على جميع الممكنات بقدرته .

في تحقيق معنى الكبير

قيل : إنّ الكبير هو ذو الكبرياء ، وذو الكبرياء عبارة عن كامل الذات ، وهو عبارة عن كامل الوجود وكمال الوجود ، وأنّه أزل وأبد « (٦) ، فإن كلّ موجود محدود بالعدم السابق واللاحق فهو ناقص ، ولذا يقال لمن طالت مدّة وجوده : إنّّه كبير ، ولا يقال : إنّّه عظيم ، فالكبير أعظم من العظيم ، فالدائم الأزلي الذي يستحيل عليه العدم أولى بأن يكون كبيرا ، وأيضا نقول : إنّ وجوده تعالى هو الوجود الذي يصدر منه كلّ وجود وموجود ، فان كان الذي تمّ وجوده في نفسه كاملا كبيرا ، فالذي فاض منه الوجود لجميع الموجودات أولى بأن يكون كاملا كثيرا ، وأمّا المتعال فهو المبالغة في العلى ، وهو الذي لا رتبة فوق رتبته ، فالعالي المطلق هو الذي له الفوقية بحسب الوجوب لا بالاضافة ، وبحسب الوجود الذي يقارنه إمكان النقص « (٧) .

وقيل : إنّ المتعال هو الذي تنزّه عن كلّ ما لا ينبغي ، فيدلّ على كونه تعالى قادرا على البعث الذي أنكره ، وعلى إثبات الآيات [التي] اقترحوها ، وعلى العذاب الذي استعجلوه ، وإثما يؤخّره لأجل

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٨٠ / ٢١٨٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٨١ / ٢١٩٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٨١ / ٢١٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٥٩ .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٥٠٢ .

(٦) في النسخة : أزل وأبدا .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣٤٩ .

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ

بِالنَّهَارِ (١٠)﴾

ثم بالغ سبحانه في تقرير سعة علمه بقوله : ﴿سَوَاءٌ﴾ عليكم ومستوفى علمه إن كان ﴿مِنْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ﴾ وأضره ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وأظهره.

عن ابن عباس : سواء ما أضرته القلوب ، وأجهرت به (٢) الألسنة (٣) .

وعن الباقر عليه السلام : « يعني السر والعلانية عنده سواء » (٤) . وكل من أسر وجهه ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ ومستتر ﴿بِاللَّيْلِ﴾ وفي الظلمات ﴿وَمَنْ هُوَ سَارِبٌ﴾ وبارز ﴿بِالنَّهَارِ﴾ وظاهر في الطرقات.

وقيل : المستخفي : الظاهر ، والسارب : المتواري (٥) .

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ

دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)﴾

ثم بين سبحانه أنه مع علمه بذاته بأعمال العباد وأحوالهم وقدرته على حفظهم ﴿لَهُ﴾ ملائكة ﴿مُعَقِّبَاتٌ﴾ من قبله تعالى يتعاقبون في حفظه وكلاءته ويحيطون به ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ في الليل والنهار ، يعدّون عليه أعماله وأقواله ، ويطلعون على أحواله و﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ من الآفات والمهلك ، ويكون حفظهم له ﴿مِنْ﴾ أجل ﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾ وحكمه به ومما أَرَادَهُ منهم.

وقيل : إنّ معنى (من) بمعنى باء ، والمعنى : يحفظونه بأمر الله (٦) .

وعن الصادق عليه السلام : « يحفظونه بأمر الله ، ومن ذا الذي [يقدر أن] يحفظ الشيء من أمر الله » (٧) .

وعن الباقر عليه السلام : ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يقول : بأمر الله من أن يقع في ركيٍّ (٨) أو يقع عليه حائط ، أو يصيبه شيء ، حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه ، ويدفعونه إلى المقادير » (٩) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٧ .

(٢) في تفسير الرازي : وأظهرته.

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٧ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٩ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٠ .

(٨) الركيّ : جنس للركبة ، وهي البئر ، وجمعها : ركاييا.

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٠ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أُنهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير ، فيخلّون ^(١) بينه وبين المقادير » ^(٢) .

وعن عمرو بن جندب ، قال : كنا جلوسا عند سعيد بن قيس بصفين إذ أقبل عليّ عليه السلام يتوكأ على عنزة ^(٣) له بعد ما اختلط الظلام ، فقال سعيد : أأمير المؤمنين . قال : « نعم » قال : أما تخاف أن يغتالك أحد ؟ قال : « إني لست من أحد إلّا ومعه من الله حفظه من أن يتردى في بئر ، أو يخرج من جبل ، أو يصيبه حجر ، أو تصيبه دابة ، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبين القدر » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام : « هما ملكان يحفظانه بالليل والنهار ^(٥) يتعاقبانه » ^(٦) .

وعن عثمان أنّه قال : يا رسول الله ، أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : « ملك عن يمينك يكتب الحسنات ، وهو أمين على الذي على الشمال ، فإذا عملت حسنة كتب عشرا وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال لصاحب اليمين : اكتب ، فيقول : لا ، لعنّ يتوب ، فإذا قال ثلاثا قال : نعم اكتب أراحنا الله منه ، فيئس القرين ، ما أقلّ مراقبته لله تعالى واستحياءه منّا ! وملكان من بين يديك ومن خلفك ، فهو قوله تعالى : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وملك قابض على ناصيتك ، فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا تجبرت قصمك ، وملكان على شفّيتك يحفظان عليك صلاتك عليّ ، وملك على فيك لا يدع أن تدخل الحيّة في فيك ، وملكان على عينيّك ، فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ آدمي ، تبدّل ملائكة الليل بملائكة النهار ، فهم عشرون ملكا على كلّ آدمي » ^(٧) .

وعنه عليه السلام : « يتعاقب فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر » ^(٨) .

قيل : فائدة كون الملائكة في جوانبه لحفظه ، ومعه لاحصاء أعماله وكتبتها ، أنّ الانسان إذا علم به وعلم جلالة الملك وعلوّ مقامه ، كان إلى الحذر من المعاصي أقرب ، وكذا يكون عظمة الربّ في نظره أجلى ، وفي قلبه أظهر ^(٩) .

وقيل : إنّ الملائكة يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ، ومسألتهم ربّهم أن يمهلهم

(١) في مجمع البيان : فيحيلون.

(٢) مجمع البيان ٦ : ٤٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٣) العنزة : أطول من العصا وأقصر من الرمح ، في أسفلها زجّ كزجّ الرمح ، يتوكأ عليها.

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٠ .

(٥) في تفسير القمي وتفسير الصافي : بالليل وملكان بالنهار.

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٠ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٨ .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ١٩ .

(٩) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠ .

رجاء أن يتوب (١) .

ونسب إلى ابن عباس أنه قال : إنّ المراد من المعقّبات الحرس والأعوان الذين يكونون حول الملوك والأمراء ليحفظونهم من أمر الله ، والمقصود بعثهم إلى أن يطلبوا الحفظ من الله ، ولا يعولوا في دفع البلايا على الأعوان والأنصار (٢) .

ثمّ ذكر سبحانه علّة أخرى لتأخير العذاب بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والتّعم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الشكر والأخلاق الحسنة والأحوال الحميدة بالإصرار على الكفر والصفات الرذيلة والأعمال القبيحة.

عن الباقر عليه السلام : « أنّ الله قضى قضاء حتما لا ينعم على عبده نعمة فيسلبها إتياء قبل أن يحدث العبد ذنبا يستوجب بذلك الذنب سلب تلك النّعمة ، وذلك قول الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ إلى آخره (٣) .

وعن السّجاد عليه السلام : « الذنوب التي تغيّر النّعم البغي على الناس ، والنزول عن المعادة (٤) في الخير واصطناع المعروف [وكفران النعم] وترك الشّكر » ثمّ تلا الآية (٥) .

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُبْحًا سَاءَ عَقَائِدُهُمْ وَقَبَاحُ أَعْمَالِهِمْ﴾ (٦) ﴿سُوءًا﴾ وعذابا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا دافع عنه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ على أمرهم يدفع عنهم ضرّهم وعذابهم المستحقّ. عن ابن عباس : لم تغن المعقّبات شيئا (٧) .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢)

ثمّ أنّه تعالى بعد التخويف بأنّه لا مردّ لعذابه ، ذكر الآيات الدالة على كمال قدرته الجامعة لجهتي النّعمة والتّقمة بقوله : ﴿هُوَ﴾ القادر الحكيم ﴿الَّذِي يُرِيكُمُ﴾ ويظهر لكم ﴿الْبَرْقَ﴾ واللمعة الحاصلة من السّحاب ، ليحدث في قلوبكم ﴿خَوْفًا﴾ من نزول الصاعقة عليكم ﴿وَطَمَعًا﴾ في نزول المطر النافع لكم. قيل : إنّ المراد حال كونهم خائفين منه وطامعين فيه (٨) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٢١ و ٢٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٨٢ / ٢١٩٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٤) في معاني الأخبار وتفسير الصافي : عن العادة.

(٥) معاني الأخبار : ٢٧٠ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٦) في النسخة : عقائده وقباحت أعماله.

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٢٣ .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ٢٣ .

قيل : يخاف منه من له فيه ضرر كالمسافر ، ومن في خزانة ^(١) التمر والزبيب ، ويطمع [فيه] من له نفع فيه ^(٢) .

وعن الرضا عليه السلام : « خوفًا للمسافر ، وطمعًا للمقيم » ^(٣) .

قيل : إنّ البرق مركّب من أجزاء مائية ، وأجزاء هوائية ونارية ، والغالب عليه هو الأجزاء المائية ، ومن الواضح أنّ الماء والنار ضدّان لا يمكن الجمع بينهما إلّا بقدرة الله القادر الحكيم ^(٤) .

﴿وَوُجِدَ﴾ هو ﴿يُنشِئُ﴾ ويخلق ﴿السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ بالماء . القمي : يعني يرفعها من الأرض ^(٥) .

قيل : إنّ السّحاب جسم مركّب من الأجزاء المائية وأجزاء هوائية ، وإتّما يحدث هذا المركّب في الجوّ بقدرة الله ^(٦) .

وقيل : إنّ أجزاء لطيفة مائية تتصاعد مع الأبخرة إلى الطبقة الباردة من الهواء ، فاذا وصلت إليها بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض ^(٧) .

أقول : قد مرّ بعض الكلام فيه ، وظاهر كثير من الروايات أنّه جسم غير سائر الأجسام ، يحمل الماء من الأرض أو من السماء ، وعلى أي تقدير فهو دالّ على قدرة الله تعالى ، فأنّه تعالى جعل لكلّ شيء سببا طبيعيا لتمييز التابع للعقل الناظر إلى ما وراء الطبيعة عمّن قصر نظره إلى الأسباب والمحسوسات ، ولا يتجاوز فكره عنها ، ومّا يدلّ على كونه بقدرة الله تأثير الدعاء في وجوده على ما شوهد بالتجربة .

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا

مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)﴾

ثمّ بيّن سبحانه عظّمته وكبريائه بقوله : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ مقرونا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ وثنائه ﴿و﴾ تسبّح ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ له ، خاضعين له ﴿مِنْ خِيفَتِهِ﴾ وخشيته لظهور أثر مهابته .

قيل : إنّ الرعد اسم ملك خلق من نور مهابته ، ويطلق على صوته الشديد ، يسوق السّحاب به كما يسوق الحادي الإبل لحدائه ، فاذا سبّح أوقع الهيبة على الخلق كلّهم حتّى الملائكة ^(٨) .

عن ابن عباس : أنّ اليهود سألت النبيّ صلّى الله عليه وآله عن الرّعد ما هو ؟ فقال : « ملك من الملائكة

موكّل

(١) في تفسير الرازي : وكمن في جرابه .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٢٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٢ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٩٤ / ٥١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢٤ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٦١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٦ و ٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٢ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٢ .

بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله . قالوا : فما الصوت الذي يسمع ؟ قال : « زجره السحاب » ^(١) .

وفي (الفقيه) : روي « أنّ الرعد صوت ملك أكبر من الذباب وأصغر من الزنبور » ^(٢) . وعن الصادق عليه السلام : « أنّه بمنزلة الرجل يكون في الإبل فيزجرها : هاي هاي ، كهيئة ذلك » ^(٣) . وعن النبي صلى الله عليه وآله : أنّه إذا سمع صوت الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » ^(٤) . وعن ابن عباس : من سمع [صوت] الرعد فقال : سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلّ شيء قدير ؛ فأصابته ^(٥) صاعقة فعليّ ديته ^(٦) . قيل : إذا سبّح الرعد - وتسبيحه ما يسمع من صوته - لم يبق ملك إلّا رفع صوته بالتسبيح ، فينزل القطر والملائكة خائفون من الله ^(٧) .

وفي الحديث : « البرق والرعد وعيد لأهل الأرض ، فإذا رأيتموه فكفّوا عن الحديث وعليكم بالاستغفار » ، وإذا اشتدّ الرعد قال صلى الله عليه وآله : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » ^(٨) .

وقيل : إنّ الرعد هو نفس الصوت ، وليس بملك ، ومعنى تسبيحه دلالة هذا الصوت على وجود موجود متعال عن النقص والامكان ، كما هو معنى قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ^(٩) . وقيل : إنّ المراد من كون الرعد مسبحاً أنّ كلّ من يسمع الرعد [فإنّه] يسبّح الله تعالى ^(١٠) . ﴿وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ من السماء إلى هذا العالم ﴿فَيُصِيبُ﴾ الله ويهلك ﴿بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ إصابته وإهلاكه.

قيل : إنّ الصّاعقة نار لا دخان لها ، تسقط من السماء ، وتتولّد من ^(١١) السحاب ، وهي أقوى نيران [هذا العالم] ، فإنّها إذا نزلت من السحاب فرمها غاصت في البحر فأحرقت الحيتان تحت البحر ^(١٢) .

وفي [الحديث] النبوي السابق في بيان الرعد أنّه ملك قال : « وإذا اشتدّ غضبه طارت من فيه

نار

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٢٥ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ١ : ٣٣٤ / ١٥٠١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٣٨٤ / ٢٢٠٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٤) مجمع البيان ٦ : ٤٣٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٦١ .

(٥) في مجمع البيان : فإن أصابته .

(٦) مجمع البيان ٦ : ٤٣٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٣ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٣ .

(٩) تفسير الرازي ١٩ : ٢٦ ، والآية من سورة الإسراء : ١٧ / ٤٤ .

(١٠) تفسير الرازي ١٩ : ٢٦ .

(١١) في تفسير روح البيان : في . (١٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٣ .

هي الصاعقة» (١) .

قيل في شأن نزول الآية : إنّ رسول الله ﷺ بعث رجلا إلى واحد (٢) من فراعنة العرب ، قال : « فاذهب وادعه لي » فقال : يا رسول الله ، إنّه أعنى من ذلك. قال : « فاذهب فادعه لي » قال : فذهبت إليه فقلت : يدعوك رسول الله ، فقال : وما الله ؟ أذهب هو ، أم فضّة ، أم من نحاس ؟ قال الراوي - وهو أنس - : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره وقال : قد أخبرتك أنّه أعنى من ذلك ، قال لي كذا وكذا قال : « فارجع إليه الثانية فادعه » فرجع إليه فأعاد عليه مثل الكلام الأول ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « ارجع إليه » فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه مثل ذلك الكلام ، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله سبحانه حيال رأسه فرعدت ، فوقع منها صاعقة فذهبت بقحفه رأسه ، فأنزل الله ﴿وَنُزِّلَ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ (٣) .

عن الصادق عليه السلام : « أنّ الصواعق لا تصيب ذاكرا » . قيل : من الذاكر ؟ قال : « من قرأ مائة آية » (٤) .

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين بقوله : ﴿وَهُمْ﴾ مع تلك الآيات الباهرة الدالة على توحيد الله وقدرته ﴿يُجَادِلُونَ﴾ ويشدّدون الخصومة ﴿فِي﴾ توحيد ﴿الله﴾ ويكذّبون الرسول الداعي إليه الواصف له بالعظمة والقدرة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ وعظيم الكيد لأعدائه ، فإنّه يهلكهم من حيث لا يشعرون .
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « شديد الأخذ » (٥) . وعن القمي : شديد الغضب (٦) . عن ابن عباس : شديد الحول (٧) . وقيل : شديد العقوبة (٨) . وقيل : شديد الفقر ، وهو مثل في القوة (٩) .
عن ابن عباس : نزلت هذه الآية والتي قبلها في عامر بن الطفيل وإريد بن قيس - وهو أخو لييد (١٠) بن ربيعة الشاعر لأّمّه - وذلك أنّهما أقبلّا يريدان رسول الله ﷺ فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك. قال : « دعه ، فإن يرد الله به خيرا يهده » . فأقبل حتّى قام عليه فقال : يا محمد ، مالي إن أسلمت ؟ قال : « لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم » قال : أ تجعل لي الأمر بعدك ؟ قال : لا ، ليس ذلك إليّ ، إنّما ذلك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء » . قال : أسلم على أن لك المدر ، ولي الوبر ؟ يعني لك ولاية القرى ، ولي ولاية البوادي. قال : « لا » . قال : فماذا تجعل لي ؟ قال : « أجعل

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٣ .

(٢) في تفسير روح البيان : رجل .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٣ .

(٤) الكافي ٢ : ٣٦٣ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٢ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٤٣٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٢ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٦١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٢ .

(٧) و (٨) تفسير الرازي ١٩ : ٢٨ .

(٩) تفسير أبي السعود ٥ : ١١ .

(١٠) في النسخة : يعبد .

لك أعتة الخيل تغزو عليها» قال : أو ليس ذلك إليّ اليوم ؟ وكان أوصى إلى إريد إذا رأيته أكلّمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف ، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه ، فدار إريد خلفه ليضربه ، فاختلط من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سلّه ، وجعل عامر يومئ إليه ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى إريد وما يصنع بسيفه ، فقال : « اللهم اكفنيهما بما شئت » فأرسل الله على إريد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته ، وولى عامر هاربا ، فقال : يا محمد ، دعوت ربك فقتل إريد ، والله لا ملأنّ عليك الأرض رجالا ؛ ألفا أشعر وألفا أورد. فقال : « يمنعك الله من ذلك ، وأبناء قيلة ^(١) » يريد الأوس والخزرج.

فنزل عامر بيت امرأة سلولية ، فلما أصبح ضمّ إليه سلاحه ، وخرج وهو يقول : واللات لئن أصحر محمد إليّ وصاحبه - يعني ملك الموت - لأنفذتهما ^(٢) برححي ، فلما رأى الله ذلك منه أرسل ملكا فلطمه بجناحه ، فأذراه بالتراب ، وخرجت على ركبته غدة عظيمة في الوقت ، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول : غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية ، ثم مات على ظهر فرسه ^(٣) .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ
كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ
يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ (١٤) و (١٥)﴾

ثم أنه تعالى بعد حكاية مجادلة المشركين في الله وإصرارهم على عبادة الأصنام ، خصّ العبادة والدعوة الحقّة المفيدة بنفسه بقوله : ﴿لَهُ﴾ تعالى خاصة ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ التي لا مجال لتوهم بطلانها ، كما أنّ وجوده هو الحقّ في الموجودات ، واعتقاد وجوده ووحدانيته هو الحقّ في الاعتقادات ، وعبادته هي الحقّ في العبادات.

وعن ابن عباس : الدعوة الحقّ قول لا إله إلا الله ^(٤) .

وقيل : يعني الدعوة المجابة غير الضائعة ^(٥) . وقيل : يعني له دعوة المدعو إلى الحق الذي سمع ^(٦) فيجيب ^(٧) .

(١) في النسخة وتفسير روح البيان : قبيلة ، تصحيف ، وقيلة : اسم أم للأوس والخزرج قديمة ، وهي قبيلة بنت كاهل.

(٢) في النسخة : لأنفذتهما ، والتصويب من روح البيان.

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٤ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٥ .

(٦) في تفسير الرازي : المدعو الحق الذي يسمع.

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٢٩ .

﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ بصرف بسط اليد إليه واستدعائه أن يخرج من البئر ويبلغ فاه ؛ لأتته جماد لا يسمع الدعاء ، ولا يتحرك من محله بغير محرك شاعر ، فكذا ما يدعو المشركون من الجمادات لا يسمعون دعاءهم ، ولا يستطيعون إجابتهم ، ولا يقدرّون على نفعهم.

عن الباقر عليه السلام : « هذا مثل ضربه الله للذين يعبدون الأصنام والذين يعبدون الآلهة من دون الله فلا يستجيبون لهم بشيء ، ولا ينفعهم إلا كباسط كفيه إلى الماء ليتناولوه من بعيد ولا يناله » ^(١) .

ثم بين عدم انتفاع المشركين بدعوتهم وعبادتهم بقوله : ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ وعبادتهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ وضياح لا ينتفعون بها أبدا ، ثم أنه تعالى بعد تخصيص الدعوة الحقّة بذاته المقدسة ، خصّ الخضوع والانقياد أيضا بنفسه بقوله : ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ ويخضع ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من الملائكة والجن والانس لظهور عظيمته للكلّ ، ونفوذ إرادته في الكلّ ، ومقهورية الجميع تحت قدرته ، فان كانت إرادته موافقة لاشتياقهم كالإيجاد والإغناء والصحة ، كان انقيادهم له ﴿طَوْعاً﴾ ورغبة ونشاطا ، وإن كانت مخالفة له كالاعدام والإفقار والإسقام ، كان انقيادهم له اضطرارا ﴿وَكَرْهاً﴾ .

والحاصل أنّ السجود على ما قيل هو الانقياد التكويني ، فان كانت التغييرات الحاصلة في الأشياء بارادته تعالى موافقة لطباعها يكون انقيادها لها بالطوع ، وإن كانت مخالفة لها يكون انقيادها بالكره.

﴿وَوَظَلُّهُمْ﴾ يسجدون بهذا المعنى لله ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ والصباح ﴿وَالْأَصَالِ﴾ والأعصار ، في أول النهار وآخره ، وهما كناية عن جميع الأوقات من النهار ، وإنما خصّتهما بالذكر لكثرة ميلانها فيهما.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « وسجدت له بالغدوّ والأصال الأشجار » ^(٢) .

وعن القمي : ظلّ المؤمن يسجد طوعا ، وظلّ الكافر يسجد كرها ، وهو نموهم وحركتهم ^(٣) .
وعنه أيضا : تحويل كلّ ظلّ خلقه الله هو سجوده لله ؛ لأتته ليس شيء إلا له ظلّ يتحرك بتحريكه ، وتحويله ^(٤) سجوده ^(٥) .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٦١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٢ .

(٢) نهج البلاغة : ١٩١ / الخطبة ١٣٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

(٤) في المصدر : وتحريكه .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٨٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

وقيل : إنّ المراد بالسجود السجود المعهود اختياراً ، والعموم مخصوص بالمؤمنين ^(١) .
 عن الباقر عليه السلام : « أَمَا مِنْ يَسْجُدُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ طَوْعًا فَلَمَّا لَمَسَتْهُ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ طَوْعًا ،
 وَمِنْ يَسْجُدُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمِنْ وَلَدٍ فِي الْإِسْلَامِ وَهُوَ يَسْجُدُ طَوْعًا ، وَأَمَّا مَنْ يَسْجُدُ لَهُ كَرْهًا فَمِنْ أَجِيرٍ
 عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَظَلَّهُ يَسْجُدُ بِالْغَدَاةِ وَالْعِشْيِ » ^(٢) .
 وعن أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة) : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَيَعْقِرُ لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا ، وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سُلْمًا وَضَعْفًا ، وَيُعْطِي الْعِبَادَ ^(٣) رَهْبَةً
 وَخَوْفًا » ^(٤) .

وقيل : إنّ المراد بالظلّ الجسد ، لأنّه عنه الظلّ ، أو لأنّه ظلّ للروح لأنّه ظلمياني ، والروح نوراني ،
 وهو تابع له يتحرّك بحركته النفسانية ، ويسكن بسكونه ^(٥) .
 وقيل : لا يبعد أن يخلق الله للظلال عقولا وأفهاما تسجد وتخضع بها ، كما جعل للجبال أفهاما
 حتّى اشتغلت بتسبيح الله و [حتى] ظهر آثار التجلّي فيها كما قال : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ
 دَكًّا ﴾ ^(٦) .

أقول : قد حقّقنا فيما سبق غير مرة أنّ الوجود ملازم للشعور ، وكلّما كمل الوجود كمل الشعور ،
 وكلّما ضعف ضعف ، وعليه نقول : إنّ لكلّ شيء سجودا وخشوعا وتسبيحا ^(٧) . الله بحسب حاله ،
 فجسم الكافر وروحه من حيث إنّّه موجود لهما سجود وتسبيح لله ، ولا يدركهما الكافر لفقد بصيرته
 وعمى قلبه .

قال الزجاج : جاء في التفسير أنّ الكافر يسجد لغير الله ، وظلّه يسجد لله ^(٨) .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
 لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ
 تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ
 عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (١٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد إقامة البراهين الكثيرة على توحيده وكمال ذاته وصفاته وغاية عظمتة وتخصيص
 الدعوة الحقّ والخضوع لها ^(٩) ، أمر نبيه ﷺ بأن يلزم المشركين بما هو بديهي العقل والفطرة بقوله :

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٢٩ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

(٣) في المصدر : له القيادة .

(٤) نهج البلاغة : ٢٧٢ / الخطبة ١٨٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

(٥) تفسير الصافي ٣ : ٦٣ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ٣٠ ، والآية من سورة الأعراف : ٧ / ١٤٣ .

(٧) في النسخة : سجود وخشوع وتسبيح .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ٣٠ .

(٩) في النسخة : به .

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وخالقهما ومالكهما ومدبر أمرهما ؟ . ثم لما كان الجواب من الوضوح بمثابة [ما] لا يليق التأمل فيه ، وكانوا أيضا معترفين به ، أمر نبيه ﷺ بالسرعة في الجواب بقوله : ﴿قُلْ﴾ من غير ريث وانتظار لجوابهم : هو ﴿الله﴾ وحده لا شريك له . ثم أمر نبيه ﷺ بتوبيخهم على الشرك بقوله : ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ﴾ واختتم مع ذلك ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه من مخلوقاته لأنفسكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ونظارا في مصالحكم ، ووكلاء في أموركم مع كونهم جمادات ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ نَفْعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يدفعونه لغاية عجزهم وعدم شعورهم ، فاذا عجزوا عن تحصيل النفع لأنفسهم ودفع الضرر عنهم ، كانوا من تحصيل نفعكم ودفع الضرر عنكم أعجز ، فاذن كانت عبادتهم والخضوع لهم عين السّفه والعبث .

ثم لما كان المشركون يمتنعون من اتباع النبي ﷺ ، ويدّعون تساويهم معه في البشرية وعدم فضيلة له عليهم ، وكان ذلك من عمى قلوبهم ، أمر سبحانه نبيه ﷺ بالزامهم بما هو البديهي عند جميع العقلاء من عدم التساوي بين العالم والجاهل بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لمن يقدح في نبوتك بكونك بشرا مثلهم : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ الواقعي الذي لا بصيرة له ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ بجميع المعارف والعلوم الحقيقية ؟ فأنتم ذلك الأعْمى ، وأنا ذلك البصير ، فكيف أكون مثلكم ؟ ثم تدّعون أنّ الشرك أفضل من التوحيد ، وأنا أسألكم ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ وهي شعب الشرك وأنواعه التي أنتم فيها ﴿وَالنُّورُ﴾ الذي هو التوحيد الخالص الذي أنا فيه .

ويحتمل أن يكون المقصود من الجملتين ترغيبهم إلى الإيمان ، كما عن القمّي حيث قال في تفسير الأعمى والبصير : يعني الكافر والمؤمن . وفي تفسير الظلمات والنور : يعني الكفر والإيمان (١) .

ثم أنّه تعالى بعد بيان غاية خطأ المشركين في اتخاذ الأصنام أولياء ، أكّد ذلك ببيان عدم علّة لخطئهم ذلك إلّا ما هو أوضح في البطلان ممّا ادّعوه بقوله : ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ قيل : يعني بل جعلوا (٢) ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ولا وجه لذلك إلّا أنهم رأوا أصنامهم ﴿خَلَقُوا﴾ أشياء ﴿كَخَلْقِهِ﴾ تعالى ﴿فَتَشَابَهُ﴾ والتبس ﴿الْخَلْقُ﴾ والخالق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك ، وقالوا : إنّ الأصنام لما تشارك الله في الخلق ، وجب أن تشاركه في الألوهية والعبادة ، مع وضوح أنّهم لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له .

إذن ﴿قُلْ﴾ لهم - يا محمد - إرشادا لهم إلى الخلق ، وإعلانا بما في قلوبهم : ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأرواح والأجسام والجواهر والأعراض ، لا خالق غيره حتى يشاركه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْوَّاحِدُ﴾ بلا شبيه ، المتوحد بالألوهية ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكلّ شيء الغالب على جميع الممكنات

(١) تفسير القمي ١ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٤ .

ومنها أهلككم وأصنامكم ، فكيف يمكن أن يكون أولياؤكم شركاءه تعالى في الالهية والعبادة ؟ !

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾

ثم أتت تعالى بعد ضرب المثل لنبيه ﷺ وللمشركين وللشرك والتوحيد ، أو للكافر والمؤمن ، وللايمان والكفر ، بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، ضرب مثلين للحق والباطل توضيحا للحق بقوله : ﴿أَنْزَلَ﴾ الله ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المثل (١) ، أو من جهة العلو ﴿مَاءً﴾ مباركا إلى الأرض ﴿فَسَالَتْ﴾ من ذلك الماء المنزل ﴿أَوْدِيَةً﴾ وأراض منخفضة عن الجبال والتلال ، وجرى الماء فيها ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وحد سعتها ، أو بمقدارها الذي علم الله أنها النافع للناس ، فيسيل ذلك الماء ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ ذلك ﴿السَّيْلُ﴾ والماء الكثير الجاري في تلك الأودية لشدة جريانه ﴿زَبَدًا﴾ ورغوا ﴿رَابِيًا﴾ ومرتفعاً عليه ، أو طافيا فوقه .

ثم بعد ضرب المثل للباطل بالزبد الحاصل من الماء ، ذكر الزبد الحاصل من النار بقوله : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ ويذوبه الناس ﴿فِي النَّارِ﴾ من الفلزات السبعة : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والصفر ، والحديد ، والزئبق ﴿ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ﴾ وطلبا للزينة كالقرط والسوار والخلخال وغيرها ﴿أَوْ﴾ طلب ﴿مَتَاعٍ﴾ من أثاث وآلات ينتفع بها كالأواني وأسلحة الحرب وأدوات الحرث ، فإنه بعد ذوبه ينشأ عليه ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ كزبد الماء ، يقال له الخبث ﴿كَذَلِكَ﴾ المثل البديع المطابق للممثل له ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ العالم بحقائق الأشياء لبيّن ﴿الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ فإن الحق كالماء الصافي ومذاب الفلز الخالص ، والباطل كالزبد والخبث .

ثم بين سبحانه وجه التشبه بقوله : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الذي للماء ومذاب الفلز ﴿فَيَذْهَبُ﴾ ويعدم من بين الناس حال كونه ﴿جُفَاءً﴾ وغير منتفع به ، وإن كان على الماء والفلز المذاب في بدو حدوثه ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ في معاشهم ومعادهم كالماء الصافي الذي به حياة كل شيء ، والفلز الخالص الذي صار زينة ومتاعا لهم ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويبقى ﴿فِي﴾ وجه ﴿الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلها ، فإن الماء ينفذ في عروق الأرض ، ثم ينبع من العيون والآبار والقنوات ، والفلز الخالص يدوم سنين متطاولة

(١) السماء مؤنث ، وقد يذكر .

﴿كَذَلِكَ﴾ المثل الذي هو في غاية المطابقة للممثل له ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ وبيّن ﴿الْأَمْثَالَ﴾ الآخر التي يأتي بها في كتابه الكريم لإيضاح المطالب العالية للذين لا يدركونها إلّا بذكر ما يشابهها من المحسوسات .
 قيل : إنّ الماء الذي به حياة الأشياء مثل للقرآن الذي به حياة القلوب ، والأودية مثل للقلوب ، فإنّ كلّاً منهما يستفيض من القرآن بقدر استعداده وظرفيته ، والزّيد مثل الهواجس النفسانيّة والوساوس الشيطانية ، وكما أنّ الزّيد لا وزن له ولا نفع ، كذلك الباطل لا قدر له ولا ثواب عليه ، والحقّ والایمان ينتفع به في الدنيا والآخرة ، كما ينتفع بالماء في الدنيا غاية الانتفاع ، والكفر والباطل لا ينتفع بهما لا في الدنيا ولا في الآخرة ^(١) .

عن القمي رحمه الله يقول : أنزل الله الحقّ من السماء فاحتملته القلوب بأهوائها ؛ ذو اليقين على قدر يقينه ، وذو الشكّ على قدر شكّه ، فاحتمل الهوى باطلا كثيرا وجفاء ، فالماء هو الحقّ ، والأودية هي القلوب ، والسيل هو الهوى ، والزّيد وخبث الحلية هو الباطل ^(٢) ، والمتاع هو الحقّ ، من أصاب الحلية والمتاع في الدين انتفع به ، وكذلك صاحب الحقّ يوم القيامة ينفعه ، ومن أصاب الزّيد وخبث الحلية لم ينتفع ، وكذلك صاحب الباطل يوم القيامة لا ينتفع به ^(٣) .

وفي (الاحتجاج) عن أمير المؤمنين عليه السلام : « قد بيّن الله تعالى قصص المغيّرين ، فضرِبَ مثلهم بقوله : ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فالزّيد في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن ، وهو يضمحلّ ويبطل ويتلاشى عند التحصيل ، والذي ينفع الناس منه فالتنزيل الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والقلوب تقبله ، والأرض في هذا الموضع هي محلّ العلم وقراره « الحديث ^(٤) .

﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾

ثمّ بيّن سبحانه فائدة الحقّ والخلوص في عبادته بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ﴾ اختاروا دين الحقّ و﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ دعوته الحقّ بأن آمنوا بتوحيده ورسالة رسوله وعملوا بمرضاته الاستجابة ﴿الْحُسْنَى﴾ من

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٦٠ .

(٢) في المصدر : والزّيد هو الباطل والحلية .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٤ .

(٤) الاحتجاج : ٢٤٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٥ .

الله أو المثوبة الحسنى وهي الجنة والنعم الدائمة ، أو الحالة الحسنى في مدة عمرهم وهي الإعراض عن الدنيا وفراغة القلب من ههنا ، والانس مع الله والالتذاذ بمناجاته ، وإقبال القلب إلى الآخرة ، والاشتغال بما يوجب الفوز بنعيمها.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ﴾ سمعوا دعوة ربهم و﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ ولم يقبلوا دين الحق واتبعوا الباطل ﴿لَوْ﴾ فرض ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ في القيامة ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من النقود والأمتعة والضّياع والعقار وغيرها ﴿وَأَنْ﴾ أن ﴿مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وكان لهم ضعف ما في الدنيا ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أنفسهم من العذاب ، وبذلوه لتخليص أنفسهم منه ، ما تقبل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾

عن عائشة ، عن النبي ﷺ : « ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » قلت : أو ليس يقول الله : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسيراً؟﴾^(١) فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك »^(٢) .

عن الصادق عليه السلام - في تفسير سوء الحساب - قال : « هو أن لا يقبل منهم حسنة ، ولا يغفر لهم سيئة »^(٣) .

ثم بين الله ما يترتب على سوء الحساب والمناقشة فيه بقوله : ﴿وَمَا أَوَاهُمْ﴾ ومرجعهم بعد المناقشة في الحساب ﴿جَهَنَّمَ وَ﴾ هي ﴿بُئْسَ الْمِهَادُ﴾ والمستقر الذي مهدوه لأنفسهم.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (١٩) و (٢٠)﴾

ثم أنه تعالى بعد إنكاره التساوي بين الأعمى والبصير ، بين المراد منهما بقوله : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ ببصارة قلبه وتنوّز ضميره ﴿أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ من القرآن وما فيه من المعارف والأحكام هو ﴿الْحَقُّ﴾ والثابت في الواقع ﴿كَمَنْ هُوَ﴾ لظلمة باطنه وخبث ذاته وختتم على قلبه ﴿أَعْمَى﴾ فاقد البصيرة بحيث لا يرى المهلكة والمأمّن ، ولا يميز الضارّ والنافع ، لا والله ليس أحدهما كالأخر و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ التباين بينهما ، أو نفع هذه الأمثلة ، أو نصائح القرآن ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول السليمة عن شوائب الأوهام.

قال العلامة في (نخب الحق) : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ﴾ هو علي عليه السلام^(٤) .

ثم وصف الله العالمين بمقانيّة ما أنزل ، أو اولوا الأبواب بقوله : ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي اخذ منهم على الايمان بتوحيده ورسالة رسله والعمل بأحكامه ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ﴾ ذلك ﴿الْمِيثَاقَ﴾ الذي

(١) الانشقاق : ٨٤ / ٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٦١ .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٤٤٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٥ .

(٤) نخب الحق وكشف الصدق : ١٩٧ .

واثقتهم به بالشُّرك وارتكاب المعاصي.

عن ابن عباس : يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(١) .

وقيل : إنّ الميثاق ما وثقه^(٢) المكلف على نفسه والتزم به بنذر وشبهه^(٣) .

عن الكاظم عليه السلام : « نزلت هذه الآية في آل محمد ﷺ ، وما عاهدهم عليه ، وما أخذ عليهم من الميثاق في الدّر من ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام بعده »^(٤) .

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ غُفَى الدَّارِ * جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٥) و (٢١) و (٢٤)

ثمّ وصفهم بالعمل بأهمّ التكاليف بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من رحم آل محمد ﷺ ورحم نفسه. عن الصادق عليه السلام : « نزلت في رحم آل محمد ﷺ ، وقد تكون في قرابتك » الخير^(٥) .

وعنه عليه السلام : « الرحم معلقة بالعرش تقول : اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني. وهي رحم آل محمد ﷺ ، وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ورحم كلّ ذي رحم»^(٦) .
وقيل : إنّ المراد رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد ، فيدخل فيه [صلة الرّحم و] صلة القرابة الثابتة بسبب إخوة الإيمان ، ومن صلتهم إمدادهم بإيصال الخيرات إليهم ، ودفع المكارة والآفات عنهم^(٧) .

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعذابه ، أو مهابته ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ بالخصوص ، فلذا يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٤٠ ، والآية من سورة الأعراف ٧ : ١٧٢ .

(٢) في تفسير الرازي : ما وثقه .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٤١ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٦٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٦ .

(٥) الكافي ٢ : ١٢٥ / ٢٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٦ .

(٦) الكافي ٢ : ١٢١ / ٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٦ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٤١ .

عن الصادق عليه السلام : « هو أن تحسب عليهم السيئات ، ولا تحسب لهم الحسنات ، وهو الاستقصاء » (١) .

وعنه عليه السلام : أنه تلا هذه الآية حين رأى رجلا استقصى حقّه من أخيه ، وقال : « أتراهم يخافون أن يظلمهم أو يجور عليهم ؟ لا ولكنهم خافوا الاستقصاء والمدافعة ، فسماه الله سوء الحساب ، فمن استقصى فقد أساء » (٢) .

وعنه عليه السلام : « لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العرض على الله ، وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ، ولا يأوي إلى عمران ، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متصل بالتلف » (٣) .

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله وترك المشتبهات ومصائب الدهر ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وطلباً لمرضاته ومثوباته ، واستغراقاً في محبته (٤) .

ثم لما كانت الصلاة والزكاة أهم العبادات ، خصّهما بالذكر بقوله : ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ الواجبة ﴿وَأَنفَقُوا﴾ على الفقراء والمحتاجين ووجوه البرّ بعضاً ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من الأموال الزكوية بقصد الزكاة والقرية ﴿سِرًّا﴾ إذا لكم يكن في معرض الاتهام بترك أداء الزكاة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ وجهراً إذا كان في معرضه .

وقيل : إن المراد الصدقات المندوبة ، فإنّها تنفق سراً ، أو الزكاة الواجبة فإنّها تؤدّى علانية (٥) .

وقيل : إنّ المراد الإنفاق من جميع ما أعطاه الله من المال والعلم والجاه والقوى .

﴿وَيَذَرُونَ﴾ ويدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ والأعمال الخيرية ، أو بالتوبة ﴿السَّيِّئَةِ﴾ من المعاصي والخطايا .

عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : يا علي ، ما من دار فيها فرحة إلا تتبعها ترحة ، وما من هم إلا وله فرج إلا هم أهل النار . يا علي ، إذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة تمحها سريعا ، وعليك بصنائع الخير فإنّها تدفع مضارع السوء » (٦) .

وعن النبي ﷺ ، قال لمعاذ بن جبل : « إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها » (٧) .

وقيل : إنّ المعنى يجازون الإساءة بالاحسان ، والظلم بالعفو ، والمنع بالعتاء ، والقطع بالصلة

(٨) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٨٨ / ٢٢١٧ ، مجمع البيان ٦ : ٤٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٧ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٨٨ / ٢٢١٨ ، تفسير القمي ١ : ٣٦٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٦ .

(٣) مصباح الشريعة : ٨٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٧ .

(٤) في النسخة : محبة .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٤٣ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٦٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٧ .

(٧) مجمع البيان ٦ : ٤٤٤ ، تفسير الرازي ١٩ : ٤٣ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٣٦٦ .

﴿أُولَئِكَ﴾ الكاملون المتصفون بتلك الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ عَقَبَى﴾ حسنة محمودة لهذه ﴿الدَّارِ﴾ الفانية ، وتلك العاقبة ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ﴾ وبساتين إقامة. وقيل : جَنَّتْ عدن هي جنت في وسط الجنان ^(١) ، هم ، ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في الآخرة ﴿وَوَ﴾ معهم ﴿مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ قيل : المراد بالآباء أعم من الأمهات ، وإنما الصلاح بالایمان والعمل ^(٢) .

عن ابن عباس : يريد من صدّق بما صدّقوا به ، وإن لم يعملوا مثل عملهم ^(٣) .
﴿وَأَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ وأولادهم وأولاد أولادهم وإن نزلوا ، تبعاً لهم ، وتعظيماً لشأنهم ، وليكونوا مسرورين بهم ، آنسين بصحبتهن وإن لم يبلغوا في الفضل مبلغهم ، كما عن ابن عباس ^(٤) .
عن الصادق عليه السلام ، أنه سئل عن المؤمن له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة ، يتزوج أحدهما الآخر ؟ فقال : « إن الله حكم عدل ، إذا كان أفضل منها خير ، فإن اختارها كانت من أزواجه ، وإن كانت هي خير منه خيرها ، فإن اختارته كان زوجها لها » ^(٥) .

عن النبي صلى الله عليه وآله : أن أم سلمة قالت له : بأبي أنت وأمي ، المرأة يكون لها زوجان فيموتان ، لأيهما تكون ؟ فقال : « يا أم سلمة ، تخير أحسنهما خلقاً ، وخيرهما لأهله . يا أم سلمة ، إن حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة » ^(٦) .

ثم روي عن ابن عباس : أن لهم خيمة من درّة مجوّفة ، طولها فرسخ ، وعرضها فرسخ ، لها ألف باب ، مصاريعها من ذهب ^(٧) .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ وقيل : يدخلون من كلّ باب من أبواب البرّ ، كباب الصلاة ، وباب الزكاة ، وباب الصوم ، وباب الصبر ^(٨) . أو من أبواب غرفهم وقصورهم ، وهم مع غاية جلالتهن وعظمة منزلتهن يقولون لهم تحية وإكراماً وبشارة بدوام سلامتهن من المكاره : أيها المؤمنون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإنما يكون ذلك السلام والتكريم لكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في الدنيا على طاعة الله وشدائد الدهر ، وأبشروا بأن مصيركم إلى الجنة ونعيمها ، فتلك عاقبة أمركم ﴿فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ التي كنتم فيها.
روى أن النبي صلى الله عليه وآله كان يأتي قبور الشهداء رأس كلّ حول ، فيقول : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ ^(٩)

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٤٤ .

(٣) مجمع البيان ٩ : ٣١٨ ، تفسير العياشي ٣ : ١٥٤ / ٦١ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٨ .

(٤) الخصال ٤٢ / ٣٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٤٥ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ٤٥ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٤٥ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٨ .

القمي : نزلت في الأئمة عليهم السلام وشيعتهم الذين صبروا ^(١) .

عن الصادق عليه السلام قال : « نحن الصبر ، وشيعتنا أصبر منا ، لأننا صبرنا على ما نعلم ، وهم صبروا على ما لا يعلمون » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وآله - في حديث يصف فيه حال المؤمن إذا دخل الجنان والغرف - [قال :] « ثم يبعث الله له ألف ملك يهتئون بالجنة ، ويؤجونه بالحواء ، فينتهون إلى أول باب من جنانهم ، فيقولون للملك الموكل بأبواب الجنان : استاذن لنا على ولي الله ، فإن الله قد بعثنا مهتئين . فيقول الملك : حتى أقول للحاجب ، فيعلمه مكانكم . فيدخل الملك إلى الحاجب ، وبينه وبين الحاجب ثلاث جنان ، حتى ينتهي إلى أول باب فيقول للحاجب : إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم الله رب العالمين يهتئون ولي الله [وقد سألتني أن آذن لهم عليه ، فيقول الحاجب : إنه ليعظم علي أن أستأذن لأحد على ولي الله وهو مع زوجته الحواء . قال : وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان ، قال : فيدخل الحاجب إلى القيم فيقول له : إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم الله رب العزة يهتئون ولي الله] فاستأذن [لهم] . فيقوم القيم إلى الخدام فيقول لهم : إن رسل الجبار على باب العرصة ، وهم ألف ملك يهتئون ولي الله ، فأعلموه مكانهم ، فيعلمه الخدام مكانهم ، فيؤذن لهم فيدخلون على ولي الله وهو في الغرفة ، ولها ألف باب ، وعلى كل باب من أبوابها ملك موكل به ، فإذا أذن للملائكة بالدخول على ولي الله ، فتح كل ملك باب الذي وكل به ، فيدخل [القيم] كل ملك من باب من أبواب الغرفة ، فيبلغونه رسالة الجبار ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ يعني من أبواب الغرفة ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ^(٣) .

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾

ثم أنه تعالى بعد توصيف المؤمنين الذين هم أهل البصيرة وتنور القلب بالصفات الكريمة ، وبيان ما يترتب عليها من الكرامة والتعم وحسن العاقبة ، ذكر صفات الكفار الذين هم عمي القلوب بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ الذي أخذ عليهم بالإيمان والطاعة ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ وتوكيده بالاقرار والقبول.

القمي : يعني في أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو الذي أخذ الله عليهم في الذر ، وأخذ عليهم رسول

(١ و ٢) تفسير القمي ١ : ٣٦٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٨ .

(٣) الكافي ٨ : ٩٨ / ٦٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٨ .

الله ﷻ في غدير خم^(١) .

أقول : يعني هذا العهد من جملة العهود التي نقضوها.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من حبل ولاية الله ورسوله والأئمة والمؤمنين والأرحام
﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والطغيان والعصيان والظلم على العباد وتهيج الفتن بين المسلمين.
ثم بين الله نتيجة تلك الرذائل بقوله : ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ والبعد عن الرحمة في الآخرة ﴿وَلَهُمْ
سُوءُ الْعَاقِبَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ﴾ الدنّية ، وهي جهنم وبئس القرار.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ
يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ (٢٦) و (٢٧)

ثم لما كان مجال توهم المنافاة بين البعد عن الرحمة ووفور النعمة عليهم في الدنيا ، دفعه الله سبحانه
بقوله : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ ويوسعه في الدنيا ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بسطه وتوسيعه عليه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ ويضيق على
من يشاء تقديره وتضييقه عليه على حسب اقتضاء حكمته في نظام العالم وصلاح الأشخاص من غير
مدخلية للإيمان والكفر فيه ، بل كثيرا ما يكون صلاح المؤمن في الفقر والشدّة ؛ لأنّه موجب لإقبال قلبه
إلى الله ، وإعراضه عن الدنيا ، واستحقاقه مثوبة الصبر ، والكفر يكون من عقوبته توفير النعم الموجب
لخذلان الكافر وبعده من الله واستغراقه في الدنيا.

ثم وبّخ الكفار على حبّهم الدنيا وفرحهم بها بقوله : ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ونعيمها ولذائدها
﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ونعمها ﴿فِي﴾ جنب ﴿الْآخِرَةِ﴾ ونعمها ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ قليل ونفع يسير
في أيام فناء ، ثم يفنى ويزول ، ولذا لا ينبغي للعاقل أن يفرح به ، وعليه أن يهتم في تحصيل الآخرة
ونعمها الدائمة التي لا انقطاع لها أبدا.

ثم أنّه تعالى بعد ذمّ الكفار بالصفات الرذيلة ، ذمهم باللّجاج والتعنّت على النبي ﷺ بقوله :
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ومعجزة زائدة على ما أتى به ، أو كمعجزات موسى وعيسى
عليهما السلام ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ الذي يدّعي رسالته من قبله ﴿قُلْ﴾ يا محمد : قد أنزل الله عليّ من المعجزات زائدا
على ما يكتفي به العاقل المنصف في الإيمان والتصديق ، كما ترون أنّه اكتفى به جمع كثير ، وإنّما لا
تكتفون بما أتيت لعدم قابليتكم^(٢) للهداية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ﴾ ويحرف عن طريق

(١) تفسير القمي ١ : ٣٦٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٦٩ .

(٢) كذا ، ولعلّه يريد استحقاقكم .

الحقَّ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ضلّالته وانحرافه عنه بسبب خذلانه المترتب على خبث ذاته ورذالة صفاته وسيئات أعماله ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحقّ ، ويوصل ﴿إِلَيْهِ﴾ بلطفه وتوفيقه ﴿مَنْ أَنْابَ﴾ إلى الحقّ وطلبه وأعرض عن العناد واللجاج.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨)

ثمّ وصف سبحانه المهتدين بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيّته ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ وتسكن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عند شدائد الدنيا وزلازلها ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ وتذكر ألطافه بالمؤمنين ورحمته بالذاكرين ، وكونه ولياً لهم ، وناظراً في صلاحهم ، ومحباً لهم بحيث لا يرضى بمساءتهم.

عن ابن عباس : يريد أحم إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت. وقيل : إنّ علمهم بكون القرآن معجزاً ، يوجب الطمأنينة لهم بكون محمد ﷺ نبياً حقاً من عند الله. وقيل : إنّ اطمأنت قلوبهم بصدق الله في وعده ووعيده (١) .

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الناس أنّه ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ والتفكير في عظّمته وقدرته وكرمه ولطفه ورأفته ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وتستقرّ الأفئدة من الاضطراب والشكّ بنور اليقين. عن الصادق عليه السلام : « بمحمد ﷺ تطمئنّ » (٢) .

القمي : الذين آمنوا الشيعة ، وذكر الله أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام (٣) .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَ (٢٩)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر حسن حال المؤمنين في الدنيا ، نبّه نبيّه ﷺ على حسن حالهم في الآخرة بقوله : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى﴾ التي هي شجرة عظيمة في الجنة ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿وَحَسُنَ مَا بَ﴾ ومرجع في الآخرة لهم.

عن النبي ﷺ أنه قال : « طوبى شجرة في الجنة غرسها الله بيده ، تنبت الحلبي والحلل ، وإنّ أغصانها لترى من وراء سور الجنة » (٤) .

روي أن أصل هذه الشجرة في دار النبي ﷺ وفي دار كلّ مؤمن منها غصن (٥) .

عن الصادق عليه السلام : « طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار النبي ﷺ ، وليس مؤمن إلّا وفي داره

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٤٩ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٩٠ / ٢٢٢٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٠ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٦٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٥٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٥٠ .

غصن منها ، لا يخطر على قلبه شهوة شيء إلا أتاه به ، ولو أن راكبا مجّدا سار في ظلّها مائة عام ما خرج منه ، ولو طار من أسفلها غراب ما بلغ أعلاها حتّى يسقط هرما ، ألا ففي هذا فارغبوا » (١) .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام ، قال : « أصلها في دار عليّ بن أبي طالب عليه السلام » (٢) .

وعن الكاظم عليه السلام ، عن النبي صلى الله عليه وآله : « أنه سئل عن طوبى ، قال : شجرة أصلها في داري ، وفرعها على أهل الجنة . ثم سئل عنها مرة أخرى فقال صلى الله عليه وآله : في دار عليّ . فقيل له في ذلك فقال : إنّ داري ودار عليّ في الجنة بمكان واحد » (٣) .

أقول : يمكن أن يقال شجرة طوبى صورة مثالية لدين الإسلام ، فإنّ مبدأها ومنشأها الرسول وأمير المؤمنين عليهما السلام ، ثم انبسط منهما في قلوب المؤمنين ، وكان انتفاع المؤمنين وسعادتهم الأبدية وحظوظهم به .

وقيل : إنّ طوبى اسم الجنة (٤) . وقيل : إنّ طوبى مشتقّ من طاب كبشرى (٥) .

عن ابن عباس : المعنى فرح وقرّة عين لهم . وعن عكرمة : نعم ما لهم . وعن الضحّاك : غبطة لهم وقيل : يعني حسنى لهم (٦) .

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَشْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

مَتَابِ (٣٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان التوحيد والفرق بين الحقّ والباطل وسائر المطالب العالية التي [هي] دليل صدق نبوة النبيّ الاُمّيّ صلى الله عليه وآله ، دفع سبحانه استبعاد المشركين نبوته بقوله : ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ والتقدير : كما أرسلنا إلى الامم الكثيرة رسلا كثيرة ليتلوا عليهم الكتب المنزلة ، كذلك أرسلناك إرسالا له شأن وفضل ﴿فِي أُمَّةٍ﴾ هي آخر الامم ، كما أنت آخر الرسل ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ كثيرة لتهدى تلك الامّة و﴿لِّتَشْلُوا عَلَيْهِمُ﴾ الكتاب العظيم ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بتوسّط جبرئيل ﴿وَوُ﴾ الحال أنّ ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ والله الواسع الرحمة بحيث وسعت رحمته كلّ شيء .

قيل : كانوا يقولون : إنّ محمدا يدعو إلهين ، يدعو الله ويدعو آخر يسمّى بالرحمن ، ولا نعرف

(١) الكافي ٢ : ١٨٧ / ٣٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٠ .

(٢) إكمال الدين : ٣٥٨ / ٥٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٠ .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٤٤٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٥١ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٥٠ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ٥٠ .

الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يريدون مسيلمة الكذاب ^(١) . فأمر الله نبيه ﷺ بردهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هُوَ رَبِّي﴾ وخالقي ومتوليّ اموري ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع اموري ، وبه اعتمدت في العصمة من شركم والتصرة عليكم ﴿وَالْيَهُ﴾ لا إلى غيره ﴿مَتَابِ﴾ ومرجع ، فيرحمني وينتقم لي منكم ، ويثبتني على مصابرتكم وأذاكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا فَلَمْ يُنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣١) و (٣٢)

ثم بيّن الله سبحانه عظمة شأن القرآن والكتاب الذي أنزله عليه وأوحاه إليه بقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ كانت له الآثار العظيمة في العالم حتى أنه ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ بعد ما قلعت به من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ وانشقت ﴿بِهِ الْأَرْضُ﴾ فجعلت أنهارا وعيوناً ، أو تطوى به الأرض ، ويسار به إلى البلدان ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ بعد إحيائهم به ، لكان ذلك هذا القرآن ، لوجود تلك الآثار العظيمة له ، أو لما آمنوا به ، ولا استبعاد لوجود هذه الآثار لكلام الله ، فانه قادر على هذه الامور وترتيبها على كلامه .
﴿بَلْ لِلَّهِ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿الْأَمْرُ﴾ من التصرف والتغيير في الموجودات والقدرة على ما أراد ﴿جَمِيعًا﴾ إن شاء فعل ، وإن لم يشأ لم يفعل.

روي أن أهل مكة قعدوا في فناء الكعبة ، فأتاهم رسول الله ﷺ وعرض عليهم الإسلام ، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي : سيّر لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا ، واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها ، وأوحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحقّ ما تقول أم باطل ، فقد كان عيسى يحيي الأموات ، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد ، فقد كانت الريح مسخرة لسليمان ، فلست بأهون على ربك من سليمان ، فنزلت هذه الآية ^(٢) .

عن الكاظم عليه السلام : « قد ورثنا نحن هذا القرآن الذي ^(٣) تسير به الجبال ، وتقطع به البلدان ، وتحى به الموتى » ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٥٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٣٧٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٥٢ .

(٣) زاد في الكافي : فيه ما .

(٤) الكافي ١ : ١٧٦ / ٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٧١ .

ثم روي أنّ طائفة من المؤمنين قالوا : يا رسول الله ، أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوه من الآيات ، فعسى أن يؤمنوا ^(١) ، فأظهر الله سبحانه التعجب من توقع المؤمنين إيمان هؤلاء المقترحين ورجائهم فيه بقوله : ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم ينقطع رجاءهم من إيمان هؤلاء ، وليعلموا ﴿أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ الإيجابار على الهداية والإيمان ﴿لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ حتى هؤلاء المصرّين على الكفر ، ولكن إجبارهم على الهداية والإيمان خلاف الحكمة ، ولذا لم يشأ ذلك ، وهم باختيارهم لا يؤمنون أبداً لشدة لجاحهم وعنادهم للرسول ودين الحق.

وقيل : إنّ يئس بمعنى يعلم حقيقة على لغة النّح (٢) ، أو مجازاً بعلاقة أنّ العلم بأنّ الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه ، وعليه يكون المعنى أفلم يعلم المؤمنون أن لو يشاء الله ، إلى آخره. وروي أنه قرأ أمير المؤمنين والسجاد وجعفر بن محمد عليهم السلام (أفلم يتبين) ونسبت تلك القراءة إلى جماعة من الصحابة والتابعين ^(٣) . ولا بدّ من حمل القراءة في الروايات على التفسير.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان لجاح الكفار واقترحهم على النبي صلى الله عليه وآله سلّى قلبه الشريف بقوله : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على كفرهم وعنادهم ﴿تُصِيبُهُمْ﴾ وتنزل عليهم جزاء ﴿بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر والافتراح عليك واستهزائهم بك ﴿قَارِعَةً﴾ وداهيّة عظيمة تفزعهم وتفجأهم من البلايا والمصائب الشديدة ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ وتنزل الداهية ﴿قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ وبلدهم وهو مكة ، ويفزعون ويضطربون ، وتصل إليهم شرارها ، ويتعدّى إليهم شرورها ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ من الموت أو القيامة.

وقيل : إنّ المعنى لا يزال كفّار مكّة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وآله من العداوة والتكذيب قارعة ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة ، وتختطف منهم ، وتصيب من مواشيهم ، أو تحلّ أنت - يا محمّد - قريباً من دارهم بجيشك ، كما حلّ بالحديبية حتى يأتي وعد الله ، وهو فتح مكة ، وقد كان الله وعده ذلك ^(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

عن الباقر عليه السلام : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ، وهي النّقمة ، أو تحلّ قريباً من دارهم ، فتحلّ بقوم غيرهم فيرون ذلك ويسمعون به ، والذين حلّت بهم عصاة كفّار مثلهم ولا يتّعظ بعضهم ببعض ، ولا يزالون كذلك حتى يأتي وعد الله الذي وعد المؤمنين من النصر » الخبر ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٧٧.

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٥٣.

(٣) مجمع البيان ٦ : ٤٤٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٧١.

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٥٤.

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٦٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٧١.

ثم لما كان اقتراح الكفار على النبي ﷺ مقرونا باستهزائه ، بالغ سبحانه في تسليته بقوله : **﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾** كما استهزا قومك بك **﴿فَأْمَلَيْتُ﴾** وأمهلته **﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** في الأخذ والعقوبة **﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾** بغتة بالعقاب **﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾** النازل على هؤلاء الأقوام ، وكيف رأيت وسمعت معاملتي معهم ؟ ! وفي الاستفهام التعجبي ^(١) إشارة إلى غاية شدة عقوبتهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾

ثم وبخ الله المشركين على ضعف عقولهم بإظهار التعجب من سوء عقيدتهم بقوله : **﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾** وقاهر **﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾** من النفوس ، مؤمنة كانت أو كافرة ، وقيم عليها ، وعالم **﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾** من الطاعات والسيئات وجازيها حسب استحقاقها من الثواب والعقاب ، كيف يمكن أن يكون كالأصنام التي لا قدرة ولا علم ولا شعور لها ، فما أعجب كفر هؤلاء إذ سووا بين الكامل القادر على كل شيء والعالم بكل شيء ، وبين الجمادات **﴿وَجَعَلُوا﴾** تلك الأصنام **﴿لِلَّهِ﴾** العظيم المتعال **﴿شُرَكَاءَ﴾** في الألوهية والعبادة مع علمهم بعدم التساوي بينهما.

وقيل : إنَّ المعنى أضمن هو قائم على كل نفس بما كسبت لم يوحدوه ولم يعجده ، وجعلوا لله شركاء ^(٢) .

ثم أمر نبيه بإقامة الحجة على بطلان شركهم بقوله : **﴿قُلْ﴾** يا محمد ، هؤلاء المشركين ما هذه الأصنام التي تعبدونها ؟ **﴿سَمُّوهُمْ﴾** وبيّنوا ما يقال لهم وصفوهم بأوصافهم ، فانظروا هل لهم صفة يستحقّون بها العبادة ، فان لم يكن لهم اسم يشير إلى تلك الصفة ، فكيف تشركون بهم مع الذات المستجمع لجميع الصفات الكمالية المعطى لكل شيء ما به كماله ؟

وقيل : إنّ كلمة (سمّوهم) كناية عن غاية حقارة الأصنام ، فإنَّ العرب تقول للشيء المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يكون قابلا للذكر وتسميته باسم لا اسم له ^(٣) : سمّه بما شئت ، يعني أنّه أحسن من أن يسمّى ويذكر ، ولكنك إنّ شئت أن تضع له اسما فافعل ، فإنّه في الحقارة إلى حدّ لا يستحقّ أن يلتفت إليه عاقل ^(٤) .

(١) في النسخة : التعجبي.

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٥٦ .

(٣) في تفسير الرازي : الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم ، فعند ذلك يقال :

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٥٦ .

ثمّ زاد سبحانه في الاحتجاج بقوله : ﴿أَمْ تُبَيِّنُونَهُ﴾ قيل : إنّ المعنى بل أخبرون الله ^(١) وتنبّئونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وجوده ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مع أنّه عالم ومحيط بما في السماوات والأرض لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة ، فإذا علمتم بالوهية الأصنام فقد علمتم بما لا يعلمه الله ، وهو محال ، فعدم علمه تعالى بالوهية هذه الأصنام وإله آخر غير ذاته المقدّسة ، إنّما هو دليل قاطع على عدم الوهية كلّ ما يدّعون الوهية في الأرض ﴿أَمْ﴾ يتفهّمون ﴿بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وصورة لفظ لا معنى ولا واقع لها ولا حقيقة ، فيكون من قبيل لقلقة اللسان ، أو يريدون من تسمية الأصنام باسم الإله ما يكون بذاته وصفاته في غاية البينونة مع الالوهية ، فيكون من قبيل تسمية الزنجيّ بالكافور.

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ عقيدة الشّرك ليس ممّا يكون نظر صاحبه إلى الدليل حتى يتكلّف بيان بطلانه أو إقامة الدليل العقلي على خلافة ﴿بَلْ زُيِّنَ﴾ بتسويات الشيطان واقتضاء الأهواء الرائعة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ واعتقادهم الفاسد وتخيّلهم الباطل ، فلا تكلف نفسك باقامة الحجّة العقلية على بطلان اعتقادهم ، لأنّهم لا ينتفعون بما ﴿وَصُدُّوا﴾ ومنعوا ﴿عَنِ﴾ طريق الحقّ و﴿السَّبِيلِ﴾ المستقيم بسلب توفيق سلوكها عنهم ، فأضلّهم الله ﴿وَمَنْ يَضِلِلِ اللَّهُ﴾ عن الهدى بالخذلان ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحقّ ، ويوصله إلى السعادة والخير.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ

وَاقٍ (٣٤)﴾

ثمّ بيّن سبحانه نتيجة ضلالهم وعاقبته بقوله : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقّ شديد ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومدة أعمارهم فيها بالقتل والأسر والحزى وسائر المصائب ﴿وَوَلَّى﴾ والله ^(٢) ﴿لَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ المعدّ لهم فيها ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب وأحزى لغاية شدّته ودوامه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ وقهره ﴿مِنْ وَاقٍ﴾ وحافظ يقيهم ويحفظهم منه.

في حديث المعراج : ثمّ أتى ﷺ على واد ، فسمع صوتاً منكراً ، فقال : « يا جبرئيل ، ما هذا الصوت ؟ » قال : صوت جهنّم تقول : يا ربّ إئتني بأهلي وبما وعدتني ، فقد كثرت سلاسل وأغلال وسعيري وحيمي وغسّاق وغسليني ، وقد بعد قعري ، واشتدّ حرّي ، ائتني بما وعدتني . قال : لك كلّ مشرك ومشركة وخبيث وخبيثة وكلّ جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت : رضيت ^(٣) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٧٩ .

(٢) كذا ، ولا موضع للقسم في الآية .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٠ .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ

عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد توعيد المشركين بالعذاب الدنيوي والآخروي وإظهار غضبه عليهم ، وعد الموحدين بالجنة الموصوفة بالصفات العالية ، وأعلن برحمته ولطفه بهم بقوله : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الشرك والمعاصي وصفتها العجيبة أنَّ فيها قصورا وغرفا وأشجارا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة من الماء واللبن والخمر والعسل و﴿أُكُلُهَا﴾ وثمراتها ﴿دَائِمٌ﴾ لا انقطاع لها ولا نفاد ﴿وَزُلْظُلُهَا﴾ أيضا دائم لا زوال له كما يزول في الدنيا بالشمس.

وقيل : إنَّ لفظ الظلِّ كناية عن الاستراحة ؛ لأنَّ الظلَّ عند العرب ممَّا يعظم فيه استراحتهم (١) .

﴿تِلْكَ﴾ الجنة الموصوفة بالأوصاف ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وما لهم ونتيجة أعمالهم ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ﴾ ومآل أمرهم في الآخرة ﴿النَّارُ﴾ التي سخرها الجبار بغضبه.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ

بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ (٣٦)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد إثبات توحيده ، وبيان كثير من المطالب العالية الموافقة لما في الكتب السماوية ، استدللَّ على صحتها بتصديق أهل الكتاب وعلمائهم لها بقوله : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من التوراة والانجيل وغيرهما من الكتب ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ؛ لأنَّهم يجدونه موافقا لما في كتبهم ، ومصداقا له.

عن الباقر عليه السلام : « أي يفرحون بكتاب الله إذا تلي عليهم ، وإذا تلاوه تفيض أعينهم دمعا من الفزع والحزن » (٢) .

وعن ابن عباس : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا ، أربعون بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنا وثلاثون بالحبيشة ، فهم فرحوا بالقرآن كلّهم لأنَّهم آمنوا به وصدّقوه (٣) .

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ وهم بقية أهل الكتاب وكفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ، ككعب بن الأشرف وأتباعه والسيد والعاقب أسقفي بنجران وأتباعهما ﴿مِنْ﴾ إذا سمع القرآن ﴿يُنْكِرُ﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٦٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٦٠ .

بَعْضُهُ ^(١) المخالف لشرائعهم.

عن ابن عباس : آمن اليهود بسورة يوسف ، وكفر المشركون بجميعه ^(١) .

وقيل : إنّ المراد من الكتاب القرآن ، فالمعنى أنّ أهل القرآن يفرحون بما انزل على محمد ﷺ من التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص ، ومن الأحزاب : الجماعات [من] اليهود والنصارى ^(٢) ، والمشركين فاتّهم يؤمنون ببعض القرآن من إثبات الله وإثبات علمه وقدرته وقصص الأنبياء ، وينكرون بعضه من توحيده وعدم الولد له وغيرهما ممّا يخالف عقائدهم وأحكامهم.

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات المبدأ وتوحيده ، أمر نبيّه ﷺ بالدعوة إليه ، وصرف الناس عن مطلق الشرك بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ من قبل ربّي ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ واطيعه في أحكامه ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ﴾ شيئاً من خلقه من الشمس والقمر والكواكب والأصنام وغيرها من الموجودات ، وأنا على حسب وظيفة رسالتي ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى خاصة ﴿أَدْعُوا﴾ الناس كلّهم ، أو المراد أخصّه بالدعاء إليه ، ولا أدعو معه غيره ﴿وَإِلَيْهِ مَابٍ﴾ كلّ أحد ممّي ومنكم للحساب والجزاء.

وقيل : إنّ المراد إنّما امرت فيما انزل إليّ بأن أعبد الله وأوحدّه ، وهو العمدة في الدين ، ولا سبيل لكم إلى إنكاره ، وأما ما تنكرونه من الأحكام المخالفة لشرائعكم ، فليس بيدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام ، وأنا إلى توحيده أدعو العباد وأقول : ﴿إِلَيْهِ مَابٍ﴾ وهذا هو المتفق عليه بين الأنبياء ، وأما ما عدا ذلك من الفروع فمما يختلف بالأعصار والامم ، فلا معنى لإنكار المخالف فيه ^(٣) .

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾

ما لك من الله من ولي ولا وافي (٣٧) ﴿﴾

ثمّ قرّر هذا المعنى وأوضحه بقوله : ﴿وَكَذَلِكَ﴾ والمراد كما أنزلنا على الرسل الذين كانوا قبلك كتاباً بلسان امهم فيه جميع أحكام شريعتهم ، كذلك آتينك القرآن و﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عليك حال كونه محتويّاً ^(٤) لجميع الأحكام التي يحتاج إليها الناس ، صحّ أن يقال : إنّ هذا الكتاب بنفسه يكون ﴿حُكْمًا﴾ في كلّ شيء.

وقيل : إنّ المعنى أنّه محكم لا يقبل النسخ والتغيير ^(٥) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٢ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٦٠ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٢ .

(٤) في النسخة : لا حتوائه .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٣ .

ولما كان قومك عربا جعلناه ﴿عَرَبِيًّا﴾ ليسهل عليهم فهمه وحفظه ، إذن فاتَّبِعْهُ وأعمل به ﴿وَلَّيْنِ اتَّبَعْتَ﴾ بدع المشركين و﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها ، وسلكت طريقتهم الباطلة التي مالت إليها طباعهم ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ﴾ قبل الله ﴿الْعِلْمِ﴾ بصحة دينك واستقامة طريقتك بالآيات الباهرة والبراهين المتقنة ﴿مَا لَكَ مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ﴾ ونقمته ﴿مِنْ وَلِيِّ﴾ وناصر يدفعه عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ وحافظ يحفظك منه .

روي أنّ المشركين كانوا يدعونهم ﷺ إلى [اتباع ملّة آبائهم المشركين ، وكان اليهود يدعونهم إلى] الصلاة إلى قبلتهم [أي بيت المقدس] بعد ما حوّل عنها ^(١) ، فتوعّده الله على متابعتهم . قيل : إنّ الغرض [منه] حتّ الرسول ﷺ على القيام بحقّ الرسالة وتحذيره من خلافها ، وفيه تحذير عامة المكلفين ^(٢) .

عن ابن عباس : الخطاب مع النبي ﷺ ، والمراد أمّته ^(٣) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوهُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

الْكِتَابِ (٣٨) و (٣٩)﴾

ثمّ لما كان من شبهاتهم في نبوته أنّه بشر ، ولا يكون النبي إلّا ملكا ، فدفعه الله بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرة عظيمة الشأن ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على عصرك ، كلّهم كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة .

ومنها أنّ محمّدا لو كان نبيا لما كان مشغولا بالنساء ، بل كان معرضا عنهنّ مشغولا بالعبادة ، فردّهم الله بقوله : ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فقد كان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة مهيّرة وسبعمائة سرّية ^(٤) .

ومنها أنّ محمّدا لو كان رسولا صادقا ، لكان يأتي بما طلبنا منه من المعجزات ، فأجاب الله تعالى عنها بقوله : ﴿وَمَا كَانَ﴾ وما صحّ ﴿لِرَسُولٍ﴾ من الرسل ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ ومعجزة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيتته التي يدور عليها أمر الكائنات .

ومن المعلوم أنّه لا يجب على الله أن يأذن في إثبات المعجزة إلّا بمقدار كاف في إثبات الرسالة

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٣ .

(٢ و ٣) تفسير الرازي ١٩ : ٦٢ .

(٤) المهيّرة : الغالية المهر ، والسرّية : الأمة التي أنزلتها بيتا .

حتى لا يبقى لأحد مجال الشك والترديد فيها ، وأما الزائد عليه فليس على الله بحتم ، بل إن شاء أذن وإن لم يشأ لم يأذن.

ومنها أنّ محمداً لو كان نبياً لأنزل علينا بالعذاب الذي أوعدنا به على إنكار التوحيد ورسالته ، فأبطلها سبحانه بقوله : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ وحادث قضاه الله ، أو لكل أجل من آجال الناس ، أو لكل وقت من الأوقات ﴿كِتَابٍ﴾ ووقت معين مثبت عند الله في اللوح المحفوظ لا يزداد ولا ينقص ، ولا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يطلع عليه أحد غيره ، فنزول العذاب على الكفار ونصرة الأنبياء ، وإن كانا مما قضاه الله ، ولكن لهما وقت معين مكتوب ، فلا يدل تأخيرهما على كون المخبر بهما كاذباً.

ومنها أن محمداً لو كان رسولا صادقاً لما نسخ الأحكام التي أنزل الله بها في الكتب السماوية كالطهارة والإنجيل ، فأزاحها الله بقوله : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ محو من الأحكام ، وينسخ ما يريد نسخه ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بدله ما يشاء إثباته من الأحكام على حسب اقتضاء المصلحة في الأزمنة المختلفة والامم المتغايرة.

وقيل : إنّ قوله : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾ كالمقدمة لتقرير دفع الشبهة ، إمّا بالقول بأنّ الكلام مقلوب ، والمعنى لكل كتاب من الكتب السماوية أجل ينزله فيه وقت يعمل به ، فوقت العمل بسائر الكتب قد انقضى وحضر وقت العمل بالقرآن ، أو المراد لكل حادث وقت معين قضى الله حصوله وبقائه فيه كالحياة والموت ، والغنى والفقر ، وغير ذلك ^(١) . فإذا لم يمتنع أن يحيي أولاً ثم يميت ثانياً ، فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات ثم ينسخه في بعض آخر منها ؟

ثمّ أنّه تعالى بعد تقرير هذه المقدمة قال : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ والمعنى أنّه يوجد تارة ويعدم تارة أخرى ، ويحيي تارة ويميت أخرى ، وكذلك يشرع الحكم وينسخه حسب ما اقتضته الحكمة والمصلحة .
وقيل : يحو من ديوان الحفظ الذين شغلهم كتب كل قول وعمل ما يترتب عليه الجزاء ويثبت الباقي . أو يحو سيئات التائب ويثبت مكانها الحسنات . أو يحو قرنا ويثبت آخرين . أو يحو الفاسدات من العالم الجسماني ، ويثبت الكائنات . أو يحو الرزق ، ويثبت ويزيد فيه . أو يحو الأجل أو السعادة والشقاوة ^(٢) . وروى [هذا] ^(٣) عن جابر ، عن النبي ﷺ ، والظاهر تعميم المحو والاثبات للكل ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٦٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٢٧ .

(٣) في تفسير أبي السعود : وهذا رواه .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ : ٢٧ .

﴿وَعِنْدَهُ﴾ تعالى ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأصل الكتب المحفوظه من المحو والتغيير ، إذ ما من المحو والثابت إلّا فيه ، ولذا يسمّى باللوح المحفوظ.

عن الصادق ، عن أبيه عليه السلام ، قال « قال رسول الله ﷺ : إنّ المرء ليصل رحمه وما بقي من عمره إلّا ثلاث سنين ، فيمده الله إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وإن المرء ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة ، فينقصه الله إلى ثلاث سنين أو أدنى » وكان الصادق عليه السلام يتلو هذه الآية (١) .
وعنه عليه السلام : أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « إنّ ذلك الكتاب كتاب يححو الله فيه ما يشاء ويثبت ، فمن ذلك الذي يردّ الدعاء القضاء ، وذلك الدعاء مكتوب عليه : الذي يردّ به القضاء ، حتى إذا صار إلى أم الكتاب لم يغن الدعاء فيه شيئا » (٢) .

أقول : هكذا الرواية في النسخة. وعنه عليه السلام : أنّه سئل عن قول الله تعالى : ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (٣) قال : « كتبها لهم ثم محّاها ، ثم كتبها لأبنائهم فدخلوها ، والله يححو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٤) .
عن النبي ﷺ : « هما كتابان كتاب سوى أم الكتاب يححو الله منه ما يشاء ويثبت ، وأم الكتاب لا يغيّر منه شيء » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام : « الأمر (٦) أمران : موقوف ومحتوم ، فما كان من محتوم أمضاه ، ما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء » (٧) .
وعنه عليه السلام : « إذا كانت ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتب إلى سماء الدنيا ، فكتبوا ما يكون من قضاء الله تبارك وتعالى [في] تلك السنة ، فإذا أراد الله أن يقدم شيئا أو يؤخره أو ينقص شيئا [أو يزيد] أمر الملك أن يححو ما يشاء ، ثم أثبت الذي أراد » (٨) .

وعنه عليه السلام : « هل يححو إلّا ما كان ثابتا ، وهل يثبت إلّا ما لم يكن » (٩) .
وعن الباقر عليه السلام ، قال : « كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول : لو لا آية في كتاب الله لحدّثكم

بما يكون

(١) تفسير العياشي ٢ : ٤٠٠ / ٢٢٥٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٤ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٠٠ / ٢٢٥٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٥ .

(٣) المائدة : ٥ / ٢١ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٦ / ١٢٣٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٤ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٤٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٥ .

(٦) في مجمع البيان : هما .

(٧) مجمع البيان ٦ : ٤٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٥ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٣٩٥ / ٢٢٤١ ، تفسير القمي ١ : ٣٦٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٤ .

(٩) تفسير العياشي ٢ : ٣٩٥ / ٢٢٣٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٤ .

إلى يوم القيامة. فقلت له : أية آية ؟ قال : قول الله : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) .
وعنه عليه السلام : « العلم علمان ؛ فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحد من خلقه ، وعلم علمه ملائكته ورسله ، فما علمه ملائكته ورسله فأنه سيكون ، لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله ، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء [ويمحو ما يشاء] ويثبت ما يشاء »^(٢) .

أقول : لا منافاة بين تلك الروايات إلا الأخيرة ، ولا يهتّم الجمع بينهما لعدم حجّيتهما .
ثمّ العجب من الفخر الرازي حيث إنّه ينسب القول بالبداء الحقيقي إلى الشيعة . قال في تفسيره :
قالت الرافضة : البداء جائز على الله تعالى ، وهو أن يعتقد شيئا ثمّ يظهر له أنّ الأمر بخلاف ما اعتقده ، وتمسّكوا فيه بقوله : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾
ثمّ قال : واعلم أنّ هذا باطل ؛ لأنّ علم الله من لوازم ذاته المخصوصة ، وما كان كذلك كان دخول التغيّر والتبدّل فيه محالا^(٣) ، انتهى .

فإنّ أحدا من الشيعة لم يجوّز البداء الحقيقي عليه تعالى ، وقوله : يكون العلم من لوازم ذاته تعالى ، في غاية الفساد ؛ لأنّ اللازم مغاير في الوجود مع ملزومه ، وتلك الغاية مقتضية لكون العلم عارضا لذاته المقدّسة ، وهو محال ، فإن الواجب لا يمكن أن يكون معروضا لعارض أبدا ، فلا بدّ من كون العلم عين ذاته ، بمعنى أنّه ينتزع من إحاطته على الموجودات - وقیوميته عليها ، وحضورها عنده نحو حضور المعلول عند العلة - مفهوم العلم له ، مع أنّه ليس لهذا المفهوم خارج إلّا ذاته البحت البسيط على الإطلاق ، وعليه فلا يمكن القول بالبداء الحقيقي ؛ لأنّه مستلزم للعلم بعد الجهل ، بل مرادهم أنّ الله تعالى يظهر ما هو في صورة البداء مع أنّه ليس ببداء في الواقع كالنسخ في الأحكام ، مع أنّه ليس بنسخ في الحقيقة ، بل هو إظهار غاية الحكم مع توهم الناس إطلاقه وأبديته من إطلاق الخطاب ، بل القائل بالبداء الحقيقي هو وأصحابه الذين يروون عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ « أن الله سبحانه وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء »^(٤) وهذا الكتاب الذي في الرواية هو اللوح المحفوظ ، ومن المعلوم من مذهبنا أنّه محفوظ من التغيّر .

﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا

(١) تفسير العياشي ٢ : ٣٩٤ / ٢٢٣٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٥ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٣٩٦ / ٢٢٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٦٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٦٦ .

الْحِسَابُ * أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا

مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤٠) * (٤١)

ثمّ أنه تعالى بعد رفع شبهات الكفار في نبوة نبيه ﷺ ، هدّدهم بالعذاب ، وأمر نبيه ﷺ بالثبات على التبليغ ، وعدم الاعتناء بترهاتهم بقوله : ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَعْضَ﴾ الْعَذَابِ ﴿الَّذِي﴾ نَعِدُهُمْ﴾ نزوله عليهم في الدنيا ﴿أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ، ونعذّبهم بعد وفاتك ، وعلى أيّ تقدير لا تعتن بمقالاتهم ، واشتغل بما هو وظيفتك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وبيان ما انزل عليك وإتمام الحجّة عليهم ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ومجازاة العصاة والطغاة في الدنيا والآخرة ، لا عليك.

ثمّ أنهم كيف ينكرون نزول العذاب عليهم مع أنهم يرون أمارات صدق وعدنا ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ التي سكنوها ^(١) ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وجوانبها باستيلاء المسلمين عليها وإلحاقها بدار الاسلام ، وإهلاك أهلها بالقتل ، وإذلالهم بالأسر ، وإجلالهم منها بالإلحاء ، وذلك من أعظم الأمارات وأقوى الدلالات على أنّ الله ينجز وعده.

عن ابن عباس : المراد من نقص أطرافها موت أشرفها وكبرائها وعلمائها ، وذهاب الصلحاء والأخيار ^(٢) .

وقيل : ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ يعني بموت أهلها ، وتخريب ديارهم وبلادهم ^(٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « يعني بذلك ما يهلك من القرون ، فسّمَاهُ إتيانا » ^(٤) .

أقول : فيكون المراد أنهم كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال تلك الوقائع.

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ بما يشاء ، وقد حكم بنزول الدواهي والبلايا على الكفار ، وبنصرة المسلمين عليهم ﴿لَا مُعَقَّبَ﴾ ولا رادّ ﴿لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ بل هو نافذ في كلّ شيء .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ

الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ (٤٢)

ثمّ بالغ سبحانه في تأكيد وعده بقوله : ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الامم ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم ^(٥) وسعوا في الاضرار بهم ، كما مكر كفار قومك بك وديروا في قتلك ، وصرف الناس عنك ، وفي إبطال

(١) في النسخة : سكنوها.

(٢) و (٣) تفسير الرازي ١٩ : ٦٧ .

(٤) الاحتجاج : ٢٥٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٦ .

(٥) كذا أثبتناها ، وهي في النسخة غير مقروءة.

دعوتك وتكذيب نبوتك ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ بهم بأنواعه ﴿جَمِيعاً﴾ فإنه يبطل سعيهم ويعذبهم بأنواع العذاب من حيث لا يشعرون.

القمي : المكر من الله هو العذاب ^(١) . وقيل : يعني بيده أسباب المكر جزاؤه ^(٢) .
ومن مكره أنه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾ وتعمل ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس من خير أو شر ويهيء جزاءه ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ البتة ، حين يعمل بمقتضى علمه ويوفي جزاء كل نفس على ما كسبت أنه ﴿لِمَنْ﴾ يكون من الفريقين ﴿عُقُوبَى﴾ محمودة لهذه ﴿الدَّارِ﴾ الفانية.
قيل : إن المراد سيعلم الكفار من يملك الدنيا ^(٣) .

روي أن النبي ﷺ أمر في غزوة بدر أن تطرح جيف الكفار في القليب ، وكان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال إلى أن قال الراوي : ثم مشى ﷺ وتبعه أصحابه حتى وقف على شفير القليب ، وجعل يقول : « يا فلان يا فلان ، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً ، فاني وجدت ما وعدني حقاً » ^(٤) الخبر.

روي أن أبا لهب قد تأخر في مكة ، وعاش بعد أن جاء الخبر عن مصائب ^(٥) قريش بيدراً أياماً قليلة ، ثم رمي بالعدسة - وهي بثرة تشبه [العدسة ، من جنس] الطاعون - فقتلته ، فلم يحفروا له حفرة ، بل أسندوه إلى حائط ، وقذفوا عليه الحجارة خلف الحائط حتى واروه ، لأن العرب كانت تتشأم بالعدسة ، ويرون أنها تعدى أشد العدوى ^(٦) .

وفي رواية : حفروا له ثم دفعوه بعود في حفرتهم ، وقذفوه بالحجارة [من بعيد] حتى واروه ^(٧) .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ

﴿عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾

ثم أتته تعالى بعد حكاية استهزاء الكفار بالرسول ﷺ ومكرهم به ، حكى تصريحهم بانكار رسالته بقوله : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المشركين واليهود لك : ﴿لَسْتَ﴾ يا محمد ﴿مُرْسَلًا﴾ من قبل الله ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ على رسالتي وحاكما ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدق دعواي ، فإن إظهاره المعجزات الدالة على رسالتي شهادة قاطعة منه عليها ، ﴿وَوُكِّدَ﴾ كذا ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وإحاطة كاملة بمجهرات إعجاز القرآن ، وهم المؤمنون المصدقون به المتدبرون فيه.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٦٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٨٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٠ .

(٥) في تفسير روح البيان : مصاب.

(٦ و ٧) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٠ .

روى العلامة في (نخب الحق) عن العامة ، عن ابن عباس ، قال : هو علي عليه السلام ^(١) .

وفي (المجالس) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل عن هذه الآية قال : « ذاك أخي علي بن أبي طالب » ^(٢) .

وعن (الاحتجاج) : سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام عن أفضل منقبة له فقرأ الآية وقال : « إيانا ^(٣) عني بمن عنده علم الكتاب » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام قال : « إيانا عني ، وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي صلى الله عليه وآله » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « نزلت في علي عليه السلام ، إنه عالم هذه الأمة بعد النبي صلى الله عليه وآله » ^(٦) .

عن الصادق عليه السلام : « هو أمير المؤمنين عليه السلام » ^(٧) .

وقيل : إنَّ المراد به عبد الله بن سلام ^(٨) . وروى بعض العامة عن عبد الله بن سلام : أنَّ هذه الآية نزلت في ^(٩) .

وقال الفخر : روي عن سعيد بن جبير أنه يبطل هذه الوجه ، ويقول : إن السورة مكية ، وإسلام عبد الله كان في المدينة ^(١٠) .

وقال القاضي في (إحقاق الحق) : قد علمت فيما مرَّ أنَّ رواية نزول الآية في عبد الله بن سلام موضوعة ، وأنَّ عبد الله بن سلام نفسه روى ذلك في شأن علي عليه السلام ^(١١) .

والعياشي : عن الباقر عليه السلام أنه قيل له : هذا ابن عبد الله بن سلام يزعم أنَّ أباه الذي يقول الله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ؟ ﴾ قال : « كذب ، هو علي بن أبي طالب عليه السلام » ^(١٢) .

أقول : يؤيده جميع الروايات الواردة بطرق الخاصة والعامة في أنَّ المراد بالشاهد في قوله تعالى : ﴿ وَتَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ^(١٣) علي بن أبي طالب عليه السلام ^(١٤) .

(١) نخب الحق : ١٨٨ .

(٢) أمالي الصدوق : ٦٥٩ / ٨٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(٣) في المصدر : إياي .

(٤) الاحتجاج : ١٥٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٤٠١ / ٢٢٥٥ ، الكافي ١ : ١٧٩ / ٦ ، الخرائج والجرائح ٢ : ٧٩٩ / ٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٤٠١ / ٢٢٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٦٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ٦٩ .

(٩) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩١ .

(١٠) تفسير الرازي ١٩ : ٦٩ .

(١١) إحقاق الحق ٣ : ٢٨٠ - ٢٨٥ و ٤٥٢ .

(١٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٠١ / ٢٢٥٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٧ .

(١٣) هود : ١١ / ١٧ .

(١٤) انظر : بحار الأنوار ٣٥ : ٣٨٦ - ٣٩٤ ، وإحقاق الحق ٣ : ٣٥٢ و ١٤ : ٣٠٩ - ٣١٤ و ٢٠ : ٣٣ - ٣٦ .

في تفسير سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾

قد تمّ تفسير سورة الرعد بتوفيق الله ومثله ، ويتلوها سورة إبراهيم بمناسبة تضمّن الاولى أدلة المبدأ والمعاد ، وضرب مثلين للحقّ الذي هو التوحيد ، والباطل الذي هو الشرك ، وحكاية استهزاء الامم السابقة برسلمهم ومكر الكفار بهم ، ووعد المتمرّدين بالعقوبة ، واختتامها بحكاية إنكار كفّار مكّة رسالة الرسول ﷺ ، واستدلال الله عليها بمعاجزه وإعجاز كتابه ، وافتتاح الثانية بالاستدلال على رسالته بالقرآن المجيد ، وتضمّن حكاية معارضة الامم برسلمهم ، وتهديد المعارضين بالعذاب ، وضرب المثل للتوحيد والشرك ، وذكر مكر كفّار مكّة لابطال الحقّ وتشديد الباطل ، فابتدأ سبحانه فيها بذكر أسمائه الحسنى بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثمّ افتتحها بقوله : ﴿الر﴾ وقد مرّ تأويلها وبيان الحكمة في الافتتاح بها.

ثمّ استدللّ سبحانه بكتابه الكريم على رسالة رسوله ﷺ بقوله : ﴿كِتَابٌ عَظِيمُ الشَّانِ ، مشتمل على المعجزات الدالة على رسالتك ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ من اللوح المحفوظ ﴿إِلَيْكَ﴾ بتوسّط جبرئيل ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ كافه بتلاوته عليهم ، ودعائك إياهم إلى التدبّر فيه والعمل به ﴿مِنْ﴾ أنواع الكفر والضلال التي هي مثل ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ في كونها موجبة لنهاية التحير ﴿إِلَى﴾ الإيمان والهدى الذي هو مثل ﴿النُّورِ﴾ في إضاءة طريق الحقّ وكمال إيضاحه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم وتوفيقه وحوله.

ثمّ أوضح المراد من النور بأبداله بقوله : ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ﴾ القادر ﴿الْحَمِيدِ﴾ في فعاله وأنعامه ، وهو دين الاسلام. قيل : هو استئناف ، كأنّه قيل : إلى أي نور ؟ فقال : ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(١) . وفي ذكر الوصفين إشعار بكون سالكه آمن محمود العاقبة.

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ٣٠ .

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ﴾ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢) و (٣) ﴿

ثم بالغ سبحانه في تفخيم شأن الصراط باضافته إلى ذاته المقدسة ، بذكر اسم الجلالة بيانا
للوصفين بقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [من] الموجودات الجسمانية والروحانية
والجوهريّة والعرضية بالملكية الاشراقية.

وقيل : إنّ المشركين كانوا يصفون الوثن بالعزير الحميد ^(١) ، فلذا كان مجال توهم إرادة الوثن من
الوصفين ، فرفع الابهام بقول له : ﴿اللَّهُ﴾

ثم هدّد سبحانه المنكرين للكتاب الممتنعين من الخروج من الظلمات بقوله : ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾
بكتاب الله ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في الآخرة.

ثم عرّف الكافرين بقوله : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ ويختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ولذائذها ويؤثرونها ﴿عَلَى
الْآخِرَةِ﴾ ونعمها الدائمة.

عن ابن عباس : يأخذون ما تعجل فيها تهاونا بأمر الآخرة ^(٢) . ولا يقنعون بضلالة أنفسهم ،
بل يمنعون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الحق ، ويطلبون لتلك السبيل
﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ بشبهاتهم ﴿عِوَجًا﴾ وانحرافا.

قيل : كانوا يقولون : إنّ دين الاسلام سبيل معوجة منحرفة عن الحق ، لا توصل إلى المقصود ^(٣).
﴿أُولَئِكَ﴾ الضالون المضلّون منغمرون ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحق غاية البعد بحيث لا
يمكن ردهم إليه.

وقيل : إنّ المعنى اولئك في هلاك طويل لا زوال له أبدا ^(٤) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤) ﴿

ثم أنّه تعالى بعد المنّة على الناس بإنزال الكتاب ، ذكر منته الاخرى عليهم بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾
إلى النَّاسِ ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ لهدايتهم ﴿إِلَّا﴾ رسولا متكلمي ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ الذين هو فيهم وبلغتهم إن

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٧٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٤ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٥ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٧٩ .

كانت رسالته عامة ، أو بلغة الطائفة الذين ارسل إليهم إن كانت خاصة ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ ويوضح العلوم والمعارف والأحكام ﴿لَهُمْ﴾ بلسانهم حتى يكون فهمهم لها أسهل ، ووقوفهم على مقاصدها أكمل . قيل في قوله تعالى : ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ﴾^(١) وقوله : ﴿إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ دلالة على أنّ رسالة رسولنا عامة ، ورسالة غيره من الرسل خاصة بقوم معينين^(٢) .

عن النبي ﷺ - في حديث - : « ومن عليّ ربي ، وقال : يا محمد ، قد أرسلت كلّ رسول إلى أمته بلسانها ، وأرسلتك إلى كلّ أحر وأسود من خلقي »^(٣) .

أقول : لا بدّ من حمل عموم كلّ رسول على غير اولى العزم ، لوضوح كون رسالتهم عامة أيضا . ثمّ نبّه سبحانه على أنه مع ذلك تكون الضلالة بخذلانة والهداية بتوفيقه بقوله : ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ عن الحقّ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ ضلالته بسلب التوفيق عنه المترتب على خبث ذاته وسوء أخلاقه وأعماله ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحقّ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه المترتب على طيب طينته وحسن أخلاقه وأعماله ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ، القادر على إنفاذ مشيئته ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله ، لا يصدر منه إلّا ما هو الأصلح والأصوب .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه حكمة إرسال النبي وإنزال الكتاب إليه ، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، بيّن أنّ إرسال موسى ﷺ أيضا كان لذلك بقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل متلبسا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على رسالته من المعجزات التسع ، وقلنا له : ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وخلصهم من الكفر والضلال ، واهداهم إلى الإيمان والمعرفة واليقين .

قيل : إنّ المراد بإخراج بني إسرائيل من الظلمات ، إخراجهم بعد إهلاك فرعون من الجهالة التي أدّتهم إلى عبادة العجل^(٤) .

وقيل : إنّ المراد القبط^(٥) .

ثمّ أمر موسى ﷺ بوعظهم بقوله : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ والوقائع التي وقعت للامم السابقة من العقوبات النازلة عليهم بالكفر ومعارضة الرسل .

(١) إبراهيم : ١٤ / ١ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٧٩ ، وفي النسخة : معين ، بدل : معينين .

(٣) الخصال : ٤٢٥ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٧٩ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٣٩٨ .

وقيل : أيام الله : نعمائه وبلاياه ^(١) ، والمعنى : رغبهم في الطاعة بتذكيرهم النعم التي أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم من مصدقي الرسل ، وحذرهم عن التكذيب والمخالفة بالبلايا النازلة على مكذبي الرسل.

عن الصادق عليه السلام : « بنعم الله وآلائه » ^(٢) .

وعن الباقر عليه السلام : « أيام الله عز وجل [ثلاثة] : يوم قيام القائم ، ويوم الكثرة ، ويوم القيامة » ^(٣) .

ثم نبه سبحانه على علّة التذكّار بقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ المذكور من الأيام والوقائع والله ^(٤) ﴿ **لآيَاتٍ** ﴾ وعلامات لتوحيد الله وقدرته وعظمته ، ولكن الانتفاع بها ﴿ **لِكُلِّ** ﴾ مؤمن ﴿ **صَبَّارٍ** ﴾ على لا الشدائد والطاعات وكلّ ﴿ **شَكُورٍ** ﴾ لنعم الله .

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾
﴿ **يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوْنَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ** ﴾
﴿ **بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ ^(٦)

ثم أمر سبحانه بتذكّر قيام موسى عليه السلام بأداء وظيفته بقوله : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ** ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ** ﴾ وخلصكم بلطفه ﴿ **مِنْ** ﴾ أيدي ﴿ **آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾ وقومه فآثم كانوا ﴿ **يَسُومُونَكُمْ** ﴾ ويزوقونكم أو يكلّفونكم ﴿ **سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ وشديده من استعبادكم وتحميل الأعمال الشاقة عليكم والإهانة لكم ^(٥) ، ﴿ **وَوَ** ﴾ كانوا ﴿ **يُدَّبُّوْنَ أَبْنَاءَكُمْ** ﴾ المولودين لكم ، ويكثرون القتل فيهم ﴿ **وَيَسْتَحْيُونَ** ﴾ ويستبقون ﴿ **نِسَاءَكُمْ** ﴾ من الأزواج والبنات ، ليكن إماءهم ﴿ **وَفِي ذَلِكَ** ﴾ المذكور من الأعمال الفظيعة أو الانجاء ﴿ **بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ شأنه .

﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنْ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** * وَقَالَ ﴾

﴿ **مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴾ ^(٧) و ^(٨)

ثم أنّه تعالى بعد تذكيرهم نعمة ربه ، حثهم على الشكر بقوله : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنْ** ﴾ وأوجب ﴿ **رَبُّكُمْ** ﴾ على نفسه ، أو المراد : واذكروا حين نادى بلسان رسله فيكم ، أيّها الناس والله ﴿ **لَئِنْ شَكَرْتُمْ** ﴾ نعمي

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٥١٣ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٣٣ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٠٣ / ٢٢٦٠ ، مجمع البيان ٦ : ٤٦٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٠ .

(٣) الخصال : ١٠٨ / ٧٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٠ .

(٤) كذا ، ولا موضع للقسم في الآية .

(٥) في النسخة : بكم .

﴿لَا زَيْدَنَّكُمْ﴾ ولاضاعفنها لكم ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ نعمة من نعمائي بترك شكرها أو صرفها في معصيتي ، لأسلبها منكم ، ولاعذبَنَّكم على الكفران ، وإنما أشار إلى هذا التهديد بقوله : ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لأنَّ دأب الكرام - على ما قيل - عدم التصريح بالوعيد ، فكيف بأكرم الأكرمين ^(١) .

عن الصادق عليه السلام : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرَّفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتمَّ كلامه حتى يؤمر له بالمزيد » ^(٢) .

وعنه عليه السلام : « من عرف نعمة الله بقلبه استوجب المزيد من الله قبل أن يظهر شكرها على لسانه » ^(٣) .

وعنه عليه السلام : « ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : الحمد لله ، إلا أدى شكرها » ^(٤) .

وفي رواية : « وكان الحمد أفضل من تلك النعمة » ^(٥) .

وعنه عليه السلام في تفسير وجوه الكفر « الوجه الثالث من الكفر كفر النعم ، قال : ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ » ^(٦) .

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ زجراً عن الكفران : يا بني إسرائيل ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الجن والإنس ﴿جَمِيعاً﴾ نعم الله فلن تضروا الله شيئاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنكم وعن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في ذاته مستحق للحمد بإنعامه ، وإن لم يحمد حامداً ، مع أنَّ جميع الموجودات يسبحه ويحمده ، وإنما يريد شكركم لاحتياجكم إلى منفعه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أُنُفُسَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٠٠ .

(٢) الكافي ٢ : ٧٨ / ٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٠ .

(٣) الكافي ٨ : ١٢٨ / ٩٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٠ .

(٤) الكافي ٢ : ٧٩ / ١٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٨١ .

(٥) الكافي ٧ : ٧٨ / ١٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٨١ .

(٦) الكافي ٢ : ٢٨٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨١ .

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٩) و (١٢)

ثم بالغ **عَالِيًّا** في وعظهم بتذكيرهم الوقائع العظيمة والبلايا النازلة على مكذبي الرسل بقوله : **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾** ولم يبلغكم يا قوم **﴿نَبَأُ﴾** الامم **﴿الَّذِينَ﴾** كانوا **﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** وفي الأعصار السابقة على عصركم من **﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾** كيف اهلكوا بالطوفان **﴿وَقَوْمِ عَادٍ﴾** كيف اهلكوا بريح صرصر عاتية **﴿وَقَوْمِ ثَمُودَ﴾** كيف اهلكوا بالرجفة **﴿وَالَّذِينَ﴾** كانوا **﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾** كقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وغيرهم من الأقوام الذين **﴿لَا يَعْلَمُهُمْ﴾** عددا وحالا **﴿إِلَّا اللَّهُ﴾** لكثرتهم وقطع الأخبار عنهم.

ثم كأنه قيل : ما كان إجمال قصتهم ؟ فأجاب سبحانه بقوله : **﴿جَاءَتْهُمْ﴾** من قبل الله **﴿رُسُلُهُمْ﴾** المبعوثون لهدايتهم مستدلّين **﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾** الباهرات على صدق نبوتهم ، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وينجّوهم من الكفر والجهالة ويهدوهم إلى الحق ، فلما دعوا أقوامهم إليه **﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾** ليعضّوها تضحّرا من مقالة الرسل ، كما عن ابن عباس وابن مسعود ^(١) .

وقيل : وضعوها عليها تعجّبا من قولهم واستهزاء بهم ، أو أمرا لهم بالكفّ وبإطباق أفواههم ^(٢) ، أو إشارة إلى ما يصدر من ألسنتهم من المقالة اعتناء بشأنها ، وتنبهها للرسل على تلقّيها والمحافظة عليها ، وإقناطاً لهم عن تصديقهم والإيمان بهم.

وقيل : يعني ردّ الأقوام أيديهم في أفواه الرسل ليمنعوهم من التكلم بالدعوة ^(٣) .

وقيل : يعني ردّ الرسل أيديهم في أفواههم تعجّبا من عتوّهم وعنادهم ^(٤) **﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾** بزعمكم من وجوب عبادة إله السماء وتوحيده ، أو من المعجزات التي أتيت بها وأنكرناها **﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ عَظِيمٍ﴾** ممّا تدعوننا إليه من التوحيد والرسالة **﴿مُرِيبٍ﴾** ذلك الشكّ ، وموقع قلوبنا في القلق والاضطراب بحيث لا يطمئنّ بشيء **﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾** إنكارا عليهم وتعجّبا من مقالاتهم الحمقاء : **﴿أَفَبِي﴾** شأن **﴿اللَّهِ﴾** من وجوده وتوحيده ووجوب الإيمان به **﴿شَكٍّ﴾** ما ، مع أنّه أظهر من كلّ شيء ، لكونه **﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ومبدعهما ، لوضوح كونهما حادثين معروضين للحركة والتغيير ، وكونهما حتمين مقدرين محدودين ، فاذا ثبت حدوثهما فلا بدّ من انتهاء وجودهما إلى موجد واجب ، فمن كان العالم من السماوات والأرض وما فيهما شاهدا على وجوده يكون أظهر من كلّ ظاهر.

(١) مجمع البيان ٦ : ٤٦٩ ، تفسير الرازي ١٩ : ٨٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٣٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٨٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٣٦ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ : ٣٦ .

ثم لما نسب الكفار الدعوة إليهم نفوها عن أنفسهم ونسبوها إلى الله بقولهم : ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ الله إليه وإلى توحيده بالسنتنا ﴿لِيُغْفِرَ لَكُمْ﴾ ما كان بينكم وبينه ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ لا ما كان بينكم وبين الناس من المظالم.

وقيل : إن كلمة (من) زائدة ^(١) ، والمراد ليغفر لكم جميع ذنوبكم ، وفيه بشارتكم بغاية الرحمة والكرم.

ثم بشروهم بجزائهم في الدنيا بقولهم : ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ ويؤجل موتكم ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وآخر أعماركم التي قدر لكم فيها بأن لا ينزل عليكم العقوبة والهلاك.

عن ابن عباس ، قال : المعنى يمتنعكم في الدنيا بالطيبات واللذات إلى الموت ^(٢) .

ثم استدلل الكفار على بطلان دعوى الرسل و﴿قَالُوا﴾ أولا : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ويمتنع أن يكون الرسول من البشر ، بل لا بد أن يكون ملكا ، أو المراد لا فضيلة لكم علينا ، فإرسالكم ترجيح بلا مرجح.

وثانيا : أن آباءنا الأقدمين مع وفور عقلهم كانوا يعبدون الأصنام في أعمارهم المتطولة ، فلا بد لنا من أن نتبعهم ولنلتزم بما التزموا به ، وأنتم ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصْدُونَا﴾ وتصرفونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام إلى عبادة الله.

وثالثا : يجب عليكم أن تاتونا بالدليل القاطع على دعواكم وما اتبتم به وسميتموه معجزة ، وحسبتموه دليلا على صدق دعواكم ، فما علمنا بكونه إعجازا وخارجا عن طوق البشر ، فان كنتم صادقين في دعوى الرسالة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ومعجزة لا يشك في كونها معجزة حتى نصدقكم في دعوى رسالتكم ، ونصرف عما كنا ثابتين عليه من عبادة الأصنام ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ إلزاما لهم وإبطالا لقولهم : نعم ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصورة ، ولا مجال لانكاره ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ﴾ وينعم بالنبوة والوحي ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ نبوته ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ نظرا إلى طيب طيبته ووفور عقله ، وقوه نفسه ، وكمال صفاته ، وتنور قلبه ، وشرح صدره ، فإن النبوة منصب يعطيه الله من يراه قابلا له من جهة كمال نفسه وصلوحيه للوساطة بينه وبين خلقه فيوحي إليه.

ثم لما كان دليل التقليد أظهر فسادا من أن يحتاج إلى الجواب ، أعرضوا عنه ولم يتعرضوا لدفعه ، وأجابوا عن اعتراضهم الثالث ، وحاصله : إنا عبيد مربوبون ﴿وَمَا كَانَ﴾ يصح ﴿لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ ومعجزة جزئية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومشيعته فضلا عن السلطان المبين والمعجزة العظيمة

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٩٣ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٩٥ .

القاهرة التي تعتونها علينا ، وإنما اللازم على الله أن يأذن في إتيان ما هو حجة ظاهرة على رسالتنا من المعجزات ، وقد أتينا بها وأتممنا عليكم الحجة بها ، وأما ما تطلبونه تعتنا ولجأنا ، فهي أمور زائدة والحكم فيها لله إن شاء أذن لنا في إتيانها ، وإن لم يشاء لم يأذن.

ثم قيل : إن الرسل لما أجابوا عن شبهات المعترضين ، هددوهم وخوفوهم بالقتل والضرب ، فأجابه الرسل بآثا لا نخاف من وعيدكم ، فإننا توكلنا على الله الذي هو حافظنا وناصرنا ^(١) . ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ وإليه فليفوض الأمر ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ به ، فكيف بنا ونحن أنبياء ﴿وَمَا لَنَا﴾ وليس يليق بنا ﴿أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا نفوض أمورنا من الحفظ والنصر وغيرها إليه مع أننا نرى غاية لطفه بنا ، حيث إنّه قد عرفنا نفسه واصطفانا بالرسالة ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وأرشدنا إلى المنهج الذي شرع لنا ﴿وَوَاللَّهُ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ به من المكابرة والتكذيب والمعاداة ، ثم أعلنوا بأنّ وظيفة كل من اتبعهم التوكل بقولهم : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ

خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٣) و (١٤)﴾

ثم لما ألان الرسل في القول مع الأقوام ، حكى الله مبالغتهم في السفة بقوله : ﴿وَقَالَ﴾ عتاة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأقوام ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ باللات والعزى ، أو بالأصنام التي نعبدنا ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وديارنا ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾ ولترجعن ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ وإنما أمروهم بالعود مع أئهم لم يكونوا على ملتهم أصلا لاعتقادهم أئهم كانوا قبل ادعاء الرسالة على ملتهم ، أو لتغليب أتباعهم عليهم في الخطاب ، أو لإرادة الصيرورة من العود.

ثم لما بلغ عناد الكفار بالرسل إلى هذا الحدّ ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ اللطيف بهم : بعزتنا ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بعذاب الاستئصال هؤلاء ﴿الظَّالِمِينَ﴾ جميعا ﴿وَلَتُسْكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ﴾ التي سكنوها ، ولنمكنكم في البلاد التي تمكنوا فيها ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وبعد هلاكهم ﴿ذَلِكَ﴾ النصر على الأعداء باهلاكمهم وتوريث أرضهم حق ثابت عليّ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ ومحلي من العظمة والجلال والقهر ، أو خاف موقفي عند الحساب في القيامة ، أو خاف مقامي ومراقبي إياه ، أو المراد خافني ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ عن ابن عباس ، قال : خاف ما أوعدت من العذاب ^(٢) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٩٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٠١ .

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ
 * يَنْجَرُغُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
 وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (١٥) و (١٧)

ثم إنَّ الرسل بعد يأسهم من إيمان أقوامهم تضرعوا إلى الله ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ وسألوا الفتح والنصرة عليهم ، ففازوا بمقصودهم من النصر فنزل العذاب ، أو سألوا من الله القضاء بينهم وبين أعدائهم ففضى لهم ﴿وَخَابَ﴾ وحرَم من كلِّ خير ، أو خسر أو هلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ ومتكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ شديد العداوة. عن النبي ﷺ : « يعني من أبي أن يقول لا إله إلا الله » (١) . وعن الباقر عليه السلام : « العنيد : المعرض عن الحق » (٢) .

وقيل : المستفتحون هم الكفار ، فاتَّهم سألوا النصر على الرسل وخابوا وابتلوا بالعذاب. ثم أنَّه تعالى بعد بيان عاقبة الجبار في الدنيا ، بيّن سوء حاله في الآخرة بقوله : ﴿مِنْ وَرَائِهِ﴾ وخلفه ، أو من قدامه ﴿جَهَنَّمُ﴾ فاتَّما منزله في الآخرة ﴿وَيُسْقَى﴾ كلما عطش فيها ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ مخصوص ، وهو القيح المختلط بالدم ، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفروج الزواني على ما قيل (٣) ، سمي باسم ﴿صَدِيدٍ﴾ لصدِّ كراهته عن تناوله.

عن الصادق عليه السلام - في تفسير صديد - قال : « يسقى ممَّا يسيل من الدم والقيح من فروج الزواني [في النار] » (٤) .

وعن النبي ﷺ قال : « يقرب إليه [فيكرهه ، فإذا ادني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » (٥) الخبر .

﴿يَنْجَرُغُهُ﴾ ويشربه قليلا قليلا بتكلف ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يمكنه أن يتلعه بسهولة ، بل يغص به فيشره شيئا فشيئا بعسرة شديدة ، فيطول بشره عذابه بالحرارة تارة وبالعطش أخرى ، فمعنى ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ ليس عدم الامكان ، بل معناه الإبطاء.

ثم بالغ سبحانه في بيان غاية شدّة عذابه بقوله : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ وتحيط به أسبابه ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وجهة. وقيل : يعني من كلِّ جزء من أجزاء جسده (٦) ، حتى اصول شعره وإبهام رجله ﴿وَمَا هُوَ﴾

(١) التوحيد : ٢٠ / ٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٢ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٦٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤٠٦ .

(٤) مجمع البيان ٦ : ٤٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٢ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٤٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٤ .

بِمَيِّتٍ ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ وعقبه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وشديد غايته.

قيل : إنّ في كلّ وقت يرد عليه عذاب أشدّ ممّا قبله. وقيل : العذاب الغليظ : قطع الأنفاس وحبسها في الأجساد ^(١) . وقيل : إنّهُ الخلود ^(٢) .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا

يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

ثمّ بيّن سبحانه غاية خسارتهم بسبب ضياع أعمالهم الخيرية وعدم انتفاعهم بها بقوله : و﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وحالهم الغريبة التي هي كالمثل في الغربة ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ وقيل : إنّ المراد مثلهم فيما يتلى عليكم.

ثمّ كأنّه قيل : كيف يكون مثلهم ؟ أو ما بال أعمالهم التي عملوها في وجوه البرّ من صلة الأرحام ، وإعتاق الرقاب ، وإغاثة الملهوفين وأمثالها ؟ فاجيب بأنّ تلك الأعمال ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ﴾ ^(٣) ومرت ﴿بِهِ الرِّيحُ﴾ الشديدة بقوة وسرعة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وزمان شديد الريح ، فحملته وزهبت به ، فكما لا يوجد من الرماد في [ذلك] الوقت شيء ، ولا يرى له أثر ، فكذلك الكفار ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ وعلموا من الخيرات ﴿عَلَى﴾ تحصيل ﴿شَيْءٍ﴾ يسير منه ، ولا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، لكونه مع الكفر.

وقيل : إنّ المراد بأعمالهم عبادتهم الأصنام ، وما تكلفوه لهم دهرًا طويلاً باعتقاد الانتفاع به ^(٤) . وقيل : إنّ المراد كلا القسمين ^(٥) .

﴿ذَلِكَ﴾ الكفر الموجب لهذا الخسران ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿الصَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ والانحراف غير المتناهي عن طريق الصواب والخسران العظيم الذي لا يتصوّر له حدّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ كُفْرًا يَدْعُبُكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٩) و (٢٠)﴾

ثمّ لما بيّن سبحانه شدّة عذاب الآخرة ، وكان المشركون منكربين للمعاد ، استدللّ سبحانه عليه بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ، أو يا عاقل ببصيرة قلبك وحكم عقلك ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ﴾ بقدرته ﴿السَّمَاوَاتِ

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٤ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٠٨ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٥ .

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَالْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ والغرض الصحيح من معرفته بالوحدانية والحكمة ، لتناولها الدرجات والمقامات العالية والنعم الدائمة في الآخرة ، ومن المعلوم أنّ الذي له هذه القدرة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَعَذِّبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويخلق قوما آخرين بدلا منكم.

عن ابن عباس : هذا الخطاب مع كفار مكة ، يريد امتيكنم يا معشر الكفار وأخلق قوما خيرا منكم وأطوع ^(١) .

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ الإذهاب والإتيان ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الخالق للعالم ﴿بِعَزِيزٍ﴾ وصعب أو ممتنع ، فإنّ من كان قادرا على إيجاد العالم وإفناؤه ، قادر على إعدام الأشخاص المعينين وإيجاد أمثالهم ، بل أقدر.

﴿وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ

مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا

أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان كمال قدرته وحكمته الدالتين على المعاد ، بيّن سوء حال المشركين فيه ، وافتضح رؤسائهم ، وحسرة أتباعهم على متابعتهم بقوله : ﴿وَيَرْزُوا﴾ من القبور بعد إحيائهم فيها ، وظهروا ﴿لِلَّهِ﴾ ولأمره وخرجوا منها للمحاسبة [مع] قادتهم وأتباعهم ﴿جَمِيعاً﴾ لا يشذّ منهم أحد ، وإنّما عبّر بصيغة الماضي للإشعار بتحقيق الوقوع ، أو بتساوي الماضي والمستقبل إليه تعالى ﴿فَقَالَ﴾ السفلة ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ العقول والآراء ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ في الأرض وترأسوا عليهم ، واستتبعوهم في الكفر : أيها الرؤساء ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعاً﴾ في عبادة الأصنام وتكذيب الرسل وإيذائهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ اليوم ﴿مُعْتَدُونَ﴾ وكافون ودافعون ﴿عَنَّا﴾ بحقّ تبعيتنا لكم ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قليل ؟ فلمّا سمع الرؤساء التوبيخ من أتباعهم اعتذارا عن إغوائهم ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ في الدنيا بتوقيفه إلى دينه الحقّ والله ^(٢) ﴿لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ إليه ، ولكن أضلّنا بخذلانه عن سبيله ، فلذا أضلّلناكم واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا.

وقيل : إنّ المراد لو هداانا الله إلى طريق من طرق النجاة لهديناكم إليه ، وأغنيا عنكم [العذاب] كما عرّضناكم له ، ولكن سدّ علينا جميع طرق النجاة ^(٣) . إذن ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ وعليكم في عدم النجاة ﴿أَجْرُ عَنَّا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ عليه ، على أي تقدير ﴿مَا لَنَا﴾ من العذاب ﴿مِنْ مَحِيصٍ﴾

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٠٦ .

(٢) كذا ، ولا موضع للقسم في الآية.

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤١١ .

ومخلص أو مهرب.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢)

ثم لما حكى سبحانه اعتذار رؤساء الكفر من أتباعهم ، حكى اعتذار الشيطان الذي كان إغواء الجميع بوسوسته وتسويلاته بقوله : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ لأهل النار ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وتمت المحاسبة ، واستقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار .

قيل : عند ذلك يأخذ أهل النار في لوم إبليس ، فيقوم خطيبا بينهم ، ويقول : يا أهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ (١) في الدنيا في كتابه وعلى لسان رسله على الإيمان والطاعة ﴿وَعَدَ الْحَقِّ﴾ بالشواب .

قيل : إن إضافة الوعد إلى الحق إضافة الشيء إلى نفسه (٢) .

وقيل : إن المعنى وعد اليوم الحق ، أو الأمر الحق من البعث والجزاء على الأعمال فصدقكم (٣) .

كما تشاهدون ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي النعم الدنيوية .

وقيل : يعني وعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب (٤) ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ موعدي ، وظهر لكم كذبي ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ﴾ شيء ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقدرة وقهر حتى الجحيم إلى الكفر والعصيان ، ولم يكن متي في حقكم عمل ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلى طاعتي بتزيين القبائح في نظركم ، وترغيبكم بالتسويل إليها ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ ووافقتُموني طوعا واختيارا ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ فيما دعوتكم إليه بالكذب والباطل ؛ لأنني كنت لكم عدوا ، فعلت بمقتضى عداوتي ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث اخترتم طاعتي لحبكم لها واشتدائكم إياها ، مع علمكم بأيّ عدو لكم لا أريد خيركم ، فصدقتُموني فيما كذبتكم ، لكون أمري ملائما لهواكم ، وكذبتم الله فيما صدقكم لكون قوله مخالفا لطباعكم ، فأنتم أحق باللوم مني ، فالיום ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ومغيثكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ ومغيثي مما أنا فيه .

ثم قطع طمع أوليائه في إغاثته لهم بقوله : ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بالله في الطاعة ، وجعلتموني عدلا له في العبادة ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في دار الدنيا .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٢ ، تفسير الرازي ١٩ : ١١٠ .

(٢ و٣) (٤٢) تفسير الرازي ١٩ : ١١٠ .

قيل : إنّ المراد أنّ إشراككم لي بالله هو الذي أطمعكم في نصرتي لكم ، لأنكم تخيلتم أنّ لكم عليّ حقّ حيث جعلتموني معبودا ، وكنت أحبّ ذلك وأرغب فيه ، فالיום تبرأت منه ومنكم ، فليس بيني وبينكم علاقة (١) .

أو المراد أنّي كفرت بالله الذي جعلتموني شريكا له في العبادة من قبل ، وحين خلق آدم ، وأبيت عن السجود له ، أو من قبل كفركم ، فلا يمكنني أن اصرخكم لأنّ الكافر بمعزل عن الإغاثة والاعانة بالشفاعة (٢) .

ثمّ بالغ في قطع أطماعهم عن إغاثة بقوله : ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وقيل : إنّ قول الله تعالى بعد حكاية كلام إبليس (٣) .

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد شرح سوء حال الأشقياء في الآخرة شرح حسن حال السعداء والأتقياء فيها بقوله : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ووحدانيته ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كان المدخل هو الله أو الملائكة ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين ذات أشجار وقصور ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ومليكتهم اللطيف بهم مكرمين ومعظمين بحيث يخيّنون من قبل ربهم ، أو من قبل الملائكة ، وتكون ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال الله : ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ (٤) وقال في السور السابقة : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٥) .

وفي هذه التحية بشارة بالسلامة الأبدية من جميع آفات الدنيا وخسراتها ، وفنون آلامها وأسقامها ، وأنواع همومها وغمومها ، ومن عذاب الآخرة ومكارهها ، وفي ذكر عاقبة الفريقين إيقاظ للمؤمنين حتى يتدبروا في عواقبهم ، ويحاسبوا أنفسهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١١٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤١٣ .

(٤) يس : ٣٦ / ٥٨ .

(٥) الرعد : ١٣ / ٢٣ و ٢٤ .

يَتَذَكَّرُونَ (٢٤) و (٢٥)

ثم لما كانت السعادة الأبدية بالإيمان بالله وتوحيده والاقرار به ، أوضح سبحانه بقاء كلمة التوحيد وكثرة فوائدها بضرب المثل بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ، ببصيرة قلبك ونور نبوتك وقوة نظرك ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعا معجبا تامّ المطابقة للممثل له ، فتعجب منه ، وهو الكلمة الطيبة .
 قيل : إنّها كلمة (لا إله إلا الله) كما عن ابن عباس ^(١) . أو هي وسائر الأذكار كالتسبيح والتحميد ، والتكبير والاستغفار ، والقرآن والدعاء وغيرها من الكلمات الحسنة الصادرة عن المؤمن عن المعرفة وخلوص النية ، كما عن آخر ^(٢) .

وذلك المثل أنّه تعالى جعل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ صادرة من المؤمن في الطيب واللذة والحسن ، والثبات في النفس ، والرسوخ في القلب ، والبقاء في العوالم الإلهية من عالم الأجسام والأرواح والمثل ، والملكوّات والجبروت ، وفي ارتفاعها إلى العرش وفضاء عالم القرب ، وفي حسن الثمر وطيبه وكثرته ودوامه ، وكثرة الانتفاع به ، وهو محبة الله والتوحيد والتفويض إليه ، والتوكّل عليه والتسليم لأمره ، والرضا بقضائه ، والصبر على طاعته وبلائه ، والاعراض عن غيره ، والشوق إلى لقائه ، وفي كون جميع هذه الثمار بتوقيفه وتأنيده ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ حسنة الصورة والمنظر والريح ، والنفع والثمر ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ، وعروقها راسخة فيها بحيث لا يحتمل انقلاعها وانقطاعها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وغصنها متصاعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ المطل ^(٣) أو جهة العلوّ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ وتعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحيان ، وكلّ وقت من الأوقات ﴿يَاذِنُ رَبُّهَا﴾ وإرادة خالقها وتدير مدبرها .

عن النبي ﷺ : « أنّ هذه الشجرة الطيبة النّحلة » ^(٤) وهو مروي عن ابن عباس . وعنه : أنّ الحين ستة أشهر . وقيل : إنّّه شهران . وقيل : سنة ^(٥) ؛ لأنّه إذا ترك عليها الثمر انتفع به في جميع أوقات السنة ^(٦) .

وقيل : إنّ المراد بالشجرة شجرة تكون لها هذه الأوصاف التي يجب على العاقل تحصيلها والسعي في حفظها وادّحارها لنفسه ، وإن لم يكن لها وجود في العالم وكان فرضيا ^(٧) .

ثمّ تبه سبحانه على حكمة ضرب المثل بقوله : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ﴾ بتصوّر المحسوسات ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويفهمون المعقولات ويتصوّرون المعاني العالية عن الأفهام بتطبيقها على المشهودات .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٢٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٤٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤١٤ .

(٣) لفظ السماء مؤنث وقد يذكر .

(٤) مجمع البيان ٦ : ٤٨٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٥ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٤٨٠ ، تفسير الرازي ١٩ : ١٢٠ .

(٦ و ٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٢٠ .

عن الصادق عليه السلام : أنه سئل عن الشجرة في هذه الآية ، فقال : « رسول الله ﷺ أصلها ، وأمير المؤمنين فرعها ، والأئمة من ذريتهما أغصانها ، وعلم الأئمة ثمرتها ، وشيعتهم المؤمنون ورقها ، والله إن المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها ، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها » (١) .

وفي رواية (الاكمال) : « والحسن والحسين ثمرها ، والتسعة من ولد الحسين أغصانها » (٢) .
وفي رواية (المعاني) : « وغصن الشجرة فاطمة ، وثمرها أولادها ، وورقها شيعتها » (٣) . وزاد في (الاكمال) : « **تَوْنِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ** » ما يخرج من علم الامام إليكم في كل سنة من كل فج عميق » (٤) .
أقول : هذه الروايات في بيان تأويل الآية ، فلا منافاة بينها .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (٢٦)

ثم أنه تعالى بعد ضرب المثل للقول الحق وكلمة التوحيد ضرب مثلاً للقول الباطل وكلمة الشرك والكفر بقوله : ﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ** ﴾ قبيحة باطلة تصدر من الشقي ، وهي كلمة الشرك والكفر في قباحة الصورة ، وسوء المنظر ، وفتن الرائحة ، وكثرة الضرر ، وسرعة الزوال ﴿ **كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ** ﴾ قبيحة الصورة والمنظر ، كريهة الرائحة ، ضارة الثمرة الحنظل ، غير ضاربة بعروقها في الأرض بحيث ﴿ **اجْتُثَّتْ** ﴾ وانقلعت ﴿ **مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ** ﴾ لعدم رسوخ عروقها فيها ، فلذا ﴿ **مَا لَهَا** ﴾ شيء ﴿ **مِنْ قَرَارٍ** ﴾ وثبات فيها بحيث تقلع وتزول من محلها بأخف تحريك .

قيل : إن الله شبه الإيمان بالشجر ؛ لأن الشجر لا بد له من أصل ثابت وفرع قائم ورأس عال ، فكذا الإيمان لا بد له من تصديق في القلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالاركان (٥) . وشبه الكفر وعبادة الأصنام التي لا حجة عليها ولا ينتفع بها بشجرة الحنظل التي لا أصل لها حتى يكون لها قرار ولا نفع معتد به لها .

عن الباقر عليه السلام : « كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء » (٦) الخبر .

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ

اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢٧)

(١) الكافي ١ : ٣٥٥ / ٨٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٥ .

(٢) إكمال الدين : ٣٤٥ / ٣٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٥ .

(٣) معاني الأخبار : ٤٠٠ / ٦١ ، وفيه : وورقها شيعتنا ، تفسير الصافي ٣ : ٨٥ .

(٤) إكمال الدين : ٣٤٥ / ٣٠ ، وفيه : من حج وعمره ، تفسير الصافي ٣ : ٨٥ .

(٥) في تفسير روح البيان : قول .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٥ ، وفيه : وعمل بالابدان .

(٧) تفسير القمي ١ : ٣٦٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٦ .

ثم لما ذكر الله سبحانه ثبات كلمة التوحيد في القلوب ، بين ثباتها في الدارين بقوله : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بلطفه وتوفيقه ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ وهو كلمة التوحيد الراسخة في نفوسهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يزولون عنها ولو قطعوا إربا إربا ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عنها في القبر وفي الموقف .
عن ابن عباس : من داوم على الشهادة في [الحياة] الدنيا يثبت الله عليها في قبره ويلقنه إياها^(١).

وعن النبي ﷺ ، أنه ذكر قبض روح المؤمن فقال : « ثم تعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان [له] : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله ، وديني الاسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادي مناد من السماء أنه صدق عبدي . فذلك قوله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾^(٢) الآية .

وعن الصادق عليه السلام : « أن الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلّه^(٣) عما هو عليه ، فيأبى الله عز وجل له ذلك ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤) .

وقيل : إن المراد يثبت الله الذين [آمنوا] على الثواب والكرامة بسبب القول الثابت الذي يصدر عنهم في الدنيا والآخرة^(٥) . وعلى أي تقدير هو بيان لقوله : ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾

ثم لما بين سبحانه معاملته مع أصحاب الكلمة الطيبة ، بين معاملته مع أصحاب الكلمة الخبيثة بقوله : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الكفر عن كرامته ، ويمنعهم عن الفوز بالثواب .

عن الصادق عليه السلام : « يعني يضلّهم [يوم القيامة] عن دار كرامته^(٦) » وعن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه ، فلا يثبتوا في الدنيا في مواقف الفتن ، وإذا سئلوا عن دينهم في قبورهم قالوا : لا ندري ، وتدهشهم أهوال القيامة فلا يقدرّون على الجواب في الموقف ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين حسبما تقتضيه مشيئته التي هي عين حكمته البالغة ولا اعتراض عليه .

عن الصادق عليه السلام في سؤال القبر : « وإن كان كافرا - إلى أن قال - : ويسلّط الله عليه في قبره الحيات تنهشه نخشا ، والشيطان يغمّه غمّا - إلى أن قال - : وهو قول الله عز وجل : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ﴾ إلى قوله : ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٧) .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٢٢ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٥١٨ .

(٣) في تفسير العياشي : يساره ليصده .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤٠٧ / ٢٢٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٢٢ .

(٦) التوحيد : ٢٤١ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٦ .

(٧) الكافي ٣ : ٢٣٩ و ٢٤٠ / ١٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٦ .

يَصْلَوْنَهَا وَيُنْسِ الْقَرَارُ (٢٨) و (٢٩)

ثمَّ أتتعالى بعد بيان فوائد كلمة التوحيد وضرر كلمة الشرك بضرب المثل ، أظهر التعجب من الذين هتأ لهم أسباب الهداية إلى التوحيد ودين الحقّ ومع ذلك اختاروا الكفر والشرك بقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ، ولم تنظر ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها عليهم والهداية التي رزقهم ، ببعث محمد ﷺ فيهم بالرسالة ، وإنزال القرآن عليهم ، فأبوا عن قبولها ، واختاروا مكاتها ﴿كُفْرًا﴾ بالله ووحدانيته .

وقيل : يعني بدّلوا شكر نعمة الله كفرا بأن وضعوه مكانه ، أو بدّلوا نفس النعمة كفرا ، فأثمّ لها كفروها سلبت منهم ، فصاروا فاقدين لها ، وواجدين للكفر بدلها ^(١) .
 قيل : نزلت في أهل مكة حيث أسكنهم الله حرمة ، وجعلهم قوام بيته ، ووسّع عليهم أبواب رزقه ، وشرفهم بمحمد ﷺ فكفروا ذلك وقحطوا سبع سنين ، وقتلوا واسروا يوم بدر ، فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « هم الأفجران : بنو المغيرة ، وبنو امية ، أما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر ، وأما بنو امية فمتّعوا إلى حين » ^(٣) .

وفي (المجمع) : سأل رجل أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية فقال : « هما الأفجران من قريش : بنو امية ، وبنو المغيرة ، فأما بنو امية فمتّعوا الى حين ، وأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر » ^(٤) .
 وعن الصادق عليه السلام : « نزلت في الأفجرين من قريش : بنو المغيرة ، وبنو امية ، فأما بنو المغيرة ففقطع الله دابرهم [يوم بدر] ، وأما بنو امية فمتّعوا إلى حين » ^(٥) .

﴿وَأَحْلُوا﴾ وأنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ باضلالهم عن الحقّ ﴿دَارَ الْبُورِ﴾ والهلاك ، وهي ﴿جَهَنَّمَ﴾ وهم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخلون فيها مقاسين حرّها ﴿وَيُنْسِ الْقَرَارُ﴾ والمستقرّ جهنّم .

عن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « ما يقولون في ذلك ؟ » قيل : يقولون : هما الأفجران من قريش : بنو امية ، وبنو المغيرة . فقال : « هي والله قريش قاطبة ، إنّ الله تعالى خاطب به نبيّه ﷺ فقال : إني فضلت قريشا على العرب ، وأتممت عليهم نعمتي ، وبعثت إليهم رسولي ، فبدّلوا نعمتي كفرا ، وأحلّوا قومهم دار البوار » ^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤١٨ .

(٤) مجمع البيان ٦ : ٤٨٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٧١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

(٦) الكافي ٨ : ١٠٣ / ٧٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

وعن الصادق عليه السلام : « عني بما قريشا قاطبة الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وآله ونصبوا له الحرب » ،
وجحدوا الوصية « (١) » .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « أتهم كفار قريش ، كذبوا نبينهم ، ونصبوا له الحرب والعداوة » (٢) .
ويمكن الجمع بين الروايات بأن النزول وإن كان في قريش قاطبة ، ولكن لما كان الأفجران أكفرهم
للنعمة صحح أن يقال نزلت فيهما .

وعن الصادق عليه السلام - في رواية - « ونحن نعمة الله التي أنعم بها على عباده ، وبنا يفوز من
فاز » (٣) .

وعن (الكافي) و (القمي) عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ما بال أقوام غيروا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله
وعدلوا عن وصيه ، ألا يتخوفون أن ينزل بهم العذاب » ثم تلا هذه الآية ، ثم قال : « نحن النعمة التي
أنعم الله بها على عباده ، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة » (٤) .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

ثم فسر الله كفرانهم بقوله : ﴿وَجَعَلُوا﴾ من الأصنام ﴿لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾ وشركاء في العبادة والتعم التي
أنعم بها عليهم بأن صرفوها فيها ، وقالوا : هذا الله ، وهذا لشركائنا ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ويجرفوا عباد الله ﴿عَنْ﴾
سلوك ﴿سَبِيلِهِ﴾ وقبول دينه الحق .

ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله بتهديدهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ، لهؤلاء المشركين المضللين : أنتم لا
تتأهلون للوعظ والتصح والهداية ، فأنتم مخلون وأنفسكم ، إذن ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا بالتعم الدنيوية قليلا ،
وكلوا منها كما تأكل الأنعام ، لا حظ لكم في نعم الآخرة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ بعد خروجكم من الدنيا
﴿إِلَى النَّارِ﴾ التي سجرها القهار بغضبه .

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ

قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ (٣١)﴾

ثم لما أمر سبحانه الكفار بالتمتع بالنعم الدنيوية تهديدا ، أمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يأمر المؤمنين
بالإعراض عن الدنيا والاقبال إلى العبادات لطفًا بقوله : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ عرفوني
و﴿آمَنُوا﴾ بوحدانيتي ودار جزائي ، ليعرضوا عن التمتع بالمشتبهات النفسانية واللذائذ الدنيوية ، ويقبلوا
إلى

(١) الكافي ١ : ١٦٩ / ٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

(٢) مجمع البيان ٦ : ٤٨٣ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٧١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

(٤) الكافي ١ : ١٦٩ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٧ .

العبادات البدنية والمالية بأن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ التي هي عمود دينهم ، ومعرّاجهم إلى مقام قرب ربّهم ﴿وَيُنْفِقُوا﴾ بعضا ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وأنعمنا عليهم في سبيلنا وتحصيل مرضاتنا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ تنقضي مدد أعمارهم في الدنيا و﴿يَأْتِي يَوْمٌ﴾ عظيم ﴿لَا بَيْعَ﴾ ومعاوضة ﴿فِيهِ﴾ حتى يبتاع المحرم نفسه بالمال ويفتدي به عنها من العذاب ﴿وَلَا خِلَالَ﴾ وصداقة حتى يشقّعه خليله وصديقه ، أو يبدل عنه مالا ليخلصه من العقوبة ، فعلى العاقل أن يهيئ أسباب خلاصه من العذاب في الدنيا بالقيام بوظائف العبودية وبذل الأموال في سبيله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٣٢) و (٣٤)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حال السعداء ، وترغيبهم في القيام بوظائف العبودية ، وبيان حال الأشقياء ، وترهيبهم من الشرك ، تبه على كمال قدرته وحكمته ووفور نعمته ، ازديادا لترغيب الأولين وترهيب الآخرين بقوله : ﴿اللَّهُ﴾ هو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بقدرته ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ نافعا بحكمته ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ من الأرض كثيرا ﴿مِنْ﴾ أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ ليكون ﴿رِزْقًا﴾ ومعاش ﴿لَكُمْ﴾ بجوده ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ وسلّطكم على صنعها واستعمالها ﴿لِتَجْرِيَ﴾ وتسير الفلك المصنوعة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ إلى حيث توجّهتم بها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ وإرادته ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ بأن جعلها سهلة الانتفاع بها باتحاد الجداول منها تسقي زروعكم وبساتينكم.

وقيل : لما لم ينتفع بماء البحر في الزراعات ، أنعم الله على الخلق بتفجير الأنهار والعيون ^(١) .

وقيل : زروعكم وبساتينكم ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد بالأنهار الأنهار العظيمة الخمسة : سيحون وجيحون والفرات ودجلة والتّيل ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ، فاستودعها الجبال ، وأجراها ، وسخّرها للناس ، وجعل فيها منافع لهم في أصناف معائشهم ، وسائر الأنهار تبع لها ^(٣) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٢٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢١ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٢ .

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ حال كونهما ﴿دَائِبَيْنِ﴾ ودائمين في سيرهما بحيث لا ينقطع سيرهما إلى يوم القيامة ، ولا يفتران لا صلاح ما يصلحان من الأرض والنبات والأبدان والمعادن وغيرها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتبتغوا من فضله ﴿وَأَتَاكُم مِّن كُلِّ﴾ بجوده بعضا ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مما تحتاجون إليه مما لم يكن منافيا لحكمته ، أو كل ما سألتموه بلسان الحال أو المقال على أن كلمة (من) تبينية.

ثم تبه على أن نعمة ليست منحصرة بالمذكورات بقوله : ﴿وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ التي أنعمها عليكم جسمانية وروحانية ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ ولا تقدرون على عدّها وحصرها لكثرتها وعدم إحاطة عقولكم بجمعها.

ثم ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ المستغرق في تلك النعم والله ﴿لَظَلُولٌ﴾ وكثير العصيان لمنعمه مع أن حق نعمه الطاعة وصرف العمر في الشكر و﴿كَفَّارٌ﴾ لتلك النعم ، ومبالغ في كفرانها بأن صرفها في ما يغضب المنعم ويجعل له أندادا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ

الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾

ثم لما كانت قريش مفتخرين بانتسابهم إلى إبراهيم ، حكى سبحانه شدة إنكاره عبادة الأصنام بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ حبا لأولاده الساكنين في مكة من بني إسماعيل ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ الذي يسكنه ^(١) ذريتي ﴿آمِنًا﴾ ومحفوظا من ورود المكاهر العمومية ^(٢) على أهله ، وقد مرّ في سورة البقرة تفصيل المراد من جعله آمنا ^(٣) ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ وبعدي ﴿وَبَنِيَّ﴾ من ﴿أَنْ نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ بأن تثبتنا على ما نكون عليه من التوحيد ودين الاسلام.

قيل : إنه ﷺ لما رأى القوم يعبدون الأصنام ، فخاف على بنيّه ، فدعا لهم ^(٤) ، وإثما أدخل نفسه الشريفة في الدعاء إثمًا لإظهار هضمها ، وإثما لإظهار أن عصمته من العقائد الفاسدة والزلات بعناية الله ولطفه لا بنفسه ، وقد استحباب الله دعاءه ، فجعل البلد آمنا بالمعاني التي سبق ذكرها ، وجنّب كثيرا من ذراريه من عبادة الصنم ، وكانت كلمة التوحيد باقية في عقبه.

عن أمير المؤمنين ﷺ : « قد حظر على من مسّه الكفر تقلّد ما فوّضه إلى أنبيائه وأوليائه بقوله

(١) في النسخة : يسكنها.

(٢) في النسخة : العمومي.

(٣) تقدم في سورة البقرة : ٢ / ١٢٦.

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٤.

لإبراهيم عليه السلام : ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) أي المشركين ، لأنه سَمِيَ الشرك ظلماً بقوله : ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) فلما علم إبراهيم عليه السلام أن عهد الله تبارك وتعالى اسمه بالإمامة لا ينال عبدة الأصنام قال : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٣) .

وفي رواية (الأماي) : عن النبي ﷺ : « فانتَهت الدعوة إليّ وإلى أخي عليّ لم يسجد أحد منا لصنم قطّ ، فاتَّخَذني نبيا وعليّ وصيا »^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنه أتاه رجل فسأله عن شيء فلم يجبه ، فقال له الرجل : فان كنت ابن أبيك فأتك من أبناء عبدة الأصنام. فقال له : « كذبت إن الله أمر إبراهيم أن ينزل إسماعيل بمكة ففعل ، فقال إبراهيم : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فلم يعبد أحد من ولد إسماعيل صنما ، ولكن العرب عبدة الأصنام ، وقالت بنو إسماعيل : هؤلاء شفعاؤنا عند الله فكفرت ولم تعبد الأصنام »^(٥) .

وقيل : إن دعاءه كان لأولاده من صلبه ، وهم إسماعيل وإسحاق^(٦) .

وقيل : لأولاده الذين كانوا في عصره^(٧) .

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾

ثم بين عليه السلام أن علة سؤال عصمة أولاده من عبادة الأصنام ، شيوع الشرك بين الناس بقوله : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ وصرن أسبابا لبعدها غالب الخلق عن الحقّ ، ثم أظهر غاية حبه للموحدّين المطيعين لله ترغيبا للناس إلى التوحيد وطاعة الله ، وإظهارا لتبعية حبه لحبّ الله بقوله : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ من الناس كان من أولادي أو غيرهم في ديني من عقائدي وأعمالي ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وبمنزلة عضو من أعضائي لفرط اختصاصه بي وحيّ إياه.

ثم أظهر عطفه بعامة الناس بشفاعته في أهل الكبائر منهم بقوله : ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وخالف أحكامك التي بلغتها إليه ، فاغفر له ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالمؤمنين العصاة فلا تحرمه من غفرانك ورحمتك.

عن الصادق عليه السلام : « من اتقى الله منكم وأصلح فانه منا أهل البيت » [قيل : منكم أهل

البيت ؟ قال : « منا

(١) البقرة : ٢ / ١٢٤ .

(٢) لقمان : ٣١ / ١٣ .

(٣) الاحتجاج : ٢٥١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٩ .

(٤) أمالي الطوسي : ٣٧٩ / ٨١١ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٩ .

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٤١٤ / ٢٢٨٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٨٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٢ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٣ .

أهل البيت [قال] فيها [إبراهيم : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ^(١) .

وعن الباقر عليه السلام : « من أحبنا فهو منا أهل البيت » قيل : منكم ؟ قال : « منا والله ، أما سمعت قول إبراهيم : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال : « تقدر أن تغفر له وترحمه » ^(٣) .
قيل : إنّ المراد من عصاني بإقامته على الكفر فإنك غفور رحيم ، يعني أنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله عن الكفر إلى الإيمان ^(٤) .
وقيل : إنّ المراد من هذه المغفرة عدم التعجيل في عقوبته وإمهاله حتى يتوب ، أو عدم التعجيل في موته فتفوت التوبة ^(٥) .

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٣٧)

ثم أنّه عليه السلام بعد طلب الأمن والایمان اللذين هما أجلّ النعم الدنيوية والاخرية وأعلاها لأولاده ، سأل وجاهتهم ومحبيبتهم عند الناس والسعة في رزقهم بقوله : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ بعضا ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وأولادي وهم إسماعيل ونسله ﴿بُؤَادٍ﴾ وصحراء ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكّة ، فأها حجرية لا ينبت فيها شيء من الزرع ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ والكعبة العظيمة التي لا يحلّ انتهاكها ، وإنما كان إسكانهم فيها ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ عند البيت ، ويشغلوا بعبادتك حوله ، لا لغرض دنيوي ، فإذا كان غرضي ذلك ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً كَثِيرَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ وتشتاق ﴿إِلَيْهِمْ﴾ وتسرع إلى لقائهم محبة لهم.
عن الباقر عليه السلام : « نحن هم ، ونحن بقيّة تلك الذرية » ^(٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « والأفئدة من الناس تهوي إلينا ، وذلك دعوة إبراهيم حيث قال : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ ^(٧) .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٤١٤ / ٢٢٨٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٠ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤١٤ / ٢٢٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٠ .

(٣) تفسير الصافي ٣ : ٩٠ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٤ ، وفيه : إلى الإسلام .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٤ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٤١٥ / ٢٢٩١ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٠ .

(٧) الاحتجاج : ١٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٩١ .

وعن الباقر عليه السلام في رواية : « فنحن دعوة إبراهيم عليه السلام »^(١) .

وعنه عليه السلام - في رواية أخرى - : « وكانت دعوة إبراهيم لنا خاصة »^(٢) .

وعنه عليه السلام ، أنه نظر إلى الناس يطوفون حول الكعبة فقال : « هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية ، إنما أمروا أن يطوفوا بها ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودّتهم ، ويعرضوا علينا نصرّتهم » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾^(٣) .

﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنْ ﴾ أنواع ﴿ الثَّمَرَاتِ ﴾ والفواكه والأطعمة ، بأن يجيء إليهم من البلاد البعيدة أو القرى القريبة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمك .

قيل : إنه يجتمع في مكة بدعائه عليه السلام الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يوم واحد^(٤) .

وعن ابن عباس : أنّ الطائف التي على ثلاث مراحل من مكة ، كانت من أرض فلسطين ، فلما دعا إبراهيم بهذه الدعوة رفعها الله ووضعها قريبا من الحرم^(٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « أنّ الثمرات تحمل إليهم من الآفاق ، وقد استجاب الله له حتى لا يوجد في بلاد المشرق والمغرب ثمرة لا^(٦) توجد فيها »^(٧) .

وعن الصادق عليه السلام : « يعني من ثمرات القلوب »^(٨) أي حبّهم إلى الناس ليأتوا إليهم ويعودوا . روي من طريق عامي : أنّ هاجر كانت أمة لسارة ، فوهبتها لإبراهيم عليه السلام ، فولدت [له] إسماعيل ، فقالت سارة : كنت أرجو أن يهب الله [لي] ولدا من خليله فمنعته^(٩) ورزقه خادمي . وقالت لإبراهيم بعدهما عتي . فنقلهما إلى مكة وإسماعيل رضيع ، ثم رجع ، فقالت هاجر : إلى من تكلنا ؟ فقال : إلى الله ، ثم دعا الله تعالى بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ الآية . ثم أكّاه عطشت وعطش الصبي ، فانتهد بالصبي إلى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ، ففارت عيناه ، قال رسول الله ﷺ : « رحم الله أم إسماعيل ، لو لا أنّها عجلت لكانت زمزم عينا معينا »^(١٠) .

وعن الصادق عليه السلام : « أنّ إبراهيم عليه السلام كان نازلا في بلاد الشام^(١١) ، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمّت سارة من ذلك غما شديدا ؛ لأنّه لم يكن له منها ولد ، وكانت تؤذي إبراهيم عليه السلام في هاجر ،

(١) الكافي ٨ : ٣١٢ / ٤٨٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٩١ .

(٢) مجمع البيان ٦ : ٤٨٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٠ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٤١٨ / ٢٢٩٩ ، الكافي ١ : ٣٢٢ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٥٢١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٧ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٧ ، وفيه : ووضعها رزقا للحرم .

(٦) في عوالي اللآلي : إلّا .

(٧) عوالي اللآلي ٢ : ٩٦ / ٢٥٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٩١ .

(٨) تفسير القمي ١ : ٣٧١ ، تفسير الصافي ٣ : ٩١ .

(٩) في تفسير الرازي : فمنعته .

(١٠) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٦ .

(١١) في تفسير القمي والصافي : بادية .

وتغمه ، فشكا إبراهيم ﷺ ذلك إلى الله عز وجل ، فأوحى الله إليه : إِنَّمَا مِثْلُ الْمَرْأَةِ مِثْلُ الضَّلَعِ الْعَوْجَاءِ إِنْ تَرَكْتَهَا اسْتَمْتَعَتْ بِهَا ، وَإِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرَتْهَا. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَبْعِدَ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ عَنْهَا فَقَالَ : يَا رَبِّ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ ؟ قَالَ : إِلَى حَرَمِي وَأَمْنِي وَأَوَّلَ بَقْعَةٍ خَلَقْتُهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَهِيَ مَكَّةُ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ جِبْرَائِيلَ بِالْبِرَاقِ ، فَحَمَلَ هَاجِرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ لَا يَمُرُّ بِمَوْضِعٍ حَسَنٍ فِيهِ شَجَرٌ وَنَخْلٌ وَزَرْعٌ إِلَّا وَقَالَ : يَا جِبْرَائِيلُ ، إِلَى هَاهُنَا ؟ فَيَقُولُ جِبْرَائِيلُ : لَا أَمْضُ ، حَتَّى وَافِيَ مَكَّةَ ، فَوَضَعَهُ فِي مَوْضِعِ الْبَيْتِ.

وَقَدْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ عَاهِدَ سَارَةَ أَنْ لَا يَنْزِلَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا نَزَلُوا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ كَانَ فِيهِ شَجَرٌ ، فَأَلْقَتْ هَاجِرُ عَلَى ذَلِكَ الشَّجَرِ كِسَاءً كَانَ مَعَهَا ، فَاسْتَظَلَّوْا تَحْتَهُ ، فَلَمَّا سَرَّحَهُمْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ وَوَضَعَهُمْ وَأَرَادَ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُمْ إِلَى سَارَةَ ، قَالَتْ هَاجِرُ : لَمْ تَدْعُنَا فِي مَوْضِعٍ لَيْسَ فِيهِ أَنْيْسٌ وَلَا مَاءٌ وَلَا زَرْعٌ ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ : اللَّهُ الَّذِي أَمَرَنِي أَنْ أَضْعَكُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ حَاضِرٌ عَلَيْكُمْ.

ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا بَلَغَ كِدَاءً - وَهُوَ جَبَلُ بَذْيِ طَوًى - التَفَتَ إِلَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ الآية. ثُمَّ مَضَى وَبَقِيَ هَاجِرُ ، فَلَمَّا أَرْتَفَعَ النَّهَارُ عَطَشَ إِسْمَاعِيلُ وَطَلَبَ الْمَاءَ ، فَقَامَتْ هَاجِرُ فِي الْوَادِي فِي مَوْضِعِ الْمَسْعَى ، فَنَادَتْ : هَلْ فِي الْوَادِي مِنْ أَنْيْسٍ ؟ فَغَابَ إِسْمَاعِيلُ عَنْهَا ، فَصَعِدَتْ عَلَى الصَّفَا وَلَمَعَ لَهَا السَّرَابُ فِي الْوَادِي ، وَظَنَّتْ أَنَّ مَاءً ، فَنَزَلَتْ فِي بَطْنِ الْوَادِي وَسَعَتْ ، فَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَسْعَى غَابَ عَنْهَا إِسْمَاعِيلُ ، ثُمَّ لَمَعَ [لَهَا] السَّرَابُ فِي نَاحِيَةِ الصَّفَا ، فَهَبِطَتْ إِلَى الْوَادِي تَطْلُبُ الْمَاءَ ، فَلَمَّا غَابَ عَنْهَا إِسْمَاعِيلُ عَادَتْ حَتَّى بَلَغَتْ الصَّفَا ، فَنَظَرَتْ حَتَّى فَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا كَانَتْ فِي الشُّوْطِ السَّابِعِ وَهِيَ عَلَى الْمَرْوَةِ وَنَظَرَتْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ ، وَقَدْ ظَهَرَ الْمَاءُ مِنْ تَحْتِ رِجْلِهِ ، قَعَدَتْ حَتَّى جَمَعَتْ حَوْلَهُ رَمَلًا ، فَأَنَّه كَانَ سَائِلًا فَرَمَتْهُ بِمَا جَعَلَتْهُ حَوْلَهُ ، فَلِذَلِكَ سَمِّيَ زَمْزَمُ.

وَكَانَتْ جِرْهَمُ ^(١) نَازِلَةً بِذِي الْحِجَازِ وَعُرْفَاتٍ ، فَلَمَّا ظَهَرَ الْمَاءُ [بِمَكَّةَ] عَكَفَتْ الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ عَلَى الْمَاءِ ، فَنَظَرَتْ جِرْهَمُ إِلَى تَعَكُّفِ الطَّيْرِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ اتَّبَعُوهَا حَتَّى نَظَرُوا إِلَى امْرَأَةٍ وَصِيٍّ نَازِلِينَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، قَدْ اسْتَظَلَّ بِشَجَرَةٍ ، وَقَدْ ظَهَرَ الْمَاءُ لَهَا ، فَقَالُوا لَهَا جِرْهَمُ : مَنْ أَنْتِ وَمَا شَأْنُكَ وَشَأْنُ هَذَا الْوَادِي ؟ قَالَتْ : أَنَا أُمُّ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، وَهَذَا ابْنُهُ ، أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَنَا هَاهُنَا ، فَقَالُوا لَهَا : أَتَأْذِنِينَ أَنْ نَكُونَ بِالقَرَبِ مِنْكُمَا ؟ [فَقَالَتْ : حَتَّى يَأْتِيَ إِبْرَاهِيمَ] فَلَمَّا زَارَهُمْ إِبْرَاهِيمَ ﷺ يَوْمَ الثَّلَاثِ قَالَتْ هَاجِرُ : يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ ، إِنَّ هَاهُنَا قَوْمًا مِنْ جِرْهَمٍ يَسْأَلُونَكَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا بِالقَرَبِ

(١) اسم قبيلة.

مَتَا ، أَفْتَأْذَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَعَمْ ، فَأَذْنَتْ هَاجِرٌ لِحَرَمِهِمْ ، فَنَزَلُوا بِالْقَرْبِ مِنْهُمْ ، وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ ، فَأَنْسَتْ هَاجِرٌ وَإِسْمَاعِيلُ بِهِمْ ، فَلَمَّا زَارَهُمْ إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ ، نَظَرَ إِلَى كَثْرَةِ النَّاسِ [حَوْلَهُمْ] ، فَسَرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا « (١) .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ﴾

﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾

ثُمَّ أَظْهَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلَّتَهُ وَعِلْمَهُ تَعَالَى بِحَاجَتِهِ تَقْرِيْبًا لِجَابَةِ دَعَائِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ فِي صُدُورِنَا مِنَ الْحَاجَةِ ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ وَنَظْهَرُ بِأَلْسِنَتِنَا مِنْ مَطْلُوبِنَا لِأَظْهَارِ الْعِبُودِيَّةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى رَحْمَتِكَ ، وَاسْتَعْجَالًا بِنَبِيلِ أَيْدِيكَ ، لَا لِأَنَّ تَعْلَمَ حَاجَاتِنَا .

قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ مَا نُخْفِي فِي قُلُوبِنَا مِنَ الْحُزْنِ بِسَبَبِ الْفُرْقَةِ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِي إِسْمَاعِيلَ (٢) ، أَوْ مَا نُخْفِي مِنَ الْحُزْنِ عَلَى مَا جَرَى (٣) بَيْنِي وَبَيْنَ هَاجِرٍ حَيْثُ قَالَتْ : حِينَ الْوَدَاعِ : إِلَى مَنْ تَكَلَّنَا ؟ وَمَا نَعْلَنُ مِنَ الْبُكَاءِ ، أَوْ مِنْ جَوَابِهَا بِأَيِّ أَكَلِكُمْ إِلَى اللَّهِ (٤) .

ثُمَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَضَافَ عِلْمَهُ تَعَالَى بِالْأَمْرَيْنِ الْخَاصَيْنِ ، دَفَعَ تَوْهَمَ الْإِخْتِصَاصِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ﴾ الْخَالِقِ لِكُلِّ شَيْءٍ الْعَالَمِ بِحَقَائِقِهَا وَدَقَائِقِهَا ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ حَقِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ يَكُونُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَتَحُومِهَا ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لِأَنَّ عِلْمَهُ عَيْنُ ذَاتِهِ ، وَالْكُلُّ مَعْلُومٌ لِارَادَتِهِ . وَقِيلَ : إِنَّ الذِّيلَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ تَصْدِيقًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٥) لَا مِنْ تَتَمَّةِ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ﴾

﴿الدُّعَاءِ (٣٩)﴾

ثُمَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَنَ بِالشُّكْرِ عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ طَلْبًا لَا بِقَائِهَا وَازْدِيَادِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَأَنَا ﴿عَلَى﴾ حَالِ ﴿الْكِبَرِ﴾ وَالْهَرَمِ الَّذِي يَقْتَضِي الْعَقْمَ وَالْحَرَمَانَ عَنِ الْوَلَدِ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ بِدُعَائِي .

ثُمَّ لَمَّا كَانَ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كَمَالِ الدُّعَاءِ ، أَثْنَى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ وَاللَّهُ ﴿لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ﴾ وَمُجِيبُهُ ، وَفِي نِسْبَةِ الْهَبَةِ بِحَالِ الْكِبَرِ إِظْهَارًا لِكُونِهَا مِنَ الْآيَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ .

(١) تفسير القمي ١ : ٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ٩١ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٧ .

(٣) في تفسير الرازي : من الحزن المتمكن في القلب ، وما نعلن يريد ما جرى .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٨ .

قيل : ولد [إسماعيل] لإبراهيم أربع وستون . وقيل : تسع وتسعون سنة ^(١) .
وعن سعيد بن جبير : أنه لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنه ^(٢) .
قيل : إنما سَمَّاهُ إسماعيلَ لأنَّه دعا الله أن يرزقه ولدا ، وقال في دعائه : اسمع يا إيل ، وإيل اسم الله ، فلمَّا ولد سَمَّاهُ به . وقيل : معناه بالعبرانية مطيع ^(٣) .
وفي ذكر إسحاق دلالة على أنَّ هذا الشكر والثناء لم يكن في زمان إسكان إسماعيل في مكة ، بل كان بعد كبره وولادة إسحاق ، وإِنَّمَا حكى الله هذا الحمد هنا بمناسبة ذكر إسماعيل لا لكونه في زمان سائر الأدعية .

قيل : ولد له إسحاق وله تسعون ^(٤) . وقيل : مائة واثنى عشرة سنة ^(٥) .

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤٠) و (٤١)﴾

ثمَّ لما ذكر أنَّ غرضه من إسكان إسماعيل في محلِّ البيت إقامة الصلاة عنده ، سأل توفيقه وتوفيق بعض ذريته لإقامة الصلاة بقوله : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي﴾ بتوفيقك ﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ ومواظبا عليها ﴿و﴾ بعضا ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾

وقيل : لما أخبره الله بأنَّ بعض ذريته يكون كفارا ، خصَّ هذا الدعاء ببعضهم ^(٦) .

ثمَّ سأل استجابة دعائه بقوله : ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ﴾ واستجب ﴿دُعَاءِ﴾ ثمَّ ختم الدعاء بطلب المغفرة التي هي أهم المقاصد الاخرية بقوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ ما صدر مني من ترك الأولى ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ويتحقق فيه جزاء الأعمال .

قيل : إنَّ المراد بوالديه آدم وحواء ^(٧) . وقيل : إنَّ المراد والداه بلا واسطة ^(٨) ، وكان الدعاء قبل النهي عن الاستغفار للمشركين .

أقول : الحقُّ أنَّ المراد بوالديه تارخ وزوجته امَّ إبراهيم ، وهما كانا مسلمين ، وكان آذر عمِّه ، أو أبا امِّه ، أو زوج امِّه ، وأمَّا بعض الروايات المروية عن أئمتنا المعصومين عليهم السلام بطرق أصحابنا الدالة على وقوع التحريف في الآية ، وكان المنزل (ولولدي) ^(٩) فمطروح غير معتبر ، ولذا أعرضنا عنها .

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٩ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٨ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٨ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٩ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٣٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٥٤ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٠ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٥٤ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٤٢٩ .

(٩) راجع : تفسير العياشي ٢ : ٤١٩ / ٢٣٠١ و ٢٣٠٣ .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُتْهُمْ
هَوَاءَ (٤٢) وَ (٤٣)﴾

ثمَّ أنَّه تعالى بعد إثبات التوحيد بالبراهين ، وكونه ملة إبراهيم ، وكون الشرك عصيانه ، وخوف
إبراهيم من عذاب الله يوم الحساب ، هدّد الله المشركين بأهوال ذلك اليوم بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ يا
محمد ، ولا تحتمل أن يكون ﴿غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ والمشركون من العصيان والطغيان وعبادة
الأوثان.

قيل : إن المراد دم يا محمد على ما أنت عليه من عدم حسابان الغفلة في حقّه تعالى ^(١) .
ويحتمل أن يكون المقصود نهي المؤمنين ، والمعنى : لا تحسبوا - أيها المؤمنون - أن تأخير العذاب
عن الظالمين لغفلته تعالى عن أعمالهم ، بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويمهلهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ عظيم ﴿تَشْخَصُ﴾ وترتفع
﴿فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ وتبقى مفتوحة ، لا يقدرّون على تحريكها من الدهشة ، وهم مع شخوص أعينهم
المقتضي لوقوفهم في أماكنهم يكونون ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين لاجابة الداعي ، أو نحو البلاء والعذاب
كإسراع الأسير الخائف ، أو مقبلين إلى الحساب ، أو المراد ناظرين في ذلّ وخشوع حال كونهم ﴿مُقْنِعِي﴾
ورافعي ﴿رُؤُسِهِمْ﴾ مع أنّ حقّ المشاهد للبلاء أطراق رأسه كي لا يراه.

ثمَّ بيّن دوام شخوصهم بحيث ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾ ولا يرجع ﴿إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ولا تحرك أجفانهم ، بل تبقى
مفتوحة أبدا دائما لدوام حيرتهم ودهشتهم ﴿وَأَفْنِدُتْهُمْ﴾ وقلوبهم ﴿هَوَاءَ﴾ وخالية من العقل والقوة
والأفكار والآمال ، لعظم ما ينالهم من الوحشة والدهشة والحزن.

القمي قال : تتصدّع قلوبهم من الخفقان ^(٢) . قيل : ذلك عند القيام من القبور. وقيل : عند قيام
الحساب. وقيل : عند تميّز الأشقياء من السعداء ^(٣) .

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ
قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ما لَكُمْ مِنْ
رِوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٤) وَ (٤٥)﴾

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٣١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٧٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٥ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٢ .

ثمَّ أتته تعالى بعد تخويف المشركين بأهوال القيامة ، أمر نبيه ﷺ بتخويفهم من عذابه بقوله : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا نذير البشر ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ المعهود ، وهو عذاب يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم باختيار وعمل المعاصي وتكذيب الرسل عند رؤيتهم العذاب : ﴿رَبَّنَا﴾ ردنا إلى الدنيا و﴿أَخْرَجْنَا﴾ وأمهلنا فيها ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد قليل ﴿نُجِبْ﴾ إذن ﴿دَعْوَتِكَ﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾ ونعمل بقولهم ، ونتدارك ما فرطنا فيه ، فيقال لهم توبيخا وتبكيتا : هيهات ألم نهلكم فيها ﴿أَمْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ وحلفتكم بألستكم ، أو بلسان حالكم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي زمان حياتكم حيث بنيتم شديدا وأملتكم ^(١) بعيدا غرورا واستكبارا على آتته ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ وانصراف عن التمتع بالمشتهيات والشرك وتكذيب الرسل ، أو من زوال من هذه الدنيا وخروج منها ورجوع إلى دار الجزاء ، مع أنه قد تمت عليكم الحجة.

﴿وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والطغيان كعاد وثمود ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار أنا ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وعاملنا معهم من الإهلاك والعقوبة بسيئاتهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ﴾ في هذا القرآن العظيم ﴿الْأَمْثَالَ﴾ وبيّنا لكم ممّا فعلوا وفعل بهم ما يكون فيه غاية الاعتبار ، ومع ذلك لم تحدّثوا أنفسهم ^(٢) أنّ أعمالكم كأعمالهم ومالكم كمآلهم فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والطغيان ^(٣) وتكذيب الرسل ، فلو رجعتم إلى الدنيا بعد هذا اليوم لترجعن إلى ما كنتم عليه ، ولا ينفعكم النصّح والموعظة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ

الْجِبَالُ (٤٦)﴾

ثمَّ لما هدّد سبحانه المشركين المكذّبين للرسول بأهوال القيامة وشدائدها وعذابها ، بيّن شدّة سعيهم ومكرهم في إطفاء نور النبي ﷺ وإبطال الحقّ ، ووبّخهم عليه بقوله ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ وسعوا بتدبيراتهم في إخلال أمر النبوة وإطفاء نور الرسالة ﴿مَكْرُهُمْ﴾ العظيم المقدور لهم ، وجهدهم البليغ الميسور لهم ، بحيث لا يمكنهم فوّه ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ﴾ محفوظ ومكتوب ﴿مَكْرُهُمْ﴾ ليحازيهم بما هو أعظم من مكرهم ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدّة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ من أماكنها ومقارّها.

قيل : يعني مساو في العظم لازالتها من محالّها ^(٤) ، وقوله : ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ كناية عن غاية

المتانة

(١) في النسخة : وأمتهم ، وما أثبتناه من روح البيان ٤ : ٤٣٣ .

(٢) في النسخة : لأنفسكم .

(٣) في النسخة : والطاغين .

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٥٢٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٥ .

والشدّة لكونه مثلاً في ذلك.

وقيل : إنّ كلمة (إن) نافية ^(١) ، والمعنى : وما كان مكرهم في القوة والتأثير بخدّ تنزل الجبال بسببه ، يعني يزول به دين محمد وحجّته ودلائله ، بل هو أوهن وأضعف من ذلك.
وقيل : إنّ المراد أنّ كفّار هذا العصر مكروا مكر كفّار الأعصار السابقة ، كنمرود ومن حدا حذوه ، وعند الله جزاء مكرهم ^(٢) .

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧)﴾

ثم نبّه سبحانه على أنّ مكر الماكرين بالرسول لا يمكن أن يكون مخلاً بأمر الرسل بقوله : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ ولا تتوهّم يا محمد أنّ ﴿اللَّهُ﴾ الحكيم القادر ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾ الذي وعده ﴿رُسُلُهُ﴾ من تعذيب أعدائهم ونصرتهم على معارضيتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ وغالب على أمره ، وقاهر على خلقه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ من أعدائه وأعداء رسله.

قيل : إنّ الله قال : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ ^(٣) وقال هنا : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ فنّبّه بتلك القضيتين على أنّه إنّ لم تقم القيامة ، ولم ينتقم للمظلوم من الظالم ، يلزم إما كونه غافلاً ، أو مخلفاً لوعده رسله ، وكلاهما محال ، فالقول بعدم قيام القيامة في غاية البطلان ^(٤).

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾

ثم عيّن سبحانه يوم إتيانهم العذاب أو وقت الانتقام بقوله : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ وتغيّر هذه ﴿الْأَرْضُ﴾ وتكون صفتها ﴿غَيْرَ﴾ صفة تلك ﴿الْأَرْضِ﴾
عن ابن عباس : هي تلك الأرض ، إلّا أنّها تغيّرت في صفاتها ، فتسيّر عن الأرض جبالها ، وتفجّر بحارها وتسوّى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت ^(٥) .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « يبدّل الله الأرض غير الأرض ^(٦) ، فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العكاظي ، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فاذا هم في [هذه المبدّلة في] مثل

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٥٢٢ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٥٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٥٩ ، تفسير الرازي ١٩ : ١٤٤ .

(٣) إبراهيم ١٤ : ٤٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٥ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٦ .

(٦) زاد في مجمع البيان : والسموات .

مواضعهم من الاولى ، ما كان في بطنها كان في بطنها ، وما كان على ظهرها كان على ظهرها » (١) .
وعنه عليه السلام : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي (٢) ، ليس فيها معلم لأحد » (٣) .

وفي (الكافي) عن الباقر عليه السلام : « تبدل الأرض خبزة نقيّة ، يأكل الناس منها حتّى يفرغوا من الحساب » .

قيل : إنّ الناس لفي شغل يومئذ عن الأكل والشرب ؟ فقال : « إنّهم في النار لا يشتغلون عن أكل الضريع وشرب الحميم وهم في العذاب ، فكيف يشتغلون عنه في الحساب ؟ » (٤) .

وفي رواية اخرى : « أن الله عزّ وجلّ خلق ابن آدم أجوف ، ولا بدّ له من الطعام والشراب ، أهم أشدّ شغلا يومئذ أم من في النار ؟ فقد استغاثوا والله عزّ وجلّ يقول : ﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوا بُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ » (٥) .

وعن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : أرض القيامة من نار ما خلا ظلّ المؤمن ، فان صدقته تظلّه » (٦) .

عن الباقر - في رواية - أنّه قال : « لعلكم ترون أنّه إذا كان يوم القيامة ، وصيّّر الله أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة ، وصيّّر أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار ، أنّ الله تبارك وتعالى لا يعبد في بلاده ، ولا يخلق خلقا يعبدونه ويوحدونه ويعظمونه ، بلى [والله] وليخلقن خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه ويعظمونه ، ويخلق لهم أرضا تحملهم وسماء تظللهم ، أليس الله يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وقال الله : ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ » (٧) .

أقول : ليس في الرواية دلالة على تغيير أرض المحشر.

وعن ابن مسعود : تبدّل بأرض كالفضّة البيضاء النقية لم يسفك فيها (٨) دم ، ولم تعمل عليها خطيئة (٩) .

وعن السجاد عليه السلام : « وتبدّل الأرض غير الأرض ، يعني بأرض لم تكتسب عليها الذنوب ، بارزة ليس عليها جبال ولا نبات ، كما دحاها أول مرّة » (١٠) .

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : المتحابون في الله عزّ وجلّ يوم القيامة على أرض

من

(١) مجمع البيان ٦ : ٤٩٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٧ .

(٢) العفراء : الأرض البيضاء التي لم توطأ ، وقرصة النقي : القرصة المتخذة من خالص الدقيق ولبابه .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٤٩٩ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٧ . (٤) الكافي ٦ : ٢٨٦ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٦ .

(٥) الكافي ٦ : ٢٨٧ / ٤ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٦ ، والآية من سورة الكهف : ١٨ / ٢٩ .

(٦) ثواب الأعمال : ١٤٠ ، بحار الأنوار ٧ : ١٢٠ / ٥٧ .

(٧) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٣ / ٢٣١٣ ، الخصال : ٣٥٩ / ٤٥ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٧ ، والآية من سورة ق : ٥٠ / ١٥ .

(٨) في تفسير الرازي : عليها . (٩) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٧ .

(١٠) تفسير العياشي ٢ : ٤٢١ / ٢٣٠٨ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٦ .

زبرجدة خضراء في ظلّ عرشه عن يمينه ، وكلتا يديه يمين » (١) .

أقول : لا منافاة بين الأخبار ، لاحتمال اختلاف الأرض باختلاف الأصناف من المؤمنين على اختلاف مراتبهم والكافرين ، فبالنسبة إلى بعض المؤمنين كالفضة ، وبالنسبة إلى بعض من الزبرجدة ، وإلى بعض خبزة نقية ، وهكذا بالنسبة إلى الكافر نار ، وعلى أي تقدير ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ أيضا تبدّل غير السماوات بانفطارها ، وانتثار كواكبها ، وتكوير شمسها ، وخسوف قمرها ، وكونها أبوابا ، وتكون كالمهل تارة ، وكالدّهان أخرى.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام بطريق عامي : « وسماوات من ذهب » (٢) .

﴿وَتَرَوْا﴾ وظهروا من قبورهم حين التبدّل أو بعده ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ليحاسبهم ويجازيهم ، فإذا كان الأمر إلى الغالب الذي لا يغالب والقهّار الذي لا يقهر فلا مغيث لأحد غيره ولا مستجار ، وكلّ مقهور تحت قدرته ، ومنقلب في قبضته ، ومسخر لقضائه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ
وُجُوهُهُمْ النَّارُ * لِيُخْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا
بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ

أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴿﴾

ثمّ أنه تعالى بعد بيان قهّارته بيّن مقهورية الكفار له وعجزهم وذلتهم لديه بقوله : ﴿وَتَرَى﴾ يا محمّد ، أو أيّها الرائي ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ والعصاة ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ ومشدّدين مع أقرانهم من الكفار المشاركين معهم في العقائد والأعمال ، أو مع الشياطين المغوين لهم إلى الضلال ، أو مع عقائدهم وأعمالهم المحسّمة المصوّرة بأفبح الصّور المتشكّلة بأسوأ الأشكال ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ والقيود والأغلال.

وقيل : إنّ المراد من ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم في الأصفاد (٣) و﴿سَرَابِلُهُمْ مِنْ فَطْرَانٍ﴾ قيل : هو شيء يتحلّب من شجر يسمّى الأهل (٤) .

وقيل : يتّخذ من حمل شجر العرعر ، فيطبخ وتطلى به الإبل التي فيها الجرب ، فيحرق بجذّته وحرارته الجرب ، وقد يصل حرّه إلى داخل الجوف ويتسارع فيه اشتغال النّار ، ولونه أسود ، وريحه

(١) الكافي ٢ : ١٠٢ / ٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٦ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٨ ، وفيه : رقابهم بالأغلال .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٨ ، والأهل : شجر كبير ، ورقه كالطّرفاء ، وقره كالتيق .

تننة ، فيطلى به جلود أهل النار ، فيصير كالسربال والقميص ، ليجمع عليهم ألوان العذاب : لدع القطران وحرته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الموحش ، وفتن الريح ^(١) ، فتشمئز عنهم النفوس ، لأنهم كانوا يستكبرون عن عبادة الله ، فألبسهم بذلك الخزي والهوان .
وقيل : إن القطران ما يسيل من أبدان أهل النار ^(٢) . وقيل : إنه نحاس انتهى حرّه ^(٣) . وقيل : إنه الحديد المذاب ^(٤) .

عن الباقر : « هو الصّفر الحارّ المذاب » ^(٥) .
عن الصادق عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : قال جبرئيل : لو أنّ سريلاً من سراييل أهل النار علّق بين السماء والأرض ، لمات أهل الأرض من ريحه ووهجه » ^(٦) .
﴿وَتَغْشَى﴾ ويطي ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ التي هي أعزّ أعضائهم وأشرفها في الظاهر ﴿النَّارِ﴾ التي تمسّ جلودهم المسريلة بالقطران ؛ لأنّها ما أقبلت إلى الحقّ .
وقيل : إنّ الوجوه كناية عن الأبدان ، والمعنى تشملهم النار لأنّ خطاياهم شملتها ^(٧) . وإنّما يفعل ذلك بهم ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ في الآخرة ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب ، فيتمّه في أعجل وقت ، ويوفي الجزاء على حسب الاستحقاق .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أدلّة التوحيد والمعاد ، والتهديد على إنكارهما ، أعلن بإتمام الحجّة على كلّ أحد بقوله . ﴿هَذَا﴾ القرآن ، أو السورة ، أو التذكير والمواعظ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ وكفاية ﴿لِلنَّاسِ﴾ لينصّحوا ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيُعَلِّمُوا﴾ بالبراهين المذكورة ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ ومعبود متفرد ﴿وَلِيَذْكُرُوا﴾ ويتّعظ ويستترشد ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وذوو العقول السليمة والأذهان المستقيمة .
في (ثواب الأعمال) : من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كلّ جمعة لم يصبه فقر ولا جنون ولا بلوى ^(٨) .

الحمد لله الذي وفّقني لإتمام تفسير سورة إبراهيم بمنّه ولطفه .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٤٨ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٢٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٧ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥ : ٦١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٧ .

(٤) مجمع البحرين ٣ : ١٤٩٣ ، مادة « قطر » .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٧٢ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٨ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٨١ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٨ .

(٧) تفسير روح البيان ٤ : ٤٣٧ .

(٨) تفسير العياشي ٢ : ٤٠٣ / ٢٢٥٩ ، ثواب الأعمال : ١٠٧ ، تفسير الصافي ٣ : ٩٩ .

في تفسير سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا

مُسْلِمِينَ (١) و (٢)﴾

ثم لما ختمت سورة إبراهيم التي فيها إثبات النبوة والتوحيد والمعاد ، والإشارة إلى شبهات المشركين في النبوة ورفعها ، ومكرهم في إطفاء نور الحق ، وحكاية ابتلاء الامم السابقة بالعذاب على معارضة الرسل ، وبيان حكمة تأخير العذاب عن هذه الأمة ، وتهديدهم بعذاب الآخرة ، وحكاية دعاء إبراهيم عليه السلام لأولاده ، وشكره على نعمة ولادة إسماعيل وإسحاق له ، أردفت بسورة الحجر التي فيها إثبات النبوة ، وتهديد منكريها بالعذاب الاخروي ، وبيان حكمة تأخير العذاب الدنيوي عن الأمم ، وذكر شبهات المشركين في نبوة النبي ﷺ ودفعها ، وحكاية بشارة إبراهيم عليه السلام بولادة إسحاق ، وتفصيل مكر الله في حق بعض الامم بتعذيبهم كقوم لوط وأصحاب الأيكة والحجر إلى غير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة ، فابتدأ بذكر أسمائه المباركات بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثم افتتحها بالحروف المقطعات بقوله : ﴿الر﴾ وقد مرّ تأويلها وحكمة الافتتاح بها.

ثم بيّن عظمة القرآن بقوله : ﴿تِلْكَ﴾ السورة العظيمة الشأن ، أو الآيات المباركات التي نزل بها جبرئيل هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ الذي وعدنا محمدا ﷺ بنزوله عليه ، أو بشر الأنبياء السالفة بنزوله في آخر الزمان ، أو آيات اللوح الحفوظ ، أو آيات الكتاب الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب به ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وموضح لمجملات الكتب السماوية ، أو مبين للحق وجميع الأحكام ، أو مفهم الناس جميع ما يحتاجون إليه ولو بتشريح الراسخين في العلم مبهماتهم وتبيينهم مجملاته.

ثم أنه تعالى بعد تعظيم كتابه وتوصيفه بالصفات الجليلة الموجبة لتوجه القلوب إلى حسن تلقّيه ، وكمال التدبر فيه ، والتصديق بنبوة النبي المتحدّي به ، والاعتقاد بصحة دينه - وهو الإسلام - هدد

منكره بقوله : ﴿بِمَا﴾ وكثيرا ما ﴿يُؤَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمحمد ﷺ ودين الاسلام ﴿لَوْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ ومنقادين لله ورسوله ، ومطيعين لدين الاسلام وأحكامه.

روي أنه لا يزال الربّ يرحم ويشفع إليه حتى يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة ، فعند ذلك يتمنون الإسلام ^(١) .

وعن الصادق عليه السلام : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد من عند الله لا يدخل الجنة إلا مسلم ، فيومئذ يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ^(٢) .

وعن أبي موسى الأشعري ، أنه قال النبي ﷺ : « إذا كان يوم القيامة ، واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال لهم الكفار : أ لستم مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا إلى النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيغضب الله سبحانه لهم بفضلهم ورحمته ، فيأمر بكلّ من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها ، فحينئذ يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ^(٣) .
وقيل : إنّ تمنّيههم عند الموت ^(٤) .

﴿ذُرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣)

ثم أعلن سبحانه بغضه عليهم بقوله : ﴿ذُرْهُمْ﴾ ودعهم الآن يا محمد ﴿يَأْكُلُوا﴾ كما تأكل الأنعام ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بالمشتريات الدنيوية ، ويستلذوا بلذائدها كما تتمتع البهائم ﴿وَيُلْهِمُ﴾ ويشغلهم عن ذكر الله والدار الآخرة ﴿الْأَمَلُ﴾ الطويل في الدنيا ، وتوقع بقائهم فيها ، وتوغلهم في تعميرها وتحصيل مشترياتهم من الجاه والأموال ، وما يوجب استقامة الأحوال ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعنا بهم ، ووخامة عاقبتهم ، وضرر غفلتهم عن الاستعداد للآخرة ، إذا خرجوا من الدنيا ، وعانينا ما أعدّ لهم في دار الجزاء من العذاب والتكال.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا

يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (٤) و (٥)

ثم بيّن سبحانه علّة تأخير عذاب الكفار مع شدّة استحقاقهم له ، وحكم إمهالهم والتخلى بينهم

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٧٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥ : ٦٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٠ مرسلا .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٥٤ .

وبين تمتعاتهم بقوله : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا﴾ بعذاب الاستئصال ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من القرى وبلدة من البلدان ﴿إِلَّا وَلَهَا﴾ في الهلاك بالعذاب ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ وحكمة وأجل معين مثبت في اللوح المحفوظ - من حكمة بالغة - لا يصح تغييره ، ولا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف والتأخر فيه ، ولذا ﴿وَمَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ من الامم المهلكة ﴿أَجَلُهَا﴾ وغاية المدة المضروبة لهلاكها أو موتها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل وتلك الغاية بأن تموت أو تهلك بعد مدة من انقضائها.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) و (٧)

ثم أنه تعالى بعد بيان عظمة القرآن الدالة على صحة نبوة نبيه ﷺ ، حكى سوء أدب المشركين واستهزائهم بالنبي ﷺ بقوله : ﴿وَقَالُوا﴾ عنادا وتجريا على الله ورسوله واستهزاء به : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ من ربه ﴿الذِّكْرُ﴾ والقرآن ، وتدعى هذا الأمر الخارق للعادة ﴿إِنَّكَ﴾ واللات والعزى ﴿لَمَجْنُونٌ﴾ مختل العقل ، حيث إن مقالتك لا تشبه مقالات العقلاء ، لأن النبي لا بد أن يكون ملكا وأنت بشر مثلنا ، وعلى فرض أن الله جعلك نبيا ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ وهلا تحيئنا ﴿بِالْمَلَائِكَةِ﴾ حتى يشهدوا بصدقك في دعوى الرسالة ، أو يعاونوك في الانذار والتبليغ ، أو يعاقبونا على تكذيبك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك ، فإن الله قادر على إنزالهم وتأيدك بهم ، وأنت في نهاية الاحتياج إليهم في تمشية أمرك.

﴿وَمَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٨) و (٩)

ثم ردّهم سبحانه بقوله : ﴿وَمَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بسبب من الأسباب ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وحكمة مقتضية لانزالهم ، وهو استئصالهم بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ وعند ذلك ﴿مُنْظَرِينَ﴾ وممهلين طرفة عين ، كما لم تمهل سائر الامم المكذبة للرسول المستهزئة بهم بعد نزول الملائكة لتعذيبهم ، وإنما أخرنا تعذيب هؤلاء مع غاية استحقاقهم له لما جرى قلم القضاء بإمهم ، لازيد خبثهم ، واشتداد استحقاقهم ، وخروج ما في أصلاهم من ذراري المؤمنين.

القمي : لو أنزلنا الملائكة لم ينظروا وهلكوا (١) .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٢ .

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ رَدِّ اقْتِرَاحِهِمْ وَإِبْطَالِ شَبْهَتِهِمْ فِي نُبُوَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، أَجَابَ عَنْ مَقَالَتِهِمُ الْبَاطِلَةَ وَاسْتَهْزَاءَتِهِمُ بِالْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ مع عظم شأننا ، وكمال شرفنا ، وعلوِّ جنابنا ﴿نَزَّلْنَا﴾ هذا ﴿الذِّكْرَ﴾ الذي أنكروه والقرآن الذي جحدوا نزوله عليك ، ونسبوك بسبب تلك الدعوى إلى الجنون ، ليكون لك معجزة باقية ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ والله ﴿لَحَافِظُونَ﴾ من التغيير والطعن والتحريف إلى الأبد دون سائر الكتب السماوية ، ولذا ^(١) تطرّق إليها الخلل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٠) و (١٣)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ الْجَوَابِ عَنْ اقْتِرَاحِ الْمُشْرِكِينَ وَشَبْهَاتِهِمْ وَاسْتَهْزَاءَتِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ ، أَخَذَ فِي تَسْلِيَتِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلا كثيرة ﴿مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ والفرق السابقين ، وكان من دأب تلك الفرق أَنَّهُ مَا يَبْعَثُ فِيهِمْ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ خَاصَّ بِهِمْ أَوْ عَامَ ﴿إِلَّا﴾ أَتَاهُمْ ﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وَيَسْخَرُونَ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْاسْتَهْزَاءَ الَّذِي سَلَكَاهُ وَأَدْخَلَنَاهُ فِي قُلُوبِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِرَسُولِهِمْ ، نَدَخَلَ الْاسْتَهْزَاءَ وَ﴿نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مِنْ قَوْمِكَ ، فَيَسْتَهْزِئُونَ بِكَ لِيُظْهَرَ غَايَةَ حُبِّ ذَوَاتِهِمْ وَرَذَالَةِ أَخْلَاقِهِمْ.

وقيل : إِنَّ الْمُرَادَ كَذَلِكَ الْوَحْيَ الْمُنْزَلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَقْرُونًا بِالْاسْتَهْزَاءِ ^(٢) . أَوْ مِثْلَ الْمَسْلُوكِ الَّذِي سَلَكَاهُ فِي قُلُوبِ الْأُمَمِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِرَسُولِهِمْ ، نَسْلُكِ الذِّكْرِ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَوْ عَمُومِ الْمُجْرِمِينَ ^(٣) ، وَهُمْ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَلَا يَصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنْزَلِ .
قِيلَ : كَانُوا يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ^(٤) ، لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِقَبُولِ الْحَقِّ ، وَكَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْخِذْلَانِ ^(٥) .

ثمَّ هَدَّدَ سَبْحَانَهُ الْمُجْرِمِينَ بِقَوْلِهِ : ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ وَمَضَتْ ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وَطَرِيقَتُهُمُ الَّتِي سَلَكَوا فِيهَا حَتَّى أَهْلَكُوا بِالْعَذَابِ ، أَوْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ وَطَرِيقَةُ مَعَامَلَتِهِ مَعَهُمْ حَيْثُ خَذَلَهُمْ وَسَلَكَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ أَهْلَكَهُمْ بِعَذَابِ الْاسْتِثْصَالِ ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ حِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا مِنْ تَكْذِيبِ الرِّسْلِ وَالْاسْتَهْزَاءِ بِهِمْ.

(١) زاد في النسخة : لا .

(٢) و (٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٥ .

(٤) (به) ليس في تفسير روح البيان .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٦ .

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ

أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْخُورُونَ﴾ (١٤) و (١٥)

ثمَّ أتته تعالى بعد بيان استهزائهم بالنبي ﷺ ونسبته إلى ما لا يليق به ، واقتراحهم عليه ، وتهديدهم على الاصرار على الكفر ، بين غاية عنادهم ولجاجهم بقوله : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ويسرنا لهم الصعود إليها ﴿فَظَلُّوا﴾ وصاروا ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ وإليه يصعدون بآلة أو غيرها ، ويرون ما فيها من العجائب بأعينهم.

وقيل : يعني فضل الملائكة يصعدون في ذلك الباب ، وهم يشاهدونهم طول نهارهم ^(١) ، والله ﴿لَقَالُوا﴾ عنادا ولجاجا وتشكيكا في الحق : ليس الأمر في الواقع ما نرى بأعيننا ، بل ﴿إِنَّمَا سُكَّرَتْ﴾ وسدت عن النظر ، أو حيرت ، أو غطيت ﴿أَبْصَارُنَا﴾ بالشعبذة ، وخيل إلينا ما لا حقيقة له ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْخُورُونَ﴾ سحرنا محمد ، كما قالوه عند ظهور سائر المعجزات الباهرة ، فلا فائدة في إجابة مسؤولهم فيما اقترحوه عليك.

قيل : إنَّ في كلمة الحصر وإسناد الاسكار إلى الأبصار دلالة على أنَّ المقصود عدم سرية الاسكار إلى عقولهم ، كأنهم قالوا : نحن نتحايل هذه الأشياء بأبصارنا ، ولكن نعلم بعقولنا أنَّ الواقع بخلافه ، ثمَّ أضربوا عن الحصر في الأبصار ، وقالوا : بل جاوز ذلك إلى عقولنا بسحر سحره لنا ^(٢) .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَرَتَيْنَاهَا لِلنَّاطِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (١٦) و (١٨)

ثمَّ بين سبحانه كمال قدرته لئلا يتوهم فيه العجز عن إتيان ما اقترحوه بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ وقصورا تنزلها السيارات السبع ، ورَتَيْنَاهَا تلك البروج والكواكب ﴿وَرَتَيْنَاهَا﴾ بتلك البروج والكواكب المختلفة الأشكال والكواكب المنيرة ﴿لِلنَّاطِرِينَ﴾ إليها ، أو للمتفكرين في بديع صنعها ، المستدلّين بما فيها وفي كواكبها من حسن التدبير وكمال النظام المستتبع للآثار العجيبة على قدرة صانعها وحكمة مبدعها ومدبرها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ﴾ اقتراب ﴿كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ وجنّ عاص مطرود من الرحمة ، أو من القرب من السماء ، برميته بالنجوم ، كما يحفظ المنازل عن دخول من يخشى منه الفساد.

عن ابن عباس : كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات ، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٦ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٤٦ .

الغيوب من الملائكة ، فيلقونها إلى الكهنة ، فلمّا ولد عيسى ﷺ منعوا من ثلاث سموات ، فلمّا ولد رسول الله ﷺ منعوا من السماوات كلّها ^(١) .

وعن الصادق ﷺ ما يقرب منه إلى أن قال : « ورميت الشياطين بالنجوم ، وقالت قريش : هذا قيام الساعة الذي كنا نسمع أهل الكتاب يذكرونه ، وقال عمرو ابن أمية وكان أزعج ^(٢) أهل الجاهلية : انظروا إلى هذه النجوم التي يهتدى بها وتعرف بها أزمان الشتاء والصيف ، فان كان رمى بها فهو هلاك كلّ شيء ، وإن كانت ثبتت ورمى بغيرها فهو أمر حدث » ^(٣) .

وعن القمي ما يقرب منه ، ثمّ قال : وكان بمكة يهودي يقال له يوسف ، فلمّا رأى النجوم تتحرّك وتسير في السماء خرج ونادى ^(٤) قريش فقال : يا معشر قريش ، هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقالوا : لا . فقال : أخطأتم والتوراة ، قد ولد في هذه الليلة آخر الأنبياء وأفضلهم ، وهو الذي نجده في كتبنا أنّه إذا ولد ذلك النبيّ رجمت الشياطين ، وحجّبوها من السماء . فرجع كلّ أحد إلى منزله فسأل أهله ، فقالوا : قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب ، الخير ^(٥) .

فتحصّل أنّ أحدا من الشياطين لا يقدر أن يصعد إلى السماء ويطلّع على أحوالها ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ واختلسه سرّاً .

عن ابن عباس ، قال : يريد الخطفة اليسيرة ^(٦) .

وقيل : إنّ المعنى ولكن من استرق السمع من مردة الشياطين ^(٧) ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ ولحقه ﴿شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ ونجم كشعلة نار ساطع .

عن ابن عباس : أنّ المارد من الشياطين يعلو فيرمى بالشهاب فيقتله ^(٨) .

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ *
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (١٩) و (٢٢)﴾

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٦٩ .

(٢) الزجر : إثارة الطير للتيمن بسنوحها أو التشاؤم ببروحها .

(٣) أمالي الصدوق : ٣٦٠ / ٤٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٣ .

(٤) في المصد : خرج إلى نادي .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٤ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٦٩ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٦٩ .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ١٦٩ ، وفيه : بالشهاب فيحرقه ولا يقتله .

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان بدائع صنعه في السماوات ، بيّن سعة قدرته في الأرض بقوله : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ وبسطناها على وجه الماء ، كما عن ابن عباس ^(١) ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ وأوجدنا ﴿فِيهَا﴾ جبلا ﴿رَوَاسِي﴾ وثوابت ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من نبات وثمار ﴿مُوزُونٍ﴾ ومتقدّر بقدر خاصّ .
وقيل : يعني موزون بميزان الحكمة والعقل ، ومتناسب بحكم العقل السليم بحسنه ومطابقته للمصلحة ^(٢) .

وقيل : يعني المقدّر بالميزان ، فإنّ المعادن والنباتات كلّها كذلك ^(٣) .
وعن القمي : لكلّ ضرب من الحيوان قدرنا شيئا موزونا ^(٤) .
وعن الباقر عليه السلام : « أن الله تعالى أنبت ^(٥) في الجبال الذهب والفضة والجوهر والصّفر والنّحاس والحديد والرّصاص والكحل والزرنّخ ، وأشباه ذلك لا يتابع إلّا وزنا » ^(٦) .
أقول : على هذا التفسير يكون الإنبات بمعنى الإيجاد ، ومرجع ضمير ﴿فِيهَا﴾ [إلى] الرواسي ، كما عليه بعض مفسري العامة ^(٧) .

ثمّ إنه تعالى بعد ذكر بسط الأرض ، وإلقاء الجبال فيها ، وإنبات الثّمار فيها ، ذكر خلق ما يعيش به الخلق في الأرض دليلا على قدرته بقوله : ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا ﴿لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ وما به قوام الحياة من الأطعمة والأشربة والألبسة ﴿وَوَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ جعلنا لكم ﴿مِنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ من العيال والعبيد والخدم والدوابّ ، فإنّ نفعهم لكم ورزقهم علينا .

وقيل : إنّ المعنى وجعلنا لكم ولمن لستم برازقيه من المذكورين معايش ^(٨) .
ثمّ بالغ سبحانه في توضيح سعة قدرته بقوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما من موجود ﴿إِلَّا عِنْدَنَا﴾ وتحت قدرتنا ﴿خَزَائِنُهُ﴾ شبه سبحانه مقدوراته وما يكون وجوده بإفاضة في الكثرة ، والستر عن الخلق ، والصّون من وصول الأيدي إليه مع شدّة الحاجة إليه وكمال الرغبة فيه بنفائس الأموال التي يجعلها السلطان في خزائنه .

قيل : إنّ الخزان كناية عن الأعيان الثابتة ^(٩) ، والماهيات المتقرّرة .
عن السجاد عليه السلام : « أنّ في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البرّ والبحر » قال : « وهذا تأويل قوله :

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٠ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٢ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٢ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٤ .

(٥) في النسخة : أثبت .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٤ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٧١ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٢ .

(٩) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٢ .

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾^(١) .

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ ولا نوحده ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ وحدّ معين تقتضيه الحكمة. وقيل : إنّ المراد بالخزائن المطر^(٢) ، حيث إنّّه تعالى بعد بيان إعطائه المعاش ذكر المطر الذي هو سببه وأنّه عنده ، أي بأمره وتدييره وحكمته ، وما ينزّله إلّا بحدّ معين.

القمي : الخزائن الماء الذي ينزل من السماء ، فنبت لكلّ ضرب من الحيوان ما قدّر الله له من الغذاء^(٣) .

عن ابن عباس : يريد قدر الكفاية^(٤) .

قيل : إنّ الله ينزل المطر كلّ عام بقدر معلوم غير أنّه يصرفه إلى من شاء كما شاء حيث شاء^(٥) .
أقول : يبعد كون المراد لذكره تعالى الرياح والمطر بقوله : ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ إليكم ﴿الرَّيْحَ﴾ التي تكون ﴿لَوَاقِحَ﴾ ومحلات للشجر وللحباب^(٦) ، كما عن ابن عبّاس^(٧) .

وعن ابن مسعود - في تفسير الآية - : يبعث الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء ، وتمجّه في السحاب ، ثمّ أنّه يعصر السحاب ويدرّه كما تدرّ اللقحة^(٨) .
القمي : تلقح الأشجار^(٩) .

وقيل : إنّ اللواقح بمعنى الحاملات ، فإنّ الريح تحمل السحاب والماء^(١٠) .
وقيل : إنّّه بمعنى آتيان بالخير ، كما يقال لما لا خير له عقيم^(١١) .
وعن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : « قال رسول الله ﷺ : لا تسبوا الرياح فإنّها بشر ، وإنّها نذر ، وإنّها لواقح ، فاسألوا الله من خيرها ، وتعوّذوا به من شرّها »^(١٢) .

﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ بعد إنشاء السحاب الماطر بالرياح ﴿مَاءً﴾ مباركاً نافعاً ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾
وأشربناكموه ، وأشربناه مواشيكم وضياعكم. قيل : هو أفصح^(١٣) من « سقيناكموه » لدلالته على جعل الماء [معدّاً] لهم ينتفعون^(١٤) به متى شاءوا^(١٥) .

(١) روضة الواعظين : ٤٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٥ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٤ ، تفسير الصافي ٤ : ٤٥٣ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٥ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٤ .

(٦) في تفسير الرازي : عن ابن عباس : الرياح لواقح للشجر وللحباب .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٥ .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٥ ، واللّقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، واللّقحة : المرأة المرضعة .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٧٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٥ .

(١٠ و ١١) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٦ .

(١٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٦ / ٢٣١٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٥ .

(١٣) في تفسير روح البيان : أبلغ .

(١٤) في تفسير روح البيان : يرتفقون .

(١٥) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٤ .

﴿وَمَا تَقْدِرُونَ﴾ أَنْتُمْ ﴿﴾ على أَنْ تكونوا ﴿لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ في السحاب أو الغدران والآبار والعيون ، بل نحن نخزنه فيها ليكون سقيا لكم ، مع أَنَّ الماء غائر بالطبيعة ، فنفي عن الناس ما أثبتته لجنابه .

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٣) و (٢٤) ﴿﴾

ثمَّ استدَلَّ على قدرته بظهورها في أنفسهم بقوله : ﴿وَإِنَّا﴾ والله ﴿لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بالإحياء له ﴿وَنُمِيتُ﴾ ماله الحياة من الحيوان والنبات ﴿وَنَحْنُ﴾ الباقون بعد فناء الخلق ﴿الْوَارِثُونَ﴾ للدنيا وما فيها . ثمَّ بيَّن سعة علمه بقوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ والمتقدمين ﴿مِنْكُمْ﴾ خروجاً من الأصلاب وولادة وموتاً ، أو دخولا في الاسلام ، أو في صفِّ الجهاد ، أو في الطاعة كما عن ابن عباس ^(١) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ في ذلك .

عن الباقر عليه السلام : « هم المؤمنون من هذه الامة » ^(٢) .

وفي تكرير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ تأكيد بليغ .

عن ابن عباس - في رواية - قال : كانت تصلي خلف النبي صلى الله عليه وآله امرأة حسنة في آخر النساء ، فكان بعضهم يتقدم في الصفِّ الأول لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها ، فاذا ركع نظر من تحت إبطيه إليها فنزلت ^(٣) .

وقيل : كانت النساء يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال ، فرما كان من الرجال من في قلبه ريبة يتأخر إلى آخر صفِّ الرجال ، ومن النساء من في قلبها ريبة تتقدم إلى أول صفِّ النساء لتقرب من الرجال ، فنزلت ^(٤) .

وقيل : رغب رسول الله صلى الله عليه وآله في الصفِّ الأول ، فزدحموا عليه فنزلت ^(٥) .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥) ﴿﴾

ثمَّ لما بيَّن الله سبحانه مبدأ الخلق ومماتهم ، وأعلن بقدرته عليهما ، بيَّن قدرته على حشرهم من القبور للحساب والجزاء بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ القادر على الإحياء والاماتة ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ من القبور

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٧ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٦ / ٢٣١٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٦ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٨ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٧٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٥ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٥ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٦ .

جميعا إلى الحشر دفعة واحدة لجزاء الأعمال بلا تقدّم وتأخّر ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ ومحيط بحقائق الأشياء ومصالحها ومفاسدها ، متقن في فعاله ، فلا يخلق الخلق لعبا وعبثا ﴿عَلِيمٌ﴾ بخفّيات السماوات والأرض ، لا يعزب عن علمه شيء ، فيعلم ذرات تراب كلّ جسد فيجمعه ويخلقه ثانيا بصورته الأولى ، وفي تقدّم صفة الحكمة دلالة على اقتضاءها الحشر للجزاء ، وفي الآية ردّ على منكبيه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ

مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٦) و (٢٧)﴾

ثمّ استدلّ على الحشر ببدو خلق الانسان بغير مثال سابق من تراب بقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الأول وهو آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وطين يابس غير مطبوخ ، إذا نقر كان له صوت مع الترجيع كما قيل ^(١) ، وكان ذلك الصلصال ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ وطين أسود متغير بطول مجاورة الماء ﴿مَسْنُونٍ﴾ ومنقن على قول ^(٢) ، أو مصوّر على قول ^(٣) ، أو مصبوب ومفرغ على هيئة الانسان ، كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب ^(٤) ولعله المراد من قول ابن عباس المسنون : الطين الرطب ^(٥) ، فكأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصوّر تمثال الانسان أجوف فييس حتى إذا نقر صوّت.

قيل : لما صوّره الله تركه في الشمس أربعين سنة ، فصار صلصالا كالخزف ، ولا يدري أحد ما يراد به ، ولم ير شيئا يشبهه ، فكانت الريح إذا مرّت به سمع له صلصلة ، فلذلك سمّاه الله صلصالا ^(٦) . ﴿وَالْجَنَّ﴾ الأول ، وهو إبليس على قول ^(٧) ، أو غيره ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ عن ابن عباس : من قبل خلق آدم ^(٨) ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ والشديدة الحرّ ، أو لا دخان له ، أو نافذة بلطافتها في مسام البدن . عن ابن مسعود : هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق الله منها الجنّ ^(٩) . وقيل : لم تكن قبل آدم خلق من تراب ، وإلّا خلقه الله منه ليكون عبدا خضوعا وضوعا ذلولا مائلا إلى السجود لأنّه إظهار كمال العبودية ، ولما كان كلّ جنس مائلا إلى جنسه وظاهرا فيه آثار مبدئه ، تواضع آدم لله ، واستكبر إبليس من التواضع ^(١٠) .

(١) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٩ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٧ .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٥١٦ ، تفسير الصافي ٤ : ٤٥٧ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٧ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٥١٦ ، تفسير الرازي ١٩ : ١٨٠ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ١٧٩ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ١٨٠ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٨ .

(٨ و ٩) تفسير الرازي ١٩ : ١٨٠ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ٤٥٨ .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٨) و (٢٩)

ثم لما بين الله سبحانه حساسة مبدأ خلق الانسان ، بين غاية شرفه الدالة على كمال قدرة الله وحكمته بقوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ﴾ من بعد ﴿بَشَرًا﴾ وإنسانا أو خلقا مجسما يلاقي ويأشر ، أو بادي البشرية ؛ لأنه لا صوف له ولا شعر ، يكون خلقه ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ كائن ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وأكملت خلقه جسده بأن خلقت أجزاء بدنه وصورته بصورة إنسانية وعدلت طباعه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ وأفضت عليه ﴿مِنْ رُوحِي﴾ الجوهرية التي هي من أمري ﴿فَقَعُوا﴾ واستقطوا ﴿لَهُ﴾ حال كونكم ﴿سَاجِدِينَ﴾

قيل : يعني اسجدوا تعظيما وخضوعا لله ، وجعلوا آدم بمنزلة القبلة لظهور تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته فيه ^(١) .

عن الباقر عليه السلام ، أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فقال : « روح اختاره الله واصطفاه وخلقاه وأضافه إلى نفسه ، وفضله على جميع الأرواح ، [فأمر] فنفخ منه في آدم » ^(٢) . وعن الصادق عليه السلام ، أنه سئل عنه ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ خلق خلقا ، وخلق روحا ، ثم أمر ملكا فنفخ فيه ، فليست بالتي نقصت من ^(٣) الله شيئا ، هي من قدرته » ^(٤) .

وعن الباقر عليه السلام ، أنه سئل : كيف هذا النفخ ؟ فقال : « إِنَّ الرُّوحَ متحرك كالريح ، وإنما سمي روحا لأنه اشتق اسمه من الريح ، وإنما أخرجت ^(٥) على لفظة الروح ، لأن الروح جانس للريح ، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح ، كما اصطفى بيتا من البيوت . فقال : بيتي ، وقال لرسول من الرسل : خليلي وأشباه ذلك ، فهو مخلوق ^(٦) مصنوع محدث مربوط مدبر » ^(٧) .

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ

السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ

لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٦١ .

(٢) التوحيد : ١٧٠ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٨ .

(٣) زاد في التوحيد : قدرة .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٧ / ٢٣٢٣ ، التوحيد : ١٧٢ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٨ .

(٥) في التوحيد : أخرجه .

(٦) في التوحيد : ذلك ، وكل ذلك مخلوق .

(٧) التوحيد : ١٧١ / ٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٠٨ .

يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٠) و (٣٨)

ثم خلقه الله وسواه ، ونفخ فيه الروح ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يشدّ منهم أحد و﴿أَجْمَعُونَ﴾ بحيث لم يتأخّر أحد في امتثال الأمر من أحد ، أو المراد المبالغة في التأكيد والتعميم ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وإنما الاستثناء مع كونه من الجنّ لكونه مغمورا بالوف من الملائكة.

وقيل : لأنه كان من جنس الملائكة الذين يتوالدون ^(١) ، والحقّ هو الأول ، وعلى أي تقدير لا شبهة أنّه كان مأمورا بالسجود ، ومع ذلك ﴿أَبَى﴾ وأمتنع من ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وموافقا لهم في الطاعة ، فعاتبه الله عند ذلك و﴿قَالَ﴾ عتابا وتوبييخا له : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا كَانَ ﴿لَكَ﴾ مِنَ الْعَذْرِ فِي ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ مَوَافِقَا ﴿مَعَ﴾ الْمَلَائِكَةِ ﴿السَّاجِدِينَ﴾ لآدم من عرفانك بشرفهم ومنزلتهم لدي ؟

﴿قَالَ﴾ إبليس : عذري في الامتناع من السجود له ، أيّ علمت أنّك خلقتني من النار التي هي أشرف العناصر وأعلاها و﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ﴾ ومخلوق كثيف ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ كائن من ﴿حَمِإٍ مُسْنُونٍ﴾ مع شرقي وفضيلتي عليه ، فأنّه لا يصحّ تواضع الأشرف والأفضل للأدنى والمفضول.

﴿قَالَ﴾ الله : إذن لا يجوز إقامتك في الجنة ، أو في السماوات ، أو في المنزل [التي] كانت لك ، أو في زمرة الملائكة ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ﴾ قايسست وعصيت ، وكلّ من قاس وعصى فهو ﴿رَجِيمٌ﴾ ومطرود من دار كرامتي ومن كلّ خير ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ والدعاء بالشرّ من الملائكة والناس ، أو الابعاد من الرحمة من الآن ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ووقت جزاء الأعمال ، وأمّا بعد ذلك فعليك العذاب الذي لا يقادر قدره.

قيل : إنّ التوقيت بيوم الدين كناية عن الدوام ^(٢) .

ثمّ ﴿قَالَ﴾ إبليس : ﴿رَبِّ﴾ إذ جعلتني رجيمًا وملعونًا ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ وأمهلني في الدنيا ، ولا تمتني ﴿إِلَى يَوْمٍ﴾ القيامة الذي فيه يحشر ^(٣) الناس و﴿يُبْعَثُونَ﴾ يوم البعث من القبور للحساب ، وإنما سأل ذلك ليكون له فسحة في إغواء بني آدم وأخذة الثأر ، لا للنجاة من الموت لاستحالتها ﴿قَالَ﴾ سبحانه : ﴿فَإِنَّكَ مِنَ﴾ جملة ﴿الْمُنْظَرِينَ﴾ والممهلين ، ولكن لا إلى يوم البعث ، بل ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الاولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض.

روي أنّ بين موته وبعثه أربعين سنة من سنيّ الدنيا ، وهو ما بين النفختين ^(٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ٧٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٦٥ .

(٣) في النسخة : يحشرون .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ : ٧٧ .

عن كعب : لما حضر آدم الوفاة قال : يا ربّ سيّثمت بي عدوي إبليس إذا رأي ميّتا وهو منظر إلى يوم القيامة. فاجيب : أن يا آدم إنّك سترد الجنة ويؤخّر اللعين إلى التّظّرة ليدوق ألم الموت بعدد الأولين والآخرين.

ثمّ قال آدم لملك الموت : صف لي كيف تذيّقه الموت ؟ فلمّا وصفه قال : حسبي. فقال الناس : يا أبا إسحاق ، كيف ذلك ؟ فأبى الجواب فألحوا فقال : يقول الله لملك الموت بعد النفخة الاولى : قد جعلت لك قوة أهل السماوات والأرضين ، وألبستك اليوم أثواب الغضب كلّها ، فانزل بغضبي على إبليس وأذقه الموت ، واحمل عليه أضعاف مرارة الأولين والآخرين ، وليكن معك من الزّبانية سبعون ألفا قد امتلأوا غيظا ، مع كلّ منهم سلسلة من سلاسل جهنم ، وغلّ من أغلالها ، وانزع روحه المنن بسبعين ألف كلاب من كلاليتها ، وناد مالكا ليفتح أبواب النيران ، فينزل ملك الموت بصورة لو نظر إليها أهل السماوات والأرضين لماتوا من هولها.

فينتهي إلى إبليس فيقول : قف يا خبيث لأذيقنك الموت ، كم من عمر أدركت وقرون أضللت ، وهذا هو الوقت المعلوم. فيهرب اللعين إلى المشرق ، فاذا هو بملك الموت بين عينيه ، فيهرب إلى المغرب ، فاذا هو به بين عينيه ، فيغوص البحار ، فترميه البحار ولا تقبله ، فلا يزال يهرب في الأرض ولا محيص له ولا ملاذ ، ثمّ يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم ، ويتمرّغ في التراب من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق ، حتى إذا كان في الموضع الذي اهبط آدم فيه وقد نصبت له الزبانية الكلاليب ، وصارت الأرض كالجمرة ، أحتوشته الزبانية ، وطعنوه بالكلاليب ، ويبقى في التّزع والعذاب إلى حيث يشاء الله^(١). عن الصادق عليه السلام ، أنّه سئل عن الوقت المعلوم ، فقال : « يوم الوقت المعلوم يوم ينفخ في الصّور نفخة واحدة ، فيموت إبليس ما بين النفخة الاولى والثانية »^(٢) .

وعنه عليه السلام ، أنّه سئل عنه فقال : « أتخسب أنّه يوم يبعث فيه الناس ؟ إن الله أنظره إلى يوم يبعث فيه قائمنا ، فاذا بعث الله قائمنا كان في مسجد الكوفة ، وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول : يا ويله من هذا اليوم ، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه ، فذلك يوم الوقت المعلوم »^(٣) .

والقمي : عنه عليه السلام ، قال : « يوم الوقت [المعلوم] يوم يذبحه رسول الله ﷺ على الصخرة

التي في

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ٧٧ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٦٦ .

(٢) علل الشرائع : ٤٠٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٨ / ٢٣٢٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٢ .

بيت المقدس» (١). قال الفيض عليه السلام : أقول : يعني عند الرجعة (٢).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا

عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٣٩) و (٤١)﴾

ثم لما أمهل الله اللعين للحكم البالغة التي منها امتحان بني آدم ﴿قَالَ﴾ إبليس : ﴿رَبِّ﴾ أقسم ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ من التكليف بالسجود لآدم ، وقد كنت تعلم أنني أعصيك فيه ، أو قال : رب بسبب إغوائك إياي والتكليف الذي صار سببا لعصيانى ، أقسم بعزتك لاعادي بني آدم و ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ عصيانك ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ودار الغرور ، وارغبهم في مخالفتك ، أو لأزینن لهم المقام في الأرض كي يطمئنوا بها ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وأبعثهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ إلى الضلالة بوسوستي وتسويلي وبما هيأت من سبب عصيانهم بحيث لا ينجو أحد منهم من كيدي وإغوائي ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ﴾ ولكن لا عمومهم ، بل أعني ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ الذين خصصتهم بعبوديتك وطاعتك ، وطهرتهم من الرذائل والشهوات ، فأنهم لا يؤثر فيهم كيدي ، ولا يتبعون وساوسي (٣) ﴿قَالَ﴾ سبحانه : ﴿هَذَا﴾ التخلص من كيدك المخصوص بالمخلصين ﴿صِرَاطٌ﴾ وطريق حقيقي ﴿عَلَيَّ﴾ رعايته وتقريره ، وهو ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا عوج فيه.

وقيل : إنَّ المراد أنَّ هذا الإخلاص طريق من مرَّ عليه فكأنَّما مرَّ عليّ وعلى رضواني وكرامتي.

وقيل : كلمة (عليّ) بمعنى إليّ ، والمراد هذا الاخلاص طريق إليّ وهو مستقيم يؤدّيه إلى كرامتي وقربي. وقيل : إنَّ المشار إليه بكلمة (هذا) هو الصراط ، والمعنى هذا الطريق في العبودية طريق عليّ مستقيم (٤).

وقيل : إنَّ المشار إليه التفويض إلى مشيئة الله المستفاد من قول إبليس : إلّا عبادك منهم المخلصين ، وحاصله أنّي أغوي بني آدم إلّا من عصمه الله بتوقيقه ، يدلّ ذلك على أنّ المخلصين يفوّضون أمورهم إلى الله ، فقال الله : هذا التفويض إليّ وإلى مشيئتي طريق عليّ مستقيم (٥).

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾

ثمّ لما كان في كلام إبليس إيهام سلطنته على غير المخلصين ، نفى سبحانه سلطنته على العباد عموما بقوله : ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ [سواءاً] كانوا مخلصين ، أو غير مخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾ بوجه من

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٤٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٣ .

(٢) تفسير الصافي ٣ : ١١٣ .

(٣) في النسخة : بوساوسي

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٨٩ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٨٩ .

الوجوه ﴿سُلْطَانٌ﴾ واستيلاء وقهر ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ﴾ وأطاعك باختياره ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والضالين بسبب خبت ذاتهم من غير قهر منك.

عن الباقر عليه السلام ، أنه سئل عن تفسيره فقال : « قال الله : إنك لا تملك أن تدخلهم جنة ولا ناراً » (١) .

وقيل : إنَّ المراد بالعباد في الآية خصوص المخلصين ، والمقصود تحقيق ما قاله اللعين ، وتفخيم شأن المخلصين ، وتأكيدهم لانقطاع مخالفه عنهم ، وأن إغواء الغاوين ليس بطريق القهر والسلطان ، بل بطريق الاتباع بسوء الاختيار (٢) .

وعن الصادق عليه السلام : « والله ما أراد بهذا إلا الأئمة وشيعتهم » (٣) .

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ

مَقْسُومٌ (٤٣) وَ (٤٤)﴾

ثم هدّد سبحانه الغاوين ببيان نتيجة اتباع الشيطان بقوله : ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ والله ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ وموقفهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في القيامة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ بعدد أقسام الغاوين ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ وقسمة معينة وفرقة خاصة.

قيل : إنَّ قرار جهنم مقسوم سبعة أقسام ، ولكل قسم باب معين : القسم الأول جهنم ، والثاني لظى ، والثالث الحطمة ، والرابع سعير ، والخامس سقر ، والسادس الجحيم ، والسابع الهاوية (٤) .
وقيل : إنَّ المراد بسبعة أبواب سبع طبقات بعضها فوق بعض ، وتسمّى تلك الطبقات بالدركات ، الطبقة الاولى لأهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم ثم يخرجون ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين (٥) .
وهذا الاختلاف في الدركات والعذاب لاختلاف مراتب الكفر بالغلظة والخفة.
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « سبعة أبواب النار متطابقات » (٦) .

وعنه عليه السلام : « أن جهنم لها سبعة أبواب ، أطباقها بعضها فوق بعض - ووضع إحدى يديه على الأخرى ، فقال : هكذا - وإنَّ الله وضع الجنان على العرض ، ووضع النيران بعضها فوق بعض ، فأسفلها جهنم ، وفوقها لظى ، وفوقها الحطمة ، وفوقها سقر ، وفوقها الجحيم ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية » (٧)

(١) تفسير العياشي ٢ : ٤٢٩ / ٢٣٢٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٣ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٧٩ .

(٣) الكافي ٨ : ٣٥ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٠ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٠ .

(٦) الخصال : ٥٩٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٤ .

(٧) مجمع البيان ٦ : ٥١٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٤ .

وفي رواية : « أسفلها الهاوية » ^(١) .

وعن الصادق ، عن أبيه ، عن جده عليه السلام : « أنّ للنار سبعة أبواب ، باب يدخل منه فرعون وهامان وقارون ، وباب يدخل منه المشركون والكفار ومن ^(٢) لم يؤمن بالله طرفه عين ، وباب يدخل منه بنو أمية هو لهم خاصة لا يزارهم فيه أحد ، وهو باب لظى ، وهو باب سعير ^(٣) وهو باب الهاوية ، تهوى بهم سبعين خريفا ، فكلما هوى بهم سبعين خريفاً فار بهم فورة قذف بهم في أعلاها سبعين خريفاً ، ثم تهوى بهم [كذلك سبعين خريفاً ، فلا يزالون] هكذا أبداً خالدون مخلدين ، وباب يدخل منه مبغضونا ومحاربونا وخاذلونا ، وإنّه لأعظم الأبواب وأشدّها حرّاً » .

ثمّ قال : « والباب الذي يدخل منه بنو أمية هو لأبي سفيان ومعاوية وآل مروان خاصة ، يدخلون من ذلك الباب فتحطمهم النار فيه حطماً ، لا تسمع لهم واعيّة ولا يحيون فيها ولا يموتون » ^(٤) .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا

هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٥) و (٤٨)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان نتيجة إغواء الشيطان ، بين نتيجة أحكام عبادته بقوله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ والعباد المخلصين مستقرون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكلّ منهم بساتين متعدّدة وعيون متعدّدة ، وواحد منهما يقول - الله أو الملائكة - لهم عند دخولها ، أو حين الانتقال من جنّة إلى جنّة : ﴿ادْخُلُوهَا﴾ متلبسين ^(٥) ﴿بِسَلَامٍ﴾ من جميع الآفات والمكاره والمخوفات ، أو بتحية من الله والملائكة حال كونكم ﴿آمِينَ﴾ غير خائفين من زوال النعم وانقطاع الفيوضات ، أو من موانع الدخول ، أو من الآفات والأسقام ، فيكون تأكيداً لقوله : ﴿بِسَلَامٍ﴾ على التفسير الأوّل .

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ﴾ وقلوبهم ﴿مِنْ غَلٍّ﴾ وحقد يسير كامن كان بينهم في الدنيا ، وطبيّنا نفوسهم من الرذائل .

روي أنّ المؤمنين يحبسون على باب الجنة ، فيقتصّ بعضهم ^(٦) من بعض ، فيؤمر ^(٧) بهم إلى الجنة وقد نفى الله قلوبهم من الغل والغشّ والحقد والحسد ^(٨) ، فيكونون ﴿إِخْوَانًا﴾ في المودّة والمخالصة

(١) مجمع البيان ٦ : ٥١٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٤ .

(٢) في الخصال : مَن .

(٣) في الخصال : سقر .

(٤) الخصال : ٣٦١ / ٥١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٤ .

(٥) في النسخة : متلبسا .

(٦) في تفسير الرازي : لبعضهم .

(٧) في تفسير الرازي : ثمّ يؤمر .

(٨) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٣ .

والمخالطة ، كما قال تعالى : ﴿الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِغُضُنِّهِمْ لِبَعْضِ عَدُوِّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(١) وهم جالسون ﴿على سُرُرٍ مرفوعة حال كونهم﴾ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومواجهين.

عن ابن عباس : يريد على سر من ذهب مكلفة بالترجد والدّر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية^(٢) .

وقيل : إنّ المراد من السرير : هو المجلس الرفيع المهيأ للسرور^(٣) ، والمستقرّ الذي اطمئنّ إليه في حال الفرح ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ في الجنة ولا ينالهم ﴿فِيهَا﴾ من حين دخولها ﴿نَصَبٌ﴾ وعناء وتعب إلى الأبد ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيكون لهم بقاء لا فناء له ، ونعمة لا زوال لها ، وفوز لا حرمان معه.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ﴾

الْأَلِيمُ (٤٩) و (٥٠)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر حسن حال عباده المخلصين أعلن بشمول عفوه ورحمته لكلّ من اعترف بعبوديته وتوحيده بقوله : ﴿نَبِّئْ﴾ يا محمد ، واخبر ﴿عِبَادِي﴾ المؤمنين مطيعيهم وعصائهم ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين حتّى لا ييأسوا من غفراني ورحمتي.

عن النبي ﷺ ، أنّه مرّ بنفر من أصحابه وهم يضحكون ، فقال : « أتضحكون والنار بين أيديكم ؟ »^(٤) فنزل قوله : ﴿نَبِّئْ﴾ عبادي إلى آخره.

ثمّ أعلن بغضبه على العصاة بقوله : ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ وفي تقديم الاعلان بالرحمة ، وإضافة العباد إلى نفسه ، وتأکید الوعد بكلمة (إني) و (أنا) وتغيير اسلوب الإخبار بالوعد ، حيث لم يقل : أنا المعذّب ، بل أخبر بكون عذابه أليماً ، دلالة واضحة على سبق رحمته وغلبتها على غضبه ، وإن كان على المؤمنين التسوية بين الخوف والرجاء بحيث لا يترجّح أحدهما على الآخر.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ *﴾

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ

فِيمَ تَبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥١) و (٥٥)﴾

ثمّ لما كان في قصص الأنبياء وامهم شهادة على رحمته بأوليائه وغضبه على أعدائه ، شرع في

(١) الزخرف : ٤٣ / ٦٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٣ ، والجابية : قرية من أعمال دمشق .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٣ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٥ .

بياتها ، وبدأ بقصة إبراهيم عليه السلام الذي هو أعظم منزلة بقوله : ﴿وَبَشِّرْهُمْ﴾ وأخبرهم يا محمد ﴿عَنْ﴾ قصة ﴿صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم الملائكة الذين جاءوا بالرحمة والسلامة على إبراهيم ولوط ، وبالعذاب على قوم لوط.

قيل : كانوا اثني عشر أحدهم جبرئيل ، ولم يعرفهم إبراهيم ، وحسب أنهم أضيافه ^(١) .
﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ بصورة البشر ﴿فَقَالُوا﴾ حين الدخول : سلام الله عليك ، أو نسلّم عليك يا إبراهيم ﴿سَلَامًا﴾ وكان إبراهيم عليه السلام شديد الحب للضيافة ، فما لبث حتى جاءهم بعجل مشوي ، فلما رأى أنهم لم يمدّوا أيديهم إليه خاف منهم ؛ لأنّ المعتاد عندهم أنّ الضيف إذا امتنع من الأكل ظنّوا أنّه عدوّ.

وقيل : إنّ سبب خوفه أنهم دخلوا عليه بغير إذن وفي غير وقت ^(٢) ، ولذا ﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ وخائفون ، فلما سمعت الملائكة منه ذلك ﴿قَالُوا﴾ تأمينا لخاطرة : يا إبراهيم ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ ولا تخف منا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ونخبرك بما فيه سرور قلبك ، وهو أنّ الله يريد أن يمنّ عليك ﴿بِغُلَامٍ﴾ وولد ذكر ^(٣) ﴿عَلَيْهِمُ﴾ بالمعارف والأحكام ، أو بعلم النبوة ، فتعجّب إبراهيم عليه السلام من مقالتهم ، و﴿قَالَ﴾ لهم : ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي﴾ بأن يولد لي ولد وأنا ﴿عَلَى﴾ حال بعيد عادة من ذلك ، وهو ﴿أَنْ مَسَّنِي﴾ وأصابني ﴿الْكَبِيرُ﴾ والهرم الذي لا يكون معه الولد.

قيل : إنّ (على) بمعنى مع ، أو بمعنى بعد ^(٤) .
ثمّ بالغ في إظهار التعجّب بقوله : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ من الأعجوبة ، فلما رأوا استبعاد إبراهيم عليه السلام ما بشّروه به ﴿قَالُوا﴾ له تأكيدا لقولهم : إِنَّا ﴿بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ والصدق ، وبما هو كائن لا محالة ، أو باليقين الذي لا شبهة فيه ، أو بطريق حقّ وهو إخبار الله به ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَانِطِينَ﴾ من رحمة الله عليك ، والآيسين من أن تلد وأنت شيخ كبير.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا
امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٥٦) و (٦٠)

فلما سمع إبراهيم عليه السلام كلامهم الموهم لنسبته إلى اليأس من رحمة الله ﴿قَالَ﴾ تخاشيا منها وإنكارا عليهم : ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ﴾ اللطيف به ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ والمخطئون طريق المعرفة

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ١٩٦ .

(٣) في النسخة : ذكور.

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٤ .

والصواب ، فأنهم الذين لا يعرفون سعة رحمة الله وكمال قدرته وحكمته ولطفه بعباده ، فنفي عن نفسه القنوط بأبلغ وجه ، وبين أن مقاله كان استعظاما لهذه النعمة الخارقة للعادة ، ثم لما عرف إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة أرسلوا لأمر عظيم ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما شأنكم ﴿أَيُّهَا﴾ الملائكة ﴿الْمُرْسَلُونَ؟﴾ قيل : إنه علم من كثرتهم وبشارتهم لرفع خوفه أنهم أرسلوا لأمر آخر غير البشارة ^(١) ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ من قبل الله ﴿إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كي يهلكهم بالعذاب لتناهيهم في الإجماع والطغيان ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وأهله المؤمنين ﴿إِنَّا﴾ والله ﴿لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مما يصيب قومه من العذاب ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [واسمها] واهلة - كما قيل ^(٢) - فإن ربك قال : إِنَّا ﴿قَدَرْنَا﴾ وقضينا ﴿إِنهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ والباقي في المدينة مع الكفار ، فيصيبها ما يصيبهم من العذاب لشركتها معهم في الكفر وإيذاء لوط.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جُنَّاكَ بِمَا

كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَاسْرِ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنْ

اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦١) و (٦٥)﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ لوطا و﴿آلَ لُوطٍ﴾ الملائكة ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ بالعذاب ﴿قَالَ﴾ لهم لوط ﴿إِنَّكُمْ﴾ في

هذه البلدان ﴿قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ لا يعرفكم أحد.

قيل : يعني أنكم لا في زيّ السفر ، ولا من أهل الحضر ، فأخاف أن تطرقوني بشر ^(٣) .

﴿قَالُوا﴾ ما جنناك بما تنكرنا لأجله ﴿بَلْ جُنَّاكَ بِمَا﴾ فيه سرورك ويشفي ^(٤) قلبك ، وهو العذاب

الذي تتوعد به قومك وهم ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ وفي وقوعه يشكون ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ واليقين الذي لا

مجال للريب فيه ﴿وَإِنَّا﴾

والله ﴿لَصَادِقُونَ﴾ في ما نخبرك به من العذاب.

قيل : إن المراد بالحق الإخبار بالعذاب ، وما بعده تأكيد له ^(٥) ، إذن ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ معد من

المدينة ﴿يَقْطَعُ﴾ وطائفة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ وفي بعض منه ﴿وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ﴾ وكن من ورائهم لتسوقهم وتطلع

عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنْكُمْ﴾ إلى الوراء ﴿أَحَدٌ﴾

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٥٣٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٥ .

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٦ .

(٣) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٦ .

(٤) في النسخة : وتشقي .

(٥) تفسير أبي السعود ٥ : ٨٤ .

قيل : إنّ النهي عن الالتفات كناية عن سرعة السير لاستلزام الالتفات الوقوف أو التواني ^(١) ، أو عن إيجاب التوطين على الهجرة ، أو عن قطع العلاقة عمّا خلفوه ، أو عن الانصراف والتخلّف .
﴿وَأَمْضُوا﴾ واذهبوا إلى ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ من جانب الله بالمضيّ والذهاب إليه .
عن ابن عباس : يعني الشام ^(٢) . وقيل : يعني مصر ^(٣) . وقيل : يعني حيث يقول لكم جبرئيل ، فأنّه أمرهم ان يمضوا الى قرية قريبة لم يعمل أهلها مثل عمل أولئك القوم ^(٤) .

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ * قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٦) و (٧١)

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّه بعد إخبار الملائكة لوطا بإهلاك قومه ، أوحى سبحانه إليه بلا واسطة الملك بتعذيب قومه بقوله : ﴿وَقَضَيْنَا﴾ وأوحينا ﴿إِلَيْهِ﴾ بنحو البتّ ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ الذي أخبرته الرسل به في شأن قومه ، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ﴾ الكفرة وعقبهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بحيث لا يبقى منهم أحد بعدذاب الاستئصال حال كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ووقت دخول الصبح عليهم .

ثمّ قيل : إنّ امرأة لوط أخبرت أهل سدوم ^(٥) بقدوم أضياف على لوط جرد مرد في غاية الحسن والجمال ^(٦) ﴿وَوَ﴾ لذا ﴿جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ إلى باب منزل لوط وهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ويخبر بعضهم بعضا بأنّه نزل على لوط أضياف مرد وضاء الوجوه ، فلما أتوه وسألوه أن يسلم إليهم أضيافه ليرتكبوا الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط : يا قوم ﴿إِنَّ هُوْلَاءِ﴾ الشباب ﴿ضِيفِي﴾ والنازلون عليّ في بيتي ﴿فَلَا تَفْضَحُون﴾ بتفضيحهم ، ولا تبتلوني بالعار بالاساءة إليهم ، وعمل الفاحشة بهم ، فإنّ من أهين ضيفه فقد أهينت نفسه .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وخافوه في الاساءة إليّ وإلى ضيفي ، وفي ارتكاب الفحشاء بهم ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ﴾ ولا تذللوني ولا تخجلوني عندهم بارتكاب الفعلة الشنيعة بهم ﴿قَالُوا﴾ يا لوط ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ﴾ أن

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ٨٤ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٦ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠١ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٦ .

(٣) تفسير البيضاوي ١ : ٥٣٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠١ .

(٥) سدوم : مدينة من مدائن قوم لوط ، كان قاضيها يقال له سدوم .

(٦) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٧ .

تحمي أحدا من ﴿الْعَالَمِينَ﴾

قيل : إنّ التقدير ألم نقدم إليك ولم ننهك عن أن تمنع الغرباء عن تعرّضنا لهم ^(١) . ﴿قَالَ﴾ لوط : ﴿هَؤُلَاءِ﴾ النسوة ﴿بَنَاتِي﴾ فتزوّجهنّ وانصرفوا عن التعرّض لأضيائي ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ وطالبين لقضاء الشهوة ، فاقضوها فيما أحلّ الله لكم دون ما حرّم .

قيل : إنّ القوم كانوا يخطبون بناته ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفايتهم ^(٢) .

وقيل : إنّ المراد بنات القوم ، وأضافهنّ إلى نفسه لكون بنات الامة بمنزلة بنات نبيها ^(٣) .

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٢) و (٧٥)﴾

ثمّ بيّن الله غاية شقاوتهم بقوله : ﴿لَعَمْرُكَ﴾ وحياتك يا حبيبي محمّد قسمني ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ وشدة شهوتهم التي أزلت عقولهم ، وفي غاية شقاوتهم وغوايتهم التي أعمتتهم عن رؤية طريقة الرشيد والصالح ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ويتحيرّون ، فلم يؤثّر فيهم النصّح والارشاد إلى البنات أطيّب من البنين ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جبرئيل حال كونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وداخلين في وقت طلوع الشمس .

قيل : كان ابتداء العذاب - وهو قلع جبرئيل الأرض بهم ورفعها إلى السماء - أول الصبح ، ثمّ هوى بها إلى الأرض ، وكان ختمه - وهو الصيحة - أول طلوع الشمس ^(٤) .

﴿فَجَعَلْنَا﴾ بعد قلع البلاد الخمسة أو السبعة ورفعها إلى قريب من السماء على جناح جبرئيل وقلبها عليهم ﴿عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وسافلها عاليها ، لكون هذا النحو من القلب أدخل في الهول والفضاعة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ من حين الرفع إلى تمام الانقلاب ﴿حِجَارَةً﴾ كائنة ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وطين متحرّج عليه اسم من رمى به على ما قيل ^(٥) . فهلكوا بأنواع من العذاب : الخسف والامطار بالحجارة والصيحة ، وقيل : إنّ مطر الحجارة كان على الغائبين من تلك البلاد ^(٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من عصيان القوم لوطا وطغيانهم على الله وهلاكهم بعذاب الاستئصال وإنحاء لوط وأهله والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأدلة واضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وعظمته ، وقهره على أعدائه ، ولطفه

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ٨٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٨٦ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٢ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٨٦ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٧٩ .

(٥ و ٦) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٠ .

بأوليائه ، وإنما الانتفاع ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ والمتفرسين ، ومن له ذكاء وجودة ذهن ، فأنهم يستنبطون كثيرا من العلوم والمعاني الدقيقة من المحسوسات والماديات ^(١) .

عن النبي ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وينطق بتوفيق الله » ^(٢) .

وعنه عليه السلام - في رواية - « أن الله عابدا يعرفون الناس بالتوسم » ثم قرأ هذه الآية ^(٣) .

وعن الباقر عليه السلام ، قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الآية : كان رسول الله

ﷺ المتوسم ، وأنا من بعده ، والأئمة من ذريتي المتوسمون » ^(٤) .

وعنه أيضا ، في هذه الآية : « قال رسول الله ﷺ : أتقوا فراسة المؤمن » ^(٥) .

وعنه عليه السلام : « ليس مخلوق إلا وبين عينية مكتوب ، [أنه] مؤمن أو كافر ، وذلك محجوب

عنكم ، وليس محجوبا عن الأئمة من آل محمد ﷺ » ^(٦) .

﴿وَإِنَّهَا لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ

الْأَيْكَةِ لَطَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَمَامِرٌ مُّبِينٌ (٧٦) وَ (٧٩)﴾

ثم استشهد سبحانه بوجود بلادهم وآثارهم بقوله : ﴿وَإِنَّهَا﴾ والله ﴿لَسَبِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ وطريق ثابت يسلكه الناس في مسافرتهم من مكة إلى الشام ، ويرون آثار تلك البلاد ، فإنها لم تدرس بعد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من وجود آثارها والله ﴿لَآيَةً﴾ وعظة وهداية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله ، فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق ^(٧) بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بلقع ^(٨) ، إنما كان لسوء صنيعهم وطغيانهم على الله ورسوله.

ثم ذكر سبحانه قصة هلاك قوم شعيب بقوله : ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِمِينَ﴾ على أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسول.

قيل : إن الأيكة ومدين واحد ^(٩) ، فإن أطراف مدين كانت أرض ذات أشجار كثيرة ملتقة بعضها ببعض ، وكانت عامة شجرهم المقل ^(١٠) .

(١) في النسخة : العاديات.

(٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨١.

(٣) مجمع البيان ٦ : ٥٢٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٨.

(٤) الكافي ١ : ١٧٠ / ٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٨.

(٥) تفسير العياشي ٢ : ٤٣٥ / ٢٣٤١ ، الكافي ١ : ١٧٠ / ٣ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٨١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٨.

(٦) بصائر الدرجات : ٣٧٤ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١١٨.

(٧) في النسخة : حلق ، والذي أثبتناه من روح البيان ٤ : ٤٨٠.

(٨) أي خالية من كل شيء.

(٩) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨١.

(١٠) المقل : حمل الدوم ، وهو يشبه النخل.

عن ابن عباس : الأيكة شجر المقل (١) .

وقيل : إنّ الأيكة اسم مكان آخر غير مدين كثير الأشجار ، كانوا يسكنونها ، فبعث الله إليهم شعيب كما بعثه إلى مدين فكذبوه (٢) ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعاقبناهم على تكذيبهم شعيبا .
قيل : أهلك الله أهل مدين بالصيحة ، وأهل الأيكة بالنار ، وذلك أنّ الله أرسل عليهم حرّاً شديدا سبعة أيام ، فخرجوا ليستظلّوا بالشجر من شدّة الحرّ ، فجاءت ريح سموم بنار فأحرقتهم (٣) .
وقيل : بعث الله سحابة فالتجأوا إليها يلتمسون الرّوح ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، فهو عذاب يوم الظلّة (٤) .

وقيل : لما ذكر الله الأيكة ، دلّ بذكرها على مدين ، فجاء بضميرها (٥) بقوله : ﴿وَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ و﴿وَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وطريق واضح لكم وللناس ، تمرّون عليهما وترون آثار العذاب فيهما . وقيل : إنّ ضمير التثنية راجع إلى سدوم والأيكة (٦) .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُضْجِعِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٠) و (٨٤)

[ثمّ] ذكر الله قصّة قوم صالح بقوله : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وهم قوم ثمود ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ قيل : الحجر اسم واد كانوا يسكنونه (٧) . وإنّما نسب سبحانه إليهم تكذيب جميع المرسلين ؛ لأنّ تكذيبهم صالحا تكذيب لجميع الرسل ، ولأنّهم كانوا من البراهمة المنكرين لجميع الرسل ، أو لأنّ المراد بالمرسلين جنس الرسل لا جميع أفرادهم ، كما يقال لمن أهان عالما : إنك موهن العلماء .
ثمّ ذمّهم سبحانه بذنب أعظم من تكذيب الرسل بقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ وأرناهم ﴿آيَاتِنَا﴾ الكثيرة التي كانت في الناقة من خروجها من الصخرة ، وعظم جثتها وظهور فصيلها عند خروجها ، وكثرة شربها ولبنها ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ وعن النظر والتفكّر في جهات إعجازها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ وبها غير معتنين .
﴿وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومسكن لأنفسهم حال كونهم ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب لغاية غفلتهم واعتراهم ، أو من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لغاية استحكامها ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٤ .

(٢) (٤٢) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨١ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٤ .

(٤) تفسير أبي السعود ٥ : ٨٧ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٥ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٨٧ .

مع ذلك ﴿الصَّيْحَةُ﴾ التي صاح بها جبرئيل حال كونهم ﴿مُضْجِجِينَ﴾ بسبب تكذيبهم صالحا ، وإعراضهم عن الآيات ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ ولم ينفع في دفع العذاب ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويحصلون من البيوت الوثيقة والأموال الوفيرة والعدد المتكاثرة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٥) و (٨٦)

ثم أنه تعالى بعد ذكر ابتلاء الامم الماضية بالعذاب ، نبّه على المعاد الذي عذاب الكفار فيه أشدّ مع الدليل القاطع بقوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ خلقا متلبّسا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة المستلزمة للمعاد ، وإلا كان خلقهما عبثا ولعبا ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ والقيامة التي تجزى فيها الناس على قدر أعمالهم ، والله ^(١) ﴿لَآتِيَةٌ﴾ فلا ينحصر عذاب العصاة بما ينزل بهم في الدنيا ، فإنّه بالنسبة إلى ما أعدّ لهم في القيامة كنسبة لا شيء إلى كل شيء ، فاذا كان كذلك فلا تحزن يا محمد بتأخير العذاب عن قومك مع كونهم مكذّبيك ، فإنّ الله سينتقم من أعدائك ويجازيهم أسوأ الجزاء على إساءتهم إليك ﴿فَاصْفَحِ﴾ وأعرض عنهم ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ والإعراض المقرون بالحلم واحتمال آذاهم ولا تعجل في الانتقام منهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ اللطيف بك ﴿هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لك ولأعدائك ولسائر الموجودات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وأعمالهم وأحوالك ومعاملتك معهم من مكابدتهم ، والصبر على إساءتهم ، والصّفح عنهم ، فيجازيهم بأشدّ العذاب ، ويكرمك بأعلى الكرامات ويفضلك على العالمين بأفضل المثوبات ، كما أكرمك في الدنيا بالنبوة ، وفضلك على العالمين بأن ختم بك الرسالة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧)

ثم نبّه سبحانه بأفضل مننه عليه بقوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ يا محمد ، وأنزلنا عليك ﴿سَبْعًا مِنَ﴾ الآيات ﴿الْمَثَانِي﴾ وهي فاتحة الكتاب ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ الشأن .
عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنّ الله قال لي : يا محمد ، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب ، وجعلها بإزاء القرآن العظيم » (٢) .

(١) لا موضع للقسم في الآية.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٣٠٢ / ٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

وعن الصادق عليه السلام ، أنه سئل عن هذه الآية ، فقال : « هي سورة الحمد ، وهي سبع آيات منها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ »^(١) .

وعن أحدهما عليه السلام أنه سئل عنها فقال : « فاتحة الكتاب »^(٢) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - « زاد الله محمداً صلى الله عليه وسلم السبع الطوال وفاتحة الكتاب ، وهي السبع المثاني »^(٣) .

قيل : سميت بالمثاني لأنها تقرأ بعدها السورة في الصلاة ويثنى بها^(٤) .

وعن الصادق عليه السلام : « إنما سميت مثاني لأنها تثنى في الركعتين »^(٥) .

وعن أحدهما عليه السلام : « يثنى فيها القول »^(٦) . ولعل المراد منه ما قيل من أن كلماتها مثناة مثل

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ ﴾^(٧) .

وقيل : لأن الفاتحة قسمت نصفين نصفها لله ، ونصفها للعبد ، فإن نصفها ثناء العبد للرب ، ونصفها عطاء الرب للعبد^(٨) .

وقيل : لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن ، ومرة بالمدينة^(٩) .

وقيل : إن المثاني جميع القرآن وصفته ، لأنه كرر فيه الوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، والثواب والعقاب والقصص^(١٠) ، والفاتحة بعض منه.

أقول : هذا القول أظهر.

وقيل : إن المثاني مأخوذ من الثناء ، سميت به الفاتحة لاشتغالها على الثناء على الله ، وهو حمده وتوحيده وملكه^(١١) .

وعن الباقر عليه السلام : « نحن المثاني الذي أعطاه الله نبينا »^(١٢) .

وقال الصدوق رحمه الله : أي نحن الذين قرنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى القرآن ، وأوصى بالتمسك بالقرآن وبنا ،

(١) تفسير العياشي ١ : ٩٩ / ٧٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٢) تفسير العياشي ٢ : ٤٣٧ / ٢٣٤٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٣) الاحتجاج : ٢١٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٦ .

(٥) تفسير العياشي ١ : ١٠٠ / ٧٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٤٣٧ / ٢٣٤٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٧ .

(٨) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٦ .

(٩) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٧ .

(١٠) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٦ .

(١١) تفسير الرازي ١٩ : ٢٠٧ .

(١٢) تفسير القمي ١ : ٣٧٧ ، تفسير العياشي ٢ : ٤٣٧ / ٢٣٤٦ ، التوحيد : ١٥٠ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

وأخبر أمته أننا لا نفترق حتى نرد [عليه] حوضه ^(١) .

روي أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات - ليهود قريظة وأذرعات ^(٢) والنضير - في يوم واحد مكة ، فيها أنواع من البرّ وأفافيه ^(٣) الطيب والجوهر وأمتعته البحر. فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله ، فنزلت. وقال : قد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع قوافل ^(٤) .

وقيل : لما وردت قوافل قريش بمكة ، وكانت فيها مطاعم وملابس كثيرة ، خطر في قلب النبي ﷺ أن المؤمنين جبايع عرا ويكون للمشركين هذه الأموال الكثيرة فنزلت ^(٥) .

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ

جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ

الْمُقْسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٨٨) و (٩١)﴾

ثم لما عرف الله نبيه ﷺ أعظم نعمه عليه ، نهاه عن الرغبة فيما بأيدي الناس من الأمتعة الدنيوية الفانية بقوله : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ولا تلتفت بقلبك ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ من زخارف الدنيا وحطامها أصنافا من الكفار و﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ كاليهود والنصارى والمجوس والمشركين بعد ما أنعمنا عليك بالرسالة والعلم والحكمة والقرآن من النعم التي عندها يستحق جميع عالم الوجود.

عن ابن عباس : أي لا تتمنّ ما فضّلنا به أحدا من متاع الدنيا ^(٦) .

روي أنه ﷺ نظر إلى نعم بني المصطلق وقد عبست في أبوالها وأبعارها فتقنّع وقرأ هذه الآية ^(٧)

قيل : معنى عبست [في أبوالها وأبعارها : هو] أن تحفّ أبوالها وأبعارها على أفخاذها إذا تركت من العمل [أيام الربيع ، فتكثر] شحومها ولحومها ^(٨) .

وروي أنه ﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من [متاع] الدنيا ^(٩) .

ثم أنّه تعالى بعد النهي عن الالتفات إلى أموال الكفار ، نهاه عن الالتفات إلى أنفسهم بقوله : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا لم يؤمنوا ، ولا يكن لهم في قلبك قدر ومنزلة.

(١) التوحيد : ١٥١ / ٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٠ .

(٢) (وأذرعات) ليست في المصادر .

(٣) البرّ : نوع من الثياب ، والأفافيه : نوافج الطيب ، والنوافج : الأوعية التي يوضع فيها الطيب . وقيل : الأفافيه : تطلق على ما يعالج به الطيب ، كما أن التوابل ما يعالج به الأطعمة .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٠ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٣٥ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٦ .

(٥) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٦ .

(٦) (٩ و٦) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٠ .

وقيل : إنّ المراد لا تحزن على أتباعك ومصدقك لفرهم ^(١) ﴿وَخُفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وتواضع بنفسك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك المطيعين لأحكام ربك ، وإن كانوا أفقر الناس ، فإنّ تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما يحبون من الدنيا ﴿وَقُلْ﴾ للناس : ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ﴾ من عذاب الله ببيان أحكامه وشدة عقابه على عصيانه ﴿الْمُتَّبِعِينَ﴾ والموضح لكم جميع ما أبلغكم ، وما يتعلّق بالمبدأ والمعاد ، وقل للمشركين : إنا ننزل عليكم العذاب ﴿كَمَا أَنزَلْنَاهُ﴾ من العذاب ﴿عَلَى﴾ اليهود ﴿الْمُفْتَسِمِينَ﴾ للقرآن يجعل ما وافق التوراة منه حقا ، وما لم يوافقه باطلا ، كما عن ابن عباس ^(٢) .

وقيل : اقتسامه بأن قال بعضهم استهزاء بالقرآن : هذه السورة لي ، وقال الآخر : هذه السورة لي ، أو قال بعضهم : إنّه سحر . وقال آخر : إنّه شعر ، وقال ثالث : إنّه كذب ، وقال رابع : إنّه أساطير . وقيل : إن المقتسمين قوم ثمود ، فأنهم تقاسموا لنبئتته وأهله ^(٣) . وعن ابن عباس بنقل آخر : هم الذين اقتسموا طريق مكة يصدّون الناس عن الإيمان ، ويقرب عددهم من أربعين ^(٤) .

وقيل : كانوا ستة عشر [رجلا] بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فافتسموا عقبات مكة وطرقها ، ويقولون لمن يسلكها : لا تغتروا بالخارج منّا والمدعي للنبوة فانه مجنون ، وكانوا ينقرون الناس عنه صلى الله عليه وآله بأنّه ساحر أو كاهن أو شاعر ، والمعنى أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين ^(٥) ؛ وهم ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وجرّوه إلى سحر وشعر وكهانة وأساطير .

وعنهما عليهما السلام ، قالوا : « هم قريش » ^(٦) . وقيل : يعني مفترى ^(٧) .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٢) و (٩٦)

ثمّ هدّدهم بقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ سؤال توبيخ وتقرّيع ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من تكذيب الرسول والاستهزاء بكتابه .

ثمّ أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله بترك المبالاة بالكفار بقوله : ﴿فاصدع﴾ واشتغل ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ من التبليغ جهارا ،

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٧ .

(٢) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٢ ، تفسير روح البيان ٤ : ٤٨٩ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٢ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢١١ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٢١١ .

(٦) تفسير العياشي ٢ : ٤٣٩ / ٢٣٥٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٢ .

(٧) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٣ .

ولا تبال بكيد الأعداء ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتن بهم ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ بك وكتابك ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة شركهم في الدارين.

قيل : كان المستهزون بالنبي ﷺ خمسة نفر من المشركين : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث. قال جبرئيل لرسول الله ﷺ : أمرت أن أكفيكمهم ، فأومأ إلى عقب الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم ، فلم يعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأومأ إلى أخص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة ، فقال : لدغت لدغت ، فانتفخت رجله حتى صارت كالترحاً ومات ، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فأمتخط قيحا فمات ، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (١) .

وقال بعض العامة : إنّ الآيات نزلت في خمسة نفر ذوي شأن وخطر ، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به ، فأهلكهم الله في يوم واحد ، وكان إهلاكهم قبل بدر : منهم العاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص ، كان يخلج (٢) خلف رسول الله ﷺ بأنفه وفمه ويسخر به ، فخرج في يوم مطير على راحلته مع ابنين له ، فنزل شعباً من تلك الشّعاب ، فلما وضع قدمه على الأرض قال : لدغت ، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً ، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات مكانه ، ومنهم الحارث بن قيس ، أكل حوتا مالحا فأصابه العطش الشديد ، فلم يزل يشرب الماء حتى انقَدَّ - أي انشَقَّ - بطنه ، فمات في مكانه ، ومنهم الأسود بن المطلب ، خرج مع غلام له فأتاه جبرئيل وهو قاعد في أصل شجرة ، فجعل جبرئيل ينطح رأسه على الشجرة ، وكان يستغيث بغلامه ، فقال غلامه : لا أرى أحد يصنع بك شيئاً غير نفسك ، فمات مكانه ، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ واصحابه ويصغرون إذا رأوه ، ومنهم الأسود بن عبد يغوث خرج من أهله فأصابه السموم (٣) [فاسودَّ] حتى صار كالفتح ، فأتى أهله فلم يعرفوه ، فأغلقوا دونه الباب ولم يدخلوه دارهم حتى مات (٤) .

قيل : إنّه كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصّحابة : قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقیصر ؛ وذلك لأنّ ثيابهم رثّة وعيشهم خشن. ومنهم الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد [وعم أبي جهل] خرج يتبختر في مشيته حتى وقف على رجل يعمل السّهم ، فتعلق سهم في ثوبه ، فلم ينقلب لينحيه تعظماً ، فأخذ طرف رداءه ليحمله على كتفه فأصاب السهم أكحله (٥) فقطعه ، ثمّ

(١) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٥ .

(٢) خلج الشيء : حرّكه .

(٣) السموم : الريح الحارة .

(٤) تفسير روح البيان ٤ : ٤٩١ .

(٥) الأكحل : ورید في وسط الذراع .

لم ينقطع الدم عنه حتى مات (١) ، وكان جميع ذلك في يوم واحد.

القمي رحمه الله ، قال : نزلت بمكة بعد أن تبئ رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث سنين ، وكان المستهزون برسول الله صلى الله عليه وآله خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن طلائلة الخزاعي (٢) .

عن الصادق ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام : « فَأَمَّا المستهزون فقال الله : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ فقتل الله خمستهم ، كل واحد منهم بغير قتلة صاحبه في يوم واحد ، فأما الوليد بن المغيرة فمّر بنبل لرجل من خزاعة قد راشه (٣) ووضع في الطريق ، فأصابته [شظية] منه فانقطع أكحله حتى أدماه ، فمات وهو يقول : قتلي رب محمد ، وأما العاص بن وائل السهمي فإنه خرج في حاجة له إلى موضع فتدهده تحته حجر فسقط ، فتقطع قطعة قطعة ، فمات وهو يقول : قتلي رب محمد ، وأما الأسود بن عبد يغوث فإنه خرج يستقبل ابنه زمعة فاستظل بشجرة ، فأتاه جبرئيل فأخذ رأسه فنطح به الشجرة ، فقال لغلامه : امنع هذا مني ، فقال : ما أرى أحدا يصنع شيئا إلا نفسك ، فقتله وهو يقول : قتلي رب محمد ، وأما الأسود بن المطلب (٤) فإن النبي صلى الله عليه وآله دعا عليه أن يعمي [الله] بصره وأن يثكله ولده ، فلما كان في ذلك اليوم خرج حتى صار إلى موضع ، فأتاه جبرئيل بورقة خضراء ، فضرب بها وجهه فعمي ، وبقي حتى أكله الله ولده ، وأما الحارث بن طلائلة (٥) فإنه خرج من بيته في السموم فتحول حبشيا ، فرجع إلى أهله فقال : أنا الحارث ، فغضبوا عليه فقتلوه وهو يقول : قتلي رب محمد » (٦).

وروي « أَنَّ الأسود بن عبد يغوث (٧) أكل حوتا ملحا فأصابه العطش ، فلم يزل يشرب الماء حتى انشق بطنه ، فمات وهو يقول : قتلي رب محمد. كل ذلك في ساعة واحدة ، وذلك أنهم كانوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا : يا محمد ، ننتظر بك إلى الظهر ، فان رجعت عن قولك وإلا قتلناك ، فدخل النبي صلى الله عليه وآله منزله فأغلق عليه بابه مغتما لقولهم ، فأتاه جبرئيل عن الله في ساعته فقال : يا محمد ، السلام بقرئك السلام ، وهو يقول : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني أظهر أمرك لأهل مكة وادعهم إلى الإيمان. فقال : يا جبرئيل ، كيف أصنع بالمستهزين وما أوعدوني ؟ قال : ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ قال : يا جبرئيل ، كانوا الساعة بين يدي ؟ قال : كفيتهم ، فأظهر أمره عند ذلك » (٨) . وفي رواية : « فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقام على حجر فقال : يا معشر قريش ، يا معشر العرب ، أدعوكم إلى

(١) تفسير روح البيان ٤ : ٤٩٢ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٧٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٣ .

(٣) راش النبل : ركب عليه الریش .

(٤) في الاحتجاج : الأسود بن الحارث .

(٥) في الاحتجاج : الحارث بن أبي الطلالة .

(٦) الاحتجاج : ٢١٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٣ .

(٧) في الاحتجاج : الأسود بن الحارث .

(٨) الاحتجاج : ٢١٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٣ .

شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأمركم بخلع الأنداد والأصنام ، فأجيبوني تملكوها بها العرب ، وتدين لكم العجم ، وتكونوا ملوكا في الجنة ، فاستهزؤا منه ، وقالوا : حقّ محمد بن عبد الله ، ولم يجسروا عليه لموضع أبي طالب « (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « اكتتم رسول الله ﷺ [بمكة] مختفيا خائفا خمس سنين لم يظهر أمره وعليّ عليه السلام معه وخديجة ، ثم أمره الله أن يصدع بما أمر [به] فظهر وأظهر أمره « (٢) .
وفي رواية : « ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر ، فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب ، فإذا أتاهم قالوا : كذاب امض عنا » (٣) .

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ

السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٧) و (٩٩) ﴿﴾

ثم لما أشار الله سبحانه إلى جسارة القوم على نبيّه ﷺ (٤) وحببه وضيق صدره بمقتضى الطبيعة البشرية ، سلاه بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ ويحزن قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والاستهزاء والإهانة ، فإنّ الالتفات الى أن المصائب بعين الله ومرآة من أقوى التسلّيات للمؤمن .
عن الصادق عليه السلام : « عليك بالصبر في جميع امورك ، فإنّ الله عزّ وجلّ بعث محمدا ﷺ فأمره بالصبر والرفق ... فصبر حتى نالوه بالعظام ورموه بها ، فضاق صدره ، فأنزل الله عزّ وجلّ [عليه] : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ (٥) .

ثم أمره الله بذكره الموجب لاطمئنان القلب ، والاستغراق في أنوار الربوبية ، والانصراف عن الدنيا ومصائبها بقوله : ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله مقرنا له ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وثنائه ﴿وَكُنْ مِنَ﴾ جملة ﴿السَّاجِدِينَ﴾ والمبالغين في الخضوع له ، أو من المصلين ، فإنّ الفزع إلى الله بالسجود والصلاة يقرع الهمّ ويكشف الكرب ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ﴾ على أيّ حال كنت ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ والموت ، عن ابن عباس (٦) ، ولا تكن في آن من آفات عمرك متوانيا في القيام بوظائف العبودية.

الحمد لله الذي وفقني لإتمام تفسير [سورة] الحجر.

(١) تفسير القمي ١ : ٣٧٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٤ .

(٢) كمال الدين : ٣٤٤ / ٢٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٢ .

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٤٤٠ / ٢٣٦٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٢ .

(٤) في النسخة : جسارة القوم بنبيّه .

(٥) الكافي ٢ : ٧٢ / ٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٤ .

(٦) مجمع البيان ٦ : ٥٣٤ ، تفسير الرازي ١٩ : ٢١٦ .

في تفسير سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١)﴾

ثم لما ختم سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفار بالعذاب وتهديد المستهزئين بالنبي ﷺ باستعجال العذاب ، وأمر النبي ﷺ بالاعلان برسالته ودعوته وعدم المبالاة بمعارضيه ، وتسليته بعلمه بضيق صدره ، وأمره بالتوجه إليه واشتغاله بعبادته ، وكان أول سورة النحل تأكيد الوعيد بنزول العذاب والنهي عن الاستعجال فيه ، وبيان ما يجب الانذار به ، وختمه أمر النبي بالدعوة والصبر على أذى الكفار وعدم الاعتناء بهم ، وعدم ضيق صدره من مكربهم ، واهتمامه بالعبادة والأعمال الحسنة ، وأهم المطالب المذكورة فيها وهو التوحيد والمعاد والنبوة موافقا لما في الحجر ، أردفها بالنحل ونظمها بعدها ^(١) ، فابتدأ سبحانه تبركا وتعلينا للعباد بذكر أسمائه الحسنى حسب رسمه ودأبه بقوله : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثم شرع فيها بتأكيد وعيد المشركين بالعذاب بقوله : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعذابه الموعود به ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ولا تطلبوا سرعة نزوله ، فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه.

عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿اَفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ^(٢) قال الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن [بعض] ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئا مما تخوفنا به ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿اَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ^(٣) فأشفقوا وانتظروا يومها ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئا مما تخوفنا به. فنزل قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ ورفع الناس رؤوسهم ، فنزل قوله تعالى : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ ^(٤) فيكون المعنى أن أمر القيامة وعذاب الكفار محقق الوقوع يجب أن ينزل منزلة الواقع.

(١) في النسخة : أردف بالنحل ونظم بعده.

(٢) القمر : ٥٤ / ١ .

(٣) الأنبياء : ٢١ / ١ .

(٤) تفسير روح البيان ٥ : ٢ ، تفسير الرازي ١٩ : ٢١٨ ، ولم ينسبه إلى ابن عباس .

روي أنه لما نزلت قال النبي ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ^(١) وجمع بين الوسطى والسبابة.

وفي حديث آخر : « مثلي ومثل الساعة كفرسي الزهان » ^(٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « إذا أخبر الله شيئا أنه كائن ، فكأنه قد كان » ^(٣) .
وقيل : إنّ المراد أنّ حكمة [الله] تعالى بوقوع العذاب قد أتى وتحقق ، وإنّما لم يتحقق المحكوم به لاقتضاء الحكمة وقوعه في وقت معين لم يجرى بعد ^(٤) .

وروي أيضا أنّ كفّار قريش كانوا يستبطئون نزول العذاب الموعود لهم سخرية بالنبي ﷺ وتكديبا لوعده ، وكانوا يقولون : إن صحّ ما تقول من مجيء العذاب ، فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه ، فنزلت ^(٥) .

ثمّ نزه الله تعالى ذاته عن الشريك الدافع لمراده بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيدفع ما أراد بهم من العذاب عنهم.

﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (٢)

ثمّ لما كان عمدة شبهة المشركين في نبوة النبي ﷺ إنكارهم إمكان نبوة البشر مع قدرة الله على إرسال الملك ، دفع الله تعالى هذه الشبهة بقوله : ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ﴾

عن ابن عباس : يريد جبرئيل ^(٦) وحده ﴿بِالرُّوحِ﴾ والوحي الذي به حياة القلوب.

وعن الباقر عليه السلام : « يقول بالكتاب والنبوة » ^(٧) . والقمي عليه السلام : بالقوة التي جعلها فيهم ^(٨) .
وقيل : المراد بالروح جبرئيل ، والباء بمعنى مع ، والمعنى ينزل الملائكة مع جبرئيل ^(٩) ، ويكون نزولهم صادرا ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ وإذنه ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ نزولهم عليه ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأنبياء الذين خصّهم الله برسالته.
وعن الباقر عليه السلام ، أنّه سئل عن هذه الآية ، فقال : « جبرئيل الذي نزل على الأنبياء ، والروح يكون معهم ومع الأوصياء لا يفارقهم ، يفقههم ويسدّدهم من عند الله » ^(١٠) .

وقال بعض مفسري العامة : ما ينزل ملك إلّا ومعه الروح ، يكون الروح رقبيا عليه كما يكون

(١ و ٢) تفسير روح البيان ٥ : ٣ .

(٣) تفسير العياشي ٣ : ٣ / ٢٣٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٦ .

(٤) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٨ .

(٥) تفسير روح البيان ٥ : ٢ .

(٦) تفسير الرازي ١٩ : ٢١٩ .

(٧ و ٨) تفسير القمي ١ : ٣٨٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٧ .

(٩) تفسير الرازي ١٩ : ٢٢٠ .

(١٠) بصائر الدرجات : ٤٨٣ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٧ .

الملائكة الحفظة رقباء على بني آدم ^(١) . وعلى أيّ تقدير يكون وحيهم إلى الأنبياء ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ وخوفوا قومكم ، واعلموا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ ولا معبود سواي ، وأنا اعاقبهم على القول بالاشراك بي في الالهية والعبادة ، وقولوا لهم : إذا كان الأمر كذلك ﴿فَاتَّقُون﴾ وخافوني ولا تشركوا بي غيري .
 وقيل : إن الخطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات ^(٢) من الغيبة إلى الخطاب ، والمراد أنه إذا كان الأمر كما ذكر من أن الله يوحى إلى الأنبياء بتوسط الملائكة توحيده ، فاتقوني في الاشراك بي وفروعه التي منها الاستهزاء برسولي واستعجال عذابي .

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٤)

ثمّ لما أعلن سبحانه بتوحيده ، أخذ في الاستدلال عليه بكمال قدرته وحكمته بقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلقا مقرونا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والحكمة والصواب ، والوجه الفائق ، والنمط اللائق ، فمن قدر على هذا الخلق العظيم ؟ ﴿تَعَالَى﴾ وتقدّس بذاته وصفاته ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به ، وتنزّه عن أن يجعل له عبيده وغيره عدلا في الالهية واستحقاق العبادة .

ثمّ أنّه تعالى بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض ، استدللّ بخلق ما فيهما من البدائع ، ولما كان الانسان أكمل الكل والآية العظمى ، ابتدأ سبحانه بالاستدلال بخلقه بقوله : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الذي انطوى فيه العالم الأكبر ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ قدرة منتنة متولّدة من الأغذية المتشابهة الأجزاء في الصورة بعد خلق أول فرد منه من تراب ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد خلقه وتربيته وتكميله في الجسم والقوى ﴿خَصِيمٌ﴾ ومعارض لخالقه ﴿مُبِينٌ﴾ ومتجاهر في خصومته .

روي أن أبي بن خلف الجمحي أتى النبي ﷺ بعظم رميم فقال : يا محمد ، أترى الله يحيي هذا بعد ما رمّ ^(٣) ؟ ! فنزلت ^(٤) وقيل : يعني منطقيا مجادلا عن نفسه ، مكافحا للخصوم ، مبينا لحجّته لقنا بما بعد أن كان نطفة لا حسّ لها ولا حراك ، فانتقاله من أحسن الأحوال إلى أشرفها دليل على وجود مدبّر قدير حكيم ^(٥) .

القمي رحمه الله ، قال : خلقه من قطرة ماء مننّ فيكون خصيما متكلمًا بليغا ^(٦) .

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٤ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٩٦ .

(٣) رمّ العظم : بلى .

(٤) تفسير روح البيان ٥ : ٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٩ : ٢٢٦ .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٨٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٧ .

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رِبَّكُمْ لَزُؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٥) و (٧)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد الاستدلال بخلق الانسان ، استدلل بخلق الحيوانات النافعة له ، فابتدأ بخلق أنفعها بقوله : ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ الأربعة من الإبل والبقر والضأن والمعز ﴿خَلَقَهَا﴾ نفعا ﴿لَكُمْ﴾ وأهم نفعها أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ وحافظ من البرد كاللباس المعمول من الشعر والصوف والوبر ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ لكم ﴿مَنَافِعُ﴾ اخر منها كالنسل واللبن والركوب والحراث ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كاللحوم والشحوم وسائر ما يؤكل منها.

ثمَّ نبّه سبحانه على منافعها غير الضرورية بقوله : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ووجاهة عند الناس ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تلك الأنعام وتردونها من مراعيها إلى محالّ راحتها بالعشيّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تلك وترسلونها من مرايحها إلى مرايحها بالغداة ، فإنّ الفضاء أمام الدور يتزيّن بها في الوقتين ، ويعظم أهلها في أعين الناس.

وإنّما قدّم الراحة لأنّ الجمال عند عودها من مرايحها أظهر ، لأنّها حينئذ ملأى البطون ، حافلة الضروع ، مجتمعة في الحضائر ، حاضرة لأهلها ، وأمّا عند خروجها إلى المراعي فكلّها جائعة عادمة اللبن ، ثمَّ تأخذ في التفرّق والانتشار ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وأمتعتكم التي لا تقدرون على حملها ﴿إِلَى بَلَدٍ﴾ بعيد ﴿لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ﴾ ولم تتمكّنوا أن تصلوا إليه مجرّدين عن الأثقال ﴿إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ﴾ والتعب الذي يصعب تحمّله ، فكيف مع استصحابها ؟

عن ابن عباس : يريد من مكة إلى المدينة ، أو إلى اليمن ، أو إلى الشام ، أو إلى مصر ^(١) .

أقول : هذا التخصيص لأنّ متاجر قريش كانت في زمان النزول إلى تلك البلاد ^(٢) .

ثمَّ بيّن سبحانه علّة هذه الإنعامات على الإنسان بقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ﴾ والله ﴿لَزُؤُفٌ﴾ وكثير الوداد بكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ وعطوف على خلقه ، ولذا أراد توسعة المعاش وتيسير الأمر عليكم بخلق الأنعام.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨)

ثمَّ استدلل سبحانه بخلق الحيوانات التي نفعها دون الأنعام بقوله : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ خلقها ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ لتكون ﴿زِينَةً﴾ لكم ، أو لتزينا زينة وتتعظّموا بتملّكها وركوبها عند الناس

(١ و ٢) تفسير الرازي ١٩ : ٢٢٨ .

﴿وَيَخْلُقُ﴾ لانتفاعكم في الدنيا ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ خلقه وعدده ومنافعه وكيفية الانتفاع به من أصناف النعم ، وإثما أتى سبحانه بصيغه المضارع للدلالة على التجدد والحدوث .
القمي عليه السلام ، قال : العجائب التي خلقها [الله] في البر والبحر ^(١) .
وقيل : هذا إخبار بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به ، مما فيه دلالة على قدرته الباهرة الموجبة لتوحيده كنعمته الباطنة والظاهرة ^(٢) .

عن ابن عباس : أن عن يمين العرش نورا من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة ، يدخل فيه جبرئيل كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نور ، وجمالا إلى جمال ، وعظما إلى عظم ، ثم ينتفض فيخلق الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك ، فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف [ملك] البيت المعمور ، وسبعون ألف ملك الكعبة ، لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة ^(٣) .
وقيل : يعني يخلق الله لكم في الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا يمكنكم أن تعلموه في الدنيا من النعم التي لم ترها عين وما سمعتها اذن ، وما خطرت ^(٤) على قلب بشر ^(٥) .

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩)

م ثم أنه تعالى بعد بيان الأدلة القاطعة على توحيده وصفاته الكمالية ، بين غاية لطفه بعباده بقوله : ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ واجب بمقتضى لطفه الهداية إلى توحيده ومعارفه ، بنصب الأدلة القاطعة الواضحة حتى يتبين للناس ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ والطريق المستقيم الموصل إلى كل حق وإلى كل خير ، ويمتاز من سائر السبل ، فإن منها مستقيما ﴿وَمِنْهَا جَائِزٌ﴾ ومنحرف عن الحق ومؤد إلى الهلاك ، ولا يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائز .

وقد أدى سبحانه ما عليه حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها نور يهتدى به ، وأرسل رسلا وأنزل كتبنا وأرشد إلى الاستدلال بتلك الأدلة المفضية إلى معالم الهدى ، المنجية من مهووي الردى ، ألا ترى كيف بين في هذه السورة أولا تنزيهه تعالى عن توهم الاشراك .
ثم بين سر إحياء الوحي إلى الرسل ، وكيفية أمرهم بانذار الناس ، ودعوتهم إلى التوحيد ، وتخويفهم من الشرك وزجرهم عنه ، ثم عاد إلى بيان تعاليه عن الشرك بدلالة أفعاله وصنائعه ، فبدأ بذكر صنعه

(١) تفسير القمي ١ : ٣٨٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٨ .

(٢) تفسير أبي السعود ٥ : ٩٨ .

(٣) تفسير الرازي ١٩ : ٢٣١ ، تفسير أبي السعود ٥ : ٩٨ ، تفسير روح البيان ٥ : ١٢ .

(٤) في النسخة : تره عين ، وما سمعته اذن ، وما خطر .

(٥) تفسير أبي السعود ٥ : ٩٨ .

المتعلّق بمحيط العالم بقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١) . ثمّ بيّن صنعه المتعلّق بما بينهما ، فبدأ بما يتعلّق بأنفس المخاطبين ، ثمّ أردفه بما يتعلّق بما فيه ضرورة معاشهم ، ثمّ بما يتعلّق بمنافعهم غير الضرورية ، ثمّ بيّن قدرته على ما لا يحيط به علم البشر ، وهذه غاية اللطف ونهاية الرحمة .

ثمّ تبه على قدرته على إلقاء الناس إلى معرفته وتوحيده وسلطنته على قلوبهم بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى توحيده ومعارفه بالالقاء والاضطرار كما تكونون مضطرين إليه في الآخرة .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٠) و (١١)﴾

ثمّ استدلّ على توحيده وقدرته بانزال المطر وإنبات النباتات بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي﴾ بقدرته وحكمته ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْمَطْلَ﴾^(٢) ، أو من جانب العلوّ ، أو من السحاب ﴿مَاءً﴾ نافعا بالأمطار ، فيحصل ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون ﴿وَوُتَّكَونَ مِنْهُ﴾ بغير صنعكم ﴿شَجَرٌ﴾ ونبات ذو ساق أو غير ذي ساق في البراري والجبال ، وأنتم ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ وترعون مواشيكم ، ومن منافع المطر أنّ الله ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ﴾ من الأرض ﴿الزَّرْعَ﴾ الذي هو أصل أغذيتكم وعمود معاشكم ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي هو أشرف الأشجار من حيث كون ثمره إداما من وجه وفاكهة من وجه ﴿وَالنَّخِيلَ﴾ الذي روي أنّها خلقت من فضل طينة آدم ، وأنّها أكرم الأشجار على الله^(٣) ﴿وَالْأَعْنَابَ﴾ التي هي بعد النخل أنفع الأشجار ، وإنما جمع الأعناب للإشارة إلى^(٤) كثرة أصنافها ، وخصّ تلك الأنواع بالذكر للاشعار بفضلها .

ثمّ ذكر سائر الثمار بنحو العموم بقوله : ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ قيل : إنّما قدّم ما هو غذاء الأنعام في الذّكر لحصوله بغير صنع البشر ، أو للاشعار بفضيلة اغتذاء الإنسان به رياضة للنفس ، أو لكون أكثر المخاطبين أصحاب المواشي دون الزرع والبستان ، أو للارشاد إلى اهتمام الناس بأمر ما تحت أيديهم أزيد من الاهتمام بأمر نفسه .

ثمّ أنّه تعالى بعد تعداد آيات وحدانيته ، حثّ الناس إلى التفكّر فيها بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإنبات النباتات المفصّلة والله ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ودلالات واضحة على وجود صانع

(١) النحل : ١٦ / ٣ .

(٢) السماء مؤنث ، وقد تذكّر .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ١٥ .

(٤) في النسخة : أن .

قدير ومدبر حكيم ﴿لَقَوْمٌ يَنْفَكُرُونَ﴾ ويتعقلون غرائب الصنع والحكم البالغة فيها ، فإن من تفكر في أنّ الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها فتخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض ، وينشق أعلاها وإن كانت متنكسة في الوقوع ، ويخرج منها ساق فيسمو ، وتخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والطباع والخواص ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرّر إلى غير نهاية مع اتحاد المولود واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثرات العلوية بالنسبة إلى الكل ، يستدلّ على أنّ خالقها موجود لا يشبهه شيء في شيء من صفاته وكمالاته ، فضلا عن أن يشاركه الجماد الذي هو أحسن الأشياء في الوهيته واستحقاقه العبادة الذي هو أحسن صفاته ، ولما كان الاستدلال بتلك الأشياء محتاجا إلى ترتيب مقدمات فكرية خص الاستدلال بها بأهل الفكر والتدبر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢)

ثمّ لما كان مجال توهم استناد نزول الأمطار ونبت الزروع والأشجار وأثمارها إلى الحركات الفلكية واتصالات الكواكب ، دفع سبحانه التوهم بقوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وجعلهما متعاقبين لإنضاج ثماركم ، وتنظيم معاشكم وغير ذلك من منافعكم ومصالحكم ، كأتهما يختلفان على حسب إرادتكم ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وجعلهما يد أبان في سيرهما وإنارتهما ، وإصلاح ما ينط (١) بهما صلاحه من الموجودات التي منها بأفضل وأجمل ﴿وَالنُّجُومُ﴾ في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع والارتفاع والانخفاض وغيرها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ لكم ودوائر في مصالحكم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ تعالى وإرادته. وحاصل الدفع أنّ الحوادث السفلية لو كانت مستندة إلى الحركات الفلكية والكوكبية ، فلا بدّ أن تكون تلك الحركات مستندة إلى محرّك ، لعدم اقتضاء الجسميّة للحركة ، وإلاّ لتحرك كلّ جسم ، ولا يمكن أن يكون فلك آخر ، للزوم التسلسل المحال ، فوجب أن تكون مستندة إلى إرادة قادر مدبر حكيم وهو الله تعالى.

ثمّ لما كانت تمامية هذا الدليل بمقدمات عقلية ، ختم سبحانه الآية بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور والله ﴿لَآيَاتٍ﴾ وأنواع دلالات على توحيد الله وعظمته ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

(١) في النسخة : ينط.

وقيل : إنه استدلال مستقل على توحيده ، وليس متممًا للدليل السابق ؛ لأنّ المشركين لم يكونوا شاكّين في استناد الحوادث الأرضية من نزول الأمطار وإنبات النباتات إلى الله ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١) وإنّما المقصود من ذكر هذا الدليل أنّ من هذا شأنه لا يجوز أن يتوهم له شريك من الموجودات.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣)

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال بالآيات الأرضية بقوله : ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ وخلق ﴿لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنباتات مسخرة لكم ، أو مسخر لله تعالى حال كونه ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وأصنافه أو تراه مختلفا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التسخير والله ﴿لَآيَةً﴾ ودلالة واضحة على توحيد المسخر له ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ويلتفتون إلى ذلك بأدنى التفات ، ولا يغفلون عمّا علموا بالضرورة من العقل ، فاتّأّ نرى في حبة من العنب طبائع مختلفة ؛ لقشره طبيعة ، ولعجمه طبيعة ، وللحمه طبيعة ، ولمائه طبيعة ، بل نرى في ورقه من الورد ألوانا مختلفة مع كونها في غاية اللطافة وكون تأثير الأنجم والأفلاك والهواء والماء والشراب فيها واحدا ، والطبيعة الواحدة في المادة الواحدة لا تتوثر إلّا أثرا واحدا ، فنعلم أنّ المؤثر في هذا الاختلاف ليس إلّا الفاعل القادر الحكيم المختار.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤)

ثمّ استدّل سبحانه على توحيده بعجائب البحر بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ القادر ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ لكم ﴿الْبَحْرَ﴾ وجعله تحت تصرفكم ومحلّ انتفاعكم باصطيادكم منه السمك ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ﴾ باصطياده ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وعذبا لطيفا مع كون مائه مالحا زعاقا^(٢) ، وبالغوص فيه لأجل أن تغوصوا فيه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ وزينة مثل اللؤلؤ والمرجان ، فتخيطونها^(٣) بالثياب ، ثمّ ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ فكأنّها كانت زينة ولباسا ، ومحلّ انتفاعكم بالركوب وحمل الأمتعة ﴿وَوَ﴾ كذا ﴿تَرَى الْفُلْكَ﴾ والسفن ﴿مَوَاجِرَ﴾ وجاريات ﴿فِيهِ﴾ لتركبوها ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ من رزق الله ، وتطلبوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وإنعامه بالتجارة وحمل الأمتعة إلى البلدان والقرى البعيدة ﴿وَلِعَلَّكُمْ﴾ تعرفون نعم الله و﴿تَشْكُرُونَ﴾ أفضاله بالاعتراف بتوحيده والقيام بعبادته.

(١) العنكبوت : ٢٩ / ٦٣ .

(٢) الزعاق من الماء : المرّ الغليظ لا يطاق شربه .

(٣) في النسخة : فتخوطونها .

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *﴾

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٥) و (١٦)﴾

ثم استدل سبحانه بخلق الجبال وفوائدها وخلق الأنهار والسبل بقوله : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾ وجعل عليها جبالا ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ وتميل الأرض ﴿بِكُمْ﴾ وتضطرب بحيث لا تستقرتون عليها ، أو التقدير لئلا تميد بكم ﴿و﴾ جعل ﴿أَنْهَاراً﴾ كثيرة ﴿وَسُبُلًا﴾ مختلفة إلى البلدان والقرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بها إلى مقاصدكم ، أو إلى توحيد جاعلها ﴿و﴾ جعل ﴿عَلَامَاتٍ﴾ وأمارات لتعيين الطرق بالنهار من جبل ومنهل.

وقيل : إن جماعة كانوا يشمون التراب ويتعرفون السبل (١) .

﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ في الليل ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ في البراري والبحار إلى مقاصدهم. قيل : إن المراد جنس النجم (٢) ، وقيل : إنه الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي (٣) .

عن الصادق عليه السلام : « أَوَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : إِنَّ الْأَرْضَ فَخَرْتُ وَقَالَتْ : أَيُّ شَيْءٍ يَغْلِبُنِي ؟ فَخَلَقَ اللَّهُ الْجِبَالَ فَأَثْبَتَهَا فِي ظَهَرِهَا أَوْتَاداً ، مَنَعَتْهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِمَا عَلَيْهَا ، فَذَلَّتْ الْأَرْضُ وَأَسْتَقَرَّتْ » (٤) .
وعنه عليه السلام : « أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْأُتُمَةَ أَرْكَانَ الْأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا » (٥) .

وعن الباقر عليه السلام : « لَوْ أَنَّ الْأَمَامَ رَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً لَمَاجَتْ بِأَهْلِهَا كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ بِأَهْلِهِ » (٦) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ هُوَ الْجَدْيُ لِأَنَّهُ نَجْمٌ لَا يَزُولُ ، وَعَلَيْهِ بِنَاءُ الْقِبْلَةِ ، وَبِهِ يَهْتَدِي أَهْلُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » (٧) .

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال : « لَهَا ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ ، الْجَدْيُ تَبْنَى عَلَيْهِ الْقِبْلَةُ ، وَبِهِ يَهْتَدِي أَهْلُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » (٨) .

وعنهم عليهم السلام : « نَحْنُ الْعَلَامَاتُ ، وَالنَّجْمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ » (٩) .

أقول : هذا هو الباطن.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٢١ .

(٢ و ٣) تفسير روح البيان ٥ : ٢١ .

(٤) الخصال : ٤٤٢ / ٣٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

(٥) الكافي ١ : ١٥٢ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

(٦) إكمال الدين : ٢٠٣ / ٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

(٧) تفسير العياشي ٣ : ٥ / ٢٣٧١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

(٨) تفسير العياشي ٣ : ٦ / ٢٣٧٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

(٩) تفسير العياشي ٣ : ٥ / ٢٣٦٩ ، الكافي ١ : ١٦١ / ٣ ، تفسير القمي ١ : ٣٨٣ ، مجمع البيان ٦ : ٥٤٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٢٩ .

اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (١٧) و (٢١)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد الاستدلال ببادئ صنعته على توحيده ، أنكر على من أشرك به الأصنام بقوله : ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ هذه المخلوقات العظيمة النافعة ، أو يخلق كلَّ شيء يمكن أن يكون ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً ؟ لا والله لا يمكن أن يتوهم العاقل تشابهاً بينهما ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولا تلتفتون إلى عدم التشابه الذي هو أوضح من كلِّ واضح.

ثمَّ أنَّه تعالى بعد ذكر بعض نعمه ، أشار إلى عموم نعمه بقوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ ولا تقدرون على تعدادها ؛ لعدم إمكان إحاطتكم بجميعها لكثرتها ، فإنَّ كلَّ عرق أو عصب في - البدن وإن كان في غاية الصغر - نعمة عظيمة ، بحيث لو احتلَّ أحدها ليمتدَّ أن ينفق جميع الدنيا لإزالة ذلك الخلل ، مع أنَّ الشَّظاظ ^(١) والعروق الصغار في البدن لا يمكن إحصاؤها فكيف بالتَّعم الخارجية ، فإنَّ جميع ذرات الموجودات دخیل في مصالحه من غذائه ولباسه وصحته وتكميل نفسه ، وأنتم تكفرون بتلك النعم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ مع ذلك والله ﴿لَغَفُورٌ﴾ لكفرانكم و﴿رَحِيمٌ﴾ بإدامة نعمه عليكم وعدم قطع فضله وإحسانه عنكم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ من كفران نعمه من توطنتكم على توهين رسوله ﷺ وتخريب دينه والاستهزاء بكتابه ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وتجهرون من عبادتكم الأصنام ، وإيذاء الرسول ، وصدكم الناس عن دين الحق.

وقيل : إنَّ وجه النظم أنَّه تعالى أثبت وحدانيته في الآيات السابقة بإثبات قدرته الكاملة ، وفي هذه الآية بسعة علمه.

ثمَّ استدللَّ على عدم قابلية الأصنام للعبادة بعجزهم وعدم شعورهم بقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون الأصنام ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ومتجاوزين عنه ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ ولا يقدرُونَ على إيجاد شيء ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿يَخْلُقُونَ﴾ بتخليق الغير.

ولو تنزَّلنا عن لزوم كون الإله قادراً غير عاجز ، وخالقاً غير مخلوق ، فلا مناصَّ من القول بلزوم كون الإله حياً غير ميت ، ومن الواضح أنَّ هؤلاء الأصنام ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قيل : إنَّ المراد أنَّهم أموات

(١) كذا ، والظاهر : الشظايا.

لا يكون عقيب موته حياة^(١) . وأيضاً لا بدّ من كونه شاعراً لعبادة عابديه علماً بأحوالهم ، وهؤلاء الأصنام لا يعلمون بأحوال أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وفي أيّ وقت يحيون ويحشرون. وإنما ذكر سبحانه عدم شعورهم بوقت بعثهم مع أنّهم لا يشعرون شيئاً ، للاشعار بأنهم يحشرون لازدياد حسرة عابديهم على عبادتهم.

عن ابن عباس : أنّ الله يبعث الأصنام ولها أرواح ومعها شياطينها ، فيؤمر بها إلى النار^(٢) . أقول : إلقاؤها في النار ليس لتعذيبها ، لأنّه لا معصية لها ، بل لتعذيب عابديها. قيل : إنّ الله وصف الأصنام بالموت وعدم الشعور مع أنّ الجماد لا يوصف بهما ؛ لأنّ المشركين وصفوهم بالالوهية^(٣) ، فحسن أن يقال : ليس الأمر كذلك ، بل هي أموات لا شعور لها. وقيل : إنّ المراد أنّهم لا يشعرون أنّ عبدتهم أيّان يبعثون^(٤) ، فكيف يكون لهم شعور بوقت جزائهم على عبادتهم ؟ !

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾*

لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٢) و (٢٣)

ثمّ أنّه تعالى بعد إثبات التوحيد وتزييف عبادة الأصنام ، أكّد توحيده في الالوهية بقوله : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا إله إلّا هو بالبراهين الساطعة والحجج الباهرة ، وإذا كان الأمر كذلك ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحداية الله مع كمال وضوحها ، إنّما هو لكونهم لا يؤمنون ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ ولا يرجون ثواب الله على التوحيد ، ولا يخافون عقابه على الشرك ، ولذا ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تابعة لهوى أنفسهم ، مصرة على تقليد أسلافهم ونصرة أباطيلهم ﴿مُنْكَرَةٌ﴾ لكلّ حقّ يخالفه ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول قول الغير ، ومترفعون عن طاعة الرسول ﷺ .

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله : ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ويخفون من الكيد برسوله ﷺ ، ويضمرون من التصميم على إهانة أوليائه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ويظهرون من تحزيب الأحزاب وإلقاء الشبهات في القلوب وغيرهما ، فيجازيهم عليها أسوأ الجزاء ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ولا يريد لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً ، بل يكلهم إلى أنفسهم ، ليظهر خبث ذواتهم ، ويتناهى طغيانهم وكفرهم.

عن الباقر عليه السلام ، في تأويل الآية : ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني الرجعة ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ يعني

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٦ .

(٢ و ٣ و ٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٦ .

كافرة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني عن ولاية عليٍّ عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يعني عن ولاية علي عليه السلام « (١) » .

العياشي : مرّ الحسين بن علي عليه السلام على مساكين قد بسطوا كساء لهم ، وألقوا [عليه] كسرا ، فقالوا له : هلّم يا بن رسول الله ﷺ ، فثنى وركه فأكل معهم ، ثم تلا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢) .
وعن الصادق عليه السلام : « من يرى أنّ له على الآخر فضلا فهو من المستكبرين » فقيل : إنما يرى أنّ له فضلا عليه بالعاقبة إذا رآه مرتكبا للمعاصي ؟ فقال : « هيهات هيهات ، فلعلة أن يكون قد غفر له ما أتى وهو موقوف يحاسب ، أما تلوت قصة سحرة موسى ؟ » (٣) .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٤) و (٢٥)﴾

ثم حكى سبحانه بعض شبهات المشركين بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ استهزاء بالقرآن ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وأي شيء هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ ، وتحدّى به ، وجعله دليلا على رسالته ، والقائل بعض المشركين . قيل : إنه بعض المسلمين (٤) . وقيل : إنه بعض الوفد من الحاج ، قالوا للمقتسمين الذين قعدوا في طرق مكة لينفروا الناس عن الرسول ﷺ (٥) . والمراد أنه ما هذا الذي يقال إنه أنزله ربكم ؟

﴿قَالُوا﴾ إضلالاتهم : ليس هو ممّا أنزله الله ، ولا من المعجزات ، بل هو ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وأقاصيص السابقين وأباطيلهم ، وإنما قالوا ذلك القول الشنيع ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ على ظهورهم ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ وأثقال معاصيهم ﴿كَامِلَةً﴾ وبلا نقص ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾
قيل : إنّ المعنى أنّه يكون عاقبة إضلالاتهم الناس أنّهم يحملون جميع أوزار أنفسهم ﴿و﴾ بعضا ﴿مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (٦) لأنّ وزر مطاوعته كان عليه ، فإنّ الجاهل لا يعذر فيه لتقصيره في البحث والفحص .

ثم ذمّ سبحانه ما يحمله بقوله : ﴿أَلَا سَاءَ﴾ وبئس وزرا وحملا ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ وما يتحملون من الأثقال ، وفيه غاية الزجر عنه .

(١) تفسير القمي ١ : ٣٨٣ ، تفسير العياشي ٣ : ٦ / ٢٣٧٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٠ .

(٢) تفسير العياشي ٣ : ٧ / ٢٣٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣١ .

(٣) الكافي ٨ : ١٢٨ / ٩٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣١ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ٢٠ : ١٨ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٠٧ .

(٦) تفسير روح البيان ٥ : ٢٦ .

عن الباقر عليه السلام ، قال : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ في عليّ ؟ ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ سجع أهل الجاهلية في جاهليتهم [فذلك قوله ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وأما قوله] ﴿ يَحْمِلُونَهَا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ليستكملوا الكفر يوم القيامة ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ ﴾ يعني [يتحملون] كفر الذين يتولّونهم « (١) . والقمي رحمته الله : يحملون آثامهم - يعني الذين غضبوا أمير المؤمنين عليه السلام - وآثام كل من اقتدى بهم (٢) .

وعن النبي صلّى الله عليه وآله : « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتَّبِعْ ، فَلَهُ مِثْلُ أَجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنْ أَتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ [شَيْءٌ] » (٣) .

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ

مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦)

ثمّ هدّد سبحانه الماكرين برسوله صلّى الله عليه وآله بمثل ما نزل على الامم السابقة الذين مكروا برسلمهم من العذاب الدنيوي بقوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الْكَفَّارُ الَّذِينَ ﴾ كانوا ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ في الدنيا برسلمهم ﴿ فَأَتَى اللَّهُ ﴾ بزلازل شديدة ﴿ بُنْيَانَهُمْ ﴾ الذي بنوه ليمكروا به أنبياءهم فقلعه ﴿ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ والأساطين ﴿ فَخَرَّ ﴾ وسقط ﴿ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ﴾ الذي كان لذلك البنيان ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ فلهكوا جميعا بحيث لم ينج منهم أحد ﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ومن وجه لا يتوقعون.

قيل : إنّ المراد نمرود ، فإنّه بنى صرحا وقصرا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ، وعرضه فرسخان ، ليقابل (٤) عليه من في السماء ويطلع على إله إبراهيم ، فهبّت عليه ريح هائلة فألقت رأسه في البحر ، وخرّ الباقي عليهم ، فلمّا سقط الصّرح تبلبلت الألسن من الفزع يومئذ ، يعني اختلفت اللغات فلم يفهم أحد لسان الآخر (٥) .

وقيل : إنّ الله شبه حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكائد والمنصوبات التي أرادوا بها الايقاع بالرسول ، وفي إبطاله تعالى تلك الحيل والمكائد ، وجعله إيّاها سببا لهلاكهم ، بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فأتى ذلك من قبل أساطينه بأن ضعفت ، فسقط عليهم السقف فهلكوا (٦) ،

(١) تفسير العياشي ٣ : ٧ / ٢٣٧٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣١ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣١ .

(٣) مجمع البيان ٦ : ٥٤٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣١ .

(٤) في تفسير روح البيان : ليقاتل .

(٥) تفسير روح البيان ٥ : ٢٧ .

(٦) تفسير أبي السعود ٥ : ١٠٨ .

فخوَّف الله الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير بآته سيأتيتهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون إتيانه ، بل يتوقَّعون ما يشتهون.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)﴾

ثمَّ هدَّدهم بالعذاب الاخروي بقوله : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ ويذلُّهم بالعذاب ، أو يفضحهم على رؤوس الأشهاد بأن يخاطبهم ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم تفضيحا وتقريعا واستهزاء : ﴿أَيْنَ﴾ الذين هم ﴿شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُشَاقُّونَ﴾ وتخاصمون أنبيائي وأوليائي ﴿فِيهِمْ﴾ وفي الوهيتهم مع أنَّهم أقاموا البراهين على عدم جواز عبادتهم ، فاليوم أدعوهم ليشفعوا لكم ^(١) ، ويدفعوا العذاب عنكم ؟ فلم يقدروا على الجواب ، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ الملائكة كما عن ابن عباس ، أو المؤمنون أو الأنبياء ^(٢) ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالتوحيد والمعارف في الدنيا بالبراهين والمكاشفة توبيخا عليهم وشماتة لهم وتقريرا لما كانوا يهدِّدوهم به : ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ والفضيحة والهوان ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ والعذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بالله وبآياته ورسله .
القمي : الذين اوتوا العلم الأئمة عليهم السلام ، يقولون لأعدائهم : أين شركاؤكم ومن أطعموهم في الدنيا ^(٣) .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ

بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا

فَلَيْتُمْ شَفَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٨) و (٢٩)﴾

ثمَّ خصَّ سبحانه المستحقين للخي والعداب بالذين يموتون على الكفر بقوله : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون على قبض الأرواح ، أو على تعذيب العصاة حال كوهم ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ باختيار الكفر وتعريضها للعداب ﴿فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ وأظهروا الانقياد وأقرَّوا الله بالعبودية وقالوا كذبا وتخليصا لأنفسهم : ﴿مَا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ونقول بالشرك . فقال الله ، أو الملائكة ردَّا عليهم : ﴿بَلَى﴾ قلتم بالشرك و﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الشرك وتكذيب الرسل ، فيجازيكم عليه أشدَّ الجزاء ، ولا ينفعكم هذا الكذب .

(١) في النسخة : ليشفعوكم .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٢١ .

(٣) تفسير القمي ١ : ٣٨٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٢ .

ثمّ يقال لهم : ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي باب منها شئتم ، أو كلّ فرقة منكم من باب حال كونكم ﴿حَالِدِينَ فِيهَا﴾ غير خارجين منها أبداً ﴿فَلَيْسَ مَشْأَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن قبول التوحيد وتبعية الأنبياء.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٠)

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان سوء مقال الكفار وسوء عاقبتهم ، بيّن حسن مقال المؤمنين وحسن عاقبتهم بقوله : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك وعصيان الرسول تفتيشاً عن دين الاسلام ، وتحقيقاً عن حال القرآن ﴿مَاذَا﴾ القرآن الذي ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على نبيكم ؟

روي أنّ أحياء العرب كانوا يبعثون أمام موسم الحجّ من يأتيهم بخبر النبي ﷺ ، فإذا جاء الوفد لقيه ^(١) المقتسمون الذين اقتسموا طرق مكة ، وأمروه بالانصراف وقالوا : إن لم تلقه كان خيراً لك ، فأنه ساحر كاهن كذاب [مجنون] . فيقول : أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن استطلع أمر محمد وأراه. فيلقى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه ، فذلك قوله : ﴿وَقِيلَ﴾ أي من طرف الوافدين للذين آمنوا : ماذا أنزل ربكم ؟ ﴿قَالُوا﴾ : أنزل ربنا ﴿خَيْرًا﴾ وكتاباً حقاً ^(٢) .

ويحتمل أن يكون المراد بالخير المعارف والأحكام المؤدية إلى كلّ خير في الدنيا والآخرة ، فيكون من إطلاق المسبّب على سببه ، أو من باب المبالغة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام : « عليكم بتقوى الله فإنّها تجمع الخير ولا خير غيرها ، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها من خير الدنيا والآخرة [قال الله عزّ وجلّ] ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إلى آخره » ^(٣) .

ثمّ بيّنوا وجه الخيرية بقوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في العقائد والأعمال ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ تكون ﴿حَسَنَةً﴾ في الآخرة من الجنة والنعم الدائمة والراحة الأبدية ، أو المراد أنّه يكون لهم في هذه الدنيا حسنة من المدح والثناء والتعظيم والغلبة على الأعداء بالحجّة والألطفات الخاصّة الإلهية والانس بالله والانقطاع عمّا سواه ﴿وَوَاللَّهِ﴾ ﴿لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وأفضل من دار الدنيا ، ﴿وَوَاللَّهِ﴾ ﴿لَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

وعن الباقر عليه السلام : ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ الدنيا « ^(٤) » .

(١) في تفسير روح البيان : الوافد كفه.

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٢٩ .

(٣) أمالي الطوسي : ٢٥ / ٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٣ .

(٤) تفسير العياشي ٣ : ٨ / ٢٣٨٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٣ .

وقيل : إنّ قوله : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ الى آخره ، هو كلام الله تقريراً لقول المتقين خيراً ^(١) .

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ
يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣١) و (٣٢)

ثمّ شرح سبحانه دار المتقين وبينها ، قيل : كأنّه قيل : أي دار هذه الدار الممدوحة ؟ فأجاب
سبحانه بأنّها جنات خاصة تسمّى ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ ^(٢) هي وسط الجنان. وقيل : يعني جنّات إقامة وخلود
^(٣) ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لها قصور مرتفعة وأشجار مثمرة كثيرة ﴿يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة ، أو الأربعة
المذكورة في سورة محمد ﷺ ^(٤) ، و ﴿لَهُمْ﴾ خاصة ﴿فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من المشتبهات النفسانية والروحانية
﴿كَذَلِكَ﴾ الجزء الجزيل ﴿يَجْزِي اللَّهُ﴾ الكريم ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة على إيمانهم وتقواهم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ المراد بالمتقين هم الذين استمروا على التقوى إلى الموت بقوله : ﴿لَّذِينَ
تَتَوَفَّاهُمْ﴾ وتقبض أرواحهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواح المؤمنين ، وهم ملائكة الرحمة ، حال كونهم
﴿طَيِّبِينَ﴾ وطاهرين من دنس الشرك والمعاصي ، أو طيبة ^(٥) أنفسهم بالموت ، مشتاقين إلى لقاء الله
ورضوانه ، أو ببشارة الملائكة إياهم بالجنة.

والقمي قال : هم المؤمنون الذين طابت مواليدهم ^(٦) ، فاذا كانوا كذلك فالملائكة ﴿يَقُولُونَ﴾ لهم
تعظيماً وتبشيراً : ﴿سَلَامٌ﴾ من الله ، أو منّا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيّها المؤمنون ، لا خوف عليكم بعد هذا اليوم
من مكروهه.

وقيل : إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السّلام عليك يا وليّ الله ، الله يقرئك
السّلام ^(٧) ، وقالت لهم [الملائكة] : إذا بعثتم في القيامة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ فإنّها معدّة لكم مشتاقّة
إليكم ، أو قالت لهم : ادخلوا الجنة الآن ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من طاعة الله وترك المعاصي.
عن أمير المؤمنين عليه السلام : « ليس أحد من الناس تفارق روحه جسده حتى يعلم إلى أيّ المنزلين
يصير ؛ إلى الجنة أم النار ، أعدوّ هو الله أو وليّ ، فان كان ولياً لله فتحت له أبواب الجنة ، وشرعت له
طريقها ، ونظر إلى ما أعدّ الله [له فيها] ففرغ من كلّ شغل ، ووضع عنه كلّ ثقل ، وإن كان عدواً لله
فتحت

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٢٤ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٢٥ .

(٣) تفسير الصافي ٣ : ١٣٣ .

(٤) سورة محمد ﷺ ٤٧ / ١٥ .

(٥) في النسخة : طيبين .

(٦) في تفسير القمي ١ : ٣٨٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٣ .

(٧) تفسير روح البيان ٥ : ٣١ .

له أبواب النار ، وشرعت له طرقها ، ونظر إلى ما أعد الله له فيها ، فاستقبل كل مكروه ونزل كل شرور ، وكل^(١) هذا يكون عند الموت ، وعنده يكون اليقين^(٢) ، قال الله : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ الى آخره ، وقال : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية « (٣) » .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) و (٣٤)﴾

ثم أنه تعالى بعد حكاية طعن المشركين في القرآن الذي هو أعظم المعجزات ، وتهديدهم بالعذاب ، بَيَّنَّ إصرارهم على الشرك والكفر مع عدم العذر لهم في ترك الايمان بقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ويتوقعون في ترك الايمان بالنبي وكتابه شيئا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض ارواحهم ، أو ليشهدوا بصدقهما ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وعذابه ، أو حكمه بنزول العذاب ، مع أنَّ عند أحد الأمرين لا ينفع الايمان ﴿كَذَلِكَ﴾ الإصرار على الكفر ومعارضة الرسول ﴿فَعَلَ﴾ الامم الكافرة ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتعذيبهم ، لأنه كان حقهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الكفر والطغيان الموجب لنهاية استحقاقهم له ﴿فَأَصَابَهُمْ﴾ ووصل إليهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وجزاء ما فعلوا ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الموعود.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

ثم أنه تعالى بعد حكاية شبهتهم في النبوة وطعنهم في القرآن ، حكى استدلالهم على صحة شركهم وبدعهم بقوله : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ نحن مجبورون من قبل الله في عقائدنا وأعمالنا ، فلا يصدر منا إلَّا ما أراد الله و﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا نعبد الأصنام ، ولا نحرم السائبة وأخواتها ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ﴾ ومما سواه ﴿مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فلما عبدنا الأصنام

(١) في أمالي الطوسي : وترك كل سرور ، كل .

(٢) في النسخة : ييقين .

(٣) أمالي الطوسي : ٢٧ / ٣١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٣ ، والآية من سورة النحل : ١٦ / ٢٨ .

وحرّمنا ما حرّمنا علينا ، إنّه تعالى أراد ممّا تلك العبادة والحرمة .

ثمّ أبطل الله دليلهم بقوله : ﴿كَذَلِكَ﴾ الاستدلال الذي فعل هؤلاء المشركون ﴿فَعَلَّ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فابتلوا بالعذاب الذي هو أدلّ الدلائل على عدم رضائه تعالى بفعلهم ، وقد بلغهم الرسل ذلك ﴿فَهَلْ﴾ الواجب ﴿عَلَى الرُّسُلِ﴾ شيء ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والبيان الموضح للحقّ ، وقد أدوا ما عليهم ، ولم يكن لهم وعليهم إجبار الناس على قبول قولهم .

واعلم أنّ الآية وأضرّجها أدلّ دليل على بطلان القول بالجبر كما عليه الأشاعرة ، والعجب من بعضهم أنّه قال : هذا الكلام ، صدر عنهم استهزاء ، ولو قالوه اعتقادا لكان صوابا ^(١) . وقال آخر منهم : لو قالوه معرفة بالله وتعظيما له ، لما كان فيه عيب ^(٢) .

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦)

ثمّ أنّه تعالى بعد الإشارة إلى تبليغ الرسل بطلان الشرك وعدم رضا الله به ، وتعذيب القائلين به ، صرّح بالأمرين بقوله : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الامم ﴿رَسُولًا﴾ خاصا بهم أو عاما ، كما بعثنا في هذه الامة ، وكانت رسالتهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ولا تشركوا به شيئا ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وما يبعثكم إلى الطغيان من الشيطان ، والدّعاة إلى الشرك ، وأمّا امهم فتفرّقوا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ ووقفهم لقبول دعوة الرسل والإقرار بالتوحيد ونفي الأنداد ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ﴾ شمله الخذلان و﴿حَقَّتْ﴾ وثبتت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾

عن القمي : ورسخ في قلبه الشرك فلم يتّعظ بمواعظ الرسول إلى الموت ، وابتلى كثير منهم بالعذاب ^(٣) .

فان لم تصدّقوني ﴿فَمَسِيرُوا﴾ أيّها الناس ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وسافروا في أطرافها ﴿فَانظُرُوا﴾ بعين الاعتبار ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ للرسول وكتبهم ، كي تعتبروا من مشاهدة آثار العذاب في ديارهم .

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾*

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٣٢ .

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٣٢ .

(٣) لم نجده في تفسير القمي .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيَسِّينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٧) و (٤٠)﴾

ثم بين سبحانه رسوخ الشرك في قلوب مشركي عصر النبي بقوله : ﴿إِنْ تَخْرُسْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وتجتهد كل الجهد في إيمانهم وهدايتهم ، لم يفد شيئا ﴿فَإِنَّ﴾ الهداية والضلالة بيد الله و﴿اللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ يُضِلْ﴾ عنه بخذلانه ، فيبتلون بالعذاب في الآخرة ، أو فيها وفي الدنيا ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أحد ﴿مَنْ نَاصِرِينَ﴾ يدافع عنهم بشفاعته أو قوة قهرية.

ثم أنه تعالى بعد حكاية إنكارهم التوحيد ، حكى إنكارهم البعث مقسمين عليه بقوله : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ وأغلظها ، على أنه ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ﴾ من في القبور للحساب والجزاء ﴿مَنْ يَمُوتُ﴾ في الدنيا.

قيل : إنهم أنكروا النبوة لا دعائهم لغويته إذا لم يكن دار جزاء ، ولما لا تكون دار جزاء فلا يكون نبوة (١) ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿بَلَى﴾ يكون دار جزاء ، ويبعث الله من يموت البتة ، لأنه تعالى حسب حكمته وعد به ﴿وَعْدًا﴾ ثابتا ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه ، لامتناع الخلف في وعده ، وحق البعث عليه ﴿حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالبعث لجهلهم بقدرة الله وحكمته المقتضية لوجوبه عليه ﴿لِيَسِّينَ﴾ ويميّز ﴿لَهُمْ﴾ المطيع والعاصي ، والحق والمبطل ، والظالم والمظلوم وغيرها من الحق ﴿الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ويتنازعون في شأنه ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإنكار التوحيد والنبوة والبعث وتكذيب وعد الله ورسله ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿كَاذِبِينَ﴾ في جميع (٢) ما يقولون ، وفي حلفهم بالله على عدم البعث.

ثم استدلل سبحانه بكمال قدرته على إمكان البعث بقوله : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ جليل أو حقير أو عزيز أو هيّن ﴿إِذَا﴾ اقتضى الصلاح وجوده و﴿أَرَدْنَاهُ﴾ هو ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ﴾ ونفيض عليه الوجود ﴿فَيَكُونُ﴾ ويوجد بلا حاجة إلى مادة ومدة ومعين وآلة ودفع مانع ومعارض ، فمن كان نفاذ إرادته بهذه المثابة ، كيف يمتنع عليه إعادة الخلق بعد إيجادهم أولا بغير مثال مع أنّ الاعادة أهون ؟ .

في (الكافي) عن الصادق عليه السلام أنه قال لأبي بصير : « ما تقول في هذه الآية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ

جَهْدَ

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٣١ .

(٢) في النسخة : جمع .

أَيْمَانِهِمْ قال : إِنَّ الْمَشْرِكِينَ يَزْعُمُونَ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَبْعَثُ الْمَوْتَى . فقال : « تبا لمن قال هذا ، سلمهم هل كان المشركون يحلفون بالله أم باللات والعزى ؟ » .

قال : قلت : جعلت فداك ، فأوجدنيه . فقال : « يا أبا بصير ، لو قد قام قائمنا بعث الله قوما من شيعتنا ^(١) ، سيوفهم على عواتقهم ، فيبلغ [ذلك] قوما من شيعتنا لم يموتوا ويقولون : بعث فلان وفلان من قبورهم وهم مع القائم ، فيبلغ ذلك قوما من عدونا فيقولون : يا معشر الشيعة ، ما أكذبكم ! هذه دولتكم وأنتم تقولون فيها الكذب ؟ لا والله ما عاش هؤلاء ولا يعيشون إلى يوم القيامة . [قال :] فحكى الله قولهم فقال : **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾** ^(٢) وفي رواية العياشي عنه **﴿إِنَّمَا مَا يَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ﴾** ^(٣) .

والقمي عنه **﴿إِنَّمَا أَنَّهُ قَالَ : « مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ » ؟ قِيلَ : يَقُولُونَ نَزَلَتْ فِي الْكَفَّارِ . قَالَ : « إِنَّ الْكَفَّارَ لَا يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ قَبْلَ لَهُمْ : تَرْجِعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ، فَردَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : **﴿لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾** يعني في الرجعة يردّهم فيقتلهم ويشفي صدور قوم مؤمنين** » ^(٤) .

أقول : الظاهر أنّ المراد في الروايات بيان تأويل الآية ، والمراد من قوله : « تبا لمن قال هذا » يعني قال بالخصار المراد فيه .

**﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** (٤١)

ثم لما ذكر سبحانه سوء عقائد المشركين ، أشار إلى سوء معاشرتهم للمسلمين وإيذائهم لهم ، ورغبتهم في الهجرة من بلادهم بقوله : **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾** من مكة وأوطان المشركين من المسلمين **﴿فِي﴾** سبيل **﴿اللَّهِ﴾** وطلباً لرضاه ، وحفظاً لدينه **﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾** واودوا في سبيلي **﴿لَنَبُوءَنَّهُمْ﴾** ولننزلتهم **﴿فِي الدُّنْيَا﴾** مباءة ^(٥) ومنزلة **﴿حَسَنَةً﴾** مرضية . قيل : هي المدينة المنورة حيث آوهم أهلها ونصروهم ^(٦) .

روي عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في ستة نفر من الصحابة : صهيب ، وبلال ، وعمرار ، وخبّاب ،

(١) زاد في الكافي : قبايع ، وفي الصافي : قبايع ، والمراد جمع قبيلة : وهي ما على طرف مقبض السيف من فضة أو ذهب .

(٢) الكافي ٨ : ٥٠ / ١٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٥ .

(٣) تفسير العياشي ٣ : ٩ / ٢٣٨٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٥ .

(٥) في النسخة : مباءة .

(٦) تفسير الرازي ٢٠ : ٣٤ ، تفسير روح البيان ٥ : ٣٦ .

وعابس وجبير موليين لقريش ، فجعلوا يعدّبونهم ليردوهم عن الاسلام ، أمّا صهيب فقال لهم : إني رجل كبير ، إن كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضركم ، فافتدى منهم بماله ، فلمّا رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب ، وأمّا سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الاسلام ، فتركوا عذابهم ، ثمّ هاجروا ^(١) .

وقيل : نزلت في المهاجرين إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة ، فجمعوا بين المهجرتين ^(٢) .

روي أنّ رسول الله ﷺ لما رأى ما نزل بالمسلمين من توالي العذاب عليهم من كفّار قريش ، قال لهم : « تفرّقوا في الأرض ، فإنّ الله سيجمعكم » . قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : « اخرجوا إلى الحبشة ، فان بها ملكا عظيما لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتّى يجعل الله لكم فرجا ممّا أنتم فيه » . فهاجر إليها ناس ذو عدد ، قيل : كانوا فوق ثمانين ، مخافة الفتنة وفرارا إلى الله تعالى بدينهم ^(٣) .

ثمّ وعدهم بالأجر الاخروي بقوله : ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ المعدّ لهم بإزاء الهجرة ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم ممّا يعجّل لهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عظم قدر أجر الآخرة لازدادوا في الصبر والمجاهدة . وقيل : إنّ ضمائر الجمع راجعة إلى الكفار ، والمعنى : لو علم الكفّار أنّ الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدار لكفّوا عن أذاهم ووافقوهم في الدين ^(٤) .

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَمُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) و (٤٤)﴾

ثمّ وصف الله المهاجرين ومدحهم بقوله : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين ومفارقة الوطن الذي هو حرم الله ، والمجاهدة ببذل الأموال والأنفس وسائر الشدائد في سبيل الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اللطيف بهم خاصّة ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جميع امورهم .

ثمّ لما كان من شبهات المشركين في النبوة أنّ الله أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله بشيرا ، بل لو أراد إرسال رسول لأرسل ملكا من الملائكة ، لأنهم أشرف من البشر وإخباره أقرب إلى القبول ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ إلى سائر الامم ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثتك رسلا ﴿إِلَّا﴾ كانوا ﴿رَجُلًا﴾ من البشر يأكلون ويشربون وينكحون ، والمائز بينهم وبين غيرهم أنا ﴿نُوحِي﴾

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٣٤ .

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٣٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٣٦ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ٣٤ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٤٥ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١١٥ ، تفسير روح البيان ٥ : ٣٦ .

إِلَيْهِمْ ﴿بِوَاسِطَةِ الْمَلِكِ ، وَقُلْ يَا مُحَمَّدٌ لَهُمْ : إِنْ لَمْ تَصَدَّقُوا ذَلِكَ ﴿فَسْأَلُوا﴾ عَنْ صَدَقَ مَا أَخْبَرَكُمْ ﴿أَهْلَ الدُّكْرِ﴾ وَالْعِلْمَ بِأَحْوَالِ الرِّسْلِ الْمَاضِيَةِ وَالْكَتَبِ السَّمَاوِيَةِ حَتَّى تَعْلَمُوا صَدَقَ مَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ فِي الْوَاقِعِ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ بِذَلِكَ.

ثُمَّ كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ : بِمَا أُرْسِلَ الرِّجَالُ الْمُوحَى إِلَيْهِمْ ؟ فَأَجَابَ سَبْحَانَهُ : ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وَالْكَتَبِ.

وَقِيلَ : إِنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ مُتَعَلِّقَانِ بِ (نَوْحِي) وَالْمَعْنَى : نَوْحِي إِلَيْهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ ^(١) مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَحْكَامِ ، وَبِالزُّبُرِ وَالْكَتَبِ السَّمَاوِيَةِ. أَوْ مُتَعَلِّقَانِ بِ (تَعْلَمُونَ) وَالْمَعْنَى : إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْكَتَبِ السَّمَاوِيَةِ وَالْذِفَاتِ الْمَعْرُوفَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لَذِكْرِ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقَةِ.

قِيلَ : إِنَّهُمَا مُتَعَلِّقَانِ بِ (الذِّكْرِ) وَالْمَعْنَى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِهَا ^(٢) .

عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قِيلَ لَهُ : إِنْ مِنْ عِنْدِنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ : ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أَنَّهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ : « إِذَا يَدْعُوكُمْ ^(٣) إِلَى دِينِهِمْ » ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ : « نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ وَنَحْنُ الْمَسْئُولُونَ » ^(٤) .

وَعَنِ السَّجَّادِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « عَلَى الْأَئِمَّةِ [مِنْ] الْفَرَضِ مَا لَيْسَ عَلَى شِيعَتِهِمْ ، وَعَلَى شِيعَتِنَا مَا لَيْسَ عَلَيْنَا ، أَمْرُهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسْأَلُونَا ، قَالَ : ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فَأَمْرُهُمْ أَنْ يَسْأَلُونَا ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا الْجَوَابُ ، إِنْ شِئْنَا أَجَبْنَا ، وَإِنْ شِئْنَا أَمْسَكْنَا » ^(٥) .

أَقُولُ : لَا شَبَهَةَ أَنَّ الْآيَةَ فِي الْمَحَاجَّةِ مَعَ الْمَشْرِكِينَ وَالزَّاهِمِينَ عَلَى مَا هُوَ طَرِيقَةُ الْعُقْلَاءِ مِنْ رَجُوعِ الْجَاهِلِ إِلَى الْعَالَمِ ، وَالْمُرَادُ بِالْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِ النُّزُولِ هُمُ الْمُطَّلَعُونَ عَلَى أَحْوَالِ الرِّسْلِ ، فَلَا بَدَّ مِنْ حَمْلِ الرِّوَايَتَيْنِ عَلَى بَيَانِ عَدَمِ اخْتِصَاصِ أَهْلِ الذِّكْرِ بِعُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، بَلِ الْمُرَادُ عَمُومُ الْعُلَمَاءِ ، وَوُجُوبُ السُّؤَالِ عَنْهُمْ عَنْ جَمِيعِ الْمُطَالِبِ ، فَلَوْ وَجِبَ الرُّجُوعُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي جَمِيعِ الْمُطَالِبِ حَتَّى الْأَحْكَامِ لِأَجَابُوا بِأَحْكَامِ دِينِهِمْ وَدَعَوْكُمُ إِلَى الْعَمَلِ بِهَا ، فَالْمُؤْمِنُونَ مَأْمُورُونَ بِالسُّؤَالِ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَالْأَئِمَّةِ أَظْهَرَ مُصَادِقَهُمْ ، بَلِ هُمُ الْمُتَعَيِّنُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ مَأْخُوذٌ مِنَ الرِّسُولِ وَالْقُرْآنِ ، وَعِلْمُ غَيْرِهِمْ مَأْخُوذٌ مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ.

عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا* رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ ^(٦)

فَالذِّكْرُ

(١ و ٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٣٧ .

(٣) فِي الْبَصَائِرِ : يَدْعُوهُمْ .

(٤) تفسير العياشي ٣ : ١١ / ٢٣٩١ ، بَصَائِرُ الدَّرَجَاتِ : ٦١ / ١٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٧ .

(٥) الْكَافِي ١ : ١٦٥ / ٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٧ .

(٦) الطَّلَاقُ : ٦٥ / ١٠ و ١١ .

رسول الله ﷺ ، ونحن أهله » (١) .

وعن الصادق عليه السلام : « الذكر القرآن ، وأهله آل محمد ﷺ » (٢) .

أقول : يحتمل أن يكون المراد بيان شرفهم لا تفسير هذه الآية .

ثم بيّن سبحانه أنّ الرسول نفسه أهل الذكر بقوله : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ والقرآن الذي هو تذكرة وتنبيه للغافلين ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كافة من العرب والعجم ، والأسود والأبيض ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من رحم من العلوم والمعارف والأحكام وأحوال الماضين ، وهلاك كثير منهم بالعذاب ، بتلاوة هذا الكتاب عليهم ، ﴿وَوَضَّيْحًا﴾ لمعانيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في مطالبه العالية من المعارف والمواعظ والعبر ، وما فيه من وجوه الإعجاز حتى يرتدعوا عما هم عليه من الكفر واللجاج واتباع الشهوات ، ويؤمنوا بتوحيد الله وصحة نبوتك وصدق كتابك .

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٥) و (٤٧)

ثم هدّد المشركين الماكرين بالرسول ﷺ الساعين في الفساد بين المسلمين بقوله : ﴿أَفَأَمِنَ﴾ المشركون ﴿الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ بالنبي ﷺ المكر ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ وسعوا خفية في إيذائه وإطفاء نوره من ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسفها بقارون لا يذائه موسى عليه السلام ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ كالصيحة والصاعقة من السماء ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ به ولا يتقربون له ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ الله ويأتيهم بالعذاب وهم ﴿فِي﴾ حال ﴿تَقْلُبِهِمْ﴾ وذهابهم وإيابهم في الأسفار والتجارة وتنظيم أمور الدنيا .
وقيل : يعني في حال تفكرهم في طرق المكر ووجوه الكيد بك (٣) .

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله من تعذيبهم بالهرب منه ، أو التحصّن بحصن منيع ، أو معارضة بالأنصار ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعقوبة ، وهو ﴿عَلَى﴾ حال ﴿تَخَوُّفٍ﴾ وتحذّر من العذاب الذي رأوا ابتلاء قوم به فصاروا وجلين من ابتلائهم به ، أو على أن ينتقصوا في أنفسهم وأموالهم شيئا فشيئا حتى يهلكوا ، والمراد من ذكر الوجوه المذكورة بيان قدرته تعالى على إهلاكهم بأيّ وجه ، ولما كان حال التقلب

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ٢٣٩ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٧ .

(٢) تفسير الصافي ٣ : ١٣٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٣٨ .

والتخوّف معرضاً للفرار ، عبّر عن إصابتهم بالعذاب بالأخذ ، وفي غيرها بالانتيان .
 ثم أشار سبحانه إلى علّة إمهالهم وتأخير عذابهم بقوله : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ ﴾ أيّها المشركون والله ﴿ لَرُؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ، ويمهلهم مع كمال الاستحقاق لها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ
 سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤٨)

ثم لما هدّد سبحانه المشركين بأنواع العذاب ، وكان الخوف متوقفاً على العلم بكمال القدرة ، بيّن سعة قدرته ، ويحتمل أن يكون وجه النظم أنّه تعالى بعد تهديد المشركين بيّن كمال قدرته ونهاية عظمته ومهابته ، ازدياداً للرعب في القلوب بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ والتقدير على الأول : ألم يتبيّن لهم كمال قدرة الله ولم يروا ، وعلى الثاني : ألم يخافوا الله ، ولم ينظروا ﴿ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ له ظلّ كيف ﴿ يَتَفَيَّؤُا ﴾ ويرجع ﴿ ظِلَالُهُ ﴾ وفيؤه شيئاً فشيئاً ﴿ عَنِ الْيَمِينِ ﴾ إلى الشمال ﴿ وَ ﴾ عن ﴿ الشَّمَائِلِ ﴾ حال كونهم ﴿ سُجَّدًا ﴾ ومنقادين وخاضعين ﴿ لِلَّهِ ﴾ مقهورين لإرادته ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ وصاغرون ومذلّلون تحت مشيئته ، وإتّما أضاف سبحانه الظلال إلى ضمير المفرد مع أنّ المراد ذوي الظلّ وهي كثيرة اعتباراً بلفظ الشي ، كما أنّ توصيف الظلال بالجمع وإرجاع ضمير الجمع إليه اعتباراً بمعنى الظلال ، وهو كثير .

وقيل : إنّ المراد باليمين يمين الفلك ، وهو المشرق ، لكونه أقوى الجانبين (٢) منه ؛ لأنّ منه تظهر الحركة القوية للفلك ، فاذا طلعت الشمس حدث لكلّ شيء قائم على وجه الأرض ظلّ في طرف المغرب ، وهو شمال الفلك ، فكأنّه رجع من اليمين إلى الشمال ، فكأنّما ارتفعت الشمس ينقص ذلك الظلّ ويرجع شيئاً فشيئاً إلى أن تبلغ وسط الفلك ، فحينئذ يعدم من الطرف ، ويحدث أو يرجع في طرف المشرق ، وهو معنى (عن الشَّمَائِلِ) ثمّ يزداد شيئاً فشيئاً ، فالرجوع من طرف اليمين واحد ، وهو حدوث الظلّ في أوّل طلوع الشمس أو أوّل الزوال ، ومن طرف الشمال كثير باعتبار نقاط الأرض حين النقص ، ولذا أفرد لفظ اليمين وجمع الشمال ، ولعلّ إلى ما ذكرنا يرجع ما قيل من أنّ أفراد لفظ اليمين لأنّ نقطة مشرق الشمس واحدة ، وأمّا الشَّمَائِلِ فهي عبارة عن الانحرافات الواقعة في تلك الظلال بعد وقوعها على وجه الأرض ، وهي كثيرة (٣) .

وقيل : إنّ لكلّ شيء يميناً وشمالاً ، وهما جانباه ، استعارة من يمين الإنسان وشماله ، وذكر اليمين

(١) في النسخة : كونها .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٤١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٢ .

مفردا والشمال جمعا ، لأنَّ العرب إذا ذكرت صيغتي الجمع عبّرت عن أحدهما بلفظ المفرد ^(١) .
وأما سجود الأظلال فهو انقيادها واستسلامها لإرادة الله المتعلقة بحركات الشمس موافقة
للحكمة وحسن النظام. وقيل : إنَّه انبساطها على وجه الأرض ملتصقة بها كهيئة الساجد ^(٢) . ولذا قيل
: ظلّك يسجد الله وأنت لا تسجد له ^(٣) .

وأما إرجاع ضمير العقلاء إليها مثل : (هم) و (الواو والنون) فلاسناد فعل العقلاء إليها ،
ويمكن أن يكون بلحاظ أنّ جميع الموجودات في نظره تعالى شاعرون عاقلون ، وإن كانوا في نظر الظاهر
غير شاعرين.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا

يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٤٩) و (٥٠)﴾

ثمَّ أنّه تعالى بعد ذكر سجود الظلال لعظمته ، ذكر سجود الحيوانات والملائكة له بقوله :

﴿وَلِلَّهِ الْعَظِيمُ وَحْدَهُ﴾ يسجد ﴿وَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

ثمَّ بيّن أنّ المراد بما في الأرض بقوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وكلّ ما يتحرّك على وجه الأرض ، كما عن ابن
عبّاس ^(٤) .

ثمَّ بيّن المراد بما في السماوات بقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾

وقيل : إنّ المراد من الدابة كلّ ما يتحرّك بالإرادة ^(٥) فيشمل الملائكة.

وقيل : إنّ المراد بما في السماوات جميع ما خلق فيها. وعلى القولين يكون ذكر الملائكة من باب
ذكر الخاص بعد العام إظهارا لشرفهم وفضلهم.

وقيل : إنّ المراد بما في السماوات الخلق الذي يقال له الروح ، والمراد من الملائكة جميعهم ^(٦) .

وقيل : إنّ المراد من ﴿وَمَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ملائكة السماوات ، ومن ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ المذكور في الآية
ملائكة الأرض كالحفظة وغيرهم ^(٧) .

﴿وَهُمْ﴾ مع عظم خلقهم وعلوّ شأنهم ورفعة مقامهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن السجود لله وغاية

الخشوع له و﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾ ومليكتهم الذي هو ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بالقهر والغلبة خوف المهابة والإجلال.

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٤٠ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٣ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١١٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٣ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٤ .

(٥) تفسير روح البيان ٥ : ٤١ .

(٦ و ٧) تفسير أبي السعود ٥ : ١١٩ .

وقيل : يعني يخافون ربهم من أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم ^(١) . وعلى التقديرين هو تقرير لقوله : من يخاف الله لا يستكبر عن عبادته .

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به من الطاعات والتدبيرات ، وإنما لم يذكر الأمر وهو الله لمعلوماته ، ولإظهار العظمة والجلالة .

عن النبي ﷺ : « أَنَّ اللَّهَ مَلَأَ ثَنَةَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ سَجُودًا مِنْ خَلْقِهِمْ اللَّهَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، تَرَعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ خِيفَةِ اللَّهِ ، لَا تَقْطُرُ مِنْ دُمُوعِهِمْ قَطْرَةٌ إِلَّا صَارَتْ مَلَكًا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَالُوا : مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ » ^(٢) .

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ (٥١)﴾

ثم أنه تعالى بعد إثبات توحيده ، وبيان عظيمته وقدرته ومهابته ، نهي عن الشرك بقوله : ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ لجميع العقلاء بلسان جميع رسله ودلالة آيات توحيده ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ مع الله إلها آخر ، فيكون مختاركم في العبادة ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ بداهة كون التعدد والتثني منافيا للالهية التي لا تكون إلا لواجب الوجود الذي يتمتع أن يجامع الحدود التي هي تلازم الاثنينية ، فإذا ثبت ذلك فالهكم ومعبودكم بالاستحقاق ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ولا ند ، فإذا علمتم أيها الناس توحيدى وقدرتى وعظمتى وعدم رضاى بالاشتراك ، إن كنتم راهبين من شيء ﴿فَإِنِّي﴾ خاصة ﴿فَارَهُبُونَ﴾ لعدم قدرة أحد على الاضرار على أحد مع سلطنتى فى عالم الوجود وقاهرته على جميع الممكنات ، وإنما عدل سبحانه من الغيبة إلى الحضور لتربية المهابة فى القلوب .

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ

مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ

عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٤) وَ (٥٥)﴾

ثم بالغ سبحانه فى تقرير الوهيته وعظيمته بقوله : ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وتديبرا وسلطانا ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ والطاعة والانقياد ﴿وَاصِبًا﴾ وواجبا كما عن الصادق عليه السلام ^(٣) ، أو دائما أو ثابتا ^(٤) .

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٥ ، تفسير البيضاوى ١ : ٥٤٦ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١١٩ .

(٢) مجمع البيان ٦ : ٥٦٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٣٩ .

(٣) تفسير العياشى ٣ : ١٣ / ٢٣٩٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ٤٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٠ ، تفسير روح البيان ٥ : ٤٢ ، وفيه : واجبا ثابتا .

وقيل : إنّ له الدين ذا كلفة ، أو له الجزاء الذي لا انقطاع له ^(١) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ بعد تقرير الشؤون المذكورة له ﴿تَتَّقُونَ﴾ وتطيعون.

ثمّ أكّد استحقاقه الطاعة والعبادة بقوله : ﴿وَمَا﴾ أحاط ﴿بِكُمْ﴾ أو يكون لكم شيء ﴿مِنْ نِعْمَةٍ﴾ أيّ نعمة كانت ﴿فَمِنْ﴾ فضل ﴿اللَّهِ﴾ هي لا من غيره.
عن الصادق عليه السلام : « من لم يعلم أنّ الله عليه من نعمة [إلّا] في مطعم أو ملبس ، فقد قصر عمله ودنا عذابه » ^(٢) .

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أقلّ مساس ﴿فَإِلَيْهِ﴾ تعالى خاصه ﴿تَجْتَرُّونَ﴾ وتتضرعون في كشفه عنكم ، وبه تستغيثون بصوت عال لخلاصكم منه.

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ﴾ بعد تضرّعكم إليه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ﴾ ومالكهم اللطيف بهم ﴿يُسْرِكُونَ﴾ مع أنّ ترتيب الشرك الذي هو أبغض عنده من كلّ سوء على إنعامه عليهم بالنعم الكثيرة وإعانتهم في كشف الضرّ غاية الكفران ونهاية القباحة ، بل كأنهم لشقاقهم معنا اختاروا الشرك ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم وكشف الضرّ.

ثمّ هدّدهم على كفرانهم بقوله : ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أيّها الفرقة الكافرة ، وانتمتعوا بالذائد الدنيوية أياما قليلة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبة كفرانكم ، وهو ابتلاؤكم بأشدّ العذاب ، وفي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب أذان بغاية السخط ، وتأكّد الوعيد المنبئ عن الأخذ الشديد.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تُفْسِرُونَ﴾ *

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٦) و (٥٧)

ثمّ ذمّهم على كفرانهم الآخر المشعر بغاية سفههم بقوله : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التي اتخذوها شركاء لله ، أو لا يعلمون الوهيته ، أو لا يعلمون في عبادته نفعا ولا ضرا ، أو لا يعلمون له حقا ﴿نَصِيْبًا﴾ وسهما ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنعمنا عليهم من الزرع والأنعام تقربا إليه ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ أيّها السفهاء يوم القيامة سؤال توبيخ وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تُفْسِرُونَ﴾ على الله من قولكم بأنّه اتخذ الأصنام شركاء لنفسه ، ورضي بالتقرب إليها.

ثمّ ذكر سبحانه كفرانهم الآخر بقوله : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ ويقولون : إنّ الملائكة بنات الله ،

وهم

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٥٤٧ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١١٩ و ١٢٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٠ .

خزاعة وكنانة على ما قيل ^(١) . والقمي : هم قريش ^(٢) .

ثم نزه سبحانه ذاته المقدسة عن ذلك بقوله : ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وتقدس من تلك النسبة ، وقيل : إنَّ المراد منه إظهار التعجب من هذا القول الشنيع ^(٣) .

ثم كآته قال سبحانه : كيف يجعلون لله البنات اللاتي هم يكرهون ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من البنين؟!

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ

سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَلَيْسَ لَهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٨) و (٥٩)﴾

ثم بين سبحانه شدة كراهتهم لهنَّ بقوله : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ﴾ وأخبر بولادتها له ﴿ظَلَّ﴾ وصار أو دام نهاره كله ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من شدة الغم وتشويش خاطر والحياء من الناس ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ومملوء غيظا على امرأته لأجل ولادتها ، هذا حاله ، وأما عمله فهو أنه ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ ويختفي ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ الذي هو فيهم ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾

قيل : كان الرجل في الجاهلية إذا ظهر آثار الطلق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يولد له ، فإن كان ذكرا ابتهج به ، وإن كان انثى حزن ولم يظهر للناس أياما ، يدبر فيها أنه ما يصنع بما ولد له ^(٤) ﴿أَلَيْسَ لَهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ وبيقيه ﴿وَيَتَوَارَىٰ﴾ وإذلال له .

عن ابن عباس : معناه أنه يمسكها مع الرضا بهوان نفسه وعلى رغم أنفه ^(٥) .

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ ويستره ﴿فِي التُّرَابِ﴾ قيل : إنَّ العرب ^(٦) كانوا يخفرون حفيرة ويجعلونها فيها حتى تموت ^(٧) .

وروي أن قيس بن عاصم قال : يا رسول الله ، إنني وارت ثماني بنات في الجاهلية ؟ فقال ﷺ : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » ^(٨) .

ثم أعلن سبحانه نسبة البنات إليه مع أبائهم عن نسبتها إلى أنفسهم بقوله : ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها العقلاء

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٥٤ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢١ ، تفسير روح البيان ٥ : ٤٣ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٠ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥ : ١٣١ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ٢٠ : ٥٥ .

(٦) وأد البنات ليست من العادات المتفشية عند جميع عرب الجاهلية ، بل هي خاصة بمضر وخزاعة وتميم دون باقي القبائل . راجع : تفسير القرطبي ١٠ : ١١٧ .

(٧ و ٨) تفسير الرازي ٢٠ : ٥٥ .

أنه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ به من أن الله البنات اللاتي هذا محلهنّ عندهم ، واختيار البنين لأنفسهم.

﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ (٦٠)﴾

ثم لما كان الاحتياج إلى الولد من صفات الممكنات ، نبّه على مباينة صفاته تعالى لصفات خلقه بقوله : ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ والصفات الامكانية الذميمة من الحاجة إلى الولد والفرح بالذكر وكرامة البنات ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواجب الوجود ﴿الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ من مثل الممكنات والصفة الفائقة على صفات الكائنات من وجوب الوجود الملازم للكمال من جميع الجهات والتنزّه عن الحاجة إلى الولد وعن سائر النقائص ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيء ، القادر على إنفاذ إرادته ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما هو الأصلح ، فيجازيهم على أحكامهم السيئة وأعمالهم القبيحة حسب استحقاقهم وشناعة أعمالهم.

﴿وَلَوْ يُوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَآئِبَةٍ وَلَكِنْ يُوَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ

مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١)﴾

ثم بيّن الله تعالى تفضّله عليهم بتأخير عذابهم مع غاية استحقاقهم له بقوله : ﴿وَلَوْ يُوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ ويعاقبهم على كفرانهم وعصيانهم في الأرض ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ شيئاً ﴿مِنْ دَآئِبَةٍ﴾ ومتحرّك بالإرادة ، أمّا الانسان فبظلمه ^(١) ، وأمّا سائر الحيوانات فلا تمّا خلقت للانسان ، فإذا هلك الانسان فلا فائدة في وجود الحيوانات ، أو لأنّ الانسان إذا هلك انقطع المطر والنبت.

عن أبي هريرة : أنّه سمع رجلاً يقول : الظالم لا يضرّ إلّا نفسه فقال : لا والله ، بل إنّ الحبارى ^(٢) لتموت في وكرها بظلم الظالم ^(٣) .

وعن ابن مسعود : أنّه قال : كاد الجعل ^(٤) يهلك في حجره بذنب ابن آدم ^(٥) . ﴿وَلَكِنْ يُوَخَّرُهُمْ﴾ ويمهلهم ﴿إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وانقضاء العمر المقدّر لهم ، ليتوالدوا ويخرج من أصلابهم الذراري

(١) في النسخة : فيظلمهم.

(٢) الحبارى : طائر طويل العنق رمادي اللون على شكل الإوزة.

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٥٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٢ ، تفسير روح البيان ٥ : ٤٥ .

(٤) الجعل : حشرة كالخنفساء تكثر في المواضع الندية.

(٥) تفسير الرازي ٢٠ : ٥٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٢ ، تفسير روح البيان ٥ : ٤٥ .

الذين اقتضت الحكمة وجودهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المسمى ، وانقضاء عمرهم المقدّر ، وبلغ وقت هلاكهم ﴿لَا يَسْتَأْجِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ ودقيقة ﴿وَلَا يَسْتَفْدِمُونَ﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ

لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ * تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَهُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٢) و (٦٣)﴾

ثم أكّد سبحانه ذمهم بقوله : ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ ويثبتون ﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من الشريك والبنات ﴿و﴾ مع ذلك ﴿تَصِفُ﴾ وتقول ﴿أَلْسِنُهُمُ الْكُذِبَ﴾ وهو قولهم : ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ العاقبة ﴿الْحُسْنَى﴾ من الجنة والنعم ، إن كان حشر في الآخرة . وقيل : هذا قول المقرّين بالبعث ^(١) .

ثم ردّهم الله بقوله : ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقا ﴿أَنَّ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ ومتروكون أو منسيون فيها ، أو معجلون إليها .

ثم أنّه تعالى بعد بيان غاية جهل هذه الامة ، أخذ في تسليّة نبيه صلى الله عليه وآله بقوله : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسلا كثيرة ﴿إِلَى أُمَمٍ﴾ كثيرة ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما أرسلناك إلى هذه الامة ، فدعوههم إلى دين الحق كما دعوتهم إليه ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة من إنكار التوحيد والنبوة والمعاد وتكذيب الرسل والاستهزاء بهم ، ولذا لم يجيبوا الرسل ، وثبتوا على ما هم عليه بتسويل الشيطان ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ وقرينهم أو مطاعهم ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي يكذبون الرسل أو يدعوهم النبي إلى دينه ، والمعنى : زين الشيطان أعمال الكفار في الأعصار السابقة في نظرهم ، وهو وليّ الكفار في عصره ، أو المراد من اليوم الدنيا أو القيامة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة .

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٤) و (٦٥)﴾

ثم أنّه تعالى بعد تهديد الكفار بيّن تمامية الحجّة عليهم بإنزال القرآن بقوله : ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العظيم لغرض من الأغراض ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد والنبوة والمعاد والحلال والحرام ﴿و﴾ ليكون ﴿هُدًى﴾ لهم من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وسببا للفوز بالمقامات

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٦٠ .

العالية الانسانية والدرجات الرفيعة في الجنة ﴿لَقَوْمٌ يُؤْمِنُونَ﴾ به.

ثم بيّن سبحانه أنّ القرآن العظيم رافع للاختلاف ، وكان من أعظم ما اختلف فيه هو التوحيد ،
شرع في الاستدلال عليه بقوله : ﴿وَاللّٰهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأثبت به فيها أنواع
النبات بعد يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من إنزال المطر وإحياء الأرض والله ﴿لَا يَئِسُّ﴾ ودلائل واضحة
﴿لَقَوْمٌ يَسْمَعُونَ﴾ تلك الدلائل سماع تدبّر وإنصاف.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا

خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٢٦)

ثم استدللّ سبحانه على توحيده بعجائب أحوال الحيوانات بقوله : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي
الْأَنْعَامِ﴾ الثلاثة ^(١) والله ﴿لَعِبْرَةً﴾ ودلالة مؤدّية إلى العلم بالحق ، وهي أنا ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ ونشربكم ﴿مِمَّا
فِي بُطُونِهِ﴾ وبعض ما في أجوافه ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وسرجين ﴿وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ صافيا من أجزاءهما
وأوصافهما و﴿سَائِغًا﴾ وسهل المرور في الحلق ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ قيل : خلق الله اللبن في مكان وسط بين
مكان الفرث ومكان الدم ^(٢) .

وعن ابن عباس : إذا استقرّ العلف في الكرش صار أسفله فرثا ، وأعلاه دما ، وأوسطه لبنا ،
فيجري الدم في العروق ، واللبن في الضرع ، ويبقى الفرث كما هو ، وذلك هو قوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ
فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث ^(٣) .

قيل في توجيهه : إنّ اللبن يكون من صافي الغذاء والعلف المنجذب إلى الكبد ، فبعد تصرّف
الكبد فيه يجري إلى الضرع مقدار منه فيصير لبنا ، والزائد عليه يجري في الأوردة ^(٤) .

عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله ﷺ : ليس أحد يغصّ بشرب اللبن ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ
يقول : ﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا﴾ » ^(٥) .

عن النبي ﷺ : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيرا منه . وإذا
شرب لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، فإني لا أعلم شيئا أنفع في الطعام والشراب منه » ^(٦) .

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١) وهي الإبل والبقر والضأن.

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٤٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٦٤ / المسألة الثالثة.

(٤) تفسير البيضاوي ١ : ٥٤٩ .

(٥) الكافي ٦ : ٣٣٦ / ٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٢ .

(٦) تفسير روح البيان ٥ : ٤٨ .

لَايَةُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

ثمّ استدلّ سبحانه على توحيده بعجائب حالات النباتات ومنافعها بقوله : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ نسقيكم ونطعمكم ، حيث إنكم ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ لانتفاعكم ﴿سَكْرًا﴾ وخمرا .
عن الصادق عليه السلام : « أُنْزِلَتْ قَبْلَ آيَةِ التَّحْرِيمِ فَنَسِخَتْ بِهَا ^(١) » . وقيل : إنّها لا تدلّ على حلّيته ، لأنّ الخطاب للمشركين ، وكان الخمر من أشرّيتهم ^(٢) ، بل أشار سبحانه إلى حرمة بقوله : ﴿وَرِزْقًا﴾ وطعاما ﴿حَسَنًا﴾ من الربّ ^(٣) والخلّ والدبس وغيرها ، فإنّ توصيف الرزق بالحسن في مقابل السكر مع كونه حسنا عند العرب بمقتضى الشهوة ، يدلّ على عدم كون السكر حسنا بحسب الشرع .
وقيل : إنّ المراد بالسكر الخلّ ، وعليه القمّي ^(٤) وقيل : إنّ المراد به مطلق الطعام ^(٥) .

ثمّ لما ذكر تلك النعم التي يكون كلّ واحد منها دليلا قاطعا على توحيده ، حتّى العقلاء على التفكير فيها بقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَايَةً﴾ عظيمة ودلالة واضحة على التوحيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنّهم إذا التفّطوا إليها ، علموا بالضرورة أنّ المدبّر ليس إلّا الواحد الحكيم القدير .

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ (٦٨) و (٦٩)

ثمّ استدلّ سبحانه بعجائب حالات النحل وإخراج العسل منها ، وهو مركّب من عجائب الحيوان والنبات بقوله : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وزنبور العسل ، بأن أهمّها وعلمّها وقرّر في نفسها ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ لنفسك ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ ومساكن تأوي إليها ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ويرفعونه من الأرض من كرم أو سقف أو جدار .

وقيل : كلّ ذباب في النّار إلّا ذباب العسل ^(٦) . وإنّما سمّيت نحلا لأنّ الله تعالى نحلّ الناس العسل الذي يخرج منها ، ومن عجائبها أنّها تبني بيوتا مسدّسة متساوية الأضلاع لا يزيد بعضها على بعض بحيث لا يبقى بينها فرج خالية ، ولو كانت مشكّلة بغيرها لبقيت بينها بالضرورة فرج خالية ضائعة .

(١) تفسير العياشي ٣ : ١٤ / ٢٣٩٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ٦٨ .

(٣) الربّ : عصارة التمر والعنب المطبوخة .

(٤) تفسير القمّي ١ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٢ .

(٥) تفسير الرازي ٢٠ : ٦٨ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٠ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٥ .

(٦) تفسير روح البيان ٥ : ٥٠ .

ثم أنه تعالى بعد بيان مسكنها بين مأكولها بقوله : ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي عندك من الحلو والحامض ، فتأكل الأجزاء اللطيفة الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار ، وتمص الثمرات الرطبة والأشياء العطرية ، فيوحي إليها أنك إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك ﴿فَاسْأَلِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ والطرق التي ألهمك الرجوع فيها إلى بيوتك التي في الجبال والشجر وغيرهما ، حال كون تلك السبل ﴿ذُلَّالًا﴾ وسهلة السلوك فيها بلا اشتباه ولا انحراف ، وفي ذكر ربك وإضافة السبل إليه إشعار بأنه لو لا تربيته تعالى لما اهتديت إليها.

ثم بين الله تعالى نتيجة الالهامات بقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا﴾ بالقئ ﴿شَرَابٌ﴾ وعسل مائع ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ حسب الاختلاف بين النحل كما قيل ، فالشباب منها يقيء الأبيض ، وكهلها يقيء الأصفر ، وشبيهها تقيء الأحمر ^(١) ، وقد يكون الاختلاف بسبب اختلاف لون مأكولها ، وخاصيته أن ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾ عظيم ﴿لِلنَّاسِ﴾ وبرء من الأوجاع التي يعرف شفاؤها منه .
وقيل : هو إما شفاء بنفسه كالأفراض البلغمية ، وإما مع غيره كما في سائر الأمراض ، إذ قلما معجون إلا والعسل جزء منه ^(٢) .

وقيل : إنه بنفسه أو مع الخلط بالأدوية الحارة شفاء للأمراض البلغمية ، ومع الخلط بالحوامض شفاء للأمراض الصفراوية ، ومع الخلط بالأدهان شفاء للأمراض السوداوية ، وعن (اعتقادات الصدوق) اعتقادنا في العسل أنه يشفي الأمراض البلغمية ^(٣) .
أقول : عليه يكون تنوين الشفاء للتنكير ، وفيه أن الظاهر من كونه تعالى في مقام مدحه أنه تعالى جعله بالخاصية شفاء لجميع الأمراض كالتربة الحسينية ، ولا ينافي ذلك عدم ظهور هذا الأثر منه كثيرا ؛ لأنه من باب المقتضي الذي يجتمع مع ألف مانع ، كما لا يحصل الشفاء من التربة المباركة في بعض الموارد.

روي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : إن أخي قد اشتكى بطنه ؟ فقال : « اسقه عسلا » فسقاه [عسلا] فما زاده إلا استطلاقا ، فعاد إلى النبي ﷺ ، فذكر له ذلك ، فقال : « اسقه عسلا » فسقاه ثانيا فما زاده إلا استطلاقا ، فرجع فقال : يا رسول الله ، [سقيته] فما نفع ؟ فقال : « اذهب فاسقه عسلا ، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك » فسقاه فشفاه الله ^(٤) ، الخبر .

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٥٢ .

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٠ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٦ ، تفسير روح البيان ٥ : ٥٢ .

(٣) باب ٤٤ من اعتقاداته والاحاديث الواردة في الطب .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ٧٣ ، تفسير روح البيان ٥ : ٥٣ .

وفي الحديث : « أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الشِّفَاءَ فِي أَرْبَعَةٍ : الْحَبَّةِ السَّودَاءِ ، وَالْحَجَّامَةِ ، وَالْعَسَلِ ، وَمَاءِ السَّمَاءِ » (١) .

وجاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وشكا إليه سوء الحفظ ، فقال : « أترجع إلى أهل ؟ » قال : نعم. فقال : « قل لها تعطيك من مهرها درهمين عن طيب نفس ، فاشترى لهما لبنًا وعسلًا ، واشترى لهما مع شربة من ماء المطر على الرِّيقِ ترزق حفظًا » (٢) .

وعنه عليه السلام : « لعق العسل شفاء من كلِّ داء ، ثمَّ تلا هذه الآية ، وقال : « هو مع قراءة القرآن ومضغ اللِّبان - وهو الكندر - يذيب البلغم » (٣) .

وعنه عليه السلام : « ثلاثة يزدن في الحفظ ، ويذهبن بالبلغم » وذكر هذه الثلاثة (٤) .

وعن النبي صلى الله عليه وآله : « إن يكن في شيء شفاء ، ففي شرطة الحَجَّامِ ، أو في شربة عسل » (٥) .

والقمي : عن الصادق عليه السلام في تأويل الآية : « نحن والله النحل الذي أوحى الله إليه » (٦) **﴿أَنْ**

اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أمرنا أن نتخذ من العرب شيعة **﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾** يقول من العجم **﴿وَمِمَّا يَغْرِشُونَ﴾** يقول من الموالي والذي **﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾** أي العلم الذي يخرج منَّا إليكم « (٧) .

وعنه عليه السلام أيضا : « النحل : الأئمة ، والجبال : العرب ، والشجر : الموالي عتاقة (٨) ، ومما يعرشون : الأولاد والعبيد ممن لم يعتق وهو يتولَّى الله ورسوله والأئمة ، والشراب المختلف ألوانه : فنون العلم الذي قد علّم الأئمة شيعتهم ، فيه شفاء للناس [يقول : في العلم شفاء للناس] والشيعه هم الناس ، وغيرهم الله أعلم بهم ما هم ، ولو كان كما يزعم أنّه العسل الذي يأكله الناس ، إذا ما أكل منه وما شرب ذو عاهة إلّا شفي ، لقول الله تعالى : **﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾** ولا خلف لقول الله ، وإتّما الشفاء في علم القرآن لقوله : **﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾** (٩) فهو شفاء ورحمة [لأهله لا شك فيه ولا مرية ، وأهله أئمة الهدى الذين قال الله : **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾** (١٠) .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أمر النحل **﴿لَايَةً﴾** وحجة واضحة **﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** في دقائق صنعه.

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٥٣ .

(٢) الخصال : ٦٢٣ / ١٠ ، الكافي ٦ : ٣٣٢ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٣ .

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٨ / ١١١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٣ .

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢ : ٣٥ / ٨٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٣ .

(٥) في المصدر : التي أوحى الله إليها .

(٦) تفسير القمي ١ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٤ .

(٨) المولى عتاقة : الذي اعتق من الرقّ .

(٩) سورة الاسراء ١٧ : ٨٢ .

(١٠) تفسير العياشي ٣ : ١٥ / ٢٤٠٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٤ ، والآية من سورة فاطر ٣٥ : ٣٢ .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ

شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠)﴾

ثم استدلّ بخلقة الانسان بقوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وأوجدكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد مدّة من التعيش ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويميتكم على اختلاف أعماركم ، فمنكم من يموت في الصّغر ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ وأخسته وهو الهرم الذي يعود الانسان فيه إلى حال الصّغر من ضعف البدن والقوى والعقل والفهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه قال : « أرذل العمر خمس وسبعون سنة » (١) .

وعن الصادق عليه السلام ، عن أبيه عليه السلام : « إذا بلغ العبد مائة سنة فذلك أرذل العمر » (٢) .

أقول : لعلّ الاختلاف من جهة اختلاف الأشخاص.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ﴾ كثير ﴿شَيْئًا﴾ من العلم أو المعلومات ، وقيل : يعني لئلا يعقل بعد عقله

الأول شيئا (٣) .

عن القمي : إذا كبر لا يعلم ما علمه قبل ذلك (٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ﴾ على إبقاء الهرم الفاني وإماتة الشابّ القويّ النّشط ، ولو كان ذلك بمقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلْيَسَ اللَّهُ يُجْحَدُونَ (٧١)﴾

ثمّ أنّه تعالى بعد ذكر تفاوت الآجال ذكر كثرة تفاوت أرزاق الناس بقوله : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آخر ﴿فِي الرِّزْقِ﴾ والنّعم الدنيوية ، حيث إنكم ترون العاقل الكئيس الفطن في جميع الامور يجتهد مدّة عمره ، ويدبّر في طلب القليل من الدنيا ، ولا يتيسّر له ، بل يعيش في غاية العسرة ، والجاهل الغيّيّ تقبل عليه النّعم وتفتتح عليه أبوابها ، ويحصل له كلّما أراد في الحال بأيسر وجه ، ولو كان المؤثّر في ازدياد الرزق العقل والتدبير والجهد ، لكان الأمر بالعكس.

فعلم أنّ التفاوت بتقدير العزيز العليم ، كما قال تعالى : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٥) فاذا علم أنّ الرازق هو الله ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ في الرزق على غيرهم ﴿بِرَادِّي﴾ معطي ﴿رِزْقِهِمْ﴾ وما أعطاهم الله من النّعم ﴿عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من العبيد والإماء ، بل كلّ من المالك

(١) مجمع البيان ٦ : ٥٧٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٤ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٧٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٧ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٥ .

(٥) الزخرف ٤٣ : ٣٢ .

والمملوك يرتزقون من رزق الله ﴿فَهُمْ﴾ جميعا من المالك والمملوك في الارتزاق برزق الله وتقديره ﴿فِيهِ سَوَاءٌ﴾ كلّ يرتزق رزقه المقدر له ، وإتّما الفرق في مجراه ؛ فمجرى رزق المالك ملكه ، ومجرى رزق المملوك يد ماله ، فلا يحسنّ المالك أنّهم رزاق ممالكهم.

وقيل : إنّ المقصود توبيخ المالك ، والمعنى فلم لا يردّ الموالي فضل رزقهم على ممالكهم حتى يتساووا في المطعم والملبس.

عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ : « إنّما هم إخوانكم فاكسوهم ممّا تكتسون ^(١) ، وأطعموهم ممّا تطعمون » قال : فما رأى بعد ذلك عبد أحد إلّا ورداءه كردائه وإزاره كإزاره ^(٢) .

وقيل : إنّ الآية ردّ على عبدة الأصنام ^(٣) ، حيث جعلوها شركاء لله وسوّوا بينه وبينها ، وتقديره أنّ الله فضل المالك على ممالكهم ، بحيث لا يقدر المملوك على ملك مع مولاه ، ولا تجعلون عبيدكم معكم سواء في الملك ، فكيف تجعلون هذه الجمادات مع الله سواء في العبودية ، فالمعنى فما الذين فضلوا بجاعلي رزقهم لعبيدهم حتى يكونوا مع عبيدهم في الملك والرزق سواء.

عن ابن عباس : نزلت في نصارى نجران حيث قالوا : عيسى ابن الله ، فالمعنى أنّكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء ، فكيف جعلتم عبيدي ولدا لي وشريكا في الألوهية ؟ ! ^(٤) بقوله : ﴿أَفَبِعِغْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ويكفرون.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً

وَزَرَّعَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِغْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)﴾

ثمّ استدللّ سبحانه بخلق الأزواج والأولاد بقوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ ومن جنسكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها ، وتأنسوا بها.

عن القميّ : يعني خلق حواء من آدم ^(٥) .

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قيل : هم الأختان ^(٦) . وقيل : هم أولاد الأولاد ^(٧) .

وقيل : هم الأعوان والخدم من قبل الزوجة فيشمل الكلّ ^(٨) .

(١) في جوامع الجامع : تلبسون.

(٢) جوامع الجامع : ٢٤٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٥ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٧٩ / القول الثاني.

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ٧٩ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٨٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٦ .

(٦ و ٧) تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٨ .

(٨) تفسير الرازي ٢٠ : ٨١ .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿بَيْنَ وَحَفْدَةٍ﴾ قال : « هم الحفدة ، وهم العون [منهم] يعني البنين »^(١).

وعنه عليه السلام في رواية اخرى قال : « الحفدة بنو البنت ، ونحن حفدة رسول الله ﷺ »^(٢).

وعنه أيضا : « هم أختان الرجل على بناته »^(٣).

ثم لما ذكر سبحانه التفضيل في الرزق ولم يبين فضله وصفه هنا بقوله : ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٤) والذائد كالثمار والفواكه والحبوب والحيوات والأشربة كالعسل وأمثاله.

ثم أنكّر سبحانه عليهم الشرك مع ظهور دلائل التوحيد بقوله : ﴿فَالْبَاطِلُ﴾ الذي أظهره الأصنام والشرك ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مع تلك الحجج الباهرة على التوحيد ﴿وَبِعَمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بنسبتها إلى غيره من الأصنام والأنداد التي زعموها آلهة.

وقيل : كفرانهم النعم تحريمهم البحيرة^(٥) وأخواتها^(٦).

وقيل : نعمة الله رسول الله ﷺ ، وكتابه ودينه ، وكفرهم بها إنكارها^(٧).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا

يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٣) و (٧٤)﴾

ثم لما ذكر سبحانه الدلائل على التوحيد ، ونبّههم على ما رزقهم من العمر والمال والأزواج والأولاد والطيبات من المأكولات والمشروبات ، ذمّ المشركين ووجّهم بقوله : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مع وفور رزقه عليهم ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ يسيرا من المطر والنبات ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يملكوه.

وقيل : إنّ ضمير الجمع راجع إلى المشركين ، والمعنى أنّ المشركين مع حياتهم وشعورهم لا يقدرّون على تملك الرزق ، فكيف بالجمادات ؟^(٨).

ثم قيل : إنّ المشركين كأهمّ قالوا : كما أنّ الأصاغر يخدمون الأكابر ، والأكابر يخدمون الملوك ، كذلك نحن نعبد الأصنام والأصنام يعبدون الله ، لأنّه تعالى أجلّ وأعظم من أن نعبدّه^(٩) ، فردّ الله عليهم

(١) تفسير العياشي ٣ : ١٦ / ٢٤٠٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٦.

(٢) تفسير العياشي ٣ : ١٦ / ٢٤٠٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٦.

(٣) مجمع البيان ٦ : ٥٧٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٦.

(٤) البحيرة : الناقة كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن شقوا اذنها ، وأغفوها من أن ينتفع بها ، ولم يمنعوها من مرعى.

(٥) تفسير الرازي ٢٠ : ٨١.

(٦) جوامع الجامع : ٢٤٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٦.

(٧) تفسير البيضاوي ١ : ٥٥١ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٢٨.

(٨) تفسير الرازي ٢٠ : ٨٣.

بقوله : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ ولا تشبهوه بخلقه ، وقيل : يعني لا تجعلوا لله مثلاً ، لأنه واحد لا مثل له ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد مذهب الشرك وبطلان دليله وعظم عقوبة القائلين به ، ولذا ينهاكم عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ، ولو علمتموه لتركتموه ، أو المراد أنّ الله يعلم ضرب الأمثال وأنتم لا تعلمونه.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٥) و (٧٦)﴾

ثمّ ضرب سبحانه المثل لتوضيح التباين بينه وبين ما أشركوه به بقوله : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعاً ، وهو أن تفرضوا ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ لا شيء له و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من التصرفات ﴿وَمَنْ﴾ كان حرّاً كريماً ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا﴾ بإنعامنا وكرّمناه بطريق الملك ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ واسعاً حالاً طيباً مرضياً عنده وعند كلّ أحد ﴿فَهُوَ﴾ بكرمه وسلطنته في التصرف في رزقه ﴿يُنْفِقُ مِنْهُ﴾ على الغنيّ والفقير تفضلاً وكرماً ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وخفية وعلانية كيفما أراد ، وأيّ قدر أراد بلا مانع وحاجز ، فبعد فرض هذا المملوك العاجز ، وهذا الحرّ الغنيّ الكريم ، أنصفوا أيها العقلاء ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ لا والله لا تساوي بينهما أبداً ، إذن فكيف تسوّون بين الأصنام التي هي أعجز وأفقد من كلّ شيء ، وبين الله القادر الغنيّ بالذات الكريم الذي لا تناهي لكرمه ، حيث إنّه يرزق من يشاء ما يشاء كيف يشاء بغير حساب .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه غير المتناهية لا يشركه فيها غيره ، ولا يليق بالحمد من سواه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ وهم المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ عدم التساوي بينهما ، ولذا يعبدون الجُمادات ويسوّون بينها وبين خالق الموجودات ، ويحمدون الأصنام ، ويكفّرون وليّ الأنعام .

ثمّ اعلم أنّ هذا المثل منطبق على الكافر المحروم عن عبادة الله وطاعته ، والمؤمن المطيع لله القائم بعبوديته المشفق على خلقه المنفق عليهم ، وكذا على الجاهل الفاقد للعلم ، والعالم العارف بالله وأحكامه ، فالأولان كالعبد الذليل الفاقد لكلّ شيء ، والثانيان كالحرّ الواحد المنفق .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر أدلّ على المقصود ، وهو أن تفرضوا ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ لا قوة له

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٨٣ .

على التكلم من حين ولادته و﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وأمره متعلق بنفسه أو بغيره ﴿وَهُوَ﴾ لعجزه في جميع الأمور ﴿كُلَّ﴾ وثقل ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ في ما يحتاج إليه و﴿أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ﴾ مولاه ، وحيشما يرسله لكفاية أمر ولو كان غير مهم ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا يفعل ما فيه صلاح ، إذن قولوا وأنصفوا ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ﴾ يكون منطقيا ذكيا ذا رأي وكفاية وعقل ورشد بحيث ﴿يَأْمُرُ﴾ غيره ﴿بِالْعَدْلِ﴾ وحسن الأخلاق والأعمال ، وما فيه صلاح الحال والمال ﴿وَهُوَ﴾ بنفسه مضافا إلى نفعه العام مقيم ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمنهج القويم من صحة العقائد وحسن الأخلاق والأعمال ، لا والله لا يمكن تساويهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧٧)

ثم أنه تعالى بعد بيان غاية البينونة بين الجاهل العاجز والعالم القادر على كل شيء بضرب المثلين ، بين كمال علمه وقدرته بقوله : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكان يختص به العلم بخفياهما ﴿وَمَا أَمُرُ﴾ إيجاد ﴿السَّاعَةِ﴾ والقيامة أو جميع شؤونها بدوا وختما عنده تعالى : ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وحركة خفيفة للعين أو حركة الحدقة من الفوق إلى التحت ، أو طرف العين في السهولة والسرعة ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وأسرع وأسهل لاحتياج حركة العين إلى آتات متعاقبة ، وتوجد القيامة بأمره في آن واحد ، وكلمة (أو) للاهتمام على المخاطبين ، أو بمعنى بل ، ثم قرر قدرته بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ابتداء الخلق وإعادته.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾

﴿وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

ثم عاد سبحانه إلى الاستدلال على توحيده وقدرته وحكمته بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ﴾ بقدرته ﴿مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بالولادة حال كونكم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من البديهيات والنظريات والحسيات والعقليات من امور الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ﴾ وأنشأ ﴿لَكُمْ﴾ في الأرحام ﴿السَّمْعَ﴾ لاستماع مواعظ الله والعلوم النافعة ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ لرؤية آيات الله ومعجز الأنبياء وقراءة الكتب ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لفهم معارف الله ودرك العلوم العقلية ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الولادة وتركيب الأعضاء والقوى فيكم بأن تستعملوها فيما خلقت له.

قيل : أول ما يبدو في الجنين حسن السمع ثم البصر ^(١) .

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

ثم استدلَّ سبحانه بعجائب أحوال الطيور بقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء المشركون ولم ينظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ﴾ حال كونها ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ ومذللالات للطيران ﴿فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ وفضائها أو هوائها بأجنحتها وأسباب طيرانها التي خلقها لها ، ومع ذلك ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ ويحفظهنَّ من السقوط حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهنَّ شيء ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ القادر الحكيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من تسخير الطير للطيران وإمساكها في الجوّ على خلاف طبع الجسم ﴿لآيَاتٍ﴾ وحجج باهرة على قدرة خالقها وتديره وحكمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فانهم المنتفعون بها بالتفكر فيها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠)

ثم أتته تعالى بعد الاستدلال بالنعم الداخلية على الانسان ، استدلَّ بالنعم الخارجية بقوله : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ﴾ وخلق نفعا ﴿لَكُم﴾ وصلاحا لحالككم بعضا ﴿مِّن بُيُوتِكُمْ﴾ وهي البيوت المبنية من الأحجار والطين والأخشاب ﴿سَكَنًا﴾ ومأوى تستريحون فيه وتطمئنون به وقت إقامتكم لعدم إمكان نقلها من مواضعها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ والأدم المعمولة منها ﴿بُيُوتًا﴾ اخرى كالخيام والأحبية والفساطيط التي ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وتستسهلون حملها ونقلها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وسيركم في البوادي والأسفار ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووقت حضوركم في البلد ، توقّفكم في مكان تريدون الوقوف فيه ﴿وَو﴾ جعل ﴿مِّن أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا﴾ ولوازم البيت من الفرش والملاحف وأمثالهما. عن ابن عباس : يريد طنافساً ^(٢) وبسطا وثيابا وكسوة ^(٣) ﴿وَمَتَاعًا﴾ وأشياء اخر ، فينتفع بها ﴿إِلَى حِينٍ﴾ قضاء الوطر ، أو حين البلى ، أو حين الموت ، أو حين بعد حين ، أو حين القيامة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٦٣ .

(٢) الطَّنَافِس : جمع طنفسة : البساط والتمرقة فوق الرحل .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٢ .

سَرَايِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَايِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُسَلِّمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ
يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٢) و (٨٣)

ثم لما كانت أرض الحجاز شديدة الحر ، استدل على توحيدته بخلق ما يحفظ به من الحر بقوله
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار والجبال والغمام ﴿ظِلَالًا﴾ يتقون به حرّ الشمس. القمي ، قال
: ما يستظل به ^(١) . ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ ومحافظ من الحر كالكهوف والغيران والستروب
^(٢) ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَايِلَ﴾ وثيابا من القطن والصوف وغيرها ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ وتحفظكم منه ﴿وَسَرَايِلَ﴾
كالدروع والجواشن ^(٣) ﴿تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ وتحفظكم من الطعن والضرب ونحوهما مما يضركم في الحروب.
قيل : إن الله تعالى ذكر نعمه الفائضة على جميع الطوائف ، فبدأ بما يخصّ المقيمين حيث قال
﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ ^(٤) ثم بما يختصّ بالمسافرين ممّن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال :
﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ ^(٥) ، ثم بما يعمّ من لا يقدر على ذلك ولا بما دونه ^(٦) إلا الظلال
حيث قال : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ ثم بما لا بدّ منه لأحد حيث قال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَايِلَ
تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ثم بما لا مناصّ عنه في الحرب حيث قال : ﴿وَسَرَايِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ ^(٧) .
ثم قال : ﴿كَذَلِكَ﴾ الإتمام البالغ لنعمه الجسمانية ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ الدنيوية والدينيّة ﴿عَلَيْكُمْ﴾
لتنظروا إليها وتتفكروا فيها ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تعرفون حقّ منعمها و﴿تُسَلِّمُونَ﴾ وتنقادون لربوبيته وأحكامه ، أو
تسلمون من الشرك.

عن ابن عباس : لعلكم يا أهل [مكة] تخلصون لله الربوبية ، وتعلمون أنّه لا يقدر على هذه
الإنعامات أحد سواه ^(٨) .

وقيل : يعني أعطيتكم هذه النعم لتتفكروا فيها فتؤمنوا فتسلموا من عذاب الله ^(٩) .
﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يا محمد ، وأعرضوا عن التفكر في الآيات والنعم ، ولم يقبلوا قولك ، وآثروا الدنيا
ومتابعة الآباء ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ والتبليغ الموضح للحق لا إجبارهم على القبول ، وقد

(١) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٨ .

(٢) الستروب : جمع سرب ، الحفير تحت الأرض لا منفذ له .

(٣) الجوشن : الدرع .

(٤) و (٥) النحل ١٦ : ٨٠ .

(٦) في تفسير أبي السعود : ولا يأويه .

(٧) تفسير أبي السعود ٥ : ١٣٣ .

(٨) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٤ .

(٩) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٤ .

فعلت ما عليك ، وبقي ما علينا من تعذيبهم على العناد والإصرار على الكفر.

ثم ذمهم سبحانه بغاية الكفران بقوله : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عليهم من جميع الوجوه ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ ويكفرونها بنسبتها إلى الأصنام وعبادتها ، مع أنّ حق معرفة النعم أن يقرّوا بها ويشكروها بتخليص العبادّة لله وصرفها فيما فيه رضاه ، وقيل : نعمة الله نبوة محمد ﷺ ^(١) ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لتلك النعمة والجاحدون لها.

قيل : نسبة الكفر الى الأكثر لكون بعضهم جاهلين بصدق النبي ﷺ غير معاندين للحق ^(٢) .
وقيل : إنّ المراد بالأكثر الجميع ^(٣) .

عن الصادق عليه السلام : « نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده ، وبنا فاز من فاز » ^(٤) .
وفي رواية عنه عليه السلام : « يعني يعرفون ولاية علي عليه السلام » ^(٥) .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٤) و (٨٧)﴾

ثم هدّد الكافرين بنعمته بأهوال القيامة بقوله : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشر ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وجماعة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد بإيمان مؤمنيهم وكفر كافرينهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد الشهادة ﴿لَا يُؤْذَنُ﴾ من قبل الله ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار عن كفرهم وعصيانهم ، لكذبهم وتمامية الحجّة عليهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم عمل موجب لرضا ربهم عنهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم ، لكون ذلك اليوم يوم الجزاء لا العمل ، بل يؤمرون بالدخول في النار ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر والطغيان ﴿الْعَذَابَ﴾ الشديد ضجّوا وسألوا تخفيفه ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ثقل العذاب وشدّته ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يمهلون ساعة ليستريحوا ، بل يزيد عذابهم مع أصنامهم ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله الشياطين والأصنام التي جعلوها ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ وأهنتهم ﴿قَالُوا﴾ إحالة لعذابهم إليها ، أو تعجّبا من حضورها ، أو إظهارا لخطابهم في عبادتها ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ الأصنام ﴿شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا﴾ في الدنيا

(١) تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٤ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٣٤ .

(٢ و ٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٥ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٩ .

(٥) الكافي ١ : ٣٥٤ / ٧٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٤٩ .

﴿نَدُّعُوا﴾ هم ونعبدهم ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ ومما سواك ، فأنتطق الله الأصنام ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ وأجابوهم بالكلام ، وقالوا : ﴿إِنكُمْ﴾ في دعوى عبادتكم إيانا والله ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ بل عبدتم أهواءكم ، أو لكاذبون في دعوى أننا شركاء الله في العبودية واستحقاق العبادة ﴿وَأَلْقُوا﴾ أولئك المشركون ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ والانقياد لربوبيته وأمره وأحكامه بعد ما كانوا في الدنيا مستكبرين ومستنكفين عنه ﴿وَضَلَّ﴾ وضاع ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ على الله من أنه راض بعبادة الأصنام ، وأنه يقبل شفاعتهم في حق عبادهم وقيل : يعني ذهب [عنهم] ما زَيَّن لهم الشيطان من أنَّ الله شريكا وصاحبة وولدا ^(١) .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا

يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨)

ثمَّ أنَّه تعالى بعد تهديد المشركين ، هَدَّدَ الصَّادِّينَ منهم عن سبيل الله بقوله : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ومنعواهم ﴿عَنْ﴾ سلوك ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والدخول في دين الاسلام ﴿زِدْنَاهُمْ﴾ في جهنم ﴿عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ لأنهم زادوا على ضلال أنفسهم إضلال غيرهم ، فعليهم مثل عذاب أتباعهم ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ في الأرض بترويج الباطل وتشبيد الكفر ودعوة الناس إليه .

القمي ، قال : كفروا بعد النبي ﷺ ، وصدّوا عن أمير المؤمنين عليه السلام ^(٢) .

أقول : هذا تأويل لا تفسير .

عن ابن عباس ، قال : المراد بتلك الزيادة خمسة أُنْهار من نار تسيل من تحت العرش يعدّون بها ثلاثة على مقدار الليل ، واثنان على مقدار النهار ^(٣) .

وقيل : زدنهم عذاباً بحَيَّاتٍ وعقارب كأمثال البخت ^(٤) لكلِّ عقرب ثلاثمائة فقرة ، في كلِّ فقرة ثلاثمائة قلّة ^(٥) من سمّ ، ولها انياب كالنخل الطّوال ، فيستغيثون بالهرب منها إلى النار ^(٦) .

وعن ابن جبير ، قال : زيادة عذابهم هي عقارب أمثال البغال ، وحَيَّاتٌ أمثال البخت ، تلسع إحداهنَّ اللّسعة فيجد صاحبها حمّتها ^(٧) أربعين خريفاً ^(٨)

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٨ ، تفسير روح البيان ٥ : ٦٩ .

(٤) البخت : الإبل الخراسانية .

(٥) القلّة : إناء من الفخار يشرب منه .

(٦) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٨ .

(٧) الحمة : سمّ كلّ شيء يلدغ أو يلسع ، والإبرة التي تضرب بها العقرب والزيتور ونحوهما .

(٨) تفسير روح البيان ٥ : ٦٩ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٣٥ ، ولم ينسبه إلى ابن جبير .

وقيل : يسألون الله تعالى ألف سنة المطر ليسكن ما بهم من شدة الحرّ ، فتظهر لهم سحابة ، فيظنون أنها تمطر ، فجعلت السحابة تمطر عليهم بالحيات والعقارب ، فيشتدّ ألمهم لأنّه إذا جاء الشرّ من حيث يؤمل الخير كان أعمّ ^(١) .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

ثمّ بالغ سبحانه بتهديد المشركين بأحوال القيامة بقوله : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ ونحشر فيه ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الامم وجماعة من جماعات الناس ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وحنسهم ، ليكون أقطع لعذرهم لكونه بينهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمّد ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الامم وشهادتهم.

نقل كلام الفخر الرازي في المراد من الشهيد

قال الفخر الرازي : إن كلّ جمع وقرن يحصل في الدنيا ، فلا بدّ أن يحصل فيهم واحد يكون شهيداً عليهم ، أمّا الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول فهو الرسول ﷺ بدليل قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ^(٢) ، وثبت أيضاً أنه لا بدّ في كلّ زمان بعد زمان الرسول ﷺ من الشهيد ، فتحصل من هذا أن عصراً من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس ، وذلك الشهيد لا بدّ وأن يكون غير جائز الخطأ ، وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ، ويمتدّ ذلك إلى غير النهاية ، وذلك باطل ، فثبت أنه لا بدّ في كلّ عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم ، وذلك يقتضى أن [يكون] إجماع الأئمة حجة ^(٣) .

أقول : هذا عين ما قاله أصحابنا الامامية ، فانهم يقولون : إنّه لا بدّ في كلّ عصر من وجود حجة معصوم ، إما ظاهر مشهود ، أو غائب مستور ، ولو لا ذلك لساخت الأرض بأهلها ، ولا حجة للاجماع إلا إذا علم موافقة رأيهم لرأي المعصوم ، وذلك المعصوم هو الشهيد ، وإنما الفرق بيننا وبين هذا القائل أنا نعرفه باسمه ونسبه ، وهو يحدده لعصبيته.

القمي في تفسير ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ قال : يعني على الأئمة عليهم السلام ، فرسول الله ﷺ شهيد على الأئمة عليهم السلام ، وهم شهداء على الناس ^(٤) .

وقال بعض العامة : المراد بذلك الشهيد هو أنّه تعالى ينطق عشرة [من] أعضاء الانسان حتّى تشهد عليه ، وهي : الأذنان والعينان واليدان والرجلان والجلد واللسان ، قال : والدليل عليه أنّه تعالى قال في

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٦٩ .

(٢) البقرة : ٢ / ١٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٨ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٠ .

صفة الشهيد أنه من أنفسهم^(١) . وفيه أنه خلاف للظاهر الذي هو كالصریح في الآية خصوصاً مع قوله: ﴿وَجُنَّا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾

ثم بين سبحانه عظمة شأن الرسول ﷺ الذي هو الشهيد عليهم بنزل القرآن عليه بقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ العظيم الكامل في الكتابية بحيث يحق أن يخص به اسم الكتاب لكونه ﴿تَبْيَاناً﴾ وإيضاحاً وافياً ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين ، أو لكل ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ، أو لكل شيء من أمور الدين والدنيا والآخرة ، وما كان وما يكون وما هو كائن ، كما هو الحق ، وإنما يستفيد منه الراسخون في العلم الذين نزل في بيوتهم وهم النبي والمعصومون عليهم السلام من ولده.

عن الصادق عليه السلام ، قال : « قال الله لموسى عليه السلام : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) فعملنا أنه لم يكتب له الشيء كله ، وقال الله لعيسى : ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾^(٣) . وقال محمد ﷺ : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٤) .

وعنه عليه السلام : « أتى لأعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأعلم ما في الجنة ، وأعلم ما في النار ، وأعلم ما كان وما يكون » ثم سكت هنيئة فرأى أن ذلك كبر على من سمعه منه ، فقال : « علمت ذلك من كتاب الله عز وجل ، إن الله يقول : « فيه تبيان كل شيء »^(٥) .

وعنه عليه السلام : « نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وما في الجنة وما في النار ، وما بين ذلك » ثم قال : « إن ذلك في كتاب الله » ثم تلا هذه الآية^(٦) .

وعنه عليه السلام : « أن الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء ، حتى والله ما ترك شيئاً يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول : لو كان هذا [انزل] في القرآن إلا [وقد] أنزله الله فيه »^(٧) . إلى غير ذلك من الروايات الدالة على أن في القرآن بيان كل شيء.

ثم لما كان أهم الأمور فائدة الهداية إلى الحق بالغ في توصيفه بها بحيث جعله عينها بقوله : ﴿وَهَدَى﴾ من الضلالة إلى الحق ، لاشتماله على المعارف الإلهية بأكمل وجه ، وعلى الأحكام الأخلاقية والعملية بأكمل التفصيل ، ﴿وَو﴾ ليكون ﴿رَحْمَةً﴾ للعالمين وفضلاً على الخلق أجمعين ، وإنما يكون حرمان الكفار بسبب تفریطهم وتقصيرهم ، ﴿وَو﴾ ليكون ﴿بُشْرَى﴾ بالفيوضات الدنيوية

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ٩٩ .

(٢) الأعراف : ٧ / ١٤٥ .

(٣) الزخرف : ٤٣ / ٦٣ .

(٤) تفسير العياشي ٣ : ١٩ / ٢٤١٧ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(٥) الكافي ١ : ٢٠٤ / ٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ ، في المصحف : تبياناً لكل شيء [النحل : ١٦ / ٨٩] ولعله نقل بالمعنى .

(٦) تفسير العياشي ٣ : ١٨ / ٢٤١٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(٧) الكافي ١ : ٤٨ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

والاخروية ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ والمؤمنين ، أو المنقادين لأحكامه خاصة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠).

ثم لما وصف سبحانه الكتاب بكونه تبياناً وهدى ، ذكر علم الأخلاق والأحكام فيه بكلمات موجزة جامعة لجميعها بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ﴾ في الكتاب الذي هو تبيان وهدى ﴿بِالْعَدْلِ﴾ والتوسط في الأخلاق وسائر الأمور ، والتسوية بين الناس في الحقوق وبين أنفسكم وغيركم في الرعاية ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إلى أنفسكم بحفظها عن ارتكاب القبائح والموبقات ، والسعي في تكميلها وتعليتها إلى المراتب العالية الإنسانية ، وإلى غيركم بتعليمهم العلوم الدينية ، وإرشادهم إلى السعادات الدنيوية والاخروية ، ومساعدتهم في أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ والأرحام وإعطائهم جميع ما يحتاجون إليه من العلم والمال ، وكل ما يؤهلون له من الكمال ، وإنما خصّه بالذكر مع دخوله في عموم الاحسان تنبيهاً على أهمية صلة الرحم وفضلها ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ والأمور الشديدة القباحة كالشرك والزنا وغيرهما من الكبائر ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وما ينتشر منه العقل السليم ويستقبحه مما لا يبلغ في القبح درجة الفحش ﴿وَالْبَغْيِ﴾ والظلم على الناس ، والتعدي في أموالهم ونفوسهم وأعراضهم وتوهينهم وتضييع حقوقهم. ثم حثهم سبحانه على العمل بما في الآية بقوله : ﴿يَعِظُكُمْ﴾ الله بأمره ونهيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعتلون.

عن ابن مسعود ، أنه قال : هي أجمع آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى ^(١).

وعن ابن عباس : أن عثمان بن مظعون الجمحي قال : ما أسلمت أولاً إلا حياء من محمد ﷺ ، ولم يتقرر الإسلام في قلبي ، فحضرت عنده ذات يوم ، فبينما هو يحدثني إذا رأيته بصره شخص إلى السماء ثم خفضه عن يمينه ، ثم عاد لمثل ذلك فسألته ، فقال : « بينما أنا أحدثك إذا بجبرئيل نزل عن يميني فقال : يا محمد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ العدل : شهادة أن لا إله إلا الله ، والاحسان : القيام بالفرائض ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [أي] صلة ذي القرابة ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الزنا ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ﴿وَالْبَغْيِ﴾ الاستطالة » .

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ١٣٦ .

قال عثمان : فوقع الايمان في قلبي ، فأتيت أبا طالب فأخبرته ، فقال : يا معشر قريش ، اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقا أو كاذبا ، فأنه لا يأمر إلا بمكارم الاخلاق. فلما رأى رسول الله ﷺ من عمه الدين ، قال : « يا عم ، تأمر الناس أن يتبعوني وتدع نفسك ، وجهد عليه فأبى أن يسلم »^(١) .

أقول : يعني في الظاهر نظرا إلى صلاح حفظ رسول الله ﷺ ، وإلا فإنه كان من أول المسلمين وأفضلهم ، لوضوح أنّ هذا الكلام لا يصدر إلا ممن كان مسلما عن صميم القلب موقنا بصدق الرسول ، ولذا قدّم التصديق بقوله : ولئن كان صادقا أو كاذبا.

وعن ابن عباس : العدل : شهادة أن لا إله إلا الله ، والاحسان : أداء الفرائض^(٢) .
وفي رواية أخرى عنه : العدل : خلع الأنداد ، والاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، فإن كان مؤمنا أحببت أن يزداد إيمانا ، وإن كان كافرا أحببت أن يصير أchaك في الاسلام^(٣) .

وفي رواية ثالثة ، قال : العدل : هو التوحيد ، و[الاحسان :] الاخلاص فيه^(٤) .
وقيل : العدل في الأفعال ، والاحسان في الأقوال ، فلا تفعل إلا ما هو عدل ، ولا تقل إلا ما هو إحسان^(٥) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام « العدل : الانصاف ، والاحسان : التفضل »^(٦) .
وعن القمي : العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا ﷺ رسول الله ، والاحسان : أمير المؤمنين عليه السلام^(٧) .

وعن الباقر عليه السلام : « العدل : محمد ﷺ ، فمن أطاعه فقد عدل ، والاحسان : علي عليه السلام ، فمن تولاه فقد أحسن ، والمحسن في الجنة »^(٨) .

وعن ابن عباس : « **وإيتاء ذي القربى** » يريد صلة الرحم بالمال ، فان لم يكن فبالدعاء^(٩) .
وعن النبي ﷺ : « أن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ، إنّ أهل البيت ليكونون فقراء^(١٠) فتمنى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم »^(١١) .

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٠ .

(٢) ٢ و ٣ و ٥ تفسير الرازي ٢٠ : ١٠١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠١ .

(٤) تفسير العياشي ٣ : ٢٠ / ٢٤٢٠ ، معاني الأخبار ٢٥٧ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(٦) تفسير العياشي ٣ : ٢١ / ٢٤٢٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(٧) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠١ .

(٨) في تفسير الرازي : فجارا .

(٩) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠١ .

وعن الباقر عليه السلام : ﴿إِيْتَاءُ ذِي الْقُرْبَى﴾ قرابتنا ، أمر الله العباد بمودتنا وإيتائنا « (١) .

وعن الصادق عليه السلام ، أنه قرأ عنده هذه الآية ، فقال : « اقرأ كما أقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيْتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ حقه » إلى أن قال الراوي : قيل : فما يعني بإيتاء ذي القربى حقه ؟ قال : « أداء إمام إلى إمام بعد إمام » (٢)

وقيل : إن المراد بالفحشاء الزنا (٣) ، كما في الرواية السابقة. وقيل : البخل (٤) . وقيل : كل الذنوب ، سواء كانت في القول أو في الفعل ، أو كبيرة أو صغيرة (٥) . والمراد بالمنكر هو الكفر بالله (٦) . وقيل : ما لا يعرف في شريعة ولا سنة (٧) ، كما في الرواية السابقة.

وقيل : المراد بالبغي الكبر والظلم (٨) .

وعن القمي ، في تأويله الفحشاء والمنكر والبغي : فلان وفلان وفلان (٩) .

وعن الباقر عليه السلام : « الفحشاء الأول ، والمنكر الثاني ، والبغي الثالث » (١٠) .

وعن الصادق عليه السلام : ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال : « ولاية فلان [وفلان] » (١١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١)

ثم لما جمع الله جميع المأمورات والمنهيات التي كلَّها عهود الله في الآية السابقة ، بالغ في التأكيد في العمل بها بقوله : ﴿وَأَوْفُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ واعملوا بأحكامه ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ معه حين آمنتم به وسلمتم له وبايعتم رسوله.

وقيل : المراد بالعهد خصوص بيعة الرسول ﷺ (١٢) . وقيل : هو كل ما يلزمه الإنسان على نفسه بالتندر وشبهه (١٣) . وقيل : هو اليمين (١٤) . وعلى التفسير الأول خصّ سبحانه حكم نقض اليمين بالذكر اهتماما به بقوله : ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ بالله التي تحلفون بها عند المعاهدات ، ولا تحنثوا (١٥) فيها ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وإحكامها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ بالوفاء بها ﴿كَفِيلًا﴾ ورقيبا ، فإن من حلف بالله جعله

(١) تفسير العياشي ٣ : ٢١ / ٢٤٢٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٢ .

(٢) تفسير العياشي ٣ : ١٩ / ٢٤١٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٢ . (٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٠ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠١ .

(٩) تفسير القمي ١ : ٣٨٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(١٠) تفسير العياشي ٣ : ٢٠ / ٢٤٢١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥١ .

(١١) تفسير العياشي ٣ : ٢٠ / ٢٤١٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٢ .

(١٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٦ ، تفسير روح البيان ٥ : ٧٣ .

(١٣ و ١٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٧ .

(١٥) حنث في اليمين : لم يبر فيها وأثم.

كفيلا بالوفاء به.

ثم رغب في الوفاء ورهب عن الحنث بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الوفاء والحنث ، فيجازيكم على الأول بالثواب ، وعلى الثاني بالعقاب.

قيل : نزلت في جماعة أسلموا بمكة ، وعاهدوا الرسول ، فلما رأوا غلبة قريش وضعف المسلمين جزعوا واضطربوا ، وهموا بنقض العهد بتسويل الشيطان ، فتبتهم الله بهذه الآية على عهدهم مع الرسول ﷺ (١) .

والقمي عن الصادق عليه السلام : « لما نزلت ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكان من قول رسول الله ﷺ : سلموا على علي بإمرة المؤمنين ، فكان مما أكد الله عليهم في ذلك اليوم ، وقول رسول الله ﷺ لهما : قوما فسلما عليه بإمرة المؤمنين. فقالا : أمن الله أو من رسوله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من الله ومن رسوله. فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني به قول رسول الله لهما ، وقولهما : أمن الله أو من رسوله ؟ » (٢) .

أقول : يمكن تكرار نزول الآية.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٢)

ثم أكد سبحانه وجوب الوفاء بالعهود وحرمة نقضها بقوله : ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون في عهودكم وأيمانكم ونقضها بلا مجوز شرعي وعقلائي ﴿كَالَّذِينَ﴾ غزلت الشعر والصوف وفتلت الحبل كل يوم ثم ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ وفتلها ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ وإبرام وإحكام له حتى جعلته ﴿أَنْكَاثًا﴾ وخيوطا ، أو اجزاء متفرقة كالصوف المنفوش ، ثم غزلت مرة ثانية ، ثم فعلت ما فعلت بالغزل الأول.

قيل : هي امرأة من قريش يقال لها رابطة أو ربطة (٣) أو خطيئة بنت سعد بن تميم ، تلقب بالجعراء (٤) ، أو خضراء ، أو خرقاء (٥) ، وكانت حمقاء (٦) ، وكانت أعدت مغزلا قدر ذراع في رأسه حديدة مثل إصبع ، وفلكة عظيمة على قدرها ، وكانت هي وجواربها تغزل من الصبح إلى نصف النهار ، ثم تأمرهن ،

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٧٣ .

(٢) الكافي ١ : ٢٣١ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٢ ، تفسير القمي ١ : ٣٨٩ « نحوه » .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٨ ، تفسير القمي ١ : ٣٨٩ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٨ .

(٥) مجمع البيان ٦ : ٥٩٠ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٣ .

بنقض جميع ما غزلت ^(١) .

عن الباقر عليه السلام : « التي نقضت غزلها امرأة من بني تيم بن مرة يقال : له ربطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب ، كانت حمقاء تغزل الشعر ، فإذا غزلته نقضته ، ثم عادت تغزله ، فقال الله : **﴿كَأَلَيْ نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾** الآية » قال : « إن الله أمر بالوفاء ، ونهى عن نقض العهد ، وضرب لهم مثلاً » ^(٢) .

وعن الصادق عليه السلام في تأويلها « أن عائشة هي نكثت أيمانها » ^(٣) .
وقيل : إن المقصود تصوّر مثل المرأة التي تكون صفتها كذلك ^(٤) ، ولا يلزم وجودها في الخارج ، والمراد لا تكونوا مثل هذه المرأة حال كونكم **﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا﴾** وخديعة وغشاً **﴿بَيْنَكُمْ﴾** لأجل **﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةً﴾** وجماعة **﴿هِيَ أَرْبَى﴾** وأكثر **﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾** وجماعة أخرى عددا ومالا وقوة وشرفا .
وقيل : إن الجملة استفهامية إنكارية ^(٥) ، والمعنى أتنخذون ؟ ! إلى آخره .
قيل : كانوا يحالفون الحلفاء ثم يجدون من كان أعزّ منهم وأشرف ، فينقضون حلف الأولين ويحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك ^(٦) .

وقيل : إن الأربى كفرة قريش ، والامة الاخرى جماعة المؤمنين ^(٧) ، وعلى أيّ تقدير **﴿إِنَّمَا﴾** الغرض من جعل بعض الامم أربى ، أو من الأمر والنهي أن **﴿يَبْلُوكُمُ اللَّهُ﴾** ويختبركم **﴿بِهِ﴾** بأن يظهر أنكم تمسكون بحلف الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغتروا بكثرة قريش وشوكتهم وضعف المسلمين ، أو تطيعون الله ورسوله ، أو تتبعون خطوات الشيطان وتسويلاته .

والقمي : **﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾** يعني يختبركم بعلي عليه السلام ^(٨) .
﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ الله **﴿لَكُمْ﴾** البتة **﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** ووقت جزاء الأعمال **﴿مَا كُنْتُمْ﴾** في الدنيا **﴿فِيهِ﴾** **﴿تَخْتَلِفُونَ﴾** من صحة دين الاسلام ، وأنه دين الحق المؤدّي إلى الثواب ، وبطلان غيره وأنه مؤدّ إلى العقاب .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ١٣٧ ، تفسير روح البيان ٥ : ٧٥ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٨٩ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٣ .

(٣) تفسير العياشي ٣ : ٢٢ / ٢٤٢٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٣ .

(٤) تفسير روح البيان ٥ : ٧٥ .

(٥ و ٦) تفسير الرازي ٢٠ : ١٠٩ .

(٧) تفسير الصافي ٣ : ١٥٣ ، تفسير روح البيان ٥ : ٧٥ .

(٨) تفسير القمي ١ : ٣٨٩ ، الكافي ١ : ٢٣٢ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٤ .

وَلْتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

ثم لما ذكر سبحانه اختلاف الناس في دينه ، نبّه على قدرته على إلجائهم على الاتفاق على دين الاسلام ، وإثما الحكمة اقتضت إيكالهم إلى اختيارهم وحصول الاختلاف بينهم حسب اختلاف طينتهم بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ بالمشيئة التكوينية اتفاق الناس ، والله ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ بالقهر والجبر ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على دين الاسلام بقدرته القاهرة ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يشأ ذلك لمنافاته الحكمة البالغة ، بل ﴿يُضِلُّ﴾ عن الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله بخذلانه وإيكاله إلى نفسه ومقتضى طينته لعدم قابليته للهداية والتوفيق ﴿وَيَهْدِي﴾ إلى الحق ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته بتوفيقه وطيب طينته وقابليته للهداية ﴿وَوَاللَّهُ﴾ بالله ﴿لَتَسْأَلُنَّ﴾ جميعا البتة يوم القيامة سؤال تبكيت وتقريع ﴿عَمَّا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الوفاء بالعهد والأيمان ونقضها وحنتها ، فتجزون بما صدر عنكم.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾

ثم أكد سبحانه النهي عن نقض العهد واتخاذ دخلا وخديعة بقوله : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ﴾ ونكرا ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ منكم أيها المؤمنون عن محجة الحق والصراط المستقيم ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ واستقرارها عليها ، وإثما أفرد لفظ القدم ونكره إشعاراً بأن زلة القدم الواحدة إذا كانت مستتبعة لهذا المحذور العظيم ، فكيف بزلة الأقدام الكثيرة. وقيل : إنّ هذا الكلام مثل يضرب لكل من وقع في الشدة بعد الرخاء وابتلي بالحنة بعد النعمة^(١).

وقال القمي في تأويله : ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ يعني بعد مقالة النبي ﷺ في عليّ عليه السلام^(٢) . وقيل : إنّ الآية السابقة في النهي عن نقض مطلق العهد واليمين ، وهذه الآية في النهي عن نقض عهد الرسول^(٣) وبيعته ؛ لأنّ زلة القدم بعد ثبوتها مناسبة لنقض هذا العهد الموجب لسقوط الانسان عن درجة الايمان في مهاوي الضلال والهلاك ، ولذا هدّدهم بقوله : ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ والعذاب الدنيوي ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ﴾ ومنعتم أنفسكم أو غيركم ﴿عَنْ﴾ السلوك في ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والالتزام بالاسلام ، أو الدخول فيه ، فان ارتدادهم يكون مانعا عن إيمان غيرهم ﴿وَلَكُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٠ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٩٠ ، الكافي ١ : ٢٣٢ / ١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٠ .

وعقاب شديد.

ثم قيل : إنّ المشركين كانوا يعدون ضعفاء المسلمين ويشترطون لهم الحطام الدنيوية عن ارتدادهم^(١) ، فنهى الله المسلمين عن الرغبة في أموال المشركين بقوله : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تأخذوا بمقابلة ومقابلة بيعة الرسول ﷺ ﴿نَمَنَّا﴾ وعوضا من أموال المشركين ، فأنه وإن كان بقدر الدنيا يكون ﴿قَلِيلًا﴾ ويسيرا ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر على الوفاء بالعهد من النصر والعز في الدنيا والثواب في الآخرة ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يعدونكم من الأموال ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة الايمان ، وتميزون الخير من الشر.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) و (٩٧)﴾

ثم بين سبحانه أظهر وجوه الخيرية بقوله : ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من الحطام الدنيوية ﴿يَنْفَدُ﴾ وينقضي ﴿وَمَا﴾ أعد لكم من النعم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفي خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ ودائم لا نفاذ له ، ومن الواضح أنّ النعمة الباقية وإن كانت قليلة خير وأفضل من النعم الزائلة وإن كانت في غاية الكثرة. ثم لما كان الوفاء بالعهد والثبات على الايمان موقوفا على الصبر على الفقر والشدائد ، وعد الصابرين بقوله : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الوفاء بالعهد وبيعة الرسول ﷺ وما التزموه من شرائع الاسلام ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وثوابهم الخاص بهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الواجبات والمندوبات. وقيل : يعني بما عملوا من الصبر على المذكورات ، وإنما أضاف إليه الأحسن للايدان بغاية حسنه^(٢) .

ثم حث سبحانه المؤمنين على الأعمال الصالحة بقوله : ﴿مَنْ عَمِلَ﴾ عملا ﴿صَالِحًا﴾ خالصا لوجه الله ، أي عمل كان ، وأي عامل كان ﴿مَنْ﴾ صنف ﴿ذَكَرٍ﴾ أو صنف ﴿أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله ورسالة رسوله وصدق ما جاء به ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ﴾ ونعيشنّه ﴿حَيَاةً﴾ وعيشة ﴿طَيِّبَةً﴾ مرضية حسنة ، وإن كان معسرا مبتلى بالأمراض والمصائب ، فأنه يكون قانعا راضيا بالقسمة ، متوكلا على الله ، راجيا أجره العظيم في الآخرة ، فلا يحزن على ما فاتته ، ولا يفرح بما آتاه الله من الدنيا.

(١) تفسير روح البيان ٥ : ٧٦ ، وفيه : على الارتداد.

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٧٨ .

وقيل : إنّ الحياة الطيبة هو الرزق الحلال ^(١) . وقيل : هي عبادة الله والرزق الحلال ^(٢) . وقيل : هي حياة البرزخ ^(٣) . وقيل : حياة الآخرة ^(٤) .
ثمّ وعدهم الأجر العظيم فيها بقوله : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من العبادات الخالصة عن شوب الرياء والعجب والهوى.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾

ثمّ لما كانت تلاوة القرآن من أحسن الأعمال ، إذا كانت خالصة من الرياء والعجب الحاصلين بوساوس الشيطان ، بيّن الله طريق الخلاص منها بقوله : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمد ، أو يا إنسان ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ والتجأ إليه ﴿مِنْ﴾ وساوس ﴿الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والمطروود من الرحمة.
روت العامة عن ابن مسعود ، قال قرأت على رسول الله ﷺ فقلت : أعوذ بالله السميع ^(٥) العليم من الشيطان الرجيم. فقال : « قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرانيه جبرئيل عن القلم عن اللوح المحفوظ » ^(٦) .

وعن الصادق عليه السلام [قيل له :] كيف أقول ؟ قال : « تقول : أعوذ ^(٧) بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم » وقال : « الرجيم أحبث الشياطين » ^(٨) .
وعن [حنان بن] سدير قال : صلّيت خلف أبي عبد الله [المغرب] فتعوّذ بإجهر : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بالله أن يحضرون » ثمّ جهر ب (بسم الله الرحمن الرحيم) ^(٩) .

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ

عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (٩٩) و (١٠٠)﴾

ثمّ تبه سبحانه على فائدة الاستعاذة بقوله : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ بالولاية والأمر ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فاتّهم لا يؤثّر فيهم أمره وتسويله ، وفيه إشعار بعدم فائدة الاستعاذة القولية ما لم يكن معها استعاذة ^(١٠) قلبية ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ واستيلاؤه بالتسويل والدعوة المؤثرة

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٣ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٦ .

(٤) في تفسير البيضاوي وأبي السعود : أعوذ بالسميع .

(٥) تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٧ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٥ .

(٦) في تفسير العياشي : استعيذ .

(٨) تفسير العياشي ٣ : ٢٣ / ٢٤٢٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٥ .

(٩) قرب الاسناد ١٢٤ / ٤٣٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٥ .

(١٠) في النسخة : استفادة .

في القلب ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ويحبونه ويطيعونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ تعالى ، أو بسبب الشيطان ﴿مُشْرِكُونَ﴾ في الاولوية والعبادة.

عن الباقر عليه السلام : « يسلم الله من المؤمن على بدنه ولا يسلم على دينه ، قد سلم على أيوب فشوه خلقه ، ولم يسلم على دينه » . [قلت : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾] قال : « الذين هم بالله مشركون : يسلم على أديانهم وعلى أبدانهم » ^(١) .
وعنه عليه السلام : أنه سئل عن هذه الآية فقال : « ليس له أن يزيلهم عن الولاية ، فأما الذنوب وأشباه ذلك ، فأنه ينال منهم كما ينال من غيرهم » ^(٢) .

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾

ثم أنه تعالى بعد ذكر القرآن ، ذكر طعن المشركين فيه بقوله : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ عن ابن عباس : أنه كان إذا نزلت آية على رسول الله ﷺ فيها شدة ، أخذ الناس بما وعملوا ما شاء الله أن يعملوا ، فيشق ذلك عليهم ، فينسخ الله هذه الشدة ويأتيهم بما هو ألين منها وأهون عليهم رحمة من الله تعالى ، فيقول لهم كفار قريش : إن محمداً يسخر بكم ، يأمركم اليوم بأمر وينهاكم عنه غداً ، ويأتيكم بما هو أهون عليكم ، وما هو إلا مفتر يقول من تلقاء نفسه ، والمعنى : إذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلاً منها بأن نسختها ^(٣) .

ثم أنه تعالى قبل نقل كلامهم بادر في الجواب عنه بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ من الناسخ والمنسوخ ، والتغليظ والتخفيف ، وما هو مصالح العباد ، فما بال هؤلاء المشركين حيث ﴿قَالُوا﴾ إذا رأوا التبديل ﴿إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يا محمد ﴿مُفْتَرٍ﴾ على الله بدعوى نزوله منه ، وكاذب في هذه النسبة ، فإن بعضهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحقانيته وفائدة نسخ الأحكام وتبديلها ، وإنه لمصالح العباد التي تتغير بتغير الزمان ، وأما القليل الذي يعلمه فأنما يحجده لعناده ولجأه.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ

(١) تفسير العياشي ٣ : ٢٣ / ٢٤٢٥ ، والكاظمي ٨ : ٢٨٨ / ٤٣٣ ، وتفسير الصافي ٣ : ١٥٥ ، عن الصادق عليه السلام .

(٢) تفسير العياشي ٣ : ٢٤ / ٢٤٢٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٥ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٨١ .

اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٢) و (١٠٤)

ثم بالغ سبحانه في ردّهم بقوله : ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد : ليس القرآن ممّا تقولته ، بل ﴿نَزَّلَهُ﴾ تدريجاً جبرئيل الذي لقبه ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وأمين الوحي ﴿مِنْ﴾ قبل ﴿رَبِّكَ﴾ مقروناً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ودلائل الصدق من إعجاز البيان واشتماله على العلوم الوفيرة والأخبار الغيبية ، أو متلبساً بالحكمة البالغة ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الايمان بأنّه كلام الله المنزل على رسوله ، فاتّهم إذا سمعوا الناسخ وتفكّروا فيما فيه من المصالح والحكم ، رسخت عقائدهم وطمأنّت قلوبهم ﴿وَوُكِّلَ لَهُمْ﴾ ليكون ﴿هُدًى﴾ ورشاداً إلى كلّ حقّ وخير ﴿وَبُشْرَى﴾ بالثواب ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأحكامه.

ثمّ حكى الله تعالى طعنهم الآخر في القرآن بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ أنّ محمداً كاذب في دعوى نزول القرآن من الله ، بل ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ القصص والتواريخ التي فيه ﴿بَشَرٌ﴾ قيل : اريد به سلمان الفارسي ^(١) . وقيل : عبد لبني عامر بن لؤي ^(٢) ، وكان يقرأ الكتب ^(٣) . وقيل : عدّاس غلام عتبة بن ربيعة ^(٤) . وقيل : عبد لبني الحضرمي [صاحب] كتب واسمه جبر ، وكانت قريش تقول : إنّ عبد بني الحضرمي يعلم خديجة ، وخديجة تعلّم محمداً ^(٥) . وقيل : كان بمكة نصراني أعجمي اللسان اسمه بلعام . وكنيته أبو ميسرة ، وكان يتكلّم بالرومية ^(٦) .

ثمّ ردّهم الله تعالى بقوله : ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ وينسبون القرآن ﴿إِلَيْهِ﴾ أو يميلون قولهم عن الاستقامة بادّعاء أنّ القرآن بتعليمه ﴿أَعْجَمِي﴾ غير فصيح وغير مبين ، أو غير عارف بلغة العرب ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ بالغ في الفصاحة إلى حدّ الإعجاز ، ثمّ أتبع ردّهم بتهديدهم بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ودلائل توحيده وكمال صفاته ، ورسالة رسوله ومعجزاته التي منها فصاحة القرآن وعلومه المنطوية فيه ، مع عدم اطلاع الذي حسبوه معلّماً له على أقلّ قليل منها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحقّ وطريق الجنة ، بل يسوقهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) و (١٠٦)﴾

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٧ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٥٧ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٤١ .

(٢) زاد في تفسير الرازي : يقال له : يعيش .

(٣ و ٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٧ .

(٥ و ٦) تفسير الرازي ٢٠ : ١١٧ .

ثم نفى سبحانه الكذب عن نبيه ﷺ وأثبتته للمشركين بقوله : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ ويقول ما هو خلاف الواقع عن علم وعمد ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ولا يصدّقونها عنادا ولجاجا ، ويدّعون أنّ الآيات افتراء وكذب ، فأنهم اللاتقون بالكذب ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المتصفون بأحبث الصفات ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ في الحقيقة المبالغون في الكذب لعدم خوفهم من عقاب الله ، لا النبي الصادق المصدّق الذي هو أخوف الخائفين ورأس المؤمنين.

ثمّ لما حكى الله سبحانه شبهات المشركين في صدق القرآن ونبوة النبي ﷺ طمعا في ارتداد المسلمين ، هدّد المرتدّين بقوله : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ بسبب شبهات المشركين ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ ووضح الحقّ عنده ، كان من كان ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ على إظهار الكفر باللسان ﴿وَوُجِدَ﴾ الحال أنه ﴿قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ وموقن ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ ومستقرّ على التوحيد ونبوة النبي وصدق القرآن.

قيل : إنّ قوله : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ بدل من قوله : ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والمعنى إنّما يفتري الكذب من كفر بالله ، وقوله : ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ اعتراض بين المبدل وبدله ^(١) وقيل : بدل من ﴿الكَاذِبُونَ﴾ والمعنى أولئك هم من كفر بالله ^(٢) . وقيل : إنّ من منصوب على الذمّ ، والمعنى أولئك هم الكاذبون ، أعني من كفر بالله ^(٣) .

ثمّ أنه تعالى بعد استثناء المكروهين بيّن الكافر المذموم بقوله : ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ وطاب به نفسا ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ عَظِيمٌ﴾ من الله في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. عن ابن عباس : نزلت الآية في عمّار ، وذلك أنّ كفّار قريش أخذوه وأبويه ياسر وسميّة وصهيبا وبلاّلا وخبّابا وسالما فعذبوهم ليرتدّوا ، فأبى أبو عمّار ، فريطوا سميّة بين بعيرين وضربت بحربة في قلبها ، وقالوا : إنّما أسلمت من أجل الرجال والتعشّق بهم فقتلوها ، وقتلوا ياسرا ، وهما أول قتيلين في الاسلام ، وأمّا عمّار فكان ضعيف البدن فلم يطق لعذابهم ، فأعطاهم بلسانه ما أكرهه عليه ، وهو سبّ النبي ﷺ وذكر الأصنام بخير ، فقالوا : يا رسول الله ، إنّ عمّارا كفر. فقال : « كلا ، إنّ عمّارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدميه ، واختلط الايمان بلحمه ودمه » فأتى عمّار رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : « مالك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » ^(٤) . القمي : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو عمّار بن ياسر ، أخذته قريش بمكة فعذبوه بالنار حتّى أعطاهم بلسانه ما أرادوا وقلبه مطمئن ومقرّ بالايان ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾

(٣١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٢٠ .

(٤) تفسير روح البيان ٥ : ٨٤ ، تفسير الرازي ٢٠ : ١٢١ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٤٣ .

فهو عبد الله [بن سعد] بن أبي سرح بن الحارث بن لؤي ^(١) ، وكان عاملا لعثمان بن عفان على مصر ^(٢) .

وعن (الكافي) : قيل للصادق عليه السلام : إنَّ الناس يروون أن عليا عليه السلام قال على منبر الكوفة : « أيها الناس ، إنكم ستدعون إلى سيي فسبوني ، ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تبرءوا مني » . فقال عليه السلام : « ما أكثر ما يكذب الناس على علي عليه السلام ! » ثم قال : إنكم ستدعون إلى سيي فسبوني ، ثم تدعون إلى البراءة مني وأنا لعلي دين محمد ، ولم يقل : فلا تبرءوا مني » . فقال له السائل : [أ رأيت] إن اختار القتل دون البراءة ؟ فقال : « والله ما ذاك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، فأنزل الله فيه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فقال له النبي ﷺ عندها : يا عمار ، إن عادوا فعد فقد أنزل الله عندك ، وأمرك أن تعود إن عادوا » ^(٣) .

وعنه عليه السلام ، أنه سئل : مدِّ الرقاب أحب إليك أم البراءة من علي ؟ فقال : « الرخصة أحب إليَّ ، أما سمعت قول الله في عمار : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ^(٤) .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٧) و (١٠٩) ﴿

ثم ذكر الله علّة الارتداد مع وضوح الحق بقوله : ﴿ذَلِكَ﴾ الارتداد ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وشهواتها وآثرها ﴿عَلَى﴾ نعم ﴿الْآخِرَةِ﴾ والجنة الباقية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ ولا يوفق ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ للتدين بدين الحق ، لخبث ذاتهم ، ورسوخ حب الدنيا في قلوبهم .

ثم بيّن أنه تعالى لا يكتفي في حقهم بالكفّ عن توفيقهم للثبات على الإيمان ، بل يخذلهم ويميت قلوبهم [الموت] الملازم لعدم العقل والصّمم والعمى بقوله : ﴿أُولَئِكَ﴾ المحبّون للدنيا ومؤثرها على الآخرة هم ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ﴾ وختم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَنْصَارَهُمْ﴾ فلا يعقلون شيئا من الحق ، ولا يسمعون النصّح والوعد والوعيد ، ولا يبصرون الآيات والمعجزات .

عن الصادق عليه السلام : « أن رسول الله ﷺ كان يدعو أصحابه ، فمن أراد الله به خيرا سمع وعرف ما يدعوه إليه ، ومن أراد به شرا طبع على قلبه فلا يسمع ولا يعقل ، وهو قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾

(١) تفسير القمي ١ : ٣٩٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٧ .

(٢) تفسير القمي ١ : ٣٩١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٧ .

(٣) الكافي ٢ : ١٧٣ / ١٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٧ .

(٤) تفسير العياشي ٣ : ٢٥ / ٢٤٣٣ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٨ .

طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(١) عن وخامة عاقبتهم ، وعمّا يراد بهم من العذاب الدائم ﴿لَا جَرَمَ﴾ وحقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث ضيّعوا فطرتهم وأعمارهم وصرّفوها في تحصيل العذاب الدائم مع تمكّنهم من صرفها في تحصيل النعم الدائمة والراحة الأبدية ، فلا أخسر منهم ، بل لعظم خسارتهم كأنّه لا خاسر غيرهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١٠) و (١١١)﴾

ثمّ بيّن سبحانه غاية لطفه بالذين عدّ بهم الكفار وأكرهوهم على الكفر بقوله : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أوطانهم حفظاً لدينهم ونصرة لنبیهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ وعدّبوهم بجنون المشركين وأكرهوا على كلمة الكفر ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ في سبيل الله ﴿وَصَبَرُوا﴾ على فتنة الكفار ومتاعب الحجرة ومشاق المجاهدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ بلطفه وكرمه ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من كلمة الكفر وسائر الزلات ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم ومنعم عليهم بالجنة وسائر الخيرات.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ غفرانه لهم ورحمته عليهم يكونان في وقت غاية الحاجة إليهما بقوله : ﴿يَوْمَ﴾ وقيل : إنّ التقدير اذكر يا محمّد^(٢) أو ذكّرهم يوم ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنة أو كافرة برة أو فاجرة ﴿تُجَادِلُ﴾ وتخاصم دفاعاً ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ وشخصها.

عن ابن عباس : ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتّى يخاصم الروح الجسد ، يقول الروح : يا ربّ ، لم يكن لي يد أبطش بها ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصر بها. ويقول الجسد : خلقتني كالخشب ، ليست لي يد أبطش [بها] ، ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصر بها ، فجاء هذا كشعاع النور فيه نطق لساني ، وأبصرت عيني ، ومشيت رجلي. قال : فيضرب لهما مثلاً ؛ مثل الأعمى والمقعّد دخلا حائطاً وفيه ثمار ، فالأعمى لا يبصر الثمار ، والمقعّد لا يناولها ، فحمل الأعمى المقعّد فأصابا من الثمر ، فعليهما العذاب^(٣) .

وقيل : إنّ المعنى أنّ كلّ نفس تجادل نفسه ، فيقول المطيع : لم لم أكثر من طاعة ربّي ؟ ويقول العاصي لنفسه : لم عصيت ربّي.

(١) تفسير العياشي ٣ : ٢٦ / ٢٤٣٦ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٨ .

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٨٧ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٨٨ .

﴿وَتَوْفَى﴾ وتعطى كاملاً ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس جزاء ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ من الطاعة والمعصية والخير والشر ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ بتنقيص الثواب أو زيادة العقاب.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١١٢)

ثمَّ أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَهْدِيدِ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ الْآخِرِيِّ ، هَدَّاهُمْ بِالْعَذَابِ الدِّنيِّ بِقَوْلِهِ : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ بديعاً لتبيين حال الكفار المرتدين عن دين الحق ، وذكر لهم شبيهاً ، وهو أَنَّ ﴿قَرْيَةً﴾ من القرى ، قيل : هي مكة ^(١) ، وقيل : هي أيلة ، كانت بين ينبع ومصر ^(٢) ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ من تعديات القياصرة وظلم الجبابرة وسائر المخوفات ، وكانت ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ ساكنة أهلها ، لا ينتقلون منها إلى غيرها لحسنها ، وعدوبة مائها ، ولطافة هوائها ، ووفور نعمها ، فأنه كان ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ وما يحتاج إليه أهلها ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ كان في نواحيها من البر والبحر ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بأن صرفها أهلها في عصيان ربه الذي تفضل عليهم بتلك النعم التي منها صحة أمرجتهم ، وسعة أرزاقهم ، وأمنهم من المخوفات ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ﴾ وألبس أهلها ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بسبب القحط وتهاجم الأعداء عليهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من كفران النعم.

روى بعض العامة : أَنَّ أَهْلَ أَيْلَةَ كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْخَبْزِ ^(٣) .

والقمي رحمه الله ، قال : نزلت في قوم كان لهم نهر يقال له البليان ^(٤) ، وكانت بلادهم خصبة كثيرة الخير ، وكانوا يستنجون بالعجين ، ويقولون : هو ألين لنا ، فكفروا بأنعم الله واستخفوا بنعمة الله ، فحبس الله عليهم البليان ، فجذبوا حتى أحوجهم الله إلى [أكل] ما كانوا يستنجون به ، حتى كانوا يتقاسمون عليه ^(٥) .

والعياشي عن الصادق عليه السلام : « كان أبي يكره أن يمسخ يده بالمنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له ، إلا أن يمضها ، أو يكون إلى جانبه صبي فيمضها له . قال : وإني أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقدده ، فيضحك الخادم » .

ثمَّ قال : « إِنَّ أَهْلَ قَرْيَةٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ اللَّهُ قَدْ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ حَتَّى طَغَوْا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لَوْ عَمَدْنَا إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا النَّقِيِّ ^(٦) فجعلناه نستنجي به ، كان ألين علينا من الحجارة » قال : « فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ إِلَى أَرْضِهِمْ دَوَابًا أَصْغَرَ مِنَ الْجِرَادِ ، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمْ شَيْئًا خَلَقَهُ اللَّهُ [يَقْدِرُ عَلَيْهِ] إِلَّا أَكَلَهُ مِنْ

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٢٧ .

(٢) تفسير روح البيان ٥ : ٨٨ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٨٩ .

(٤) في تفسير القمي الثلثان (الثرثار خ ل) .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٩١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٩ .

(٦) النقي : الدقيق الجيد الأبيض .

شجر وغيره ، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا إلى الذي كانوا يستنجون به [فأكلوه] ، وهي القرية التي قال الله : ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ إلى قوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) .

قيل : وجه استعارة اللباس للجوع والخوف إحاطتهما به من جميع الجهات^(٢) .

وقيل : تأثيرهما في الهزال وشحوب اللون المشتغلين على البدن كاللباس^(٣) ، وقيل : إنَّ اللباس

هنا بمعنى الامساس^(٤) .

وقيل : إنَّ الإذاقة بمعنى التَّعَرَّفِ^(٥) . وقيل : استعير لفظ الإذاقة للإصابة لما فيها من اجتماع

إدراكي اللَّامِسة والذائقة^(٦) .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١١٣)

ثمَّ أنه تعالى بعد بيان سلب النعم عنهم بكفرانهم ، بيّن ابتلاءهم بعذاب الاستئصال بتكذيبهم الرسول بقوله : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ من جانب الله ﴿رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعرفونه بأصله ونسبه وأخلاقه ، لهديتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى وجوب شكر النعم وحرمة الكفران ، وإخبارهم بسوء عاقبته ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما أخبرهم به من رسالته من الله ، ووجوب طاعته وطاعة أحكام الله التي منها وجوب شكر النعم ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المستأصل وأهلكهم به ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ على أنفسهم بكفران النعم والكفر بالله ورسوله.

عن ابن عباس ، قال : هذا المثل لأهل مكة ، فاتَّهم كانوا في حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم ، وما يمرّ بياهم طيف من الخوف ، وكانت تجي إليه ثمرات كلِّ شيء ، ولقد جاءهم رسول منهم ، فكفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسول الله ﷺ ، فأصابهم بدعائه - بقوله : « اللهم أعني عليهم بسبع كسيع يوسف » - ما أصابهم من القحط والجذب حتى أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود والعظام المحرّقة والعلهز - وهو الوبر والدم - يعني كانوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشوونه على النار ، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا النبي ﷺ بعد الهجرة ، حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وغيرهم ، فوقعوا في خوف عظيم من أهل الاسلام حتى تركوا سفر الشام والتردد إليه ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم [من العذاب]^(٧) .

(١) تفسير العياشي ٣ : ٢٧ / ٢٤٣٨ ، تفسير الصافي ٣ : ١٥٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٢٩ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٨٩ .

(٤ و ٥) تفسير الرازي ٢٠ : ١٢٩ .

(٦) تفسير أبي السعود ٥ : ١٤٥ .

(٧) تفسير روح البيان ٥ : ٨٩ .

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ

تَعْبُدُونَ (١١٤)﴾

ثم لما بيّن سبحانه سوء عاقبة الكفران ، أمر عموم الناس بشكر نعمه بقوله : ﴿فَكُلُوا﴾ أيها الناس ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ وأنعم عليكم من النعم حال كونها ﴿حَلَالًا﴾ لكم من قبل الله ﴿طَيِّبًا﴾ ولذا عندكم.

قيل : إنّ رسول الله ﷺ قطع الميرة عن أهل مكة ، فكلم رسلهم رسول الله ﷺ حين جهدوا (١) ، وقالوا : عادت الرجال فما بال النسوة والصبيان ؟ فأذن ﷺ في حمل الطعام إليهم ، فلما حمل خاطبهم الله بقوله : ﴿فَكُلُوا﴾ (٢) يا أهل مكة ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾

وقيل : كأنه قال تعالى : لما تبين لكم يا أهل مكة حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حلّ بهم (٣) ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ولا تحرموا بأهوائكم ما أحلّ الله لكم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وأحكامه تطيعون ، ورضاه تطلبون.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلٍ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ

غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)﴾

ثم أعلمهم بما حرّم عليهم بقوله : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في دين الاسلام ﴿الْمَيْتَةَ﴾ وما زهق روحه بغير التذكية من كلّ حيوان بري ﴿وَالدَّمَ﴾ مسفوحا كان أو غيره إلّا المتخلف في المذكى ﴿وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ وسائر ما يؤكل منه ﴿وَمَا أُهْلٍ﴾ ورفع الصوت ﴿لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ بأن يقال عند ذبحه باللات أو العزى ، أو بغيرهما من أسماء الأصنام ، هذه هي المحرّمات عند الله دون ما تزعمون من البحيرة وأخواتها ، وتلك المحرّمات أيضا لا تحرم مطلقا ، بل يجوز أكلها عند الضرورة ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ والجرى إلى أكل أحد من الامور المحرّمة إذا كان ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ وغير متعدّد على مضطرّ آخر ، أو غير طالب للذة ، أو غير باغ على إمام زمانه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ومتجاوز في أكله عن قدر الضرورة وسدّ الرّمق ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لا يؤاخذ به بذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يرضى بمشقتهم والتضييق عليهم ، بل يرخّص لهم في رفع اضطرارهم بأكل ما حرّم عليهم.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى

(١) جهد الناس : أجذبوا.

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٠.

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٩٠.

اللَّهُ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٦) و (١١٧)

ثم لما بين سبحانه حصر محرماته في شرع الاسلام في الأشياء الأربعة ، نهي المشركين عن بدعتهم وتحريم ما أحله الله عليهم بهوى أنفسهم بقوله : ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ أيها المشركون ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ﴾ من الأنعام المحللة عند الله بالحل تارة وبالحرمة أخرى بهوى أنفسكم ، بلا إسناد إلى الوحي من الله ﴿الْكَذِبَ﴾ على الله ، وذلك الكذب هو قولكم : ﴿هَذَا﴾ الحيوان الذي زهق روحه بغير التذكية ، أو هذا الخنزير ، أو هذا الدم المشوي ﴿حَلَالٌ﴾ لنا من قبل الله وفي حكمه ﴿وَهَذَا﴾ الحيوان الحامي أو البحيرة أو السائبة ﴿حَرَامٌ﴾ علينا ، وهذا الذي في بطون الأنعام حرام على أزواجنا ، فإن جميع ذلك مجرد الوصف والقول بالأنواه بلا حجة ودليل من الله.

وقيل : إن المعنى : لا يقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ^(١) . وقيل : جملة ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ﴾ من أفصح الكلام وأبلغه ^(٢) . وقيل : إن ﴿الْكَذِبَ﴾ هو المقول ^(٣).

ثم بين سبحانه ذلك الكذب بقوله : ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ ثم لما لم يصرح سبحانه يكون كذبهم على الله صرح به بقوله : ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ولام (لتفتروا) لام العاقبة ، وقيل : إن هذه الجملة بدل من قوله : ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ﴾ لأن وصفهم الكذب هو عين الافتراء على الله ^(٤) . ثم هدّد سبحانه المفتريين عليه بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ولا ينجون من العذاب ، أو لا يفوزون بخير ومطلوب ، ثم لما كان مجال توهم أن لهم الفوز بنعم الدنيا ، دفعه الله سبحانه بقوله : ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ تلك النعم ، ومنفعة سريعة الزوال ، بحيث لا يصح أن يقال لوجدانها فوز وفلاح ، ولذا لا يعتني بها عاقل.

عن ابن عباس : بل متاع كل الدنيا [متاع] قليل ^(٥) . ثم يردون بالموت والخروج من الدنيا إلى نار جهنم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٢ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٤٧ ، تفسير روح البيان ٥ : ٩٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٢ .

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ٩٢ ، جوامع الجامع : ٢٥٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٢ .

(٥) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٢ .

ثم لما حصر سبحانه المحرمات في الأربع ونهى عن تحريم غيرها ، كان مجال توهم أنّ المحرمات التي في دين اليهود زائدة على الأربع مع كونها من الله ، فدفعه بقوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ في سورة الأنعام التي أنزلناها عليك ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ حيث قلنا فيها : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾^(١) إلى آخره ، وإنما كان ذلك عقوبة لهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريمها عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بنقضهم الميثاق وبغيهم وارتكابهم الذنوب الموبقة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

ثم لما ذكر الله تعالى المعاصي العظام من الافتراء على الله ، والبدعة في الدين وأمثالهما تصرّحاً وتلويحاً ، نبّه على علاجها والسبب المنجي من العذاب عليها بقوله : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ وارتكبوا المعصية ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وسفاهة وعدم التدبّر في سوء العاقبة كأثمة تعالى قال : إنا قد بالغنا في تهديد الكفار والمفترين ومكذّبي الرسول.

ثم بعد ذلك نقول : إنّ الناس إذا ارتكبوا جميع المعاصي بسبب الغفلة والجهل أمداً بعيداً ودهراً دهيماً ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عن معاصيهم وندموا على ما صدر منهم ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الذي علموا ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عقائدهم وأعمالهم بأن صاروا مؤمنين بما يجب الإيمان به مطيعين لله ولرسوله ، فاذا صدرت منهم التوبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ والله ﴿لَغَفُورٌ﴾ للمعاصي كلّها ﴿رَحِيمٌ﴾ بالعصاة التائبين مثيب لهم على توبتهم وإنابتهم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١)

ثمّ أنّه تعالى بعد إبطال مذهب الشرك وشبهات المشركين في النبوة وبدعهم في الأحكام وكفرائهم نعم الله ، ذكر توحيد إبراهيم الذي كانوا مفتخرين بالانتساب إليه^(٢) ، متفقين على حسن عقيدته وسيرته ، وذكر انقياده وطاعته لله وشكره لنعمه بقوله : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ﴾ وحده ﴿أُمَّةً﴾ من الأمم واحداً كاللوف ، لكمال توحيده وإيمانه وصفاته ، ومعارضته مع جميع الناس بالحجج.

(١) الأنعام : ٦ / ١٤٦ .

(٢) في النسخة : بالانتساب به .

عن الباقر عليه السلام : « وذلك أنه كان على دين لم يكن عليه غيره ، فكأنه أمة واحدة » (١) .
وقيل : إنه أمة لكونه سببا لوجود الأمة الموحدة (٢) .

وقيل : إن الأمة بمعنى المقتدى ، واطلق عليه لأنه كان إماما يؤتم به (٣) .
وعن الصادق عليه السلام : « شيء فضله الله به » (٤) .

وكان ﴿قَانِيَا لِلَّهِ﴾ قائما بما أمره. عن الباقر عليه السلام وابن عباس : « يعني مطيعا لله » (٥) وكان عليه السلام ﴿خَنِيفًا﴾ ومائلا عن سائر الأديان الباطلة إلى ملة الاسلام ثابتا عليه.
عن الباقر عليه السلام : « أمّا الحنيف فالمسلم » (٦) .

وعن ابن عباس : أنه أول من اختن ، وأقام مناسك الحج وضحى ، وهذه صفة الحنيفية (٧) .
﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان رأس الموحدين صغيرا وكبيرا ﴿شَاكِرًا﴾ لله و﴿لَا نُعْمِيهِ﴾ معترفا بها.

روي أنه عليه السلام كان لا يتغذى إلا مع ضيف ، فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه ، فجاء فوج من الملائكة في زي البشر ، فقدم له الطعام ، فخيّلوا إليه أن بهم جذاما ، فقال : الآن وجبت مؤاكلةكم ، شكرا لله على أن عافاني وابتلاكم (٨) .

﴿اجْتَبَاهُ﴾ الله واختاره للرسالة والخلة والإمامة ﴿وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والطريق الواضح الموصل إلى كل خير وسعادة ، وفي التوصيفات المذكورة تكذيب لقريش فيما كانوا يزعمون من أنهم على ملة إبراهيم.

﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٢) وَ (١٢٣)﴾

ثم بين سبحانه تشريفاته عنده بقوله : ﴿وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ مثوبة ﴿حَسَنَةً﴾ من الذكر الجميل ، والثناء بين الناس ، والعمر الطويل ، وكثرة النسل ، وكون الأنبياء من ذريته ، وكون خاتم الأنبياء وأوصيائه الطيبين من نسله ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذوي الدرجات العالية في أعلى

(١) تفسير القمي ١ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٤ .

(٣) تفسير العياشي ٣ : ٢٨ / ٢٤٤٠ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦١ .

(٤) تفسير القمي ١ : ٣٩٢ ، تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٥ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦١ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦١ .

(٦) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٥ .

(٨) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٥ ، تفسير روح البيان ٥ : ٩٤ .

عليين.

ثم بين الله تعالى أجل ما أوتي ﷺ بقوله : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١) ودينه - فأنه كان ﴿حَنِيفًا﴾ ومائلا عن كل دين باطل - وهو دين الاسلام والصراط المستقيم الذي هداه إليه.

ثم أكد تنزيهه عن الشرك بقوله : ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) مبالغة في إبطال مذهب الشرك ، وإنما أمره ﷺ بالاتباع لأنه ﷺ كان بعده ، وإلا فهو ﷺ في عالم الأنوار والأنوار والأشباح كان متبوعا لما سوى الله من الملائكة والأنبياء أجمعين.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)﴾

ثم لما أمر الله نبيه ﷺ باتباع إبراهيم ، كان محال توهم أنه خالفه في دينه بجعل الجمعة عيدا لأمته ، فدفعه سبحانه بقوله : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ عيدا وفرض تعظيمه ﴿عَلَى﴾ بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ لا على إبراهيم وأتباعه.

قيل : إن موسى أمر اليهود أن يجعلوا يوما واحدا في الاسبوع للعبادة ، وأن يكون ذلك يوم الجمعة ، فأبوا عليه ، وقالوا : نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السماوات والأرض ، وهو السبت ، إلا شرذمة منهم قد رضوا بيوم الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت ، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر الله الذين رضوا بالجمعة ، فكانوا لا يصيدون ، وأما غيرهم فلم يصبروا عن الصيد ، فمسخهم الله قردة دون أولئك المطيعين ^(١) .

وعن ابن عباس : أمرهم موسى بالجمعة ، وقال : تفرغوا لله في كل سبعة أيام يوما واحدا ، وهو يوم الجمعة ، لا تعملوا فيه شيئا من أعمالكم ، فأبوا أن يقبلوا ذلك ، وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق ، وهو يوم السبت ، فجعل الله السبت لهم ، وشدد عليهم فيه ، ثم جاء عيسى أيضا بالجمعة ، فقالت : النصراني : لا نريد إلا أن يكون عيدنا بعد عيدهم ^(٢) ، فاتخذوا الأحد ^(٣) .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إن الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلنا ، فاختلفوا فيه وهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا ، والنصارى بعد غد » ^(٤) .

(١) تفسير أبي السعود ٥ : ١٥٠ ، تفسير روح البيان ٥ : ٩٦ .

(٢) في تفسير الرازي : عيدهم بعد عيدنا .

(٣ و ٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٧ .

القمي ، قال : إنّ موسى أمر قومه أن يتفرّغوا إلى الله في كلّ سبعة أيام يوما يجعله الله عليهم ، وهم الذين اختلفوا فيه ^(١) .

وقيل : معنى اختلافهم أنّهم اختلفوا على نبيّهم في ذلك اليوم ، لا أنّهم اختلفوا فيما بينهم ^(٢) .
قيل : إنّ الجمعة أفضل الأيام ، لأنّ السبت كان يوم الفراغ ، والأحد يوم الشروع ، والجمعة يوم الكمال والتمام ، وهو أولى بالفرح الكامل والسرور العظيم ^(٣) .

وقيل : إنّ المراد من اختلاف بني إسرائيل في السبت أنّهم أحلّوا الصيد فيه تارة وحزّموه أخرى ، وكان عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة ^(٤) .

ثمّ وعد الله المحقّين ، وأوعد المبطلين بقوله : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ والله ﴿لَيَحْكُمَ﴾ في شأن المختلفين ، ويقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بالحقّ ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ والحكومة والقضاء ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بأنّ يشيب المحقّين ويعاقب المبطلين.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥)

ثمّ لما أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ باتباع إبراهيم في الملة والدين ، أمره باتباعه في الدعوة إلى الله وتوحيده وفي كيفيتها بقوله : ﴿ادْعُ﴾ يا محمّد ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ودينه المرضي عند خواصّ امتك ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ والحجّة القاطعة ، وعوامهم بالدلائل الاقناعية ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ والنصائح الوافية والبيانات المؤثّرة الكافية والحكايات النافعة ، وأمّا المعاندون منهم الذين لا تؤثّر فيهم الدعوة ، وكان غرضهم المجادلة فناجزهم ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من طرق المناظرة والمجادلة ، وهو على ما قيل : للدين في الكلام ، واختيار ما هو أقرب إلى الإفحام ، وأيسر في الإلزام ، كما فعله الخليل عليه السلام ^(٥) .

عن الصادق عليه السلام ، أنّه ذكر عنده الجدل في الدين ، وأنّ رسول الله ﷺ والأئمة [قد] نكحوا عنه ، فقال الصادق عليه السلام : « لم ينه عنه مطلقا ، ولكنّه نهى عن الجدل بغير التي هي أحسن ، [أما] تسمعون قوله تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ^(٦) وقوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالجدل بالتي هي أحسن [قد] أمر به العلماء بالدين ، والجدل بغير التي هي أحسن محرم حرّمه الله على شيعتنا ، وكيف يحرم الله الجدل

(١) تفسير القمي ١ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٧ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٧ و ١٣٨ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠ : ١٣٨ .

(٥) تفسير أبي السعود ٥ : ١٥١ ، تفسير روح البيان ٥ : ٩٧ .

(٦) العنكبوت : ٢٩ / ٤٦ .

جملة وهو يقول : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) فجعل علم الصدق والایمان بالبرهان ، وهل يؤتى بالبرهان إلا في الجدال بالتي هي أحسن». قيل : يا بن رسول الله ، فما الجدال بالتي هي أحسن ، والتي ليست بأحسن ؟ قال : « أما الجدال بغير التي هي أحسن فأن تجادل مبطلا ، فيورد عليك باطلا ، فلا تردّه بحجة قد نصبها الله ، ولكن تجحد [قوله أو تجحد] حقا يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله ، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة ؛ لأنك لا تدري كيف المخلص منه ، فذلك حرام على شيعتنا أن يصيروا فتنة على ضعفاء إخوانهم وعلى المبطلين ، أما المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضعف [ما] في يده حجة له على باطله ، وأما الضعفاء فتغتم قلوبهم لما يرون من ضعف الحق في يد المبطل.

وأما الجدال بالتي هي أحسن ، فهو ما أمر الله به نبيه ﷺ أن يجادل به من جحد البعث بعد الموت ، وإحياء الله تعالى له ، فقال الله له حاكيا عنه : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وقال الله في الرد عليه : ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾^(٢) إلى آخر السورة ، فأراد الله من نبيه ﷺ أن يجادل المبطل الذي قال : كيف يجوز أن يبعث هذه العظام وهي رميم ؟ فقال الله : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أفيعجز من ابتداءه لا من شيء أن يعيده بعد أن يلى ، بل ابتداءه أصعب عندهم من إعادته.

ثم قال : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ أي إذا أكنم^(٣) النار الحارة في الشجر الأخضر الرطب [ثم] يستخرجها ، فعرفكم أنه على إعادة ما بلى أقدر ، ثم قال : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) أي إذا كان خلق السماوات والأرض أعظم وأبعد في أذهانكم^(٥) وقدركم أن تقدروا عليه من إعادة البالي ، فكيف جؤزتم من الله خلق هذا الأعجب عندهم والأصعب لديكم ، ولم تجؤزوا ما هو الأسهل عندهم من إعادة البالي؟».

قال الصادق عليه السلام : « فهذا الجدال بالتي هي أحسن ؛ لأنّ فيها قطع عذر الكافرين ، وإزالة شبهتهم »^(٦).

ثم لما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالدعوة ، وعد المجيبين له والمهتدين بهداه بالشواب ، وأوعد

(١) البقرة : ٢ / ١١١.

(٢) يس : ٣٦ / ٧٨ - ٨٠.

(٣) في النسخة : كمن ، وما أثبتناه من الاحتجاج.

(٤) يس : ٣٦ / ٨١.

(٥) في الاحتجاج وتفسير الامام العسكري : في أوهامكم.

(٦) الاحتجاج : ٢١ ، تفسير الامام العسكري عليه السلام : ٥٢٧ / ٣٢٢ ، وفيهما : وإزالة شبهتهم ، تفسير الصافي ٣ : ١٦٣.

الضالين الذين لم يجيبوه ولم يهتدوا به بالعقاب بقوله : ﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾
 ودينه بعد دعوته إليه بالحكمة والموعظة والعبير ، فيعاقبه أشد العقاب ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق
 الذي هو دين الاسلام ، فيجازيهم بالثواب العظيم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ *
 وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا

يَمْكُرُونَ (١٢٦) و (١٢٧)﴾

ثم لما كانت الدعوة ملازمة لا يذاء النبي ﷺ والمؤمنين المستعقبه لإقدام المؤمنين على مكافاة
 الأعداء ، أمرهم سبحانه بالعدل والانصاف في مكافاتهم بقوله : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون وكافيتهم
 الأعداء على إيدائهم بكم وظلمهم عليكم ﴿فَعَاقِبُوا﴾ هم وكافوهم على ظلمهم ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾
 وبما يساوي (١) ما تعدوا عليكم ، ولا تزيدوا على ما تعدوا عليكم ، ولا تزيدوا على ما فعلوا بكم غيظا
 وتشقيا ، وإطلاق العقاب على الأذى البدوي من باب مجاز المشاكلة والازدواج.

ثم لما كان الصبر على الأذى أولى وأفضل عند الله من الانتقام ، حثهم سبحانه عليه بقوله :
 ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ أيها المؤمنون على ما نزل بكم من الأذى ، وتركتم الانتقام والعقوبة بالله ﴿لَهُوَ خَيْرٌ﴾
 وأفضل عند الله ، وأكثر ثوبا ﴿لِلصَّابِرِينَ﴾ على المصائب والشدائد.

ثم أنه تعالى بعد التنبيه على فضيلة الصبر وحث المؤمنين عليه ، أمر نبيه ﷺ الذي هو أفضل
 خلقه بالصبر الذي هو أفضل الأعمال وأحزمها (٢) بقوله : ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا محمد على ما أصابك من أذى
 الكفار ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وبتوقيفه وإعانتة لك عليه.

روى بعض العامة عن الصادق عليه السلام ، أنه قال : « أمر الله أنبياءه بالصبر ، وجعل الحظ الأعلى
 منه للنبي ﷺ حيث جعل صبره بالله لا بنفسه ، وقال ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (٣) .
 أقول : وفيه تسلية له عليه السلام .

ثم بالغ في تسليته في اغتمامه في مشاققة الكفار وإصرارهم على معارضته بقوله : ﴿وَلَا تَحْزَنْ
 عَلَيْهِمْ﴾ ولا يتألم قلبك من حرمانهم عن فيض الهداية والإيمان وفوائد متابعتك ، وسعيهم في تخريب أمرك
 وإيذائك ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ وغم شديد ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بك ويدبرون في إطفاء نورك وإبطال دعوتك
 والإضرار بنفسك.

(١) في النسخة : يسوى.

(٢) أي أشدها.

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ١٠١.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨)

ثم قوّى سبحانه قلبه الشريف وأمنه من إضرارهم عليه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بالولاية والتفضل ﴿مَعَ﴾ المؤمنين و﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وتحزّزوا عن المعاصي وما يخالف رضاه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم ومؤدّون ما عليهم من تكاليف ربّهم ، أو المراد مع الذين اتّقوا مكافاة المسيء إليهم ، والذين هم محسنون إلى من عاداهم وأساء إليهم.

عن ابن عباس رضى الله عنه : أنّ النبي ﷺ لما رأى حمزة وقد مثّلوا به قال : « والله لأمثّلنّ بسبعين منهم مكانك » فنزل جبرئيل بخواتيم سورة النحل ، فكفّ رسول الله ﷺ وأمسك عمّا أراد ^(١). وفي رواية أخرى قال : « أما والله لئن أظفرتني الله بهم لأمثّلنّ بسبعين مكانك » ^(٢). وقال المؤمنون : إن أظهرنا الله عليهم لنزيدنّ على صنعهم ولنمثّلنّ مثله لم يمثّلها أحد من العرب بأحد قطّ ^(٣). وعن القمي ، قال : إنّ المشركين مثّلوا بأصحاب النبي ﷺ الذين استشهدوا يوم احد ، وفيهم حمزة ، فقال المسلمون : أما والله لئن أدالنا الله عليهم لنمثّلنّ بأخيائهم ، وذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ^(٤) يعني بالأموال ^(٥).

قيل : إنّ الكفار مثّلوا بجميع المقتولين من أصحاب النبي ﷺ في احد إلا بمنظلة الملقّب بغسيل الملائكة بن أبي عامر الراهب لمكان كفر أبيه ^(٦).

وعن العياشي ، عن الصادق عليه السلام قال : « لما رأى رسول الله ﷺ ما صنع بحمزة بن عبد المطلب قال : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما رأى ، ثم قال : لئن ظفرت لأمثّلنّ وأمثّلنّ. قال : فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ الآية. فقال رسول الله : أصبر أصبر » ^(٧). قيل : إنّ سورة النحل كلّها مكيّة إلا هذه الآيات الثلاث ^(٨).

عن الباقر عليه السلام : « من قرأ سورة النحل في كلّ شهر دفع الله عنه المعرة ^(٩) في الدنيا وسبعين نوعا من أنواع البلاء أهونه الجنون والجذام والبرص ، وكان مسكنه في جنة عدن وهي وسط الجنان » ^(١٠). الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير سورة النحل ، وله المنة.

(١) تفسير الرازي ٢٠ : ١٤١ ، تفسير البيضاوي ١ : ٥٦١.

(٢) تفسير البيضاوي ١ : ٥٦١ ، تفسير أبي السعود ٥ : ١٥٢.

(٣) تفسير روح البيان ٥ : ١٠٠.

(٤) النحل : ١٦ / ١٢٦.

(٥) تفسير القمي ١ : ٣٩٢ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦٤.

(٦) تفسير روح البيان ٥ : ٩٩.

(٧) تفسير العياشي ٣ : ٢٩ / ٢٤٤٤ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦٥.

(٨) مجمع البيان ٥ : ٥٣٥.

(٩) في النسخة : شهر كفى العزم.

(١٠) تفسير العياشي ٣ : ٣ / ٢٣٦١ ، تفسير الصافي ٣ : ١٦٥.

الفهرس

- [١٤٥] وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ ٥
- [١٤٦] سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ٦
- [١٤٧] وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا ٧
- [١٤٨] وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيلِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ ٧
- [١٤٩ - ١٥١] وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ ٨
- [١٥٢] إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ١٠
- [١٥٣ - ١٥٤] وَوَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ ١١
- [١٥٥] وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ ١١
- [١٥٦] وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِنَّا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي ١٣
- [١٥٧] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي ١٣
- [١٥٨] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ١٦
- [١٥٩] وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ١٧
- [١٦٠] وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ١٩
- [١٦١ و ١٦٢] أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ انبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ٢٠
- [١٦٣] وَسَأَلْنَاهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ ٢١
- [١٦٤ - ١٦٦] وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ٢١
- [١٦٧] وَوَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ ٢٥
- [١٦٨] وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ ٢٥
- [١٦٩] فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ٢٦
- [١٧٠] وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ ٢٧
- [١٧١] وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ٢٧

- [١٧٢ - ١٧٤] وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ٢٨
- [١٧٥] وَأَتْلَوْا عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٣١
- [١٧٦ و ١٧٧] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٣٤
- [١٧٨] مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ٣٥
- [١٧٩] وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ ٣٥
- [١٨٠] وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ٣٦
- [١٨١] وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ٣٨
- [١٨٢] وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩
- [١٨٣] وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ٣٩
- [١٨٤] أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٤٠
- [١٨٥] أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ ٤٠
- [١٨٦] مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ٤١
- [١٨٧] يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا ٤١
- [١٨٨] قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ ٤٣
- [١٨٩ و ١٩٠] هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا ٤٤
- [١٩١] أَشْرَكُوا مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٤٦
- [١٩٢ و ١٩٣] وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ ٤٦
- [١٩٤] إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمَّنَّا لَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ ٤٧
- [١٩٥ و ١٩٦] أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ٤٧
- [١٩٧ و ١٩٨] وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ ٤٨
- [١٩٩] خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ٤٩
- [٢٠٠] وَإِنَّمَا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٥٠
- [٢٠١ و ٢٠٢] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ٥٠
- [٢٠٣] وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ٥١
- [٢٠٤] وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥١
- [٢٠٥ و ٢٠٦] وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ ٥٣

في تفسير سورة الأنفال ٥٥

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ ٥٥
- [٢ و ٣] إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ٥٧
- [٤ - ٦] أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا ٥٨
- [٧ و ٩] وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ٦٤
- [١٠ و ١١] وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ ٦٦
- [١٢ - ١٤] إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِلِي فِي ٧٢
- [١٥ و ١٦] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ ٧٥
- [١٧ و ١٨] فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٧٦
- [١٩] إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ ٧٧
- [٢٠ - ٢٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا ٧٧
- [٢٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا ٧٨
- [٢٥] وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ٨٠
- [٢٦] وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ ٨٠
- [٢٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ ٨١
- [٢٨ و ٢٩] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٨٢
- [٣٠] وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ ٨٣
- [٣١ و ٣٢] وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ۚ إِنَّ هَذَا إِلَّا ٨٧
- [٣٣] وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٨٩
- [٣٤] وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ٩٠
- [٣٥] وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ ٩٠
- [٣٦ و ٣٧] إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُونَهَا ثُمَّ ٩١
- [٣٨] قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ ٩٣
- [٣٩ و ٤٠] وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا ٩٣
- [٤١ و ٤٢] وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ٩٤
- [٤٣] إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَتَسَلَّمْتَ وَلِتَنَازِعْتُمْ فِي ٩٧
- [٤٤] وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ ٩٧
- [٤٥ - ٤٧] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩٨

- [٤٨ و ٤٩] وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي ٩٩
- [٥٠ و ٥١] وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ١٠٢
- [٥٢] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ١٠٢
- [٥٣] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ١٠٣
- [٥٤ - ٥٦] كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ١٠٣
- [٥٧ و ٥٨] فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَنُصْرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِمَّا ١٠٤
- [٥٩] وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ١٠٥
- [٦٠] وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ ١٠٥
- [٦١] وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٠٦
- [٦٢ و ٦٣] وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ ١٠٧
- [٦٤] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٨
- [٦٥] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ ١٠٨
- [٦٦] الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ ١٠٩
- [٦٧] مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ ١١٠
- [٦٨ - ٧١] لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا ١١١
- [٧٢] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ١١٤
- [٧٣] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ ١١٥
- [٧٤ و ٧٥] وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ ١١٥

في تفسير سورة براءة ١١٩

- [١] بَرَاءةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١١٩
- [٢] فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ ١٢٠
- [٣] وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ ١٢٤
- [٤] إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ ١٢٥
- [٥] فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ ١٢٦
- [٦] وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ ١٢٦
- [٧] كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ ١٢٧
- [٨] كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ ١٢٧

- [٩] اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢٧
- [١٠ - ١٢] لَا يَرْفُقُونَ فِي مِثْقَالٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ١٢٨
- [١٣] أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ ١٢٩
- [١٤ و ١٥] قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ ١٣٠
- [١٦] أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ ١٣١
- [١٧ و ١٨] مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ١٣١
- [١٩] أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ١٣٢
- [٢٠ و ٢٢] الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ ١٣٤
- [٢٣ و ٢٤] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ ١٣٤
- [٢٥ و ٢٦] لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِرَّ ١٣٦
- [٢٧] ثُمَّ يُثَوِّبُ اللَّهُ مَن بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤١
- [٢٨] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ ١٤١
- [٢٩] اتُّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ١٤٢
- [٣٠] وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ ١٤٤
- [٣١] اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا ١٤٥
- [٣٢] يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ١٤٥
- [٣٣] هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ١٤٦
- [٣٤ و ٣٥] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ ١٤٨
- [٣٦] إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ١٥٠
- [٣٧] إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ ١٥١
- [٣٨ و ٣٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى ١٥٢
- [٤٠] إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ١٥٣
- [٤١] فِرَوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ ١٥٩
- [٤٢] لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَآتَيْنَاكُمْ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ١٦٠
- [٤٣] عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ١٦١
- [٤٤] لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ١٦١
- [٤٥] إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي ١٦١

- [٤٦] وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ [٤٧] لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ [٤٨] لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ [٤٩] وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ [٥٠] إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ [٥١ و ٥٢] قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [٥٣] قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ [٥٤] وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ [٥٥] فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ [٥٦ و ٥٧] وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ [٥٨] وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا [٥٩] وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [٦٠] إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي [٦١ و ٦٢] وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [٦٣ - ٦٥] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ [٦٦] لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً [٦٧] الْمُتَنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ [٦٨] وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ [٦٩] كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا [٧٠] أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ [٧١] وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ [٧٢] وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ [٧٣] يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ [٧٤] يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا [٧٥ و ٧٦] وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ [٧٧ و ٧٨] فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا [٧٩ و ٨٠] الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

- [٨١] فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ١٨٦
- [٨٢] فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٨٧
- [٨٣] فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنَكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ ١٨٧
- [٨٤] وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ ١٨٨
- [٨٥] لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ١٩٠
- [٨٦] وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّوْلِ ١٩١
- [٨٧ و ٨٨] رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَكِنْ ١٩١
- [٨٩ و ٩٠] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْرُ ١٩٢
- [٩١ و ٩٢] لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ ١٩٢
- [٩٣ و ٩٤] إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ١٩٤
- [٩٥] سَيُخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ ١٩٥
- [٩٦] يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ ١٩٦
- [٩٧ و ٩٨] الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ١٩٦
- [٩٩] وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ١٩٧
- [١٠٠] وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ١٩٧
- [١٠١] وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ ٢٠٠
- [١٠٢] وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ ٢٠٠
- [١٠٣] خُذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيَهُمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ ٢٠١
- [١٠٤] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٢٠
- [١٠٥] وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمٍ ٢٠٣
- [١٠٦] وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ٢٠٤
- [١٠٧ و ١٠٨] وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ ٢٠٤
- [١٠٩] أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ٢١٠
- [١١٠] لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ٢١٠
- [١١١] إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي ٢١١
- [١١٢] النَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ ٢١٢
- [١١٣ - ١١٥] مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ

- [١١٦] إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ ۚ ٢١٦
- [١١٧] لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ۚ ٢١٦
- [١١٨] وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ۚ ٢١٩
- [١١٩] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ٢٢١
- [١٢٠ و ١٢١] مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ۚ ٢٢٣
- [١٢٢] وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا ۚ ٢٢٤
- [١٢٣] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ ٢٢٦
- [١٢٤ و ١٢٥] وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا ۚ ٢٢٦
- [١٢٦] أَوَّلًا يَرُونَ أَنََّّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ ۚ ٢٢٧
- [١٢٧] وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ ٢٢٧
- [١٢٨ و ١٢٩] لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ۚ ٢٢٨

في تفسير سورة يونس ٢٣١

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢٣١
- [٢] أَكُنَّا لِلنَّاسِ عَجَبًا أَمْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ۚ ٢٣١
- [٣] إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى ۚ ٢٣٢
- [٤] إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ۚ ٢٣٣
- [٥] هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ۚ ٢٣٤
- [٦] إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ۚ ٢٣٤
- [٧ و ٨] إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ ۚ ٢٣٥
- [٩ و ١٠] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ ۚ ٢٣٥
- [١١] وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَتَدَّرُ ۚ ٢٣٦
- [١٢] وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ۚ ٢٣٧
- [١٣ و ١٤] وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِّن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا ۚ ٢٣٧
- [١٥] وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِفَرَانٍ غَيْرِ ۚ ٢٣٨
- [١٦] قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ ٢٣٩
- [١٧] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ۚ ٢٤٠
- [١٨] وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا ۚ ٢٤٠

- [١٩] وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ ٢٤٢
- [٢٠] وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ ٢٤٣
- [٢١] إِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ صَرَاءٍ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ ٢٤٣
- [٢٢ و ٢٣] هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ ٢٤٤
- [٢٤] إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ٢٤٥
- [٢٥] وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٤٦
- [٢٦] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ ٢٤٧
- [٢٧] وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ ٢٤٨
- [٢٨] يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ٢٤٩
- [٢٩ و ٣٠] فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو ٢٤٩
- [٣١ - ٣٣] قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ ٢٤٩
- [٣٤ و ٣٥] قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ ٢٥١
- [٣٦ و ٣٧] وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا ٢٥١
- [٣٨] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ ٢٥٢
- [٣٩] بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ ٢٥٣
- [٤٠] وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٢٥٣
- [٤١] وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ ٢٥٣
- [٤٢ و ٤٣] وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ ٢٥٤
- [٤٤ و ٤٥] إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ٢٥٥
- [٤٦ و ٤٧] وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ ٢٥٥
- [٤٨ و ٤٩] وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا ٢٥٦
- [٥٠ - ٥٣] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَآتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَغِثُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٢٥٧
- [٥٤] وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٢٥٨
- [٥٥ و ٥٦] أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا ٢٥٩
- [٥٧] يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مُّوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى ٢٥٩
- [٥٨] قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٢٦٠
- [٥٩] قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلِ اللَّهُ أَدْنٰ ٢٦٠

- [٦٠] وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٢٦١
- [٦١] وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا ٢٦٢
- [٦٢] أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢
- [٦٣ و ٦٤] الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا ٢٦٣
- [٦٥] وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٦٤
- [٦٦] أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ ٢٦٥
- [٦٧ و ٦٨] مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْنَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٦٥
- [٦٩ و ٧٠] قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا ٢٦٦
- [٧١] وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي ٢٦٧
- [٧٢ - ٧٤] فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٢٦٨
- [٧٥ - ٧٧] ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا ٢٦٩
- [٧٨ - ٨٢] قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْلَمَ عَمَّا وَخَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي ٢٦٩
- [٨٣ - ٨٦] فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ٢٧٠
- [٨٧] وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ٢٧١
- [٨٨ - ٨٩] وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٢٧٢
- [٩٠] وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا ٢٧٣
- [٩١ - ٩٢] آلَانِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ ٢٧٤
- [٩٣] وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِيقَاتٍ صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا ٢٧٦
- [٩٤ و ٩٥] فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ٢٧٦
- [٩٦ و ٩٧] إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى ٢٧٧
- [٩٨] فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ٢٧٧
- [٩٩] وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى ٢٨٥
- [١٠٠] وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا ٢٨٥
- [١٠١] قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ ٢٨٦
- [١٠٢] فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ ٢٨٧
- [١٠٣] ثُمَّ نُتَجِّئِ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ ٢٨٧
- [١٠٤ - ١٠٦] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ ٢٨٨

[١٠٧] وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ٢٨٩

[١٠٨] قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي ٢٨٩

[١٠٩] وَاتَّبَعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ٢٩٠

في تفسير سورة هود ٢٩١

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرِّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ٢٩١

[٢ - ٤] أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا ٢٩٢

[٥] أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا ٢٩٢

[٦] مَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ ٢٩٣

[٧] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ٢٩٤

[٨] وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ ٢٩٦

[٩ و ١٠] وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ ٢٩٧

[١١ و ١٢] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * فَلَعَلَّكَ ٢٩٨

[١٣] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ ٢٩٩

[١٤] فَإِلَّامُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ ٣٠٠

[١٥ و ١٦] مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا ٣٠٠

[١٧] أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا ٣٠١

[١٨] وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٣٠٤

[١٩] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٠٥

[٢٠ و ٢١] أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ ذُوْنِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ٣٠٥

[٢٢ و ٢٣] لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٣٠٦

[٢٤] مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا ٣٠٦

[٢٥ - ٢٨] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي ٣٠٧

[٢٩] وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ٣٠٨

[٣٠ و ٣١] وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ ٣٠٩

[٣٢ و ٣٣] قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْفَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ ٣٠٩

[٣٤] وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ ٣١٠

[٣٥] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِفُونَ ٣١٠

- [٣٦] وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا ٣١١
- [٣٧ و ٣٨] وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ٣١١
- [٣٩] فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ٣١٢
- [٤٠] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ٣١٣
- [٤١ - ٤٣] وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ ٣١٦
- [٤٤] وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ ٣١٩
- [٤٥ - ٤٧] وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٣٢٠
- [٤٨] قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ ٣٢١
- [٤٩] تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ ٣٢٣
- [٥٠ و ٥١] وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا ٣٢٤
- [٥٢] وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ ٣٢٤
- [٥٣] قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ ٣٢٥
- [٥٤ - ٥٦] إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ ٣٢٥
- [٥٧] إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا ٣٢٦
- [٥٨] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ ٣٢٧
- [٥٩ و ٦٠] وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٣٢٨
- [٦١] وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ ٣٢٩
- [٦٢ - ٦٤] قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ٣٢٩
- [٦٥ و ٦٦] فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا ٣٣٢
- [٦٧ و ٦٨] وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَانُوا لَمْ يَعْنُوا ٣٣٢
- [٦٩ - ٧١] وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ٣٣٣
- [٧٢ - ٧٤] قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ٣٣٥
- [٧٥ - ٨١] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ ٣٣٦
- [٨٢ و ٨٣] فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ ٣٣٩
- [٨٤] وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا ٣٤٣
- [٨٥] وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا ٣٤٤
- [٨٦] بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ ٣٤٤

- [٨٧ و ٨٨] قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي ٣٤٥
- [٨٩ - ٩٣] وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ ٣٤٦
- [٩٤ و ٩٥] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ٣٤٨
- [٩٦ - ٩٩] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ ٣٤٨
- [١٠٠] ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ٣٤٩
- [١٠١ - ١٠٣] وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ ٣٤٩
- [١٠ - ١٠٧] وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ ٣٥١
- [١٠٨] وَأَلَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ٣٥٣
- [١٠٩] فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ٣٥٣
- [١١٠] وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ ٣٥٤
- [١١١] وَإِنْ كُنَّا لَمَّا لَيُوقِفْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣٥٥
- [١١٢ و ١١٣] فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا ٣٥٥
- [١١٤] وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ٣٥٦
- [١١٥ و ١١٦] وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ ٣٥٨
- [١١٧] وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْفُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ٣٥٩
- [١١٨ و ١١٩] وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ ٣٥٩
- [١٢٠ - ١٢٢] وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

٣٦١

[١٢٣] وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ٣٦١

في تفسير سورة يوسف ٣٦٣

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٣٦٣
- [٢ و ٣] إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ٣٦٣
- [٤] إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ٣٦٤
- [٥] قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ ٣٦٥
- [٦] وَكَذَلِكَ يَحْتَبِكُ لَكُمْ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ٣٦
- [٧] لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلْمَسَائِلِينَ ٣٦٨
- [٨] إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُسْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ ٣٦٨
- [٩] اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ٣٦٩

- [١٠] قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَفْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ ٣٦٩
- [١١ و ١٢] قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا ٣٧٠
- [١٣ - ١٥] قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ٣٧٠
- [١٦ - ١٨] وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرْكُنَا يُوسُفَ ٣٧٤
- [١٩ و ٢٠] وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ ٣٧٦
- [٢١] وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ ٣٧٩
- [٢٢ - ٢٤] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَرَاودَتْهُ ٣٨٠
- [٢٥ - ٢٩] وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا ٣٨٥
- [٣٠ - ٣٢] وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ٣٨٨
- [٣٣ - ٣٦] قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ٣٩١
- [٣٧ و ٣٨] قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا ٣٩٦
- [٣٩] اصْحَابِي السِّجْنِ أَلَزَابٌ مَُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩٨
- [٤٠] مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن ٣٩٨
- [٤١] يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ ٣٩٩
- [٤٢] وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ٤٠٠
- [٤٣] وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ ٤٠١
- [٤٤ - ٤٨] قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا ٤٠٢
- [٤٩] ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ٤٠٤
- [٥٠] وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٤٠٥
- [٥١] قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن ٤٠٦
- [٥٢] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ٤٠٦
- [٥٣] وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ٤٠٧
- [٥٤] وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا ٤٠٨
- [٥٥] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ٤٠٩
- [٥٦] وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا ٤١٠
- [٥٧] وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٤١٠
- [٥٨] وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٤١٥

- [٥٩] وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٤١٦
- [٦٠ - ٦٢] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَرَّوُدُ عَنْهُ أَبَاهُ ٤١٦
- [٦٣ و ٦٤] فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلُ ٤١٧
- [٦٥ و ٦٦] وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ ٤١٨
- [٦٧] قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي ٤١٩
- [٦٨] وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ ٤٢٠
- [٦٩] وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا ٤٢١
- [٧٠] فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٤٢٣
- [٧١ - ٧٥] قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَقَدْنَا صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ ٤٢٤
- [٧٦] فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا ٤٢٥
- [٧٧] قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا ٤٢٦
- [٧٨] قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ ٤٢٨
- [٧٩ - ٨١] قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ * فَلَمَّا ٤٢٨
- [٨٢] وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٣٠
- [٨٣ و ٨٤] قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ ٤٣١
- [٨٥ و ٨٦] قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٤٣٢
- [٨٧] يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَبَاسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا ٤٣٣
- [٨٨] فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الصُّرُورَ وَجُنَّتْ بِبِضَاعِنَا ٤٣٥
- [٨٩] قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ٤٣٦
- [٩٠ و ٩١] قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن ٤٣٦
- [٩٢] قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٤٣٧
- [٩٣] اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ ٤٣٨
- [٩٤] وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفْقَدُون ٤٣٩
- [٩٥ و ٩٦] قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ٤٣٩
- [٩٧ و ٩٨] قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ٤٤١
- [٩٩] فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ٤٤٢
- [١٠٠] وَرَفَعَ أَبَوَاهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ٤٤٣

- [١٠١] رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ ٤٤٦
- [١٠٢ و ١٠٣] ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ ٤٤٨
- [١٠٤ - ١٠٦] وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا دُكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٤٤٩
- [١٠٧] أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ إِنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا ٤٥١
- [١٠٨] فَلِ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا ٤٥١
- [١٠٩ و ١١٠] وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٤٦٥
- [١١١] لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ ٤٥٤

في تفسير سورة الرعد ٤٥٧

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ٤٥٧
- [٢] اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ ٤٦٨
- [٣] وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ ٤٥٩
- [٤] وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاطٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ ٤٦١
- [٥] وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنْآ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ٤٦٢
- [٦] وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ ٤٦٣
- [٧] وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ ٤٦٣
- [٨ و ٩] اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ ٤٦٤
- [١٠] سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ ٤٦٦
- [١١] لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا ٤٦٦
- [١٢] هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ٤٦٨
- [١٣] وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا ٤٦٩
- [١٤ و ١٥] لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسٌ ٤٧٢
- [١٦] قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا ٤٧٤
- [١٧] أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا ٤٧٦
- [١٨] لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٤٧٧
- [١٩ و ٢٠] أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٤٧٨
- [٢١ - ٢٤] وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٤٧٩
- [٢٥] وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ٤٨٢

[٢٦ و ٢٧] اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ٤٨٣

[٢٨] الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ٤٨٤

[٢٩] الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا ب ٤٨٤

[٣٠] كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَشْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا ٤٨٥

[٣١ و ٣٢] وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ ٤٨٦

[٣٣] أَفَمَن هُوَ قَانِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ ٤٨٨

[٣٤] لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن ٤٨٩

[٣٥] مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ٤٩٠

[٣٦] وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُكَيِّرُ ٤٩٠

[٣٧] وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ٤٩١

[٣٨ و ٣٩] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن ٤٩٢

[٤٠ و ٤١] وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا ٤٩٥

[٤٢] وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ٤٩٦

[٤٣] وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُل كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَن ٤٩٧

في تفسير سورة إبراهيم ٤٩٩

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الرِّكَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ٤٩٩

[٢ و ٣] اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ ٥٠٠

[٤] وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي ٥٠٠

[٥] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَن أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ٥٠١

[٦] وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ ٥٠٢

[٧ و ٨] وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ ٥٠٢

[٩ - ١٢] أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ٥٠٣

[١٣ و ١٤] وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي ٥٠٦

[١٥ - ١٧] وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ ٥٠٧

[١٨] مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ٥٠٨

[١٩ و ٢٠] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ ٥٠٨

[٢١] وَيَرْزُقُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ ٥٠٩

- [٢٢] وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا فُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ ٥١٠
- [٢٣] وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ٥١١
- [٢٤ و ٢٥] أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا ٥١١
- [٢٦] وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ ٥١٣
- [٢٧] يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٥١٣
- [٢٨ و ٢٩] أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ ٥١٤
- [٣٠] وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ٥١٦
- [٣١] قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ٥١٩
- [٣٢ - ٣٤] اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٥١٧
- [٣٥] وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٥١٨
- [٣٦] رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ ٥١٩
- [٣٧] رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا ٥٢٠
- [٣٨] رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ ٥٢٣
- [٣٩] الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ ٥٢٣
- [٤٠ و ٤١] رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ٥٢٤
- [٤٢ و ٤٣] وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٥٢٥
- [٤٤ و ٤٥] وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ ٥٢٥
- [٤٦] وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٥٢٦
- [٤٧] فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٥٢٧
- [٤٨] يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٥٢٧
- [٤٩ - ٥٢] وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ ٥٢٩

في تفسير سورة الحجر ٥٣١

- [١ - ٢] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ * رَبُّمَا يَوْمُ الَّذِينَ ٥٣١
- [٣] ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٥٣٢
- [٤ - ٥] وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا ٥٣٢
- [٦ - ٧] وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ٥٣٣
- [٨ - ٩] مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا ٥٣٣

- [١٠ - ١٣] وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ ٥٣٤
- [١٤ و ١٥] وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَطَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ ٥٣٥
- [١٦ - ١٨] وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَخَفِضْنَاهَا مِنْ كُلِّ ٥٣٥
- [١٩ - ٢٢] الْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ٥٣٦
- [٢٣ و ٢٤] وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ٥٣٩
- [٢٥] وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشَرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٥٣٩
- [٢٦ و ٢٧] وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ ٥٤٠
- [٢٨ و ٢٩] وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَاذْأَبَا ٥٤١
- [٣٠ - ٣٨] فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٥٤١
- [٣٩ - ٤١] قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٥٤٤
- [٤٢] إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ٥٤٤
- [٤٣ و ٤٤] وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ ٥٤٥
- [٤٥ - ٤٨] إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي ٥٤٦
- [٤٩ و ٥٠] نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ ٥٤٧
- [٥١ - ٥٥] وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ ٥٤٧
- [٥٦ - ٦٠] قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٥٤٨
- [٦١ - ٦٥] فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِنَّاتِكَ بِمَا ٥٤٩
- [٦٦ - ٧١] وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ ٥٥٠
- [٧٢ - ٧٥] لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا ٥٥١
- [٧٦ - ٧٩] وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ ٥٥٢
- [٨٠ - ٨٤] وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا ٥٥٣
- [٨٥ و ٨٦] وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ٥٥٤
- [٨٧] وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٥٥٤
- [٨٨ - ٩١] لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ ٥٥٦
- [٩٢ - ٩٦] فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ٥٥٧
- [٩٧ - ٩٩] وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنْ ٥٦٠

في تفسير سورة النحل ٥٦١

- [١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٦١
- [٢] يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا ٥٦٢
- [٣ و ٤] خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ ٥٦٣
- [٥ - ٧] وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ٥٦٤
- [٨] وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٥٦٤
- [٩] وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٥٦٥
- [١٠ و ١١] هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ٥٦٦
- [١٢] وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ٥٦٧
- [١٣] وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ٥٦٨
- [١٤] وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ٥٦٨
- [١٥ و ١٦] وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٦٩
- [١٧ - ٢١] أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ * وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ٥٦٩
- [٢٢ و ٢٣] إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٥٧١
- [٢٤ و ٢٥] وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ٥٧٢
- [٢٦] قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ ٥٧٣
- [٢٧] ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ آيُنْ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ ٥٧٤
- [٢٨ و ٢٩] الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ ٥٧٤
- [٣٠] وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ٥٧٥
- [٣١ و ٣٢] جَاءَتْ عَذَابٌ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ ٥٧٦
- [٣٣ و ٣٤] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ ٥٧٧
- [٣٥] وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ٥٧٧
- [٣٦] وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ ٥٧٨
- [٣٧ - ٤٠] إِنْ تَخَرَضَ عَلَى هَدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ٥٧٨
- [٤١] وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ ٥٨٠
- [٤٢ - ٤٤] الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي ٥٨١
- [٤٥ - ٤٧] أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمْ ٥٨٣
- [٤٨] أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُ ظُلُومُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ٥٨٤

- [٤٩ و ٥٠] وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا ٥٨٥
- [٥١] وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيتَايَ فَارْهَبُونِ ٥٨٦
- [٥٢ - ٥٥] وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا ٥٨٦
- [٥٦ و ٥٧] وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ٥٨٧
- [٥٨ و ٥٩] وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ٥٨٨
- [٦٠] لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ ٥٨٩
- [٦١] وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ ٥٨٩
- [٦٢ و ٦٣] وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ ٥٩٠
- [٦٤ و ٦٥] وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلْبَيِّنِ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ٥٩٠
- [٦٦] وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِنًا ٥٩١
- [٦٧] وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ ٥٩١
- [٦٨ و ٦٩] وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا ٥٩٢
- [٧٠] وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ ٥٩٥
- [٧١] وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ ٥٩٥
- [٧٢] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً ٥٩٦
- [٧٣ و ٧٤] وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ٥٩٧
- [٧٥ و ٧٦] ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ٥٩٨
- [٧٧] وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ٥٩٩
- [٧٨] وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ ٥٩٩
- [٧٩] أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُنْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ٦٠٠
- [٨٠] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ٦٠٠
- [٨١ - ٨٣] وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ ٦٠٠
- [٨٤ - ٨٧] وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٦٠٢
- [٨٨] الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا ٦٠٣
- [٨٩] وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ ٦٠٤
- [٩٠] إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ ٦٠٦
- [٩١] وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمْ ٦٠٨

- [٩٢] وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَصَتْ غَزْلُهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا ٦٠٩
- [٩٣] وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ٦١٠
- [٩٤ و ٩٥] وَلَا تَتَخَذُوا آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا ٦١١
- [٩٦ و ٩٧] مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا ٦١٢
- [٩٨] فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٦١٣
- [٩٩ و ١٠٠] إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ ٦١٣
- [١٠١] إِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ٦١٤
- [١٠٢ - ١٠٤] قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى ٦١٤
- [١٠٥ و ١٠٦] إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ٦١٥
- [١٠٧ - ١٠٩] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ ٦١٧
- [١١٠ و ١١١] ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ ٦١٨
- [١١٢] وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ٦١٩
- [١١٣] وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ٦٢٠
- [١١٤] فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ ٦٢١
- [١١٥] إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ ٦٢١
- [١١٦ و ١١٧] وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا ٦٢١
- [١١٨] وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَزْمًا مِمَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ٦٢٢
- [١١٩] ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ ٦٢٣
- [١٢٠ و ١٢١] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِنِعْمِهِ ٦٢٣
- [١٢٢ و ١٢٣] وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ٦٢٤
- [١٢٤] إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٦٢٥
- [١٢٥] اذْغُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ ٦٢٦
- [١٢٦ و ١٢٧] وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ٦٢٨
- [١٢٨] إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ٦٥٩

الفهرس ٦٣١